سَعْدُون حَمَادَة

تاريخ الشيعة في لبنان

المُجلّد الأوّل

الحُكمُ الشِّيعيّ في لبنان





الحُكمُ الشِّيعي في لبنان

تاريخ الشيعة في لبنان

الحكم الشيعي في لبنان

سعدون حمادة





للطباعة والنشر والتوزيع
بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3 ـ شارع الكويت
المنارة ـ بيروت ـ 2036 6308
لبنان ـ تلفاكس : 009611-740110
E-mail: alkhayal@inco.com.lb

الاخراج والتنفيذ دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى 2008
تصميم الغلاف: مهدي شمص
طباعة: دار شمص للطباعة والنشر، هاتف: 450280 -1-00961
تجليد فني: مؤسسة أنطوان جلخ وإخوانه للتجليد، هاتف: 688430 -1-00961

سَعْدُون حَمَادة

تاريخ الشيعة في لبنان

المُجلّد الأوّل

الحُكْم الشّيعي في لبنان

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدّمـــة

إنّ التاريخ هو علمٌ غايته البحث والتحرّي عن أخبار السلف لإدراكها وإحيائها. ولمّا كانت الحياة الإنسانية في سيرها المتواصل تشكّل وحدةً متكاملة، صار من العسير تعيين حدود فاصلة دقيقة وواضحة بين كلٍّ من الماضي والحاضر والمستقبل؛ فالحاضر ليس أكثر من الصورة الأخيرة للماضي كما أنّ المستقبل هو إحدى صوره التي لم تقع أمام أنظارنا بعد. فالتفاعل والتكامل بينها طبيعيّان وحتميّان لا يمكن تجنّبهما. وهما مستمرّان لا يتوقّفان أبداً.

إنّ موضوع التاريخ قد يكون شخصاً واحداً أو مجموعة من الناس أو شعباً بكامله. ولا بدّ أن يكون التأريخ لأيٍّ من هذه الموضوعات جزءاً من تاريخ عامّ لا يمكن فصله أو النظر إليه إلا من خلال منظار شامل متعدّد الدوائر، يتداخل فيه الأشخاص والمجموعات والشعوب في مسيرتها بكلّ أوجه نشاطاتها وتحرّكاتها، وتتفاعل مع مجموع العادات والتقاليد والمعتقدات والتجارب والأمزجة والثقافات بمفاهيمها المجرّدة الواسعة وأنماط سلوكها وأساليبها التي تتحكّم في مسار أوسع هذه الحلقات وأكثرها ضيقاً في التعاطي والتطوّر والتصرّف مع مختلف أوجه النشاط الإنسانيّ الفاعل والحيّ والمستمرّ بحيث يتحتّم، في النهاية، عند التعرّض لتاريخ شخصٍ ما، تأريخ العصر الذي عاش فيه هذا الشخص بشكلٍ كامل.

لم يعد التاريخ سرداً متتابعاً لسلسلة من الحروب والمعارك والحكومات والكوارث والأحداث التي شهدها العالم في زمنٍ معلوم، بل أصبح علماً له قواعده يشمل أوجه النشاط البشريّ كافّةً يبحث عن أسبابها ومسبّباتها وتطوّراتها وتشعّباتها، إقتصاديّةً

كانت أم اجتماعية أم ثقافية أم فنيّة أم خلقية، أدبية أو دينية، بجميع مظاهرها الواضحةً والملتبسة في آن. كما يقتضي اعتبارها المسبّب الفعليّ للحوادث التاريخية الصاخبة والبارزة التي استأثرت باهتمام المؤرّخين لمدّة طويلة سابقة، قبل أن يصبح التاريخ علماً كغيره من العلوم وفنّاً ليست غايته إبراز حدث من أحداث الماضي فحسب، بل دراسة هذا الحدث وردّه إلى أصوله ومسبّباته، والإحاطة بكلّ ظروفه، ونقده وتحليله وتشريحه وإخضاعه إلى المنطق والعقل واستقراء دلائله ومعانيه وإدخاله في سياق البحث التاريخيّ السابق والمعاصر واللاحق له، بهدف وضعه في مكانه الصحيح وإبراز دوره في مجريات الأمور. وتبقى الغاية دائماً من ذلك كلّه معرفة الحقيقة كما حصلت بشكلٍ منصف ومجرّد ومستقلّ تماماً عن الرأي الشخصيّ والانفعالات العاطفية سواء من المؤرّخ الذي يعرض لهذه الواقعة أم من المؤرّخين السابقين الذين يرجع إليهم.

وهذا ما يتطلّب منه إعمال المنطق والفكر وربّما الحدس أحياناً عندما تعجز الملكات الأخرى عن إقناعه وإثارة اطمئنانه إلى كلّ ما يستعصي أو يتمرّد على الإدراك الجازم والحاسم في كلّ ما يرى أمام ناظريه من التواريخ اللبنانية المبالغة، والتي يكون معظمها أقرب إلى الشعر والوعظ والخطابة وربّما الصراخ أحياناً لفرض رأي أو معتقد أو قناعة في عرض وإبراز أحداث تاريخية محددة ومعلومة أثبتتها أمّهات المراجع واستعملت هي نفسها أحياناً لتأكيد الرأي ونقيضه وتمجيد القناعة أو نسفها عن طريق التلاعب الساذج أو الخبيث بطريقة المعالجة والعرض والتفصيل...

لا شكّ أنّ بعض المؤرّخين ـ ومعظمهم من رجال الدين ـ قد سخّروا مواهبهم ومواقعهم لأداء خدمات جليلة للتاريخ اللبنانيّ بحثاً وتنقيباً وكشفاً لِما لا يُحدّ من مجهولات الفترة العثمانية وملابساتها. إلا أنّ البعض الآخر توهّم أنّ التاريخ هو منبرٌ عامٌ يسخّره عندما يشاء لتمجيد من يرغب وتسفيه من يريد بإطلاق شحنات من المشاعر الشخصية المتأجّجة دون أيّ اعتبارٍ للأمانة والحقيقة، والتلاعب في إبراز وقائع وأحداث وتصنيفات، وإلقاء الأحكام جزافاً حسب ما تشير به نوازع الهوى ورياح الغرض. فكادوا يوهنون هذا التاريخ بثغرات فادحة لا بدّ من جهود حثيثة ومضنية لسدّها وإزالة آثارها. وقد كان لتاريخ الشيعة النصيب الأوفر منها سواء في البقاع، أم في جبل عامل، وعلى الأخصّ في جبل لبنان.

إن تاريخ لبنان هو تاريخ وطن وشعب عاش ولا يزال في بقعة معلومة من الأرض تتكون من جبال وسهول وسواحل ومراكز سكنية وحضارية متعددة، وينتمي إلى طوائف متنوعة ومتداخلة تشكل في مجموعها موضوع هذا التاريخ ومادته. فليس من الجائز أن يبقى محصوراً بالجبل دون غيره من المناطق وينحصر في تاريخ الأسرتين المعنية والشهابية وتاريخ الموارنة والدروز دون سائر اللبنانيين[1].

يقول مؤرخ لبناني معاصر:

«إن المؤرخين الموارنة وخصوصاً من رجال الإكليروس يعتبرون «الآباء» الشرعيين لتاريخ لبنان، وكان يتوجب عليهم أن يحافظوا على سلامة هذا التاريخ واصالته ويرفضوا الكثير من الأساطير والأوهام والخرافات وأعمال التزوير والتحريف التي لحقت به، ولكن نلمس مع الأسف أن البعض منهم أصر على أنها من ثوابت تاريخ لبنان وأن لا مجال للشك بصحتها».

وقال ايضاً حول أدبيات المؤرخ:

«لا يجوز للمؤرخ أن يخرج عن أصول الأدبيات العامة التي تقوم على احترام كرامة الآخرين والابتعاد عن التجني عليهم والتشهير بهم، فالتحقير والشتائم ليست من العمل التاريخي وهي تفقد قائلها صدقيته. وتجرده من وقار المؤرخ، وتعبر عن ضعف الحجة لديه وعن عواطف مشحونة يترفع عنها رجال الفكر وأهل العلم»[2].

وقد تعرض الشيعة في تاريخهم إلى الكثير من التجني الذي تجاوز هذه القواعد. لذلك لا يمكن تناول تاريخ الشيعة في لبنان إلا بوصفه وجهاً آخر لتاريخ لبنان الوطنيّ العام وليس جزءاً من هذا التاريخ أو فصلاً هامّاً وأساسيّاً منه، تتحرّك فيه مختلف الجماعات والمناطق بدون أن تحجب إحداها الأخرى أو تتوارى خلفها. إنّ ظروف لبنان التاريخية والجغرافية والاجتماعية ميّزته عن سواه من البلدان المجاورة والقريبة التي تتشارك معه في الكثير من الخصائص والعوامل والصفات، إلا أنّها تختلف عنه في تركيبته الطائفية المعقّدة والعلاقات الداخلية التي تحكم هذه

(1) لم يتجاوز عدد أفراد الطائفة الدرزية بالإضافة إلى جميع الطوائف المسيحية أكثر من 30 % من سكان لبنان في مستهل العهد العثماني. راجع الأرقام في فصل قادم.

(2) انقلاب على الماضي، عادل اسماعيل، ص 17 و 24.

الطوائف من جهة وعلاقة كلٍّ منها بالسلطة الحاكمة من جهة أخرى.

نستطيع بسهولة ويسر أن نعرض لتاريخ شخصية قبطية مصرية أو أن نؤرّخ لدور الأقباط عموماً في تاريخ مصر. إلا أنّ كتابة تاريخ هذه الجماعة في مصر لا يخلو من تكلّف وتجاوز يمكن أن يثير الكثير من التأمّل والنقاش. وهذا ينطبق أيضاً على تاريخ الشيعة في العراق والعلويين في سوريا مع أنّ أفراداً وأسراً من الطائفتين كانوا أحياناً يقومون بدورٍ قياديٍّ في فترات مختلفة من تاريخ البلدين.

إنّ معظم ما كُتب عن تاريخ لبنان حتى اليوم لا يعدو في الواقع كونه تاريخ طائفة من طوائفه. حتى في الأحوال النادرة عندما لا يحمل هذا التاريخ إسم الموارنة أو الدروز، وهذا أمرٌ نادرٌ على كلّ حال.

يقول باحث غربي حول تغييب الدور الشيعي المحوري في تاريخ لبنان: «**إن التجربة الشيعية في العصر العثماني حذفت من الرواية اللبنانية الوطنية، وأقصى المسيحيون المعاصرون المختصون بكتابة عرض الأحداث وسيرة القديسين، اللبنانيين الآخرين عن باقي مكونات لبنان التاريخي. وأصبح النظام اللبناني الكلاسيكي المستقبلي هو نتاج مخيلة المنظرين المسيحيين. فلم تكن الإمارة على القبائل الدرزية يوماً هي المؤسسة الوحيدة للحكم الذاتي في لبنان.**

إن تاريخ أمراء الدولة العثمانية الشيعة هو البديل للروايات الشائعة، عن الملجأ الدرزي الماروني الجبلي، الذي أصبح فيما بعد لبنان، وهو يتحدى المرويات اللبنانية في جوانب مختلفة.

إن أمراء آل حمادة في جبل لبنان وأمراء آل حرفوش في بعلبك وأسياد الشيعة في جبل عامل الأقل أهمية، كانوا إما حلفاء أقوياء أو منافسين للامتداد الإقليمي والنفوذ السياسي لأمراء الدروز في الشوف.

منذ القرن السابع عشر أوجد الدويهي رواية تاريخية حول صورة الأمير كحاكم حقيقي فريد على الجبل. وقد نقلت الكتب المدرسية الحديثة، الفعالية التاريخية لهذا النظام، حيث هناك قائد درزي أعلى على رأس السلطة، وحاكم على لبنان موحد سياسياً، وهمش كل التيارات الأخرى، زاعماً أنها دولة لبنان الدرزية

المارونية العالمية. إن أمير العرب المنصب القديم الذي كانت الدولة المركزية تسنده إلى رؤساء القبائل في الصحراء السورية لم يتمازج أبداً بما يعرف بأسطورة سوريا الحديثة كما حصل في لبنان»[1].

إنّ الاهتمام بتاريخ الشيعة في لبنان وخصوصاً في الحقبة العثمانية لازَمَنا منذ عهد الدراسة ولا يزال، ليس لأنّ هذا التاريخ ـ حسب علمنا ـ لم يُكتب بعد على أنّه موضوعٌ رئيسٌ ومحوريّ فحسب، بل ليقيننا أنّ دور هذه الطائفة التاريخيّ في السياق العام للتاريخ اللبنانيّ لم يُعطَ الفرصة بعد حتى اليوم في إدراكه ودراسته وإبرازه بشكل موضوعيٍّ ومنصف. بل تعرّض لما لا يُحدّ من تجنٍّ وتجاهل وإهمال وغبن بدون قصد أحياناً وبتخطيطٍ مغرضٍ وربّما خبيثٍ أحياناً أخرى.

إنّ هذا الاهتمام القديم هو ما دفعنا في العام 1968م. إلى التقدّم من كلّية الآداب في باريس لتسجيل بحثٍ جامعيّ تحت عنوان «تاريخ الشيعة في لبنان في العهد العثمانيّ». وقد يسّرت حينها إقامتنا في باريس وخبرات الأستاذ المشرف المستشرق المعروف «كلود كاهين» بحثنا في هذا الموضوع الشائك على أمل أن تسنح الأيام الآتية بالتعمّق فيه والمساهمة في دفعه إلى دائرة الضوء والاهتمام والتصنيف.

لقد قمت وعلى امتداد هذه السنين بأكثر من محاولة لتحقيق أمنيتي القديمة وكتابة تاريخ الشيعة في لبنان. إلا أنّ قناعتي بصعوبة هذا الأمر كانت تترسّخ أكثر كلّما عرضت له وتوغّلت في شعابه؛ فأحجم بعد إقدام، أمَلاً أن يقدم أحدهم حيث أحجمت ويكفيني مؤونة الجهد والجد حتى مرّت السنوات وتقدّم العمر وعزّت المهل.

إنّ أهمّ الصعوبات التي لا بدّ أن تعترض كلّ من يتعمّق في بحث هذا الموضوع تعود إلى الأمور الآتية:

1 ـ ندرة المراجع

لم يتّخذ أيّ مؤرّخ حتى الآن تاريخ الشيعة في لبنان موضوعاً مستقلاً بذاته وشاملاً سائر المجموعات الشيعية التي عاشت فيه. ولم يصل إلى متناولنا مرجع قديم أو حديث

(1) أطروحة دكتوراه باللغة الإنكليزية ستيفن وينتر Stefan Winter، جامعة شيكاغو.
The Shiite Emirates of Ottoman Syria.

يبحث تخصيصاً في هذا الأمر، ممّا يفرض على الباحث الرجوع إلى عددٍ غير محصورٍ من أمّهات المراجع لاصطياد بعض المعلومات المتناثرة والأفكار العرضية التي عادةً ما يوردها واضعها بدون تعمّد أو تركيز، والعمل على استخلاص مدلولاتها ومحاولة ردّها إلى واقعة تاريخية معلومة وربطها بسياق متواصل ومحدّد.

إنّ المراجع التي وضعت في جبل لبنان تحديداً وغالباً كان واضعوها رجال دين موارنة دفعهم الحماس والرغبة في إبراز دور طائفتهم إلى الإشادة بها بدون إعارة اهتمام يُذكر لدور الطوائف الباقية، إلا من حيث ارتباطه بالغاية المنشودة. وهي مراجع قليلة ومحددة تفرض على الباحث فيها الحذر الشديد واليقظة المتواصلة عند استخلاص بعض وقائعها ومدلولاتها من براثن الغرض وشطط الهوى. ولا يخفى صعوبة هذا الفرز ومحاذيره.

أمّا ما وصل إلينا من مصنّفات جبل عامل، وهي الوحيدة التي كتبها مؤلّفون من الشيعة، فهي أشبه بالملاحم الشعبية منها بالتاريخ. يطغى في أغلبها صليل السيوف وصهيل الخيول على السياق التاريخيّ والسرد المنطقيّ المتماسك. وقلّما تجاوزت اهتماماتها حدود جبل عامل الضيّقة.

2 ـ الخوف من النفس

إنّ تاريخ لبنان كما هو معتمد ومتداول حالياً هو أقرب إلى الأسطورة التي تنسجها المخيلات المستترة على هواها ومزاجها؛ فإنّ واضعيه المعلومين والمجهولين تخيّلوا تاريخاً ينسجم مع ما يفضّلون ويرغبون، وافترضوا أو أملوا لو أنّ تاريخ لبنان جرى كما يطمحون؛ فلم يلتفتوا إلى ما حصل فعلاً وإلى ما حدث واقعاً، بل وضعوا تاريخاً افتراضياً ينسجم مع تطلّعاتهم وتمنّياتهم أكثر ممّا يتطابق مع الحقيقة والواقع. ولمّا كان على من ينفذ خلال هذا البناء الوهمي، أن يعبر بعضاً من ردهاته ويستخدم بعض مداميكه ويستظلّ بجدرانه وسقفه بما لا يتعارض مع قواعد التجرّد والنزاهة والرأي التي ألزم نفسه بها معتمداً على قواعد البحث وأصول التحرّي ومقاييس الموضوعية والتجرّد، خفت أن أقع في بعض ما وقعوا فيه وأن يكون للرأي الذي أراه تأثيرٌ يقلّ أو يكثر على بعض الوقائع التاريخية المتداخلة، ولا سيّما في استنتاج مدلولاتها وتفسير مظاهرها دون أن أنسى أنّ الإنسان بسليقته وجموح غرائزه قد ينزلق دون قصد بحكم

موقعه وعواطفه حمية لعشيرته او طائفته إلى ما لا يرتضيه الالتزام الكامل بالدقة والتجرد رغم كل ما قد يستحضره من يقظة وحرص.

أخيراً، عزمت على المضيّ في هذا الأمر رغم كلّ شيء متهيّباً من عثراته، تاركاً لغيري أن يسدّ ما قد يغيب عني ويقوّم ما قد أتعثّر فيه ويكمل ما قد أعجز عن بلوغه، متمنّياً ما تمنّاه المؤرّخ الكبير (Lépold Von Ranke) ليوبولد فون رانكه على من يكتب التاريخ: «**أن تندثر رغباته كلها وتختفي نفسه ذاتها ليكون مرآة صافية تعكس ما وقع في الماضي دون أن يكون له أي تأثير فيها**».

إنّ سيرة «عنترة»، المعروفة في التراث الشعبيّ العربيّ هي أكثر انتشاراً وذيوعاً وشهرةً من تاريخ الشاعر الفارس كما ورد في كتب الأدب ودواوين الشعر. إذ تحوّل هذا الفارس الإنسان، بفضل المتحمّسين له المعجبين بشعره وبفروسيّته والمتعصّبين لقضيّته، إلى بطلٍ أسطوريٍّ خارق يقوم بالمعجزات المستحيلة وينتصر دائماً على أعدائه الأشرار من الإنس والجن والمخلوقات الوهمية الأخرى في معارك ملحمية، متحدّياً بنجاح كاسح كلّ القوى الطبيعية والبشرية والخرافية التي زرعها الخيال الجامح المتعاطف معه إلى حدّ الهوس في طريقه المظفّرة، واضعين على لسانه الأهازيج الحماسية المتناغمة عوض نظمه المتين الرائع الذي طالما أعجب أجيالاً من النقّاد والمنشدين المردّدين لشعره.

قد يكون هناك بعض أوجه الشبه بين ما ذكرناه عن تاريخ عنترة وسيرته وما نراه، وبين تاريخ لبنان المفترض والموضوع، وتاريخه الحقيقيّ كما حصل فعلاً. وبما أنّ التاريخ هو علم التحرّي والبحث وإدراك النشاط البشريّ والوقائع وما حدث في عصرٍ معلوم مضى، وإبراز ذلك بمعزل عن كلّ غاية شخصية أو وجود ذاتي بدون نقصٍ أو مبالغة أو اجتزاء أو زيادة أو توهّم أو تصوّر أو تمنٍّ، أكان ذلك عن قصد أو جهل سهواً أو عمداً، فإنّ تاريخ عنترة العبسيّ يختلف عن سيرة عنترة اختلافاً كبيراً مطلقاً وجوهرياً.

إنّ الفيلسوف أو السياسيّ أو رجل الدين أو الداعية إلى معتقد أو رأي أو مذهب قد يعمد أحياناً إلى تدعيم ما يذهب إليه بالرجوع إلى أحداث التاريخ وتطوّراته، ليستعين بما يرى أنّه يخدم غايته في إقناع نفسه أو إقناع الآخرين بتفسير الواقعة التاريخية بما يتلاءم مع ما ينادي به ويروّجه ويدعو إليه. أمّا المؤرّخ، فأولى مهامّه أن يبرز الحدث كما

حدث لا كما يريد ويتمنّى أن يحدث بدون تدخّل منه بأيّ أسلوب كان، وبدون استعماله لغاية تتجاوز سرده كفاية أولى وأخيرة.

إنّ تاريخ لبنان كما نكاد نعتمده اليوم دون نجاحٍ كبير، والذي نعود إليه أحياناً لتفسير بعض أوضاعنا الحاضرة ونلقّنه لأجيالنا في المدارس، هو في سياقه العامّ ومضمونه الأساسيّ تاريخٌ مفترض حشرت فيه بعض المفاصل الرئيسة الموضوعة والمزيّفة، فأفقدته مصداقيّته وقدرته على الإقناع. وخرقته بفعل فاعل ثغراتٌ واسعة جعلت منه بناءً هشّاً لا يصمد أمام أيّ محاولة ولو سطحية لاختراقه وزعزعة أركانه.

إنّ أخطر ما يواجهه التاريخ هو تجريده من صفته كعلمٍ قائم بذاته لا هدف له خارج هذه الذات، واستعماله أداةً سياسية أو جدلية لتأكيد نظرية مسبقة تنتمي إلى ميدان آخر من ميادين الفكر والمعرفة المتعدّدة، وقولبة حوادثه وسكبها في سياق مزاجيّ للترويج لها وإثباتها وتأكيد صحّتها. فيجهد المهتمّ في استنباط واقعة يرى أنّها تحقّق غرضه، ليعرضها مضخّماً دورها مبالغاً في مدلولها متجاهلاً ما يناقضها، أو يتلاعب في موضعها وموقعها من الأحداث؛ فيخرج من بين يديه تاريخٌ منقوصٌ مشوّهٌ يدعو إلى فكرة معيّنة. ممّا يستثير مؤيّديها ومعارضيها، فيحاول كلّ فريق الرجوع إلى التاريخ لتأكيد دعواه. ويمعن الطرفان في تشويه الحقائق وترويضها، ويتلاعبان بالتاريخ وبمصداقيّته. وفي جميع الحالات تكون الحقيقة هي التي تدفع الثمن.

إنّ الذين وضعوا التاريخ اللبنانيّ وصاغوه كما رغبوا أن يكون، اضطرّوا لتنفيذ مأربهم إلى استعمال أساليب ملتوية عن جهلٍ حيناً وعن عمد أكثر الأحيان. تبتدئ هذه الأساليب بالمبالغة والاجتزاء وربّما تصل في محطّات مفصلية إلى الوضع والتزوير. إنّها عيوب فاضحة وواضحة مع أنّ تكرارها باستمرار قد يوهم العابر الطارئ أنّها حقائق واقعة دون أن تعجز الخبرة المتوسّطة والعادية عن كشف عورتها وزيفها. وبما أنّ التاريخ هو وحدة متكاملة مترابطة الأجزاء، فلا بدّ من سدّ هذه الفجوات وتصحيحها كي لا يتزعزع البناء في أساسه، ومن إعادة الأمور من نطاق الافتراض والتمنّي إلى حيّز الحقيقة والواقع. وهذا أمرٌ لا بدّ منه لجلاء ما له علاقة بموضوع بحثنا وبتاريخ لبنان الوطنيّ العامّ. منذ الجذور الأولى لبناء هذا الوطن مع بداية الاحتلال العثماني سنة 1516م حتى ظهرت ملامحه الغضة مع نظام

المتصرفية سنة 1861م، وهي الفترة التي ترسخت فيها هذه الجذور حتى نمت وترعرعت.

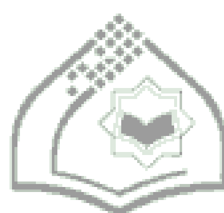
وأخيراً، ليس من صلب اهتمامنا في هذا البحث استعراض تاريخ لبنان العام والإشارة إلى ما فسد منه بفعل الفاعلين أو جهل الجاهلين أو سذاجة الناقلين بدون استحضار الحدس والمنطق. فهذا مركب شاق ووعر وعسير ويتجاوز مهمّتنا في الوقت نفسه. وربّما يتجاوز طاقتنا وقدراتنا. إنّما لا بدّ من أن نشير إلى بعض المفاصل في تاريخنا، التي لا يستقيم ما نريد عرضه بدون إعادتها إلى حجمها الصحيح وموقعها الدقيق ودورها الطبيعيّ والمعقول في مجريات الأمور والأحداث. وأن نلقي بعض الضوء على الأفكار الأساسية والرئيسة والمفصلية، والتي لها علاقة مباشرة وحيوية مع الموضوع الذي نحن بصدده. وإن اقتضى تقسيم البحث زمنياً وجغرافياً التوقف أحياناً عند محطات معينة والتركيز على إعادة النظر في بعض المسلمات المتوارثة وقد نقع مرغمين في تكرار بعض الأفكار والحوادث التي قد تحتمل أكثر من مدلول واحد، وتستدعي نفسها في أكثر من منعطف وغايتنا من كل ذلك هي قول شيء رأينا أنه يستحسن قوله. مع يقين ثابت أن المركب شاق وأن الإقدام خير من عدمه.

إن التاريخ لا يمكن حجبه أو تعديله أو تبديله إلى الأبد، فلا بد أن يسطع نور الحقيقة يوماً فيبدد الزيف والغث ويوقظها من سباتها مهما طال، وقد يأتي صوت الحق عبر القارات والشعوب والحضارات ليقول إن غموض الصورة التاريخية في لبنان يعود إلى «أن المؤرخين المحليين طلبوا من وقائع التاريخ أن تشهد بأن هوية هذه المناطق تعود إلى الدروز والموارنة لا إلى «الطارئين»[1].

(1) أطروحة دكتوراه باللغة الإنكليزية للباحث ستيفن وينتر Stefan Winter.

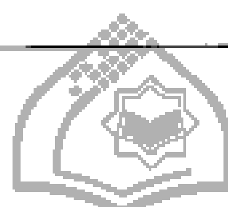
The Shiite Emirates of Otroman Syria

جامعة شيكاغو 2002 ـ تاريخ تنورين، شربل داغر، ص 143هـ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الأول

الشــيعة
في الدولة العثمانية



الفصل الأول: الشيعة والدول الإسلامية الثلاث

الفصل الثاني: الشيعة رعايا الدولة العثمانية

الفصل الثالث: التكامل الشيعي

الفصل الرابع: الشيعة وجبل الدروز


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الأول

الشـــيعة
والدول الإسلامية الثلاث

من النادر أن تقوم دول كبرى في الشرق، إلا على دعوة دينية فتية، تستمد من العقيدة الإلهية شرعيتها وطاقتها، وتتخذ من نشر هذه الدعوة هدفاً ورسالة. وهذا ما حصل في نهايات القرن الرابع عشر في إيران، بعد أن تحولت حركة صوفية محلية إلى مشروع إنشاء دولة طموحة، ما لبث أن أصبح لها شأن بالغ، وأثر خطير في الأحداث التي برزت على المسرح الإيراني خاصة، والإسلامي عامة.

لم يكن الشاه اسماعيل مؤسس هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف عسكرياً فذاً وفاتحاً متميزاً، ورجل دولة بارعاً، إنما كان قبل كل ذلك، صاحب عقيدة راسخة، وحامل رسالة مقدسة، وداعية تغيير وإيمان. فلم تكن السياسة والحرب عنده، تهدفان إلى إخضاع مزيد من البلاد والسكان لسطوته ودولته، إنما أقصى ما كان يسعى إليه هو تحويلهم إلى معتقده واعتناق أفكاره والإيمان بما يؤمن، حتى تنتصر الدعوة الجديدة وتطغى على المعتقدات والمذاهب الأخرى.

لم تكد تنقضي سنوات قليلة على وفاة والده السلطان حيدر الذي لم يكن إلا أكثر قليلاً من شيخ طريقة صوفية في بدايات انطلاقها، حتى اكتسحت جيوشه المظفرة الدويلات المغولية العديدة التي ظهرت بعد الإجتياح المغولي للجناح الشرقي من الدولة العباسية السالفة، فارتفعت رايته ذات الاثني عشر لوناً، إشارة إلى مذهبه الشيعي وأئمته الاثني عشر، ما بين الخليج الفارسي ونهر الفرات حتى الأفغان ونهر جيحون، وهو لم يبلغ العشرين من عمره بعد.

نشأ هذا الداعية الهاشمي[1] في بيئة شيعية صرفة، وجوٍّ صوفي إشراقي، في كنف

---

(1) كان الشاه اسماعيل يقول إنه من أحفاد الإمام السابع موسى الكاظم.

والدٍ وجدٍ، هما أقرب إلى رجال الدين، منهما إلى الملوك والسلاطين، فكان هاجسه الكبير، تحويل رعاياه إلى مذهبه الشيعي. فصرف معظم جهوده في هذا السبيل، حتى إذا أحرز نجاحاً ملحوظاً في تحقيق غايته، وجه اهتمامه إلى المناطق البعيدة من العالم الإسلامي، خارج حدود سلطانه. واجتهد لنشر مذهبه فيها عن طريق مريديه وأتباعه، وعن كل سبيل آخر تيسر له تبشيريا كان أو عسكرياً أو مادياً.

توج اسماعيل «شاها» سنة 1500م، فاستولى على إيران كلها، ثم العراق 1508م، وما وراء النهر 1512 م. فجعل من هذه البلاد الواسعة، دولة الشيعة المركزية بشعاراتها وممارساتها، فأذّن بحي على خير العمل، ونقش على النقود أسماء الأئمة وآل البيت، وجدد المزارات الشيعية المقدسة في العراق وإيران، وبث الدعاة في سائر أقطار العالم الإسلامي، وجند جميع طاقات الدولة في خدمة العقيدة، فكان من الطبيعي أن يلتف الشيعة، حيثما وجدوا، حول هذه الدولة الناشئة، ويتجهوا بعواطفهم وولائهم نحوها، حتى في الأناضول نفسه، وهو قلب الدولة العثمانية وخزانها البشري، وفي صعيد مصر، وهو السياج الخلفي للدولة المملوكية وعاصمتها.

كما يحدث غالباً في السياسات المتبعة في ذلك العصر، تفاقم اضطهاد الدولة العثمانية لرعاياها من الشيعة، نتيجة الصراع بين الدولتين. مما أدى إلى انفجار ثورة شيعية عارمة في آسيا الصغرى نفسها، كادت أن تشكل خطراً جدياً على الدولة العثمانية. هي الثورة التي قامت في السنة الأخيرة من حكم بايزيد الثاني 1510م ـ 1512م بقيادة الشاه قولي، والتي عجز الجيش الذي قاده الصدر الأعظم عن إخمادها. وبعد محاولات شاقة قضي عليها بعد أن سقط قائدها الشاه قولي قتيلاً، وأوقعت الجيوش العثمانية مذبحة رهيبة، سقط ضحيتها أربعون ألفاً من الشيعة العثمانيين في الأناضول[1].

سواء قامت هذه الثورة، بإيعاز من الشاه اسماعيل كما يرى توينبي، أو بتأثير من المد الصفوي، والضغط العثماني كما يرى آخرون. وترجحه الوقائع، فقد أضاع اسماعيل فرصة لا تتكرر بإحجامه عن التدخل المباشر لدعم الثوار. ربما لأنه كان في نفس الوقت منهمكاً بحربه على الجبهة الشرقية.

هرب أحد قادة الثورة «استادجي اوجلو» بعد مقتل قائدها إلى تبريز، وعاد بعد ثلاث سنوات، ليقوم بمحاولة فاشلة لإضرام نارها من جديد. إلا أن المبادرة

(1) تاريخ الشعوب الاسلامية، بروكلمان 446.

بالهجوم، انتقلت إلى السلطان سليم الذي خلف أباه بايزيد، فأمعن بالشيعة قتلاً وذبحاً ومطاردة في جميع أنحاء مملكته، حتى حقق انتصاره التاريخي على الشاه اسماعيل في معركة جالديران 1517 م، مما فتح له الطريق إلى تبريز عاصمة عدوه.

ورغم كل ما حل بهم، قام الشيعة بتمرد دموي جديد بقيادة جلال، أحد أتباع اسماعيل، على رأس عشرة آلاف من مؤيديه، وانتهت كسابقتها، بمذبحة سقط فيها جلال، بعد أن ترك اسمه «جلالي» علماً على كل العصاة من الشيعة منذ ذلك التاريخ. ولكن هذه الهزائم العسكرية المتكررة، لم تحل دون انتشار أفكار اسماعيل ومعتقداته الدينية في مختلف أنحاء الامبراطورية ولم يسلم منها حتى مماليك السلطان سليم أنفسهم، فأعلن أحدهم سنة 930 هـ أحمد باشا نفسه سلطاناً مستقلاً، ولكنه انتهى مشنوقاً على باب زويلة في القاهرة، لأنه «**كان داعية لاسماعيل الصوفي وعزم على تقديم الإثني عشر إماماً على اعتقاد الرافضة**[1]».

لم يكن العداء العلوي العثماني من أولويات السلطنة في مرحلة تأسيسها فقد تولى علويون كثيرون مناصب عالية في إدارتها وكان لرجال الدين العلويين وأفكارهم دور مهم في الحياة العامة. وكان التركمان بشكل عام يؤلفون عنصراً ناشطاً في بنيتها ونسيجها، ولكن التحول نحو السنية الأصولية بدأ في عهد السلطان بايزيد الأول (بيلديريم) (1389م- 1402م) وأصبحت الدولة سنية مغالية في عهد فاتح القسطنطينية محمد الفاتح، فانقسم العنصر التركي وهو عماد الدولة الأساسي إلى قسمين، السنية العثمانية تحت راية السلطان والتركمانية العلوية الموالية للدولة الصفوية وهي تركمانية الشاه واللغة والمحاربين بالإضافة إلى وحدة المذهب والإيديولوجية ،وهذا ما جعل الخلاف بين الدولتين أكثر عمقاً وتجذراً ويشمل العرق والمعتقد بالإضافة إلى التنافس على تزعم العالم الإسلامي برمته خصوصاً بعد أن زالت

---

(1) الكواكب السائرة، الغزي ج1 ص 159.استمرت الثورات الشيعية على السلطنة فترة طويلة لازمت الصراع العثماني الصفوي وأهم هذه الحركات بعد جلال.

شاه ولي 1519م تلميذ جلال.

سوكلون قوجا 1525م

وبابازينون ـ أتماجا 1525م

ـ ابن زينون 1527م

ـ دوموز أوغلاف وينيجه بك 1526م

ـ ولي خليفة 1526 ـ سيدي بك 1529م

ـ كالندر شلبي 1528 ـ شاه كلدي 1580م

ـ حيدر بير سلطان عبدال 1577م و 1590م وهو عربي هاشمي.

دولة المماليك من مسرح الأحداث .

كان عدد العلويين في الأناضول يبلغ ستين بالمئة من السكان المسلمين فقاموا بانتفاضتهم الأولى قبل ظهور الصفويين سنة 1420م ولم يُعرفوا بالقزلباش إلا بعد ظهور كتائب الشيخ حيدر الصفوي والد اسماعيل وهي ترتدي القبعات الحمراء ذات الإشارات الإثني عشر دلالة على أئمة الشيعة [1]. فكان من الطبيعي أن يوالوا الحركة الناشئة وتثير لديهم حماساً بالغاً دفع أحدهم إلى القيام بمحاولة فاشلة لاغتيال السلطان بايزيد سنة 1492م، دفع العلويون ثمنها غالياً قتلاً وتشريداً وزيادة في الكره والنفور ووصية لخلفه سليم بأن يأخذ ثأر الإسلام من القزلباش الكافرين.

بدا واضحاً أن السلطان سليم حفظ الوصية جيداً فكان عهده الأكثر دموية في تاريخ العلويين وحوّل عنان جواده من الغرب حيث كان من عادة أسلافه أن يقودوا جنودهم نحوه واتجه إلى الشرق فقضى على دولة المماليك وأوقع بدولة الصفويين هزيمة قاسية وأثخن بالعلويين، حيث واصلت جيوشه، قتلاً وفتكاً وتدميراً.

مع ظهور الصفويين توالت الثورات العلوية طيلة القرن السادس عشر. كان أولها ثورة شاه كولو أو قولي سنة 1510م حتى أصبحت من تقاليد السياسة العثمانية وكان يعقب كل منها مذابح وحملات لم تتوقف حتى نهاية القرن.

إن كل ما رافق هذه الثورات وحملات قمعها من تقاليد وأعراف وما خلفته من تراث في السياسة العثمانية ونظمها العسكرية، نقله العثمانيون فيما بعد إلى لبنان ومارسوه مع الشيعة اللبنانيين فأطلقوا عليهم اسم القزلباش طيلة قرون، ورغم أنهم ربما لم يسمعوا به قبل ذلك أو يعرفوا معناه، ورغم اختلافهم عن علويي الأناضول في العرق والمذهب والتاريخ والأهداف وفي الكثير من الأمور الأخرى.

ولكنهم لم يشعروا بفرق كبير بين الدولة المنهزمة والحكم الجديد، فإن السلطان سليم أحيا فتاوى الشيخ نوح القديمة، وقتل كل شيعي طالته يده في الساحل السوري وجبال اللاذقية وأماكن أخرى، منفذاً أحكامها بحماس.

«إن هؤلاء الكفرة، والبغي الفجرة، جمعوا بين أصناف الكفر والبغي والفساد، وأنواع الفسق والزندقة والإلحاد، ومن توقف في كفرهم وإلحادهم وجواز قتلهم فهو كافر مثلهم...

---

(1) هي أول انتفاضة علوية قام بها الشيخ بدر الدين أحد أعيان أورفة وابن قاضيها (1359 - 1420).

وسبب وجوب قتالهم وجواز قتلهم: الكفر والبغي معاً، إنهم يستخفون بالدين، ويستهزئون بالشرع المبين، ويستحلون الحرمات، وينكرون خلافة الشيخين.

فيجب قتل هؤلاء الأشرار تابوا أم لم يتوبوا» [1].

إن هذه العلاقات العدائية بين الدولتين التي كان أهم أسبابها وأبرز مظاهرها التنافر المذهبي والتباين الديني السائد بين المعتقدين، والذي بقي مستمراً ودموياً، وقاد إلى حروب متواصلة بينهما لسنوات كثيرة لاحقة، مما سيشكل عاملاً مهماً وفاعلاً، في مختلف أوجه السياسة اللبنانية ترك بصماته العميقة على مجمل الأوضاع العامة في هذا البلد بوجه خاص، لأن انعكاساتها وجدت مرتعاً خصباً، ورد فعل دائم بسبب تعدد طوائفه وامتداداتها المتشعبة.

كانت الدولة العثمانية تعتبر نفسها، ولا سيما بعد انتقال عاصمتها إلى القسطنطينية، الدولة الدينية المحورية في العالم الإسلامي. فهي حاملة لواء السنة، والمدافعة عن الشريعة، وحامية الإسلام وحربته المتقدمة. وبهذه الصفة، فمن أهم واجباتها التي أناطت نفسها بها، هي الحفاظ على العقيدة وحفظها والتنكيل بكل من تصنفه بأفقها الضيق ومفهومها المتشدد مارقاً أو ضالاً أو متأولاً للشريعة، كما تفسرها وتعتمدها، فجعلت من سياستها الثابتة، ومنذ وقت مبكر التضييق على الشيعة واضطهادهم إلى حد محاولة استئصالهم بالقتل والإفناء باعتبارهم مخالفين لهذه الشريعة وخارجين عن تعاليمها في جميع المناطق الخاضعة لسيطرتها. فكانت الفتاوى الصادرة عن أعلى السلطات الدينية الرسمية المتمثلة بالهيئات القضائية والدينية الخاضعة لسلطة مفتي اسطمبول «**بوصفه شيخ الإسلام**»، تكرر وتؤكد وجوب «**قتل الشيعة واستحلال ذراريهم وأن لا تقبل لهم توبة**»[2]. كما تجيز أصول المحاكمات وأعرافها، قتل الشيعي على الشبهة وعدم قبول شهادته في المحاكم وغير ذلك، مما دفع الشيعة من رعايا الدولة ومن غير رعاياها، إلى اعتبارها بالمقابل عدواً غاشماً وظالماً لا يملك شرعية الإمامة ولا صفة ولي الأمر، بينما تنظر هي إلى رعاياها من الشيعة كخارجين عن الملة وخونة غير موثوقين، وإلى غير رعاياها كأعداء ألداء يقتضي إخضاعهم أو الفتك بهم.

إن العداء الصفوي العثماني، والقناعة الذاتية لدى كل فريق، بأنه يحمل سيف الله، للدفاع عن الدين القويم والإنتقام من الكفرة المارقين، جعل من التشيع في نظر العثمانيين،

(1) تاريخ الشيعة، هاشم عثمان، ص 112.

(2) العقود الدرية في الفتاوى الحامدية، فتاوى الشيخ نوح آل صفا ص 77.

وفي تراثهم القضائي والعرفي، أقرب إلى أن يكون تهمة جنائية، من واجبات السلطة تنفيذاً لأحكام الشرع البحث عن أصحابها وتقديمهم إلى القاضي للحكم عليهم وتأديبهم. وأن الحالات التي حوكم فيها الشيعي على تشيعه دون أي جرم آخر، لا يمكن أن تحصى لتعددها وكثرتها، ولو أن بعض القضاة اجتهد بوجوب استتابة الشيعي قبل الحكم عليه، فإن تاب نجا، وإن عصى وأصر على ضلاله فعقوبته الموت. وقد احتفظ القضاء له بطريقة خاصة لإعدامه فإن كان تنفيذ هذه العقوبة يكون عادة بالشنق، أو بالسيف فالإعدام على التشيع لا يكون إلا بالحرق أو الخازوق[1].

كان المسيحي واليهودي أحسن حالاً من الشيعي، وإن كانت الدولة لا تعتبره مواطناً كاملاً، إلا أنه، وبموجب نظرية أهل الذمة وأحكامها، يتمتع بحقوق محددة ومعلومة، فهو من طائفة معترف بها، وحياته وماله مصونان بحكم القانون والشرع ويعود في أحواله الشخصية إلى رئيس طائفته دون تدخل من السلطة الحاكمة التي قد تفرض عليه أحياناً بعض القيود في مظهره، والتحديد في حقوقه، دون أن يكون انتماؤه الديني في أي وقت، جريمة تستحق المحاكمة والعقاب.

قبل شروع السلطان سليم في زحفه نحو سوريا لقتال المماليك والصفويين، قام بقتل آلاف الشيعة دون أن يوفر النساء والأولاد، وأجلى من قدر عليه إلى أوروبا العثمانية، وذلك لحماية خطوطه الخلفية مدة غيابه، وبعد انتصاره على المماليك في مرج دابق، عرج على حلب التي فتحت أبوابها له سلماً، ولم يغادرها نحو دمشق، إلا بعد أن أضاف مذبحة أخرى إلى سجله الشيعي، اختلف المؤرخون في تقدير عدد ضحاياها، وإن كانت المصادر الشيعية تتكلم عن ستين ألفاً.

«اضطهد العثمانيون الشيعة وأسرفوا في قتلهم، وفعلوا بهم الأفاعيل، ومن ذلك ما أصاب أربعين ألفاً من الشيعة الترك ممن قتل أو سجن مدى الحياة على يد سليم الأول سنة 918 هـ ـ 1512م. أصاب ذلك حتى الصبي الذي في السابعة، ولم ينجو منه الشيخ الذي بلغ السبعين»[2].

يرى توينبي، أن حركة الإنتعاش الثوري الشيعي السياسي، التي انفجرت في هذه الفترة، أدت إلى صدام حتمي مع العثمانيين، لم يكن من الممكن تجنبه. فليست المرة الاولى التي تشتعل فيها الحروب المذهبية في هذه المنطقة من العالم. فالحماس الديني، كان

(1) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ج 3 ص 96، نقلاً عن فون هامر.

(2) اعلام الورى، ابن طولون حوادث 940 هـ ص 280.

الدافع الأول إلى جانب غيره هو الذي حرك جيوش العثمانيين والصفويين نحو المواجهة، في الوقت الذي كان جيش ثالث يتجه في طريقه إلى الميدان نفسه، هو جيش الدولة المملوكية، وعلى رأسه عجوز هرم لا يقل اندفاعه الديني والسياسي عن زميليه الآخرين.

إن اعتبارات عديدة تجعل من الدولة المملوكية هي الدولة الإسلامية الكبرى والرئيسة في هذه الفترة وأهمها:

أولاً - هي حامية الحرمين الشريفين بحكم سيطرتها على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، ولم يكن ينازعها أحد على هذا الشرف الذي يتمتع بأهمية بالغة في ضمير العالم الإسلامي برمته مما جعل بعض الفقهاء يشترطون السيطرة الفعلية على الحرمين، شرطاً لصحة الخلافة واستحقاقها، ولا سيما عند تعدد أدعيائها في زمن واحد. وهذا ما يفسر رضى السلطان سليم وسروره، عندما أطلق عليه خطيب المسجد في حلب، لقب **حامي الحرمين الشريفين**، بعد دخوله المدينة، على إثر انتصاره الحاسم على قانصوه الغوري عام 1516 م.

ثانياً - احتضن المماليك خليفة من بني العباس، يعتبر استمراراً لخلافة بغداد، قبل سقوطها في يد المغول عام 660 هـ، وحافظوا على استمراريتها، وإحاطتها بمظاهر الشرعية، رغم تجريدها من أي محتوى سياسي أو سلطوي، إلا أنها بقيت تحتفظ بقدر ما من القيمة المعنوية والشرعية، كافٍ لدفع بعض ملوك الإسلام ليس للإعتراف بها فحسب، بل للسعي إلى الإستحصال على تثبيت شرعي من الخليفة، يقرهم على ما بيدهم من السلطان. ومنهم بعض ملوك الهند وسلاطين آل عثمان أنفسهم، مما منح الفرصة للمماليك، لاستغلال هذا الامتياز، في تثبيت شرعيتهم وجني المكاسب لامساكهم بزمام القدرة على تثبيت شرعية الآخرين.

ثالثاً - هيأت الظروف التاريخية للمماليك، أن يكونوا حماة العالم الإسلامي والمدافعين عن حماه، في مواجهة أشرس وأقوى عدو هاجمهم في عقر دارهم. لقد قدر لهم، أن يحرروا آخر معاقل الصليبيين في بلاد الإسلام، واضعين بذلك حداً مشرفاً لصراع طال أمده بين الشرق والغرب. عجزت الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في القاهرة، والدولة الأيوبية التي خلفتها، عن حسم هذا الصراع لصالح المسلمين، وتمثل العدو الآخر، بالمد المغولي الوثني الذي بدا منذ وقت مبكر يجتاح شرق العالم الإسلامي وعلى موجات متعاقبة فينشر الموت والدمار، حيث وصل، ثم ما لبث أن اجتاح قلب هذا العالم، ودمر ما وصل إليه من حصونه ومدنه ومراكز حضارته. فتصدى له المماليك

وحدوا من اندفاعه جنوباً، بل وقدر لهم أن ينتصروا عليه في أكثر من موقع، مما ساهم في إنقاذ الكثير من معالم الحياة والحضارة الإسلامية. ولما اعتنق المغول الإسلام، وصاروا من حماته، لم يتوقف الصراع، لأنه اتخذ أحياناً بعداً مذهبياً بين الشيعة والسنة، مما زاد في معاناة الشيعة الخاضعين لسلطة المماليك، بعد أن أصبحوا موضع ريبة وشبهة، بممالأة الاعداء. ففي آخر عام 916 هـ أرسل اسماعيل إلى الغوري علبة فيها رأس «ازبك خان» ، أحد ملوك التتار، مع رأس ابنه ووزيره، مع أبيات من الشعر يمزج فيها التهديد بالسخرية وتلقى منه جواباً من نفس النوع. ولما هاجم اسماعيل بغداداً واحتلها، هرب ملكها ولد خان، مستنجداً بالغوري. وكانت الأمور تسير نحو الصدام العسكري بين الدولتين.

لم يكد القزلباش يؤسسون دولتهم الشيعية، حتى ظهر العداء واضحاً مع المماليك، ولو لم تحسم معركة مرج دابق الصراع بسقوط الدولة المصرية، لاستمر الشاه يرسل إلى مملكة خصمه ما هو أخطر من الجيوش، وأشد فتكاً. فقد انتشرت أفكاره ودعوته، وتقاطرت رسله تستثير الناس، وتعبئهم. وقد قبض نائب البيرة على بعضهم وهم يحملون مكاتبات لقناصل الدولة في مصر، تعرض عليهم التعاون لقتال الغوري وسليم معاً،[1] بعد أن أبرم معاهدة عسكرية مع البرتغاليين للتحالف في وجه الأتراك.

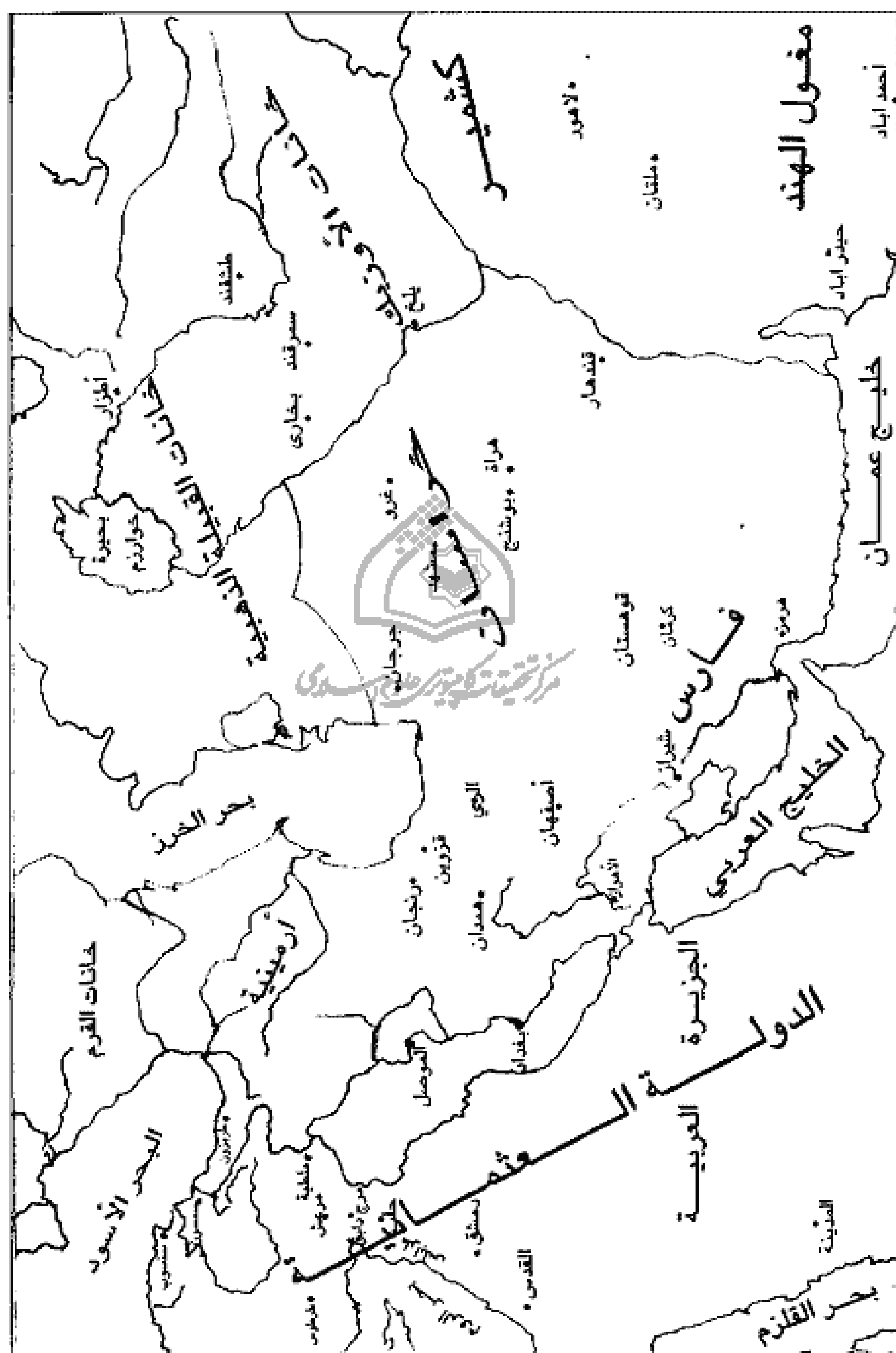
إن تأسيس دولة شيعية كبرى في فارس، على أساس مذهبي، وانتشار تأثيرها في عمق الدولتين السنيتين اللتين عانى الشيعة لقرون طويلة من العنت والجور والتنكيل تحت سلطتهما، وقيام تنافس وعداء بين الدول الثلاث، واتجاه الأمور نحو التأزم السياسي والعسكري، بحيث أن نشوب الحرب بين الدول الثلاث أصبح مسألة وقت، أدى إلى ملاحظة الأمور التالية:

1 ـ تحولت الدولة العثمانية من حامية الإسلام في الغرب، وحاملة لواء نشره في دار الحرب غرباً، ضد المسيحية إلى دولة سنية في الشرق، تقف في وجه الشيعة، بحيث أن هدفها الديني الأول الذي كان حتى الآن يتجه إلى تحويل المسيحيين إلى مؤمنين، أصبح

---

(1) تاريخ العلاقات العثمانية الايرانية. عباس صباغ ص 233 تطلب من القناصل بأن يكتبوا إلى ملوك الفرنج بأن ياتوا بمراكب البحر ويزحف هو براً على سلطان مصر وابن عثمان (ابن املس ج 4 ص 204).
وقد أرسل عباس الصفوي بعثة إلى قوزما الثاني للسعي إلى التحالف ضد العثمانيين، تاريخ فخر الدين، ماريتي، ص 84.

الدولـــة الصفـــويـــة



بعدها معاقبة الشيعة على هرطقتهم واعادتهم إلى الشريعة السليمة والصحيحة.

2 ـ لم تكن دولة المماليك وسلطانها العجوز، متحمسين للصدام مع أي من الدولتين، بل اتبعوا سياسة المسايرة والانتظار، ومراقبة ما يحصل بين الجارتين القويتين، وبعد أن كانت تجهد لمنع معتقدات الشيعة وردعهم عن ضلالهم وإرجاعهم إلى السنة والجماعة، وملاحقة المتظاهرين بالتشيع، وإباحة دمائهم وأموالهم، خففت من تشددها لكسب ود الشاه اسماعيل من جهة، وللإفادة من وقوف الشيعة إلى جانبها في حربها المرتقبة مع العثمانيين من جهة أخرى.

إن هذا الصراع الدولي الذي اتخذ مظهراً وعمقاً دوليين، دفع شيعة لبنان إلى التوجه بعواطفهم وأهوائهم وعلمائهم نحو الصفويين، باعتبارهم أئمة دولتهم الحقيقية، رغم أنهم لا يقيمون على أرضها، وفي الوقت نفسه، زاد التنافر والعداء بينهم وبين العثمانيين، مما سبب لهم مزيداً من القمع الذي تخطى ما لحقهم في ظل دولة المماليك في القرون الماضية.

أما العثمانيون فلم يفرقوا كثيراً بين شيعي وفارسي. وكانوا يعاملون شيعة لبنان على أن «**قتل فارسي واحد في الحرب أكسب أجراً عند الله من قتل ستين مسيحيا**»[1] وخاضوا حروباً موازية لحروبهم في العراق وايران، واستمروا حتى القرن الثامن عشر، يطلقون على الحماديين الشيعة في جبل لبنان اسم «القزلباش» بعد أكثر من ثلاثة قرون على اشتهار هذا الإسم لدى أعدائهم للفرس[2] . وأن قتالهم واجب مقدس على الدولة وفرض شرعي على كل مسلم.

الشيعة والمماليك

خضع لبنان، في العصر المملوكي لسلطة مركزية قوية وقادرة، أحكمت قبضتها على الاحد عشرة ولاية التي قسم إليها لبنان، والتي تتبع النيابات الكبرى الثلاث: دمشق وطرابلس وصفد من خلال تنظيم عسكري صارم، يعتمد على سلسلة من

(1) رحلة إلى جبل لبنان، دومنيكو ماغري المالطي ص 88 Domenico Magri Moltese.

(2) «الرؤوس الحمر» إسم أطلق على أنصار اسماعيل الصفوي.

المراكز العسكرية الكبرى والدائمة، كقلاع بعلبك وعنجر والشقيف وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وتبنين، تعضدها سلسلة أخرى من الأبراج والأذواق، على طول الساحل. وكانت هذه المراكز العسكرية، مشحونة بالجنود النظامية، من الأكراد والأتراك والشركس تحت قيادة ضباط من المماليك، يرتبطون عملياً بالسلطان في القاهرة.

كان نظام الاتصالات الذي يربط هذه المراكز فيما بينها وبين قيادتها، يتمتع بقدر كبير من السرعة والفاعلية، فبواسطة بريد الخيل، والحمام الزاجل، والاشارات النارية في الليل، كانت أخبار الساحل تصل إلى دمشق في اليوم نفسه، و لم تكن تحتاج لأكثر من ثلاثة أيام لتصل إلى القاهرة.

أمّن التوزيع العسكري المرن، ونظام البريد المتقن والسريع، بالإضافة إلى قرب مراكز النيابات وتعددها، ووجود أمراء من القادة المماليك المحترفين على رأسها، قيام سلطة مركزية قوية ومتماسكة، حالت إلى حد بعيد دون قيام تنظيمات محلية مهمة ومستقرة سواء على الصعيد الطائفي أو القبلي أو العائلي، كما سيحصل لاحقاً في العهد العثماني. لقد بقي الإقطاع تعيينياً، تديره الدولة، وتنظمه وتتحكم بحجمه وديمومته، وبقي منوطاً بديوان الجيش في مركز النيابة، بحيث يصدر عن هذا الديوان منشور رسمي يحدد صاحب الإقطاع، ومداه ومدته بدقة ملحوظة. وكان يتغير عند وفاة السلطان أو نائبه، أو وفاة الاقطاعي، أو عزله. فهو أقرب إلى موظف عند الدولة، يستمد وجوده وسلطته منها، أكثر مما يستمده من عصبيته أو طائفته أو جماعته أو أية قوة ذاتية أخرى.

رغم احتفاظ العهد العثماني بالمظاهر الأساسية للتنظيم الإداري السابق، وعدم اجرائه أي تغيير يذكر في بنيته العامة، وهيكلته، وحتى في العديد من عناصره، إلا أن الاختلاف يبدو واضحاً، وربما إلى حد التناقض في روحيته وطبيعته.

سيطرت الدولة العثمانية على مساحات شاسعة من الأرض لم تعد الدولة المملوكية السابقة تشكل إلا بعض أقاليمها النائية، لبعد المسافات التي أصبحت تفصلها عن العاصمة الجديدة، ولصعوبة المواصلات والاتصالات، بين السلطة المركزية في اسطمبول، ومن يمثلها في مراكز النيابات السابقة، كدمشق وطرابلس، بالاضافة إلى أن أمراء المماليك الذين كانوا يباشرون الأمور بإسم السلطان في

مصر، هم في الواقع جزء أساسي من هذه السلطة، ومن أهم أركانها، وكل منهم هو مشروع سياسي «لسلطان قادم» . أما في العهد الجديد، فقد حل مكانهم باشوات دخلاء، وصلوا غالب الأحيان إلى مناصبهم عن طريق شرائها بأثمان مرتفعة، فانحصر معظم همهم في الاحتفاظ بها أو الانتقال منها إلى أخرى، أجزل نفعاً وأعظم مردوداً.

كان المماليك يصدرون منشوراً يعين بموجبه موظف تحدد مهامه بدقة، ويعدد بصورة حصرية أسماء القرى والمزارع التي تتناولها هذه المهام، وذلك لقاء موجبات محددة. وكل ذلك تحت رقابة الحاكم الرسمي الذي لا يقيم بعيداً عن مكان الإقطاع، ويمسك الأمور بواسطة ذراعه العسكرية المتواجدة دائماً، في القلاع والحصون الخاضعة له، والتي يمكن أن تتدخل في الوقت الذي يشاء وتقتضيه الظروف.

في ظل هذا النظام الصارم، الذي احتفظ لنفسه بكامل القدرة على اختيار من يشاء لتولي الاقطاع الذي يرغب، ومنحه له واستعادته في الوقت الذي يناسبه. رغم أن هذا الاختيار قد يبقى لمدة غير محدودة، محصوراً في أفراد عائلة واحدة، أو أسرة اعتادت على تولي مثل هذه المهام، فقد بقي منشور التولية، وحده، مصدر التكليف والسلطة. مما ابقى الاقطاعي في محيطه محدود التأثير، محدود الطموح، محدود الفعالية، يصرف غالب جهده السياسي، للحصول على رضى السلطة، ليبقى حائزاً على انعاماتها، لأن غضبها سيفقده ميزته دون أن يكون بمقدوره الاعتماد على قوته الذاتية، أو عصبيته العائلية، أو الطائفية. لذلك قلما حاول تدعيم هذه العصبية لاستعمالها في تحدي السلطة أو الخروج عليها.

قد لا نجد في تاريخ لبنان، إبان الفترة المملوكية، الكثير من الأسماء التي برزت على صعيد القوة أو النفوذ أو العصبية، وقامت بمحاولات تمرد أو عصيان أو خروج على السلطة الرسمية، أو تحدي هيبتها، الأمر الذي سيصبح من خصائص الفترة العثمانية الحافلة بمثل هذه المحاولات.

إن الحروب الشرسة والمتواصلة التي خاضها المماليك لطرد الصليبيين من جهة، ولصد هجمات المغول وغاراتهم من جهة أخرى، ألهبت نار التعصب الديني والمذهبي، واشتعلت بموازاتها، مجادلات ومناقشات، لا تقل شراسة عنها، تمثلت بالمناظرات الجدلية والتاريخية والفقهية، التي استعرت في هذه الفترة بين المذاهب المتباينة، مما شحن النفوس بمزيد من النفور والبغضاء لدى الحكام والمحكومين على السواء، لا سيما

وأن التشيع قد استقطب أعداداً مهمة من المغول، شملت حتى بعض ملوكهم وقوادهم، بتأثير من بعض المبشرين والدعاة الشيعة الذين استطاعوا الوصول إلى بعض حكام المغول، عن طريق العمل في خدمتهم، أو تحت ظلهم، أو في بلاطاتهم. مما حدا ببعض هؤلاء الحكام إلى ادخال عمليات القتل والتدمير والافناء التي يقومون بها، في دائرة الأخذ بناصرة الشيعة، والاقتصاص لهم من الاضطهاد التاريخي الذي كانوا عرضة له.

هذا الموقف الذي سيقابله شيعة بلاد الشام على الأقل، بتضاؤل مشاعر العداء عندهم، تجاه المغول، عن سائر جيرانهم، مما جعلهم هدفاً لحملات التشكيك والاتهام، بممالأتهم، الشيء الذي لم يتوقف الشيعة عن نفيه دائماً. كما ينفون التهم التي تناولت تهاونهم أو تقاعسهم عن مجابهة الصليبيين.

عندما حسم الصراع في النهاية لصالح المماليك، على الجبهتين الصليبية والمغولية، كان من المنتظر أن يتعرض الشيعة إلى التعسف والتنكيل، وحتى إلى حملات الانتقام والتشريد التي قامت بها بقسوة بالغة جيوش المماليك في لبنان، مستندة إلى قاعدة صلبة من رأي عام سني مؤيد وتحريض رجال الدين وفتاويهم، التي دعت غالباً، إلى اعتبار الشيعة مرتدين عن الاسلام، والمرتد يكون شرعاً مهدور الدم والمال، وقتاله فرض على جمهور المسلمين. فأصبح كل ذلك من سياسة الدولة، طبقته من خلال إصدار مراسيم وتواقيع تحظر معتقداتهم وتعيّن عقوبتها.

هنالك دلائل عديدة، على أن مواقف الشيعة في هذه الفترة، تجاه المغول والصليبيين، على فرض صحتها وثبوتها[1]، ليست هي الدافع الأساسي الذي سبب السياسة القمعية المملوكية إزاءهم، و إنما قد تكون حجة، ترمي إلى تبرير القسوة المبالغ فيها التي كانت موضع اعتراض واستنكار لدى الكثيرين، وسبيلاً لإقناع جمهور العامة بشرعيتها، وعلى الإجمال يمكن أن يكون القصد منها، لا يتجاوز خلق جو عام مؤيد ومساند لحملات الاضطهاد المتكررة التي استهدفتهم. ومن الملاحظ أن رسالة ابن تيمية، في تبرير هذه القسوة التي رافقت حملات كسروان، قد ركزت على بعض التصرفات الشيعية التي تندرج في باب تعاونهم مع أعداء الاسلام، إلى جانب التعريض بفساد عقيدتهم ومخالفتها للسنة والجماعة، وتعاليم الشريعة، كما تفهمها السلطة الحاكمة في ذلك الزمان. كما نلاحظ أن المنشور الرسمي أو ما يسمى «بنسخة توقيع» ، الذي يقضي بمنع

(1) لا يزال الدور الغامض للوزير الشيعي ابن علقمة مثار جدل بين المؤرخين عند استيلاء هولاكو على بغداد ومقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله في 17 كانون الثاني 1258م.

لبنان في عهد المماليك



اعتقادهم، ووجوب استئصالهم، لا يورد غير فساد عقيدتهم، دون أن يتطرق إلى مواقف سياسية أو عسكرية مع أية جهة كانت، وإنما يكتفي بإيراد اتهامات اعتقادية، لا تتعدى المسائل المعتادة والاختلافات الشائعة بين المذهبين.

«تجرأوا على تبديل قواعد الدين، وأقدموا على نبذ أقوال الأئمة المرشدين، وأعظموا الفرية فيما حمّلوا كلام الله ورسوله، وفرقوا إجماع المسلمين، واستحلوا المحارم، وارتكبوا العظائم، واكتسبوا الجرائم، وعدلوا عن سواء السبيل»[1].

ويتضمن هذا التوقيع الغاية من اصداره، وينص عليها صراحة، بعد أن يتوعدهم بأشد عذاب، وأشد نكال، دون الإشارة إلى أي مطلب، أو موقف له طابع سياسي، يتعدى هذا الإطار الفقهي والديني الصرف.

«الرجوع إلى السنة والجماعة واعتقاد مذهب أهل الحق. وأن لا يدعوا سلوك أهل السنة الواضحة، وليداوموا على اعتقاد الحق والعمل بالسنة الصحيحة»[2].

يتضح من هذا الموقف العدائي الموثق تجاه الشيعة، أنه لا يحتمل أية خلفية سياسية أو تأديبية عارضة، أو مرحلية، إنما يثبت ويعلن سياسة مذهبية عقائدية، ترمي إلى قمع الشيعة، بسبب اعتقادهم واختلافهم المذهبي، عن مذهب الحكومة، ويرمي إلى اعادتهم إلى حظيرة الاعتقاد المستقيم، أو القضاء عليهم بافنائهم أو تذويبهم في المذاهب الأخرى.

لقد أظهر المماليك تساهلاً مع غيرهم في أمور أكثر خطورة، وأوضح دلالة في تعاملهم مع العدو أو الإنتصار له.

إن جمال الدين حجي من أمراء الغرب التنوخيين، حارب مع المغول في معركة عين جالوت الحاسمة، بينما حارب ابن عمه في المعسكر المنافس، كما سجن عدة أمراء من نفس الأسرة، بتهمة التآمر لمصلحة الصليبيين، ثم ما لبث أن عفي عنهم؛ وكان غيرهم قد حصل على اقطاعاته في المعروسية من صاحب بيروت الصليبي «هنفري الفرنجي»[3] (Humfroy De Montfort) كما حصل آخر على تثبيت أقطاعه من القائد المغولي «كتبغا[4]» نائب تيمورلنك، دون أن يتخذ المماليك بعد انتصاراتهم، أي إجراء عقابي في حق أي منهم، أو غيرهم في الحالات المشابهة.

(1) صبح الأعشى، القلقشندي ج 13 ص 135.
(2) نفس المصدر.
(3) تاريخ بيروت، صالح ابن يحيى ص 73، واستمر القائد الصليبي في صحوبية بيروت من 1264 م حتى 1283 م.
(4) المصدر السابق ص 52 وكتبغا قائد مسيحي نسطوري في الجيش المغولي تسلم زمام الأمور في دمشق بعد فتحها في آذار 1260م وقتل في معركة عين جالوت في الثالث من أيلول من نفس العام.

« إن ذنبهم أنهم انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه وعملوا به وقرروه وبثوه في العامة ونشروه واخذوه ديناً يعتقدونه وشرعاً يعتمدونه».

«إن هذه الأمور التي فعلوها والمذاهب التي انتحلوها، تبيح دماءهم وأموالهم، وتقتضي تعميمهم بالعذاب واستئصالهم»[1] . فالعقوبة على اعتقادهم وليس على أي فعل أتوه.

لم يكن من الغريب أن تؤدي سياسة المماليك تجاه الشيعة، وعزمها الأكيد على استئصالهم، وممارسة كل أنواع الضغوط والتنكيل نحوهم، إلى انحسار وجودهم المكثف في المدن الساحلية المهمة، حيث يتواجد نواب المماليك وعساكرهم، والسكن بعيداً عن متناول يد السلطة، في الجبال الشاهقة والوعرة التي يجدون فيها مكاناً آمناً، وحماية طبيعية، تحد من وصول اليد التي يخشونها ويحسبون لبطشها حساباً كبيراً.

«إن كل من تظاهر بشيء من بدعهم، قوبل بأشد عذاب وأشد نكال».

إن هذه الهجرة القسرية، أفسحت المجال، أمام السلطات لاسكان أعداد متزايدة من التركمان والأتراك مكانهم، حيث يستفاد من وجودهم، في مهمة رقابية عسكرية مزدوجة، أمام غارات الفرنج من الخارج، وتحركات المقموعين الشيعة في الداخل.

لم تكن هذه السياسة جديدة على الشيعة، فقد الفوها في عهد الدول السابقة، منذ عهد الدولة الأيوبية، إلا أن المماليك، أضافوا عليها الطابع الرسمي، باعتمادها منهاجاً مستمراً، تبنى عليه الكثير من قرارات الدولة الأخرى.

وقد أمر السلطان الظاهر بيبرس سنة 1267م باتباع المذاهب السنية الأربعة، وتحريم ما عداها، ولم يكن للشيعي الحق، في وظائف القضاء، والإمامة، والتدريس، حتى ولا تقبل شهادته في المحاكم[2]. فكان الناس إذا أرادوا الكيد لشخص، دسوا عليه من رماه بالتشيع[3]. فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات [4].

لقد تناقصت أعداد الشيعة من سكان المدن بشكل مضطرد خلال الحقبة المملوكية[5]

(1) نفس المنشور السابق.
(2) المواعظ، المقريزي، الجزء الرابع ص 161، نقله لبنان محمد علي مكي ص 217.
(3) المصدر السابق، ص 218 عن الدرر الكامنة ابن حجر، الجزء السابع ص 161.
(4) تاريخ الشيعة في ساحل بلاد الشام الشمالي، هاشم عثمان، ص 109.
(5) عشية دخول العثمانيين ، كانت المدن الكبيرة مثل صيدا وطرابلس وحتى بعلبك خالية تماماً من الشيعة ولم يكن في بيروت المدينة التي عرفت ثورات شيعية صرفة في أوائل العهد المملوكي إلا أقلية ضئيلة تسكن في إحدى الضواحي الجنوبية. مع أن هذه المدن لم تخلو من سكان نصارى ويهود.

إلا أن ذلك لم يمنع الحاكمين من مطاردتهم في الجبال التي هربوا إليها، فكانت ما عرف في تاريخ لبنان «بفتوح كسروان».

عاشوراء كسروان

في مستهل القرن الرابع عشر، وبعد سلسلة من الحملات العسكرية؛ شن المماليك الغارة الأخيرة والحاسمة على أهل كسروان بعد أن **«كثروا وطغوا، واشتدت شوكتهم وامتدوا إلى أذى العسكر عند انهزامه، من التتر، في سنة تسع وتسعين وستماية، وتراخى الأمر عنهم، وتمادى وحصل اغفال أمرهم، فزادوا طغيانهم، وأظهروا الخروج عن الطاعة، واعتزلوا بجبالهم المنيعة، وجموعهم الكثيرة، وأنه لا يمكن الدخول إليهم، فاجتمعت عليهم العساكر 50,000، مقاتل. واحتوت على جبالهم، ووطئت أرضاً لم يكن أهلها يظنون أن أحداً يطأها. وقطعت كرومهم، وخربت بيوتهم، وقتل منهم خلق كثير، وتمزقوا في البلاد، واختفى بعضهم، واضمحل أمرهم، وخمل ذكرهم، وجعل الناظر في بلاد بعلبك وجبال الكسروانية بهاء الدين قراقوش، فأخلا من كان تأخر في جبال كسروان، وقتل من أعيانهم جماعة، ثم أعطوا أماناً لمن استقر في غير كسروان[1]»**.

أثارت هذه الحملات الكثير من الغموض والتناقض والالتباس لدى المؤرخين. ولا تزال مدار جدل وتأويلات بين الباحثين المحدثين، إن من حيث طبيعتها أو من حيث المدى الجغرافي الذي بلغته، وعلى الأخص من حيث هوية الذين استهدفتهم.

تسبق هذه الحملات من حيث هي حدث تاريخي، العصر الذي نؤرخ له زمنياً، ولكن تأثيرها في الأوضاع الجغرافية والسكانية، وتنقل الطوائف، امتد إلى

(1) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى ص 28. عدد المقاتلين عن السلوك المقريزي ج 2 ص 389. واليونيني ص 516 وكانوا خمسين ألف راجل غير العساكر نيابة طرابلس القطار ص 89 ومن نهب امرأة كانت له جارية، أو صبياً كان له مملوكاً، ومن أحضر منهم راساً فله دينار. وان سنقر توجه لاستئصال شافتهم، ونهب أموالهم، وسبي ذراريهم، وهذا يؤكد أن الجيش المهاجم لم يكن يعتبرهم مسلمين ولا من أهل الذمة، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت ص 209.

القرون اللاحقة، وشمل معظم أنحاء لبنان، ولا سيما البقاع وجبل عامل وجبل لبنان، فإن خراب كسروان وتشتت سكانها، لم يكن الهدف الوحيد لهذه الحملات، إنما تداخلت فيه عوامل طائفية وعرقية ومذهبية كثيرة متشعبة.

هناك اختلاف واضح واضطراب شديد، في تحديد هوية الكسروانيين المذهبية إبان هذه النكبة التاريخية. ففي حين يجزم البعض، أنهم كانوا من الموارنة ويرى، فيما حصل، أحد الفصول المهمة في الصراع المسيحي الاسلامي في الجبل[1]. يجعلهم الآخرون دروزاً أو من الظنيين أو حتى من الإباضيين والنصيريين فيما يرى فريق ثالث أنهم كانوا مزيجاً من كل هذه المذاهب ومن شيع أخرى قد لا تكون وطأت أرض لبنان في أي وقت مضى[2].

إن بواعث هذه الحملة وأهدافها ونتائجها، وما رافقها وأعقبها، تؤكد أن أهل الجرد والكسروانيين كانوا من الشيعة الأمامية الاثني عشرية، دون غيرها من فرق الشيعة الأخرى، أو على الأقل، كان أتباع هذا المذهب، هم المستهدفون الوحيدون، من هذه الحرب دون غيرهم. حتى إذا افترضنا وجود أقليات ضئيلة العدد، وغير ذات شأن تعيش بين أكثرية شيعية ساحقة على هذه المعاقل الجبلية الوعرة.

إن هذه الحرب، تصنف في فئة الحروب الدينية المذهبية التي ترمي إلى هدف واضح وأكيد: هو إخلاء هذه الجبال من الشيعة، بافنائهم واجلاء من قد يبقى منهم، واسكان عناصر مغايرة في المذهب مكانهم. وهذا ما دفع البعض إلى تسمية هذه الملحمة التي وقعت في محرم من عام (705 هـ ـ 1303 م) عاشوراء كسروان[3].

يقول أحد المؤرخين اللبنانيين، بعد أن عرض لهذه الحرب على طريقته ووفق رغباته:

«في تلك المعركة تكونت أو ولدت أو تكرست فكرة لبنان الوطن القومي للدروز والنصارى معاً، هكذا كسروان النصارى وجرد الدروز، هما مهد لبنان بالمعنى الحديث[4]».

ويقول آخر:

(1) تاريخ الأزمنة، الدويهي ص 286، وما يليها وأصل الموارنة المطران دريان ص 70، وما يليها. ابن القلاعي وكثيرون غيرهم. ويتوهم المطران دريان أنهم من بقايا الإفرنج الذين هربوا من انطاكية بعد استعادتها فأسكنهم بطريرك الموارنة في جبل لبنان.

(2) ابن سباط ج2 ص 588. السلوك المقريزي ج2 ص 231. راجع أبو الفداء وابن الوردي حول حوادث 705 هـ.

(3) الحقائق الراهنة، الشيخ آغا بزرك الطهراني ص 192.

(4) تاريخ الموارنة، بطرس ضو، الجزء الثاني، ص 528 .

«إن أبرز أهداف معركة فتوح كسروان التي تشكل محطة تاريخية كبرى في تاريخ لبنان هي ضرب الإستقلال اللبناني وتهجير سكانه الموارنة والدروز واسكان الشيعة محلهم»[1].

لم يكن ثمة وجود ماروني أو درزي في كسروان في ذلك الوقت، وبالتأكيد لم يكن أي وجود من هذا النوع مستهدف في ذهن المغيرين. لقد كانت هذه الحرب نتيجة مناخ عام، أوجدته مواقف سياسية وعسكرية ومذهبية معينة، وسبقته مناقشات فقهية ودينية، لم تؤدِ إلى تقارب ما، وهو ما جعل اللجوء إلى البطش بديلاً يفرض نفسه لحسم الموضوع.

لا يميز جمهور السُنة عادةً وحتى الآن، كما كان الحال في الماضي، بين مختلف المذاهب الشيعية المتقاربة والمتباعدة في شكل وافٍ ودقيق: فالعلوية والاسماعيلية والشيعة والنصيرية والرافضة، تعني في الواقع شيئاً واحداً في ذهن العامة، من الصعب التفريق بينها، رغم أن التباين الفقهي والاعتقادي، ليس الوحيد، الذي يصنف كلاً منها، وإنما يتعدى ذلك إلى سمات عرقية وثقافية واجتماعية مختلفة، تظهر بدون مشقة عند كل فئة من اتباع هذه المذاهب. لذلك كان إطلاق أي من هذه المسميات أو كثير غيرها، كافياً ووافياً للدلالة، عند جمهور المؤرخين السنة عن الشيعة إطلاقاً دون تحديد أو تمييز بينها. على خلاف ذلك، كان أهل العلم على دراية بدقائق هذه الفرق على قدر اطلاع كل عالم منهم، وهذا أمر بديهي لأن من تعمق في تفاصيل المذاهب الشيعية، والفروقات بينها يستطيع، بسهولة، أن يميز كل فئة من خلال معتقداتها وتأويلاتها، لما طرأ على الإسلام من تطورات سياسية، وتباينات إيمانية ومجادلات فقهية، وإن كان الجميع يشتركون في شيء واحد، وهو الخروج عن التفسير التقليدي الذي حافظ عليه جمهور السنة وعموم المسلمين.

و في مقدمة هذه الفئة يأتي الإمام ابن تيمية، أشهر علماء عصره، وأهم من دعا إلى هذه الحرب وساهم في القيام بها، بفقهه واعتقاده ومكانته وسيفه. وكان حجة في إطلاعه على كافة المذاهب الاسلامية، والشيعة الإمامية الجعفرية الاثني عشرية خاصة، وكان له اهتمام خاص بمناقشة كبار أئمة هذا المذهب، والرد عليهم، وتسفيه معتقدهم، والانتصار لمذهبه والتشدد فيه وإقامة الحجة على صحته وبطلان ما عداه. وقد ترك لنا هو ومعاصروه، رسائل متنوعة ومؤلفات جامعة، تزخر بمناظراته مع أئمة سائر المذاهب، كالجهمية والمعتزلة والقدرية، إلا أن الإمامية استأثرت بأوفر نصيب من

---

(1) ابليج من الماضي إلى الحاضر، كميل سلامة ص 115.

مناقشاته الفقهية ومحاوراته الجدلية والفسلفية، مما يؤكد سعة اطلاعه على دقائق وأركان وعادات وقناعات هذا المذهب وغيره[1].

كما صنف هذا الفقيه السني المتشدد كتاباً من مجلدين في الرد على أهل كسروان، لا بد أن موضوعه لا يخرج على حدود الجدل العنيف الذي ولع به حول الخصائص الفقهية والكلامية عند الشيعة[2].

وهذا تأكيد آخر على أن هذا الجبل قد عرف بتشيع سكانه واشتهر بهذه الخصوصية مما دفع ابن تيمية إلى توجيه مصنفه تحديداً إلى أهل كسروان دون غيرهم من الشيعة في سائر البلاد.

تميزت هذه الفترة بغارات متتابعة يقوم بها التتار على سوريا، فينجح المماليك في صدهم حيناً ويخفقون أكثر الأحيان. فكان للانتصارات التي حققها قازان، واجتياحه دمشق، وعجز المماليك عن صده، أثر نفسي عميق، ألهب الشعور الديني والمذهبي عند عامة أهل المدينة، كما عند أعيانها وعلمائها وحكامها، وولد موجة حماسية دينية عارمة، أدت إلى فرض تدابير قاسية وقيود عسيرة، على اتباع الديانات والمذاهب الأخرى. فتعرض الشيعة لأقسى الأعمال الانتقامية، بعد أن اتهموا بممالأة التتار. وانتشرت مشاعر العداء نحوهم، والرغبة في الانتقام منهم، وتأديبهم. فانبرى رجال الدين، وعلى رأسهم الإمام ابن تيمية، يثيرون في الناس روح القتال ووجوبه شرعاً، واعتبار قتال الكسروانين غزوة مقدسة في سبيل الله وهي فرض على عامة المسلمين يؤجر من يساهم فيها ويؤثم من يتخلف عنها.

إن النفير الديني، أدخل الهجوم المرتقب في دائرة الحرب المقدسة والجهاد الشرعي، وما يقتضيه ذلك من مبالغة في القسوة والعنف والاستجابة لإرادة الله في إنزال الحكم الشرعي بالمذنبين.

يورد الشيخ ابن عبد الهادي سببين لقيام هذه الحملة «المقدسة»:

«أولاً: كون أهل هذا الجبل بغاة رافضة سبابة.

ثانياً: إن جبل الصالحية لما استولت الرافضة عليه، عند استيلاء الطاغية قازان، أشار بعض كبارهم بنهب الجبل وسبي أهله وقتلهم، وتجريف مساكنهم انتقاماً

(1) شيخ الإسلام ابن تيمية، الشيخ محمد بهجة البيطار ص129 ـ 131.

(2) فوات الوفيات الجزء الأول ص 77 (التأسيس لتاريخ الشيعة، المهاجر، ص 150) وهناك معلومات عن فقيه شيعي يبدو أنه كان ذا مكانة عالية هو ابن العشرة الكسرواني.

منهم، لكونهم سنية، وسماهم ذلك المشير «نواصب» فكوفيء الرافضة بمثل ذلك، بإشارة كبير من كبراء أهل السنة وزنا بوزن جزاءً على يد ولي الأمر وجيوش الاسلام»[1].

إن هذا الكاتب، هو رجل دين معاصر لحملات كسروان ومؤيد لها، يأتي على ذكرها في معرض تقريظه لاستاذه ابن تيمية، فينقل ما سمعه على السنة الناس ساعياً إلى تبريره من منطلق أستاذه نفسه.

تبرز في حيثيات هذا التبرير وقائع تاريخية حاسمة، تأتي على مسبباته وإطاره الشرعي. والرأي العام الذي آزره ليصل إلى تأكيد واضح، بأن هذه الحرب قامت بإسم الدفاع عن الدين القويم، على يد ولي الأمر الشرعي، لتنفيذ الحد الذي توجبه الشريعة على من أساء إلى الاسلام الصحيح.

إن أهل كسروان «رافضة سبابة» ، وهما تعبيران خص السنة بهما الشيعة الامامية وحدها، دون غيرها من المذاهب. ولا يمكن أن يشملا أو يشيرا إلى أية طائفة أخرى ولا سيما الدروز والنصيرية. كما أطلق الشيعة تسمية النواصب على السنة، رداً على تسميتهم بالرافضة. وهذه التعابير والمصطلحات معروفة ومتواترة عند العام والخاص ولا يثير تفسيرها أي لبس أو جدل.

إن جبل الصالحية السني، في دمشق مقابل جبل كسروان الشيعي، والعقاب شرعي وعادل لأنه على يد ولي الأمر، وجيوش الإسلام. ثم يروي هذا الشيخ واقعة على لسان أستاذه، تزيد من تأكيد إمامية الكسروانيين وتثبيتها، عندما تحاور ابن تيمية مع أحد أهالي جبل كسروان له إطلاع على مذهب الرافضة، وكان البحث يدور حول عصمة الإمام علي عن الصغائر والكبائر في كل قول أو فعل[2].

ومن المعلوم، أن الشيعة الإمامية انفردوا وحدهم بالاعتقاد بعصمة الامام. وللمذاهب الباقية كالدرزية والنصيرية والاباضية، اعتقاد في الإمام علي شديد الاختلاف عن مبدأ العصمة.

إن رسالة الإمام إبن تيمية، إلى الملك الناصر في القاهرة يبلغه بتفاصيل الحملة وبواعثها ومنافعها مبرراً القسوة الشديدة التي اعتمدها العسكر في قمع العصاة وتأديبهم، تلقي الكثير من الضوء على حقيقة أسبابها وأهدافها، وتحسم الجدل حول أي التباس أو غموض يحاول البعض أن يثيره عن هوية سكان كسروان المستهدفين وحقيقة مذهبهم.

---

(1) العقود الدرية، محمد بن أحمد بن عبد الهادي ص 180.

(2) المصدر السابق ص 181.

يقول ابن تيمية في وصف أهل كسروان:

«أهل البدع المارقون، وذوو الضلال المنافقون، الخارجون عن السنة والجماعة، المفارقون للشرعة والطاعة، مثل هؤلاء الذين غزوا بأمر السلطان من أهل الجبل والجرد والكسروان، هم وأهل هذا المذهب الملعون، مثل أهل جزين وما حواليها، وجبل عامل ونواحيه.. لأن عندهم، أن كل من لم يوافقهم على ضلالهم، فهو كافر مرتد، ومن استحل الفقاع فهو كافر، ومن مسح على الخفين فهو عندهم كافر، ومن حرم المتعة فهو عندهم كافر، ومن أحب أبا بكر أو عمر أو عثمان أو ترضى عنهم فهو عندهم كافر ومن لم يؤمن بمنتظرهم فهو عندهم كافر. وهذا المنتظر حي عمره سنتان أو ثلاث أو خمس، يزعمون أنه دخل السرداب من أكثر من أربعماية سنة، وهو يعلم كل شيء وهو حجة الله على أهل الأرض. فمن لم يؤمن به فهو عندهم كافر.. هذا هو المذهب الذي تلقنه لهم أئمتهم، مثل بني العود فإنهم شيوخ أهل هذا الجبل»[1] .

إن كل ما ورد في هذه الرسالة، يشير إلى هوية أهل الجبل والجرد وكسروان، والمذهب الذي ينتمون إليه، دون إن يحتمل تفسيراً أو اجتهاداً أو رأياً يلقي بعض الشك على ذلك أو يخالفه. وهي المستند التاريخي الأهم الذي يفسر أغلب الأمور التي أثيرت حول هذه الحرب، وأن ليس بين المستهدفين أحد ينتمي إلى «جنس الاسماعيلية والنصيرية والحاكمية والباطنية» وهي المذاهب التي ذكرها في مكان آخر من رسالته، معتبراً أهلها أكفر من اليهود والنصارى، بإجماع المسلمين، ناصحاً السلطان، بما يجب عمله لادخالهم إلى حظيرة الاسلام. إنهم شيعة امامية اثني عشرية حصراً. وإن مذهبهم كمذهب أهل جزين، وما حواليها، وجبل عامل ونواحيه. ومذهب أهل جزين في ذلك الزمان، وجبل عامل حتى اليوم لم يكن محل خلاف في أي وقت.

كانت الغاية من هذه الحملات المتعاقبة، تتجاوز الرغبة في تأديب العصاة والاقتصاص منهم، بسبب تهمة التعاون مع التتار، أو الحاق الأذى بالجيش المملوكي المنهزم، أو إعادة متمردين شقوا عصا الطاعة، إلى حظيرة الدولة، إنما كان هنالك تصميم على إخلاءٌ منطقة العمليات من سكانها، إخلاءً كاملاً مقصوداً ومدبراً ومخططاً له بعناية. يقول صالح[2]:

«والسالم منهم تفرقوا في جزين وبلادها، والبقاع وبلاد بعلبك. وبعضهم أعطوه الدولة أمانهم.. وجعل الناظر في بلاد بعلبك وجبال الكسروانية بهاء الدين

(1) المصدر نفسه ص 186.

(2) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى ص 28.

قراقوش فأخلا من كان تأخر بجبال كسروان، وقتل من أعيانهم جماعة، ثم أعطوا أماناً لمن استقر في غير كسروان».

إن الشيعي المستهدف في هذه الحرب، هو الساكن في كسروان، وله الأمان عندما يتركها لا قبل ذلك.

إن الغاية الأولى، هي إخلاء كسروان من أهلها، وقتل من يرفض مغادرتها إلى جزين، أو بعلبك، أو جبل عامل. لأن المطلوب قبل كل أمر آخر هو الاستيلاء على البلاد، أرضاً بدون سكان، لإسكان التركمان فيها.

وهذا الأمر يؤكده ابن تيمية عندما يبرر قطع الأشجار، بأن الغاية منه، منع الهاربين من التخفي وراءها. وأن الكسروانيين لن يتركوا بلادهم، إلا إذا خلت من الشجر. فمن ترك كسروان، من أهلها ينجو بنفسه ويأمن عليها، أما من بقي فيها، فليس له إلا عقوبة وحيدة وهي القتل. لأن الغاية واضحة لا لبس فيها وهي إسكان التركمان مكانهم.

«فإن القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها ويئسوا من المقام في الجبل إلا حين قطعت الأشجار وإلا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم. وما أمكن أن يسكن الجبل غيرهم لأن التركمان، إنما قصدهم الرعي. وقد صار لهم مرعى، وسائر الفلاحين لا يتركوا عمارة أرضهم ويجيئون إليه»[1].

في رسالة ابن تيمية نقاط ثلاث ذات دلالات حاسمة، تحدد بدقة من هم المستهدفون بالقتل والاجلاء، وتدمير البيوت وقطع الأشجار، ولا تترك أدنى التباس حول هذا الموضوع، مهما تعامى عنها أصحاب الجهالة والهوى، وبلغت بهم الرغبة، في أن يكون أهالي كسروان الذين تعرضوا لكل هذه النكبات موارنة، أو دروزاً، أو من اتباع المذاهب الباطنية الكثيرة، التي لم يعرف لبنان معظمها في أية حقبة من تاريخه.

أولاً: إن من نجا من سيوف المهاجمين، هرب أو أجلي إلى جزين وما حواليها، وجبل عامل ونواحيه، وبلاد بعلبك. فلماذا فضل الهاربون هذه البلاد البعيدة نسبياً عن كسروان ملجأ لهم، ولم يقصد أحد منهم بلاد الموارنة الملاصقة، أو بلاد النصيريين إلى الشمال أوبلاد الدروز القريبة التي تجاور بلادهم جنوباً، والوصول إليها، لا سيما أن سلوك الشعاب الجبلية المحاذية التي يسهل اجتيازها، والتخفي في شعابها، أيسر منالاً، وأقل عناءً، وأكثر أماناً، من الوصول إلى مناطق الشيعة الأبعد في جزين والبقاع

(1) رسالة ابن تيمية في المصدر المذكور. لا يزال يجري على السنة العامة حتى اليوم تعبير حكم قراقوش للدلالة على القسوة والظلم.

وجبل عامل، دون أن يتوقفوا في البلاد المجاورة، حيث يجدون في وعورة المسالك، وترحيب السكان المتجانسين مذهبياً، مأمناً قريباً يأوون إليه. وهذا ما يحصل عادة في ظروف مشابهة، إلا إذا كانت غاية المطاردين الوصول إلى حيث يجدون في حماية اخوانهم في التشيع ملاذاً طبيعياً، يرجحه التفكير السوي، والمنطق السليم فإن البلاد المقصودة كانت وما زالت، حتى يومنا هذا، آهلة بالشيعة الامامية، ما خلا جزين التي انحسر عنها التشيع في عصر لاحق كما هو معروف وشائع[1].

ثانياً: يعدد الإمام في رسالته، بعض الأمور العبادية والفقهية والاعتقادية التي تخالف مذهب أهل السنة وأهمها:

أ ـ المسح على الخفين.

ب ـ جواز زواج المتعة.

ت ـ تحريم الفقاع.

ث ـ ما ينسب إليهم من سب بعض الصحابة.

ج ـ انتظار ظهور المهدي.

إن هذه المسائل الخمس، تختص باعتقادات الشيعة الامامية وحدهم، دون أن يشاركهم فيها أحد من اتباع المذاهب الاسلامية الأخرى. كانت ولا زالت من الأمور المشهورة عنهم، والتي تثير الكثير من المناظرات والنقاش حتى اليوم، وهي لا تجتمع كلها في اعتقادات أي من المذاهب الأخرى، التي لو كانت، في ذهن أو قصد ابن تيمية عند كتابة رسالته، لذكر اعتقادات أخرى أكثر إثارة لنفور علماء السنة واستنكارهم من كل ما ذكره.

فليس في كل ما عدده، ما يختص بالدرزية أو النصيرية أو الاسماعيلية، أو أي مذهب معروف آخر حتى من المذاهب البائدة اليوم. وغني عن البيان أن المارونية وسائر النحل النصرانية، غائبة تماماً عن كل ما كتبه ابن تيمية، وغيره عن حروب كسروان مما يحسم موضوع تواجدهم في المنطقة المستهدفة في ذلك الوقت.

ثالثاً: يقول ابن تيمية:

«بني العود هم شيوخ هذا الجبل (كسروان) يأمرونهم بقتال المسلمين ويفتونهم بهذه الأمور وقد حصل بأيدي طائفة من كتبهم تصنيف ابن العود»

---

(1) يبدو من كثرة عدد المهاجمين والمدافعين (بلغ عدد الرماة اثني عشر ألفاً دون غيرهم من المقاتلين) السلوك المقريزي الجزء الأول ص 903. إن جبال كسروان ربما كانت تشمل في تلك الفترة بالإضافة إلى المتن أجزاء من جبيل والمنيطرة وفتوح بني رحال.

«إذا أمسك رؤوسهم الذين يضلونهم مثل بني العود زال بذلك من الشر ما لا يعلمه إلا الله».

بنو العود عائلة دين وفقه وافتاء، على مذهب الامامية. اشتهر من أفرادها كثيرون في مختلف ميادين التصنيف والافتاء، وكانوا طيلة قرون من شيوخ المذهب. حفلت كتب السير بتراجم بعضهم وذكر آثارهم. وفي «أمل الآمل» لا يقل عن ترجمة خمسة من مشاهيرهم، يبدو أنهم انتشروا بعد النكبة، في مختلف أنحاء سوريا، وخصوصاً في جزين، في عصرها الشيعي الذهبي، حيث عاش بعضهم، واسماؤهم معروفة ومشهورة ومتواترة في كتب الشيعة وغيرها من التراجم، توارثوا التبحر في العلوم الدينية، والتشيع، لقرون متعاقبة، مثل الشيخ بهاء الدين محمد علي بن الحسين العودي الجزيني من تلامذة الشهيد الثاني.[1] ومحمد بن موسى بن الحسين بن العود، وشرف الدين حسين بن نصير الدين بني العود، والأخير من علماء القرن الثامن، كان مقيماً في حلب، ثم انتقل إلى جزين، مأوى الرافضة فأقبلوا عليه[2] وغيرهم كثيرون.

هذا هو مذهب شيوخ هذا الجبل كما وصفهم ابن تيمية، ومذهبهم معروف كمذهب جميع أهالي كسروان، الذين واجهوا هذه النكبات على يد المماليك، واستمروا صامدين قروناً عديدة لاحقة، ولم يتركوا كسروان إلا مرغمين، وعلى امتداد مئات السنين ولا زال بقية باقية منهم حتى اليوم.

الشيعة بين المماليك والعثمانيين

«سقطت دولة المماليك، وقامت على انقاضها دولة العثمانيين، فخضع الشيعة لسلطان سني آخر، أشد تزمتاً من سلفه وأكثر تحاملاً، فاستحصل من بعض شيوخ مذهبه على فتاوى ترى أن الشيعة خارجون على الدين، يجب قتلهم، فأمر بقتل كل من كان معروفا بالتشيع داخل بلاده، حتى لم يبق شيعي واحد في مدن كان التشيع فيها راسخاً ومنتشرا»[3].

(1) أمل الآمل ج 1 ص 166، ويعرف بابن العودي.

(2) شيخ الشيعة وامامهم وعالمهم ابن كثير ج13 ص 287.

(3) الشيعة والحاكمون، محمد جواد مغنية ص 194.

الدول الإسلامية الثلاث



كانت الفتاوى الشرعية تتوالى بالمعنى نفسه، في عهود الدولة العثمانية المتعاقبة، مما جعل سياسة البطش والتنكيل إزاء رعاياها الشيعة، هي السياسة المعتمدة غالباً، وإن كانت قسوتها والتقيد الدقيق بها يختلف باختلاف الظروف والاشخاص والسياسات.

تحولت الطوائف إلى ملل معترف بها رسمياً، تتمتع كل منها بامتيازات معينة وحماية دولية فاعلة. واستمر الشيعة خارج هذه الأطر وظلوا في نظر السلطة، مجموعة أفراد تصنفهم الدولة في خانة المشبوهين دائماً، والأعداء أحياناً، خصوصاً عندما تكون الحرب بينها وبين فارس معلنة ومستعرة، وهي حرب دامت على تقطع لمدة طويلة من الزمن.

لم يستسلم الشيعة في لبنان لهذا الواقع الصعب، وتجنبوا السكن في المدن، مفضلين الجبال المنيعة ينشدون الأمن والحماية في وعورة مسالكها ومعابرها، يدفعون

أحياناً الضريبة السلطانية المقررة لتجنب غضب الولاة العثمانيين، واستبعاد شرهم. وهم يعرفون أولية هذا الأمر لديهم، وانما كان لهم سياسة عامة ثابتة مستقرة ودائمة كمجموعة تشعر بوحدة انتمائها ومصالحها ومصيرها وتحاول بما ملكت من وسائل، وما تسمح به الظروف أن تدفع الأذى عن كيانها وأفرادها، وتدافع عن استمرار وجودها، وتدعيمه وترسيخه، بكل الوسائل المتاحة في الميادين السياسة والعسكرية والمدنية.

توهم بعض الباحثين والمؤرخين، ولا سيما الأوروبيون منهم، أن مصير هذه الطائفة هو الزوال والتلاشي في مستقبل قريب. لكن هذه النبوءة لم تتحقق بفضل عوامل تتعلق بالظروف التاريخية العامة وبالجهد الذاتي، والسياسة الناشطة التي اعتمدتها هذه الطائفة وأدت إلى عكس توقعات بعض المتشائمين.

يمكننا من خلال استعراض تاريخ لبنان العثماني، منذ بدايته، أن نستخلص ونتلمس خطوطاً سياسية عامة أو بعض الملامح البارزة لهذه الخطوط على الأقل، سار عليها الشيعة في مختلف مناطقهم، واعتمدوها في سياق تاريخهم وربما دون تخطيط مسبق، وانما بدافع من الفطرة وغريزة الدفاع عن الذات والوجود، والبقاء والتطور، بالمساهمة في التاريخ العام المشترك، لمختلف المجموعات والطوائف التي عاشت إلى جانبهم في بقعة مشتركة من الارض، وتفاعلوا معها على مر العصور، بحيوية متبادلة، كونت بينهم نقاط التقاء عديدة، رغم ان الدرب حفل بما لا يمكن تجاهله من حواجز وصعوبات.

«من المرجح أن ينتهوا بالزوال وأن يواروا معهم حتى اسم هذه الأمة»[1].

هذا ما قاله «فولني» (volney) الذي زار لبنان سنة 1782م في فترة صعبة من تاريخ الشيعة على اثر النكبات التي حلت بهم في الجبل، وجبل عامل والبقاع، وتعرضوا خلالها لأقسى حملات العنف والإفناء والتهجير، في مؤامرة رسمت بدقة وعناية منذ سنين كثيرة واشتركت في تنفيذها جهات دولية ومحلية عدة.

---

(1) voyage en Egypte et en Syrie volney p 247.

(2) Le pays des Métoualis comprenait ci - devant la vallée de Bequâa jusqúa Sour.

"Mais ce peuple a essuyé une révolution qui L´a presque anéanti."

voyage en Egypt et en syrie volney p. 193.

«إن بلاد المتاولة، تضم وادي البقاع حتى صور. ولكن هذا الشعب قام منذ فترة بثورة أفنته تقريباً»[2] ولكن نبوءة «فولني» (volney) لم تتحقق رغم أن جهات نافذة وقادرة كانت تسعى إليها. وقد سمحت القوانين التي ترعى رفع السرية عن الوثائق الرسمية لدى الدول، والكرسي الرسولي، والأرشيف العثماني، بتوضيح أسباب ما تعرض له الشيعة في الفترة السابقة لزيارة هذا الرحالة الفرنسي إلى لبنان، بعد أن كانت دراستها سابقاً تثير الريبة والتساؤل حول ماهية الغموض الذي يكتنف الأسباب الكامنة وراء هذه الحوادث التاريخية البالغة التأثير في تاريخ لبنان، التي امتدت إلى حاضره وهي تبدو لنا اليوم، حلقات متعددة في سلسلة مترابطة، تهدف إلى غاية نهائية واحدة، وكل ما يبذل في سبيل الوصول إليها من جهد بالغ الفعالية، تقف وراءه قوة نافذة تحرك الامور في اتجاه واحد، يصب في افتعال حملات عسكرية وسياسية متواصلة على الشيعة في مختلف مناطقهم اللبنانية، بغية القضاء على عنفوانهم ومقاومتهم وشعورهم بالذاتية القومية كباقي الجماعات اللبنانية الأخرى[1].

بعد معركة مرج دابق سنة (1516م)، دخل لبنان والبلاد المجاورة في مرحلة تاريخية جديدة، لم يتوقف الشيعة فيها عن استكمال مسيرتهم الشاقة منذ العهد المملوكي، واتخاذ الخطوات المستقلة والخاصة التي تنبع من واقعهم المميز في دولة لم تعتبر نفسها دولتهم، كما لم يعتبروا أنفسهم يوما من رعاياها. فكانت مواقفهم تجاه الأحداث والتطورات المفصلية، غالباً ما تتميز عن غيرهم بما يختارونه من مواقف، أقرب إلى مشاعرهم، وأنسب لمصالحهم، ومواقعهم ورؤيتهم العامة لسير الامور.

بعد انتصاره الساحق على خصمه قانصوه الغوري، أكمل السلطان سليم الأول زحفه المظفر باتجاه دمشق، فسار على الطريق القديمة محتلا حلب وحماه وحمص دون أن يجتاز، هو أو جنوده أي مكان في لبنان. ولكن أنباء انتصاراته والمذابح التي قام بها وكان ضحيتها الآلاف من الشيعة، لابد أنها انتشرت بين اللبنانيين، ودفعت كل فريق منهم إلى الانحياز إلى الجهة التي تمليها قناعاته أو مصالحه أو الإكتفاء بإيثار السلامة والترقب.

إن الحرب التي شنها السلطان العثماني على المماليك، هي في جوهرها وأسبابها

(1) هذا البحث موضوع دراسة شاملة في فصول لاحقة .

وغايتها، حرب السنة ضد الشيعة، للاقتصاص من هذه الطائفة والقضاء عليها. وهذا وحده يفسر هول المذابح التي قام بها الجيش المنتصر قبل وأثناء وبعد دخوله إلى بلاد الشام.

ويؤكد السلطان سليم أن الذي أفتى بوجوب هذه الحرب، هم علماء الأعصار والإمصار وهي ليست غير جهاد ديني ومقدس ضد الشيعة، وفرض إلهي تجيزه الشريعة وتعاليمها وتوجبه.

«أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والإمصار وأنا كنت متوجهاً إلى جهاد الرافضة والفجار فلما اتفق الغوري مع الرافضة تركت الرافضة ومشيت إليه»[1].

هذا ما يؤكده السلطان الغازي في مناظرته مع طومان باي[2] آخر سلاطين الشراكسة في مصر، مبرراً شرعية حربه ووجوبها وأسبابها. وفي الوقت الذي سارعت فيه أمهات مدن سوريا إلى فتح أبوابها لاستقبال الحاكم الجديد والترحيب به.

كان السلاطين الغزاة، يعتبرون حروبهم مع النصارى جهاداً اسلامياً في سبيل الله، وكانوا بعد كل غزوة مظفرة يرسلون البشائر إلى الممالك الإسلامية في الشرق لكي تحتفل بانتصار الإسلام وتقيم الزينات والأفراح، ويتلقون من حكامها التهاني والهدايا مشفوعة بمشاعر الفرح والتأييد وقصائد المديح والثناء.

وكان السلطان سليم أكثرهم حماساً واندفاعاً لنصرة الدين، ومحاربة الهراطقة. فجعل لجهوده الحربية هدفاً معلناً وهو وجوب القضاء على الشيعة قياماً بواجب ديني مقدس، وتنفيذاً لإرادة إلهية سامية.

بعد أن قام بتدمير بعض الإمارات التركمانية الواقعة على حدود دولة المماليك الشمالية، أرسل سليم إلى الغوري في 14 جمادى الأول سنة 921 هـ ـ 1515م رسالة يدعوه فيها إلى التعاون والتآزر في سبيل نشر السنة في العالم والقضاء على مخالفيها.

«صممنا العزيمة في السنة الآتية إلى تسخير البلاد الشرقية ودفع بقية السيوف

(1) تاريخ غزوة السلطان سليم الإشبيلي ص129.

(2) في المقابلة التي جرت بين السلطانين عقب أسر طومان باي وقبيل مقتله. راجع «آخرة المماليك» ابن زنبل الرمال. ص 244 .

من الفرضة القزلباشية، خذلهم الله ودمرهم بعون الله، فلا تلتفتوا إلى تضرعاتهم ولا تتقيدوا بسفسطاتهم».

ولما تلكأ الغوري في الجواب اتبعها برسالة ثانية في أول محرم سنة 922 هـ ـ 1516 م يقول فيها:

«إن قيامنا بتأديب القزلباش الملاعين، هو مجرد إظهار النواميس الإلهية، والشرائع النبوية، وكشف حجاب ظلام أعداء الدين والدولة، والعمل على نشر نور الشرائع النبوية على العالم».

ولما بدأت العلاقات تتأزم بينهما، أرسل له تهديداً وكأنه إعلان حرب يشير إلى أسبابها.

«اتضحت لنا تصرفاتك الرامية إلى تقوية الملحد المفسد الذي لا يدين بدين».[1]

كان مصير الإمارة الشيعية الأخرى في الجنوب أكثر مأساوية، فقد اختفى مع الاجتياح العثماني اسم بني بشارة مقدمي العشير في معاملة صفد، وتوارى في زوايا النسيان، ذكر ابن بشارة مقدم التيامنة الذي كان من عادة السلطان المملوكي **«ان يكتب باستقراره في نظر الشام بعد ان يسميه وزيراً»**[2] كما توارت منذ ذلك التاريخ، أسماء عائلات شيعية قوية طالما برزت على مسرح الأحداث المهمة في الفترة السابقة في بعض أنحاء البقاع الأوسط والغربي وحتى مشغرة وجزين وحولهما.

أما الشيعة في جبل لبنان، الذين نالوا من بطش المماليك وغاراتهم النصيب الأوفر، فقد اعتمدوا مرة أخرى على حصونهم الطبيعية الشاهقة، في جرود الجبال، واستعدوا لجولة طويلة أخرى من المقاومة والعناء والتصدي.

كان الحكم المملوكي في لبنان مباشراً شديد الوطأة، وقادراً على التدخل العسكري السريع في أية لحظة يرى نفسه بحاجة إلى التدخل، لإبقاء الأمور في الحيز الذي يرسمه ويسمح به. فنوابه، وهم في العادة من رجال الدولة وأبنائها وقادتها العسكريين، يقيمون في أماكن وحصون قريبة، وتحت إمرتهم الجند

(1) الفتح العثماني للشام ومصر أحمد فؤاد متولي ص 86

(2) السلوك، المقريزي ج3 ص 456.

الجاهزون عند الحاجة. فقد كان نائب طرابلس يشرف على الأمور في جبل لبنان عن قرب، كما يفعل نائب بعلبك في البقاع، ونائب صفد في جبل عاملة، بالإضافة إلى معاملة بيروت ـ صيدا التي تمسك بأمور الساحل اللبناني حتى أقصى جنوبه.

أدت هذه القبضة الشديدة إلى انحسار الشيعة نحو الداخل الجبلي، وانكماشها التدريجي حيث كانت رقعة تواجدها وانتشارها تزداد مع الوقت ضيقاً وتراجعاً. فلما حل الباشوات الأتراك مكان النواب المماليك، ولم تعد بعلبك وصفد مراكز حكم، وغلبت صفة الجابي على الوالي العثماني، الذي يولي اهتمامه إلى جمع أكبر مقدار من المال ليعوض مادفعه ثمن منصبه، ويبقى له ما يمكنه من شراء منصب آخر، تراخت هذه القبضة الحديدية وتضاءل اهتمام السلطة، رغم موقفها المعادي، بنشاط رعاياها من الشيعة وغيرهم لانصرافها إلى الاهتمام بأولويات أخرى شغلت جل قدرتها واستأثرت بمعظم جهودها، الأمر الذي سيغتنمه الشيعة ويحاولون الإستفادة منه في العودة إلى استئناف مسيرتهم الأولى.

«ففي بعلبك وجبيل قويت عائلتا مشايخ بني حمادة والأمراء الحرافشة وقد اعترفت بهم الحكومة الجديدة»[1].

«تعود إلى هذه الفترة ملامح الوجود والقوة، فقد ظهر عند المتاولة الحماديون والحرافشة، عائلتان كبيرتان ستلعبان دوراً غير محدود في تاريخ لبنان فيما بعد»[2].

يقول المؤرخ جاك نانته في تقويمه لوضع الشيعة في هذه الفترة الإنتقالية:

«استعاد المتاولة تقدمهم إلى الامام بعد جمود مؤقت، أنعشه وقاده الحرافشة الأقوياء، فسيطروا بقوة من بعلبك حتى صور»[3].

«استأنف الحماديون من جهتهم على رأس المتاولة تقدمهم المزدوج إلى الأمام بعد أن جمده المماليك»[4].

(1) سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي، بازيلي ص45.
(2) Histoire Du LIBAN G.NANTET p 178 .
(3) Histoire Du LIBAN G.NANTET p 95 .
(4) Histoire Du LIBAN G.NANTET p 94 .

الفصل الثاني

الشيعة
رعايا الدولة العثمانية

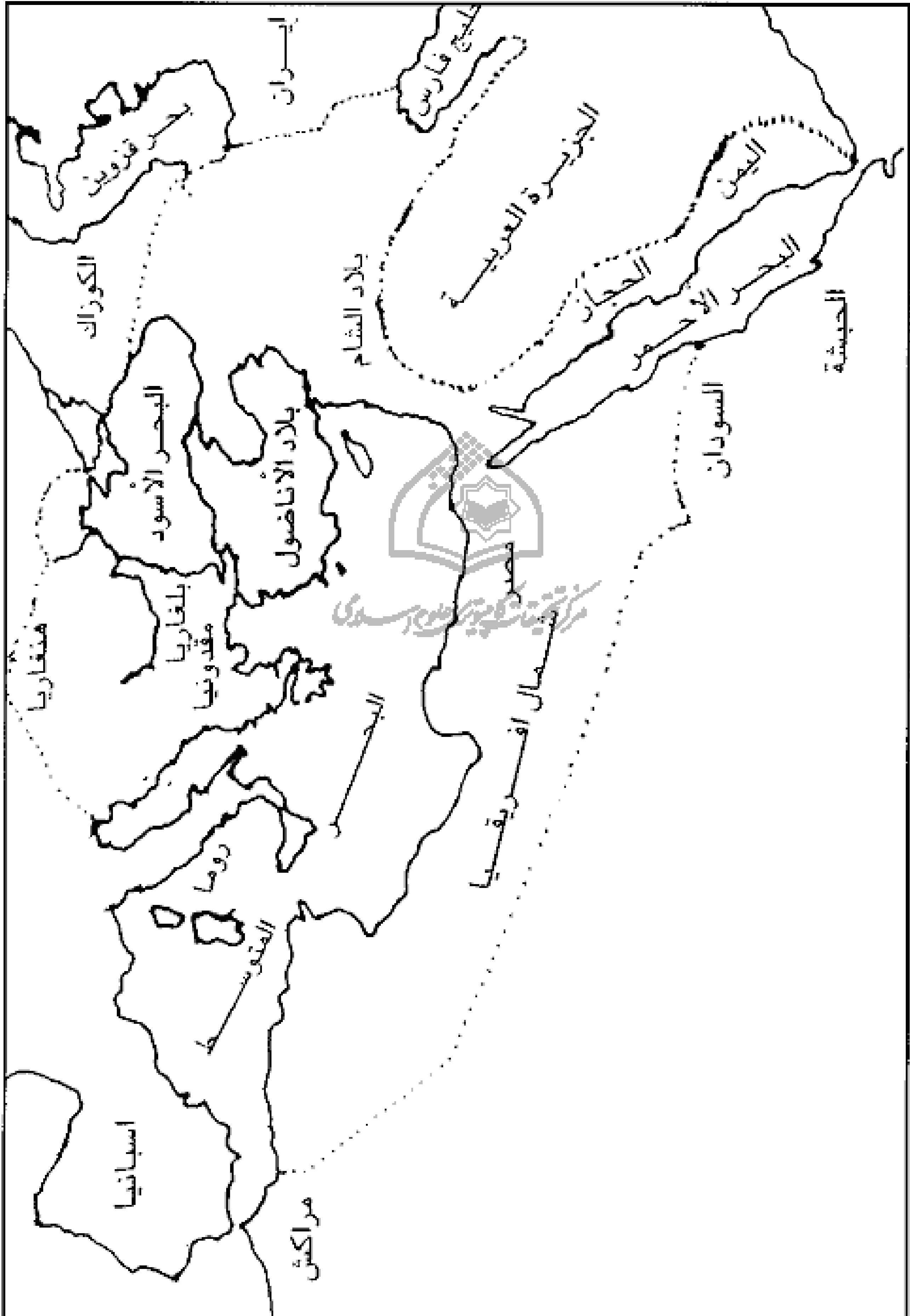
في مستهل القرن السادس عشر وقبل انطلاق الجحافل العثمانية إلى قلب العالم الإسلامي وعواصمه التاريخية القديمة في الشام ومصر والعراق، تبنت السياسة الرسمية في اسطمبول الخط المتشدد للنخبة الدينية والقضائية المؤثرة، في وجه الهرطقة، مشرعين بذلك قتل الروافض، كعقوبة شرعية وحيدة وواجبة التطبيق على كل من يثبت تشيعه. فكان ذلك هو المبرر القانوني والإيديولوجي للمذابح الكثيرة التي قام بها الجيش السلطاني في الأناضول أولا، ثم في سائر البقاع التي اجتاحتها جحافله. وبالطبع تابع البلاط العثماني تنفيذ سياسته في القرون التالية في ظل مناوشات متكررة وعنيدة ضد المقاطعات الشيعية في لبنان، فواصل قمعهم واضطهادهم بشكل منهجي وعلني. وقد بقي الحكام من الشيعة، الذين تعود جذورهم إلى أيام المماليك، هدفاً لحملات تأديبية متلاحقة على اعتبارهم لصوصاً وقطاع طرق ومغتصبين.

إن الأساس الإيدلوجي للدولة العثمانية يرتكز على مبدأين ثابتين. هما حماية المذهب الحنفي باعتباره ممثل الاسلام القويم والعقيدة الصحيحة، المتناقضة مع كل ما يفسد الإيمان، والخلافة السنية الكونية التي أخذت على عاتقها نشر الإسلام وتقويم اعوجاجه عن طريق الحرب المقدسة ـ الغزو ـ التي تعتبر كل من يساهم فيها مجاهداً في سبيل الله. وكل من تستهدفه زنديقا وكافراً لا بد من عقابه في الدنيا قبل أن يقوم الله بهذا الواجب في الآخرة.

إن مزيجاً من رواسب التراث السلجوقي السني والتقاليد الصوفية المتسربة من الديانات التركمانية[1] السابقة لسيادة الإسلام بينهم، وأفكار الحرم الآرثوذكسي

(1) الشامانية (shamanism) الديانة التركمانية قبل الإسلام.

الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر



المتشدد فى الإمبراطورية البيزنطية، هو الذي ميز التسنن العثماني عن باقي الأصولية السنية فى العالم العربي القديم. ورغم عدائتيها الجامحة للشيعة، فإن تبجيلاً خاصاً للإمام علي وبنيه وزوجه فاطمة بقي مرعياً في الكثير من الطقوس الصوفية، والتقاليد الرسمية، ربما بتأثير من طبقة الأشراف «السياد» المتحدرين من الرسول، والتي كانت على الدوام تتمتع بمكانة خاصة ونفوذ لافت في المجتمع العثماني. ونحن نلاحظ حتى اليوم أن الجوامع العثمانية وحدها تحمل نقوشاً ترمز إلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء إلى جانب الخلفاء الراشدين الأربعة الذين حافظت جميع المساجد السنية في العالم الإسلامي على مكانتهم المقدسة إلى جانب الرسول.

إن فكرة الغزو المقدس ضد أوروبا المسيحية كان الشعار المحوري الذي قامت السلطنة في ظله، فشكل لحمة بنيوية، وعقيدة جامعة، وهدفاً قومياً للمجتمع الأناضولي على اختلاف مشاربه وشعوبه وقبائله. ومنحتهم مثلاً أعلى يوحد بينهم برابطة متماسكة في غياب تطابق العرق والجنس والمطامح. لذلك لم يكن غريبا أن يصطحب السلاطين معهم إلى ساحات الحروب المئات أو الآلاف من رجال الدين «والدراويش» العزل يقتصر دورهم على اثارة الحمية الدينية والإبتهال إلى الله ليشارك في تحقيق النصر، فلما انتقل ميدان الفتوحات والمعارك إلى الشرق الإسلامي ولم تعد فكرة غزو المسلمين في ديارهم هذه المرة صالحة للقيام بدور جامع يلهب الحماس والإندفاع السابقين، استبدلت بفكرة الحرب المقدسة الملزمة بالفتاوي الشرعية التي تدعو إلى الجهاد ضد الهرطقة الإسلامية عند الصفويين وحلفائهم المماليك وسائر المارقين من الإسلام الصحيح وأصبح العداء للشيعة وقتالهم شعاراً قومياً ودينياً ووطنياً للسلطنة لمدة قرون بعد ذلك.

بدأت السياسة العثمانية تعطي الأولية لقتال الشيعة على قتال النصارى في البلقان، قبل سنوات قليلة من بدء الإجتياح العثماني شرقاً . وتكاثرت الفتاوى الشرعية الصادرة عن أرفع المقامات الروحية تضع الأسس التشريعية والقانونية لهذه السياسة وتطبيقاتها العملية.

في سنة 1512م صدرت فتوى برعاية السلطان سليم عن القاضي حمزة أفندي تعتبر: «**إن القزلباش كافرون لا دين لهم ويتوجب على جميع المسلمين قتلهم. مالهم حرام، ونكاحهم باطل، وقتلهم جائز شرعاً**[1] **دون جواز قبول توبتهم، وتوزيع أملاكهم**

(1) الانتفاضات العلوية في الاناضول، محمد نور الدين ص117.

ونسائهم وأولادهم على المجاهدين. إن ممارسات القزلباش الإلحادية وخاصة لعنهم لصحابة النبي حسب التقاليد السنية يكفي لهدر دمائهم وإعطاء الصلاحية المطلقة لقادة الجيش العثماني بتنفيذ ذلك».

«اعلموا أيها المسلمون وحاذروا، إن العصاة القزلباش يعارضون قانون النبي وتقاليده وتعاليم الإسلام والإيمان به وبالقرآن المقدس، إنهم يعبدون أنفسهم ويسجدون لقادتهم الملعونين ويشتمون أبا بكر وعمر وينكرون خلافتهما.

لهذه الأسباب ولغيرها من المعاصي أحكم أنا وجميع علماء الإسلام، بأن كل من ينتمي إلى هذه العصابة هو كافر ومرتد. وكل من يميل إليهم أو يعينهم هو مرتد وكافر أيضاً. إن سحقهم وتشتيتهم هو فرض على كافة المسلمين. إن كل مسلم يموت في سبيل تنفيذ هذا الواجب هو شهيد في السماء الأعلى يستحق الثناء. وإذا قتل أحدهم فهو خسيس في أسفل جهنم. وحكمهم أسوأ من غير المؤمنين. وكل ما يذبحونه أو يصطادونه ولو بصقر أو قوس أو كلب فهو دنس وزواجهم أكان علنياً أو باطنياً فهو باطل ولاحق لهم بالميراث».

ويذهب ابن كمال أبعد من ذلك فيحكم بإدانة الشيعة عموماً دون تخصيص واسقاط هويتهم الإسلامية والقضاء عليهم وعلى عائلاتهم وممتلكاتهم.

ولم تخرج فتاوى شيخ الإسلام أبو السعود[1] عن إحكام أسلافه على الشيعة والقزلباش. مما أرسى السياسة العثمانية الرسمية ضد المجتمعات الشيعية التي لم يخرج عنها المثقفون العثمانيون وأهل الرأي والفكر. ويجب أن نشير إلى أن أصحاب هذه الفتاوى هم غالباً موظفون عثمانيون يتقاضون رواتب حكومية، أو من المتضررين من ثورات القزلباش وحروب الصفويين واللاجئين إلى بلاط السلطان ومملكته يطلبون حمايته. وقد استحوذت على مشاعر العامة وأفكار النخبة وفي جميع الأوساط حتى أصبحت الفكرة الغالبة على نخبة المجتمع بأسره واستمر الإضطهاد في عهد سليم الثاني (1566م - 1574م) ومراد الثالث (1574م - 1595م) فتسب إليهم «**الفسق والفجور وعدم إقامة الصلاة ولعن عمر وعثمان والإلحاد والرفض والزندقة والتعاون مع الصفويين**». ودعا الشيخ عزيز محمود هدائي[2] إلى تعيين أمام سني في كل قرية شيعية أو علوية

وما أن انتصف القرن السابع عشر حتى كان العلويون في الأناضول قد سحقوا فمالوا إلى «التقية» والإختفاء في بلاد كانوا أكثرية أهلها وكان عليهم أن ينتظروا إعلان

(1) الامارات الشيعية ص26 عن Tarih Dergisi 22, 1967 p.4-55

(2) ان المشايخ حمزة افندي وابن كمال وابو السعود وهدائي هم من شيوخ الاسلام ومفتيي اسطمبول

النظام الجمهوري العلماني على يد أتاتورك لاستعادة بعض من هوية فقدت الكثير من سماتها الأصلية[1].

لا شك أن النظرة العثمانية إلى الشيعة كانت في الأساس وليدة أحداث عسكرية وسياسية، أكثر منها نتيجة تباين في الفقه أو في الإجتهاد، فإن الحروب الصفوية وثورات القزلباش على السلطنة قبل كل شيء آخر، هما اللذان كانا المنطلق الرئيسي لرسم السياسة العثمانية نحو المذهب الشيعي بشكل عام[2]، ولكن كان لا بد في مرحلة قادمة من إيجاد مبررات فقهية وقانونية لهذا الخلاف الدموي ذي البعد الإلهي، فظهرت بعد فترة مناقشات ومجادلات تتناول الكثير من مظاهر الخلاف اللاهوتية بين المذهبين، حتى وصلت إلى أعلى المقامات الدينية العثمانية وأبرزها. فأرسل شيخ الإسلام محمد أسعد أفندي رسالة إلى فقيه شيعي قريب من الشاه عباس تأتي على ذكر بعض أهم ما كانت تتناوله المآخذ التقليدية على الشيعة من لعن الشيخين والمهدي المنتظر، وصلاة الجماعة وغيرها من الأمور الخلافية، ويؤكد فيها رغم السلام الذي كان سائداً في حينها بين الدولتين على حق سلطانه في قتال الشيعة وقتلهم حتى ولو كان بين السلطان والشاه معاهدة سلام مرعية الجانب[3].

إن الحروب الطويلة مع الصفويين، والقمع القاسي والدامي لثورات القزلباش الخطيرة والمتكررة في نفس الأناضول، غرست في المجتمع العثماني، من الإدارة العليا المتمثلة في السلطان ومماليكه وبطانته والمقربين منه، إلى جيوشه وانكشاريته قادة ومحاربين، إلى التنظيمات الدينية والمؤسسات الشرعية والمدنية المزدهرة في كنف السلطة وتحت اشرافها ثقافة، رسخت في عمق كل مكونات هذا المجتمع العدائية المفرطة نحو الشيعة واحلتها في المقام الأول من الشؤون العامة. وفي سلوكها الفكري والديني والسياسي والعسكري. وإذا كانت هذه الدولة في مبدأ نشأتها، قد جعلت من العداء للعالم المسيحي في رأس أولوياتها، فقد حققت عليه انتصاراً حاسماً بسقوط القسطنطينية، خفف إلى حد ما من غلواء هذه العدائية وجموحها، الشيء الذي لم يتحقق بالقدر نفسه أمام العدو الصفوي على تخومها الشرقية، فبقي هذا الشعور

(1) الأقليات والقوميات في السلطنة العثمانية بعد 1516م مجموعة باحثين ص 118، الباحث محمد نور الدين.

(2) قام القزلباش بأكثر من خمس عشر انتفاضة كبيرة في الأناضول ضد السلطنة في القرن السادس عشر.

(3) الإمارات الشيعية ص 29.

بالعداوة متأججاً، تزيد من استعاره الثورات الداخلية الموالية للصفويين والمنادية باسمهم، فقد كان شعار الشاه كولو الملهم لكل الثورات التي قامت بعده **«الدولة والسلطنة لنا»**.

ولم يكد الصراع الفارسي العثماني يهمد أخيراً، وترتاح السلطنة من ثورات القزلباش المتتالية بعد أن نجحت في اخمادها ويسود العلاقات ميل غير مسبوق إلى التعاهد والسلام، حتى اتجهت الدولة لتصفية حساباتها مع الوجود الشيعي في غرب سوريا، وهو بطبيعته يميل إلى العصيان والتمرد والعناد. مما ايقظ مشاعر الكراهية القديمة والمتأصلة. في الوجدان العثماني بشكل عام واستقطب من جديد حملات القمع والإفناء والتدمير مصحوبة بالغطاء الإلهي من فتاوى العلماء الداعية إلى الإنتصار للإسلام، وتطبيق الحدود، والجهاد في سبيل الله والملة.

في هذه الفترة التي بدأ العثمانيون يركزون عداءهم التقليدي على الشيعة اللبنانيين، ظهر في عاصمة السلطنة اتجاه لتضخيم دورهم في نشوء الدولة الصفوية ومعتقداتها الخبيثة. فنسبت بعض الكتابات إلى شيخ شيعي من جبل عامل أنه كان وراء أفكار الشاه اسماعيل ومتعقداته الخارجة عن الإسلام.

«من منطقة جبل عامل قرب دمشق، ظهر الطريد الشيعي، ونافورة الهرطقة، الرافضي الملعون، عبد العال قائد المشاغبين، ورئيس كهنة الضلال. التحق بالشيخ الأردبيلي اسماعيل ودعمه وساعده لنشر هذه التعاليم الباطلة زاعماً أنه شيخ الإسلام وهو في الواقع شيخ الكفر»[1].

إن هجرة العلماء الشيعة العامليين إلى إيران الصفوية ودورهم المؤثر فيها هو واقع معروف ومتواتر. ولكن قيمة مخطوطة السليمانية العائدة إلى القرن السابع عشر **أنها تقدم مستنداً معاصراً على أن الدولة العثمانية كانت على علم ومعرفة بدورهم السياسي وبأنه كان هناك اعتقاد في ذلك الحين على أن لبنان هو رأس ينبوع الشيعية**[2].

---

(1) علي بن عبد العال الكركي ت 1533م درس في الكرك ثم أقام في دمشق والقدس والخليل وأكمل دراسته في مصر.

بدأت علاقته مع الشاه اسماعيل بعد فتح هراة 1510م. وصار يوجه النشاط الديني في كامل الدولة الصفوية. ولقب «بمجتهد الزمان» وبقي نفوذه الشديد أيام طهماسب ابن اسماعيل الذي أصدر أمراً يعتبر أن كل من خالف حكم «خاتم المجتهدين، ووارث علوم سيد المرسلين، ونائب الأئمة المعصومين الذي لا يزال كاسمه العلي علياً عالياً. فمن خالفه يقع عليه التأديبات البليغة، والتدبيرات المظيمة.

(2) مخطوطة عثمانية غير موقعة وضعت في القرن السابع عشر وموضوعها النزاع العثماني الصفدي وخلفياته المذهبية بأسلوب ساخر شعراً ونثراً.

وفي الواقع كان العالم الشيعي اللبناني علي بن عبد العال أكثر الشخصيات نفوذاً في مبدأ الدولة الصفوية دينياً وزمنياً وفكرياً وكما قال عنه عالم أرالي عباسي «**انه كان ملك ايران وأهلها**».

وبما أن مختلف الجماعات الشيعية المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية هي دائماً عرضة لتطبيق أحكام شرعية وجزائية خاصة تنال من حياة أفرادها وحرياتهم العامة حتى أن التزاوج بين الشيعة والسنة كما هو التوارث بينهما كانا محظورين بحكم القانون على الإجتهاد الغالب. فقد اضطر الشيعة في ممارساتهم العامة والعلنية إلى الإحتماء «بالتقية» لدفع الضرر. فلم يكن من النادر أن تحكم بعض العائلات النافذة مدناً مثل المدينة والإحساء شرط إخفاء تشيعها أو على الأقل عدم التركيز عليه واستحضاره. أو أن يعمد بعض كبار علماء جبل عامل في أسفارهم وتنقلاتهم بمن فيهم الشهيد الثاني إلى إظهار شافعيتهم في العلن[1] أو التنكر وإخفاء الصفة كما فعل بهاء الدين العاملي عند عودته إلى بلده الأم عن طريق حلب[2].

وكان الحجاج من الشيعة يجهدون في التستر وكتم حقيقة معتقدهم في طريقهم إلى تأدية الفريضة فكانت الدولة تشدد من أوامرها إلى ممثليها لتقصي حقيقتهم وكشف تنكرهم وانزال العقاب الشرعي بهم.

في شباط 1581م صدرت الأوامر إلى حاكمي البصرة والإحساء بوجوب الكشف عن هوية الحجاج المذهبية الحقيقية وخصوصاً القادمين من فارس والعراق.

«إن بعض القزلباش من الشرق يدعون أنهم تجار ويقصدون دمشق وحلب ليفسدوا بعض المؤمنين ويغرروا بهم ثم يلتحقون بقافلة الحاج الشامي للذهاب إلى الأماكن المقدسة.

اختر من بين رجالك أكثرهم ثقة وخبرة في التجسس واجمع المعلومات عنهم بكل وسيلة ممكنة تحرى عن وضعهم بالسر والعلن وإن وضح لك شرهم أسجنهم وبلغنا فوراً وبكل تأكيد بلغ كل الأمراء والقضاة والضباط في المنطقة[3]».

وحدهم شيعة المرتفعات اللبنانية، وبخلاف أهل المدن الساحلية المتسنين. لم تحجب التقية حقيقتهم وظهروا وكأنهم طليعة المواجهة الشيعية العثمانية في فترة تاريخية ومفصلية، لم يتوقف عندها التأريخ اللبناني المتداول إلا قليلاً.

(1) تاريخ جباع علي مروة ص46.
(2) الهجرة العاملية الى ايران المهاجر ص162.
(3) ا. د. م 42:175 ـ 553

ولم يمنع كل ذلك من ظهور بعض لمحات التسامح المتناثرة نحو المعتقدات العلوية عموماً كانت تبدر من السلطة الحاكمة بين الفينة والأخرى.

فقد قام السلطان سليمان، بعد احتلال جنوب العراق سنة 1534م، بترميم المشاهد المقدسة في النجف وكربلاء حيث يتجه الشيعة لزيارة قبر الإمام علي والإمام الحسين باعتبارهما المشاهد المقدسة الأهم في العالم الشيعي. ووافق الديوان الإمبراطوري على السماح لأصفهان بكسوة مزار الإمام العسكري في سامراء[1] حتى أن المزارات الشيعية في الريف الأناضولي نفسه عرفت بعض التساهل وتنامت الأخويات المهنية الشبيهة بالنقابات ذات الجذور السلجوقية والعواطف الشيعية[2] وهذه كلها مظاهر بقيت مفقودة ومقموعة في سوريا الشيعية، حتى مقام السيدة زينب في ضاحية دمشق ومقام النبي نوح في الكرك وغيرها من المزارات المشابهة لم يعترف بهويتها المذهبية حتى العصر الحديث. وكأن النزر اليسير من التسامح العثماني لم يصل أبداً إلى بلاد الشام.

وبقيت الشيعة القبلية في غربي سوريا ومرتفعاتها (لبنان) أكثر مواد سجلات الحملات والشكايات تداولاً مقارنة بغيرها من المجتمعات العثمانية الأخرى. ويبقى تاريخ ثوراتهم ومعاقبتهم وقمعهم وتأقلمهم دليلاً ساطعاً على تعقيدات الفكر الديني في الإمبراطورية وعلى الطابع المحلي للتاريخ اللبناني وبعض أجزاءمن سوريا في العصور الحديثة[3].

كيف تحولت الطوائف إلى شعوب

عرف لبنان، الانقسامات الطائفية والمذهبية، وما تجره من صراعات وحروب ونزاعات، منذ ما قبل ظهور الأديان السماوية. ولم تكد المسيحية تنتشر في ربوعه في بداية ظهورها، حيث تأسست أول مطرانية في صور قبل نهاية القرن الثاني، حتى نشبت

(1) الإمام الحادي عشر الحسن بن علي المعروف بالعسكري.
(2) حول هذه الأخويات في العصر السلجوقي راجع رحلة ابن بطوطة إلى بلاد الروم ص 265 - 269 الجزء الأول.
(3) الإمارة الشيعية ص 59

صدامات دموية حادة بين أتباع الدين الجديد وكل من الوثنية كما حصل في بعلبك في عهد المطران شاودوسيوس الكاثوليكي. واليهودية كما حصل في صور في مذبحة عيد الفصح الشهيرة. وعندما عم انتشار المسيحية في لبنان، وتغيرت سياسة الدولة الرومانية حيالها وأعلنتها ديناً رسمياً للدولة في عهد تيودوسيوس (379 - 395)م، بدأت المسائل العقائدية والاختلافات الايمانية تحتل دوراً هاماً في ظهور المذاهب المسيحية المتصارعة اعتباراً من القرن الرابع الميلادي بعد مجمع نيقيا 325م، والمجمع الخليقدوني 451م. فظهر في لبنان الصراع السرياني البيزنطي، واقترنت الفروق النظرية بمفارقات اجتماعية واقتصادية وسياسية. فظهرت المذاهب المسيحية المختلفة والمتنافسة[1]، مما أصبح فيما بعد من أهم سمات تطور ها في لبنان. أما عند المسلمين، فقد بدأت الصراعات والحروب المذهبية منذ وفاة الرسول، وانطلقت من تنافس أصحابه على منصب الخلافة.[2] والحروب التي جرت بينهم نتيجة ذلك، فكان لا بد من إعطاء هذا النزاع بعداً دينياً ومذهبياً، في دولة كان الدين هو سبب وجودها ومبرر دوامها.

بلغت المذاهب الاسلامية في لبنان أوج انتشارها في العهد الفاطمي، **فغاز التشيع في جميع انحائه**. وظهر المذهب الدرزي في وادي التيم ثم انتشر غرباً إلى جبل الدروز، وتعددت الشيع الإسلامية الباطنية فيه. ولكن الاحتلال الصليبي وما استتبعه من حروب متواصلة مع الأيوبيين، ثم مع المماليك، دمر غالب المدن الساحلية التي كان التشيع قد غلب عليها كطرابلس وجبيل، ففر الناجون إلى الجبال القريبة هرباً من ويلات الحروب واضطهادات الحكام. وعندما استعر الخلاف الصفوي العثماني، ووصلت جيوش السلطان سليم إلى بلاد الشام، كان لبنان بتعدد طوائفه، أرضاً خصبة، زودت نظام الملة في البلاد التي خضعت لسيطرة العثمانيين بعداً قومياً وكيانياً لم تعرفه سائر أنحاء الامبراطورية.

ففي بداية القرن السادس عشر، بدا أن هذه المنطقة من الشرق مقبلة على تطورات سياسية وعسكرية ومذهبية حاسمة، فأعدت الدول الكبرى الثلاث جيوشها وبدأت تستعد لما كان يلوح في الأفق من معالم التحول والتبدلات.

تحت ضغط الوضع المستجد على حدودهم الشمالية، بدأ المماليك يتوددون إلى

(1) لبنان في تاريخه وتراثه مركز الحريري الثقافي ص 129.
(2) وربما في بعض الحالات تعود إلى أسباب قبلية تسبق في تاريخها وجذورها ظهور الإسلام.

الشيعة، تحسباً لما قد تؤول إليه الأمور، ولا سيما وأن التحالف مع الشاه اسماعيل لمجابهة الخطر العثماني الزاحف من الأناضول قد أصبح من الاحتمالات التي يجري التداول بها. وأن اكتساب ود الشيعة قد يساهم في تحقيق هذا التحالف. وقد يدفعهم إلى الإشتراك في المواجهة المنتظرة إلى جانب مضطهديهم السابقين. فأظهروا تساهلاً غير مسبوق في اطلاق حرية الشيعة في ممارسة شعائرهم ورفع سيف القمع عن رقابهم حتى أنه سمح لهم لأول مرة في دمشق، ومنذ عهد بعيد بإحياء ذكرى عاشوراء علناً، وهي أهم المظاهر والمراسم الشيعية التي كانت ممنوعة ومحرمة، ورغم اعتراض العامة على ذلك سمح نائب الغيبة بها دون الالتفات إلى الأصوات المستهجنة والمستنكرة والمعترضة.

قبل أن تصل جيوش السلطان سليم المنتصرة إلى لبنان أو قريباً منه، كانت أخبار المذابح التي قام بها حاصداً الآلاف من الشيعة في مختلف مدن سوريا، ولا سيما حلب، والتي لم تقل وحشية عما تعرض له أتباع هذه الطائفة على يده في الأناضول قبل وصوله، قد حركت مشاعر اخوتهم في لبنان، فتنامت عداوتهم له. وكان قد اجتاح بلاد الشام، ودخل عاصمته قبل ذلك بمدة وجيزة. كل ذلك زاد في اندفاعهم لاتخاذ موقف سلبي من الفاتح الجديد ومن جيشه ومن دولته.

أكمل السلطان المنتصر في مرج دابق طريقه نحو دمشق، دون أن يصادف في طريقه مقاومة جدية بل سارع أهل المدينة، كما فعل أهل حلب قبلهم، إلى استقباله استقبالاً ودياً، والخطبة بإسمه على منابر المساجد والمناداة به سلطاناً وخادماً للحرمين الشريفين.

«**إن طوائف السوريين من العرب والدروز والمارونية وقبائل البدو المقاتلة التي كانت تقطن المرتفعات السورية فتحت له أبواب دمشق**[1]» إلا أن الشيعة كان موقفهم مغايراً تماماً إذ تجمعوا في منطقة البقاع بقيادة أمير حرفوشي لمقاومة الجيش الفاتح، ولكن هزيمتهم ومقتل أميرهم، أودى برأسه إلى الأستانة مفتتحاً الطريق أمام رؤوس شيعية كثيرة سيقطعها السيف العثماني ويرسلها إلى الأستانة وغيرها من مراكز الحكم في القرون الأربعة التالية.

(1) تاريخ تركيا، لامارتين ص 177.

إن السياسة التي اعتمدها العثمانيون في المناطق المحتلة، ساهمت في اذكاء الشعور بالإنتماء المذهبي عند رعاياهم عموما و في لبنان على الأخص. وأعطت دفعاً كبيراً لعملية تحول طوائفه إلى مجموعات متباينة لكل منها تنظيماتها وسياستها ومسيرتها الخاصة.

إن أهم ما ساعد على هذا الاتجاه الخطير في مسيرة الطوائف اللبنانية نحو التحول إلى شبه دويلات مستقلة ذاتياً في جسم الدولة الضعيف والمنهك هو مجموعة من السياسات والتدابير التي سهلت حصول هذا الأمر، ولم تشكل عائقاً يحد من ديمومته واندفاعه وأهمها:

1 ـ اعتماد نظام الملة.

2 ـ تراخي قبضة الدولة المركزية على الأقاليم والولايات.

3 ـ تبدل طبيعة النظام الاقطاعي وظهور الحكام المحليين.

4 ـ تركيز جهود الدولة على عملية تحصيل الضرائب والأتاوات.

5 ـ تحول زعماء العشيرة إلى زعماء على الطائفة.

6 ـ تراجع دور رجال الدين لحساب زعماء الطائفة.

7 ـ دخول الموارنة في وقت متأخر إلى المعادلة السياسية اللبنانية، وقيام تنظيماتهم الكنسية المتطورة اقتصادياً وفكرياً والفنية باتصالاتها وعلاقاتها الخارجية.

1 - الدولة والملة

اعتمد العثمانيون التابعية الدينية أساساً وحيداً لتصنيف الرعايا، دون اعتبار آخر للجنس أو العرق أو القومية، فصار المسيحي اللبناني على مذهب الملكي يعتبر من «ملة الأروام» مع البلغاري والروماني الارثوذكسي، تعاملهم الدولة «كجماعة واحدة» تخضع لقانون واحد، ورئيس واحد هو بطريرك الروم في القسطنطينية. كما هو حال باقي طوائف النصارى واليهود وجميع أهل الذمة بحسب مصطلحات الشريعة.

فكان من الطبيعي أن يعزز هذا النظام التلاحم والترابط، بين أبناء الملة الواحدة، ويخلق بين أفرادها رابطة من نوع خاص، ليس في الشؤون الدينية والعبادية فحسب، وإنما تشمل القضايا المدنية والسياسية، بحيث يصبح هذا التكتل المعترف به قانوناً، أشبه بحكومة مصغرة لها قوانينها الخاصة والمتميزة، ليس في أحوالها الشخصية فحسب، بل في أمور متعددة أخرى تتعلق بالقضاء الجزائي والمدني، وتخضع لسلطة رؤوسائها الروحيين دون تدخل من أجهزة الدولة وقضائها. وكانت جالية البندقية من أولى الجاليات التي تمتعت بهذه الامتيازات بموجب معاهدة عقدت بين السلطان سليمان الأول والبندقية وازداد حجم هذه الامتيازات بتضاؤل القبضة العثمانية في الإمساك بكل شؤون رعاياها. وفي عام 1740م وقع السلطان محمود الأول، معاهدة مع لويس الخامس عشر، أصبحت فرنسا بموجبها حامية جميع المسيحيين الذين يزورون الإمبراطورية العثمانية، وكان ذلك أساس إدعائها فيما بعد أنها حامية جميع الكاثوليك في الشرق. لقد امتد هذا النظام مع الزمن ليشمل بعض رعايا الدول الأجنبية، فأصبح هناك ملة الافرنج، وملة الإنكليز، وغيرها من الملل، التي تخضع في الكثير من شؤونها لسلطة قنصل الدولة التي تنتمي إليها. مما عزز أواصر الترابط بين أفراد الملة الواحدة، وثبت انتمائهم الأول إليها، على حساب انتماءاتهم الأخرى، ولا سيما إلى الدولة التي يعيشون في ظل سلطتها مع مواطنيهم من الملل الأخرى.

أما الطوائف الاسلامية غير السنية فلم تتمتع بميزة اعتبارها ملة شأن غيرها، إذ أن الدولة لا تعترف بها وتتجاهل حتى وجودها. فهي لا تدخل ضمن طائفة الدولة الحاكمة ولا تعتبر ملة أخرى، مما خلق وضعاً غريباً ومعقداً، صار فيه تصنيف هذه الطوائف كجماعات معادية أو شاذة عن الأنظمة المعمول بها والمعترف بشرعيتها.

تشابك في ظل هذا النظام العثماني الفريد والمعقد، مفهوم العقيدة والقومية والطائفة والانتماء، بحيث لم يعد من السهل التمييز بين كل منها وتحديد مواضع الالتقاء والتمايز لا في ذهن الحاكم ولا في ذهن الرعية.

في معرض تحليله للصعوبات والعلل التي تحول دون تقدم الدولة العثمانية، يقول أحد مفكريها ضيا باشا «في آسيا العرب والأكراد والزيدية والشيعة نشأوا وكبروا

ببذر الفساد الذي بذره الشاه اسماعيل، فكان الأولون خصوم الإسلام، والآخرون خصوم الأتراك. وكانت مناداتهم بنصر السلطان من الألسن لا من القلوب»[1].

تحت تأثير هذا النظام، وجد كل من يعيش في المناطق العثمانية نفسه مضطراً إلى الإلتجاء باندفاع وحماس نحو طائفته لينضوي تحت لوائها، ويشعر بانتمائه النهائي والأقوى إليها مما أعطى لكل طائفة، شكلاً من الوحدة القومية التي تنفرد بتوجه اجتماعي وفكري وحضاري وسياسي، قد لا يتشابه مع الطوائف الباقية، فتتسع الهوة الفاصلة بينها، وتتحول الطائفة إلى شعب له خصائصه وتطلعاته يتميز عن باقي شعوب الامبراطورية ومللها وينفرد بشعور وتوجه متميزين.

أدخلت الدولة العثمانية نفسها باعتماد هذا النظام في ملة معينة دون سائر الملل، خصت نفسها بها وميزتها عن مثيلاتها وشملتها بعطف خاص، ورعاية كاملة، ومنحتها كل الحماية والاهتمام. فشعر الباقون أنهم مواطنون مختلفون، لا يتمتعون بالمساواة مع غيرهم، وأنهم بحاجة إلى حماية في وجه ما يمكن أن تتخذه هذه الدولة والملة الأقوى من تدابير تؤدي إلى اضطهادهم، أو ظلمهم أو التنكيل بهم، أو على الأقل اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية. فبادرت إلى إلقاء نفسها في أحضان أول دولة أو سلطان يعرض عليها الحماية أو سعت إلى إيجاد هذا الحامي، لتقيم معه علاقة التابع بالمتبوع، والعمل على التقرب منه واستجلاب المنافع التي يمكن الحصول عليها، مادية كانت أم معنوية، فتنمو هذه العلاقات مع الوقت وتتجذر، وتشمل مختلف أوجه الحياة، من سياسية واقتصادية وثقافية، فيصبح ملك فرنسا هو الملك الفعلي على الموارنة، كما هو قيصر روسيا على الأورثوذكس، وملك انكلترا على البروتستانت أو ملكاً على الدروز في ظروف سياسية معينة.

تعذر على الشيعة ايجاد دولة أجنبية أو ملك يؤمن لهم الحماية المأمولة، لأن الدولة الشيعية الوحيدة في ذلك الوقت وهي دولة الصفويين، لم يكن لها أية علاقات دبلوماسية أو قنصلية مع الدولة العثمانية إنما كان بين الدولتين تاريخ طويل من الحروب والعداء، ورغم ذلك استمر التواصل بين الشيعة والصفويين، حتى أصبحت أصفهان وغيرها من المدن الفارسية مقصد كل نابه وطامح من شيعة لبنان.

(1) خطط الشام، كرد علي، الجزء الثاني، ص 228.

2 - تراخي قبضة الدولة وسلطة الإدارة

تحولت الدولة العثمانية إلى دولة عظمى في فترتها الأولى بفضل قوة جيشها وحسن تنظيم الإدارة فيها، فامتد سلطانها من أواسط أوروبا غرباً، إلى شمال أفريقيا شرقاً فسارعت ملوك أوروبا ودولها إلى التقرب من سلاطينها العظام بعد سقوط القسطنطينية في يد محمد الفاتح (1456م) ووصول جيوشها إلى أسوار فيينا، بعد أن أصبح البلقان وشرق أوروبا مجرد ولايات عثمانية. ولكن عوامل الضعف الكامنة في بنيتها والتقدم الحضاري الذي شهدته أوروبا، والحروب المنهكة التي خاضتها على جبهات مختلفة، ترافقت مع تحول سلاطينها من قادة عسكريين وفاتحين تاريخيين، إلى طغاة فاسدين ومترفين. فدخلت ابتداءاً من القرن الثامن عشر في طور التفكك والوهن والانحسار المتواصل حتى لم تعد أكثر من « **رجل مريض طال نزاعه**». فظهرت روح التململ والتمرد لدى سائر الشعوب والأقليات الدينية والعرقية التي خضعت لها في الماضي. وتوالت الثورات وحركات العصيان في ولاياتها النائية والقريبة، حتى وصلت أحياناً إلى العاصمة نفسها. وتحول الجيش الذي أرهب العالم فيما مضى، إلى شراذم مبعثرة من الغوغاء والمشاغبين تعيث فساداً في مختلف الولايات ومراكز الحكم. وتحولت الإدارة التي كانت من أسباب عظمة الدولة وجبروتها في الماضي، إلى سوق رائج للرشوة وشراء المناصب والتعدي على هيبة الدولة وأموال الناس وكراماتهم.

في ظل تفاقم هذه الأوضاع السيئة، وجدت الأقليات العرقية والطائفية والمذهبية فرصة لتأكيد ذاتها، والتعبير عن وجودها وكيانها، فتحركت في مختلف أرجاء الامبراطورية الشاسعة التي تتكون أساساً من مجموعات متعددة ومتنافرة من الأقليات المتباينة.

وقد انعكست هذه الحالة العامة على لبنان كباقي الأقاليم، إلا أن ما اختص به هذا البلد، من تعدد مذهبي وانفتاح على الأفكار والتيارات الخارجية، ميزت تجاوبه وتفاعله مع هذه الحالة، فكان له ازاءها تحرك على شيء كبير من الخصوصية والتشعب والتعقيد.

إن العوامل التي ساعدت في اطلاق هذا التحرك في لبنان تعود إلى أوضاع خاصة به وأخرى تعود إلى الدولة الحاكمة وطبيعتها وأهمها:

أولاً: الموقع الجغرافي

يعتبر لبنان من بين المناطق العثمانية النائية، لبعده الجغرافي عن العاصمة، في ظل نظام اداري وعسكري، يفتقر إلى الوسائل الفعالة لمراقبة ما يجري في الولايات البعيدة، والتدخل العسكري السريع فيها، مما حدّ من رهبة اللبنانين من السلطة المركزية ودفعهم إلى الاستخفاف باجراءاتها الانتقامية والتأديبية.

ثانياً: الدولة الدينية

قدمت الدولة العثمانية نفسها إلى رعاياها والعالم الخارجي كدولة دينية ومذهبية، تعتبر رسالتها الأولى نشر الدين، وتطبيق أحكام الشريعة. فهي المدافعة عن الإسلام وحامية المذهب السني. فوجد اللبنانيون أنفسهم دائماً غرباء عنها، وشعر أبناء مذاهبه الكبرى الثلاثة الموارنة والشيعة والدروز، أنهم جسم مختلف فرضت القوة الطاغية على كل منهم الخضوع لمن يعتبره هجيناً وخارجاً. فكان الإحساس بالتنافر متبادلاً، وينتظر الفرصة المناسبة للإعراب عن حدته، مما زاد من تعلق الفرد بأبناء مذهبه وتمسكه به، باعتباره وحدة جامعة تؤمن له الحماية والأمان. فأصبح الانتماء المذهبي هو الغالب على سائر الانتماءات ولو أن بعضاً من ملامح الاصطفاف العرقي كانت تلوح أحياناً في مناسبات معينة ومحصورة[1]. خصوصاً وأن الشعور العرقي والقومي لم يكن قد انتشر بعد، في داخل الامبراطورية وخارجها، كما حصل في نهايات القرن التاسع عشر.

ثالثاً: التدخلات الأجنبية

منذ القرن السادس عشر، شهد لبنان تنامياً مطرداً في الحضور الأجنبي، أفكاراً ومؤسسات على شكل تجار أو دبلوماسيين أو قصاداً رسوليين، ومنظمات دينية. مما أوجد قنوات اتصال متعددة وفاعلة ومستمرة، تعاملت مع اللبنانيين كمذاهب، دون أن تنظر إليهم كشعب أو كمجموعات مناطقية. فكان البنادقة أول من دعم ثورة مذهبية في لبنان، ضد الحكم العثماني في أواسط القرن السادس عشر، فزودوا الدروز

(1) برزت أحياناً في ظل العثمانيين حركات عصيان وتمرد يلوح في تحالفاتها اللبنانية جانب من الرابط العرقي أو القومي المرتكز على الأصل العربي فتعاونت على القيام بها عائلات ذات أصول عربية رغم اختلاف انتمائها المذهبي بين الدروز والموارنة والشيعة مثل حركة «قمهز» في جبل لبنان سنة 1659م وتفصيلاتها في مكان لاحق.

بالسلاح والمساعدات، مما دفع السلطان العثماني في حينه إلى إصدار حكم بملاحقة تجار بنادقة، في سعيه للقضاء على التمرد ومصادرة سلاح المتمردين[1]. كما نظر العثمانيون إلى الشيعة كامتداد داخلي لقوة أعدائهم الصفويين، فحاولوا استبدال حكم الحرافشة وجردوا على الحماديين جيوشاً لإفنائهم، باعتبارهم من القزلباش الملاعين. أما الموارنة فقد اعتبروا أنفسهم دائماً كرعايا لملك فرنسي يقيمون في لبنان، ولم يشذ أتباع المذاهب المسيحية الأخرى كالأورثوذكس والبروتستانت عن هذا التوجه.

رابعاً: الامتيازات الأجنبية

لم تكن المعاهدة التي أبرمها فرنسوا الأول ملك فرنسا، (1515- 1547)م مع السلطان سليمان القانوني (1520- 1566م) تعني عند توقيعها، أكثر من نصر دبلوماسي للسياسة الفرنسية على الجمهوريات الإيطالية كالبندقية وجنوا، ومحاولة من الملك الفرنسي لتدعيم موقفه السياسي أمام الخصم المشترك الامبراطور شارلكان. ولكنها تحولت مع التطبيق العملي لبنودها وتعديلاتها اللاحقة والمعاهدات المشابهة مع الدول الأوروبية الأخرى التي عقدتها السلطنة، بعد أن دخلت في عصور انحطاطها وضعفها، إلى منفذ خطير للسياسات الأوروبية إلى عمق الطوائف المسيحية العثمانية، والتعاطي معها ككيانات مميزة وخارجة عن النسيج العام للإمبراطورية، مما زاد من بروز هذه الطوائف كوحدات داخلها لها علاقاتها الدولية الخاصة، وسياساتها المستقلة، وتطلعاتها المستقبلية، فساهم هذا العامل الهام في تحول الطوائف إلى شعوب مختلفة الميول والأهداف والتحالفات. ولا بد أن ينعكس ذلك على الطوائف الأخرى في الإمبراطورية التي تراقب ما يجري وتتأثر به، فازداد الشعور بالإنتماء حدة وبروزاً، وصارت الطائفة هي التنظيم الأقوى التي يلجأ إليها المواطن العثماني الخارج عن طائفة الدولة لحمايته، وشعوره بذاته وتحديد خياراته السياسية، وأمانيه القومية، فساهم كل ذلك في إعطاء كل طائفة في لبنان كياناً ذاتياً، أشبه بكيان شعب موحد الأهداف أكثر من مذهب ديني وجماعة إيمانية تتعاطى أمور العبادات والغيبيات والمراسم الدينية البحتة.

(1) لبنان والإمارة الدرزية ،أبو حسين ص 48.

3 - ظهور الحكام الولاة

استبقى العثمانيون على النظام الإداري في لبنان، الذي كان معمولاً به أيام المماليك، واستبدلوا إسم النيابة بالولاية. فبقي لبنان منقسماً بين ولاية دمشق وولاية طرابلس، بعد أن الغيت نيابة صفد، والحقت بولاية دمشق. وكان الوالي يمثل السلطان وادارته في جميع أرجاء ولايته، فهو الحاكم الإداري والعسكري والمالي، ولا حدود لسلطته إلا الأوامر والتوجهات التي ترد إليه من الباب العالي، ويتلقى قاضي الولاية نسخة منها لتسجيلها في سجل خاص.

إن من أولى مهمات هذا الوالي، أن يطرح المقاطعات التابعة لولايته سنوياً على الإلتزام، ويبرم عقداً في مجلس خاص بديوانه مع الذي يدفع السعر الأعلى، بعد أن يحصل على الضمانات الكفيلة بتسديد المبالغ المتفق عليها في آجالها المحددة[1]. إلا أن الذي كان يحصل في تلزيم المقاطعات اللبنانية لم يكن يتوافق دائماً مع هذا الترتيب.

إن الإنتماء الأساسي إلى المذهب الذي ساد في لبنان في الفترة العثمانية، خصوصاً بعد إتجاه الدولة إلى الضعف والتفكك، وممارسة السياسة والحياة المدنية العامة من خلال هذا المذهب أوجد حالة من العصبية الطاغية التي تشد أبناء المذهب الواحد إلى بعضهم، كمجموعة موحدة ومتميزة ومتجانسة، وتخلق منهم كياناً اجتماعياً وسياسياً، تجمعه وحدة الإنتماء والمصير، وتنطبق عليه اجتماعياً ومدنياً وسياسياً معظم العناصر التي تكوّن الشعب الواحد. فلم يكن غريباً أن يرى الباحثون والمؤرخون الأجانب ان في لبنان ثلاث أمم هي الموارنة والدروز والشيعة.

إن هذه العصبية القوية هي التي عطلت صلاحيات الوالي العثماني في لبنان، وفرضت عليه بحكم فعاليتها أمراً واقعاً طالما فشل في تجاوزه، فقبل به مرغماً وأصبح دوره يقتصر على توثيق هذا الأمر الواقع واعطائه الصفة الرسمية والشرعية، إلا إذا فضل مواجهته بقواه العسكرية التي لم تحقق نتائج تذكر طيلة قرون من المحاولات غير المجدية.

إن العائلات التي أفرزتها هذه العصبيات، استمرت تحكم مقاطعاتها دون أن تقيم شأناً كبيراً لفرمانات الوالي ومشيئته. فبقي الحماديون يحكمون جبل لبنان، دون أن يكون للوالي العثماني إلا ما يريدون اعطاءه له[2]. حتى كان مجرداً من كل صلاحيته كالناطور[3]. كما بقي الحرافشة في بلاد بعلبك، والوائليون في جبل عامل، حكاماً في مناطقهم، رغم

(1) يلاحظ تكرار ذكر طريقة الإلتزام العثمانية لاختلاف الغاية أو الفكرة التي تستدعي ذلك في كل مرة.
(2) D. D. C. T3. p 266.
(3) الدويهي ص 546.

محاولات العثمانيين المتكررة لاقصائهم حتى نهاية الحكم الاقطاعي في منتصف القرن التاسع عشر. **وفي عهد السلطان سليمان القانوني، اعترف العثمانيون بإمارة زعيمها منصور بن فريخ لكي يوازنوا به قوة آل الحرفوش المتاولة المسيطرين على منطقة بعلبك كما أنهم اعترفوا بأسرة آل حمادة في البقاع الشمالي وبابن طرباي البدوي وجعلوه نائباً على صفد**[1].

رغم العصبية الدرزية القوية التي سادت الشوف منذ وقت مبكر، وأعطت لهذا الجبل اسمه وتميزه عن الوحدات اللبنانية الثلاث الأخرى، فهي لم تتركز أو تتمثل طيلة الفترة العثمانية في عائلة أو عشيرة أو بيت واحد، وإنما بقيت على الدوام موزعة على عدة عشائر متعادلة في القوة والتأثير، تتنافس فيما بينها أحياناً على النفوذ والتقدم، مكونة طبقة ارستقراطية عسكرية الطابع. مما حال على الدوام دون قيام عائلة درزية واحدة، تحرز التقدم على غيرها وتحظى بقبول عام بتمشيخها وترؤسها على غيرها من العائلات، دون منافسة أو جدال كما حصل في جبل عامل والبقاع وجبل لبنان.

إذا كان الأمير فخر الدين استطاع في وقت ما، أن يشكل حالة تاريخية استثنائية على مستوى السلطة في جبل الدروز، فلم يكن المعنيون قبله إلا عائلة تتقاسم النفوذ في الشوف مع عدة عائلات درزية أخرى لا تقل عنها قوة ووجاهة وطموحاً كالتنوخيين والارسلانيين وغيرهم. وبعد وفاته، ورغم كل ما أحرزه من شهرة وسلطان، لم يتمكن ورثته وخلفاؤه من الاحتفاظ بالحكم منفردين، بل مع عائلات درزية أخرى منافسة ومعادية وترفع الراية الحمراء. وفي النهاية سعى الدروز إلى استقدام حاكم غريب الدار والمذهب ومعدوم العصبية لتعذر الاتفاق على احدهم ليتقدم على الجميع، مما اضطر احفاده إلى الاستقواء بعصبية وافدة قليلة الخبرة في شؤون الحرب والحكم فتنصر الشهابيان الأخيران، وهذا ما أدى إلى سلسلة من الحروب والنزاعات والكوارث. أما الموارنة فإن أصولهم الفلاحية وافتقار بنيتهم الاجتماعية إلى عائلات نافذة أو عشائر قوية، وانغماسهم في الخلافات والانقسامات الدينية التي لم تعرفها المذاهب الأخرى من دروز وشيعة وبعدهم عن الاهتمام بأمور الحكم والنفوذ السياسي، حصرت عصبيتهم المذهبية في الخضوع لرؤوسائهم الدينيين، وأولهم البطريرك قبل أن يبدأوا في وقت متأخر، بتعاطي الأمور السياسية والعامة، عن طريق المدبرين الذي كانوا غالباً من الموارنة، وبتشجيع ودفع من التنظيمات الرهبانية والكنيسة الغربية، أو المتأثرين بها. فلما شعروا بحاجتهم إلى زعيم مدني لم يكن أمامهم سوى البحث عنه بين أفراد العائلات النافذة المسلمة الذين قبلوا أن يتنصروا.

(1) العرب والعثمانيون ،عبد الكريم رافق ص 97.

4 - تحصيل الضرائب

كان الهاجس الرئيسي للسلطة العثمانية في جميع البلاد الواسعة التي خضعت لها، هو تحصيل أكبر قدر ممكن من الضرائب من رعاياها. وقد أدى ذلك إلى تسخير جميع مؤسسات الدولة وأجهزتها المختلفة في سبيل هذه الغاية. فمهمة الوالي الصالح، هي توريد ما يستحق على ولايته إلى الخزينة المركزية في مواعيدها، بصرف النظر عن كيفية تحصيل هذه الضرائب، وعن مسلكه الإداري. بوجه عام فالجهاز الذي يستعين به، بما فيه الجيش الخاضع لأمرته، هو مسخر لهذه الغاية بالدرجة الأولى. وكل الأمور الأخرى، تأتي بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية.

كانت المهمة الاولى للجهاز الإداري العثماني هي تحصيل الضرائب قبل أية مهمة أخرى. وقد اكتسب مع الوقت خبرة وبراعة تثير الدهشة والإعجاب في شموليته ودقته وكفاءته. فنحن اليوم نستطيع أن نعرف بسهولة كم شجرة مثمرة وجدت في أي عام من القرن الثامن عشر، في كل قرية ودسكرة في لبنان، وكم كان عدد سكانها البالغين دافعي الضرائب، وكم كان عدد الطواحين والأنوال في هذه القرية. ونعجب من دقة المسح الكامل لكل مصادر الضريبة فيها من بشرية أو انتاجية، مما قد يكون الحصول عليه أقل يسراً في يومنا الحاضر.

إن جذور العثمانيين القبلية، لعبت دوراً مهماً في نظرتهم إلى الشعوب التي يحكمونها.

«**إن طاقاتهم الرعوية انتقلت فجأة من رعاة لقطعان إلى حكام لامبراطورية، ومثل كل البشر، فإن الحلول التي استعانوا بها لمواجهة المشكلات التي استجدت عليهم، كانت متاثرة بتجاربهم السابقة، فما زال عالقاً بتفكيرهم أنهم رعاة. وكل ما في الأمر أن قطعانهم لم تعد من الماشية، بل من البشر**». ولكي تظل هذه القطعان البشرية تحت السيطرة، فقد انتقوا ودربوا كلاباً لحراستها. فأهالي البلاد المفتوحة هم «رعية» يحكمها «الراعي[1]» ويتعهدها لتعطيه في النتيجة، أكبر كمية ممكنة من الإنتاج. وهذه الذهنية التي عمت كل المستويات الإدارية في هيكلية الدولة من السلطان في قمة الهرم حتى أصغر موظف في القاعدة. حولت الوظيفة إلى سلعة تخضع لحساب الربح والخسارة بعد أن جعل لها سعراً معروفاً يختلف باختلاف الإيراد الذي يمكن أن تؤمنه. فلذلك كان من الطبيعي أن تكون مهمة جمع الضرائب، أهم المهمات

(1) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، فيليب حتي ص 311 ـ 312.

المنوطة بالإدارة الحاكمة وفي أساس مجريات جميع الأمور الإدارية الأخرى.

إن من يملك المال يستطيع إذا شاء، أن يصل إلى مراكز في الدولة تتوقف أهميتها على مقدار المبلغ الذي يدفعه، فهو يقوم بعمل استثماري يرمي من ورائه إلى الربح وتقاس براعته، بمدى قدرته على تحصيل أكبر مقدار من المال، والمواطن الذي يدفع ما عليه من ضرائب يكون قد قام بما هو مطلوب منه، وابرأ ذمته تجاه دولته ومن يمثلها في مراكز السلطة.

كان نظام تحصيل الضرائب يقوم على أساس الالتزام، وهو عقد بين الوالي والملتزم، يحدد فيه المناطق التي يشملها الالتزام وأنواع الضرائب والرسوم والمبلغ المتفق عليه ومدته سنة واحدة. عادة يحصل ملتزم الولاية بحكم منصبه على رتبة «مير ميران» ، أو وزير ولقب الباشوية، ويتعهد بدفع مبالغ معينة إلى خزينة الدولة في مواعيد محددة ويدفع علاوة على ذلك مبالغ أخرى لأصحاب الحظوة والنفوذ، في دوائر الباب العالي كي يضمن دعمهم ومساندتهم والتجديد له عند انتهاء مدته. ولا بد أن الوالي العثماني، كان يفضل أن يكون الملتزم مغموراً، طيعاً وليناً وضعيفاً. وكان يطلب منه تقديم ضمانة من صيرفي في العاصمة، تأميناً لحسن قيامه بتعهداته في مواعيدها المقررة، مما يجعله الواسطة الوحيدة بين دافعي الضرائب من الأهالي، وبين الدولة، فيقوم هو بدوره بتلزيم مختلف المقاطعات والأقاليم في ولايته ليسدد التزامه وتعهداته بالإضافة إلى ما يتمكن من تحصيله لحسابه الخاص.

كانت مصلحة الوالي تقتضي تلزيم مقاطعات ولايته، إلى من يتوسم فيه القدرة على الدفع بدون مشقات، وأن يحصل عن طريقه على أكبر قدر من المنافع الشخصية. فمن المفضل أن يكون المتعاقد معه مليئاً، قليل الطموح السياسي، وجابياً بارعاً. ولزيادة الإطمئنان، قد يطلب الوالي منه كفلاء مقتدرين يضمنون حسن تنفيذه، أو يسلم أحد أقربائه رهناً بين يديه حتى اتمام العقد في أجله المعين، ولو كانت حرية الخيار مطلقة له لفضل أن يكون شريكه في العقد ذمياً أو صيرفياً لا تتجاوز اهتماماته الشؤون المالية، دون تجاوزها إلى مجالات سياسية أو إدارية، قد يكون من شأنها خلق المتاعب في المستقبل.

عند دخول العثمانيين إلى سوريا دخلت في «رعيتهم» مذاهب لم يتعاملوا معها من قبل كجماعات غير ذمية وغير مسلمة أيضاً. ولا بد من تحديد وضعيتها الشرعية والقانونية والضرائبية في الإدارة الامبراطورية التي تخضع لسيطرتها العديد من

الأديان والطوائف والمذاهب. فلا بد من تحديد الأطر الإدارية اللازمة التي ترعى إدارة شؤونها وعلاقتها بالدولة بعد أن أصبح أفرادها من مواطني السلطة ورعاياها.

إن التجانس المذهبي بين الشيعة الإمامية في لبنان والصفويين في ايران أكسب الدولة العثمانية خبرة سابقة بشأن معتقدات هذه الجماعة وأسلوب التعامل معها وتصنيفها بخلاف الطوائف الأخرى ذات الجذور الإسلامية كالنصيرية والإسماعيلية والدروز. ولما كانت جباية الضرائب على رأس اهتمامات نواب الدولة الملكفين بهذه المهمة قبل أي أمر آخر فقد صدرت القوانين الضريبية الخاصة بكل من هذه الطوائف في السنوات الأولى من استقرار سلطتها في الولايات السورية.

كان على كل حاج شيعي يتجه من منطقة دمشق وسنجقي حمص وحماه نحو المزارات المقدسة في جنوب العراق أن يدفع أربع عثمانيات ضريبة بحكم قانون صدر سنة 1526م بينما يكتفى من الحجاج المسيحين بدفع عثمانيتين فقط[1].

وفي سنة 1519م صدر قانون يلغي بعض الضرائب التي كان الإسماعيليون يدفعونها منذ أيام المماليك.

كان النصيريون أكثر من باقي الطوائف عرضة لسياسة ضرائبية خاصة وقاسية، فبموازاة ضريبة الجزية المفروضة على كل مسيحي. كان يفرض شبيهاً لها على كل نصيري أيضاً ثم ما لبثت أن نظمت بقانون في عهد السلطان سليمان سنة 1547م.

«في قرى سنجق طرابلس يوجد شعب معروف بالنصيريين لا يصومون ولا يصلون ولا يرضخون لأية شريعة اسلامية وحسب السجلات القديمة كان بعض أفراد هذه الطائفة يدفع ضريبة تدعى قرش الشعب «People - piaster» على أساس ضريبة عن كل شخص، وكانت تجبى سنوياً حسب السجلات، ولكن بعضها لم يجبى ولم يسجل.

وبناءً على طلب قدم إلى الدولة أن العرش السامي، أمر بتحصيلها من الجميع، حسب العادة القديمة على أساس اثنتي عشر بارة من المتزوج وست بارات من الأولاد القادرين على العمل وتحصيل مال مستقل. على أن تسجل في الدفتر الجديد[2].

---

(1) أ. د. م 57:47

(2) الإمارات الشيعية ص 61.

إن النصيريين في نظر السلطة لا دين لهم وقد تكرر هذا الوصف في السجلات التي تذكرهم. ولذلك ترتفع الضرائب الخاصة بهم باستمرار حتى وصلت سنة 1570م إلى أربعة وعشرين أقجة[1] فضية على المتزوج ونصفها على العازب واستمرت في الإرتفاع حتى وصلت في «دفتر الطابو تحرير» العائد لسنة 1649م إلى ماية أقجة عن كل اثنين منهم بدون تمييز بين العازب والمتزوج[2].

وهناك أنواع أخرى من الضرائب فرضت على بعض نشاطات النصيريين المخالفة للشرع.

«إن معظم المقاطعات الريفية في طرابلس يسكنها النصيريون... وبما أنهم هراطقة فهم يجلبون الخمرة باستمرار فيجب أن يدفعوا ضريبة «الخمر» وضريبة «الدمغة» وضريبة الأوزان في مقاطعة حمص»[3].

لم تتعود السجلات الرسمية العثمانية أن تشير إلى الدروز بوصفهم فريقاً يخضع لضريبة خاصة. إن مرجعاً وحيداً في قانون نامه المتعلق بضرائب منطقة طرابلس يذكر

«أنه يوجد في الجبل 40 عيناً من الدروز غير المسلمين وأن كل منهم يلتحق بعشيرته»[4].

قد تكون براغماتية الدولة العثمانية في سعيها للحصول على أكبر قدر ممكن من الضرائب بأقل التكاليف وأيسر السبل، ربما لعبت دوراً مهماً في منح أعيان المناطق التي يصعب التحكم فيها أمنياً، لوعورة مسالكها أو طبيعة أهلها المشاكسة، عقود الإلتزام الضريبة ونظمت نوعاً من العلاقة، وإن كانت غير مستقرة ومنتظمة، مع الإمارات القبلية وسكان سوريا ولبنان بمذاهبهم المتعددة.

(1) تعادل الأقجة 120/1 من القرش.
(2) المصدر السابق ص 62.
(3) ا. د. م 546 - 52:210.
(4) الإمارات الشيعية ص 59.

5 - تحول زعماء العشائر إلى زعماء طوائف

في العهد المملوكي برزت في مختلف المناطق اللبنانية زعامات محلية عائلية وقبلية، يرجع أسباب قيام بعضها، إلى تكليف رسمي من ممثل السلطة إلى إحدى العائلات بالقيام بمهمة معينة يمنحها اقطاعاً محدداً تبقى متمتعة به طالما استطاعت، بدعم من صاحب الشأن في احدى مراكز النيابات.

أما الزعامات الأخرى التي لم ترتكز على اقطاع سلطاني، فقد أفرزتها عصبيات قبلية قوية، فرضت بها نفسها على مجريات الأحداث، وقامت بدور يتناسب مع قدرة هذه العصبيات وكيفية تعاملها مع ممثلي السلطة الرسمية. إلا أنه في الحالتين، لم تستطع هذه القوى أن تتجاوز نطاقاً محدوداً من السلطة، فرضته طبيعة الإدارة المملوكية واحكام قبضتها القوية على البلاد.

كان النائب المملوكي هو الحاكم الفعلي، ومصدر الاقطاعات والمناشير التي تعين رتباً ونفوذاً، حتى أن الزعامات العشائرية وجدت لها منصباً رسمياً تحت اشرافه ومراقبته، فصار شيخ العشيرة هو «مقدم العشير» في التراتبية والألقاب المملوكية، لذلك قلما حفظ لنا التاريخ، محاولات تمرد وعصيان، على غرار ما سيتكرر في الحقبة العثمانية. ويصبح من تقاليد الأحكام في لبنان، إن مركزية السلطة المملوكية الطاغية، ووجود نواب ينتمون غالباً إلى طبقة الأمراء التي حصرت في يدها كافة شؤون الحكم، من تعيين السلطان الذي يكون عادة من أفرادها إلى الولاة الآخرين وصولاً إلى أصحاب الاقطاع من الرتب الدنيا والمتأخرة، حالت غالباً دون تطور هذه الزعامات إلى مرتبة القيادة الواسعة والفعالة التي يمكن أن تشكل عائقاً أمام سلطة النائب المطلقة في تعيينها وتحديد مدى الصلاحيات المتعلقة بهذا التعيين. فلما حل الوالي العثماني مكان النائب المملوكي، في مراكز الحكم كدمشق وطرابلس تراخت القبضة الحديدية، ومالت هيبة الدولة إلى التقهقر، واختفى الأمير المملوكي صاحب الرتبة والخبرة العسكرية، وظهر مكانه باشا من عبيد السلطان، تنحصر أولى مهماته في توريد مردود ولايته إلى الخزينة في اسطمبول، وتملق بعض النافذين في دواوين الباب العالي، لتمديد فترة بقائه في منصبه أطول مدة ممكنة، وما كان لها أن تطول كثيراً في غالب الأحيان[1].

(1) توالى على حلب تسعة من الباشوات في مدة ثلاث سنوات وعلى دمشق مئة وثلاثة وثلاثين والياً في أقل من قرنين. المصدر السابق حتي ص 314. وبلغ عدد الولاة في القرن الثامن عشر في طرابلس 72 والياً وفي صيدا 61. السلطة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر عبد الغني عماد ص 68.

إن الخلفيات المذهبية للصراع العثماني الصفوي، وتقسيم الرعايا إلى ملل متعددة ومتفرقة، وطبيعة النظام الإداري العثماني، واتساع البلاد الخاضعة له، وتمايز أهلها وتنافرهم، وانصراف الولاة إلى تحصيل أكبر قدر من المنافع الشخصية، فرضاً أو ابتزازاً، دون الإلتفات إلى مصلحة الدولة ومكلفيها، هذه الدولة التي عجزت عن تقديم قيم موحدة تجمع حول تقديرها مختلف عناصر هذه الإمبراطورية الشاسعة. كان من شأن كل هذه العوامل، أن تحدث تغييراً أساسياً وبنيوياً في تطور النظام الإقطاعي في لبنان، فنما وتشعب وتجذر أكثر من قبل، وتداخل في الكيانات الطائفية التي ازدادت بدورها بروزاً ومتانة. وانقسم لبنان الحالي إلى اقطاعيات طائفية ترسخت مع الوقت وبدا أن الحدود بينها ترسم وتزداد وضوحاً، حتى أصبح يمكن أن يقال دون الإبتعاد كثيراً عن الواقع، إن في لبنان ثلاثة شعوب مختلفة، تقيم في ربوعه، بالإضافة طبعاً إلى أنصار الدولة والملتفين حول ولاتها والمقيمين في المدن ومراكز الباشويات وهم السنة.

إن الذي ساعد على ترسيخ هذا الاصطفاف الطائفي، وأوجد المناخ الملائم لنموه وشموله، عن قصد أو عن إهمال، وعدم اهتمام، هي السياسة العامة للدولة من خلال ولاتها، طالما أنه لا يؤثر سلباً ومباشرةً على جهاز تحصيل الضرائب الذي كان الإهتمام مركزاً على تفعيله، قبل أي أمر آخر. بل ربما وجدوا في رعايته واستعماله عاملاً ايجابياً لتسهيل آلية التحصيل وزيادة انتاجيته.

لم يكد يمر بعض الوقت على دخول لبنان ضمن الأقاليم العثمانية، حتى بدأت ملامح النظام الاقطاعي الجديد تظهر واضحة، وتزداد مع الوقت ومع الممارسة ومع اللامبالاة الرسمية بروزاً وتأطراً. ويمكننا الإشارة إلى أهم الخصائص التي ميزت هذا النظام الجديد عن سالفه قبل الحقبة العثمانية وفي مستهلها:

أولاً: إختفاء العائلات الاقطاعية التي أفرزتها العصبيات القبلية والعشائرية فيما مضى لصالح العصبيات الطائفية المستجدة. وهذا أمر طبيعي، لأن الثانية أعم وأشمل فقد يعتري الانتماء القبلي وهن، أو ضعف، لأي عامل من البغضاء أو الهوى أو المنافسة أو اختلاف الدار أو المصالح، بينما الإنتماء الطائفي يبقى راسخاً في جميع هذه الظروف، لأن العوامل الشخصية والتطورات الآنية محدودة الأثر في ديمومته ومداه. فلم تلبث أن اختفت أسماء عائلات كانت بارزة في أواخر العهد المملوكي، كبني الحنش وفريخ وبشارة وغيرهم، وهي عصبيات عشائرية لم تقوى على الصمود طويلاً بعد أن

عجزت عن التحول أو الإنتماء إلى عصبيات طائفية كانت تطرق مسرح الأحداث بقوة.

ثانياً: انحسار دور العائلات الاقطاعية المعينة تدريجياً وتلاشيها في آخر الأمر كآل عساف وآل سيفا وآل شعيب.

إن العائلات التي كانت تستمد قوتها ومبرر وجودها في الحكم، من مجرد مناشير رسمية فرضتها اعتبارات عرقية ومهنية، دون وجود عصبية قبلية أو عشائرية تدعمها، وتحيل بقاءها في مناصبها إلى حاجة واقعية لا يمكن تجاهلها دون عائق أو ثمن. وكان اعتمادها في الأساس على علاقة خاصة، بمن له الصفة والقدرة على تعيين أحد أفرادها في مراكز السلطة، تتيح لها ممارستها وتحاول اقامة وضع خاص دائم، من خلال استعمال هذه العلاقة الشخصية. لقد أوكل المماليك إلى بني عساف الدرك من نهر الكلب حتى مغارة الأسد. وتعاظم نفوذهم في أيام العثمانيين، فتولى أحدهم على طرابلس، وبقوا ولاة لمدة طويلة. إلا أن كل هذه المناصب لم تمنع زوالهم بعد سنوات قليلة من عزل الأمير منصور كبير العائلة عن ولاية طرابلس سنة 1580م. ولم تكن العائلة التي خلفتهم بأحسن حال. فإن آل سيفا وقد تولى العديد منهم على طرابلس، ووصل نفوذهم في أيام عزهم إلى كامل الساحل الشمالي حتى جنوب بيروت. وهم كآل عساف من العائلات التركمانية التي زرعها المماليك في الساحل اللبناني لغايات عسكرية وأنعموا عليها بالمناصب والاقطاعات. إلا أن مصيرها لم يختلف عن مصير سالفتها فآلت إلى الانقراض والزوال بعد مدة وجيزة.

ثالثاً: إن الاقطاعية القائمة على العصبية القبلية تحتمل بطبيعتها، وجود عدة عصبيات تفرز زعامات متعددة، في منطقة واحدة، ومن طائفة واحدة تتنافس، على المركز الأول فتحسم السلطة الأمر بتسمية من تراه ويبقى الآخرون ينتظرون الفرصة.

أما العصبية الطائفية فلا تحتمل بطبيعتها أكثر من زعامة وحيدة، وطاغية على مستوى القيادة. فينحسم الصراع مرة واحدة لمصلحة الجهة التي استقطبت القوى الأكثر فعالية، والأهم شأناً، في الطائفة الواحدة، فترتفع إلى مرتبة قيادية لا يشاركها فيها أحد، وتختفي باقي القوى من مقدمة الصراع لتأخذ مكاناً ذا أهمية ثانوية في الصفوف الخلفية. لذلك كان جبل الدروز وحده معروفاً بتعدد عائلاته النافذة والمتنافسة «علم الدين، القاضي، ارسلان، العماد، نكد، جنبلاط...» لأن الحاكم الأول ينتمي إلى طائفة غير طائفة الغالبية الساحقة من سكانه الأمر الذي لم تعرفه باقي المناطق.

6 - تراجع دور رجال الدين

تراجع الدور الزمني والسياسي والعسكري لرجال الدين في مختلف الطوائف، وانتقلوا من المساهمة في الرئاسة والقيادة، إلى الإقتصار على الدعم والمساندة والولاء للإقطاعي، وانحسر نفوذهم المدني وتأثيرهم العام، ليقتصر على المجالات الروحية والدينية، وما يلحق بها من شؤون ذات طبيعة خاصة. إلا أن الطائفة المارونية وحدها، تجاوزت في وقت متأخر هذه القاعدة، لظروف اجتماعية ورهبانية وسياسية خاصة بها، فتعاظم دور رجال الدين السياسي والعام ابتداءً من القرن الثامن عشر، وذلك على مستوى التنظيم الكهنوتي الذي أصبح يمارس دوراً أساسياً متعاظماً، رغم أن زمن البطريرك المقاتل أو المتمرد، ورجل الدين المتنفذ والمقدم في قريته، قد انتهى مع العصر المملوكي. إن زمن البطريرك الزعيم الروحي والزمني الذي يعاونه مساعدون من أساقفته ورهبانه قد تراجع حتى لم يعد في القرن الثامن عشر أكثر من مطران في الكنيسة اللاتينية الواسعة.

لم يميز علماء جبل عامل إلى حد كبير بين مهامهم الدينية البحتة ودورهم السياسي والعسكري في محيطهم، فتمثلت في البعض منهم وفي وقت مبكر، الزعامتان السياسية والدينية في آن واحد. فلم يكن غريباً أن يشارك رجل الدين في القتال، ويقود الجيوش ويشعل الثورات، حتى اشتهرت منهم عائلات جمعت القيادتين الدينية والسياسية في وقت واحد[1]. ثم تراجعت القيادة الدينية وتركت مكانها لسيطرة الإقطاع.

أما عند الدروز، فقد أثرت الصلات القائمة بين زعمائهم والحكومة المركزية الاسلامية في دمشق، إلى حد كبير في تركيب المجتمع الدرزي وبنيته وتراتبيته. **فتركزت السلطة بين يدي الاقطاعيين المحاربين وتقدموا على «العقال» في زعامة الطائفة، وجعلوهم أعواناً لهم وخداماً لمصالحهم**[2]. بينما يرى مؤرخ أوروبي أقام طويلاً بينهم في القرن التاسع عشر «**أن الدروز لا يزالون يخضعون للحكم التيوقراطي، أي حكم رجال الدين حتى اليوم**[3]» ولعل ما يقارب بين النظرتين المتناقضتين أن اعتقادات المذهب الدرزي وتراثه وأعرافه تمنح كل زعيم درزي اقطاعي، مسحة دينية غامضة غير محددة إلا ربما عند بعض العارفين[4].

(1) تاريخ لبنان، محمد مكي ص 254.
(2) تاريخ لبنان الحديث، كمال الصليبي ص 18.
(3) الدروز والموارنة، تشارلز تشرشل ص 9.
(4) يعتقد الدروز بشكل غامض أن الزعيم هو اختيار إلهي واجب التسليم به حتى ولو كان الشخص المختار لا يتمتع بالأهلية الدينية والصفات الواجبة في رجل الدين.

7 - دخول الموارنة إلى المعادلة السياسية اللبنانية

نشأت المارونية على ضفاف العاصي، وانتشر الموارنة في الوادي الخصيب من حمص حتى انطاكية. إلا أن خلافهم المذهبي مع الشيع المسيحية الأخرى وخصوصاً اليعاقبة، ما لبث أن تحول، وعلى امتداد قرون عديدة، إلى صدامات دموية أجبرتهم في فترات متباعدة على التراجع والهجرة شمالاً مع مجرى النهر، حتى وصلوا إلى منبعه في منحدرات جبال لبنان الغربية قريباً من الهرمل[1]. حيث بدأ تاريخهم الطويل مع لبنان.

«خلف المهاجرون الأولون وراءهم ديراً عظيماً بقي مزدهراً حتى القرن العاشر، يزهو بثلاثمئة صومعة للرهبان، وشيء عظيم من آلات الذهب والفضة والجواهر[2] وبأتباع ينتشرون في معرة النعمان، وشيزر وحماه وحمص، وربما حتى قورش وانطاكية حيث عاش على الأرجح القديس مارون مؤسس المذهب».

طرد الموارنة من ديارهم أو ألزموا على تركها، هرباً من اضطهادات جيرانهم، وأعدائهم اليعاقبة، **«الذين كانوا في ذلك الوقت أصحاب بطش وسطوة لهم في أفاميا ونواحيها الكعب الأعلى وكان لهم فيها دير عظيم على اسم ماري باسوس بلغ عدد رهبانه 6300 راهباً»**[3]. ولما استفحل العداء بين المذهبين اضطر الموارنة هرباً من الإضطهاد، إلى الهجرة نحو مسالك الجبال القريبة من النهر ينتشرون في وهاده ووديانه، حيث لا تزال، حتى اليوم، سلسلة من القرى والمزارع المبعثرة في المنحدر الشرقي لجبل المكمل المطل على وادي العاصي وسهل البقاع، آهلة بهم. وقبيل قدوم العثمانيين كانت قوافل المهاجرين المؤلفة عادة من عدد صغير من الأسر، لا تزال تسلك الطريق القديم نفسه، من بلاد الشرق الصددية نحو جرود الهرمل وبشري، حيث شكلت هذه البلدة مركز تجمع للنازحين، ومحطة للنزول إلى المنحدر الآخر، نحو أماكن أقل ارتفاعاً وأكثر انتاجاً، باتجاه مناطق جبيل والبترون، مدفوعين بمقتضيات المعيشة، والعمل، ثم في مرحلة أخيرة نحو مناطق الشيعة والدروز في كسروان والشوف وأطراف جبل عامل.

«من الواضح أن هذه الهجرة حدثت في أزمنة متوالية، وعلى دفعات متواصلة.

---

(1) زجلية القلاعي ص 7.

(2) التنبه والاشراف، المسعودي ص 153.

(3) تسريح الأبصار، لامانس ص 51.

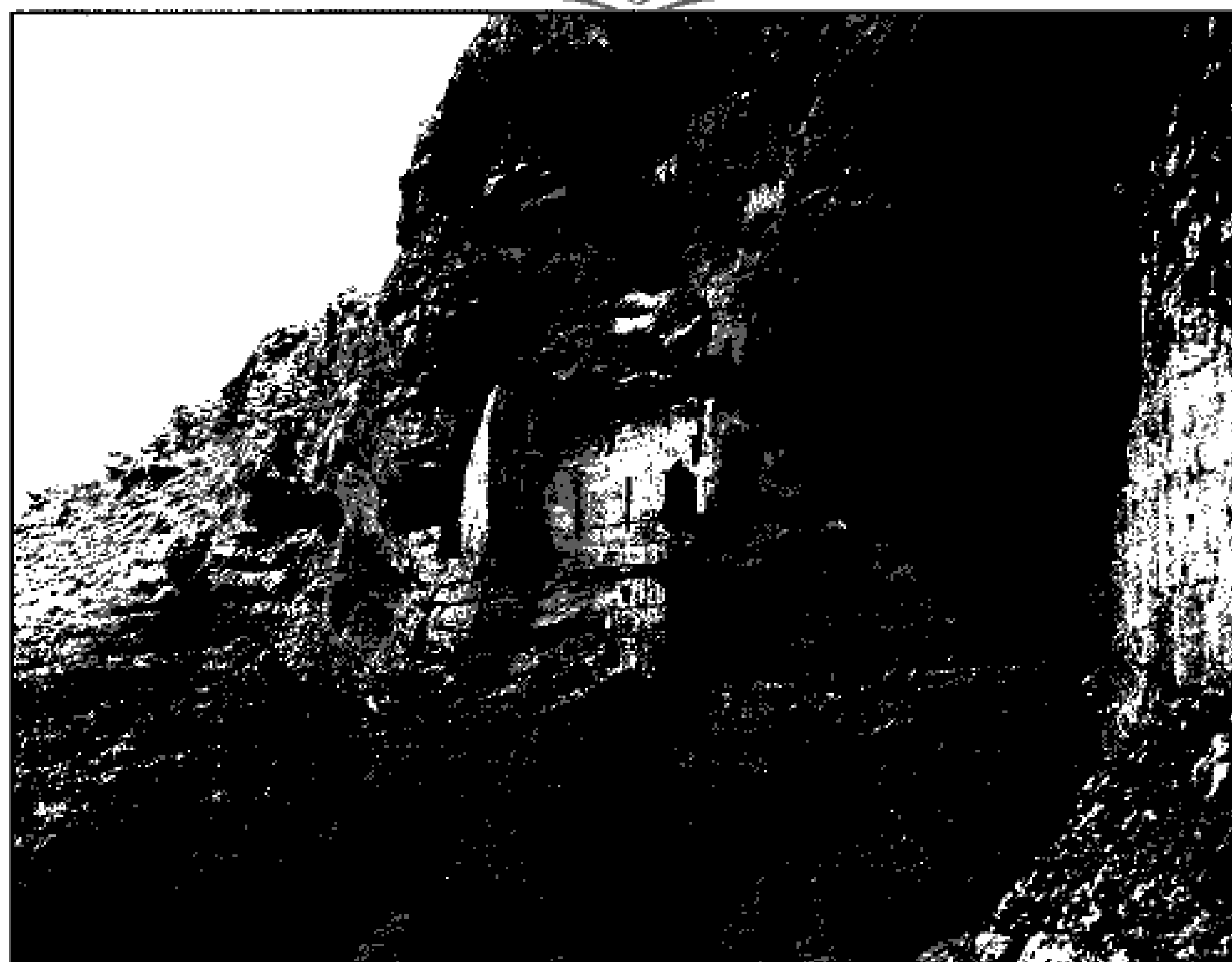
من أثار الموارنة في وادي العاصي قرب الهرمل



قصر البنات



دير مار مارون



فكان المهاجرون ينتقلون إلى لبنان «زرافات زرافات». لقد دخلوا البلاد من الشمال أي أنهم تبطنوا وادي الأرنط فاجتازوا افاميا وحماه وحمص، إلى أن قر قرارهم في الجبل. فسكنوا أولاً جهاته الشمالية ثم تقدموا إلى وسطه ثم بلغوا جنوبه، وهذا ما يمكن استخلاصه من النصوص التاريخية التي ورد فيها ذكر انتشار الموارنة في لبنان[1]».

استمرت هذه الهجرات المتعاقبة قروناً طويلة، تتجه نحو أماكن قليلة السكان، كثيرة الأشجار وافرة المياه، في عملية استيطان منظمة، تهدف إلى ملء فراغات جغرافية بانتماء طائفي معين.

إن ظروف الانتشار الماروني الجديد، فرضت مرة أخرى أن يتعايش الموارنة مع أعدائهم القدامى من المذاهب الأخرى، في مراكز سكنية متجاورة، فتجدد النزاع، لا سيما وأن اليعاقبة لم يتوقفوا عن ممارسة جهود تبشيرية ناشطة، اتخذت شكل إقامة مراكز ثابتة لهم وإدخال كميات كبيرة من كتبهم إلى هذا الجبل، حتى أن بطريرك اليعاقبة في وقت ما، كان يقيم في مكان لا يبعد عن مقر البطريرك الماروني أكثر من أميال قليلة[2].

إذا تأملنا الخريطة السكانية في جبل لبنان، قبل انقضاء القرن الأول لدخوله في ظل السلطنة العثمانية، لوجدنا تداخلاً ملفتاً في تواجد أبناء الطوائف المسيحية المتنافسة والمتنازعة، على الفوز بانتماء المؤمنين إلى كنيستها، والقاء أقسى التهم وأبشع النعوت بالهرطقة والكفر على اتباع الكنائس الأخرى، بالإضافة إلى السكان الشيعة الذين يعيشون بين الفئتين وفي جوارهما.

كان الوجود الماروني يتركز في شرق طرابلس «من قرن ايطو إلى قرن حردين». ويقتصر وجود مراكز المطرانيات على العاقورا واليمونة وبشري وإهدن ورشعين ولحفد بالإضافة إلى قبرص، كان لليعاقبة أديرة في حردين وحدشيت وإهدن وبقوقا وحصرون وبشري ولحفد والعاقورة.

كان الجمهور الماروني في ذلك الوقت يتألف من مجموعات من الفلاحين والمكارين الناشطين يمارسون طقوسهم الدينية باندفاع قروي ساذج، وعندهم أن الدين القويم

(1) لا مانس م. م. ص 52.

(2) راجع الموارنة في التاريخ، متي موسى ص 347 ـ 350. ادخل اليعاقبة إلى جبل لبنان ما يقارب خمسين إلى ستين حمل بغل من كتبهم رحلة الأب دنديني ص 248.

هو الممارسة الحرفية لطقوسه التي يتلقونها بالتقليد عن رهبانهم وكل تغيير شكلي في أحدها، يقود إلى الهرطقة والكفر والإلحاد، فكان الشعور المتملك بهم هو العداء السافر الحاد لكل المذاهب المسيحية الأخرى التي تشاركهم العيش في هذا الجبل، من يعاقبة وملكيين وسريان، في حين أن مشاعرهم تجاه الشيعة الذين يقيمون بينهم، أكثر مودة وأقل عنفاً، ولم يتبدل هذا الشعور، إلا في مراحل لاحقة، حينما صار لديهم تطلعات سياسية وسلطوية بدلت المشاعر تبدلاً جذرياً.

من الواضح أن هؤلاء الفلاحين الأتقياء، كانوا عرضة منذ وصولهم إلى حملات نشطة من التبشير، لحملهم على التحول عن ايمانهم «القويم» إلى اعتقادات مسيحية أخرى، حملت بطاركتهم ورهبانهم على القيام بحملات مضادة من الدفاع الشرس، للحؤول دون وصول هذا التبشير إلى غايته والحد ما أمكن من تأثيره ونجاحه.

«صرتم أعداء الموارنة وملعونين من أفواههم، ومنقطعين عن صلاتهم، ويلتزمون يلعنوكم في الصبح والمساء. كيف تقول أنك مارون وأنت لص. يا ثعالب اخرجوا من أوكاركم وتجهروا قدامي اعتقادكم الأعوج وكما سابقاً كانت الأخوة كذلك تكون العداوة بيننا»[1].

هذا الخطاب القاسي من أحد أبرز رهبان الموارنة وصاحب أول إثر شهير، اعتمدوه في تراثهم، واعتبروه من بعض أول ثوابتهم التاريخية. رغم أنه لا يعدو كونه زجلية شعبية، تروي بعض الأساطير المتداولة على الصعيد المحلي. ولا يمكن أن يركن إلى روايتها في معظم الوقائع التي تناولتها.

إن حدة هذا الصراع الذي كانت قيادته من أهم واجبات البطريرك ورهبانه، منحتهم ولا شك دفعاً إضافياً، عزز نفوذهم العام في أوساط الطائفة على حساب المقدمين في القرى الذين كانت تنقصهم المعرفة الدينية والخبرة والمراس، على المجادلات الكنسية التي تزداد رواجاً في مثل هذه الظروف، وفتحت للبطريرك الباب واسعاً، أمام طلب المعونة من الكرسي الرسولي في روما التي استجابت بحماس وأرسلت في فترات متعاقبة قصاداً وكهنة ليقوموا بتحصين الموارنة أمام التعاليم الخطرة، ولتأكيد الولاء الماروني للكرسي الرسولي وتثبيته، مما عزز هذه العلاقات ودفعها إلى أن تترسخ وتتشعب لتتجاوز الدين إلى أمور معيشية وسياسية عامة.

كان البطريرك الماروني بحكم مركزه الديني الكبير وسلطته الكهنوتية التي تتمتع

(1) من رسالة القلاعي إلى ابن عمه القس الماروني الذي تحول إلى مبشر يعقوبي زجلية القلاعي ص 38.

بالتنظيم والخبرة والعلم وامكانياته المالية الضخمة، يمارس، بالإضافة إلى دوره الديني، نوعاً من السلطة السياسية التي تعاظمت باطراد مع الوقت، على حساب الزعماء الزمنيين، الأمر الذي جعل التنافر بينهما حتمياً، مما حدا بأكثرهم أهمية وهو مقدم بشري إلى حد الخروج من كنيسة البطريرك والانضمام إلى صفوف الكنيسة المنافسة(1).

إن دور الكنيسة القيادي عند الموارنة قد تطور مع الزمن وأصبح أكثر رسوخاً وثباتاً وشمولية، على عكس ما حصل لدى الطوائف الباقية، حيث لم يتوقف تراجع الدور السياسي لرجال الدين لحساب العائلات ورؤوساء العشائر الكبيرة، وذلك يعود إلى أن هذه الطائفة قد تميزت بأمور أهمها:

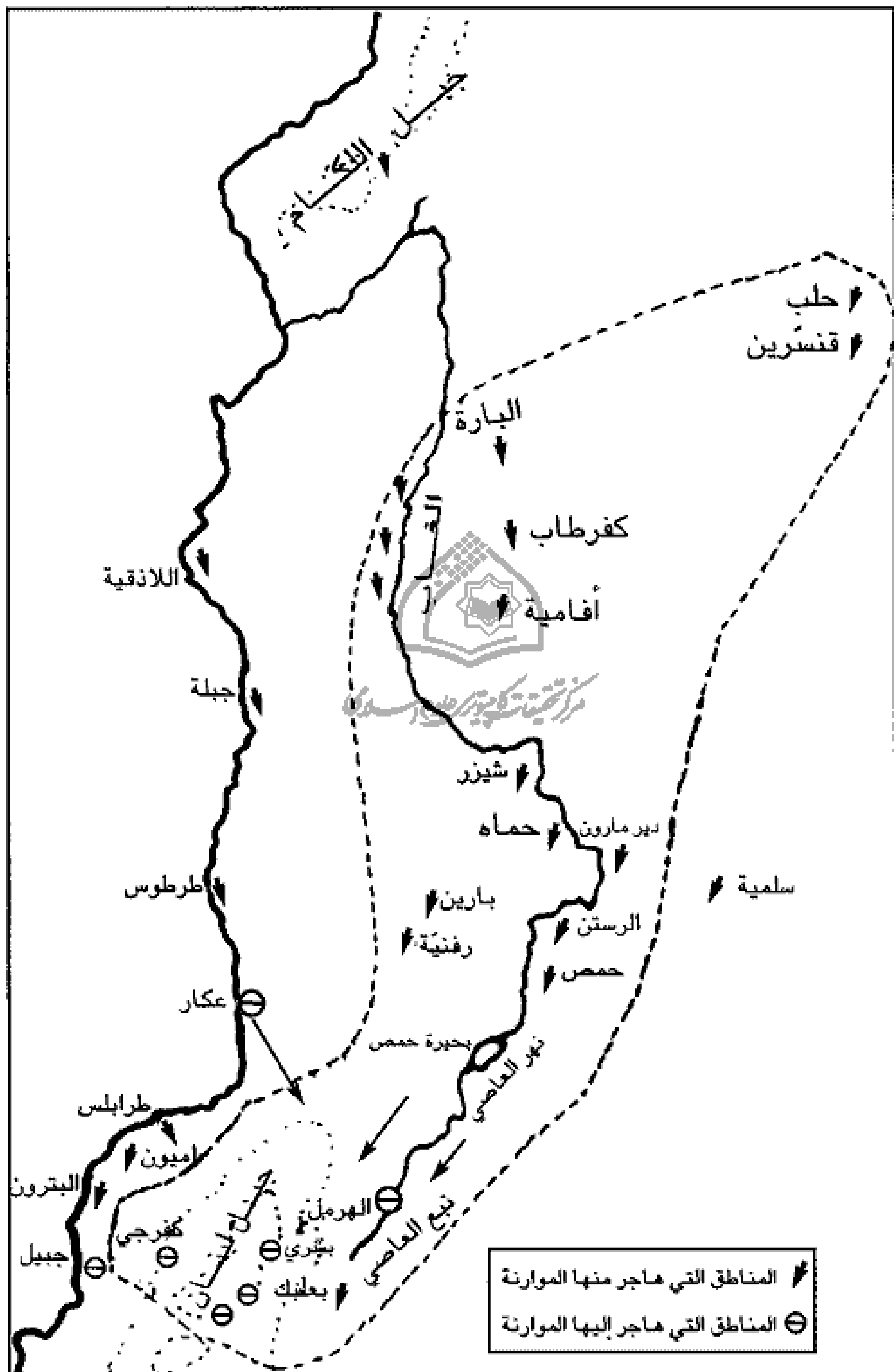
أولاً ـ قبل الفتح العثماني وفي ظله، لم تبرز قيادة مدنية ذات شأن عند الموارنة، تلعب دوراً في إدارة أمورها العامة، بل اقتصر الأمر على قيام زعامات قروية تتنازع وتتقاتل لأسباب تافهة، مجردة من أي هدف عام، أو رؤية تتجاوز إلى أبعد من النطاق المحلي الضيق.

ثانياً ـ إن الجذور الفلاحية الحضرية، الغالبة على القسم الأكبر من أتباع هذه الطائفة، لا تقبل بطبيعة بنيتها الاجتماعية، نشوء عصبيات عشائرية أو قبلية أو عائلية، وهي التي تشكل في العادة النواة الصالحة لنمو الزعامة القوية القادرة التي تلتف حولها العصبيات الأخرى الأقل شأناً وقوة.

ثالثاً ـ خلافاً لكل المزاعم والتخيلات، لم يؤلف الموارنة يوماً تشكيلاً عسكرياً أو سياسياً أو قوة مقاتلة موحدة ومستقلة، تحت قيادة مارونية بحتة، قاتلت من أجل تحقيق مصلحة مارونية خالصة ومحددة. لذلك ليس من السهل أن نتمكن من تسمية شخصية مارونية سياسية أو عسكرية قيادية واحدة، دون أن تكون مرتبطة بولاء أو بمصلحة لجهة أخرى، أو تنشط لحسابها، الأمر الذي حال دون توفر قاعدة لنشوء تجمع، أو قوة طائفية مهمة حول قيادة مارونية لعدم توفرها أصلاً.

لم يبدأ هذا الواقع السياسي والتاريخي بالتغير، إلا بعد منتصف القرن الثامن عشر، وبتأثير من بعض القناصل والارساليات الأجنبية والمترددين على دوائر ومدارس الفاتيكان، الذين ابتدأوا يروجون لكيان ماروني، ينشأ بدعم ومساندة من باريس وروما. ومع ذلك، وبما أنهم لم يجدوا شخصية مارونية مناسبة لقيادة هذا المشروع، اضطروا

(1) تحول المقدم عبد المنعم 1487م من المارونية إلى اليعقوبية وأصبح راعيها في بشري.



جبل اللكام
حلب
قنسرين
البارة
كفرطاب
أفامية
اللاذقية
جبلة
شيزر
حماه
دير مارون
سلمية
طرطوس
بارين
رفنية
الرستن
حمص
عكار
بحيرة حمص
نهر العاصي
طرابلس
اميون
البترون
كفرجي
جبيل
جبل لبنان
الهرمل
بشري
بعلبك
نبع العاصي
المناطق التي هاجر منها الموارنة
المناطق التي هاجر إليها الموارنة

إلى السعي لتنصير بعض أبناء العائلات السنية القوية سراً، واختيار احدها[1] للعمل باسمه وفي ظله في تحقيق هذا الهدف.

رابعا ـ من بين جميع العائلات الاقطاعية اللبنانية التي تمكنت من الوصول إلى حكم مقاطعة ما، لفترة معقولة من الزمن، لا نعرف عائلة مارونية واحدة، حصلت على ولاية التزام، أو حكم أي مقاطعة لبنانية، واستمرت تتوارثها لمدة من الزمن دون انقطاع. وأقصى ما استطاعت بعض عائلاتهم الوصول إليه، هو دور ثانوي مساعد في خدمة الحاكم وتحت امرته، فكان منهم الكواخي والجباة. وبهذه الصفة كانوا ينفذون سياسة الطائفة التي ينتمي إليها الوالي، لا سياسة مارونية مستقلة، تستقطب حولها عصبية قوية، تؤهلها للعب دور قيادي داخل الطائفة. وقد شعر الموارنة بهذا الواقع وحاولوا تغييره في فترة متأخرة عندما نجحوا في تنصير آخر حاكمين شهابيين[2].

خامسا ـ كان للكنيسة المارونية جهاز اكليركي يزداد مع الزمن تنظيماً وخبرة وفعالية، خصوصاً بعد توثيق العلاقات مع روما، وما نتج عن ذلك من انتشار التعليم وتوافد القصاد الرسوليين، وغزارة المساعدات الأوروبية المادية والتوجيهية والسياسية. وقد انتشر هذا الجهاز النشيط بفعل مهامه المتشعبة في كل مناطق التواجد الماروني، وكان على احتكاك دائم بجميع المؤمنين بحكم سلطاته الطقسية والقضائية والرعوية. وقد وظفت كل هذه الامكانيات لمصلحة تعزيز قيادة الكنيسة ورئيسها للأمور الدينية والدنيوية على السواء.

سادسا ـ تمتعت الكنيسة المارونية بوضع اقتصادي ممتاز مكنها من إدارة مؤسسات ذات طبيعة عامة، حتى غدت رب العمل الأول عند الطائفة، ودخلت في معظم مجالات الأنشطة الزراعية والتجارية والثقافية والخدماتية. ولا بد من الإشارة إلى تأثير المساعدات المادية الضخمة التي كانت الكنيسة المارونية تطلبها بالحاح واستمرار، وتتلقاها من مختلف الهيئات والتنظيمات الكاثوليكية في الخارج.

سابعاً ـ وظفت الكنيسة بمهارة علاقاتها بالكرسي الرسولي، والمراجع الكاثوليكية الأوروبية لمصلحة توجهاتها السياسية. مما كاد أن يجعل منها الممثلة الحصرية لهذه

---

(1) يوسف الشهابي.

(2) يوسف وبشير. وذلك رغم اصرار المؤرخين الموارنة على اختراع عائلات مارونية نافذة وإعطائها ألقاباً زائفة. فإن التاريخ اللبناني لم يعرف عائلة مارونية واحدة قبل تنصر الشهابيين وأقاربهم وصل أفرادها إلى مرتبة نفوذ تتجاوز قرية أو عدة قرى. غير أن منصب الكاخية عند حكام الطوائف الأخرى كاد أن يقتصر عليهم.

المراجع، في لبنان، وللطائفة المارونية في الخارج، وانحصرت قنوات الاتصال عبرها ومن خلالها، في معظم الأحوال، حتى بين الغرب وبعض القوى اللبنانية غير المارونية[1].

تضافرت هذه العوامل جميعها، لتعزز من سلطة الكنيسة الزمنية، وتجعل منها المؤسسة القيادية الأهم والأوسع، بالإضافة إلى سلطتها الروحية المعترف بها من الجميع، على كل أبناء الطائفة. ولما نمت قوة بعض العائلات المارونية، وتنامى دورها، بعد انحسار النفوذ الشيعي عن جبل لبنان، وسقوط الإمارة الشهابية المتنصرة، وجدت نفسها في تنافس حاد مع الكنيسة تحول في بعض الظروف إلى عداء وتصادم[2].

إلى جانب سلطة البطريرك واساقفته، قام في بعض القرى المارونية ـ كما في القرى الأخرى – وجهاء من سكانها عرفوا بالمقدمين، وقد حملت هذه الصفة أكثر مما تحتمل. وبالغ البعض في تفسيرها، وبنوا عليها نظريات في الحكم والسياسة، واعطوها دلالة تاريخية عميقة الغور وبالغة القيمة.

في الواقع أن المقدم هو وجيه القرية الذي قد لا يتمتع بالضرورة بأية سلطة سياسية أو قيادية، إنما هو مميز بين أقرانه الفلاحين في قريته، بوضعه العائلي أو المادي، أو ربما قد يكون مكلفاً من قبل صاحب الشأن بمهمات ذات طابع سياسي أو إداري أو ديني أو مالي، لا تعني أية رتبة زمنية من أي نوع في حد ذاتها، وإنما يطلق هذا اللقب على أي شخص له الصدارة في وحدته، سواء كانت هذه الوحدة عشيرة أو عائلة أو قرية أو مدينة أو أي مجموعة من الأشخاص، تتحد فيما بينها في شأن أمر دائم أو آني. وهو منصب يعود إلى أيام المماليك الذين أقاموا على كل قرية ذات شأن، مسؤولاً عن هذه القرية هو المقدم، أو الكاشف ومهمته تنحصر في جباية الضرائب ومنع الخلافات وإعلام الحاكمين عن العاصين والمتآمرين[3].

إن إنتشار الموارنة الجغرافي وحدوده وانتظامهم في مجموعة بشرية مميزة لها مؤسساتها العامة، ومواقفها المبدئية المنسجمة، أمام الأمور المهمة التي تعرض لها والمواقف والتطلعات التي يتشاركون في الإيمان بصوابيتها وجدواها. كل هذه الأمور لا تزال تثير جدلاً وتبصراً. وهي موضع بحث ونقاش. إن العامل الذي كان يحدد الأماكن التي اتخذها الموارنة مستقراً لهم هو اقتصادي بالدرجة الأولى. لذلك عندما تكاثروا في المناطق

(1) كانت اتصالات أمراء جبل الدروز وأعيانه تتم غالباً عن طريق رهبان من الموارنة.
(2) وهذا ما يفسر بعض الإنتفاضات المارونية التي قامت في هذه الفترة.
(3) زجلية القلاعي ص 4.

الشمالية والوسطى اتجهوا جنوباً إلى الشوف وجبل عامل، حيث ينشط الطلب على الأيدي العاملة الفلاحية والمهنية المدربة(نجار- حداد - بيطري إلخ...) ، حيث استفادوا من الفراغ البشري الناتج عن الصدام الشيعي- الدرزي الذي أدى في وقت سابق إلى انحسار شيعي نحو جبل عامل، ففرغ الشوف والمناطق المجاورة له من الشيعة، وكانت قرية المختارة وما يليها إلى جبل عامل كهذا الجبل آهلة بالطائفة الشيعية[1]. ولم يكن في كل جبل الدروز بما فيه المتن مسيحي واحد[2].

كانت هجرة الموارنة نحو الشوف وجزين، وما يجاور هذه المناطق، قد تمت تلبية لحاجة الدروز، وتحت كنفهم وباشرافهم، حتى تكاثروا في هذه الأرجاء، وكونوا الطبقة الفلاحية المنتجة للغذاء، والممارسة لمختلف المهن والحرف في مجتمع درزي منصرف إلى السياسة والحرب كما كانوا في أماكن تواجدهم السابقة مع الشيعة في المنيطرة وكسروان.

إلا أن واقع الأمور والأهلية الثقافية والانفتاحية، التي اكتسبها بعضهم بسبب النشاط الكهنوتي في الداخل والخارج، وانتشار التعليم بينهم أفسحت لهم مجال استلام الوظائف التي تتطلب حداً معيناً من الثقافة والعلم من الصعب ايجاده عند غيرهم، حتى كادوا أن يتفردوا بوظائف الكتبة والمساعدين «والكواخي» عند أعيان الدروز والشيعة. وهذا الأمر وفر لهم طبقة من النخبة المثقفة التي اكتسبت خبرة سياسية، من خلال ممارسة الوظائف، عند الولاة وأولي الشأن، وقد تمتعت هذه النخبة بوضع اجتماعي راقٍ واطلاع وافٍ على مداخل السياسة اللبنانية، التي اتقنوها ومارسوها ببراعة لحساب أرباب عملهم، كما يسر لهم وضعهم الوظيفي والثقافي والمذهبي إنشاء علاقات مع الجهات الأجنبية الكهنوتية منها والقنصلية. كل هذه الأمور سمحت عندما تيسرت الظروف المناسبة لهذه الطبقة المارونية المستجدة من الإنخراط في السياسة، إنما لحسابهم الخاص هذه المرة.

لقد استطاع الدروز دفع الشيعة بعيداً عن جبل الشوف، في مرحلة أولى وعن المناطق المتاخمة له في مرحلة لاحقة. وحاول الموارنة اتباع السياسة نفسها مع الشيعة في الشمال دون أن تكون لهم خبرة الدروز القتالية فاعتمدوا لسد هذه الثغرة على سيوف الدروز من جهة، كما حصل في جزين، وعلى جيوش السلطة في الشمال، بعد أن تمكنوا من توظيف هذه القوى لمصلحتهم اعتماداً على ظروف دولية وطائفية مساعدة.

إن هذا ما سبب التصادم الماروني الشيعي في الشمال في منتصف القرن الثامن عشر، كما سبب فيما بعد التصادم الماروني الدرزي جنوباً بعد عدة عقود من الزمن.

---

(1) الحركات، أبو شقرا ص 150.

(2) راجع جدول سكان لبنان في القرن السادس عشر.

السياسة الشيعية اللبنانية في ظل الدولة العثمانية

عززت السياسة العثمانية المتزمتة والقمعية، من اندفاع الشيعة إلى الإلتفاف حول أهداف وتطلعات وعواطف متقاربة، لتكوين جماعة متميزة ذات إحساس وجداني، وإدراك عملي موحد، تحركها التحديات والمشاعر والهواجس نفسها. فكان لكل ذلك تأثير بالغ على المواقف المتجانسة لهذه الجماعة، إزاء الأحداث الهامة، رغم تعدد المناطق والمقاطعات التي تنتمي إليها، مما حدد أسساً مشتركة للعلاقات الداخلية الخاصة فيما بين وحداتها الثلاث من جهة، وبين المجموعات الأخرى التي تجاورها أو تتعامل معها من جهة أخرى، ولا سيما جبل الدروز، ورسمت خطوطاً عريضة وثابتة في منحى تعاملها مع الجميع، خصوصاً السلطة العثمانية الحاكمة والدول الأجنبية التي كثرت تدخلاتها وتشعبت في الأمور السياسية الداخلية للدولة العثمانية ورعاياها.

ترافقت السيطرة العثمانية على لبنان مع عدد من العوامل والظروف التي ساهمت في تعزيز قوة الشيعة و«أضعفت الطوق الذي كان يشلهم»، حسب تعبير المؤرخ الفرنسي نانته.

في البقاع، قتل ناصر الدين بن الحنش واختفت أسرته القوية عن مسرح الأحداث، بعد أن كان في أيام المماليك مقدم العشير وحاكم بيروت وصيدا والبقاعَين، وبرزت مكانها أسرة بني فريخ، حليفة الحرافشة[1]، الذين تمكنوا من ترسيخ سيطرتهم على بلاد بعلبك، وازداد عدد الشيعة فيها حتى أصبحوا يشكلون الأكثرية من سكانها، كما تابعوا إدخال البقاع بأسره في دائرة حكمهم للوصول إلى مشغرة، القاعدة القديمة لابن الحنش والمعبر التاريخي والثقافي بين شيعة البقاع وشيعة جبل عامل، ما سيقود حتماً

(1) تقلبت علاقة بني فريخ بالحرافشة بين التحالف والعداوة، ويعتقد البعض دون دليل أنها أسرة شيعية وكانت نهايتها على يد تحالف معني حرفوشي.

إلى زيادة التواصل وإزالة العوائق بين المنطقتين الشيعيتين الكبيرتين، ويساهم بخلق واقع سياسي وديمغرافي قد يكون له بالغ الاثر في المستقبل القريب[1].

إلى الغرب، «عزز الحماديون تحركهم في الاتجاهين لملء الفراغات البشرية في المناطق الجبلية التي نجمت عن الحملات المملوكية في القرن الرابع عشر، وكانوا قد تمكنوا من الحصول على العديد من المقاطعات الممتدة من سفوح صنين الشمالية إلى جبة بشري في الشمال[2]». كانوا مقدمي بشناتا منذ ما قبل 1488م[3] كما تمشيخ المتاولة في المنيطرة قبل هذا التاريخ[4] وسكن بعضهم في غزير قاعدة كسروان[5] التي كانت لم تزل من مناطق الشيعة قبل هجرة الموارنة إليها. ومن الطبيعي أن يؤدي هذا التحرك إلى تنافس دائم وهادئ مع الموارنة على ملء الفراغات البشرية وتصادم مع بني عساف وبني سيفا[6]، وهما من أهم العائلات التي زرعها المماليك على طول الساحل الشمالي وكلفوها مهمات أمنية وعسكرية، وربما أرادوا منها المساهمة في إخضاع منطقة عاصية، معظم سكانها معادون لهم بحكم إنتمائهم الطائفي والمذهبي المغاير، فاستعانوا بعدة عائلات من أصول غير عربية، تسلمت السلطة وتنازعت فيما بينها، إلا أن الجميع مالبثوا أن اندثروا في وقت مبكر ولم يعد لهم وجود إلا على صفحات التاريخ.

مع الدخول العثماني، اختفى بنو بشارة من واجهة الاحداث، في ظروف يصعب التكهن بها، لعدم وجود مايمكن الركون إليه في هذا الموضوع، وإن كان من المحتمل أنهم اندثروا كأعدائهم بني الحنش نتيجة الحروب والتصفيات التي قام بها الغزالي، تقرباً من سيده الجديد في فترة أولى وثائراً عليه في آخر الأمر. وكان من نتيجة اختفائهم أن بدأت بعض الأسر الأخرى تبرز على الساحة وأهمها الأسرة الوائلية (آل علي الصغير) وريثتهم المباشرة التي ستلعب دور القيادة في الفترة التالية، تشاركها أسر أقل أهمية ونفوذاً كآل منكر وبني صعب[7].

(1) بيت بمنازل كثيرة، كمال الصليبي ص165.
(2) لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، محمد علي مكي، ص266.
(3) الشدياق 12ص 193.
(4) الدويهي ص 363.
(5) الدويهي ص 488. في أواخر القرن الأول للعهد العثماني كان لا يزال أكثرية أهل كسروان من الشيعة.
(6) لبنان، مكي نفس المصدر ص 266.
(7) الأرجح أن أسرة علي الصغير متحدرة من بني بشارة. راجع فصل الحكم الشيعي في جبل عامل.

كما لم تعد صفد تتمتع بالإشراف المباشر على سير الأحداث في جبل عامل، وإن بقي يشكل جزءاً من معاملتها قبل أن تصبح صيدا مركز الباشا في مستقبل لاحق، ولم تعد مركز نيابة، كما كانت أيام المماليك، وأصبحت مجرد سنجق يعرض للإلتزام كل عام، مما جعل العامليين أبعد عن متناول السلطة ومراقبتها مما كانوا من قبل.

في هذه الاثناء لمع نجم أمير بدوي شيعي، فجمع بين حكومة نابلس وصفد وعجلون والبقاع، وأصبح ربما أهم أمير محلي بعد ابن الحنش، لاسيما بعد أن أضيفت إليه إمارة الحج أكثر من مرة، ولكنه انتهى كغيره من الامراء قتيلاً في دمشق على يد مراد باشا عام 1594م.

إن واقع الشيعة الجغرافي ألزمهم بالسعي إلى إيجاد تواصل بين مناطقهم ليجعلوا منها وحدة متصلة ومترابطة تتمتع ببعد أوسع، يمنحهم مزايا حربية واقتصادية وسياسية عديدة ومهمة. كانت منطقتا شمال لبنان والبقاع متجاورتين لا يفصل بينهما أي حاجز إداري أو بشري، خلا الطبيعة القاسية المسيطرة على قمم الجبال عند انحدارها إلى السفوح الشرقية. ورغم أنها كانت عموماً غير صالحة للسكن الدائم، إلا أن سكانها من الشيعة استطاعوا التغلب على هذه المصاعب، بقوة تحملهم وتعودهم على شظف العيش، فانشأوا شريطاً من القرى على الجانب الشرقي للجبل يبدأ من الهرمل شمالا، حتى حزرتا جنوباً، مما جعل الحدود بين المنطقتين متداخلة والتواصل مستمراً ودائماً.

ولم يكن الأمر كذلك بين البقاع البعلبكي، وجبل عامل، فهناك فاصل بالغ التعقيد هو البقاع العزيزي الذي كان في البدء خارجا عن سلطة الحرافشة. ولم يكن الوجود الشيعي غالباً على سكانه[1]، إلا أنهم تمكنوا بعد وقت وجيز من السيطرة على كامل سهل البقاع حتى تخوم جبل عامل ووادي التيم.

في هذه المرحلة كان المسافر الشيعي يستطيع أن يبدأ رحلته من صفد، ويصل إلى آخر حدود لبنان الشمالية، في أي نقطة شاء، دون أن يسير خطوة واحدة في بلاد لا يحكمها شيعة. كان نفوذ الحرافشة وحكمهم يصل في الشرق إلى أواسط البادية، لأن حمص وتدمر كانتا غالباً تحت حكمهم،وكذلك صفد أحياناً، أما جبل عامل التابع رسمياً إلى سنجق صفد، فقلما استطاع غريب السيطرة عليه إلا في ظل الأزمات

(1) كانت ناحية شوف الحرادين في البقاع الأوسط أحياناً موضوع نزاع بين حكام بعلبك والكرك وحكام جبل الدروز.

والحروب التي تنشأ لهذا السبب ولا تدوم طويلا. كما ان الحماديين في المناطق الساحلية والجبلية، الواقعة بين بيروت وطرابلس، كانوا في غالب الأحيان يضمون إلى حكم بلادهم مناطق واسعة تقع الآن خارج حدود لبنان، كصافيتا وحصن الأكراد وجبال الكلبيين[1]. وصار للشيعة في جبل عامل وبعلبك مراكز علمية مهمة ومشهورة، تستقبل طلاب العلم من مختلف البلاد وتخرّج الأعداد الوفيرة منهم إلى سائر أماكن تواجدهم، في ذلك الوقت، فانتشر العلم ونما الاقتصاد واصبح لهم عموماً في لبنان بعض الملامح السياسية المشتركة على اختلاف مناطقهم، بقيت تعلن عن نفسها وتظهر مميزة وواضحة أمام كل ما يستجد من أحداث مهمة وتطورات كبيرة، ويبدو أثرها فاعلاً أمام كل مايتعرضون له من محن.

إن أهم ملامح هذه السياسة تتركز حول المبادىء الثابتة الآتية:

أولاً: الاحتفاظ بعلاقات خاصة بينهم تحكمها الأعراف والتقاليد المشتركة، وما يقتضي ذلك من تحالف وتعاون في الملمات، وأمام التحديات والأخطار، والتشاور الدائم في الأمور السياسية والعامة.

من العسير على المنقب في زوايا تاريخ لبنان، أن يجد معركة هامة أو قتالاً ذا شأن، نشب بين مجموعتين شيعيتين كبيرتين لأسباب حزبية أو سياسية أو مناطقية، أو بسبب تنافس على حكم أو مغنم أو نفوذ، كما كان يحدث باستمرار عند جيرانهم من بعض الطوائف الاخرى التي عانت من الانقسام الحزبي والقبلي والسياسي، والمعارك المتواصلة بين قيس ويمن، كما هو شائع ومتواتر، حتى أصبح سمة بارزة في تاريخ لبنان وما نتج عنه من دمار، أزال بعض القرى وأباد الكثير من العائلات. فاذا وضعنا جانبا ما تتحدث عنه بعض الأخبار العاملية القديمة، وهو أقرب إلى الأساطير والروايات منه إلى التاريخ، من صراعات دموية بين عائلات تنافست يوماً على الحكم، ولم يبق من آثارها شيء كثير ومن ذريتها أحد، ويحيط الشك والالتباس بحقيقة وجودها وحجمه، كآل سودون ومشطاح وظريفة، وما تناقلته المرويات عن نزاعات مع الصغيريين وماسفك فيها من دماء وسقط من قتلى، لو وضعنا جانباً كل ذلك، لوجدنا أن النزاعات على الحكم بين الشيعة، قد اقتصرت على أفراد من العائلة الواحدة، وهذا الأمر هو تقليد شرقي قديم، ساهمت السياسة العثمانية وفرماناتها في إذكائه واستغلاله.

(1) سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس، سجل رقم 2 ص 80.

«أظهر الشيعيون في هذه الديار وجودهم واجتمعوا كتلة واحدة يدافعون عن كيانهم وتلقبوا يومئذ بالمتاولة ولم يلقب به غيرهم من الشيعة الخارجين عن جبل عامل ولبنان وبعلبك. اظهر المتاولة وجودهم وانضموا جميعاً تحت زعامة كبرائهم».فقد كانت مقاطعة جباع والشومر لآل منكر من عشائر الشيعة، وكانت مقاطعة الشقيف لبني صعب، وهم من سلالة الأيوبيين، وكانت بلاد بشارة الجنوبية لآل علي الصغير الوائليين، وهم المعروفون بالزعامة على كل جبل عامل في ذلك العهد. وكانت الشيعة في بعلبك تحت إمارة آل حرفوش، وفي شمالي لبنان الفتوح وكسروان والهرمل وبلاد جبيل وما إليها، تحت قيادة مشايخ آل حمادة والكل يد واحدة على مناوئيهم ما أمكن[1]».

وكان على رأس مناوئيهم الولاة العثمانيون في دمشق وطرابلس وصيدا وغيرها من مراكز الولايات، التي ترسل قواتها أحياناً لتأديب الشيعة وإخضاعهم. وعندما يعجز الولاة المعنيون وحدهم عن القيام بهذه المهمة الشبه دائمة، يستنجدون بالباب العالي الذي يصدر أوامره إلى باقي الولاة للمساعدة، التي تصنف دائما من أولويات اهتمامات أصحاب الشأن في العاصمة اسطنبول.

كان السّنة في السلطنة العثمانية عصب الدولة ومادة الحكم، وطائفة السلطة وموضع عنايتها ورعايتها، وهم أكبر الملل وأهمها، منها الولاة والموظفون ورؤوساء الجند ورجال القضاء والإفتاء والتدريس. أما أكبر الملل المسيحية فكانت ملة الروم «الأرثوذكس» وملة الأرمن، وفي وقت متأخر ملة البروتستانت التي اعترفت الدولة بها بتأثير النفوذ البريطاني. كما صارت مع الوقت كل جالية أوروبية تشبه الملة وتتمتع بحماية دولتها، التي غالباً ماترتبط مع الدولة العثمانية بمعاهدات تؤمن لمواطنيها معاملة مميزة وخاصة، فكان هذا النظام اعتراف بحكومة داخل حكومة. وافسح المجال واسعا أمام تدخل الدول الاجنبية في حماية مواطنيها واحتضانهم، واستخدام هذه الحماية عنصراً فعالاً في خدمة مصالحها السياسية والاقتصادية.

كان من الصعب في الدولة العثمانية، كما في العديد غيرها من دول الشرق، أن نجد حدوداً واضحة بين الدين والمواطنية. فكان الرعايا يصنفون على أساس مللهم، حتى في نظر الدولة. فهناك ملة الأروام وملة اليهود، وليس هناك مفهوم محدد للمواطنية العثمانية. حتى أن قناصل الدول الأوروبية الذين يؤمنون في بلادهم بمفهوم

(1) لبنان، مباحث علمية واجتماعية، ص 672.

الأمة والشعب والوطن، يرسلون من لبنان تقاريرهم إلى بلادهم يتحدثون عن متاولة وموارنة ودروز، بحسب العرف والمفهوم السائد في هذه البلاد.

لم تعترف الدولة العثمانية بملة المتاولة، ولم تستعمل أبداً هذا التعبير، فحصرت الإفتاء والقضاء بالمذاهب الأربعة (الحنفي والحنبلي والشافعي والمالكي). وقد حاول الشيعة عبثاً تجاوز وهذا الواقع باختيار علماء يقضون ويفتون على المذهب الجعفري، إلا أن الدولة كانت ترفض إصدار مرسوم يسهل هذا الأمر. وبقي نشاط هؤلاء العلماء خاصاً وشعبياً ودون أي مفعول رسمي. ولم يتمكن الشيعة في أي وقت من الحصول على بعض خصائص الملل الأخرى، كاليهود والنصارى والصابئة. ولا أن يصبحوا ملة معترفاً بها، كما لم يتمتعوا في أي ظرف، بحماية دولة أجنبية يستظلون بحمايتها ويعززون بنفوذها اعتبارهم أمام السلطة، ويحدون من مفاعيل عداوتها لهم.

يقول البارون دي فو والسائح شارم:

«**لما كان المتاولة لايتلقون أيّ حماية دولية فقد ضعف مركزهم مما أدى إلى انهيارهم**»[1]. إن ضعف الدولة العثمانية الذي تفاقم مع الوقت، حتى أصبحت تعرف في الأندية الدبلوماسية والصحفية بـ«الرجل المريض»، سمح للدول الأجنبية وممثليها، ممارسة سلطة على أمورها الداخلية يختلف حجمها باختلاف الظروف السياسية الدولية ونوعية العلاقات مع هذه الدولة ومداها.

كانت البندقية أول دولة مُنحت رسمياً بعض الامتيازات لرعاياها بموجب معاهدة عقدت عام 1521م. وتبعتها فرنسا 1535م، ثم إنكلترا 1580م. ولم تلبث هذه الامتيازات أن تطورت وتشعبت، وأصبحت تشمل جميع النصارى داخل الإمبراطورية العثمانية. وأصبح لهذه الدول، وخصوصاً فرنسا، نفوذ سياسي بالغ في دوائر القرار في اسطنبول وسائر عواصم الولايات.

إن النفوذ الفرنسي خصوصاً، والأوروبي عموماً، المتنامي داخل الدولة العثمانية الضعيفة، دفع الطوائف اللبنانية إلى التسابق لإقامة علاقات مع الدول الأجنبية، لاسيما مع فرنسا، للحصول على الحماية والمساعدات المادية والدعم السياسي، عن طريق الطلب منها استعمال نفوذها لدى الباب العالي لتحقيق إجراءات عثمانية تعود عليها بالمنافع المنشودة. وربما طمعت بعض الجهات، في ظروف معينة بالحصول على

(1) جبيل والبترون والشمال في التاريخ، عبد الله ابي عبدالله ص 162.

مساعدة عسكرية، عند ما تسمح الأحوال، ويكون للدول المعنية مصلحة ورغبة بذلك.

وهكذا نشأت بين الطوائف اللبنانية وبعض الدول الاجنبية، علاقات ثابتة ودائمة عن طريق المراسلات أو المندوبين أو قناصل هذه الدول ومعتمديها، وربما بعض تجارها المؤهلين لهذا الأمر، كما فرضت الحاجة إلى التواصل وايجاد قنوات دائمة تتولى هذه المهمة، حتى أصبح من التقاليد السياسية المعروفة والمعمول بها في العلاقات الدولية. إن فرنسا تشكل مرجع الموارنة، كما هو حال إنكلترا بالنسبة للبروتستانت أولاً وللدروز في مراحل أخرى، بينما روسيا هي مرجع ملة الروم «الأرثوذكس».

في هذه المعادلة المتداخلة بين الطوائف اللبنانية وبعض الدول الأجنبية والدولة العثمانية، بقي الشيعة وحدهم، الطائفة التي لم تستطع أو لم تسمح لها الظروف الدولية، بإيجاد أي نوع كان من الحماية الدولية، أو العلاقة الخاصة أو قناة دائمة تؤمن لها التواصل المتين والتفاهم الثابت مع جهة خارجية، مما أفقدها باستمرار مواقع أساسية ومهمة في السياسة اللبنانية على مر العصور، وعرّضها أن تواجه معزولة هجمات شرسة استهدفت وجودها وكيانها وأمنها في أكثر من محطة تاريخية. وهذا الواقع نفسه هو الذي أثار مخاوف وهواجس ذاتية وخارجية، حول قدرتهم على مقاومة ناجحة وفعالة في غياب دعم دولي يسندهم أمام ما يتهددهم من أخطار و مخططات.

إن «الرجل المريض»، أصبح أعجز من أن يدفع التدخلات عن أخص شؤونه، ويمنع بعض رعاياه من الإرتماء في حضن أول من يؤمن لهم الحماية والأمان، ويحقق لهم مصالح ومطالب، كانت دولتهم آخر من يهتم لها، وفي غياب كامل للإنصاف والمساواة بين الطوائف واعتبار جميع الرعايا مواطنين في موقع واحد، بصرف النظر عن أي انتماء ديني أو مذهبي أو عرقي أو عنصري، حتى ولو كانوا موضوع اهتمام أجنبي خاص، سواء كان فرنسياً أو بريطانياً أو روسياً أو أي حماية أو عطف آخر.

إن هذا المبدأ لا يعني أنه غير قابل للتعديل والتبديل في هوية الحامي، تبعاً للظروف، فلطالما حاول الدروز أن يكسبوا ودّ فرنسا أيضاً، وينسجوا معها علاقة ودية، كذلك الروس، الذين دفعتهم حروبهم شبه الدائمة مع الدولة العثمانية، أحياناً، إلى مساعدة طوائف أخرى غير الأرثوذكس، لإثارة المتاعب في داخل الامبراطورية، خدمة لأهدافهم. كذلك لايمكن تجاهل المصالح التجارية العائدة للجمهوريات الإيطالية في مرافىء لبنان وغيره من بلاد الإمبراطورية كالبندقية وجنوا وتوسكانة، وما استتبعته هذه المصالح من إقامة علاقات سياسية بحتة لعبت أدواراً لا يمكن تجاهلها في بعض

الفترات الزمنية. وكادت احياناً ان تترك بصماتها على مجرى الأحداث. كذلك لابد من التأكيد على النفوذ الشديد والعلاقات النشطة التي كان يباشرها الكرسي الرسولي بواسطة قُصّاده[1] ومبعوثيه والتنظيمات الرهبانية والاكليركية المرتبطة به، والتي أمنت له شبكة واسعة من الإتصالات الكفؤة والمتخصصة، بالاضافة إلى الإعتقاد الديني الواسع الذي يربط آلاف المؤمنين من الذين يعتبرون روما كعبتهم المقدسة الكبرى.

كانت فارس الصفويين، هي الدولة التي يمكن أن يتعاطف معها الشيعة، ويطلبون منها الحماية والدعم، لأنهم لا يلتقون معها بوحدة مذهبية إمامية فحسب، بل إن الشاه الجالس على عرشها قد استمد شرعيته انطلاقاً من فلسفة المذهب الفقهية، من كونه من سلالة الإمام الشيعي السابع موسى الكاظم، وهو والد الإمام السادس جعفر الصادق الذي ينسب اليه شيعته وضع الأساس الفقهي والتشريعي لمذهبهم، حتى أصبح اسم المذهب ينسب إليه[2].

إن كل حاكم، غير الإمام في نظر الشيعة، من الناحية الإعتقادية هو متسلط لا شرعية له، ولا تلزم طاعته، بل إن الواجب الشرعي يفرض التصدي له، إلا في حالة التقيّة، التي تجيز انتظار ظروف أفضل ينتفي معها عامل الخوف والحذر على النفس أو المال أو العرض. وبما أن الإمام غائب ومحتجب، فقد حل هذا الإشكال بجواز قيام ولي أو نائب له، يباشر الأمور باسمه ولغاية ظهوره. وانطلاقاً من هذه المعطيات الفقهية الخالصة، والنظرية البحتة، فإن الحاكم الصفوي هو الولي الشرعي الواجب الطاعة والنصرة. وأما من الناحية العملية والواقعية، فإن العلاقات العملية والمذهبية القائمة بين شيعة لبنان والمملكة الصفوية، منذ أيامها الأولى، والتي تجلت في هجرة متواصلة لعدد غير محدود من رجال الدين والعلم وطلابهما، وعدد آخر من المطاردين الساعين وراء ظروف افضل، فاستقبل الجميع بترحاب رسخ في الأذهان ان أية علاقات في مجالات أخرى قد تكون مرغوبة ومطلوبة. بيد أن قناعة تامة ونهائية، فرضت نفسها على كل من يعنى بهذا الأمر، وهو استحالة قيام علاقات خارج الأطر العلمية والمذهبية والعاطفية والشعائرية بين شيعة لبنان والحكم الصفوي في إيران لأن الموانع العملية والجغرافية والسياسية تجعل التفكير فيه ضرباً من العبث والخيال للأسباب الآتية:

---

(1) القصاد الرسوليون تعبير يطلقه الموارنة على الموفدين أو «القاصدين» أو «المبعوثين» البابويين، ومفرده القاصد الرسولي.

(2) يطلق على المذهب الشيعي إسم المذهب الجعفري. والجعفريون هم الشيعة، نسبة إلى الإمام جعفر الصادق.

أولاً: منذ قيام الدولة الصفوية في مستهل القرن السادس عشر، قبل فترة قصيرة من خضوع لبنان للحكم العثماني، والعلاقات بين الدولتين في حالة عداء دائم وحروب تكاد أن تكون متواصلة، ومعاملة العثمانيين لرعاياهم من الشيعة، بما فيهم اللبنانيين تتأثر عادة باشتداد الحروب بين الدولتين أو خمودها. فلم يكن من المنتظر أن تتساهل الدولة حيال أية صلة تقوم بين أعدائها وبعض رعاياها، وقد يتعرضون في حالة ضبطها إلى ما تعرض له غيرهم من شيعة الامبراطورية من تنكيل، بلغ حدود الإفناء احياناً. فقد كانت تهمة الولاء للحاكم الصفوي كافية لتعريض أية جماعة تتهم به إلى أقصى التدابير الإنتقامية، وقد كانت السلطات تنظر بعين الريبة الدائمة إلى كثير من الجماعات الشيعية اللبنانية حذراً من مشاعر الود والحمية المذهبية التي قد تقربها من أعدائها اللدودين، فقد حاولت من أجل ذلك استبدال الحكم الحرفوشي في بعلبك، بحكم سني صادق الولاء كما أنها أطلقت على شيعة جبل لبنان اسم القزلباش، وحاولت على امتداد سنوات طويلة استئصالهم والقضاء التام على وجودهم.

ثانياً: لم يملك الصفويون أسطولاً بحرياً فعالاً يجعل التواصل ممكنا من الناحيتين العسكرية والتجارية، خصوصاً وانهم لم يصلوا في أي وقت إلى السيطرة على منفذ بحري على المتوسط ومتفرعاته يجعل هذا التواصل ممكناً أو محتملاً، بينما كانت الموانىء اللبنانية في متناول الأساطيل الأوروبية والروسية، تجارياً وعسكرياً في اي وقت ارادته.

ثالثاً: لم يكن للصفويين مطامح سياسية أو تجارية في بلاد الشام وإنما كان الدفاع عن بلادهم بوجه التوسع العثماني أقصى ما يطمحون إليه. وبعد سقوط الصفويين لم تتغير السياسة الفارسية في خطوطها العريضة، وكان تدخل الدول الأوروبية قد بلغ اقصى مداه في شؤون الدولتين العثمانية والصفوية، بينما تراجعت قدراتهما ودب الضعف والتخلف في كيانهما وانصرفت جهود كل منهما إلى معالجة وضعها المتقهقر.

وهكذا تمكنت معظم الطوائف في لبنان من الاعتماد على راعٍ دولي تلجأ اليه وتستمد منه الحماية والعون في الوقت الذي افتقد الشيعة فيه الدعم الفارسي لاستحالته وعدم فاعليته وفقدان الأسباب الموضوعية لقيامه من جاليات ومعتمدين ووسطاء. فكيف كانت العلاقات بين الشيعة والدول الأجنبية الأخرى التي تتمتع بتأثير ونفوذ في الدولة العثمانية، لاسيما فرنسا، باعتبارها من أكثر الدول صداقة للدولة العثمانية، والدولة الأكثر حضوراً ونفوذاً اتصالاً في لبنان.

لعب رجال الدين الموارنة، وخصوصاً الذين زاروا روما وأوروبا وأصبح لهم علاقات وتواصل مع بعض المرجعيات السياسية والدينية الاوروبية والتنظيمات الرهبانية في القدس وحلب، دوراً محورياً في ترسيخ العلاقات الوثيقة التي قامت بين الموارنة وفرنسا عن طريق مباشر أو عبر المرور بدوائر الكرسي الرسولي في روما.

كما سهّل هؤلاء الوسطاء قيام تقارب وود بين الدروز وفرنسا في مرحلة سابقة لتوجه الدروز نحو بريطانيا، بعد أن تدهورت علاقتهم بالموارنة، حتى قامت المعارك اخيراً بين الطائفتين.

لقد بذل الوسطاء جهوداً ملفتة لخلق حالة من التعاطف بين الدروز والأوساط الدبلوماسية الفرنسية، حتى شاع في مرحلة ما في أوروبا اعتقاد غريب أن الدروز ربما كانوا من أصول مسيحية ومن بقايا الصليبيين الذين وفدوا بالاصل من أوروبا، ثم اضطروا إلى الانزواء في الجبال إلى أن فقدوا أصول ديانتهم ومزجوها بتعاليم ديانات أخرى حتى وصلت إلى ما صارت عليه[1].

وفي مرحلة لاحقة اقتصر الدعم الفرنسي على الموارنة وحدهم وعلى أمراء الدروز دون الطائفة. ولم يكن أمير الدروز درزياً في أي وقت إنما هو مسلم معرّض للتنصّر في أية لحظة. وصار الدروز كجماعة وكطائفة، يصنفون في خانة العداء لفرنسا، بعد ان ساءت علاقاتهم بأمرائهم وبجيرانهم الموارنة، وأصبحت بريطانيا هي حاميتهم الأولى. وصار التنافس والتجاذب بين سياسة الدولتين الكبيرتين، ينعكس على علاقة الموارنة والدروز ويتداخل في تشعباتها، بينما استمر الشيعة في عزلتهم الدولية معرضين بدون حماية مؤثرة لكل ما يبيَّت لهم.

(1) ساد اعتقاد غريب في ذهن بعض المهتمين الأوروبيين بقضايا لبنان، وهو أن الدروز. هم من سلالة أحد القادة الصليبيين.وربما روج بعضهم لهذه الأسطورة من أجل الحصول على منافع سياسية ومادية. فقد زعموا أن الدروز هم من سلالة الجنود الصليبيين الذين كانوا تحت قيادة الكونت «دي درو» وهو الذي أسكنهم في لبنان بعد سقوط عكا وأن كلمة الدروز هي تحريف لإسم هذا القائد De Dreux. واعتبر الأب أوجين روجيه الفرنسيسكاني أن المعنيين هم من سلالة غودفروا دو بويون، وكذلك هيبر وبازيلي، وأخذ عنهم بعض المؤرخين العرب أمثال الأب إرسان شكري وجرجي يني وجرجي زيدان وندره المطران، (تاريخ الدروز جان ميشال بارادي ص 548).

كتب قنصل فرنسا في صيدا إلى حكومته في 20 آب 1743م.

«إنني حالياً أكثر من يشهد لسعادتكم عن مشاعر الاحترام واذا جاز لي القول الحنان الذي يكنه امراء الدروز للملك. إنهم أتوا إلى بيتي يؤكدون لي صداقتهم. لا أستطيع أن أعبر لسعادتكم عما أظهروا من إعجاب واحترام عند مرأى صورة جلالته، مما دفعهم إلى القول بصوت عال والترديد أمامي مرات عدة أنهم لا يعترفون في قلوبهم بسيد آخر غير ملك فرنسا»[1].

إن الجماعات نفسها التي كانت تكيل المديح بدون حساب للموارنة والدروز، وتتغنى بصفاتهم الحميدة، وتعلقهم بفرنسا ومليكها وانتظار الفرج على يدها وعن العلاقات الحميمة والحضارية التي تربط الطائفتين، وترسل التقارير المتلاحقة بهذا المعنى إلى المراجع الفرنسية والبابوية والقناصل الأوروبيين في صيدا وبيروت، كما وأنها كانت تستعمل الخطاب نفسه وربما بحماسة أشد في اتصالاتها ومقابلاتها الشفوية مع المراجع نفسها، كانت تلصق بالشيعة أبشع النعوت وأشدها تحاملاً: هم غرباء عن البلاد، ومعادون للمسيحية والحضارة الاوروبية، فلا بد من الخلاص منهم لتستقيم الأمور ولا يبقى في لبنان غير المسيحيين المتعلقين بالكرسي الرسولي وملك فرنسا. وأن الدروز ليسوا إلا فرقة تكاد أن تكون شبيهة بالفرق الكاثوليكية، وأنهم ينتظرون الفرصة المناسبة لإعلان تنصرهم الكامل، فهم مسيحيون أرغموا على نسيان معتقداتهم.

إن هذا الخطاب المتحامل والمتجاهل للواقع، خلق شعوراً أوروبياً عاماً معادياً للشيعة ليس عند الحكومات ورجال السياسة والدبلوماسية فحسب، بل تسرب إلى أفكار معظم المهتمين بقضايا الشرق والدولة العثمانية ولبنان، فلم يعد من المستهجن أن يصف كاتب أوضاع الشيعة في لبنان بأنهم جماعة متوحشة تعادي المسيحيين والدروز المسالمين، ولا تكتمل شعائر رمضان عندها إلا بالاعتداء على كاهن كاثوليكي، لتكسب بذلك الأجر والثواب... إلا أن هذه الآراء لم تكن ثابتة وراسخة في جميع الظروف وعند سائر المرجعيات، بل كانت تخضع للتطورات السياسية على الأرض، ولطبائع الأشخاص وغاياتهم.

افتقد الشيعة صديقاً دولياً يعتمدون عليه ويستندون إلى حمايته. إلا أنهم كانوا جميعاً، حكاماً ومحكومين، يعرفون أن لهم عدواً واحداً على اختلاف العصور والظروف

---

(1) D. D. C. T2 p76 Delane رسالة القنصل

هو السلطة العثمانية. فكانت سياستهم العامة الثابتة والدائمة تتمثل في مبدأين، حددا جميع تصرفاتهم خلال حقبة طويلة من الزمن هما: عداء الدولة العثمانية، ومحاولة التخلص من سلطتها مهما كان الثمن وبأية وسيلة كانت. إن تأكيد هذين المبدأين وتفسيرهما وسوق الوقائع التي تؤكد التواصل على ثباتهما وتجذرهما في الوجدان الشيعي التاريخي وشرائحه، تبدو واضحة في معظم المحطات التالية. ولقد بدأ في مرحلة مبكرة من الوجود العثماني أن الأمير الحرفوشي هو الحاكم اللبناني الوحيد الذي سقط مع دخول السلطان سليم سنة 1516م. كما أنه من المرجح سقوط بني بشارة في المناسبة نفسها جنوباً بينما أعلن الحماديون عداءهم السافر «للكافر العثماني وحمايتهم لكل نصراني يعاديه» في مناشير موثقة.

ولم تكن هذه المواقف مقتصرةً على هرم السلطة عند الشيعة بل كان هو الشعور العام الذي عبرت عنه جماهير هذه الجماعة حرباً أو سلماً في كل فرصة ومناسبة.

زار الرحالة دي لا روك DE LA ROQUE هياكل بعلبك برفقة أحد ضباط الأمير الحرفوشي الذي يستضيفه، وأمضى وقتاً طويلاً في معاينة آثارها مما لفت انتباه الأهالي فاعتقدوا أن السائح مهندس أجنبي استدعاه الأمير لتقوية حصون القلعة في حال حصول هجوم من باشا دمشق، فاحتشد الأهالي وعبروا عن سرورهم بذلك من جراء كرههم الشديد للباشا وقد تركهم الأمير على اعتقادهم الخاطىء كي لايفسد عليهم فرحتهم[1].

«إن الجمهور الذي رآكم تخرجون من هنا وتسلكون طريق القلعة مع معاوني والذي لاحظ اهتمامكم بزيارتها لعدة ساعات توهم أنني أريد تحصينها لصد أي هجوم من والي دمشق، وخالكم مهندسين استقدمتهم من اجل هذه الغاية فجاءوا يعلنون تضامنهم معي لأن الباشا هو مكروه بعمق من الجميع فلم أقل لهم شيئاً ينافي اعتقادهم وإذا لم ترغبوا في الافادة من هذه المناسبة فهذه غلطتكم فان فضولهم لم يمنحهم أبداً مثل هذه المناسبة ليفرحوا ويغتبطوا».

إن وصول هذا الرحالة من بشري إلى بعلبك لم يكن ممكنا دون مجازفة لولا الرسالة التي حملها من شيخ بشري، الشيعي وصديق شيخ بعلبك الحميم وهما يشاركان رجالهما كره الاتراك. **«قال لنا شيخ بشري ان هذه الرحلة لاتخلو من المخاطر بسبب العربان**

(1) voyage De Syrie et Du Mont LIBAN Jean De La Roque p 35- 35 رحلة لاروك ص

والتركمان لان تجنبهم في طريقنا هو شبه مستحيل، ثم أعطانا رسالة إلى شيخ بعلبك صديقه الحميم يمكن ان نستعملها كجواز سفر في حال التقينا بالعربان الذين يوالون هذا الشيخ ضد تسلط باشا دمشق والذي يستعد لإعلان عصيانه»[1] .

ان المبدأ الآخر الذي تلازم مع سياسة الشيعة العامة، وساهم في تحديد مسيرتها ووجهتها، كان النزوع إلى الاستقلال عن سلطة الوالي العثماني والامتناع عن دفع الضرائب له.

إن كل المحن والمآسي والخطوب التي عانى من وطأتها الشيعة في لبنان، منذ دخول العثمانيين والحروب التي خاضوها والتي كانت السمة البارزة ربما في تاريخ لبنان كله، هو الثبات على هذا المبدأ والإخلاص له والذي لخصه القنصل دو توليس (DE Taules Chevolier) في تقريره المرفوع إلى حكومته في باريس: بتاريخ 18 حزيران 1772م.

«إن المتاولة لايكسبون في ثورتهم سوى الإستقلال والإمتناع عن دفع العائدات المتوجبة عليهم للسطان»[2].

أما زميله قنصل فرنسا في طرابلس، فقد وصف حال الشيعة المتمردين هناك بأنهم قد حققوا الهدفين معاً وهما: الاستقلال والامتناع عن دفع العائدات السلطانية[3].

---

(1) المصدر السابق ص 27.

(2) D.D.C. T2 P253 Ils ne gagnent dans leur revolte que de L´independance et de ne point payer les revenus qu´ils doivent au grand Seigneur.

(3) المصدر السابق ص 267 - D. D. C. T3 P.265.

الفصل الثالث

التكامل الشيعي

تركز الوجود الشيعي في لبنان طيلة الفترة العثمانية في ثلاث وحدات إدارية متميزة وهي:

أولاً - جبل لبنان الملحق بولاية طرابلس.

ثانياً - جبل عامل الملحق بولاية صيدا منذ عام 1660م.

ثالثاً - بلاد بعلبك والبقاع الملحقة إدارياً بولاية دمشق.

وبين المناطق الثلاث تكامل في المشاعر والتحرك والمصير وتعاطف أيام المحن والنكبات.

كان على بلاد الشيعة في الجبل والبقاع أن تستقبل هجرة عاملية جماعية، شملت عائلات بأسرها من المشايخ والعامة ورجال الدين على اثر معركة يارون. فوجد العامليون من حرارة الإستقبال وحسن اللقاء ما لا يزاولون يذكرونه حتى اليوم[1].

وعلى رأس هؤلاء المهاجرين كان الشيخ قبلان الحسن أهم شيوخ المتاولة، بعد مقتل ناصيف، وأكبرهم سناً وأكثرهم تقديراً، وهو صهر الحماديين فتم التدبير على اقتطاع جزء من إدارة بعلبك وقسم من ولاية طرابلس وضم المنطقتين في مقاطعة واحدة تتألف من رأس بعلبك والقاع والهرمل وتولية الشيخ قبلان عليها طيلة فترة[2] نزوحه التي امتدت إلى سنوات، صوناً لكرامته وحفظاً لقدره من أن يضطر إلى النزول ضيفاً أو لاجئاً على أحد من الناس.

(1) جبل عامل السيف والقلم، حسين الأمين ص 357.

(2) حوادث لبنان وسوريا، القس روفائيل كرامة ص 74. وهذه الأحداث مفصلة في فصل آخر.

إن استقبال الأمير مصطفى الحرفوش للهاربين من بطش الجزار، كان على رأس الأسباب التي دفعت والي الشام محمد درويش باشا، بتحريض من الجزار، على مهاجمة بعلبك وإلغاء حكم الحرافشة عليها، وإحلال متسلمين من أعوانه، أو من مماليك الجزار، مكانهم، (سنة 1784م). كما كان جبل عامل بدوره ملجأً أميناً للهاربين من شيعة الشمال، حتى من الأمراء والشيوخ الحاكمين أنفسهم. لجأ أمير بعلبك حيدر الحرفوش إلى جبل عامل في شهر ربيع الآخر سنة (1180هـ) فسكن في عيناتا قبل ان ينتقل إلى صور في عهد حاكمها عباس المحمد، ويعود بعدها أميراً على بعلبك، كما لجأ الأمير محمد الحرفوش في آخر شعبان (1193هـ) إلى شحور.

إن ما يدل على حسن استقبال جبل عامل للنازحين واللاجئين إليه من شيعة الشمال، واشتراك جميع القرى والأهالي في تحمل أعباء هذا اللجوء، ما أورده الركيني عن نزوح أحد المشايخ الحماديين بعد النكبة التي حلت بالشيعة في شمالي لبنان وأدت إلى هجرة عامة، كان بعضها من نصيب جبل عامل. في هذه السنة (1194هـ ـ 1779 م):

«نقل الشيخ أبو صليبة الحمادة إلى مدينة صور وسخروا له كل دواب القرايا والذي ما يرسل دابته يأخذوا منه كراها والبلد التي ما ترسل دوابها يأخذوا من أهلها قرشين أو ثلاثة ويستكروا بهم على نايبهم لكي تخلص ذمتهم»[1].

إن اهتمام هذا المؤرخ الشعبي بأخبار الحرافشة والحماديين، يعكس ببساطة اهتمام العامة من العامليين بأخبار إخوانهم في البقاع وجبل لبنان، في الوقت الذي نادراً ما يأتي هذا المؤرخ على أخبار سواهم في خارج حدود جبله، إن فيما ذكره من أخبار الحرافشة، أو من تسجيل تواريخ وفاة عدد من المشايخ الحماديين دون غيرهم، بما فيه الحوادث المهمة التي وقعت خارج المناطق الشيعية، والتي لم يتوقف عندها، فتحرى أخبارهم رغم بعد المسافة وصعوبة التواصل على مؤرخ يعتمد السماع والمشاهدة مصدراً وحيداً لمعلوماته، مما يدل على تتبع عاملي دائم للشؤون الشيعية في سائر المقاطعات.

كما أن اشتراك جميع القرى في جبل عامل، بالمساهمة في نقل واستقبال الشيخ أبو صليبة الهارب من المآسي التي تعرض لها الشيعة في جبل لبنان، في هذا التاريخ، يدلّ على المشاعر العامة للعامليين وتعاطفهم مع نكبة إخوانهم.

(1) جبل عامل في قرن، حيدر الركيني، حوادث 1194هـ ص 93.

كانت العلاقات بين هذه العائلات الحاكمة في أيام السلم، كما في أثناء الحروب، تختلف جذرياً عما ساد العلاقات بين العائلات الأخرى في ذلك العصر، حتى ولو كان أحد الأطراف فيها من الشيعة.

إن النزاع بين الوائليين والزيادنة على قرية البصة الحدودية، قاد إلى حروب دامية بينهما لم تنتهي إلا بعد الاتفاق على وضع مصير هذه القرية. بينما نرى، في الفترة نفسها تقريباً، إن الأمير الحرفوشي يتنازل عن بلدة العاقورة المهمة والتي كانت حتى ذلك التاريخ تتبع والي الشام وبالتالي تدخل في اقطاع إمارة بعلبك تحت حكم الحرافشة مجاملةً للشيخ اسماعيل حمادة لقربها من المقاطعات الواقعة في حكمه وقد أعرب الحمادي عن إكباره وامتنانه لهذا التصرف اللافت من صديقه في أكثر من مناسبة[1].

وكان هناك تقليد يؤكد أن العلاقة بين العائلتين، تتجاوز الود في السلم، والتحالف في الحرب إلى ما يشبه نوعاً من الاتحاد في ممارسة السلطة. فكان الحاكمان الحمادي والحرفوشي يوقعان معاً على بعض التدابير التي تدخل في اختصاص ومقاطعة أحدهما دون الآخر تعبيراً عن مشاركتهما في تقرير أمور عامة باتخاذ موقف موحد وتنفيذ إرادة واحدة تجاه الموضوع نفسه[2].

وقد عبر أحد الرحالة الاجانب عن هذا النوع من التشارك الودي في الحكم، دون أن يلاحظه عندما اعتمد رسالة توصية من شيخ بشري جواز مرور في مناطق الحرافشة المتوترة، والتكريم الزائد الذي كان عمال الحاكم الحرفوشي وأعوانه يبدونه عند اطلاعهم عليها[3].

إن العلاقات الوثيقة بين المناطق الشيعية الثلاث أيام السلم أخذت طابعا أكثر بروزاً وأشد وضوحاً أيام الحروب، فكثيراً ما، خاض الشيعة ميادين القتال متحدين متحالفين، رغم أن دوافع هذه المعارك وأسبابها قد تكون أحياناً مقتصرة على منطقة دون أخرى، وقد تكون أحياناً معركة مع عدو ما، هي سبب اشتعال معارك شيعية في غير مكان بوجه العدو نفسه. وكأن ثمة تحالفاً غير معلن اساسه قناعة وجدانية فاعلة بأن الاستهداف يشملهم جميعاً.

(1) الشدياق ج 1 ص 90.
(2) تاريخ الكفور، ابي صعب ص 83. أو وثيقة رفع الأموال الأميرية عن آل الدحداح موقعة من الأمير اسماعيل الحرفوش والشيخ اسماعيل حمادة.
(3) م.م de la Roque ص 27.

نادراً ما أشار المؤرخون العامليون، رغم ماعرف عنهم من قدرة على التعمق في مجريات الأحداث التاريخية واستدراج مكنوناتها ودلائلها، إلى اشتراك مقاتلين شيعة من خارج جبل عامل، في معاركه التي لا شأن لها في النزاعات المحلية، بل يغلب عليها الطابع العام، كونها نشبت بين العامليين وغيرهم دفاعاً عن الارض والمصير.

هناك من الدلائل ما يثبت أن الحماديين، وهو اسم يشمل شيعة جبل لبنان القديم عموما، شاركوا في القتال مع العامليين في عدد من معاركهم التاريخية الكبيرة. وهذا ما يرجح اشتراكهم في غيرها، الا أن الدليل على ذلك، هو الذي غاب، كما غاب عن الكثير من وقائع تاريخ جبل عامل. في معركة أنصار الشهيرة عندما استنهض الوالي سعد الدين العظم الأمير ملحم شهاب، فسار بجيشه إلى قتالهم فاجتمعت عليهم كامل الأحزاب الشيعية، ولم يتخلف أحد، فانكسرت جيوش المتاولة وبلغ عدد قتلاهم الفاً وستماية قتيل، منهم ثمانية من آل منكر وسبعة من آل صعب وثلاثة عشر من الحمادية[1].

إن سقوط عدد من القتلى الحماديين يفوق ماسقط من العائلات التي قادت المقاومة في وسط جبل عامل، يؤكد على وجود الحماديين بين المتحاربين، وعلى كثافة هذا الوجود، وفاعليته حتى يقتل هذا العدد الكبير منهم، ولا يشير المؤرخون العامليون إلى اشتراك مقاتلين من خارج جبلهم في هذه المعركة وغيرها إلا عرضاً من خلال تعداد القتلى التي اسفرت عنها هذه المعارك.

في معركة البحرة، التي انهزم فيها عثمان باشا الوالي أمام العامليين، بعد أن خسر معظم جيشه، لم يسقط من المنتصرين غير قتيل واحد هو الشيخ جبر من الحمادية[2]. ولابد هنا من التساؤل عمّا إذا كانت هناك معارك اخرى خاضها العامليون ولم يحفظ التاريخ هوية قتلاهم فيها، أو لم يهتم أحد بتحديد هذه الهوية.

إن بعد المسافة بين جبل عامل والإقليمين الشيعيين الآخرين، وقف حائلاً مهماً دون التعاون العسكري الدائم والفعال في ما بينهم، فقد كان لعامل الوقت ولمشقة الطريق في ذلك الزمان، الحساب الأول في وصول النجدات عند حاجتها، وإمكانية اجتياز مناطق خاضعة للسلطة، التي تكون في معظم الاحيان هي العدو المغير والمهاجم، فضلاً

(1) جبل عامل في التاريخ، محمد التقي ص176 وورد أنها وقعت سنة 1659 م.
(2) تاريخ الأزمنة الدويهي، ص 550 ـ 551 تفاصيل هذه الحركة الهامة في تاريخ لبنان موضوع فصل خاص.

عن تعسر الإمكانيات اللازمة لنقل المحاربين وتموينهم وتجهيزاتهم مسافات طويلة. فالحرب عند المقاتلين الشيعة على اختلاف ديارهم، هي غارة مباغتة يعقبها انسحاب سريع، بانتظار فرصة أخرى لهجوم آخر. فلم يكن عندهم في أي وقت قوات محترفة ومجندة ومهيأة بانتظار الحاجة لها، إنما هي دعوة للقتال يجتمع على صوتها كل من يرغب من المتطوعين، ثم يعود كل مقاتل من حيث أتى بانتظار نفير آخر يدعوه إلى القتال من جديد. لذلك كان التحالف العسكري بين الإقليمين المتجاورين بعلبك وجبل لبنان ممكناً وفعالاً، بسبب تداخلهما الجغرافي والبشري، حتى أصبح سياسة ثابتة ودائمة ومعادلة معتمدة عند الجميع من أعداء وأصدقاء.

إن حصر الشواهد والأمثلة التاريخية على هذا التكامل العسكري، هو جهد عبثي، نظراً لكثرتها وتنوعها ودوامها لقرون عديدة. وقد يكون من المفيد الإشارة إلى بعض المحطات المتناثرة التي يبدو فيها هذا الواقع المزمن واضحاً وجليا[1].

كان من عادة كل من الحرافشة والحماديين، قبل مباشرة القتال أن يرسلوا نساءهم إلى المنطقة الأبعد عن ميادين القتال، من المنطقتين، حماية لهن من السبي على يد العثمانيين.

وكثيراً ما سببت هذه الحماية معارك، استمات فيها المدافعون عن أعراض حلفائهم وحريمهم، وليس أهمها سقوط الشيخ عبد السلام الإبن الأكبر للشيخ اسماعيل، قتيلا على جسر إفقا وهو يقاتل دفاعاً عن نساء الحرافشة اللاجئات إلى حماه، في الوقت الذي كان رجالهم يقاتلون دفاعاً عن ديارهم في بعلبك.

وسنرى في الفصول القادمة أن ميدان المعارك الشيعية الكبيرة كان يتسع ليشمل كامل المناطق الشيعية الثلاث وأن الثورة التي تبدأ في أية منطقة منها لا بد وأن يشارك الجميع في ذيولها الأمنية والعسكرية.

(1) ثاني تفاصيل هذه المعارك في فصول أخرى.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الرابع

الشيعة وجبل الدروز

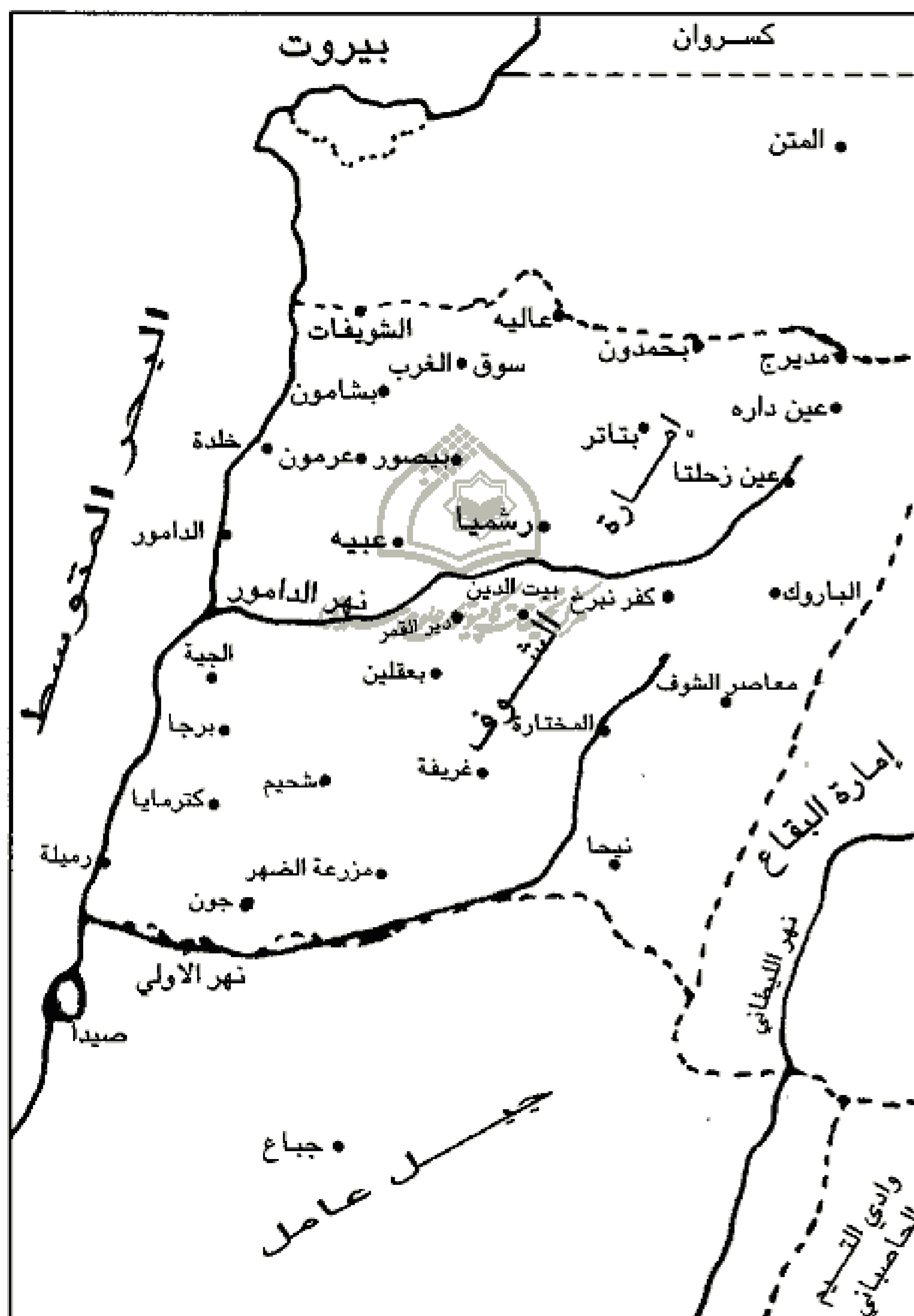
«خرج العسكر العثماني من الشام قاصدين مصر فقالوا للغزالي من يحفظ الشام؟ فقال: الأمير ناصر الدين بن الحنش. فأرسل خلفه وخلع عليه، فإنه كان من شيوخ العربان بتلك الديار».[1] انطلق العسكر المنتصر إلى مصر، وترك الشام بين يدي ابن الحنش حاكم البقاعين وصيدا وبيروت، التي كانت معاملة واحدة يدخل في عملها جبل الدروز الواقع بين المدينتين، حيث كان لايزال بعض الشيعة يشكلون قسما من سكانه، ويتنازع فيه النفوذ عدد من العائلات التي حملت لقب الأمير[2] كالتنوخيين والمعنيين والأرسلانيين وآل علم الدين وغيرهم.

عاد جان بردي الغزالي من مصر والياً على دمشق، وحاملاً سيف الدولة الجديدة الذي قطع به رأس ابن الحنش، وأرسله إلى اسطمبول، قبل أن يلقى هو المصير نفسه بعد فترة قصيرة إثر انهزامه في الغابون، بعد أن أعلن نفسه سلطاناً باسم الملك الأشرف في 27 كانون الثاني 1521م.

استقرت ولاية سنجق بيروت وصيدا ونواحيهما على محمد بك قرقماز أوغلو، التابع لوالي دمشق. وتعدد الطامعون في حكم جبل الدروز، حيث تستقل كل أسرة بمقاطعة صغيرة منه، قد لاتشكل أكثر من بضع قرى. برز في مقدمتها قرقماز المعني إلى جانب أقاربه من أمراء الغرب، محمد بن جمال الدين من عرمون وابن عمه منذر من عبيه ،الذين كانوا هدفاً لحملة ابراهيم باشا والي مصر، التي قادها إلى لبنان لتأديب المتهمين بالسطو على مال السلطان، كما يرى بعضهم دون إثبات[3]، بينما يعتقد آخرون

(1) آخرة المماليك ابن زنبل الرمال ص 115.
(2) حول لقب «الأمير» راجع ما ورد في فصل آخر.
(3) الأمير فخر الدين، عيسى اسكندر المعلوف ص 46.

جبل الدروز



بيروت
كسروان
المتن
البحر المتوسط
الشويفات
عاليه
بحمدون
مديرج
سوق الغرب
بشامون
عين داره
خلدة
عرمون
بيصور
بتاتر
عين زحلتا
إمارة
رشميا
الدامور
عبيه
نهر الدامور
بيت الدين
كفر نبرخ
الباروك
دير القمر
الجية
بعقلين
معاصر الشوف
الشوف
برجا
المختارة
إمارة البقاع
غريفة
شحيم
كترمايا
نيحا
رميلة
مزرعة الضهر
جون
نهر الاولي
نهر الليطاني
صيدا
جباع
جبل عامل
وادي التيم الحاصباني

أنها أستهدفت الموالين للدولة القديمة المنهزمة، المتسلحين بالبنادق المتطورة التي سلحتهم بها جمهورية البندقية التجارية الطموحة، التي تضررت من التطورات الجديدة، وحاولت ان تخلق المتاعب للدولة العثمانية الفتية من جزيرة قبرص، التي كانت تحت سيطرتها، كما يمكن الاستنتاج المتحفظ من الأوامر السلطانية المتعلقة بهذا الحدث[1].

قام ابراهيم باشا، كعادة الباشوات العثمانيين، في مثل هذه الظروف، بمجزرة عامة راح ضحيتها المئات من عقال الدروز ووجهائهم، وجمع منهم اموالاً وأسر بعض أمرائهم، وحمل الجميع معه إلى دار السلطنة ليدخلها في أبهة المنتصر، ويعود الأسرى فيما بعد إلى بلادهم متسلحين بعفو السلطان ورضاه. وقبل أن يعود إلى بلاده عين ابراهيم باشا ابن الحرفوش قائداً أعلى للدروز ومنحه لقب باشا، فكان أول حاكم على جبل الدروز؛ ولم يكن هذا المنصب موجوداً قبل ذلك. إذ لا نعرف أحداً حمل هذا اللقب في تاريخ سابق.

ويبدو أن هذا التعيين قد استحدث منصباً إدارياً لاول مرة في سنجقية بيروت صيدا، الملحقة بولاية دمشق، مما سيكون له الأثر البالغ في تاريخ لبنان المقبل.

لم يستمر ابن الحرفوش طويلاً في منصبه، ربما لان قوة عصبته لم تكن كافية لتأمين ذلك، رغم انه استعان بمحاربين من الشوف وكسروان لاستعادة بعلبك من ابن الأقرع سنة (944 هـ ـ 1535 م)[2].

في بداية القرن السابع عشر، كانت كل البلاد الواقعة بين الدائرة التي رسمها المتاولة والبحر، تقسم إلى قسمين: أولهما المعروفة بجبل الدروز أو جبل الشوف، والأخرى المأهولة بأكثرية مسيحية والتابعة للأولى باسم كسروان[3].

يقع جبل الدروز في وسط مناطق الشيعة المحيطة به من جهاته الثلاث، من الشمال والجنوب والشرق. بينما يمتد من ناحية الغرب إلى ساحل البحر بين مدينتي بيروت وصيدا.

لم تستكمل معالم جبل الدروز السياسية، ويترسخ كيانه كمنطقة موحدة، يقوم على

(1) بيت بمنازل كثيرة، كمال الصليبي ص 164.
(2) خطط الشام، محمد قره علي ص 230 الجزء الثاني .
(3) D. D. C. T.9 - P196.

هرم القيادة فيها حاكم واحد، إلا أواخر القرن السادس عشر مع فخر الدين المعني، الذي قبل أن يتمكن من ضم قسم من كسروان إلى حكمه،بدأ محاولاته بالضغط على سكانه الشيعة ساعياً إلى إخضاعهم أو تهجيرهم، وهكذا بدأت العلاقات بينهما تضطرب وتتجه إلى مزيد من العداء حتى مجيء خليفتيه قرقماز وأحمد فيدفع الأول حياته والثاني منصبه، بتهمة مساندة القزلباش في عصيانهم الدائم على ولاة السلطان.

تركت سياسة فخر الدين العاملية مرارة وتنافراً خصوصاً وأن الحاكم الشهابي على جبل الدروز تحول فيما بعد إلى أداة طيعة يستعملها الوالي العثماني كلما أراد الإنتقام من الشيعة العامليين وتأديبهم وإعادتهم إلى الخضوع والطاعة[1].

يختلف الحاكم في مناطق الشيعة عنه في جبل الدروز. يصل الأول إلى منصبه نتيجة أوضاع طائفية واجتماعية وعشائرية، تحمله إلى مركز القيادة إرادة جماعية لجماعته، من محكوميه وسائر الناس دون كبير اعتبار لإرادة السلطات ورغبتهم. بينما يبدو الأمر على خلاف ذلك في جبل الدروز، حيث الحاكم لابد أن يجد نفسه أسير غربتين يتحكمان في منصبه، ويحددان له خطواته ومطامحه وسياساته: أولهما غربة الطائفة، إذ أنه ينتمي إلى طائفة تختلف عن طائفة محكوميه وثانيهما، وغربة العصبية، لأن عائلات درزية عديدة استأثرت بالعصبيات القوية وحجزت لنفسها مكاناً دائماً في سُلم القيادة في حيز جغرافي محدد، وضعها في مكان الوسيط والحاجز بين الحاكم ومحكومية يتعذر الاتصال بينهما مباشرة فلا يمكنه فرض سياستة أو ضرائبه أو الدعوة إلى القتال، إلا بواسطة هذه العائلات القوية التي هي وحدها تملك، في الواقع، سلطة القرار في الأمور الأساسية والهامة.

في ظل هذا الواقع، كان حاكم جبل الدروز، يستمد كامل قوته وشرعيته وأهليته كحاكم من فرمان الوالي العثماني الذي وحده يمنحه من السلطة ما يشاء، ويحرمه منها حين يريد، دون أن يأبه لإرادته ولرغبته. فكان الحاكم يضطر في ظل هذه الظروف إلى الاعتماد التام على رغبة الوالي، و حرصه على استمرار رضاه وتلبية جميع أوامره، دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى. لانه يكفي فرمان آخر ليحرمه من كل شيء.

---

(1) كان الامير بشير (الاول) الاداة الطبيعية في يد الباشا العثماني للتخلص من المتاولة. ويقول بازيلي ص62 ان ملحم اقتفى اثار والده حيدر فجعل نفسه حربة السياسة التركية ضد جيرانه المتاولة.

سكان جبل الدروز في القرن العثماني الأول				
دروز	سنة	نصارى	شيعة	المجموع
31764	5508	12	606	37890[1]

أمام جشع الوالي العثماني، كان الحاكم في جبل الدروز، مضطراً إلى تلبية مطامعه بالأموال المحصلة من دافعي الضرائب، لأن سيف التهديد بمن يدفع أكثر، هو هاجس دائم يقض مضاجعه ويدفعه إلى الإحتفاظ بالرضا السامي بأي ثمن كان. وقد عرف الولاة كيف يستفيدون من هذا الوضع الدقيق، فعمدوا إلى تغيير الحكام ابتغاء الحصول على أكبر منفعة مادية ممكنة. لذلك رأينا تبدل الحكام الدائم في جبل الدروز وتسرب عائلات عديدة أخرى، غير المعنيين والشهابيين، إلى منصب الحاكم، كما رأينا تغيير الحاكم وعودته مرات عديدة بلغت على الأقل خمس مرات مع بشير الثاني أقوى الأمراء وأطولهم عهداً.

إن فقدان عصبية تسند أمير جبل الدروز وتدعمه وتحفظ له موقعا في منطقة حكمه، جعلت الولاه الأتراك لا يحسبون له حساباً، وهذه كانت من الأسباب المهمة التي جعلتهم يهاجمون بلاد الشيعة عند أقل إشارة من والي صيدا، وأوجدت بين الشيعة وحكام جبل الدروز عداوة عميقة أوقعت ضحايا وأسالت دماء في مناسبات كثيرة وجعلت منهم سيف النقمة العثمانية ضد جيرانهم المتاولة.

في الوقت الذي كان حكام جبل الدروز يتسابقون لاكتساب ود الوالي العثماني بأدائهم مايطلب من أموال، وبسفك ما شاء من دماء الشيعة، وتدمير قراهم وبيوتهم، كان الحكام من الشيعة في حالة عداء دائم مع الوالي نفسه، وتوتر قد ينفجر في أي لحظة. حتى الضرائب المفروضة على مناطقهم رغم محدوديتها، فلما دفعوها إلا مرغمين، وحاولوا دائماً حرمان خزينة الباشا منها، فنجحوا أحياناً وعجزوا أحياناً أخرى.

كان الحاكم الشوفي مجبراً على التشبث بمرسوم الوالي ورضاه، فهو سني يحكم منطقة معظم أهلها من الدروز المنغلقين على تراثهم العشائري والمتمسكين بتقاليده

(1) يشمل هذا الإحصاء سكان الشوف واقليم الخروب والمتن والجرد والغرب وجبل الدروز وكانت كسروان حينها خارج نطاقه.

وحزبياته الموروثة، وليس في الجوار القريب من أهل السنة وفرة كافية لتغيير المعادلات. فلم يعد هناك من مخزون بشري فاعل غير النصارى المتعطشين إلى التمدد نحو مجالات عمل زراعي وحرفي خارج المناطق المتواجدين فيها، فيسر لهم الحاكم المعني ثم الشهابي ذلك، وشجعهم عليه وساندته رعيته الدرزية في سياسته لحاجتهم إلى الأيدي العاملة الماهرة والمستوردة ليتسنى لهم الإهتمام المتزايد بما تعودوا عليه من أمور السياسة والحرب. فتكاثر المسيحيون مع الزمن، وتغيرت ديموغرافية الجبل بصورة جذرية، وهذا ما أشعل منافسات وصدامات وقلاقل كانت وراء زوال الإمارة نهائياً في أواسط القرن التاسع عشر.

الشيعة والإمارة اللبنانية

إن الذين تعمدوا تشويه تاريخ لبنان، ونسفوا مصداقيته وجديته، وسكبوه في القالب الذي يرغبون ويتمنون ويفترضون، دون التقيد بالأصول البديهية للبحث الموضوعي والتجرد العلمي، استنبطوا نظريات مزاجية، وحاولوا إضفاء طابع الواقعية عليها، وذلك عن طريق الإستعانة بتفاصيل، ووقائع ثانوية ومجتزأة، ثم قولبتها وسكبها بطريقة مصطنعة تصب في تقريب الفكرة المقصودة التي يروجون لها في الأذهان وتسهيل امكانية الاقتناع بها.

إن على رأس هذه التخيلات، التي ألبست بدون نجاح كبير، ثوب الحقيقة، تتمثل في تنصيب أمير مفترض على رأس إمارة وهمية، لم توجد يوماً، وتسميته بأمير لبنان، ينتمي إلى سلالة حاكمة تورثه الحكم والسلطة، وتدين له سائر المقاطعات اللبنانية بالخضوع والطاعة فيسمي على رأسها، عائلات أو أفراداً معينين يرجعون له في كل الأمور، ويستمدون منه الصفة والشرعية، ويعملون جميعاً بتوجيهاته، وتحت مراقبته، لتدعيم مركزية السلطة وإيجاد أرضية تاريخية لأفكار سياسية معاصرة.

إنها صورة وهمية لإمارة لم يعرفها لبنان في تاريخه أبداً. فلم يسبق أن قام فيه في مختلف العصور، ومنذ الفتح العثماني وقبله وبعده، حاكم أو شخص أو قائد يمكن أن يسمي نفسه أو يسميه غيره أمير لبنان، أو وجدت إمارة يمكن أن تحتمل مثل هذا التعبير.

إن الذي عرفه لبنان في مختلف الحقب، وخصوصاً منذ القرن الخامس عشر،

وحتى الغاء النظام الاقطاعي، وانشاء نظام القائمقاميتين ثم المتصرفية، عدة أمراء وحكاماً ومشايخ ينتمون إلى طوائف مختلفة ويحكمون في وقت واحد. كل منهم في مقاطعته، باستقلال تام ومساواة كاملة، لا يجمعهم إلا الارتباط أحياناً، بمركز ولاية واحدة، سواء في دمشق أو طرابلس أو صيدا حيث تسري عليهم جميعاً نفس الأساليب الإدارية، في التزام مقاطعاتهم سنوياً، بدون تمييز جوهري إلا في بعض المراسم الشكلية والتفصيلية حسب قوة الحاكم وعصبيته ودرجة اعتماده الطاعة أو العصيان أمام الوالي العثماني. ويسير كل منهم في إدارة مقاطعته، بحسب اجتهاده والظروف التاريخية والاجتماعية والطائفية التي تتحكم بها، وتحدد له هامش التحرك والحرية.

إن الذين وضعوا الأسس الأولى لهذه النظرية، هم الذين سهلت لهم ظروف معينة احتكار المصادر التاريخية المختلفة، بسبب أوضاعهم الرهبانية أو الاكاديمية التي هيأت لهم سبل الوصول قبل غيرهم إلى المصادر الأم، والوثائق المتوفرة، فاستباحوها تعديلاً وتنكيلاً، لتتلائم مع امنياتهم التاريخية. وكان لريادتهم في هذا المجال، ولأسمائهم الكبيرة المعروفة ومؤلفاتهم المتعددة التي تؤكد على نفس الموضوع، كما كان للتكرار المتواصل، تأثير لا يمكن التقليل من شأنه في تحويل هذا الوهم إلى ما يشبه الحقيقة في أذهان من لم يتعمقوا فيها، فتبناها الكثيرون من المقلدين الذين أتوا بعدهم، ومن حسنيّ النية ومدّعي المعرفة، حتى أصبحت حقيقة مسلماً بها، نادراً ما تعرضت للتحليل والمناقشة.

اختار هؤلاء الرواد الأسرة المعنية، من بين العديد من الأسر اللبنانية الأخرى التي تماثلها أو تتفوق عليها، إن كان في مجال السلطة والنفوذ أو العصبية، والعشائرية، أم في المدى الجغرافي الذي تفاعل معها، وانتخبوها أسرة أميرية مميزة، وحتى وحيدة. واضطروا من أجل إقناع أنفسهم، واقناع غيرهم، إلى توفير كل مستلزمات هذا التنصيب الأميري ومتطلباته دون الإلتفات كثيراً إلى الأمانة التاريخية الواجبة، وعدم التلاعب المتعمد في أولويات الأحداث والتطورات. وهكذا اعتلت الأسرة المعنية كرسي الإمارة اللبنانية، ثم أورثتها للأسرة الشهابية، بفعل مؤرخين تمنوا ذلك، وأتوا متأخرين بضعة قرون عن أوانه، فعمموها ونشروها حتى أصبح المؤرخ المعاصر أسيرها، يلتزم بحكم ما هو متداول ومتيسر بين يديه، إلا إذا بذل جهوداً عسيرة للتوقف عندها وإخضاعها للتحليل والبحث والمنطق، ليتبين مدى تأرجحها بين الواقع والخيال.

تاريخ لبنان وتاريخ الشوف

هناك فرق شاسع بين كتابة تاريخ الشوف أو الأشواف أو أشواف صيدا أو جبل الدروز، وتاريخ كامل المناطق، التي تشكل اليوم الجمهورية اللبنانية. فالشوف، لم يكن يوماً إلا جزءاً محدداً من لبنان بمداه الجغرافي وتطوراته التاريخية وكيانه الإداري والسياسي، فلا يمكن إطلاق إسم الجزء على الكل، فتاريخ الشوف هو تاريخ المنطقة التي حملت هذا الإسم على مر العصور، وتاريخ لبنان هو تاريخ المناطق التي يتألف منها اليوم، بما فيها جبل عامل والبقاع وجبل لبنان وجبل الدروز. فلم يكن سكان الشوف، في أي وقت، هم سكان كل لبنان، بل بعضهم. وكذلك أمراؤه وعائلاته وأحداثه، فكيف يمكن تجاهل تاريخ القسم الأعظم من لبنان، واستبداله بتاريخ إحدى مناطقه؟ فهل يمكن اعتبار تاريخ جبل حوران هو تاريخ سوريا أو تاريخ اللجون هو تاريخ فلسطين أو تاريخ النورماندي هو تاريخ فرنسا بأسرها؟ علماً أن هذه المنطقة بنواحيها التاريخية الخمس «الشوف، اقليم الخروب، المتن والجرد والغرب» لم تكن تشكل في القرن السادس عشر أكثر من 15% من مساحة لبنان الحالي ولم يتعدى سكانه بطوائفهم المختلفة[1] أكثر من 9% من عدد سكانه الإجمالي.

صدف في الماضي، أن كان المؤرخون الأوائل ينتمون إلى إحدى مقاطعات جبل الدروز، كالشدياق والأمير حيدر وابن سباط والمنيرّ وغيرهم؛ فكان من الطبيعي أن تستأثر منطقتهم المحدودة، بالقسم الأكبر من اهتماماتهم. لم يكن لبنان بحدوده الحالية، قد وجد بعد، فلم يلتفتوا إلى ما حدث في المناطق الأخرى والمجاورة، إلا بشكل عرضي، وعلى قدر ما تتأثر أو تؤثر بالأحداث التي يؤرخون لها. فهم معنيون أساساً بتاريخ منطقة محدودة من لبنان، لا يتجاوزون نطاقها إلا نادراً ، وإذا فعلوا فيكون ذلك بإيجاز شديد وسطحية واضحة، وفي معظم الأحيان بعدائية ساذجة، لأن علاقات جبل الدروز بجيرانه في الجنوب والشمال والشرق لم تكن دائماً علاقات ود وسلام وتناصر.

وهذا ما فعله مؤرخو جبل عامل أيضاً، على قلتهم، فلم يذكروا الشوف وباقي المناطق اللبنانية، إلا بما له علاقة مباشرة بالحيز الجغرافي الذي ينتمون إليه، جاهدين كزملائهم في الشوف، إلى إبراز مفاخر ومآثر قومهم، غير ملتفتين إلى ما يحدث خارج جبلهم، مهما بلغت أهميته، إلا بقدر تأثيره على ما يحدث عندهم وعلاقته بالتطورات المحلية أو مقارنته بها.

---

(1) راجع الجدول العام

حكام الدروز والشيعة



جاء المحدثون واكتفوا غالب الأحيان بالوصول إلى هذه المراجع اليسيرة المنال، وكانت قد طبعت وحققت ونشرت، وانتشرت وأصبحت بمتناول كل يد، فوقعوا في الخطأ الكبير الذي لا بد من جهود معقدة لاصلاح ما أمكن منه، فتلاشى تاريخ لبنان وضاع في طيات تاريخ الشوف. وعمموا هذا على ذاك، فأصبح تاريخ لبنان هو تاريخ الشوف، واستبدلت أسماء بأخرى، فصار أمير الشوف وأعيانه ومشايخه وحروبه وأحداثه وفتنه وسكانه تطلق على كامل تراب لبنان، فاختفى التاريخ الحقيقي لباقي المناطق والمدن، مما سمح لكل صاحب مصلحة باختراق هذا الفراغ الواسع والخطير واصطناع ما يشاء من التخيلات والأوهام وإدخالها في صلب التاريخ بعد أن حجبت الحقيقة إلا عن الأعين البصيرة والنفاذة.

عندما اكتسحت الجيوش العثمانية المنتصرة فلول المماليك المنهزمين في مرج دابق، وتابعت زحفها نحو دمشق والقاهرة، كان يحكم لبنان أربعة أمراء كبار، يتولى كل منهم إحدى مناطقه المعينة التي تتسع أو تضيق طبقاً لنفوذه الشخصي وعناصر قوته وعلاقته مع السلطة الحاكمة في مراكز النيابات، إلى جانب عدد من العائلات توفرت فيها ميزات معينة وساعدتها ظروف تاريخية واجتماعية وقبلية محددة أهلتها لممارسة حيز متحرك من السلطة إلى جانبهم وفي ظلهم. مما أدى أحياناً إلى قيام نزاعات وتنافس وصلت إلى صدامات دامية فيما بينهما، أو فرضت المصالح المشتركة والعصبيات المتقاربة، قيام تحالفات آنية، سرعان ما تتهاوى في أول مناسبة. والحكام اللبنانيون الأربعة هم:

1 ـ **بنو الحنش**: وأهمهم عند الفتح العثماني هو ناصر الدين بن الحنش. بدأ إسم هذه الأسرة يبرز في لبنان في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وكانت علاقات أمرائها مع المماليك لا تستقر على حال، وقد تولوا مراراً حكم البقاع ونيابة بيروت وصيدا. وفي مستهل القرن السادس عشر، كان ناصر الدين بن الحنش أهم وأقوى الحكام في لبنان قابل السلطان قانصوه الغوري عند مروره بدمشق في طريقه إلى مرج دابق، وحصل منه على تقديمات كثيرة. وفي العهد العثماني أضاف إلى ولايته نيابة حمص، وأعطي الآمرية الكبرى بالشام والقاباً أخرى لم يحصل عليها غيره[1].

---

(1) السلوك المقريزي ج3 ص 456.

2 ـ **بنو بشارة** وأميرهم عبد الساتر بن بشارة: برزت هذه الأسرة في تاريخ لبنان في القرن الرابع عشر، ولعبت دوراً سياسياً مهماً بين الأمراء المماليك في نيابة دمشق، ونيابة صفد، وحاز بعض أفرادها على مناصب رفيعة في الجيش والإدارة والحكم، وكانوا يتولون غالباً جبل عامل ووادي التيم، ولعبوا دوراً عسكرياً في الدفاع عن السواحل اللبنانية بوجه غارات الافرنج والصليبيين.

3 ـ **الحرافشة**: من الثابت أن أميراً حرفوشياً كان يحكم بعلبك وبلادها، وبلاد حمص المجاورة قبل نهاية العهد المملوكي. ورغم أن الحرافشة كانوا من بين القوى القليلة التي جابهت العثمانيين عند دخولهم بلاد الشام، إلا أن هذه العائلة استمرت في حكم إمارة بعلبك وقسم من البقاع، حتى القرن التاسع عشر. وكانت مناطق حكمها تشمل أحياناً حمص وتدمر وحماه ووادي التيم وصفد وبانياس وعجلون والزبداني. وهناك ما يرجح أن أول حاكم على جبل الدروز كان من أبناء هذه العائلة[1].

4 ـ **الحماديون**: بنو عساف عائلة تركمانية عهد إليها المماليك بمهمات عسكرية وسلطوية في شمال لبنان. وربما ساعدتهم أصولهم العرقية، كآل سيفا على الاحتفاظ بمناصب إدارية مهمة في مستهل العهد العثماني، فكان من الأسرتين أول حكام على باشوية طرابلس في القرن الأول من الوجود العثماني ثم انفرد الحماديون بعد انقراض العائلتين في حكم شمال لبنان «جبل لبنان» ، حتى منتصف القرن الثامن عشر وكان يدخل في حكمهم أحياناً معظم مناطق الساحل الشمالي التابع لولاية طرابلس، والمناطق الداخلية كصافيتا، وجبل الكلبيين ووادي النصارى حتى حلب[2] .

ليس هناك دليل يركن إليه، على أن جبل الدروز شكل وحدة إدارية ما، أو إمارة سياسية محددة، قبل التمرد الذي قمعه القائد العثماني إبراهيم باشا سنة 1585 م، وعين الأمير علي الحرفوش حاكماً على المناطق المتمردة، التي عرفت بجبل الدروز، وحكمها فيما بعد إبن أحد قادة التمرد فخر الدين بن قرقماز المعني وأصبح منذ ذلك الوقت مقاطعة تابعة لوالي دمشق، ثم لوالي صيدا فيما بعد 1660م.

---

(1) راجع أخبار «الحرافشة» في فصل خاص.

(2) راجع تفاصيل ذلك في فصل خاص.

إن المؤرخين الثلاثة الذين شكلوا ولا يزالون المنهل الأساسي والأولي لكل من جاء بعدهم واعتبروا المصدر الرئيسي لتاريخ الحقبة العثمانية اللبنانية، ولا سيما في أولى مراحلها، تجاوزوا الأمراء الثلاثة على خطورتهم وأهميتهم، كما تجاوزوا جميع القوى الحاكمة الأخرى، وانفردوا باكتشاف أمير معني قدموه على غيره، ورأسوه وفداً من حكام لبنان وأعيانه، وألقوا على لسانه بين يدي السلطان سليم خطاباً بليغاً لا يمت أسلوباً ومضموناً إلى العصر الذي ألقي فيه بصلة، مما أثار إعجاب السلطان ودفعه إلى تكريس الأمير المعني أميراً على الشوف، وإسباغ الأنعام والألقاب الضخمة عليه، بما لا يتناسب مع صفة الأمير وامكانيته على أحسن الافتراضات.

إن النتائج التي حققتها البعثة اللبنانية، التي قابلت السلطان، على رأي الدويهي، هي «تولية الأمير قرقماز ابن يونس ابن معن بلاد الشوف، والأمير جمال الدين اليمني بلاد الغرب، والأمير عساف كسروان وبلاد جبيل». أما أمراء الغرب، التنوخيون، فلم يتجاسروا على مواجهة السلطان لأنهم من الحزب المقابل. » وقد جهد الدويهي لتقديم آل معن كحكام شرعيين على الشوف منذ وصول العثمانين. فقد رسم لهم السلطان مناشيرهم وقدمهم على غيرهم وأضفى عليهم المراسم والألقاب التي تميزهم عن الباقين[1]».

إن معاصرة الدويهي للمعنيين وعلاقته الشخصية بالأمير أحمد، تضفي على معلوماته أهمية وثقة أكثر مما أورده حيدر الشهابي وطنوس الشدياق، في تواريخهما، لبعدهما الزمني عن تاريخ الحدث، وعلاقتهما الخاصة بالأسرة الشهابية التي كانت تتولى مقاطعات جبل الدروز في زمانهما، واعتبارها وريثة المعنيين وشرعيتهم في وجه أعدائهم من الأسر الأخرى. فقد كررا ما قاله الدويهي، عن مثول الأمير المعني وخطبته السحرية أمام السلطان، إلا أنهما جعلا اسمه فخر الدين بن عثمان الذي نال الأنعام السلطانية فولاه على الشوف ومنحه لقب سلطان البر، حتى ورث الشهابيون الحكم عن احفاده.

إن هذه الرواية التي أدخلها المؤرخون الثلاثة في تاريخ لبنان، ونقلها وبنى عليها أكثر المؤرخين المتقدمين، حتى اعتمدت في التاريخ اللبناني الرسمي، وصارت منطلقاً وأساساً للتاريخ المدرسي والأكاديمي اللبناني، هي رواية موضوعة بمجملها، وخرافة تاريخية لا تصمد أمام أي بحث جاد وذلك للأسباب التالية:

أولاً: إن هذه الرواية لم تورد في أي مصدر آخر معاصر أو لاحق لتاريخها غير عند

(1) الدويهي ص 394. إن تعبير الإمارة اللبنانية لم يستعمله أي من الإمراء المعنيين أو الشهابيين باستثناء أخرهم . بيت بمنازل كثيرة الصليبي ص 167.

البطريرك الدويهي (متوفي 1704م) وهو معروف بتحزبه للمعنيين، وإيثاره لهم وصلاته بأميرهم، ومحاولته دائماً إبرازهم كحكام وحيدين وشرعيين على جبل الدروز. بينما لا يذكر إبن سباط الدرزي، أي شيء عن هذه المقابلة المزعومة، وهو المعاصر لها والشاهد الحي على زمانها، وانتماؤه الجغرافي والسياسي والطائفي يحتم عليه أن يكون أكثر الناس إطلاعاً على تفاصيلها وأشدهم دافعاً لإيرادها والتعليق عليها. وهو يذكر أن الأمير اللبناني الوحيد الذي قابل السلطان سليم، وقبّل يده بعد عودته من مصر إلى دمشق، هو الأمير شرف الدين يحي التنوخي وكل ما حصل عليه من أنعام لا يتعدى «**العلامة على مناشيره**»[1].

ثانياً: إن المكانة والسلطة والألقاب التي أجمعت المصادر الموثوقة، على أن ناصر الدين بن الحنش ومنصور العسافي وابن بشارة قد حصلوا عليها من الدولتين المملوكية والعثمانية، وتعدد الولايات التي دخلت في حكمهم، ومنها جبل الدروز التابع لصيدا، بيروت، وفي نفس التاريخ الذي كان فيه السلطان سليم لا يزال في دمشق، تجعل من المستهجن تجاهل الدويهي أو غيره من المؤرخين لهم، في الوقت الذي يضفون على المعني كل هذه الأهمية، ويستمنحون السلطان له كل هذه النعم، متجاوزاً بذلك حتى ناصر الدين آمر الشام ومقدم العشير وحاكم البقاع وحمص وصفد وصيدا وبيروت.

إن لقب سلطان البر الذي ادعى الدويهي، أن السلطان قد منحه للأمير المعني، هو من ألقاب السلطان العثماني نفسه فلا يمكن أن يشاركه فيه أحد، لا سيما إذا كان من درجة المعني وأهميته ومكانته، ولم يعرف أن أحداً ما قد حصل على هذا اللقب في الحقبة العثمانية،[2] مما يفيد أن الألقاب الأخرى كأمير عربستان، هي من وضع مخيلة المتحمسين لسيرته، كذلك **فإن الشخصيات والمواضيع المركزية في التاريخ اللبناني، كما هي متخيّلة ومروّية تقليديا**،«يقول أبو حسين في دراسته لمجموعة من الوثائق العثمانية»: **إما أن ترد بشكل مختلف في الوثائق التي نحن بصددها، أو أن تكون غائبة كلياً من محتوياتها. والشخصية البارزة المتمثلة في الأمير فخر الدين المعني (ت. 1635م) تشكل خير مثال على ذلك. فهذا الرجل يظهر عنواناً للمجد والفخار في التواريخ اللبنانية التقليدية، وفي كتب التاريخ المدرسي، باعتباره الأمير اللبناني البطل والوطني، الذي منحه العثمانيون لقب «سلطان البر» ، كتقدير لموقعه المتقدم. هذا، بينما يظهر فخر الدين**

---

(1) التنوخيون حمزة عن صدق الاخبار، ابن سباط ص 213.

(2) حتى الأمير فخر الدين بن قرقماز لا تفيد الوثائق العثمانية أنه حصل على لقب يتجاوز أمير لواء صفد وهو لقب يطلق على كل من يلتزم لواء كتدمر وحمص ووادي التيم. لبنان والإمارة الدرزية أبو حسين ص 18 - 19.

ذاته في وثائق «المهمة، كحاكم مقاطعة سورية كانت علاقته بالعثمانيين لا تختلف عن علاقة الكثيرين من معاصريه، بحسنها وسوئها، وهو لم يمنح أبداً رتبة عثمانية أرفع من رتبة «أمير لواء» (Sancakbeyi) على صيدا ـ بيروت وصفد.

ثالثاً: في الوقت الذي جرت فيه هذه المقابلة المزعومة، كان الشوف يجتاز مرحلة من الفوضى امتد فيها النزاع على السلطة بين أسر ثلاث متنفذة، على الأقل، وهي المعنية والتنوخية والارسلانية وغيرها، ولم تكن أقصى مطامع كل منها، تتجاوز الحصول على بعض النفوذ في عدة قرى، دون أن تكون الولاية والحكم من اهتماماتها المباشرة بعد.[1] فكيف يحصل هذا المعني الغامض على كل هذا التكريم والاهتمام، ويكرس أميراً وحيداً على جبل الدروز، ولم يكن هذا المنصب قد عرف بعد، ثم يصبح في عصور لاحقة أميراً على كل لبنان.

رابعاً: إن اسلوب الخطبة نفسه، يؤكد أنها تنتمي شكلاً ومضموناً إلى عصر لاحق، وهي تحتوي على تناقضات تاريخية فاضحة واصطلاحات لم تكن معروفة في زمانها، بل دخلت إلى عالم الخطاب السياسي في وقت لاحق[2].

خامساً: إن الأمير فخر الدين بن عثمان المعني، الذي يقول الشهابي، إن السلطان أنعم عليه بحكم الشوف، ولقبه بسلطان البر، بعد الخطبة الشهيرة والذي هو أشهر الأمراء المعنيين، وبه **غابت شمس الإمارة التنوخية وأشرقت شمس الإمارة المعنية**، بعد أن أعجب السلطان بفصاحته وفوض اليه كل أمور الشام، كان عندما اجتاح السلطان سليم سوريا في عداد الأموات منذ سنوات عدة كما يؤكد معاصره ابن سباط بقوله «**إن فخر الدين عثمان بن معن أمير الأشواف من أعمال صيدا قد توفي ربيع الآخر عام 912 هـ الموافق 1506م**[3]. بينما يسميه الدويهي قرقماز ابن يونس ابن معن. ولن يكون من السهل جلاء هذا الأمر، ما دام أي مصدر آخر لم يعرض لهذا الموضوع ولم يذكر شيئاً عنه.

سادساً: بعد حفلة تتويج المعني المختلف على اسمه، «متولياً على الشام»، وسلطان البر والمقدم على الجميع، تختفي فجأة جميع أخباره وأخبار إمارته عند الدويهي والشدياق والشهابي، وهي غير موجودة أصلاً عند غيرهم. وكان ابن سباط قد توقف عن التدوين عام 1519م ولا يُسمع لهذه الإمارة، أو لأحد اقطابها، ذكر حتى عام 1585م تاريخ وقوع حادثة جون عكار التي انتهت بقتل قرقماز. ثم تعود لتختفي مرة أخرى، حتى عام

(1) بيت بمنازل كثيرة ، كمال الصليبي ص 163.
(2) التنوخيون، نديم حمزة ص 216.
(3) صدق الأخبار، ابن سباط ج2 ص931.

1592م تاريخ ابتداء حكم الأمير فخر الدين الشهير (وهذا أمر له بحث آخر). وكيف يمكن أن تختفي أخبار إمارة عن كل مصادر التدوين، لمدة قرن كامل بعد تأسيسها، دون إشارة أو ذكر لها، في جميع المصادر المهتمة بهذه الفترة.

الشيعة وفخر الدين

إن فخر الدين المعني هو أكثر الشخصيات التاريخية اللبنانية إثارة للإهتمام والنقاش عند الباحثين الغربيين واللبنانيين على السواء. تميز هذا الأمير بشخصية فريدة وطموح جامح ورؤيا سياسية بعيدة ومغامرة وانتهازية مفرطة بالمخاطرة، جعلت منه اللاعب الأبرز لفترة طويلة، في معادلة معقدة ودقيقة أدخل فيها القوى السياسية المحلية والسلطة العثمانية والمطامع والمصالح الدولية الإقتصادية والتاريخية والسياسية. وحاول أن يسخر ما أمكنه من هذه العوامل لإشباع طموحه، فتعامل مع كل منها بما يعتقده أنسب الطرق للوصول إلى ما يريد.

كان فخر الدين مبالغاً في نهمه إلى المال والسلطة، فسعى إليهما دون الإهتمام بالوسيلة، حتى استطاع أن يمد سلطته إلى مناطق عديدة خارج جبل الدروز، وجمع من الأموال ما أمكنه من إغراق الباشوات العثمانيين برشاويه وعطاياه، وزيادة ماية الف ذهباً على بعلبك مقابل زيادة أميرها عشرة آلاف قرش على صفد، ففاز بالمقاطعتين و بمقاطعات كثيرة أخرى حتى وسع ملكه وكثر عدد رجاله ونمت ثروته وشعاره الدائم:

«**إن السلطة نَقْلٌ تَخمٍ. فكلما ملكنا بلاداً نتقوى برجالها وأموالها ننتقل إلى غيرها**»[1].

وقد دفع به خياله الواسع المجازف إلى السعي لتحقيق مشروع سياسي معقد وخطير[2]، يقضي باغراء بعض القوى الأوروبية، على تحقيق حنينها القديم إلى الشرق، بمحاولة إنشاء ممالك مسيحية وأوروبية في قبرص ولبنان وسوريا وفلسطين، يكون هو

(1) لبنان في عهد الأمير فخر الدين، الشيخ أحمد الصفدي نقلها الأب قرالي، فخر الدين المعني ص 133.

(2) لا يمكن التأكيد إذا كان فخر الدين يحمل مشروعه الخيالي على محمل الجد أم كان يستعمله وسيلة للحصول على منافع سياسية وتقديمات مادية أو مكان لجوء آمن على الأقل. وهذا أمر يخرج عن موضوع هذا البحث.

وإمارته رأس الحربة في تأسيسها، مما يسَّر له شبكة من العلاقات الدولية والمساعدات المادية والعسكرية الأجنبية.

كان لا بد لشخصية فخر الدين المسيطرة، وطموحاته، وكذلك مشروعه الدولي المعقد، من أن يؤديا إلى صدام حتمي مع جهات متعددة، وخصوصاً جيرانه من الذين بدأت الخطوات التمهيدية لإيجاد الأرضية الصالحة لنجاح المشروع تمس مصالحهم ويشعرون بوطأتها دون أن يدركوا بالضرورة أبعادها وخلفياتها.

إن ما بلغه فخر الدين من نفوذ وسلطة، وما أقامه من علاقات متعددة ومتشعبة، في اتجاهات مختلفة محلياً ودولياً، ووقوع منطقة حكمه الأساسية في وسط مناطق شيعية من جهاتها الثلاث، حتّم أن ينعكس مشروعه السياسي على تعامله معهم وعلاقته بهم.

وضع الأمير الطَّموح لنفسه سياسة يتبعها مع الشيعة، وينفذها تدريجياً، من شأنها كما اعتقد، أن تحقق له أهدافه المرسومة دون أن يقيم اعتباراً مهماً للصلات السابقة التي كانت بينهما بما فيها من تحالف وتعاون وحتى نسب ومصاهرة.

إن قواعد هذه العلاقات التي وضع أسسها، دخلت من بعده في التراث السياسي لحكام جبل الدروز من خلفائه، وتركت بصمات من النفور والعداء، استمرت لفترة طويلة بعد ذلك، تأثر بذيولها الفريقان رغم تباين الدوافع والمسببات.

كانت تصرفاته العملية نحوهم وممارساته، خصوصاً في الفترة الثانية من حكمه بعد عودته من رحلته الطويلة إلى أوروبا (1613 ـ 1618م) تتركز حول النقاط الاتية :

1 ـ ظهرت أطماع فخر الدين في أراضي الشيعة الواسعة وثرواتهم الزراعية والحيوانية ومواردهم البشرية، وخصوصاً في الاطراف الشرقية كسهل البقاع وفي المقاطعات العاملية الملحقة بسنجق صفد[1].

2 ـ حاول إزاحة الحكام الشيعة عن مناطقهم، والحلول مكانهم، والسيطرة عليها، ليتقوى بأرضها ورجالها وأموالها، وذلك تمهيداً، ربما لمشروعه العتيد ولمصداقيته أمام حلفائه الإيطاليين خصوصاً بعد أن أوهمهم أنه الحاكم الأوحد للمناطق المجاورة للأراضي المقدسة والمؤدية اليها[2]. فابتدأ بجبل عامل، ثم انتقل إلى البقاع وانتهى إلى الشمال في كسروان وطرابلس.

(1) يلاحظ تركيز الصفدي على ثروات البقاع وأمرائه الحرافشة وصدام فخر الدين الأول مع العامليين عندما حاول جمع الضريبة عن ثلاث سنوات مرة واحدة. بينما إلتزامه محدد بسنة واحدة.
(2) فخر الدين المعني الأب يوسف قرالي ص 144- 145.

3 ـ تحسَّب من وقوف الشيعة عقبة أمام مخططاته، بعد أن ضمن ولاء الدروز والموارنة، وإمكان معارضتهم لها وقيام حركة شيعية موحدة تهدد نجاح مشروعاته أو تقف عائقاً دون السير بها وإتمامها كما يريد[1].

4 ـ إن مضاعفات الحرب الصفوية ـ العثمانية، والتوجس العثماني من موقف الشيعة الذي قد يكون موالياً للصفويين، أو قيام اتصالات وتعاون بين الجانبين، يهدد الجبهة الداخلية العثمانية، «**وظفت كلها لصالح فخر الدين، وحملت الدولة على تقويته واعتماده لمراقبة الشيعة واضعافهم ومنعهم من اي تصرف معاد**»[2]، فأسندت إليه صيدا وصفد حيث يقع الوجود الشيعي الجنوبي. ثمّ سهلت له ضرب الحرافشة في البقاع، وتجاهلت كل أعماله التدميرية فيه. وأخيراً منحته ولاية طرابلس، حيث اصطدم بالوجود الشيعي الوحيد الذي لم يكن قد ضربه بعد.

سنة 1587م عمد الشاه عباس الكبير بعد اعتلاء العرش، إلى تقوية بنية جيشه ودعمه بالأسلحة النارية المتطورة آنذاك وأصدر مجموعة من القوانين الإقتصادية التي جعلته بمأمن من الأزمة العامة، التي أثرت سلباً في اقتصاديات الدولة العثمانية، ثم انتصر على الأوزبك وردهم إلى ماوراء خراسان. فكان لا بد للحروب ان تعاود نشوبها بين الدولتين العدوتين الصفوية والعثمانية.

إن أطماع فخر الدين المادية في أراضي الشيعة وثرواتهم، وأطماعه السياسية في حكم بلادهم، في صفد وبعلبك وكسروان، وحرصه الشديد على تنفيذ مشروعه الخيالي، وتوفير أسباب النجاح له، واستغلاله خصوصاً في المرحلة الأولى من حكمه لتداعيات الحرب العثمانية الصفوية، وانعكاساتها على أوضاع الشيعة اللبنانيين، ونظرة السلطات العثمانية إليهم فانتدب نفسه ليكون عين السلطة وسيفها المسلط على رقابهم. كل هذه الاسباب دفعت العلاقات بين الطرفين إلى مرحلة التأزم ثم التوتر فالعداء مما قاد إلى صدام عسكري في النهاية لم يعد من الممكن تجنبه.

تكاثر المسيحيون في كسروان، بتشجيع ودعم من الشيعة حكامه وملاكيه كما تكاثروا في جبل الدروز بترحيب من سكانه كذلك، ولما كانت الأراضي الصالحة للزراعة ضيقة وعزيزة في هذا الجبل، ولما كان المسيحيون فلاحين نشيطين ومهرة، ظهرت الحاجة إلى أراضٍ واسعة تستوعب الأعداد المتزايدة من المهاجرين الوافدين، وتسد حاجة أهل جبل

(1) فخر الدين المعني، الأب يوسف قرالي ص 161.
(2) بيت بمنازل كثيرة، كمال الصليبي ص 165.

الدروز المتنامية إلى مساحات واسعة للزراعة والرعي، فلم يكن أمامهم إلا الإتجاه نحو أرض جيرانهم وهم كلهم من الشيعة.

فعلى حدودهم الشمالية تقع كسروان، وإلى الجنوب جزين، وإلى الشرق ليس هناك غير أطراف سهل البقاع الخصيب على السفوح الشرقية، ممتداً من كرك نوح حتى مشغرة[1].

حاول فخر الدين المعني ان يمتلك اراضي خصبة في البقاع فادعى أنه اشترى أملاكاً فيه، من الأمير منصور بن فريخ، وأرسل فلاحين لزراعتها لحسابه من أهل الشوف. إلا أن الحرافشة منعوه من ذلك، رغم طلباته المتكررة ورسائله ورسله في هذا الخصوص. وإذا كان هو أو ابنه قد عارضا سكن أولاد الأمير يونس الحرفوشي في مشغرة لأسباب سياسية، فإن اعتراضه على سكن صهره الحرفوشي الابن الأخر في البلدة قب الياس، لا يمكن ان يفسر إلا برغبته في تملك هذه البلدة وانتزاعها من الحرافشة حلفائه السابقين. يقول الصفدي، وهو المطلع على أدق غايات وأهداف سيده فخر الدين عن موضوع قب الياس وأرض البقاع بعد أن مهد لهذا الموضوع بتفصيل وافٍ عن ثروة الأمير يونس الحرفوشي الزراعية وما يملك من فدادين وطروش وغلال تعتبر بالنسبة لسكان الجبال ثروة اسطورية،«**أحرز الحرفوش ثروة كبيرة من الزراعة وباع إنتاج أراضيه الواسعة بثمن باهظ وصار يمنع أهل الشوف من الزراعة في أرض البقاع فأضر ذلك بالزراع. ولم يكترث لرسائل المعنيين ومراجعاتهم**[2]».

من الواضح أن الأمير المعني عند توجهه إلى قب الياس حيث تسكن ابنته وزوجها الأمير حسين قد عزم في سره على الدخول في نزاع مع صهره الحرفوشي ووالده. لا بد أنه قدر عواقبه، فإن ما يمكن أن يثيره يونس من متاعب أمام مشروعه السياسي من جهة، وثروته الكبيرة التي أثارت لعابه ومطامعه من جهة أخرى، لم تترك أمامه سبيلاً آخر للتصرف ولا لمزيد من التفكير والدراسة.

إن نوايا المعني المبيتة ضد الشيعة هي التي أدت بدون شك، إلى تدهور العلاقة بين الطرفين وقادت في النتيجة إلى المواجهة والقتال. إن التفاف الشيعة العامليين حول الأمير يونس واستنجادهم به واندفاعه لمؤازرتهم ورفع الضيم المعني عنهم هي من

(1) راجع خريطة «الدروز و الشيعة»
(2) لبنان في عهد الأمير فخر الدين، الصفدي ص 135.

العوامل الحاسمة في تطور الأمور. إن هذا الحلف الشيعي أثار مخاوف جهات عديدة كانت الدولة المنهمكة في حربها الضروس مع الصفويين على رأسها، وكان فخر الدين أداتها في وقت ما للوقوف في وجه هذا الخطر بما بلغه من سعة نفوذ وقوة جيش وحنكة في التذبير ومطامح لا تحد. وقد وجد في هذه القوة الناشئة والتي زادها التحالف الجديد المعلن تأثيراً في مجريات الأمور، مما يهدد كل ما يمهد له ويسعى إليه من جلائل المخططات وعظائم الأمور.

وعندما بدأت ملامح العداء المعني تظهر عنيفة ضد الشيعة حاول الأمير يونس معالجة الأمور باللين والسياسة دون جدوى، لأن تصميم صديقه القديم على المضي في عدائه حتى النهاية، لم يكن قابلاً لأي تعديل. فلم يعد أمامه إلا الدفاع عن الشيعة في البقاع وجبل عامل والتصدي لما يتعرضون له من ضيم.

«كان الأمير يونس يعطف عطفاً شديداً على أبناء طائفته في جبل عامل، ويفتح دوره وقصوره لإيوائهم وحمايتهم عندما تدور عليهم الدوائر، وتجبرهم القوة الغاشمة لهجر ديارهم. وطالما دفع عنهم الغوائل، وصرف في سبيلهم الأموال، وفاء ومروءة، كما جرى له مع الحاج ناصر الدين منكر، الذي اعتقله الأمير المعني لأموال متأخرة عليه فسعى يونس بإطلاق سراحه وكفل ما يطلب منه من الأموال»[1].

إن هذه الهواجس المعنية التي تفجرت قمعاً وتنكيلاً بشيعة جبل عامل، ستقود بعد فترة وجيزة إلى حروب طويلة بين فخر الدين وشيعة البقاع، بقيادة الأمير يونس، وستدفع الأمير المعني إلى مهاجمة بعلبك وبلادها ومحاصرة حصونها وضرب مشروع يونس السياسي، لا سيما وأن كل الظواهر توحي بأن للمعني مشروعه الخاص، البالغ الطموح والتعقيد والمناقض بقوة لما يسعى له الحرفوشي، من قيام اتحاد شيعي يهدد مشروعه في الصميم، مما قاد حتماً إلى تصادم عسكري بينهما كانت له انعكاسات أساسية في علاقة فخر الدين بسائر شيعة لبنان.

ليس من العسير الاستنتاج، أن إقامة الأمير أحمد أو شقيقه الأمير علي الحرفوش في مشغرة، وتأسيس بناء لإقامة أحدهما فيه، والمراسلات والمكاتبات بينه وبين بني متوال، وتردد كبار مشايخهم عليه للتشاور معه، واضطرارهم لإيجاد سبب مقنع يبرر الدافع لهذه الزيارات أمام المراقبين، تخفي غايات سياسية هامة

(1) تاريخ جبل عامل، محمد جابر آل صفا ص 112 الصراع المعني - الشيعي موضوع بحث في فصول لاحقة.

أثارت هواجس المعنيين ومخاوفهم ودفعتهم إلى توجيه إنذارات وتهديدات قاسية إلى نسيبهم الشيعي الأمير يونس. «**لأن مجيء الأمير أحمد إلى مشغرة مبني على فساد وقصده هو استمالة بني متوال واجتماعهم عليه**»[1]. كل ذلك يؤكد أن الأمير المعني يتخوف من ولادة إمارة شيعية، تمتد من بعلبك إلى كرك نوح فقب الياس فمشغرة وصولاً إلى جبل عامل وصفد.

بدأت محاولات فخر الدين للسيطرة على جبل عامل في وقت مبكر من عهد ولايته. فهي تعود إلى سنة 1603م عندما التزم بلاد صفد من والي الشام، ودخلت بذلك ولأول مرة مناطق جبل عامل في إقطاعات أمير من جبل الدروز. وكانت مطامع فخر الدين قد ظهرت قبل ذلك، عندما تسلم صيدا وسكن فيها واصطدم بآل سودون، ثم بسائر القوى العاملية. إن العامليين لم يستسلموا بسهولة لحكم فخر الدين، فكان أول الثائرين عليه المشايخ أولاد علي الصغير، الذين سلبوا بعض رجاله وعاثوا في تلك الجهات، فقصدهم فخر الدين على إثر وصوله إلى الكوثرية فوجدهم غائبين «**في جميعة مشايخ بني متوال فنهب جميع أرزاقهم وأخذ ما لكل واحد منهم من الدواب**».

وسنة 1617م توجه حسين اليازجي إلى صفد بعد أن التزمها من والي دمشق فتخلص الشيعة بذلك من نفوذ فخر الدين وأجمعوا على تأييد الملتزم الجديد ومساندته.

«**قبله بعض ناس مثل المشايخ القبلية بيت منكر وبيت شكر وبيت علي الصغير**»[2]. إلا أن ولاية حسين اليازجي، لم تدم طويلاً فسرعان ما سقط قتيلاً وتكفل المعني بمال الإرسالية وديون القتيل.

أثمرت مساعي الأمير يونس الحرفوشي في الحصول على رضى الدولة وموافقتها على عودة الأمير الهارب، فعاد من إيطاليا سنة 1618م ولم تكد قدمه تطأ أرض عكا بعد وصول باخرته، وتوافد الناس للسلام عليه «**حين وقعت عينه على الحاج ناصر الدين بن منكر مسكه لأنه من أعيانهم**»، وانفجر الخلاف بقوة بينه وبين المتاولة «**فطاحت مشايخ بلاد بشارة بيت شكر وأولاد علي الصغير وكلهم راحوا إلى عند الأمير يونس بن حرفوش**»[3] وعلى إثرها توالت غارات فخر

(1) لبنان في عهد الأمير فخر الدين، الصفدي ص 66.
(2) الدويهي ص476.
(3) الصفدي ص66.

الدين على ديار المتاولة، وحملاته عليهم. ولم تسلم أهم بلداتهم من بطشه وتدميره في البقاع أو جبل عامل بما فيها بعلبك نفسها واللبوة وكرك نوح وسرعين وكذلك عيناتا وبنت جبيل وأنصار والزرارية وحومين.

لم يقتصر استهداف فخر الدين للشيعة على جبل عامل والبقاع، فتوجه لتنفيذ مخططاته نحو جبل لبنان، وكانت كسروان على رأس أهدافه، حين كان التواجد الشيعي لا يزال منتشراً وكثيفاً تحت حكم الحماديين، الذين دأبوا على تشجيع نزوح المسيحيين إليها بمنحهم أماكن يقيمون فيها وأراضٍ يستغلونها، وبالسماح لهم ببناء دور عبادة، واستقدام رجال دين وحمايتهم قبل كل ذلك من سطوة الوالي العثماني وأعوانه[1].

كان آل سيفا يتناوبون على ولاية طرابلس في ذلك التاريخ، فتصدوا لمطامعه في كسروان باعتبارها من مقاطعات الولاية، وجرت موقعة بينهما في جونية انتهت بانتصاره، فانقسمت كسروان إلى مقاطعتين «**وانفصل عنها الفتوح وجعل مقاطعة مستقلة بقيت في ولاية الحماديين المتاولة لأن أكبر قسم من أرضها كان ملك المشايخ المذكورين**»[2] بينما ألحق القسم الباقي بجبل الدروز، ونصب فخر الدين عليه يوسف بن المسلماني احد معتمديه ليقيم في غزير ويتعاطى أمور الأحكام فيها. أما في بلاد جبيل فقد استأصل الحماديون نفوذه منها عندما **قام الحاج يوسف وقانصوه حماده بقتل مقدمي جاج الأربعة أحلافه فيها وتمشيخا عوضهم عليها**[3].

كما صده الحماديون في شمال لبنان أكثر من مرة، ومنعوه من دخول طرابلس وقاتلوه على أسوارها وردوه على أعقابه سنة 1631م.[4] **وكان قد أمر عساكره يوماً أن يصلوا إلى قرايا أولاد حمادة وأولاد الشاعر لينهبوهم ويحرقوهم**[5].

طوي مشروع فخر الدين بعد قتله في اسطنبول، وعادت الحياة السياسية إلى

(1) راجع وثيقة محمد حمادة E1.
(2) المقاطعة الكسروانية ص 96.
(3) أخبار الأعيان الشدياق ج1 ص 193.
(4) تاريخ الأزمنة، الدويهي ص 499.
(5) الصفدي ص 44.


طرابلس

مسيرتها السابقة في لبنان. فحكم أولاد الأمير يونس بعلبك والبقاع، وعاد النازحون إلى ديارهم في بلاد بشاره، وبقيت قلعتا طرابلس وجبيل بيد أصحابهما، وترك فخر الدين بصمات وآثاراً استمر تأثيرها حياً إلى أجيال بعده.

إن ممارساته تجاه الشيعة في مختلف مناطقهم، خلفت عندهم إحساساً عميقاً بالخيبة والنفور والعداء، فهو الذي سلخ كسروان عن محيطها، وسبب إلحاق قسم كبير منها بجبل الدروز، وبالتالي اصبحت من معاملة والي الشام الذي عانى شيعتها من اضطهاده، وتنكيل حكام الجبل، مما سهل محاولات تهجيرهم لاحقاً. كما ألقى بذور الفتنة والصدام في جزين بمحاولة تغيير طابعها بالعنف والإكراه مما أورث احقاداً بين الطوائف عمرت طويلاً، وخرب بعلبك وقلعتها، وأحرق قب الياس والكرك وسرعين وعددا من أهم بلدات البقاع وحصونها ومزاراتها، ولم يبق على بيت واحد في عدد كبير منها، كما فعل بقرى كثيرة في جبل عامل ونهب وأحرق القرى الشيعية «قرى أولاد حمادة» في جبل لبنان.

الشيعة وآخر المعنيين

بعد وفاة فخر الدين حصلت أول مواجهة بين المعنيين والعامليين، عندما داهم ملحم بن يونس عدوه علي علم الدين الذي التجأ إلى بلاد بشارة وناصره آل علي الصغير فكبس المعني قرية أنصار مقر المناكرة الواقعة في إقليم الشومر.

دخل الأمير ملحم إلى القرية دخول المسالم، بحجة التفتيش عن خصمه، ولما آمن القوم هاجمهم بغتة، وأمر بهم فذبحهم العسكر عن آخرهم في المرج المعروف حتى اليوم، بمرج الدجاج، وأباح البلدة ثلاثة أيام قبل أن يغادرها مخلفاً ألفاً وستماية قتيل من أهلها في معركة أطلق عليها المؤرخون العامليون اسم معركة أنصار الأولى عام 1638م، وكان من ذيولها في العام التالي الهجوم على بلدة مشغره ونهبها دون أن يواجه الهجومان مقاومة تذكر، ربما لأن أهالي البلدتين لم يكونا على تأهب عسكري واستعداد قتالي كونهم غير مستهدفين مباشرة وإنما كانوا ضحية صراع لا علاقة مباشرة لهم به.

ولكن معارك أخرى نشبت بين الطرفين تفرد العامليون بذكرها عندما استلم الأمير ملحم التزام سنجق صفد، ومن ضمنه مقاطعات جبل عامل، بمبلغ ثلاثين ألف قرش سنة 1658م. وربما يكون هذا الالتزام وما يقتضيه من تعامل واحتكاك، بالإضافة إلى العداء القديم من أهم العوامل التي أدت إلى نشوب هذه المعارك، التي لم تكن حاسمة، وإنما سجالاً بين الطرفين كمعركة عيناتا 1660م[1] ومعركة النبطية الفوقا 1666م ومعركة وادي الكفور 1667م التي برز فيها على رأس جبل عامل شيخ المتاولة أحمد بن علي الصغير المتوفي سنة 1680م.

(1) جبل عامل في التاديخ الفقيه. ص176 وورد أنها وقعت سنة 1659م

يبدو أن هذه المعارك نشبت وتكاثفت عل إثر إنشاء باشوية مستحدثة في صيدا، وشعور العامليين بالتوجس والقلق إزاء هذا الأمر الذي يجعل الباشا التركي وجنده وأعوانه على تخوم جبلهم مباشرة. فظهر التململ والتمرد بينهم. فطلب الباشا تدخل الأمير ملحم كعادته لتأديب العصاة وإرهابهم.

كانت الأمور والعلاقات بين حكام الشوف، وشيعة الشمال تسير على وتيرة مختلفة، وتتجه إلى قيام تحالف بوجه السلطة، بلغ ذروته في حركة قمهز، التي جمعت بين المعنيين والشهابيين والحماديين في جبهة واحدة، أمام الجيوش العثمانية الزاحفة من البقاع. وانتقل الجميع إلى عمق بلاد الشيعة في المنيطرة للإتفاق على كيفية المقاومة، بعد أن اجتاحت الجيوش مناطقهم وأرزاقهم وبيوتهم. وقد انضم إلى المقاومين فيما بعد، كثير من العائلات والقوى الأخرى[1]، حتى أعطي الصراع طابعاً عرقياً لا طائفياً، جمع أولاد العرب بوجه العثمانيين، الذين ردوا بأعمال انتقامية قاسية طاولت مناطق وادي التيم وجبل الدروز، وتركزت خصوصاً، في بلاد الشيعة وقراهم في كسروان وجبيل ووادي علمات، بعد أن توارى الأمراء الشهابيون والمعنيون خارج مناطقهم، وانسحب الحماديون إلى قمم الجبال وأعماق الأودية يقاومون كما تعودوا دائما غارات عدوهم المتفوق المدمرة.

تمكنت السياسة الشيعية المعادية للعثمانيين من كسب تحالفات مهمة في هذه الفترة، وخصوصاً بانضمام المعنيين والشهابيين إلى المقاومة في كسروان.

عندما شعرت الدولة بخطر التحالف الدرزي الشيعي على مصالحها، حاولت أن تبذر الشقاق بين الحماديين والمعنيين، وذلك من خلال محاولاتها المتكررة إسناد ولاية المقاطعات الحمادية إلى الأمير أحمد المعني، لقاء مساهمته العسكرية مع قواتها في قتال الشيعة وقمعهم. ولكن الأمير أحمد، المدرك لما وراء هذا العرض من غايات مبيتة، كان يجد الأعذار دائماً لرفضها بدبلوماسية وليونة، حتى غضبت عليه الدولة في النهاية وعزلته من منصبه، واعتبرته أنه يحالف الشيعة سراً، ويقدم لهم الدعم والمساعدات ويقتضي إنزال نفس العقوبة بالجميع فطاردتهما معاً[2].

لم يكن الأمير فارس شهاب الملقب بالكبير، يتمتع بنفس القدر من الحكمة والحذر

(1) تاريخ الأزمنة الدويهي، ص550 ـ 551 تفاصيل هذه الحركة الهامة في تاريخ لبنان موضوع فصل خاص.

(2) لبنان والإمارة الدرزية، عبد الرحيم أبو حسين ص 92 ـ 93.

التي كانت للأمير المعني، فانزلق إلى الفخ الرسمي، وضمن بعلبك من قبل دولة الشام، بدلاً عن الحرافشة. وقدم بألفي فارس إلى نيحا وطرد الأمير عمر الحرفوش الذي توجه إلى ناحية بيت حمادة واستنجد بهم فجمع رجالهم ودهم الأمير فارس، تحت نيحا فقتله وقتل من جماعته خمسة وخمسين شخصاً من أجاويد وادي التيم في 27 آب 1680م.

إن تعيين الامير فارس حاكماً على بعلبك، وقدومه إلى جهاتها، وما أعقب ذلك، فتح صفحة دامية في سجل طويل من الحروب والخلافات بين الشهابيين في وادي التيم أولاً، ثم جبل الدروز بعد ولايتهم عليه، وبين جيرانهم من الشيعة في الجنوب وفي الشمال. رغم أن مساعي الأمير أحمد وعلاقته الحسنة بالطرفين أدت إلى إنهاء الخلاف آنياً عن طريق دفع دية الأمير القتيل، والاتفاق على تدابير تحول دون الاحتكاك مستقبلا، منها: أن لا يسكن الدروز في بعلبك ونواحيها أبداً[1].

كان مجرد مجيء الدروز إلى البقاع، يعتبر مخالفة للأوامر العثمانية التي ربما كانت ترمي إلى منع الإحتكاك بين الطرفين على أثر قلاقل جرت بينهما كما يفيد الأمر السلطاني الصادر في 28 تشرين أول 1700م والذي يستند إلى فرمان صادر قبل هذا التاريخ بنحو نصف قرن.

حكم إلى والي دمشق حسن باشا:

ان مجيء طائفة الدروز إلى البقاع واستقرارهم هناك وعملهم في الزراعة أمر يبعث على الإضطراب. أن الوزير الأعظم السابق زاده محمد باشا كوبرلي قد منعهم من ذلك عندما كان والياً على دمشق. وهناك حجة تنص على أنه في حال جاءت الطائفة المذكورة إلى البقاع فإنه يجوز قتلهم ومصادرة ممتلكاتهم[2].

(1) تاريخ بعلبك، حسن نصر الله عن الشدياق ص 275. إن العلاقات بين الشيعة وكل من المعنيين والشهابيين هي موضوع فصول قادمة. بما فيها موقف الأمير أحمد المعني من ثورة القزلباش ومقتل الأمير فارس شهاب.

(2) أ.م.د.272,111 الامارة الدرزية ص96.

انتقال إمارة جبل الدروز إلى الشهابيين

«توفي الأمير أحمد المعني سنة 1697م دون عقب، وانقطعت به السلالة المعنية. اجتمعت أكابر جبل لبنان لينتخبوا والياً عليهم، فاتفقت أراء الأكابر جميعاً، على الأمير بشير ابن الأمير حسين أمير راشيا، لأنه كان ابن أخت الأمير أحمد»[1].

«في ذلك الوقت، بعد وفاة الأمير أحمد، اجتمعت أعيان جبل لبنان للمشورة ليختاروا والياً عليهم، على ما كان في يد آل معن من الولايات، فاتفقت أراؤهم وانتخبوا الأمير بشير بن الأمير حسين أمير راشيا. لأنه كان ابن شقيقة الأمير أحمد المعني. ولما دخل دير القمر رضخت لأمره جميع أهالي جبل لبنان من أعيان ومقدمين ومشايخ وخاص وعام[2]».

بهذه الأسطر القليلة، حسم المؤرخان الشهابي والشدياق، أمر انتقال حكم الشوف من المعنيين إلى الشهابيين، ونقل هذه الرواية عنهما كل من جاء بعدهما، دون روية أو مناقشة أو تبصر.

إن هذه الرواية تفتقر إلى الكثير من عناصر الاقناع والإثبات، حول انتقال الحكم في جبل الدروز، من المعنيين إلى الشهابيين، لأن المصادر التي روجتها، **يحدوها ميل خفي، وأحياناً ظاهر للغرضية القيسية وللحكم الشهابي**[3].

إن هذه الرواية المتداولة لا تدل على تحزب للشهابيين فحسب، إنما هي محاولة مقصودة لإضفاء الشرعية على حكمهم، باعتبارهم ورثة المعنيين الوحيدين، وصلوا إلى السلطة عن طريق الإرث الشرعي، من جهة، واختيار جماعي وطوعي من أصحاب الشأن، اقترنت بمصادقة رسمية من اولي الأمر من جهة أخرى، مما يعزز حجتهم ويدعمها بوجه المعارضين، ولا سيما آل علم الدين وغيرهم، ممن قد يدعي حقاً أو مطلباً أو أهلية للحلول مكان المعنيين في حكم الشوف وامارة الدروز.

(1) أخبار الأعيان، الشدياق ج 2 ص 311.
(2) الشهابي ج1 ص 3.
(3) الامارة الشهابية، أبو صالح ص 34.

إن المدقق في هذا الأمر لا يحتاج إلى كثير من الجهد، لتتضح له هشاشة هذه الرواية وعدم انطباقها على واقع الحال، والأعراف، وتقاليد الحكم في جبل الدروز وسائر المناطق اللبنانية.

إن اجتماع الأعيان، للتداول في أمور انتقال الحكم ليس أمراً مألوفاً في الشوف، أو في غيره من الولايات. ونحن لا نعرف حالة واحدة مشابهة سابقة أو لاحقة، اعتمد فيها الأسلوب نفسه. ولا يخفى أن توريث السلطة من عائلة لأخرى، ليس من الأمور أو من المبادئ المعمول بها في انتقال الحكام[1]، بالإضافة إلى أن أحقية ابن الأخت في الإرث، على افتراض أن هذا الأمر طرح فعلاً، لا تبدو حسب الأحكام الشرعية أو الأعراف المتبعة، هو أمر مسلم به، لا يقبل البحث وخصوصاً مع وجود الكثيرين من الطامحين بالمنصب، كالارسلانيين والتنوخيين وآل علم الدين وربما غيرهم.

إن ما رواه المؤرخون أنفسهم عن أن الدولة العلية ترى أن يكون حيدر ابن موسى ابن بنت المعني المتوفي هو الوالي وأن بشيراً يكون والياً بالوكالة يتناقض مع كل قوانين وأعراف وسياسة الإدارة العثمانية التي تقصر الإلتزام على سنة واحدة لا يحفظ لصاحبه حقاً من أي نوع بعد انقضائها.

وقد تناوب على حكم الشوف في العهد العثماني أسر كثيرة ومنهم التنوخيون والمعنيون وآل علم الدين وآل عماد وآل أبي علوان وآل هرموش وغيرهم دون أن يراعى أو يثار مبدأ الوراثة.[2]

أما وكالة الأمير بشير عن قريبه حيدر فهو أمر مناقض ليس للأعراف والنظم العثمانية وحدها بل للشريعة الإسلامية أيضاً. فلم يلحظ القانون العثماني تدبيراً يعين بموجبه حاكماً على منطقة عثمانية غير عقد الإلتزام السنوي. ومن شروط المتعاقد أن يكون بالغاً، والقاصر لا يتمثل بوكيل وإنما بوصي شرعي يكون القاضي أو من يعينه شرعاً. ولم نجد سابقة واحدة في المصادر أو التقليد أو سجلات المحكمة الشرعية في صيدا وطرابلس سابقة تشبه ما ادعاه المؤرخان.

يرى البعض أن الأمير أحمد المعني، كان يود أن يخلفه الشيخ قبلان القاضي

(1) ربما تسربت هذه النظرية إلى أفكار مؤرخين متأخرين من وحي ما هو شائع في الغرب عن انتقال الحكم في أوروبا من أسرة إلى أخرى عن طريق الزواج والمصاهرة.
(2) الصراع على السلطة عباس أبو صالح، المؤتمر الأول، ص133.

التنوخي، عمدة مشايخ الدروز في حينه «**كبير طوائف الشوف والكل يعتزون إليه وهو المقدم عليهم**»[1]. ويرى آخرون، أنه أوصى باستبعاد الشهابيين عن خلافته[2]، واتهمهم بمقتل ابنه الوحيد الأمير ملحم، طمعاً بالولاية، كما أوصى بتولية أمير ارسلاني بعد وفاته[3]. هذه أمور ليس من السهل الجزم بها، لتعذر الاعتماد على مصادر محايدة بعيدة عن النزاع اليمني القيسي، والتنافس بين العائلات الذي كان على اشده. إلا أن ما نرجحه، أن نزاعاً وقع بعد وفاة الأمير أحمد، كما يقع دائماً في مثل هذه الظروف، حتى بين الإخوة والأقرباء وأبناء العائلة الواحدة، وأن هذا النزاع قد حسم بعد تجاذبات، لمصلحة شهابي من وادي التيم، لتعذر امكانية القبول بأحد أبناء العائلات الدرزية المتنافسة على النفوذ والتقدم بسبب التراتبية الدقيقة، والحساسية الكامنة بين مختلف العائلات الدرزية القوية، وصعوبة انقياد الباقين إلى سلطة العائلة التي يمكن أن تؤهلها الظروف لتولي القيادة.

ولذلك نجح بشير ابن حسين الشهابي، في تسميته ملتزماً على جبل الدروز، بعد أن تعهد لوالي صيدا بدفع كامل الديون المترتبة على اسلافه لصالح الخزينة السلطانية. مما أدى إلى فرار آل علم الدين المنافسين الرئيسين، ورؤساء الحزب الأقل قوة والأضعف عصبية بين الدروز، إلى دمشق. كما يعود الشدياق ويذكره بعد ذلك[4]. وكان تولي بشير على الجبل مقدمة لنزاع آخر، ما لبث أن ظهر بين الأمراء الشهابيين أنفسهم.

إلا أن ما يمكن تأكيده أن اجتماع السمقانية، في حال حصوله، عقد بناء على دعوة من أحد المهتمين بأمر آخر، غير اختيار الوارث لتركة المعنيين.

إن هذا الإجتماع لم يحضره أو يشترك في مداولاته أحد من خارج الشوف، سواء أكان من الأعيان أو من العامة، ولم يكن بين المتشاورين والمبايعين أي قادم من المناطق اللبنانية الأخرى خارج جبل الدروز ووادي اليتم، خصوصاً وأن ثورة شيعية كبيرة في جبل لبنان، كانت لا تزال في اوج اشتعالها بوجه جيوش السلطان الساعية

(1) الشهابي، ج1 ص 15.
(2) الحركات، ص 164
(3) لبنان في القرن الثامن عشر، ص 134.
(4) الشدياق، ج2 ص 311.

منذ زمن إلى القضاء على الحكم الشيعي بدون نجاح[1]. كما كانت المناطق الأخرى سواء في البقاع أو جبل عامل لا تهتم كثيراً بمصير الوراثة في جبل الدروز المجاور ولا يعنيها هذا الأمر لعدم علاقتها المباشرة فيه. وتترقب في ظل حكامها الشيعة، ما يجري من معارك عسكرية ومطاردات بين شيعة جبل لبنان والبقاع وجبل عامل أمام القوات العثمانية.

أما من حيث الوقائع التاريخية الثابتة في الوثائق العثمانية الرسمية، تؤكد تناقض هذه الرواية وجميع ذيولها ونتائجها. فهي تفيد أن الأمير الشهابي الذي حكم جبل الدروز بعد أحمد المعني، كان الأمير منصور بن حسين الشهابي، وليس الأمير بشير وقد غضبت عليه السلطة فيما بعد، وقبض عليه والي دمشق[2].

وأن الأمير بشيراً لم يحكم الشوف وصياً على قريبه القاصر، وإنما لقاء تعهده بدفع جميع المبالغ التي كانت تستحق للخزانة السلطانية على أسلافه[3].

إن الأعراف التي حتمت أن يخلف المعنيين أمير شهابي، وليس أي طامح آخر من العائلات النافذة التي طالما تنازعت على التقدم والسلطة كقبلان القاضي عمدة مشايخ الشوف، أو أي أمير أرسلاني، أو تنوخي آخر، فذلك يعود إلى التركيب الاجتماعي والقبلي والعشائري، الذي يحول دون قبول العشائر المتنافسة، بحاكم من أحداها، وخضوعها له. وقد بقي هذا التقليد الضرورة قائماً ومعتبراً، إلى وقت متأخر، كما يقول معاصر للأمير بشير الثاني، وهو من رجال الإدارة والحكم، وله خبرات عميقة في مثل هذه المبادئ، متحدثاً عن بشير جنبلاط، بأنه كان أرجح عقلاً وأشد حكمة من أن يطمح إلى الحلول مكان الأمير بشير الشهابي، لمعرفته باستحالة خضوع عشائر الدروز المقدمة إلى حكم أحد أفرادها وتفضيلها الإتيان بحاكم أجنبي عنها لاستحالة ذلك[4].

---

(1) الإمارة الدرزية، أبو حسين ص 61.

(2) وكان بالإضافة إلى أنه خلف أحمد معن في التزام الشوف فقد كان أمير لواء وادي التيم وقد أعدم في شباط 1706م بعد أن اتهم بأفعال شائنة. لبنان والإمارة الدرزية أبو حسين ص 95. وسيأتي تفصيل ذلك في فصل لاحق.

(3) المصدر السابق ص 98.

(4) من الجواب على اقتراح الأحباب، ميخائيل مشاقة ص 67.

معركة عين دارا

يكاد يجمع التاريخ الافتراضي الموضوع، على اعتبار معركة عين دارا، مفصلاً أساسياً في تاريخ لبنان، شكلت بداية عصر، ونهاية آخر، لما كان لها من تأثير بالغ على مجمل التطورات التي أعقبتها، كما وضعت حداً فاصلاً للصراع الطويل، على حكم جبل الدروز، بين كل من أصحاب الرايتين البيضاء والحمراء، حتى اعتبرها البعض أعظم المعارك في تاريخ لبنان[1].

إن تأثير هذه المعركة على توازن القوى، ومستقبل الحكم في جبل الدروز، هو خارج موضوع بحثنا. فما ينبغي توضيحه، هو الدور الشيعي في هذه المعركة الذي أُهمل تماماً في معظم المصادر اللبنانية، والذي يحتمل بعض الملاحظات.

لقد حفلت المصادر المختلفة القديمة والمعاصرة الدرزية والمارونية، بالإشادة بهذه المعركة، وأوردت مبالغات خيالية وساذجة، على بطولات الأعيان الذين قاتلوا إلى جانب الأمير حيدر، ناسبة إليهم اعمالاً خارقة، دفعت الأمير المنتصر، إلى توزيع المغانم والرتب على مساعديه بسخاء قل نظيره، حتى أنهم نسبوا إليه، أنه منح عائلات بعض المقاتلين من أنصاره، لقب الإمارة وهو ما لم يفعله السلطان العثماني نفسه «حسب علمنا» مع أية عائلة لبنانية أو غير لبنانية، لا سيما وأن هذا اللقب متوارث في عائلات محددة. ولأسباب معينة وليس من الألقاب التي يمنحها الولاة أو الحكام مهما علت رتبهم.

كما أسهبت هذه المصادر في تعداد المشتركين في هذه المعركة، من أعيان وعائلات ومقاتلين، فذكرت أسماءهم وطوائفهم وأدق تفاصيل القتال، ومراكز المتحاربين، دون أن يرد خلال كل ذلك إشارة واحدة ولو مقتضبة، تلمح إلى وجود شيعي فيها، أو أي مساهمة شيعية الطابع، بكل ما يتعلق بهذا الحدث الهام.

إن الحقيقة التي تغافل عنها الجميع، أكدها تقرير دبلوماسي رسمي نظمه شاهد عيان على تفاصيل الحدث، وهو على علاقة شخصية ومهنية مع جميع الأطراف التي اشتركت فيها، أو كانت معنية بها.

تولى الشوف الأمير يوسف علم الدين ومحمود أبو هرموش الذي انتقل إلى دير القمر ليباشر الحكم فيها، فهرب الأمير حيدر وأهم أنصاره، ومنهم الشيخ قبلان

---

(1) هذا ما يتردد في تواريخ عديدة حديثة.

القاضي، والتجأوا إلى الهرمل حيث اختفوا مدة سنة كاملة في «مغر فاطمة» أو «مغارة عزرائيل» النائية كما يدعوها الأهالي المحليون وأرسل عائلته إلى فتوح كسروان بسبب علاقته الحسنة مع الحماديين[1].

ثم طلب الأمير حيدر الحماية من شيخ بعلبك أو أميرها، وهو الأمير شديد الحرفوش الحليف الوثيق للحماديين. فوافق على حمايته، وأمده بجيش من الفين وخمسماية من خيرة مقاتليه، فعاد الأمير حيدر على رأسهم إلى جبل الدروز حيث انضم إليهم ألف وخمسماية رجل من أنصاره، من الحزب القيسي دروزاً ونصارى، فخاض بهم معركة عين داره التي أعادته حاكماً إلى دير القمر بفضل حماية حاكم بعلبك ومقاتليه بعد أن انتصر على أخصامه.

يقول قنصل فرنسا في صيدا استيل (Estelle) في تقريره المرفوع إلى وزيره الكونت بونت شارتران والمؤرخ في 23 أيار 1711م، أي بعد عدة أيام على تاريخ المعركة[2].

«طلب الامير حيدر الحماية من شيخ بعلبك القوي جداً، فمنحه حمايته واعطاه نحو الفين وخمسماية رجل من خيرة محاربي هذا البلد. فجاء بسرية تامة مع هذا الجيش الصغير إلى بلاد الشوف، حيث تكاثروا بالدروز القيسيين الذين انضموا اليه. وفي ايام قليلة بات تحت امرته أربعة آلاف رجل».

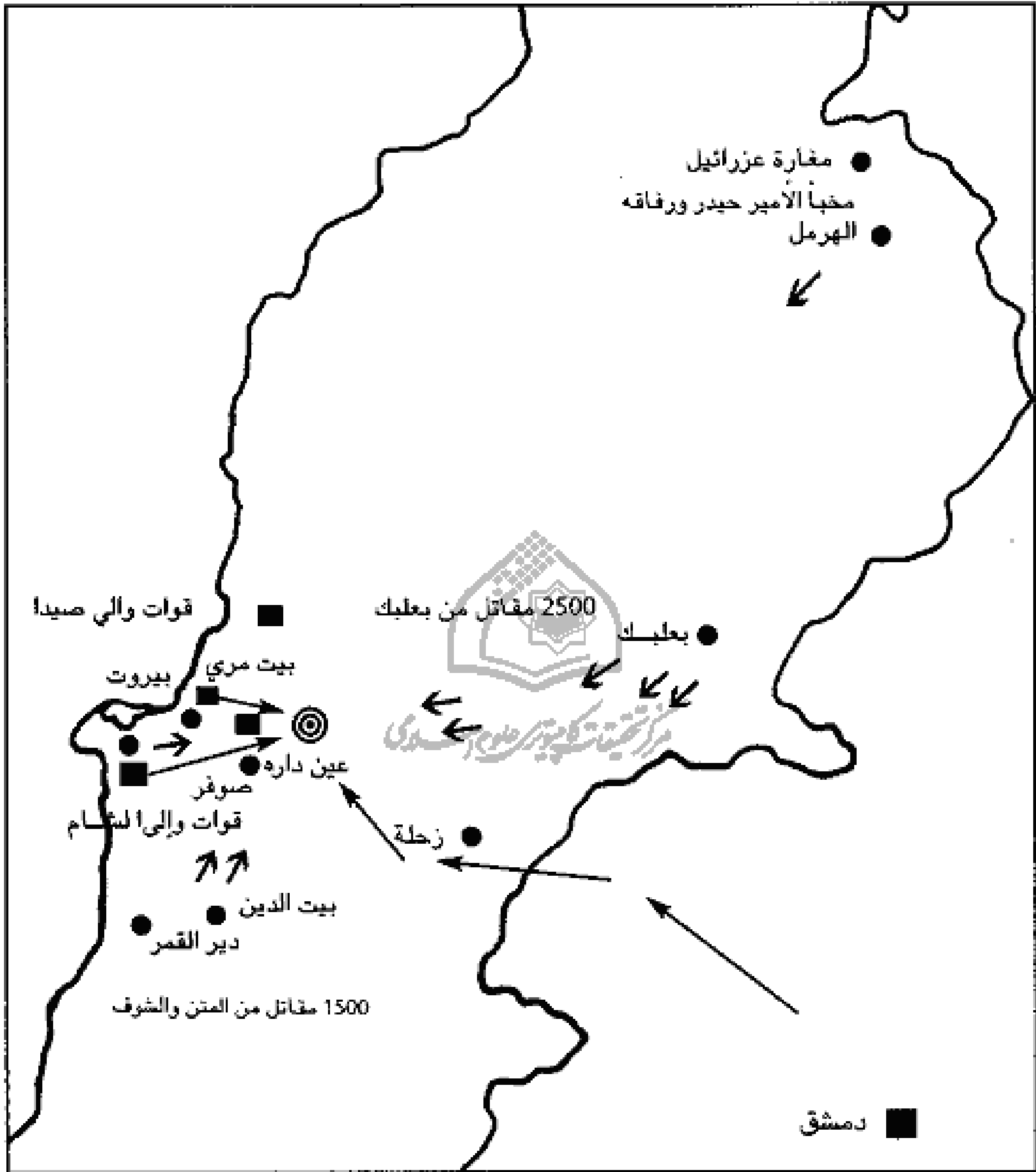
كان من الطبيعي بعد انتصار الشهابيين، في عين دارا وعودة الأمير حيدر إلى السلطة، أن يعمد أنصاره الذين قاتلوا معه إلى تقاسم النفوذ في الشوف بين العائلات التي شاركت في القتال، فتولت كل منها اقليماً، أو قرية أو عدة قرى، تباشر الأمور فيها باسم الأمير ولحسابه. إلا أن بعض المراجع التاريخية الحديثة التي كانت تتمنى لو أن الأمير حيدر، كان باستطاعته أن يمد نفوذه إلى خارج الشوف، نحو ولاية طرابلس، افترضت أن ذلك حصل فعلاً، فنصبت باسمه عائلات قامت هي باختيارها فأعطت الزاوية لآل ضاهر، والكورة لآل العازار، وجبة المنيطرة لآل حمادة الشيعة الخ. وغايتها أن تنصب الأمير حيدر أميراً على لبنان، وليس والياً على الشوف فقط من قبل والي صيدا، وأن بمقدوره أن يسمي الولاة في أي منطقة شاء من لبنان.

إن هذه التولية محض اختلاق، لا أساس له ولا سند. وحتى المصادر المعروفة

(1) الريفيون والمؤسسات الاقطاعية في لبنان ص 71 بالفرنسية.

(2) D.D.C T1 p. 95.

معركة عين دارا



● جيش الأمير حيدر:

1500 مقاتل من الدروز والحزب الشهابي قدموا من الشوف والمتن.

2500 مقاتل من بعلبك أرسلهم الأمير حسين الحرفوش.

■ أبو هرموش وقوات والي الشام ووالي صيدا.

يقول الأمير حيدر المؤرخ أن والي الشام وصل بقواته إلى قرب صوفر، ووصل والي صيدا على رأس قواته إلى بيت مري. ولكن القنصل الفرنسي في تقريره عن هذه المعركة لم يذكر أي شيء من ذلك.

بتحيزها للشهابية، لم تشر إليها و يبدو أن راهباً[1] قد اختلقها وأوردها في كتابه، فتسربت إلى مصادر أخرى حتى دخلت وللأسف في التاريخ المدرسي وأصبحت وكأنها حقيقة لا تقبل الجدل.

إن هيمنة آل حمادة الشيعة على جبة المنيطرة قديمة جداً ولا علاقة للأمير حيدر بها[2]. وهي تعود إلى قرنين سابقين على الأقل، كما أن التقارير الفرنسية كثيرة جداً، وكلها تؤكد هيمنة آل حمادة على مناطق الزاوية والكورة وجبيل والبترون، طوال النصف الأول من القرن الثاني عشر.[3] أي قبل معركة عين دارا وبعدها.

إن مقاطعات ولاية طرابلس، لم يحكمها أي شهابي في أي وقت، حتى بعد سنوات على تاريخ معركة عين دارا. وأن العائلات التي نصبها الأب المؤرخ حكاماً هي من محض اختلاقه. فإن جميع هذه المناطق، وكثيراً غيرها، وكل المناطق الواقعة بين بيروت وطرابلس وكامل جبل لبنان، لم يكن لأي شهابي علاقة بها في هذا التاريخ وقبله وبعده بزمن[4].

ومهما كان الأمر فإن الأمير حيدر، أو أي والٍ آخر على الشوف، لا يمكنه أن يولي غيره على أي مقاطعة، حتى ولو كانت في الشوف نفسه لأن إصدار فرامانات التولية، منوط ومحصور بالسلطة العثمانية وحدها، حتى ولو كان من الجائز أن يكلف الأمير أو أي حاكم آخر، من يشاء لمساعدته في جمع الضرائب أو جبايتها باسمه ولحسابه. ولا يخفى الفرق الشاسع بين الحالتين.

(1) هو الأب بولس نجيم. إن أمير جبل الدروز سواء كان معنياً أو شهابياً أو من آل علم الدين أو أي حاكم آخر لم تتعد ولايته في أي فترة من الحكم العثماني وحتى سقوط النظام الإقطاعي في منتصف القرن التاسع عشر حدود هذا الجبل وإن كان بإمكانه مثل أي شخص آخر محاولة إلتزام أي منطقة يشاء. كما فعل فخر الدين عندما التزم صيدا وتنافس على إلتزام صفد مع الأمير يونس الحرفوش ولمدة عام واحد وقد استطاع الأمير ملحم أن يلتزم هذا السنجق مرة أخرى كما فعل الأير منصور الشهابي بعد ذلك.

(2) الجذور التاريخية, مسعود ضاهر ص 93.

(3) نفس المصدر ص 94.

(4) أول أمير شهابي حكم في جبل لبنان خارج جبل الدروز هو الأمير يوسف في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كما سيأتي تفصيله لاحقاً. حتى وادي التيم نفسه كان لواء مستقلاً عن حكم الأمير المعني الشهابي ويتبع ولاية الشام في الوقت الذي كان فيه جبل الدروز ملحقاً بولاية صيدا ويتولاه حاكم آخر وحتى عندما التزم الأميران الشهابيان الأخيران بلاد جبيل لم يكن ذلك في أي وقت بصفتهما حاكمين على جبل الدروز.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الثاني

لبنان الشيعي في القرن السادس عشر

الفصل الأول: جبل عامل

الفصل الثاني: بعلبك والبقاع

الفصل الثالث: جبل لبنان

كسروان

جبيل والبترون

جبة بشري

الفصل الرابع: المدن الساحلية

بيروت وصيدا

طرابلس

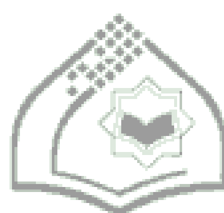
صور

الفصل الخامس: حواضر العلم عند الشيعة في لبنان

جزين

مشغرة

كرك نوح



قبل العهد العثماني بمدة طويلة كان الوجود الشيعي منتشرا في لبنان كله[1]،ساحلاً وجبلاً، حكاماً ومحكومين. وكان الساحل اللبناني يغلب عليه الطابع الشيعي من طرابلس حتى صور، حيث قامت أحياناً دول مزدهرة تتمتع بالكثير من مظاهر الإستقلال والتطور[2].

ومنذ عهد مبكر كانت منطقة البقاع شيعية أيضاً، وهي لا تزال في بعض أجزائها كذلك حتى اليوم،[3] وهو حال جبل عامل الذي لم يتوقف، منذ العهود الإسلامية الأولى عن أن يكون خزاناً نشيطاً للإنتشار الشيعي بشرياً وفكرياً، كما كانت كسروان الخزان الشيعي الآخر، التي كانت قديماً تشمل ما يعرف حالياً بالمتن وكسروان وأجزاء أخرى، والذي بقي يرفد سائر المناطق بالهجرات الشيعية إلى وقت قريب.

إن الوجود الشيعي في لبنان هو نتيجة تشيع جماعات من سكانه كما حصل في أي مكان آخر من العالم الإسلامي كالحجاز والعراق والشام. بخلاف ما يتوهم البعض، فهم لم ينزحوا إلى هذه البلاد من أي مكان آخر[4] وأنما هم من سكانها الأصليين، تحولوا منذ زمن قديم إلى هذا المذهب، كما فعل غيرهم في بلاد أخرى، وأن كل ما يتردد عن استقدامهم أو هجرتهم من مكان آخر، هو قول ليس له ما يبرره[5] رغم أن كثيراً منهم قدم إلى لبنان في فترات تاريخية مختلفة كما قدم غيرهم من جميع

(1) تاريخ لبنان الحديث، كمال الصليبي ص 15.

(2) مثل دولة بني عمار في طرابلس وإمارة بني عقيل في صور. وقد تأرجح بنو عقيل في ولائهم بين الفاطميين والسلاجقة.

(3) راجع فصل بعلبك والبقاع.

(4) التحولات السياسية في مجتمع الإمارة الشهابية، منير اسماعيل. بحث في «لبنان في القرن الثامن عشر» ص 85

(5) روج البعض وهماً مفاده أن معاوية قد استقدم جماعات شيعية أسكنها في لبنان لأسباب عسكرية وسياسية. وأشهر من قال بهذا الرأي الأب لامانس، وقد تراجع عنه فيما بعد. ومن المعلوم أن المذهب الشيعي لم يكن قد تأسس بعد في أيام معاوية ولم ينتشر في فارس إلا بعد زمنه بقرون عديدة وليس هناك دليل واحد يفيد بأن هجرة شيعية كبيرة قد قدمت إلى لبنان. وإنما تحول أكثر سكانه إلى هذا المذهب. كما تحول بعض شيعته إلى دروز فيما بعد.

المذاهب. والهجرات الفردية هي من طبيعة البشر تحصل في جميع البلاد ومن جميع الملل.

أدى انتشار المذهب الدرزي بين الشيعة في وادي التيم والشوف، إلى كثافة درزية وانحسار شيعي في هاتين المنطقتين، كما أن الهجرة المارونية من شمال سورية إلى الجبال القريبة من طرابلس، والتي كانت في ما مضى قليلة السكان، أوجدت واقعاً سكنياً جديداً يعيش فيه الشيعة والنصارى في قرى مشتركة أو متجاورة، بينما لا يزال جبل الضنية يحمل إلى هذا اليوم اسم الجماعة الشيعية التي استقرت هناك قبل الحروب الصليبية، وكانت الضنية وكسروان وأغلبية المناطق الساحلية ذات أكثرية ساحقة من الشيعة[1].

عاش لبنان في العهد المملوكي الكثير من الكوارث والمحن، تركت آثارها الأليمة لسنين طويلة لاحقة، قضت على معظم سكانه ودمرت أكثر عمرانه، ودكت مدنه وقراه. حتى لم يبق من ثلاثة آلاف قرية مسكونة في نيابة طرابلس أكثر من ثمانماية، تناقص سكانها إلى ربع ما كانوا عليه سابقاً[2].

كما دفع لبنان ثمناً فادحاً للحروب الصليبية التي جرت على أرضه وفي مدنه، حيث تداول المتحاربون المدن مراراً، وتسابقوا على تهديمها ودك حصونها خوفاً من وقوعها في يد الأعداء. وقام المماليك بسد الموانيء اللبنانية خوفاً من غارات السفن الصليبية، لأن قوتهم البحرية لم تكن كافية لصدها. وما نجا من الحروب الصليبية قامت بتدميره غزوات المغول المتكررة، وحملات المماليك الحربية والانتقامية. ولم تكن المصائب الواقعة على لبنان من فعل الإنسان وحده بل ساهم غضب الطبيعة بنصيب وافر في هذا الدمار الكبير[3].

في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، قام الفرنج بأكثر من عشر غزوات كبيرة على الساحل اللبناني. كما قام المغول بغارات متعاقبة في تاريخ مقارب، خلّفت مدنه كما وصفها ابن بطوطة عند مروره بالساحل الشامي .

«ثم سافرت إلى عسقلان وهي خراب. ثم على الساحل إلى مدينة عكا وهي خراب. ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهي خراب»[4]. في تلك الفترة العصيبة تعرضت مدن

---

(1) تاريخ الضنية، قاسم الصمد، ص 15.

(2) نيابة طرابلس، الياس القطار ص201.

(3) سنة 1400م اجتمع المغول والطاعون والجراد معاً فكانت من أقسى السنين على بلاد الشام. تاريخ لبنان مكي، ص 258.

(4) رحلة ابن بطوطة، ج1 ص63.

الساحل اللبناني، طرابلس والبترون وجبيل وبيروت وصيدا وصور إلى تبدلات عمرانية وسكانية أساسية، الامر الذي ترك بصماته العميقة والواضحة على صورتها العامة وطبيعة سكانها وهويتهم في مختلف الحقب التاريخية وحتى اليوم.

في بدايات القرن الأول من العهد العثماني كان أكثرية سكان لبنان من الشيعة، ينتشرون في معظم أنحائه في الشمال والبقاع والجنوب، خارج المدن الساحلية الكبيرة، التي كانت في فترة ما مقر الباشوات العثمانيين، فلم يتجاوزوا ضواحيها (طرابلس ـ بيروت ـ صيدا) وعاشوا في قرى خاصة بهم وأخرى مشتركة مع النصارى، وفي أحوال نادرة مع السنة والدروز. وفي هذه الفترة كان عدد سكان لبنان بجميع طوائفه يقارب الربع مليون انسان 256746 . أما في جبل الدروز فقد انحصر وجودهم كما هو اليوم في قريتين جبليتين بينما لم يكن يعيش فيه نصراني واحد[1].

عدد سكان كل طائفة في لبنان في القرن السادس عشر[2]

شيعة	98772	% 38
سنة	76932	% 30
دروز	35328	% 13
نصارى من مختلف المذاهب	44328	% 18
يهود	1104	
علويون	282	
المجموع	256746	

(1) القريتان هما القماطية وكيفون ولم يكن هناك شيعي آخر خارجهما.

(2) راجع نواحي لبنان، عصام خليفة. دراسة علمية واحصاءات تستند إلى التحارير العثمانية مثل الطابو دفتري وقانون نامة العائدة للقرن السادس عشر حول عدد السكان والتقسيمات الإدارية وقد استندنا إليهما في هذه الدراسة:

جاء في دراسة احصائية شاملة نشرتها جريدة النهار البيروتية في 29 أب 2007

المسيحيون %35 الدروز %5

الشيعة %29 السنة %29

العدد الإجمالي 4855067

←



فرسان من الشيعة في القرن التاسع عشر

→
من المعتقد أن عدد الشيعة في العهد العثماني في لبنان كان أكبر بكثير مما ذكرته التواريخ الوطنية اللبنانية وهذا ما أشار إليه باحثون عديدون منهم: عبد الكريم رافق «بلاد الشام ومصر».

محمد عدنان البخيت، مقاطعات دمشق في القرن السادس عشر

The ottoman province of Damascus in the sixteenth century.

عبد الرحيم أبو حسين، القيادات الريفية في سوريا 1575 ـ 1650.

provincial Leaderships in Syria.

Shiite emirs and ottoman aouthorities

The campain against the Hamadas of Mt Lebanon 1693 - 1694.
Stefan H. Winter p. 12.

الفصل الأول

جبل عامل

يتألف لبنان الحالي من ثلاثة جبال متصلة مقابل البحر هي: جبل لبنان في الشمال، وجبل الشوف في الوسط، وجبل عامل في الجنوب، وساحله من تخوم صيدا حتى جنوبي صور.

نادراً ما تخلف باحث عاملي عرض لشؤون جبله العامة، دون أن يبدأ ذلك بتعيين حدوده، مؤكداً عليها بدقة وتفصيل وافيين. وهي تحديدات، رغم وفرتها، تأتي غالباً متشابهة ومتقاربة، لا تخرج كثيراً عما ذكره الأمين في خططه[1] وأحمد رضا في إحدى مقالاته[2]. قال الأمين: **«الحد القِبْلي (الجنوبي) يبدأ بنهر «القرن» الجاري من شمالي «طير شيحا» إلى البحر جنوب قرية «الزيب»، والحد الشمالي يبدأ بالنهر الأولي الذي يصب في البحر شمالي صيدا، والحد الغربي ينتهي بالبحر الأبيض المتوسط. أما الحد الشرقي فهو الوادي المسمى «بعوبا»، والممتد إلى «نهر الفجر» في الحولة، وكذلك يمتد هذا الحد إلى قرية البصة في الكرمل».**

أما الشيخ أحمد رضا، فيرى أن «**حدود جبل عامل، تبدأ من الشمال بمصب نهر الأولي، وتذهب صعوداً إلى الشرق شمالي قرية الرامية، ويتجاوز قرية روم من الشمال، إلى جزين، فيضم واديها وشالوفها، وجميع القرى التي كانت تابعة لها. ويقطع جبل التومات منحدراً إلى مشغرة، ويتصل بنهر الليطاني من شمال سحمر ثم يذهب إلى ينبوع نهر الحاصباني، ويتجه جنوباً على مجراه وينتهي على ضفة بحيرة الحولة الغربية، وينعطف غرباً جنوبي مقام النبي يوشع وشمالي الهراوي**

---

(1) خطط جبل عامل، السيد محسن الأمين، ص 55.
(2) مجلة العرفان سنة 1942.

جبل عامل



نهر الدامور
البحر
المتوسط
إمارة
الشوف
شحيم
إمارة
البقاع
صيدا
روم
جزين
مغدوشة
غازية
جباع
كفر حونه
صرفند
عرمتى
ريحان
عدلون
انصار
نبطية
حاصبيا
مرجعيون
زرارية
ارنون
الخيام
عباسية
صور
نهر الليطاني
إمارة وادي التيم
هونين
تبنين
ميس
الناقورة
بنت جبيل
علما
نبي يوشع
يارون
بصة
قبريخا
فاره
سعسع

ويمتد غرباً فيتبع مجرى وادي فاره وينتهي عند مصب وادي القرن جنوبي قرية البصة»[1].

وكان العامليون إذا أرادوا التعريف عن حدود بلادهم قالوا: «من البصة إلى جباع الحلاوة. والبصة هي القرية الحدودية التي أدى النزاع بشأنها إلى نشوب معارك عديدة بين العامليين وجيرانهم»[2].

يؤكد العامليون على أن مساحة جبلهم التاريخية لا تقل عن ثلاثة آلاف كلم²[3] بينما مساحة الجنوب حالياً لا تتعدى حوالي ألفي كلم² أي أن ثلث جبلهم قد اقتطع في التقسيمات الإدارية الحالية. وقد تعرض هذا الجبل في الواقع إلى اقتطاع قرى وأراضٍ ألحقت بإقليم الشوف ومقاطعته في فترات مختلفة، مثل جزين، وكذلك اتفاق 23 حزيران 1923، وهو الذي تعينت بموجبه الحدود بين فلسطين من ناحية، وسوريا ولبنان الكبير من ناحية أخرى، وبموجبه تنازلت فرنسا المنتدبة عن كامل المنطقة اللبنانية في الحولة تقريباً لصالح الانتداب البريطاني في فلسطين، ونتج عنه خسارة لبنان لعدد من قراه منها هونين، إحدى حواضر جبل عامل التاريخية، والنبي يوشع حيث لا يزال يوجد فيها قبر أحد أهم زعمائه التاريخيين وأشهرهم، الشيخ ناصيف النصار.

إن جبال بني عاملة أو جبال عاملة أو جبل عامل أو جبل الجليل أو جبل الخليل أو بلاد بشارة أو البشارتين، هي كلها أسماء لبقعة من الأرض تقل فيها السهول وتكثر الجبال والأودية، وتتغير حدودها تبعاً للظروف السياسية والإدارية وتقلب العصور، وهي ما تعرف في التاريخ والتراث بجبل عامل.

شكل سكان جبل عامل، ولا سيما في القرون الخمسة الاخيرة، وحدة متميزة واضحة المعالم ثابتة الأركان، لها خصائصها العسكرية والحضارية والاجتماعية، التي نمت نتيجة عوامل دينية ومذهبية وسياسية وعلمية مشتركة بين سكانه وأهداف وتطلعات موحدة، كما أوجدت لديهم عادات وذهنية وأسلوب عيش وهواجس مشتركة، حتى

(1) يرى العامليون أن قرى عديدة قد سلخت عن جبل عامل مع تعاقب الأيام والاحوال بفعل التعدّي وجور الحكام ولاسيّما في جزين واقليم التفاح وجبل الريحان خصوصاً بعد مقتل ناصيف ونكبة جبل عامل على يد الجزار.

(2) تقع في فلسطين اليوم.

(3) يضم الجنوب اليوم محافظتي الجنوب والنبطية، والمساحة عن دائرة المعارف الاسلامية الشيعية حسن الامين، ج 12 ص 25.

أصبحوا في وقت ما، مجموعة تختلف عن غيرها من المجموعات الأخرى المذهبية والمناطقية التي تحاربها أو تحالفها، إنما تتعامل معها في الحالتين ككيان خاص، له مصالحه الذاتية التي تملي عليه مواقفه بدافع من شخصية عامة ذات أبعاد مستمرة وثابتة، تتميز عن المجموعات التي تعيش إلى جوارها، وإن كانت تتشارك معها في أمور كثيرة أخرى.

إن هذا الكيان الذاتي، أحس بارتباطه الوثيق بمساحة جغرافية محددة ومعينة من الأرض، يقاتل إذا انتهكت، ومجموعة محدودة ومعينة من الناس، يثيره ما يثيرها، ويغضبه ما يغضبها، وله العديد من الخصوصيات، ولكن دائماً ضمن السياق العام للتاريخ الشامل الموحد لباقي المناطق اللبنانية، وكذلك أصبح «الغير» ينظر إلى أبناء هذا «الكيان» كمجموعة متميزة تعيش على أرض محددة.

من نهر الفراديس المصفى ... لنهر القرن لي رهط وصحب
هنالك من متاولة سالقى ... جميعاً الا كل صب غير صب

إن هذه الخصوصيات تتداخل في سماتها وملامحها ودلالاتها، في النواحي الثقافية والاجتماعية والسياسية، حتى يصعب وضع حدود فاصلة بينها، فهي بمجموعها وخلفياتها وآثارها مكون أساسي ومميز لشخصية إنسانية واضحة المعالم تعيش ضمن حدود جبل عامل. في ظل قيم موحدة تتمحور حول الحرب والتشيع والعلم.

1 - الحـرب

إن مظالم الحكام التي ابتلي بها العامليون، كسائر إخوانهم الشيعة في المقاطعات الأخرى، وأطماع جيرانهم في الشمال في جبل الشوف، وحملاتهم المتكررة بقصد إخضاعهم أو تأديبهم كلما غضب عليهم الوالي العثماني، وغارات جيرانهم في الجنوب من العربان المعتادين على الغزو والنهب، كل هذه التحديات خلقت منهم شعباً محارباً ومستعداً للقتال في أية لحظة وأوجدت عنده تقاليد وأعرافاً عسكرية، رسختها الخبرة والتجربة، وغريزة الدفاع عن النفس في غياب أية قوة غريبة حامية، أو جيش وطني محترف، وأوضاع اقتصادية لم تسمح لحكامه بالاعتماد على المرتزقة والسكبان والمغاربة، كما فعل جيرانه. فلم يبق أمامه إلا الإعتماد على قدرته الذاتية، فكان أفراده فلاحون نشيطون في حقولهم إلا انهم يتحولون بلمح البصر إلى جنود متمرسين بشؤون التعبئة السريعة والقتال الشرس.

كان إطلاق النار هو الإشارة الرسمية للتعبئة والنفير، فإذا سمعوا طلقاً نارياً في إحدى قراهم أجابوا بإطلاق الرصاص، وتبعهم في ذلك القرى المتصلة، حتى يمتد الصوت من جباع إلى البصة.[1] فالعاملي من أسرع الشعوب لحمل السلاح، يعتني إلى حد كبير بأساليب القتال، فيتقنها ويولي قلاعه عناية فائقة، بقصد إعدادها للدفاع ويظل في حالة دائمة من اليقظة والحذر، فهو مستعد دوماً لخوض غمار المنايا والمبادرة للنجدة وحمل السلاح «لدى سماعه أول طلق ناري أو عند أية اشارة من زعمائه وقادته»[2].

إن توالي الحروب والوقائع الدامية بين العامليين، وبين جيرانهم من مشايخ فلسطين، وأمراء وادي التيم ولبنان، أضرم في نفوسهم شعلة النجدة والحمية، وباتوا حذرين متحفزين لدفع كل ملمة، حتى بلغ من شدة حذرهم في زمن الشيخ عباس المحمد[3] في أواسط القرن الثامن عشر، إن رجلاً منهم كان قائماً على مزرعة يحرسها من الوحوش، أطلق عياراً نارياً فظن أهل القرى المجاورة انه اطلقه مستغيثاً أو مخبراً بدخول العدو، فأجابوه باطلاق الرصاص طلباً للنجدة، وتبعهم في ذلك أهل القرى المتصلة حتى امتد الصوت ـ على ماقيل ـ من جباع الحلاوي في سفح

(1) يقصد بهذا التعبير المتواتر جبل عامل من أقصاه إلى أقصاه.

(2) العادات والتقاليد الشيخ علي الزين ص 159- 154.

(3) أحد أهم زعماء المتاولة في عهد ناصيف النصار وسيأتي ذكره مراراً في فصول لاحقة.

جبل لبنان إلى قرية البصة على حدود عكا، وما انجلى عمود الصبح حتى كانت الالوف من الرجال ترد وتحتشد والفرسان مهيئة للطعان[1].

كانوا يترقبون الغارات والحروب في كل لحظة، ودون سابق إنذار أو إعلان حرب، فكانوا مجبرين على العيش في حالة استعداد دائم. فالأعداء متعددون، وقد يغيرون بدون سبب وبلا مقدمات، لذلك فالمحاربون جاهزون وتكفي إشارة واحدة، وقد تكون خاطئة أحياناً، ولكن الخيل و(الزلم) لا يلزمها وقت طويل، ولا تأكيد الإشارة حتى تتجه إلى ساحة القتال.

قال الركيني: «في ليلة هذا الإثنين أعني ليلة العيد، على ماشهدوا به انه أول شوال قوصوا المدافع في مدينة صور في وقت العشاء بعد الغروب بساعتين فظنت الناس في القرايا أنها كبست صور فركبت الخيل و(الزلم) فظهر أن سبب ذلك أنها ما تحققت الشهادة إلا بعد العشاء فقوصوا المدافع في غير وقت رؤية الهلال ولهذا ظنت الناس أنها كبسة»[2].

انتشرت على هضاب جبل عامل قلاع هامة، بعضها قديم مرمم، والآخر بناه أهله وسكانه، يقيم في كل منها زعيم مدني في أيام السلم، يتحول في الحرب إلى قائد عسكري يقود جنوده ويشرف على تجهيزهم وتعبئتهم. فكل جبل هو عندهم حصن، ومالكه إقطاعي كبير، مما جعلهم أكثر تحفزاً للثورة، وجعل إخضاعهم اشد صعوبة[3].

هذا الاستعداد الدائم للقتال والخوف المستمر من غارات الأعداء،خلق من العامليين «شعباً باسلاً يهزأ بالمنايا ويرى في الموت حياة خالدة تحت شعار السيوف»[4]. يقاتلون بجدارة واندفاع وينصرفون أيام السلم إلى شحذ السيوف وتسديد المرمى والكر على ظهور الخيل يعلمونها أولادهم منذ الصغر[5].

كان لهم رايات، يرفعونها في الحروب والمناسبات العامة من نسيج حريري أخضر وأحمر، كتب عليها بالنسيج الابيض ثلاثة سطور :

(1) العادات والتقاليد، الشيخ علي الزين، ص 159ـ 154.
(2) جبل عامل في قرن حيدر، الركيني ص 89.
(3) D .D .C T4. p122 .
(4) م.م آل صفا ص 82.
(5) م.م آل صفا ص 83.

لا إله إلا الله محمد رسول الله

لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار

نصر من الله وفتح قريب.

كان لكل قرية بيرق وصنوج، يلتف أهلها حوله في أيام معلومة وعند مشاهد محددة، وزيارات عامة. ومن المرجح أن هذا التقليد كان لا يزال متبعاً في بعض القرى حتى عهد قريب، وربما لم يضمحل تماماً حتى اليوم.

كانت الحصون والقلاع كثيرة ومتعددة تقوم بوظيفتها العسكرية عند الحروب، إلا أنها في أيام السلم تبقى مراكز حكم ودار إمارة، وميدان اجتماعات عامة وديوان مشورة كلما دعت الحاجة. وأهمها قلعة الشقيف وقلعة هونين وقلعة شمع وقلعة دوبيه وقلعة مارون وغيرها.

«كان العامليون يعتبرون الحروب من المناسبات التي تستدعي تآلفهم واتحادهم حول العقيدة والشرف، أما العقيدة فيمثلها القرآن، وأما الشرف فيمثله السيف. وكان من عاداتهم لدى التعاقد والتحالف قبل الحرب، أو لدى الصلح بعد الخصام، أن يتعاقدوا ويتحالفوا على السيف والمصحف، «ذلك بأن السيف يمثل شرف القوة العسكرية لدى المحاربين، وبأن المصحف يمثل شرف القوة الروحية لدى المسلمين»، فإذا صمم القادة والزعماء على الحرب - دفاعاً أو هجوماً - أرسلوا «الصوّاتين» إلى عموم القرى ليعلنوا من ذرى الجبال والسطوح المشرفة، الدعوة إلى ملاقاة الأعداء، اما النداء المتعارف عليه، في هذه المناسبة فهو التالي «يا أهل الغيرة والمروءة، ياسياج العذارى، ياحماة الديار، شدوا على الخيل واحملوا سلاحكم، سارعوا إلى لقاء الأعداء قبل ان يباغتوكم في أرضكم، ويستبيحوا أموالكم وأعراضكم ودماءكم».

ساهم هذا التراث الحربي مع تعاقب العصور، بمفاهيمه وتنظيمه وروحيته، في ترسيخ الشعور الوجداني، بوحدة المصير حيث أن الدفاع عن هذا الجبل من «جباع إلى البصة»، هو فرض على كل قادر من أهله، وهي حروب تتميز غالباً بطابع دفاعي شامل بوجه الطامعين بإخضاعه من الجيران شمالاً وجنوباً، أو بوجه الطامعين بنهبه من ولاة الدولة وبإشارتها أو أوامرها أو رضاها، وهذا مادعم، مع عناصر أخرى، ذاتية هذا الجبل وخصوصيته، وليس كالإشتراك في ضريبة الدم للدفاع عن نفس أو مال أو عرض ما يشد الفرد إلى التفاني في خدمة الهدف المشترك والحماس لتحقيقه.

بدأ العامليون يظهرون كمجتمع عسكري مسلح، له تقاليده الحربية وأعرافه وأنظمته وأساليب دعوته إلى القتال واستجابته لها بعد اعلان النفير العام، باتباع خطوات محددة ومعينة ومتعارف عليها، بعد وصول فخرالدين المعني الى سنجقية صيدا ثم صفد، وقيام رجاله بغارات على مختلف أنحاء جبلهم، يهدمون البيوت و يصادرون الأرزاق ويزهقون الأرواح، فاصطدم بحكامهم من آل علي الصغير وآل سودون وآل شكر وآل منكر، وتدخل الحرافشة ليرفعوا سلطته عن صفد، وبالتالي عن مقاطعات جبل عامل. وابتدأت، من ذلك التاريخ، تتوالى الحملات العسكرية من جيرانهم في الشوف ووادي التيم مدفوعة بأوامر الباشوات ودعمهم واشتراكهم أحياناً، وتفاقمت هذه الغارات بعد أن أصبحت صيدا باشوية يقيم فيها والٍ عثماني، فاشتد إحساس العامليين بالخطر والحاجة إلى الدفاع عن النفس، ومجابهة الحملات المتكررة، فتحول الفلاحون في حقولهم، ورجال الدين في مساجدهم، عند إعلان النفير إلى جنود محاربين، ترسخت لديهم روح المقاومة والمواجهة، وأصبح لديهم مجموعة من القواعد والعادات التي وجدوا فيها انجع السبل التي تتوافق مع طبائعهم وأوضاعهم عند الحاجة الى التجمع و القتال. وجهدوا على أن تكون علاقتهم بولاة الأمر في صفد ثم في صيدا مقتصرة على أن يدفعوا للدولة ما تفرضه عليهم من رسوم **لينصرفوا بجبالهم وفي ظل زعمائهم دون تدخل من السلطة العثمانية في أمور البلاد الداخلية فلا يخضعون لحاكم غريب في ظل لوائهم الخاص الأخضر والأحمر المكتوب عليه «نصر من الله وفتح قريب».**[1]

إن هذه الرسوم، التي لا تزيد عن ستين ألف قرش، على مقاطعات جبل عامل الثمانية وهي الشقيف والشومر واقليم التفاح وجبل هونين وجبل تبنين وساحل معركة وساحل قانا وساحل صور يؤدونها **إذا راق لهم ويرفضون دفعها إذا شاؤوا تبعاً للظروف**[2].

كان حكامهم بهم أرفق، وعليهم أشفق، وكان الشيعي إذا سار إلى غير بلده، يسير معتزاً بقوميته، لايجرؤ أحد على تحديه واحتقاره[3].

كان كل رجل، شيخاً أو فلاحاً، يعد نفسه جندياً في أوان الحرب، فيمضي إلى

(1) تاريخ جبل عامل، آل صفا، ص 105.
(2) المصدر السابق ص 105.
(3) المصدر السابق ص 104.

المكان الذي يعينه له الحاكم أو الزعيم آخذاً معه بندقية ورصاصاً وباروداً وزاداً يكفيه بعض الوقت[1].

كان كل شيخ يجند عند الحاجة مئتين وخمسين إلى ثمانماية رجل، يشكلون إذا اجتمعوا معاً ستة آلاف مقاتل معظمهم من الفرسان اشتهروا في كل سوريا بشجاعتهم النادرة. حضر دبلوماسي فرنسي إحدى معاركهم فقال:

«شاهدناهم يقاتلون بترتيب ونظام مما جعلهم ينتصرون على أعدائهم الذين يفوقونهم عدداً»[2].



قائد عاملي بين رجاله في القرن التاسع عشر

(1) العادات والتقاليد، علي الزين ص 157.

(2) الدبلوماسي الفرنسي هو paradis في Memoires sur la syrie جبل عامل، السيف والقلم، حسن الأمين ص 347.

2 - التشيع

لم يكن التشيع عند العامليين مذهباً دينياً، يأتمرون بأوامره ونواهيه، وينظم أمور العبادات والمعاملات فحسب، بل هو نوع من الإنتماء القومي والثقافي، وهوية تاريخية مميزة، أفرزت خصوصية ملفتة في كل مناحي حياتهم وتفكيرهم واهتماماتهم.

إنه شعور متأصل وعميق، يشد كل عاملي إلى الآخر، برباط محكم وثيق ودائم، يجعل من الجميع منظومة متآلفة، تحس بانتمائها إلى جماعة واحدة، يذوب الفرد في بوتقتها إلى حد كبير، على حساب انتماءاته الأخرى، من عائلية ومناطقية وحزبية فيصبح الجميع بنو اسم واحد، يلزمهم بمواقف معينة وتضحيات محددة تختفي أمامها كل العصبيات الأخرى وينتفي كل انتماء مغاير.

نتيجة لذلك، فإننا قلما نرى في تاريخ جبل عامل، وعلى امتداد فترة زمنية طويلة، صراعات حزبية أو عائلية أو اجتهادية ذات شأن كبير. كما كان الحال في معظم المناطق اللبنانية الأخرى[1] فليس ثمة قيسي ويمني، أو هونيني وشومري، على غرار اليزبكي والجنبلاطي. بل أن الجميع هم «**بنو متوال**» يخوضون حروبهم، ويباشرون امورهم تحت راية واحدة وعلى وقع صرخة حرب لا تتغير[2].

لقد كانت الأحداث الجسام والحروب المتواصلة، تنفجر في باقي مناطق لبنان، بين أميرين متنازعين أو عائلتين متنافستين أو حزبين متعاديين، أو بسبب نزاع يصنف على الاغلب تحت رمز من هذه الرموز، أما عند العامليين فهم دائماً «بنو متوال» يقاتلون ذودا عن ديرة بني متوال، وفخر النصر، أو ذل الهزيمة، لا يقع على أمير أو عائلة أو حزب وانما يمس بني متوال ويعود إليهم في الحالتين.

يا بني متوال يا شم الرجال — **اسمكم رايات عا روس الجبال**
لبني متوال ظهر العاديات — **من ضهور الخيل يمضون الصقال**
ما يخش المير ديرتنا حرام — **ولو نبت من فوق راياتو نخل**[3]

من المرجح ان لفظة «متوالي» اقتصرت في مبدأ استعمالها على أهل جبل عامل وحدهم، واختصت بهم، لأن صرخة الحرب التي يهزجون بها في ميادين القتال كانت

(1) تاريخ جبل عامل، محمد جابر آل صفا، ص 90.
(2) «مت ولياً لعلي» كانت صرخة الحرب عند المتاولة، كما كانت عند الدروز بالأمر والمعروف.
(3) أبيات من قصيدة متداولة للشاعر الصفدي «شناعة».

عندهم «مُتْ ولياً لعلي». وهذا لقب لم يطلق على الشيعة خارج جبل عامل، الا في وقت متأخر عندما عمم البعض استعمالها، بينما بقي آخرون يقتصرون في استعمالها على العامليين وحدهم. «**وفي مطلق الاحوال فالمتاولة لم تشمل في اي وقت الشيعة غير المحاربين مثل شيعة دمشق وحلب، وانما بقيت تعني في جميع استعمالاتها الشيعة المحاربين في لبنان دون غيرهم**»[1].

إن التشيع عند العامليين هو هويتهم الجامعة التي كانت تبرز في جميع الظروف والمناسبات، حاجبة اية هوية اخرى. فهم ليسوا غير المتاولة، وجبلهم هو جبل المتاولة، وأدبهم وشعرهم وأهازيجهم وأساطيرهم وأعيادهم كلها «متوالية» بامتياز.

ولابد ان يرد على الذهن ان الدروز وهم يتجمعون في جبل واحد تحيط بهم مذاهب مغايرة، قد يلتقون مع جيرانهم المتاولة في هذا الشعور المذهبي المتوقد بالإنتماء، الا أنهم يختلفون عنهم فيما وقعوا فيه من انقسامات حزبية، بشكليها العام والخاص، وما أدت إليه من فتن وحروب، وخلفته من ضغائن وأحقاد. كما أن التنظيم الإقطاعي الطبقي عندهم أفرز عائلات معدودة تحتكر الثروة والنفوذ، وتتصارع من أجل ذلك، وهو الشيء الذي لم يعرفه العامليون لأسباب كثيرة.

يختلف التشيع فكرة ومذهباً في بعض الأوجه عند الشيعة العامليين، عنه عند اخوانهم في المعتقد في كسروان وبعلبك وجبل لبنان، حيث لم يخرج التشيع من اعتباره مذهباً دينياً يحدد طريقة العبادة وأصول التعامل، وما يفرضه الشرع وما يحلله، مع ولاء خاص للإمام علي وذريته من الائمة الاثني عشر.

أما عند العامليين فهو فلسفة صوفية ومبدأ شامل وخيار ألهي واسلوب تفكير وحياة، تذوب إزاءه كل المبادىء والمشاعر، فتأخذ شكله، وتندمج معه. فهو في أساس كل الامور الاخرى كما هو في نهايتها. إن الدخول في بحث جوانب بعض الأمور اللاهوتية والعقائدية يمكن أن يلقي بعض الضوء على تاريخ التشيع في جبل عامل وبدايته.

---

(1) يقول الشيخ أحمد رضا أن هذا اللقب اختص بالذين غامروا في لهوات الحرب كسكان بلاد بشارة وبلاد كسروان أما الذين لم يخوضوها كسكان دمشق وحلب فلم يعرفوا لفظ المتاولة (الشيخ أحمد رضا والفكر العاملي، فايز ترحيني، ص 14). ويرى محسن الأمين أن اللقب يختص بشيعة جبل عامل وبعلبك وجبل لبنان (خطط جبل عامل، ص 60). بينما يرى عارف تامر أن هذا الإسم لا يشمل إلا شيعة جبل عامل دون شيعة بعلبك والهرمل. وأن الشيعة تسموا بهذا الإسم عندما أظهروا وجودهم السياسي تحت قيادة آل نصار الوائليين وتحت لواء آل حرفوش وآل حمادة. (معجم الفرق الإسلامية، عارف تامر ص 115). ويبدو من المؤكد في التقليد والتوثيق أن هذ الإسم عرف به شيعة لبنان منذ القرن السادس عشر على الأقل، في شمال لبنان الحالي وجنوبه، دون أن يتجاوزه إلى أي شيعي آخر في بلاد الشام و[illegible].

إن جبل عامل في عرف أهله، هو أرض التشيع المختارة التي وهبها الله لجماعة متميزين من الشيعة، اهتدوا عن طريق ولي من أولياء الله، فبقيت أمانته حية ومقدسة بينهم، وهم جديرون بها ومؤتمنون عليها حتى ينالوا أجرهم في الدنيا والآخرة.إنهم شيعة اهل البيت المختارون، وحاملوا امانتهم ومحل عنايتهم ورعايتهم.

ينقل صاحب **أمل الآمل «عما اختص به جبل عامل»** وما يميزه عن سائر البلاد فيقول: **«ما وجدته بخط بعض علمائنا ونقل انه وجده بخط الشهيد الاول[1] نقلاً من خط ابن بابوية[2] عن الصادق[3] عليه السلام انه سئل كيف يكون حال الناس في حال قيام القائم عليه السلام[4] وفي حال غيبته ومن أوليائه وشيعته من المصابين منهم المتمثلين أمر أئمتهم، والمقتفين لآثارهم، والآخذين بأقوالهم؟ قال عليه السلام: بلدة بالشام. قيل: يا ابن رسول الله إن أعمال الشام متسعة قال: بلدة بأعمال الشقيف أرنون وبيوت وربوع تعرف بسواحل البحار وأوطئة الجبال. قيل يا ابن رسول الله هؤلاء شيعتكم؟ قال عليه السلام: هؤلاء شيعتنا حقاً، وهم أنصارنا وإخواننا والمواسون لغريبنا والحافظون لسرنا، واللينة قلوبهم لنا والقاسية قلوبهم على أعدائنا، وهم كسكان السفينة في حال غيبتنا، تمحل البلاد دون بلادهم، ولا يصابون بالصواعق، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويعرفون حقوق الله ويساوون بين إخوانهم، أولئك المرحومون المغفور لحيهم وميتهم وذكرهم وأنثاهم، ولأسودهم وأبيضهم وحُرّهم وعبدهم وأن فيهم رجالاً ينتظرون، والله يحب المنتظرين»[5].**

يصر العامليون منذ القرون الاسلامية الأولى على أمرين ويولونهما أهمية بالغة هما:

إن الصحابي ابا ذر الغفاري هو الذي نشر التشيع في جبلهم، كما انهم أسبق الناس إلى هذه الهداية.

يؤكد العامليون على أن الثابت عندهم أن أبا ذر هو الذي نشر التشيع في بلادهم وهم يتناقلون ذلك خلفاً عن سلف، ويسمون أنفهسم شيعة أبي ذر ويتبركون بهذه التسمية ويتيمنون بها[6].

---

(1) الشهيد الأول هو شمس الدين محمد بن مكي الجزيني وقد ورد ذكره في مواضع أخرى.

(2) عالم شيعي صاحب «من لا يحضره الفقيه» أحد كتب الشيعة المعتمدة في الحديث.

(3) هو الامام السادس.

(4) الامام الثاني عشر المنتظر: محمد ابن الحسن (المهدي).

(5) «أمل الآمل»، القسم الأول، ص 15- 16. وهو حديث حي في الوجدان العاملي دون النظر إلى مدى صحة نسبته إلى الإمام السادس وفقيه المذهب الأول.

(6) صفحات من تاريخ جبل عامل، منذر جابر، ص 102.

إن أبا ذر من أكثر الشخصيات اثارة للجدل في التاريخ الاسلامي ومن أقدسهم في التراث الشيعي. إنه من أوائل الصحابة ومن الأربعة الذين يدخلون الجنة بدون استئذان، وهو من أول من والوا الامام علي واحد الأربعة الذين أسسوا التشيع. كان عدواً لدوداً للأمويين، نادى بأفكار إصلاحية اشتراكية متطرفة بمقاييس ذلك العصر، فدفع حياته دونها مبعداً منفياً، وله اعتبار خاص لدى الكثير من المذاهب الاسلامية الاخرى.

« **ما أظلت الغبراء ولا أقلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر**»[1] جعل التقليد العاملي المتوارث لأبي ذر مقامين في الصرفند وميس الجبل، حيث بث دعوته لنصرة الامام علي والتشيع له، بعد ان نفاه الخليفة عثمان بسعاية من معاوية واليه على الشام، فاستجاب له العامليون وآمنوا بدعوته ولا يزالون حتى اليوم.

كذلك يتسابق العامليون على اعتبار أنفسهم أول من اعتنق التشيع، حتى قبل ان يبايع الامام علي بالخلافة في المدينة بعد مقتل عثمان.

«إن تشيع العامليين أقدم من تشيع غيرهم ولم يسبقهم إلا جماعة محصورون من أهل المدينة، وقد كان ايضاً في مكة والطائف واليمن والعراق والعجم شيعة قليلون وكان اكثر الشيعة في ذلك الوقت هم أهل جبل عامل».

«إن التشيع في بلاد الشام هو أقدم منه في كل البلاد غير الحجاز وأن الشيعة في جبل عامل هي اقدم منها في العجم بل لقد كان لتثبيت دعائم التشيع في ايران يد لابناء جبل عامل بما انتشر من علمائه في تلك الديار»[2].

١٨كانت العقيدة هي محور التاريخ والتراث كما تناقلها العامليون منذ بداية مسيرتهم المميزة. ومن أولى شخصياتهم التاريخية المهمة الشهيد الأول شمس الدين محمد ابن مكي الجزيني الذي قادهم إلى الطريق القويم وأعاد إلى المذهب صفاءه وحارب المعتقدات والبدع. وقد قاد من أجل ذلك معركة الشهداء التي جرت في النبطية الفوقا ضد الخارجين على المذهب، ومنهم الشيخ محمد البالوشي المتهم بالشعوذة وادعاء النبوة، وانتصر عليه، وحاولت جزين ان تحرك الشيعة في مختلف المناطق إلا أن نائب الشام بيدر الخوارزمي وضع حداً لهذه الثورة باعتقال قائدها وإعدامه سنة 1384م فكان الشهيد الأول في قافلة طويلة ممن يستشهدون مثله دفاعاً عن التشيع وذوداً عن سلامة مبادئه[3].

(1) حديث شريف مثبت عند الشيعة.
(2) خطط جبل عامل، محسن الامين ص 71.
(3) تاريخ لبنان، محمد مكي ص 253.

في هذه المرحلة المبكرة كانت الزعامة لرجال الدين، كما كان الشهداء منهم والمعارك التي يخوضونها دينية الطابع والاهداف والنتائج ،إلا أن دخول العثمانيين وما أعقبه من تطورات إدارية وتشريعية، واعتماد نظام الملة والطائفة والصدامات التي توالت مع جيرانهم في جبل الشوف أو مع الولاة ممثلي السلطة، فرضت تسليم القيادة إلى مدنيين يملكون خبرة اكثر في امور السياسة والحروب، فلم تعد المعارك تنشب لتقويم مبادىء المذهب والعودة بها إلى الطريق السليم دون اي هدف آخر.

إن دور السياسة والاطماع التي تستهدف حرية العامليين واعتزازهم واستقلال جبلهم قد أصبحت هي الخطر الطاغي، فبقوا يقاتلون دائماً كشيعة وانما، هذه المرة، للدفاع عن ارضهم وليس عن سلامة واستقامة معتقدهم فحسب. لقد أصبحوا متاولة يقاتلون دروزاً ونصارى واكراداً وعثمانيين .

شي دروز وشي يهود وشي صنوف

وشي نصارى وشي كراد وشي ملل[1].

شعروا بوجودهم اخيرا، كجماعة مستهدفة من غيرها من الجماعات الاخرى. إنهم هم المهددون هذه المرة وليس المعتقد وسلامة مبادئه، وان واجبهم كرهبان متصوفين هو الدفاع عن المجموعة كلها لأن هذا الدفاع في النهاية هو لصالح المعتقد وهو الذي يفرضه الواجب الشرعي على الجميع.

أصبح لهم عدو آخر يرونه ويعرفون مطامعه، غير أعداء الإمام وذريته وأهل بيته. لم يعد رجال الدين وحدهم القادة المدنيون والعسكريون، وإن احتفظوا بمكانتهم الروحية الرفيعة، فقد ظهر بينهم زعماء تاريخيون يسيرون بهم إلى ساحات الوغى وصار لهم شعراء وزجالون يفاخرون بمآثرهم ويعددون منجزاتهم ويهاجمون أخصامهم. وبعد الشهيدين الأول والثاني، اللذين كانا من رجال الدين، جاء دورالشهيد الثالث فكان زعيماً قومياً وقبلياً هز استشهاده الوجدان العام للعامليين فحزن عليه عامتهم ورثاه شعراؤهم وصار له في تراث جبل عامل حساب[2].

من هنا كان التشيع من العناصر الهامة التي ساعدت في ابراز الشخصية العاملية

(1) من قصيدة معروفة للشاعر الفلسطيني شناعة بن مريخ.
(2) ناصيف النصار، معركة يارون، 1781م .

وعززت وجودها إلى جانب المجموعات اللبنانية الأخرى ورسمت لها دوراً وحيزاً لا يمكن تجاهله في تطور التاريخ العام لهذا البلد.

يبقى لنا أن نضع المفهوم العاملي المتوارث للتاريخ جانباً ونتجاوز ما فيه من صوفية وقدسية تجعله أقرب إلى الإعتقادات الايمانية منه إلى الحقائق التاريخة الموضوعية المجردة وتربطه بالغيبيات على حساب المصادر والمراجع المادية المقنعة، وننظر إلى جبل عامل من خارج حدوده وسكانه، لنعرف من هم العامليون ومتى انتشر التشيع بينهم.

يكاد يجمع المؤرخون العامليون، ولاسيما المتأخرون منهم على أنهم عرب أقحاح ينتمون إلى حي من اليمن وهو عاملة بن سبأ، خرجوا إلى الشام ونزلوا بالقرب من دمشق في جبل عرف بجبل عاملة.

لا شك أن في هذا الرأي بعض الصحة وقد قال به مؤرخون من غير العامليين فقد ذكر ابو الفداء في المختصر «**أما بنو عاملة فهم أيضاً من القبائل اليمنية التي خرجت إلى الشام بعد سيل العرم ونزلوا بالقرب من دمشق في جبل هناك يعرف بجبل عاملة**»[1].

وفي هجاء بعضهم لعدي بن الرقاع العاملي الشاعر ما يدل على جهة ديار عاملة في أرض الشام إذ يقول:

ولسنا نبالي بأي عاملة التي

أجبرتها عن أرض بصرى انحدارها

أي التي أسرع انحدارها عن أرض بصرى، وجبال عاملة منحدرة عن أرض بصرى إلى الغرب حتى شاطىء البحر. إن هذا الامر يشير بوضوح إلى أنه يجب أن **تعد بني عاملة من أسلاف متاولة لبنان**[2]. إلا أنه لا يمكن أن نسلم أن بني عاملة ينتمون إلى قبيلة واحدة، أو شعب واحد، بعد كل ما مَّر في هذه القرون الطويلة من حوادث وحروب وفتوحات وهجرات. وأن الإدعاء بوحدة العرق والدم والنسب في حيز جغرافي مفتوح ومستهدف هو وهم ساذج، ولكن هناك اكثر من دليل على وجود العنصر العربي في جبل عامل، في عصر قديم سابق للفتح الاسلامي.

(1) خطط جبل عامل ،الامين، ص 45.

(2) الحركة الفكرية والادبية في جبل عامل، محمد كاظم مكي (عن لامانس)، ص 16.

ذكر الدكتور اسد رستم في مقال له « **والاسكندر الكبير اذ تحدته صور وصمدت في وجهه واضطر أن يحاصرها حصاراً طويلاً أحب في يوم من أيام الحصار أن يروح عن النفس برحلة صيد قصيرة فقام من ضواحي صور ممتطياً جواده واتجه شرقاً متسلقاً جويا وتبنين فوجد نفسه فجأة بين قوم من العرب هكذا يقول أريانوس أقدم من أرخ للإسكندر وأقربهم اليه زمنا**»[1].

يحدثنا التاريخ عن هجرة أخرى إلى جبل عامل في سنة (85 ق.م)، فقد قدم الانباط من جنوبي الاردن، حيث أسسوا هناك دولة الأنباط وحلوا في المكان الذي تقوم عليه اليوم مدينة النبطية، التي لا بد انهم قد أعطوها اسمها، كما يدل على ذلك واقع الحال، وقد حكموا جنوب لبنان واشتهروا بأعمال الري والحرف والفلاحة، ونظراً لشهرتهم وانتشارهم فقد عمم العرب اسم الانباط على مجموعة السكان القديمة فجعلوا كل وطني نبطيا. وبعد أن امتزج المهاجرون بالسكان الأصليين من بقايا الشعوب السامية كالفينيقيين والكنعانيين، جاء دور الهجرة الفارسية التي أعقبت حروبهم مع البيزنطيين واستوطنت أعدادٌ منهم جبل عامل قبيل الفتح الاسلامي بمدة قصيرة.

وتمضي السنون خلال العهدين الأموي والعباسي ولا شيء يميز تاريخ جبل عامل عن غيره سوى الفكر والشعر والادب، وخلاف ذلك لا نطمح في أن نجد له ملامح خاصة أو تأثيراً بارزاً في أحداث تلك الفترة.

من الطبيعي أن يحصل تمازج عرقي هام في جبل عامل نتيجة الحروب الصليبية وما أعقبها من اختلاط بين سكانه والصليبيين، وما فرض الاحتلال والجوار الجغرافي من احتكاك وتعامل على الأصعدة الادارية والإجتماعية والإقتصادية خلال عقود من الزمن. حضر الرحالة ابن جبير عرساً صليبياً في صور اشترك في إحيائه المسلمون من أهل المدينة كما، مرّ في تبنين وترك انطباعه عنها «**رحلنا من تبنين دمرها الله سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة**»[2].

حصل التزاوج بين سكان جبل عامل والصليبيين نتيجة الغزو والسبي وبيع الرقيق

(1) د.م. إ. ش. حسن الامين ج 12 ص 29.
(2) رحلة ابن جبير، ص 274 ـ 278.

الذي يعقب المعارك عادة، كما ان المماليك باعوا أعداداً ضخمة من النساء والأولاد للمسلمين بعد انتهاء الحرب، وهناك اعداد من السكان غير المحاربين بقيت في هذه البلاد ثم تحولت هذه الجاليات الصليبية مع الزمن إلى مذهب الشيعة المسيطر هناك ومع الوقت استعربوا وتشيعوا وذابوا في بوتقة الاقليم، بالرغم من بقاء ملامح السحنة الأوروبية، ولابد ان تواجداً دام قرنين من الزمن لا بد ان يترك ملامح بارزة على جبل عامل في جميع الحقول[1].

لم تبدأ الزعامات الدينية، والأسر العاملية الحاكمة من بعدها، بالظهور إلا في العهد المملوكي كبني صبح وبني بشارة، وقد جمعتهم علاقات وثيقة برجال الدين كالعلاقة التي كانت قائمة بين احد مجتهدي الشيعة وهو إبراهيم الكفعمي وأمير من أمراء ذلك الزمن هو الأمير نجم الدين بشارة.

ولابد ان الهجرات الفردية لم تتوقف عن التدفق طيلة هذه الفترة بسبب جور المماليك على الأهالي، من جهة، وموقع جبل عامل الجغرافي المطل على البحر في منطقة متوسطة وبعيدة نسبيا عن اعين السلطة ومراكزها العسكرية من جهة أخرى بالإضافة إلى الشعور المعادي للمماليك الذي كان سائداً في هذه البلاد التي تعرضت لمثل ماتعرض له غيرها من مناطق لبنان من تعاقب الدول والفاتحين إلى تعدد الهجرات والتنقلات، كما استقبل الهاربين والنازحين الباحثين عن ملجأ امين أو معيشي لم يتيسر لهم في اماكن تواجدهم الأولى كما فعل العامليون انفسهم في ظروف مشابهة ومماثلة.

إن سكان هذا الجبل لا بد أنهم مزيج من شعوب مختلفة عرب وساميون وفرس وبيزنطيون وصليبيون، وكثير من الشعوب الاخرى عاشوا في بقعة ارض واحدة فاختلطوا وامتزجوا وتزاوجوا حتى كونوا، مع تعاقب العصور، مجموعة متجانسة من البشر يحملون تراثاً وتاريخاً ومعتقدات وحضارة وطريقة عيش وأسلوب حياة واحدة تعايشوا في ظل قيم إنسانية ودينية مشتركة. وعلى هذا الحال وجدهم العثمانيون عندما اجتاحوا هذه البلاد.

إن التقصي عن مبدأ تشيع العامليين يفقد الكثير من أهميته عندما نجرده من

(1) تاريخ لبنان، مكي ص 206.

محتواه الرسولي المتصوف. كان معظم سكان لبنان من الشيعة في وقت ما، وكذلك المناطق المجاورة لجبل عامل كالجليل وطبريا والقدس، بل حتى دمشق نفسها، فلماذا يشذ اهالي هذا الجبل عما اعتنقه محيطهم. لقد اصبحوا شيعة في الوقت الذي اصبحت فيه كسروان وطرابلس والبقاع وصيدا وسائر المناطق شيعية، وغالباً في الفترة البويهية والعباسية المتأخرة، قبل أن يصبح التشيع مذهب السلطة الحاكمة ويعم أيام الفاطميين. وربما من الأجدى تاريخياً التساؤل عن كيفية محافظة العامليين على تشيعهم في الوقت الذي اختفى هذا المذهب من حصونه القديمة كطرابلس وكسروان وغيرها.

أما إقامة أبي ذر في ربوع جبل عامل، سواء كانت حقيقة أو أسطورة، فلا تعدو كونها إيماناً وجدانياً من تراث التشيع في جبل عامل واعتقاداً شعبياً محبباً إلى بنيه.

إن احتفاظ العامليين بتشيعهم، رغم تبدل الظروف وخضوع بلادهم لحكام معادين لهذا المذهب، يعود إلى أسباب عديدة، بعضها يتعلق بهم، والآخر بموقع بلادهم الجغرافي، أو بالظروف السياسية والعسكرية العامة التي أحاطت بها وأبرزها:

أولا ـ في صراعهم مع الصليبيين، دمر المماليك معظم مدن الساحل السوري، وقضوا على سكانها قتلاً وتشريداً، فبقيت مدمرة مدة طويلة خالية من السكان، بعد أن فرغت من أهلها الشيعة، واستمر المماليك في مراقبتها خوفاً من عودة أعدائهم، وأسكنوا فيها جماعات موالية لهم، من السنة، كما فعلوا في القسم الشمالي من الساحل اللبناني، وتركوا المناطق الجبلية على حالها لعدم أهميتها الإستراتيجية والعسكرية السكانية التي أعقبت انهزام الصليبيين.

ثانيا ـ لم يتأثر الوجود الشيعي سلباً تحت الحكم الصليبي. إذ حافظ الشيعة في معظم الأحوال على علاقات واقعية معهم وصلت أحياناً إلى حد التحالف والقتال إلى جانبهم، كما حصل في معركة بانياس (552 هـ ـ 1157م)[1].

ثالثاً ـ إن عدم وجود مدن كبيرة في جبل عامل يمكن أن تكون مراكز حكم لممثلي

(1) تاريخ لبنان، مكي، ص 153 نقلاً عن القلانسي، حوادث 552 هـ.

السلطة وولاتها، سواء كانوا من الزنكيين أو المماليك أو العثمانيين، أبقته بعيداً عن مراقبة ولاة الأمر وعن متناول بطشهم في آن معاً.

رابعاً ـ لم يهتم المماليك، ولا العثمانيون بعدهم، في مراقبة الجبال البعيدة عن الحواضر والعواصم، والاهتمام بمذاهب أهلها، كما حصل في المدن الكبيرة، حيث عمدت السلطات عند القبض على أحد الشيعة الآتين من خارج المدينة إلى قتله والتنكيل به[1].

والواقع أن المدن الساحلية كصيدا وصور، قد خلت تماماً من الشيعة حتى أعيد بناء صور المدمرة مرة أخرى تحت حكم الشيعة وبأيديهم.

خامساً ـ إن تعلق شيعة جبل عامل الشديد بمذهبهم، وانتشار العلم والمعرفة بينهم، حصّنت هذا المذهب من الضلالات والمبالغات والغلو، وليس كالعلم يحفظ الفكر ويقي من مخاطر الإنزلاق ويحد من استثارة المخالفين والمتأولين.

سادساً ـ مع كل هذه الأسباب، لم تسلم بعض أجزاء جبل عامل من القضاء على التشيع فيها كما حصل لأهم حواضره العلمية والسياسية، وهي جزين، والمنطقة المحيطة بها التي أفرغت في عهد العثمانيين، من أي وجود شيعي فيها، بعد أن كانت في وقت ما من أهم عواصم الشيعة العلمية والسياسية.

سابعاً ـ لعب صمود العامليين دوراً مهما في الحفاظ على عقيدتهم وتواجدهم، وتعرضوا من أجل ذلك، لأقسى انواع التنكيل والاضطهاد والتشريد، كما حصل عند النكبة التي أوقعها بهم أحمد الجزار فشتتهم خارج ديارهم. ولكنهم استمروا في المقاومة والصمود حتى عادوا إلى بلادهم من جديد. ولايزال العامليون كما كان شانهم قديماً، يفخرون باعتزاز بأنهم أول من اتبع هذا المذهب وآخر من يفرط فيه.

---

(1) أعلام الورى ابن طولون ص 280.

3- العلم

مع دخول العثمانيين ازداد تدهور العلوم والآداب، وعرفت بلاد الشام عصراً من الجهل والتأخر، طاول معظم مظاهر الحياة الفكرية فيها، وسيطر الجمود والتقليد والخرافات على عقول الناس، وتلاشت روح الإبتكار والبحث والتعطش للمعرفة والصواب، وساد التعصب الديني والمذهبي في جميع الميادين، مما انعكس تشريعات ومراسيم وتدابير قاسية على كل مخالف، لما تراه السلطة وجمهورها.

«بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع الهجري، وهو الخامس عشر ميلادي، فلم ينبغ في الشام رجل أحدث عملاً علمياً عظيماً، أو دل على نبوغ في فرع من فروع العلم وكثر فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين، والسبب أن حكومة المماليك، كانت تشتدّ في إرهاق المتفلسفة والمتفهمة على غير الأصول المتعارف عليها: الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي، فكان المخالف يعزر والقتل أيسر مراتب التعزير عندهم.

ثم زاد انحطاط العلم في القرن العاشر فلم تكن أيام الترك العثمانيين ميمونة على المعارف في هذه الديار. أما القرن الحادي عشر فشبه تاليه وسالفه من حيث قلة الإبداع والتجدد. ثم دخل القرن الثاني عشر ولاتجديد فيه، ولا جديد إلا النظر في قضايا قديمة لاكتها الألسن. لا إبداع فيها ولا اختراع»[1] إلا أن واحة خضراء بدت في وسط هذه الصحراء المجدبة القاحلة. إذ أن النهضة العلمية والفكرية والأدبية، حافظت في جبل عامل على ديمومتها وتألقها، وتابعت مسيرتها نحو التقدم فحفظت للإسلام وللعربية وللأدب والشعر مكانة لائقة، وكأنها جزيرة نور في بحر من الظلمات.

إن هذه الظاهرة تستوجب التوقف عندها لتحليلها ودراستها والتقصي عن أسبابها وعناصرها. إذ أنه لا بد من التساؤل كيف يمكن لهذه المنطقة البعيدة عن الحواضر والعواصم والمدن، أن تنفرد بنهضة فكرية عن محيطها الواسع صاحب التراث القديم وحاضن المراكز الكبرى التي طالما كانت قبلة أهل الفكر والعلم والأدب.

قامت نهضة علمية في جبل عامل، تناولت معظم المجالات المعروفة في ذلك العصر، من مصنفات وأبحاث ومدارس وأعلام، تجاوزت شهرتهما وتأثيرهما بلاد الشام، إلى

(1) خطط الشام، محمد كرد علي ج 4 ص 51.

غيرها من أمهات المدن والأمصار، في العراق وإيران والهند حيث أصبح جبل عامل في اعتبار الجميع منبت الفئة الخيرة من رجال الدين وعلماء العقيدة وأساطين الفلسفة والشعر والأدب.

يقول صاحب أمل الآمل «إن من فوائد وضع كتابه كثرة من خرج من جبل عامل من العلماء والفضلاء والصلحاء وأرباب الكمال. ولايكاد يوجد من أهل بلاد أخرى من علماء الإمامية أكثر منهم ولا أحسن تأليفاً وتصنيفاً. ولقد أكثر مدحهم والثناء عليهم القاضي نور الله في مجالس المؤمنين وذكر أنه ما في قرية هناك إلا وقد خرج منها جماعة من علماء الإمامية وفقهائها».

سمعت من بعض شيوخنا، أنه اجتمع في جنازة في قرية من قرى جبل عامل سبعون مجتهداً، وأن عدد علمائهم يقارب خمس عدد علماء المتأخرين وكذا مؤلفاتهم بالنسبة إلى مؤلفات الباقين مع أن بلادهم بالنسبة إلى باقي البلدان اقل من عشر العشر[1]».

لقد فاق عدد العلماء ما يمكن ان يستوعبه هذا الجبل فانطلقوا في أرجاء المعمورة، ينشرون علومهم ومعارفهم حيث حلوا بعد أن سبقتهم شهرتهم، وتسامع الناس بغزارة علمهم ووفرة مداركهم.

طرق هؤلاء العلماء معظم الأغراض العلمية والدينية والشعرية التي كانت معروفة في عصر الإزدهار الاسلامي، كالعلوم مثل الجبر والهندسة والطب، والعلوم العقلية من فلسفة ومنطق وعقائد. ولم يغفلوا التاريخ والسير والتراجم والأمثال، بالإضافة إلى العلوم الدينية على اختلاف أبوابها، وكذلك علم اللغة من نحو وبلاغة وبيان. أما الشعر عندهم فقد تعرض أيضاً لمختلف الأبواب من مدح وهجاء ورثاء وحنين وحماسة وفخر، حتى أن جبل عامل وبعض قلاع زعمائه، صارت محط أنظار ومقصد الشعراء القادمين من البلدان العربية المجاورة كالعراق وفلسطين والشام[2].

لما كان، ولا يزال، باب الإجتهاد مفتوحاً في المذهب الجعفري، بخلاف المذاهب الفقهية الإسلامية الأخرى، مما يحتم على رجل الدين البقاء على تواصل مع مايستجد من أحكام شرعية وإفتاء وتفسيرات، تواكب مايفرض على المؤمنين من مظاهر الحياة

(1) أمل الآمل، القسم الأول، ص 15.

(2) جبل عامل في التاريخ، الفقيه، ص 440 - 442.

وإشكالاتها وتشعباتها، وما يطرأ بشأنها من مسائل وأصول تستدعي درجة متقدمة من الإطلاع على فروض الدين، والأهلية لتفسيرها واستنباط الأحكام الشرعية حسب مقتضاها، ولما كان من واجب المؤمن الشيعي أن يجد له مقلداً من أهل الدراية والعلم ليستعين به في أموره الدينية وما يلتبس عليه من الأوامر والنواهي والحلال والحرام والتقيد بأصول الدين وفروعه، ولما كان من أهم الفروض الدينية عند الإمامية، هو القيام بزيارة العتبات المقدسة في العراق وإيران، وخصوصاً مشاهد الأئمة في النجف وكربلاء ومشهد، حيث توجد بجوارها أهم مراكز العلم ومدارسه وجامعاته وأساتذته في العالم الشيعي بأسره، كان من الطبيعي أن يتواصل سيل الحجاج العامليين إلى هذه الأماكن سواء لطلب العلم أو طلب الأجر أو الإثنين معاً.

ومهما كان السفر إلى هذه الأماكن المقدسة في نظر العاملي شاقاً وعسيراً ومكلفاً، ودونه صعوبات جغرافية ومادية وسياسية أحياناً، فقد تخطاها بإصرار وعزم، تدفعه إلى ذلك رغبة، وإرادة لا تقاوم لزيارة الأئمة والتزود من زادهم العلمي والديني، تحركه حماسة دينية متدفقة، وعزم لا يفتر ولا يلين. كل ذلك أوجد حركة دائمة في الاتجاهين بين جبل عامل والمشاهد الشيعية، لم ينقطع فيها تنقل الأشخاص والأفكار والمصنفات والتوجيهات والرسائل والفتاوى، مع المسافرين للحج أو الدراسة أو العائدين بعد الفراغ من تأدية الواجب المقدس.

وربما ساهم سوء الحال وظلم الحكام وطلب الأمان والمعاش في دفع نخبة الناس إلى هجر ديارهم فاختاروا البلاد التي لهم فيها أرب آخر، اقتصادياً أو دينياً أو ثقافياً.

يقول الشيخ الخالدي الصفدي في مقدمة تاريخه عن البلاد الصفدية، وجبل عامل في مقدمة المعانين منها:

«إن البلاد الصفدية كانت قد درست بعواصف المحن معالمها لما اعتراها من ظلام الظلم والجور، بحيث صارت لا تقدر على القيام على سوقها لخراب ربوعها ودورها وسوقها وعادت نسياً منسياً. ونسجت عليها عناكب الهجران وابتلى غالب أهلها بخلاء الأوطان ورحل كل منهم إلى مملكة ولم يبال بأي مكان سكن وتغربوا عن الأهل والأوطان»[1].

إن هذه التواصلات الدينية والعلمية أعطت ثمارها في وقت ما، فأوجدت حالة

(1) تاريخ الصفدي، ص 2 -1.

علمية ناشطة تعدد فيها العلماء خريجو مراكز الدراسة الكبرى في العالم الشيعي، وانتشرت أفكارهم وفتاواهم ومصنفاتهم في أنحاء الجبل عموما. ولما كانت واجبات رجل الدين الشيعي لا تنحصر في الأمور الدينية البحتة، بل تتعداها إلى المشاركة في أمور الدنيا العامة فقد ساهموا في سائر الأمور السياسية والإجتماعية، بالمشاركة فيها أو بتوجيه العامة نحو ما يرونه صلاحاً للناس في أمورهم وفلاحاً للمؤمنين في أحوالهم، سيما وأن هذه الطبقة الدينية المنتجة، كانت تتمتع بتقدير واحترام بالغين، ليس في أوساط العامة فحسب، بل عند أهل الحكم والقيادة وسائر الناس على اختلاف مستوياتهم ومشاربهم.

لقد اكتسب رجال الدين، لا سيما من اشتهر منهم، بسعة العلم وكثرة المقلدين، نفوذاً سياسياً ودينياً في آن واحد، بشكل يصعب الفصل بينهما. حتى قام بعضهم، ولا سيما في المراحل الأولى من تاريخ جبل عامل، بقيادة حركات أخلاقية دينية وسياسية، كان السيف خلالها في خدمة الشرع، مما ترك أثراً بالغ الدلالة والخصوصية، في تاريخ هذا الجبل وشخصيته العامة. فقد كانت السلطة العليا والكلمة الأخيرة لهؤلاء العلماء، ليس في أمور العبادات والأحكام فحسب بل في سائر أوجه النشاطات الإنسانية.

إن هذه الاندفاعة نحو العلوم المعتمدة في هذا العصر، وليس العلوم الدينية وحدها، كرست جبل عامل، ليس كحاضرة علمية مهمة وشهيرة فحسب، بل كجامعة ترفد العالم الإسلامي، وخصوصاً الشيعي، بأعداد متزايدة من رجالها، فينتشرون في كل أرجاء العالم الاسلامي كقضاة ومفتين ومهندسين وسياسيين وأصحاب فكر نير ومتقدم، ومواهب تفتح أمامها مختلف أنواع المناصب. وبلغت حركة الإغتراب أوجها في القرنين السادس والسابع عشر للميلاد وتركزت خصوصاً في الكوفة والنجف والحلة في العراق، وفي أصفهان وخراسان وطوس في إيران. كما وصلت إلى الافغان وحيدر أباد والهند، ومنهم الحانوتي الذي وصل لرتبة صدر أعظم في الهند كما يقول السيد محسن الأمين في «أعيان الشيعة» وتواصل العلماء مع ملوكها ووصل أكثرمن واحد منهم إلى رتبة الوزارة والرئاسة، كما وصل آخرون إلى مكة وبغداد ومصر ودمشق حيث تبادلوا المعارف والدروس مع علماء هذه الأمصار.

ولكن وتيرة هذا النزوع إلى الانتقال تراجع عندما ساءت الأحوال الأمنية في ديار الإغتراب، وانتشرت المدارس في حواضر جبل عامل وقراها واكتظت بطلاب العلم،

حيث وصل عددهم في أكثر من واحدة منها إلى أربعماية طالب، يأخذون العلم عن أساتذة أعلام، طبقت شهرتهم الافاق البعيدة وهم حتى اليوم، يعتبرون من أهم فقهاء الشيعة وأعلامها، ولاتزال مؤلفاتهم موضع اهتمام في جميع أرجاء العالم الشيعي.

انتشرت المدارس في أنحاء جبل عامل نتيجة وفرة الأساتذة والعلماء الذين تخرجوا من الجامعات الكبرى في العراق وإيران، وكذلك الإتجاه العام لطلب العلم عند عامة العامليين ونزعتهم الفطرية المتأثرة بالجو العام السائد فكانت أهم هذه المدارس هي مدرسة جزين ومدرسة ميس الجبل ومدرسة شقرا. ساهم خريجوها في دفع النهضة العاملية ونشر التعليم خارج جبل عامل. وكانت هذه المدارس تدرس علوم البيان والبلاغة والبديع وعلم الكلام، بقسميه الجواهر والعروض، وعلم الحساب وفن الأدب والشعر، بالإضافة طبعاً إلى العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير[1].

كانت الجهود متواصلة لإيصال المعرفة بشكل سهل التناول، ويسير الفهم، إلى أكبر عدد ممكن من طلابها. وقد وضع الشهيد الثاني كتاباً في التربية أسماه «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» تناول فيه واجبات المعلم والمتعلم[2].

فكان جبل عامل بالفعل نقطة مضيئة وسط ظلام عمّ بلاد الشام وسائر العالم الإسلامي، في القرون الوسطى، وواحة معرفة وعلم في صحراء شاسعة من التخلف والجهل والتقليد[3].

في القرن الأول من الوجود العثماني كان جميع سكان جبل عامل من الشيعة ولم يكن فيه درزي أو سني واحد ومن أصل ماية وستين بلدة وقرية وردت في الدفتر نامة العثماني كان هناك قرية واحدة يعيش فيها أقلية من النصارى - مارون - وباقي السكان جميعهم من الشيعة.

(1) الحركة الفكرية والادبية في جبل عامل محمد كاظم مكي ص 39.
(2) المصدر السابق ص 40.
(3) ترجم أمل الآمل ماية وثلاثة وأربعين عالماً في القرن السابع عشر هاجر منهم ستون إلى إيران وواحد وثلاثون إلى أقطار أخرى (العراق ـ الحجاز ـ اليمن ـ الهند) وسبعة هاجروا وعادوا. والباقون وهم خمسة وأربعون عالماً لم يهاجروا من بلادهم (الهجرة العاملية، جعفر المهاجر، ص 79).

الفصل الثاني

بعلبك والبقاع

يطلق اسم بلاد بعلبك على جميع القرى الواقعة بين سلسلتي جبال لبنان، في سهل البقاع، حيث تقع مدينة بعلبك في وسطه وهي عاصمته، والمدينة الوحيدة فيه. وتمتد إلى الشمال حتى قريتي رأس بعلبك والقاع المسيحيتين، وهما آخر بلاد بعلبك على تخوم منطقة حمص، وإلى الغرب عند منبع العاصي الذي يفصلها عن منطقة الهرمل، التي كانت تاريخياً من أراضي جبل لبنان، وبقيت من ضمنه حتى أيام المتصرفية. أما إلى الجنوب فلم تكن حدودها ثابتة في مختلف الحقب، وإن كان طريق بيروت دمشق القديم، والذي بقي هو نفسه حتى اليوم، هو الخط الأكثر بروزاً رغم أن بلدة مشغره من ناحية الغرب كانت تشكل في بعض الاحيان فاصلاً ومعبراً في آن واحد، بين طرفي القوس الشيعي في بلاد بعلبك وجبل عامل[1].

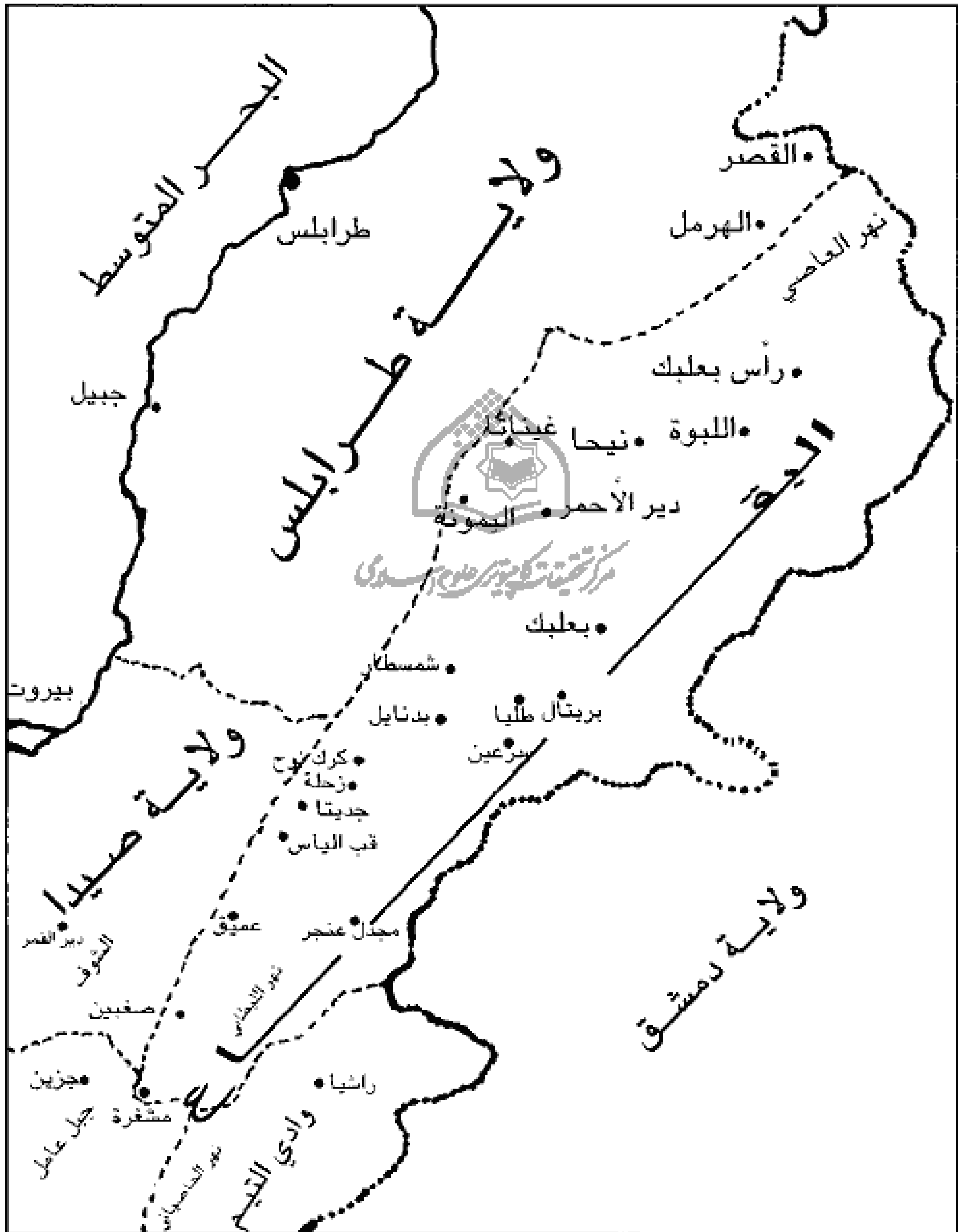
كانت بعلبك في العصور القديمة مدينة كبيرة وحاضرة دين وحكم وإدارة، حتى فتحها العرب صلحاً على الأرجح. وكان سكانها عرب وفرس وروم وقبط كما يفيد أمان أبو عبيدة لهم.

بقيت بعلبك دار حكم وإمارة ومركز نيابة في ظل مختلف الدول الإسلامية المتعاقبة حتى أيام الأيوبيين والمماليك، وكانت مركزاً عسكرياً مهماً، ينطلق منها المسلمون في حروبهم مع الصليبيين والمغول، كما كانت حينها من أهم المراكز العلمية والتجارية، انتشر فيها التعليم والعلماء، وتعددت المدارس وزها العمران مما لا يزال يمكن مشاهدة آثاره حتى اليوم. «**تلك العهود الذهبية ذات الازدهار العلمي الذي أصبحت به الديار**

---

(1) بيت بمنازل كثيرة، كمال الصليبي، ص 165.

بلاد بعلبك والبقاع



البعلبكية ككبرى العواصم الإسلامية بفضل العلماء الأعلام وأساطير الأئمة والفقهاء العظام»[1].

وعبر عن أهميتها القلقشندي، فوصفها بأنها مختصرة من دمشق في كمال محاسنها، وحسن بنيانها وترتيبها وبها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا[2].

زارها ابن بطوطة، وقال إنها حسنة قديمة من أطيب مدن الشام وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية، وقد عدد بعض صناعاتها وصادراتها[3]. وكانت تزود أوروبا حتى أوائل العهد العثماني بالسكر والحلويات، واشتهرت مصانعها بالأقمشة الصوفية والقطنية والحرامات، التي سميت بإسمها، وكانت تهدى إلى الملوك لجودتها وتصدر إنتاجها إلى أماكن قصية مثل اسبانيا[4].

حتى القرن الخامس عشر كانت بعلبك مركز نائب مملوكي، تعينه القاهرة أو دمشق، من بين أمراء الدولة وعمالها إلى أن وصل أحد الحرافشة الشيعة إلى هذا المنصب في تاريخ غير معروف بدقة، إلا أنه سابق حتماً لسنة 1497م. فغير من طبيعة السلطة والإدارة فيها فبرزت شخصيتها الذاتية كإمارة تحكمها عائلة واحدة، استمرت في السلطة حتى منتصف القرن التاسع عشر.

في ظل النائب المملوكي كان من الطبيعي، كما حصل في غيرها من المدن اللبنانية المشابهة، أن يتوارى الوجود الشيعي فيها بعامل الخوف أو التقية، أو الضغط والاضطهاد والتهجير القسري أو الإنتقال الطوعي إلى القرى والمزارع حيث بقي هذا التواجد ولا يزال طاغياً وكثيفاً.

إن التشيع في بعلبك وبلادها قديم ومتأصل، ليس من السهل تحديد بداية تاريخ انتشاره ومداه، إلا أنه يمكننا أن نفترض أن عصره الذهبي اقترن بالحكم الفاطمي، وتعزز بوجوده. لذلك بقيت بعلبك على ولائها للفاطميين حتى عندما كانت دمشق أو غيرها من المدن السنية تتمرد على سلطتهم، فبقيت تبايع الخلفاء الفاطميين وتتنكر للعباسيين، حتى سقطت أخيراً تحت سلطة ملكشاه السلجوقي سنة 1075 م الذي قطع الخطبة للمستنصر وخطب للمقتدى العباسي وأبطل من الاذان «حيّ على خير العمل».

---

(1) بعلبك في التاريخ، الشيخ قاسم الرفاعي، ص 72.
(2) المصدر السابق، ص 76.
(3) رحلات ابن بطوطة، ج1 ص 80.
(4) مختصر تاريخ لبنان، فيليب حتي، ص 157.

وبعد ذلك، لم تعرف بعلبك حاكماً شيعياً حتى جاء الحرافشة بعد أربعة قرون.

بعد الفاطميين تعاقب على حكم بعلبك السلجوقيون والزنكيون والأيوبيون ثم المماليك وكلها دول سنية المذهب، عرفت بعدائها للشيعة وباستعمالها القهر والبطش أداة مفضلة لتنفيذ سياساتها نحوهم. فلم يكن من الممكن أن يظهر من بقي من الشيعة أنفسهم فيها وهم في جوار الحاكم المعادي، وجنده، وتحت سلطته ويده. وحول بعلبك سهول فسيحة وقرى شيعية تشكل عامل جذب قوي في الظروف الصعبة والقاسية، مما نتج عنه كثافة شيعية في الريف والقرى، مقابل انحسار في داخل المدينة. وهذا ما يفسر الطابع الحنبلي الذي غلب على المدينة في الحقبة المملوكية، وأوائل العهد العثماني، وهو من المذاهب الرسمية الأربعة التي تعترف به الدولة وترعاه، ويكفل لحامله الأمان والسلامة. حتى إذا وصل الأمير الحرفوشي إلى الحلول في السلطة مكان النائب المملوكي القديم، اختفى المذهب الحنبلي من المدينة مع الوقت. ولا تجد فيها اليوم من آثار حنبلتها السابقة إلا اسم أحد مساجدها.

في القرن السادس عشر لم تعد بعلبك أكثر من لواء ملحق بباشوية دمشق، يحكمه أمير لواء أو ضابط[1] أو أمين[2] حرفوشي، مما جنبه وجود حاكم عثماني يمارس السلطة فيه بشكل مباشر فبدأت تتجه إلى أن تكون حاضرة شيعية في العلم والسياسة على مستوى كامل المناطق اللبنانية، إلى جانب شقيقتها وجارتها كرك نوح، لذلك قصدها الطلاب لتلقي العلم في مدارسها، من سائر بلاد الشيعة، كما توافد إليها العلماء والأساتذة لإلقاء الدروس وتخريج أعلام ساهموا، كما فعل إخوانهم في جبل عامل، في خدمة المذهب الشيعي والرد على خصومه ونشره في مختلف البلاد.

نبغ من بعلبك في هذا القرن، ومن بعض بلادها كالكرك ومشغره، أسماء شهيرة حفلت بها كتب السير والتراجم، فوصلوا إلى مناصب علمية مرموقة، ليس أهمها منصب الإفتاء أو مشيخة الإسلام في إيران، بل قد توصل عالم بعلبكي معروف[3] أن يصبح الوزير الأول فيها، ويترك آثاراً عمرانية وعلمية، مازالت حتى اليوم تثير الفضول والإعجاب. كذلك عرف من أمرائها أنفسهم أكثر من شاعر وأديب وقد اضطر أحدهم أن يهاجر إلى بلاد العجم حيث أصبح معظّماً عند الشاه عباس ورئيس العلماء في

(1) لبنان والامارة الدرزية، ابو حسين، ص 79.
(2) المصدر السابق، ص 80 وامير لواء ص 81.
(3) هو الشيخ البهائي الشهير.

بلاده، وقد فر من دمشق هرباً من القتل بتهمة الرفض ومات في أصفهان سنة (1059 هـ. 1649م)[1]. إلى جانب العلماء ورجال الدين، عرفت المدينة نوعاً آخر من الزوار واللاجئين والمهاجرين، من مختلف ناشطي الشيعة وأعيانهم، يأتون للمشورة أو طلب المساعدة أحياناً وهرباً من جور الحكام العثمانيين والمحليين وبطشهم أكثر الأحيان، وحينما يعاني الشيعة، ولم يكن هذا نادراً في العهد العثماني، من حملات التنكيل والاستئصال والتهجير الجماعي في جبل لبنان أو في جبل عامل، كان النزوح إلى هذه البلاد هو السبيل الوحيد أحياناً الذي كان متاحاً للحد من أضرارها وآثارها.

كان الصراع مع العثمانيين، كما في باقي ديار الشيعة، هو السمة السياسية البارزة لهذا العصر في بلاد بعلبك كما في جبل عامل، وجبل لبنان. لذلك لم ينقطع سيل الحملات العسكرية المتوالية بغية إخضاعها وتأديب أهلها المخالفين والإنتقام منهم وما تخلفه هذه الحملات من محن ونكبات وخسائر. فكان الهاجس الأول عند أمرائها الحرافشة هو الحؤول دون اختيار مدينتهم مركزاً لباشا عثماني ومقراً له، كما كانت في معظم عهودها السالفة. فكان بعض أمرائها يراقبون مظهرها وتمددها ليتأكدوا أن توسعها العمراني لم يصل إلى حد يثير انتباه العثمانيين، ومطامعهم[2]، فتفقد الإمارة بعض ماتنعم به من استقلالية في إدارة أمورها وحرية أمرائها في ممارسة الحكم والسلطة. وربما ساعد ذلك في تكاثر الشيعة المهاجرين إليها، حتى أصبحت مركزاً شيعياً سياسياً وسكنياً في الوقت الذي كان الوجود الشيعي يضمحل مع الزمن في المدن التي اتخذت مقرات حكم وإدارة للسلطة العثمانية كطرابلس وحلب ودمشق.

كانت الكثافة السكانية في سهل البقاع الخصيب تتركز في الشريط الواقع في عمق السهل، حيث تتكاثر القرى من مشغرة في أقصى الجنوب، حتى الكرك وسرعين واللبوة ورأس بعلبك، حيث أقام الحرافشة مراكز عسكرية وحصوناً للدفاع عنها، بينما كانت المراكز السكنية في سفوح الجبال، ولاسيما، إلى الغرب قليلة ومتناثرة. فمن الناحية

(1) محمد بن علي بن أحمد الحريري الحرفوشي، تاريخ بعلبك مخائيل الوف (عن المحبي) ص 32. ويقال انه صاحب البيت السائر:

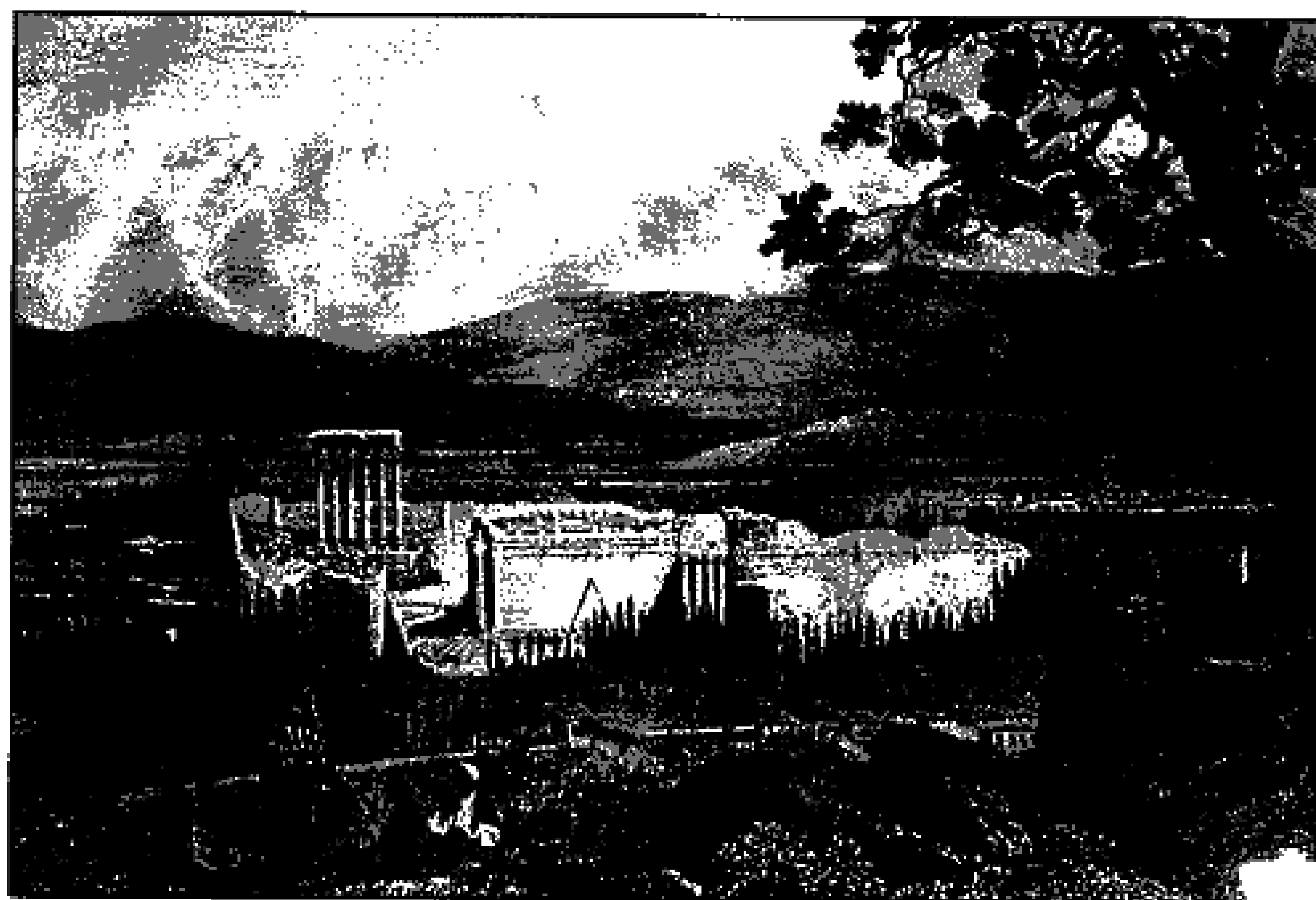
« ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن »

وترجمته في أمل الآمل وأعيان الشيعة وسلافة العصر وغيرها. كما ترجمت هذه المصادر لولده ابراهيم المتوفي في طوس 1669م.

(2) كان الامير جهجاه الحرفوش يصعد احياناً إلى رابية الشيخ عبد الله المشرفة على بعلبك فإذا شاهد في المدينة عمراناً ظاهراً أمر بهدمه لتظهر المدينة بلدة متواضعة كي لا يطمع وزراء الدولة بحكمها، وجاء تفصيل ذلك في فصل آخر.

مدينة بعلبك في القرن السادس عشر





العسكرية لم يكن من المتوقع أن تأتي المخاطر من هذه الجهة لأن علو قممها ووعورة مسالكها تجعلها حصناً طبيعياً لا يستدعي وجوداً كثيفاً للمدافعين. ومن الناحية الإقتصادية، كان السكن في وسط هذا السهل الخصيب على الطريق التي تؤدي إلى دمشق شرقاً وإلى حمص شمالاً، والقريب من المراكز السكنية المكتظة أكثر جدوى وأشد جذباً، وأقرب إلى الرفاهية والرخاء. أما السفوح والمنحدرات التي تقع إلى الغرب، فبقيت أقل كثافة سكنية حتى عهد متأخر عندما اشتد الضغط على شيعة جبل لبنان، فعبروا قمم الجبال نحو وادي البقاع واستقروا حيث وجدوا التربة الفسيحة والماء أو اختاروا اللحاق بأقربائهم أو جيرانهم السابقين الذين قضت ظروف سياسية قاهرة أن يكونوا أسبق إلى الهجرة منهم، وانتشرت في هذه السفوح العديد من القرى والبلدات التي أنشأها المهاجرون أو استقروا فيها، كشمسطار واليمونة وبوداي والسعيدة ومقنة وحربتا، وهي لا تزال إلى اليوم من أكبر بلدات وقرى بعلبك يسكنها احفاد هؤلاء المهاجرين من عائلات كثيرة العدد، كزعيتر وشمص وحيدر أحمد والمقداد وناصر الدين والحاج يوسف وعمرو وجعفر، انقسمت بين جانبي الجبل رغم أن علاقة النسب بين الفريقين لا تزال وثيقة ومباشرة ولم ينقطع التواصل بينهما أبداً.

إن وجود الحرافشة حكاماً على بعلبك والبقاع، استقطب هجرة شيعية أخرى مختلفة وفدت من الشرق من قرى ومزارع ووديان كانت منتشرة في جبل الشيخ، ولكنها كانت هجرة طوعية دفع اليها عاملان أساسيان أحدها سياسي والآخر إقتصادي.

إن الجماعات الشيعية التي كانت تفضل، نظراً للظروف المذهبية والسياسية السائدة قبلا، أن تحتمل شظف الحياة في جرود جبلية شحيحة الموارد والمياه والأراضي الصالحة للزراعة، وتكتفي بالقليل مما تجنيه من تربية الماعز وسائر أنواع الماشيةالقابلة للتكاثر في هذه الجبال الجرداء، تشجعت للنزول إلى السهول الخصبة بعد أن زالت أسباب الخشية والخوف من تسلط الحكام وضرائبهم واضطهاداتهم التي كان الشيعة هدفاً دائماً لها. ومنحهم وجود شيعة على رأس الحكم في هذه السهول، أماناً واطمئناناً على سلامتهم ومصيرهم، فتقاطروا مع الزمن من جرودهم إلى سفوحها وإلى أعماق السهل حيث مصادر العيش أيسر منالاً وأكثر تعدداً، فتكاثر بينهم الفلاحون والحرفيون والتجار.

وقد يكون الحرافشة أنفسهم، على ما يظن البعض، من الذين كانوا يقيمون في

هذه الجبال وفي جهات «عسال الورد» بالتحديد ثم انتقلوا إلى بعلبك ليصبحوا حكامها[1].

زار المدينة سائح فرنسي في منتصف القرن السابع عشر، ودخل عدداً من بيوتها وترك لنا انطباعته حولها، فإذا هي مدينة كبيرة «تبدو منازلها في حالة جيدة جداً رغم قدمها. ويظهر أنها شيدت بعناية وذوق ومن أناس يحبون الهندسة، ويعرفون الجمال. وأعجب بموقعها وتوزيعها وتزيينها وما تؤمنه من راحة، حيث يبدو الذوق الروماني جلياً. ولاحظ أن سكاناً مسيحيين لاتين يملكون عدة كنائس ومطراناً. وهناك أيضاً مسلمون، بعضهم يفلحون الأراضي المجاورة، وآخرون وهم الأكثرية يعملون في نسج الأقمشة القطنية لتصديرها إلى طرابلس ودمشق.

إنهم في حالة جيدة توفر لهم أعمالهم وتجارتهم حياة مريحة، وربما كانوا أحسن حالاً لو أن تعرضهم لطغيان والي دمشق كان اقل حدة، عندما كانت مراكز الولايات في المدن الكبرى كدمشق وطرابلس تزخر بالتعصب الطائفي والمذهبي الذي غالباً ما يترجم تدابير تحد من حرية الناس في معتقدهم وتصرفاتهم»[2].

كانت بعلبك في هذا التاريخ مدينة لبنانية نموذجية، يعيش فيها بأمان وتفاهم معظم الطوائف الموجودة في لبنان إلى جانب الشيعة طائفة الأمير. هناك السنة والروم والموارنة والسريان[3] واليهود، ولكل طائفة مسجدها أو كنيستها. حتى اليهود، لهم كنيسهم، ويدير شؤونهم المدنية أسقف يحسن اللغات الأجنبية ويرعى مصالح أبرشيته حتى الحاخام يمتلك مكتبة عامرة ويرعى الجالية اليهودية دون تدخل من الحاكم الذي يبدو تسامحه الديني[4] وأفكاره العصرية نادرة في مثل زمانه.

إن غالب مرافق المدينة الأساسية موجودة في بعلبك، من السوق إلى دور العبادة إلى

---

(1) التأسيس لتاريخ الشيعة، الشيخ جعفر المهاجر ص 113. وقيل أنهم اقاموا أولاً في دمشق بعد هجرتهم من مناطق تقع إلى الغرب من نهر الفرات (راجع الحرافشة).

(2) Memoires L. P'Arvieux p.174.

(3) بقي السريان في بعلبك وبعض قراها حتى القرن الثامن عشر، ويظهر ذلك من سجل قديم اشتمل على جريدة أوقاف دير مار موسى الحبشي بجوار النبك فإنه عدّد عقارات حبسها السريان على رهبان هذا الدير في قرى بشوات ونيحا والفاكهة ورأس بعلبك والعين وغيرها. (أصدق ما كان عن تاريخ لبنان، فيليب دي طرازي ج 1 ص 48).

(4) La Roque p 32 _ 34. (وقد سمح لضيوفه النصارى بشرب الخمر دون أن يشاركهم)

المقهى إلى قصر الإمارة، الذي يضاهي فخامة ورفاهية قصور الباشوات العثمانيين. وأبرز مافيها المدارس التي تستقطب الطلاب والمعلمين من داخل وخارج الإمارة. ويسكن المدينة من ستة إلى سبعة آلاف نسمة، يعيشون في بيوت بعضها حديث وأكثرها حسن الترتيب والذوق والهندسة، في حالة من البحبوحة والإكتفاء، يعملون في الصناعة والتجارة والزراعة، رفعت عنهم، بسعي الامراء، كارثة الجندية الإجبارية[1]، وماكانت تسبب من مآسٍ ومحن إلى أن ابتلوا بها مجدداً بعد سقوط الإمارة[2].

إلى جانب الصناعة والتجارة التي أجادها البعلبكيون، كان سهل البقاع الواسع الممتد من رأس بعلبك في الشمال، حتى مشغرة في الجنوب، أكثر مناطق سوريا ازدهاراً. وقد سهل الأمراء لسكانه زراعته والعناية به، وتصدير منتوجاته إلى دمشق وطرابلس وسائر المدن، حتى أن مصنوعات بعلبك من القماش ومنتوجاتها الأخرى قد وجدت لها سوقاً رائجة في أوروبا نفسها[3].

عاد سهل البقاع مرة أخرى منتجاً رئيسياً للغذاء، فانتشرت البساتين في القرى وعمت زراعة الأشجار المثمرة. وكان القمح الذي يرسله الأمير إلى اسطنبول يقوم مقام الضرائب المفروضة على سكانه. كل ذلك جعل الناس في اكتفاء ذاتي وزاد من ثروة الأمير إلى حد بالغ. كان الأمير يونس يملك ألف فدان من الأرض وآلافاً من أعداد الماشية من كل نوع[4] وأن عدد الخيول التي يملكها أحد الأمراء، والتي شاهدها الرحالة دولاروك بنفسه، تجعلنا لا نصدق الرقم الذي ذكره الرحالة الذي عاينها ونرجح أن في الأمر خطأ أو مبالغة ولكن العدد كان كبيراً جداً إلى درجة تثير الشك بواقعيته ويدفع الرحالة المدقق إلى الوقوع في سوء تقدير[5].

روى الصفدي أن غلال بني الحرفوش التي نقلها فخر الدين من قب الياس وحدها بلغ حداً يفوق الحصر[6].

انتشرت حصون الأمراء ومراكز حكمهم في كل ارجاء البقاع، في مشغرة وقب

(1) مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا، دومينيك شوفالييه ص 471.
(2) راجع ثورة الحرافشة بسبب الجندية في نفس المصدر السابق.
(3) تاريخ بعلبك، نصر الله، ص 266.
(4) تاريخ الصفدي، ص 134-147.
(5) La RoQue p. 32 (يتكلم عن عدة آلاف من الخيل)
(6) تاريخ الصفدي، ص 134.

الياس وكرك نوح وسرعين واللبوة ورأس بعلبك، وقاموا بأعمال عمرانية واسعة من بناء المساجد والحصون والقلاع، واستطاع الحرافشة بفضل أموالهم وسيوفهم صون إمارتهم من الوقوع تحت يد السلطة العثمانية وسلطتها المباشرة. إلا أن ذلك كان باهظ الكلفة وغالي الثمن، فاضطروا إلى بذل الأموال الطائلة[1]، وخاضوا صراعاً حربياً هو من أهم ما يتوقف عنده في تاريخ بعلبك، وإذا لم يلق الحرافشة عائلة أخرى تنافسهم، فقد كان الصراع بينهم مستمراً أيضاً ومكلفاً ودامياً.



سهل البقاع في القرن الثامن عشر

(1) كان الحرافشة مدينون بأموال كثيرة للتجار نتيجة لذلك، راجع مجتمع جبل لبنان، شوفالييه ص174.

الفصل الثالث

جبل لبنان

دخل جبل لبنان منذ القدم في التراث الصوفي الإسلامي[1] كمكان مقدس يقصده الزهاد والصالحون والمتعبدون لينقطعوا عن الدنيا ورغباتها، في الكهوف والمغاور، يقتاتون من ثماره المباحة و يرتوون من مياهه العذبة. فصار رمزاً للطهر والنورانية، بإقامة الأبدال في ربوعه فإذا مات أحدهم يقوم بدله زاهد آخر له نفس رتبته ودرجة نسكه وتصوفه، لا يزيد عددهم عن السبعين ولا ينقص.

قال الثعالبي:

«أبدال اللكام يضرب بهم المثل في الزهد والعبادة ورفض الدنيا. وهم الزهاد والعباد الذين وردت في حقهم الآثار، لا يزيدون عن السبعين ولا ينقصون عنها كلما توفي واحد منهم قام بدل عنه، يقعد مكانه وينوب منابه. لا يسكنون مكاناً من أرض الله تعالى إلا جبل اللكام حيث يسمى لبنان»[2].

---

(1) اعتبر جبل لبنان في التقاليد الإسلامية مكاناً مقدساً تحيط به مسحة الهيبة تميزه عن باقي الأمكنة، حتى توارد اسمه في أحاديث نبوية وتفسير آيات قرآنية. فقال الطبري عن ابن عباس: «إن آدم بنى البيت الحرام من أربعة جبال منها جبل لبنان. وفي رواية عن ابن عباس أيضاً أن البيت الحرام بمكة أسس على خمسة أحجار منها حجر من لبنان. وفي حديث شريف آخر أن لبنان جبل من جبال الجنة. وفي كتاب البلدان للهمداني: بنيت الكعبة من خمسة أجبل أحدها لبنان، فهو عصمة الأنبياء وموضع مناجاتهم ومحل كراماتهم من موسى صاحب جبل لبنان إلى هارون ويوشع بن نون وهو مبدأ سفينة نوح (ابن خرداذبة). وقيل في تفسير الآية الكريمة ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ (سورة الحاقة الآية 17) إن جبل لبنان هو أحد الجبال حملة العرش يوم القيامة، وأن نوح بنى سفينته من خشب لبنان.

(2) لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الاخشيدية، عمر تدمري ص 167.



خريطة جبل لبنان وكسروان من القرن الثامن عشر

وقال الشاعر:

وجاور جبال الشام لبنان إنها معادن أبدال إلى منتهى العرج

كما تغنى به شعراً ابن الفارض وبهاء الدين العاملي وغيرهم من شعراء المتصوفة.

قال ابن شداد:

«لبنان هو جبل معمور بالأبدال والسياح المنقطعين إلى الله تعالى عن الخلق، لما فيه من الأشجار والأنهار، وفيه سائر الحشائش ومنها يرتزق الصالحون. وهناك التفاح الذي لا يعدل به وهو مثلوج أبداً.

وهو جبل بالشام معروف بالزهاد والمنقطعين إلى الله. به أنواع الفواكه والزروع، من غير أن يزرعها أحد يأوي إليه الأبدال لا يخلو عنهم أبداً لما فيه من القوت الحلال.

وقال البشاري:

إن فيه عباداً عند عيون ضعيفة، قد بنوا أخصاصاً من القصب والحلفاء، ويتقوتون بشيء يقال له البلوط على مقدار الثمر عليه قشر وهو مر إلا أنهم يلقونه في الماء حتى يحلو. ثم إذا جف طحنوه وخبزوه وأخلطوا عليه شيئاً من شعير ينبت عندهم مباح، ورأيت رئيسهم أبا اسحاق البلوطي[1].

وقال عنه فون سوخم السائح الألماني الذي حج إلى البلاد المقدسة سنة 1340م **«إنه جبل مليء بأروع الأشجار والفاكهة والأعشاب التي يمكن أن يتصورها العقل»[2].**

لا بد أن نستنتج من هذه النصوص وغيرها، من التي تحمل نفس المعنى والمدلول، أن جبل لبنان كان خالياً من أية كثافة سكانية، مما جعله مقصداً للذين ينشدون الوحدة والإبتعاد عن كل مظاهر المدنية والعمران. وأن ثماره مباحة، وأن ما فيه من أسباب العيش، يقتصر على ما تجود به الطبيعة دون تدخل من الإنسان لأنه لا زال بكراً أو شبه بكر، لم يعرف التجمعات البشرية التي لا بد أن تغير من ملامح الحياة فيه. ويبدو أن هذا الجبل، قد احتفظ بقدسيته لقرون عديدة حيث كان لا يزال يعيش فيه المريدون

(1) احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم أبو عبد الله المقدسي المعروف بالبشاري ص 189 ويقول هذا الجغرافي أن جبل لبنان من الجبال الشريفة.

(2) مختصر تاريخ لبنان، حتي ص 157.

المنقطعون إلى الله، حتى أواخر القرن الثاني عشر، عندما مر به الرحالة ابن جبير، فوجده من أخصب جبال الدنيا، فيه أنواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة، وقلما يخلو من التبتل والزهادة، وقد أثنى على النصارى المجاورين له لحسن معاملتهم للمنقطعين به من المسلمين[1]. ومر به ابن بطوطة في منتصف القرن الرابع عشر،[2] فوجده كسلفه، لا يخلو من المنقطعين إلى الله والزهاد والصالحين، وهو شهير بذلك. وقابل جماعة منهم رووا له ما يدل على أن صوفية جبل لبنان وقدسيته ونورانيته كانت لا تزال شائعة ومتواترة حتى ذلك التاريخ. وهذا ما يؤكد أن هذا الجبل كان حتى منتصف القرن الرابع عشر على الأقل يشتهر بالصفات الاتية:

1. هو مكان مبارك ومقدس يكثر فيه النساك والزهاد والمتعبدون.

2 . مياهه وفيرة وزروعه كثيرة ومباحة.

3 . هو أرض بكر يخلو من التجمعات السكانية والمدن والقرى. يعيش سكانه القلائل في الكهوف والمغاور. ويقول لامانس أنه مما لا يختلف فيه اثنان أن جبل لبنان كان في العصور الغابرة قليل السكان[3]. وربما لعبت هذه الميزات الثلاثة دوراً مهماً في جذب الوافدين إليه، الذين تكاثروا بعد هذا التاريخ، فكانوا مجموعات شتى من مختلف المناطق والأعراق والطوائف.

والأرجح أن سكانه القلائل كانوا من العشائر العربية التي توطنت فيه قبل الإسلام ثم دخلت كسائر جيرانها في الدين الجديد[4]. فعاش في ربوعه المسلمون والنصارى في ود وصفاء وتعاون كما لاحظ ابن جبير.

(1) رحلة ابن جبير ص 259 - 260.
(2) رحلة ابن بطوطة، درويش الجويدي ص 97
(3) تسريح الابصار لامانس ج2 ص 24.
(4) بيت بمنازل كثيرة، الصليبي، ص 156.

كسروان

لم يكن لكسروان مدلول جغرافي ثابت عبر العصور. فهي تشمل تاريخياً المنطقة الواقعة بين مدينتي بيروت وجبيل، وحدودها الطبيعية من نهر بيروت حتى نهر ابراهيم وتمتد شرقاً إلى قمم الجبال المواجهة لسهل البقاع.

وقد ضاق نطاقها في القرن السابع عشر، بعد أن فصل عنها القاطع في الجنوب والفتوح في الشمال، فاقتصر مداها على ما بين نهر الكلب وجسر المعاملتين[1].

وضعت بعض المرويات اللبنانية تاريخاً وهمياً موغلاً في القدم لكسروان أخرجت منها آلاف المقاتلين الموارنة كما أسقطت منهم آلاف الشهداء، في وقت من المشكوك فيه أن مارونياً واحداً عاش فيها. كما نسبت اسمها إلى أمير ربما لم يوجد قط اسمه كسرى[2].

ولما كان من المألوف أن يطلق على بعض جبال لبنان وامتداداتها الطبيعية في جبل اللكام أسماء المذهب الغالب على سكانها، مثل جبل الدروز وجبل الظنيين وجبال العلويين ووادي النصارى، فإننا نرجح أن اسم إحدى الفرق الصوفيه الاشراقية من الشيعة تعرف بالخسروانيين أطلق على هذا الجبل[3] في أواخر العصر الفاطمي. وهو العصر الذي كثرت فيه الرافضة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال بثغور الشام[4] فقيل جبل الخسروانيين ثم أبدلت الخاء كافاً مع السنين تخفيفاً واستحساناً لابتعاد اللفظ عن «الخسارة»، فقيل جبل الكسروانين أو جبل كسروان[5].

والخسروانيون[6] فرقة صوفية من الشيعة، ذكرهم الفلاسفة من السهروردي حتى

(1) أخبار الاعيان، طنوس الشدياق، ج1 ص 21.

(2) الشدياق ص 24 الجزء الأول. وقد حفلت تواريخ الموارنة بأخبار من هذا النوع الخرافي. ومنها أن أمير الجبل أرسل إلى الملك الفرنسي لويس التاسع 25 ألفاً من الجنود الموارنة للقتال إلى جانبه في القرن الثالث عشر. مع أن مجموع عدد النصارى في كل أنحاء لبنان لم يصل إلى أكثر من 18 ألف نسمة بكثير.

(3) الحقائق الراهنة في المابة الثامنة ،آغا بزرك الطهراني ص 192.

(4) أبو شامة . أورده حسن الامين في د.م.إ. ش. ج3.

(5) الحقائق الراهنة في المابة الثامنة، آغا بزرك الطهراني ص 192.

(6) في أفغانستان وخاصة في بدخشان، يوجد فرقة من الشيعة الاسماعيلية (وهو مذهب الفاطميين) عدد أفرادها ما يقارب المئة والخمسين الفاً ويسمون الخسرويين نسبة إلى الفيلسوف ناصر خسرو (معجم الفرق الاسلامية) عارف تامر ص 123.

البزواري[1] ولا يزال لها حتى اليوم أتباع ومريدون حملت اسم مؤسسها العالم الرحالة ناصر خسرو الذي لا يزال قبره مزاراً يؤمه أتباع بعض المذاهب الشيعية في الصين وآسيا الوسطى والهند والافغان حتى الآن[2].

كانت كسروان على امتداد قرون عديدة، الخزان البشري الشيعي الذي يرفد سائر المناطق اللبنانية، ولأسباب مختلفة، بمجموعات لم تنقطع من السكان الذين هاجروا منها تحت ضغوط اقتصادية حيناً وسياسية أكثر الأحيان، أو رغبة في الانضمام إلى آخرين نزحوا في وقت سابق واستقروا في مكان آخر، أمّن، لهم من سبل العيش والامن، ما كانوا ينشدون.

وكانت هذه الهجرات تتوالى نحو مختلف الجهات، إلى جبيل والبترون شمالاً، أو جبل عامل جنوباً، أو، وعلى الأخص إلى منحدرات الجبال المقابلة والسهول الواقعة في سفوحها شرقا، حتى أصبح من المسلم به اليوم، أن نجد نسبة كبيرة من شيعة لبنان يرجعون بأصولهم وانتسابهم إلى كسروان، ويشيرون إلى القرية التي أتوا منها ويذكرون التاريخ الذي غادروا فيه. ومن المعروف أن كثيراً من القرى الواقعة في سفوح جبال لبنان الغربية، المتاخمة لسهل البقاع، قد هاجر أغلب سكانها من كسروان، وبعضهم لا يزال لهم فيها أقارب أو ذكريات تناقلوها عن أسلافهم.

إن كثيراً من الدلائل تشير إلى أن الوجود الشيعي كان كثيفاً في كسروان عند تعرضها لهجوم الحملات المملوكية في مستهل القرن الرابع عشر، يؤكد ذلك عدد الجنود الذين شاركوا في الهجوم سنة 1305م وكذلك مستوى عديده وقيادته ومن رافقه وما أعقبه من اهتمام وأثاره من تساؤلات.

---

(1) توفي السهروردي سنة 1191م والبزواري 1864م.

(2) ناصر خسرو شاعر وفقيه وفيلسوف شغل مناصب رفيعة في الدولتين الغزنوية والسلجوقية ثم ارتقى في مراتب الدعوة الفاطمية حتى بلغ مرتبة الحجة وصار احد الاثني عشر حجة المعينين من قبل الخليفة الامام الذي منحه لقب «أفضل الرجال». جال في بلاد كثيرة بما فيها كسروان لمدة سبع سنوات ثم عاد إلى بلاده داعياً للدعاة ـ في خراسان (444 هـ ـ 1502م) وبعدها اشتهر بمذهب خاص من المذاهب الشيعية يقدم جعفر وسلمان والمقداد وأبا ذر على غيرهم من الصحابة ـ وهم المقدمون عند الشيعة الامامية، واطلق على نفسه لقب ملك حين كان معتصماً في «بمكان» يدعو إلى مذهبه ويصنف الكتب والرسائل. تعمق في اليهودية والنصرانية والهندية والمجوسية وكان من أهم شعراء الفارسية وأغزرهم نظماً، يحسن عدة لغات بما فيها السنسكريتية (سفرنامة المقدمة. والتأسيس لتاريخ الشيعة جعفر المهاجر ص 130).

يتفق أكثر المؤرخين على أن هذا الجيش لم يكن يقل عن خمسين ألف جندي. ويذكر المقريزي أن رماة المدافعين وحدهم كانوا اثني عشر الفاً. كما أن وفرة المصادرات وضخامة الغرامات التي نتجت عن هذه الحرب تدلنا في غياب أرقام يركن إليها عند المؤرخين، في هذه الفترة، عن حجم المستهدفين وأعدادهم الكثيفة.

مهما بلغ عدد القتلى والهاربين نتيجة هذه الحرب، فلا بد أن بعض السكان، ولو كان عددهم متواضعاً، قد تمكنوا من النجاة من المذبحة والاختفاء عن أعين المطاردين، خصوصاً وأن طبيعة الارض وتنوع شعابها، تساعد على ذلك مهما كانت التدابير العسكرية المعادية دقيقة وقاسية. ولا بد أيضاً أن أعداداً من الهاربين قد عادت بعد انسحاب الجيوش، وزوال الخطر. وهذا ما يفسر الوجود الشيعي المستمر في هذه الانحاء، وإن كان من الصعب معرفة مدى أو تعداد الذين تمكنوا من البقاء، أو عادوا بعد هدوء العاصفة. إلا أنه قد يكون من المؤكد أن الشيعة استمروا يشكلون الفئة الغالبة من سكان كسروان عندما دخلت، كما دخل لبنان كله، في ظل السلطة العثمانية.

لم يعد الوجود الشيعي الغالب في كسروان موضوع خلاف أو تساؤل كما كان سابقاً ولوقت طويل، بعد ظهور الدراسات الحديثة وخصوصاً تلك التي اعتمدت على السجلات العثمانية الرسمية - الدفترخانة. وهي التي تميزت بصحتها ودقتها. ويظهر من خلالها أن هذه المنطقة كانت عند الفتح العثماني وبقيت إلى عهد متأخر، منطقة ذات أكثرية شيعية يقتصر سكان قراها الخمس الكبرى على الشيعة، وهي القليعات وفيترون وحراجل وبقعاتا ومجدل بني حابس، بينما يشاركون أقليات من النصارى والسنة والدروز في قرى أخرى، باعتبار أن قسماً أساسياً من المتن كان يعد من ضمنها في هذا التاريخ[1].

بقي الطابع الشيعي هو الغالب على كسروان بعد الفتح العثماني. وكان يقيم فيها أقلية من بعض الأسر التركمانية، كذلك كان هناك جاليات متفرقة من الروم الملكيين واليعاقبة وبعض السنة. أما الموارنة **فلم يكونوا قد اجتازوا نهر ابراهيم حتى ذلك الوقت. فلا يوجد بين أديرة كسروان العديدة دير واحد يسبق عهده القرن السابع عشر. وليس هناك ذكر لرجل واحد ماروني أصله من كسروان قبل القرن السادس عشر. وإذا جاء ذكر الموارنة في تأليف الصليبيين فلا نراهم يذكرونهم إلا في البلاد الواقعة بين طرابلس وجبيل أما جنوبي نهر ابراهيم فلا نرى لهم فيه أثراً وكذا قل**

(1) نواحي لبنان، عصام خليفة، ص 155.

كسروان[1] في القرن السادس عشر





جسر المعاملتين في كسروان الفاصل بين ولاية طرابلس وولاية صيدا

(1) كان لا يزال أكثرية سكانها من الشيعة.

عن أديرتهم القديمة وكنائسهم فانها كلها في شمال نهر ابراهيم كما أن أصل قدماء بطاركتهم واساقفتهم من البلاد نفسها[1].

في الوقت الذي أسُس فيه دير مارشليطا سنة 1628م، وهو أول أديرة كسروان، كانت قمة المزار القائمة على قمة فوق قريتي كفر عقاب وعين القبو والتي أخذت اسمها من الشيعيين الذين سكنوا بجوارها، تشكل مقصداً للمتدينين من الشيعة من سائر أنحاء كسروان والمتن[2].

وعندما وصل أول مهاجر ماروني إلى حراجل، كان فيها ثلاثماية وسبعون بيتاً كلها من الشيعة. وكذلك ميروبا وفاريا وبسكنتا وبقعاتا والأذواق[3].

الكنيسة الأولى التي شيدت في كسروان، يوم كان يأبى تعصب المتاولة الأقوياء أن يكون للمسيحيين مكان عام يصلون فيه كما يقول القنصل هنري غيز Guys كانت في منزل القنصل الخازني الذي جعل من منزله الجبلي مصيفاً له وكنيسة للمؤمنين في آن معاً[4]. وإن كنا لا ندري، إذا كان الدافع إلى هذا القول هو نقل الواقع كما هو، أو محاولة ذكية لطلب المساعدات من القنصل الفرنسي. ولكنه يدل في الحالتين على عدم وجود كنيسة واحدة في كل كسروان حتى ذلك التاريخ. رغم أن تعصب المتاولة لم يقف يوماً حائلاً دون بناء كنائس وممارسة الشعائر الدينية، واستقدام رجال دين، بل كانوا يسمحون لهم بذلك ويساعدونهم على إتمامه.

في وقت مبكر من القرن السادس عشر 1505م كان حكام كسروان من بني حمادة، يشجعون هجرة الموارنة إليها ويستقدمون أعداداً متزايدة من الشمال للعمل في فلاحة الارض. لأن اهتمام الشيعة الدائم بالحرب، وتأمين حماية أنفسهم في وجه المماليك ثم

(1) البراهين الراهنة في أصل المردة والجراجمة والموارنة، المطران يوسف دريان ص 180 نقلاً عن مجلة المشرق 3 - 9 - 10.

(2) تاريخ بسكنتا وأسرها، الخورأسقف بطرس حبيقة. ص 304. ولا تزال اليوم كثير من الأمكنة تحمل أسماء سكانها السالفين من الشيعة مثل نبع جعفر وجورة مشيك وغابة شقير ومقيل جمعة، وجميعها في المتن. وهي أسماء عائلات معروفة حتى اليوم في بلاد بعلبك والهرمل تتناقل أخبار أصولها الجبلية الغابرة. فالمزار هو قبر الأولياء الشيعة اللذين كانوا في تلك الجهات ولم يكن حول بني المعلوف من الجيران سوى المتاولة في محلة المزار قرب بسكنتا وبقعاتة وكفرتيه وبقاع توته ومزرعة كفرذبيان.دواني القطوف، عيسى اسكندر المعلوف الجزء الاول، ص 224 - 226.

(3) رجوع النصارى زغيب ص 19.

(4) بيروت ولبنان هنري غيز ص 40 الجزء الثاني.

العثمانيين، منعتهم من التحول إلى مزارعين وما يتطلبه ذلك من أمان وسلام واستقرار.

تكاثر الموارنة في كسروان على مر السنين. بعضهم هاجر اليها للعمل وآخرون طلباً للحماية من جور السلطات أو اضطهادات أصحاب المذاهب النصرانيه الأخرى. وفي جميع الحالات كان طموح المهاجرين يتركز حول تحسين أوضاعهم الاقتصادية والأمنية، خصوصاً وأنهم وجدوا في رعاية حكامهم الشيعة حرية دينية مطلقة، فقاموا بممارسة طقوسهم وإنشاء أماكن للعبادة واستقدام كهنة للإشراف على كل ذلك.

«كان النصارى اللي في الضيعة تحت أمر المتاولة وشركائهم. كما صاروا خمس بيوت نصارى وديانتهم ما يتركوا فيها شيء قالوا المتاولة: ما بقينا نقدر نطلع منكن وصرتوا من أصحابنا وأنتن أحسن من غيركن عمرو كنيسي برّا الضيعة ولا تكون قريبي للعمار»[1]. وكان أول ماروني وطأت قدماه أرض القرية اسمه فارس شقير سنة 1664 م» وكان ترتيب أول رجل دين ماروني قدم إلى هذه الأنحاء هو العاشر من بين ثلاثين فرداً هم مجموع الفلاحين الموارنة المهاجرين حتى سنة 1701م[2].

إن هذه التعابير البسيطة التي نقلها خوري الرعية عن لسان متاولة إحدى القرى الكسروانية، تعبر بصدق وعفوية عن شعور الشيعة الكسروانيين نحو المهاجرين الموارنة القادمين للعيش بينهم. والتسامح الديني الذي قوبلوا به، والسماح لهم ببناء كنيسة يمارسون فيها شعائرهم وطقوسهم رغم قلة عددهم وقرب عهدهم بالعيش في هذه القرية الجبلية.

استمر التعايش بين الطائفتين في القرية الواحدة، دون أن يعكر صفوه حادث واحد أو مشاعر متوترة. حتى بدأ يزور القرية مراب خازني، غير مرحب به، نصب شراكه لبعض الفقراء من الفلاحين الشيعة لينتزع منهم أملاكهم المتواضعة عن طريق تسليفهم مبالغ تافهة والإستيلاء على ما يملكون عند عجزهم عن سداد الفوائد الباهظة. ولما فشل في تحقيق مآربه، وقوبل من زبائنه المفترضين بالتجاهل والصد والإهانة[3] عمد إلى استعداء عسكر الولاية في دمشق على أهالي القرية البسطاء، عن طريق الخداع والنميمة واستدرج الفريقين إلى مواجهة خلفت بيوت القرية على أثرها طعماً للنار، وسكانها ما بين

(1) رجوع النصارى، جرجس زغيب، ص 20.
(2) نفس المصدر ص 22.
(3) نفس المصدر ص 11.

قتيل ومشرد، لم يكتف أبو نوفل بما أوقعه والي دمشق من دمار وتشريد[1] بأهل القرية المسالمة، بل استطاع بالاسلوب نفسه أن يقنع الامير احمد المعني بالتدخل لصالحه، وخصوصاً بعد حوادث فاريا كفرذبيان في العام 1677م «**فأمسك الأمير بعضهم وأحاطهم بكل الأحزان وحرق بيوتهم وقص أملاكهم**»[2] ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ينجح فيها أبو نوفل بجر الامير المعني إلى مساعدته في مساعيه الدائبة إلى الاستيلاء على بعض الأملاك الشيعية المتواضعة عن طريق المكر والخديعة. ولم ينتبه الشيعة في القرى الكسروانية إلى ما يحيكه الشيخ الخازني لهم من مآسٍ إلا متأخرين حيث بدأت بذور الريبة والكره تظهر عندهم تجاه هذا المرابي ومن يلتف حوله[3].

«**إن كسروان ليست من المقاطعات التي أوى إليها الموارنة قبل القرن الخامس عشر. وإن تسأل من كان يسكن كسروان قبل هذا العهد، أجبنا أن معظم أهل هذه الناحية كانوا من المتاولة أو من النصيريين**»[4] هذا ما يقوله الأب لامانس، علماً أن الكثير من الوقائع تؤكد أن الهجرة المارونية لم تبدأ قبل منتصف القرن السادس عشر، وليس هناك دليل تاريخي يؤكد أن النصيريين قد سكنوا يوماً هذه المنطقة، وإن كان بعض الباحثين، ولا سيما المستشرقين منهم، قد توهموا أن كلمة الرافضة لا تعني الشيعة الإمامية حصراً بل قد تعني طوائف أخرى منها النصيرية، وهذا خطأ شائع وقع فيه الكثيرون من غير أهل الدراية والعلم في شؤون المذاهب الشيعية المختلفة. ومن هنا كان توهم وجود النصيريين أو غيرهم من المذاهب العلوية في كسروان أو أنحاء أخرى من جبل لبنان، في بعض الحقب التاريخية.

إن وثيقة تاريخية صادرة عن حاكم حمادي في كسروان هو محمد حمادة سنة 1552م[5]، تنقل لنا بوضوح السياسة الشيعية تجاه هجرة الموارنة إلى كسروان، التي كانت سائدة في هذا التاريخ، والحالة السياسية العامة التي كانت تحكم تحركات الأطراف حينئذ، وتلقي بعض الأضواء على العلاقات بين الشيعة والسلطة العثمانية الممثلة بوالي طرابلس.

(1) يروي الكاهن زغيب كيف أقنع أبو نوفل بعض سكان القرية بنصب كمين لعسكر الوالي ورافقهم إلى المكان الذي عينه ثم سافر إلى دمشق وأبلغ الوالي بأمر ما دبره على أنه من فعل السكان وحدهم. (راجع فصل خاص عن هذا الموضوع في باب التهجير).

(2) الايدلوجية المجتمعية، جان شرف، ص 329.

(3) م. س. ص 17. رجوع النصارى زغيب.

(4) تسريح الابصار، فيما يحتوي لبنان، من الاثار، الاب هنري لامانس، ج 2 ص 57.

(5) أرشيف بكركي جارور البطريرك عريضة وثيقة B1.

جاء في هذه الوثيقة[1]:

سبب تحريره

«إن المقدم النصراني يوسف سمعان الحصروني طلب منا كي يقعد في غبالة بالفتوح هو وعائلته وإخوته وطلبوا الأمان ونحنا من حيث خاطرنا مشروح على المقدم يوسف ونحنا ملزومين نوصي كل واحد من أولادنا وقرايينا يديرو بالن منو ومن قرايبو ولا يخلوا احد يتعدى عليهم من حيث المقدم، هرب من وجه حاكم طرابلس الكافر اللي قتل المتاولي والنصارى. والمقدم يوسف تطاول عليه وضربه وقت اللي كان يقتل المتاولي والنصاري. ومن وقتها تحطط عليه الحاكم حتى يقتله فجاب أخوته لعنا ونحن منحب هذا الرجل السجيع ومنعتازه وبينا وبينه صداقة قديمة. وكلمن يتعدى عليه وعلى جنسه ومن يخصه نحنا ضده. وكل بني حمادة وأنا حاكم هالبلاد اعطيتو الأمان وحلفتلوا إني ما بخونه أبدا. وطلب أن يكتب اسموا الحصري وصرنا نكتبلوا مثل ما طلب، وشرطنا عليه يساعدنا في الكتيبة. وهو يعمل حريتو في دينه ويجيب خوري متل ما بيريد وإذا جاب نصارى مقبولين وهو يصطفل فيهم واللي يخدم عنا من رجاله نعطيه بالسنة تلتماية باره وناخد منو بالعيد أربع ذبائح وسامحناه بميرة الرزق اللي بعناه إياه ولأجل راحة فكر المقدم كتبنا هذا في 15 رمضان سنة 960 هـ ـ 1552 م».

الشهود: طنوس البشعلاني النصراني، حسن تامر حمادة

كاتبه محمد أحمد حمادة.

إذا كان السكان الشيعة في كسروان قد استقبلوا الوافدين الموارنة بقبول وترحيب، فإن الحكام الشيعة من الحماديين قد ذهبوا أبعد من ذلك، في تشجيع المهاجرين الموارنة على القدوم إلى بلادهم، وتقديم كل المساعدة والحماية والضمانات والدعم، ما جعلهم يتكاثرون في وقت قصير نسبياً. حتى أصبحوا يشكلون قسماً مهماً من سكانه ويطمحون إلى الانفراد في العيش في ربوعه ودفع الآخرين إلى الابتعاد والهجرة.

إذا كان موقف السكان الشيعة قد أملته اعتبارات اقتصادية وإنسانية، فإن الحكام الحماديين قد انطلقوا، بالإضافة إلى ذلك من مشاعر تتجاوز التمايز المذهبي إلى إحساس ثابت وحماسي وعميق، بوحدة الهواجس وتلازم المصير وضرورة الاشتراك والتعاون في الوقوف صفاً واحداً، متآزراً أمام العدو العثماني الواحد، الذي تستهدف سطوته ومظالمه الجميع.

(1) الوثيقة B1.

وسبب تحريره
ان المقدم الطرابلسي يوسف سمعان الحصروني طلب مناكي يتحصن في غالب بالشوح
هو وعائلته واتبعه وطلبوا الامان ونحنا منهم حيث خاطرنا بشرح وضع المقدم
يوسف ونحنا ملتزمين تدعي كل واحد منهم [illegible] ترابينا [illegible] بان منع
ومنهم ترابعه ولا حد احد يتعدى عليهم منهم حيث المقدم هرب منه وجه حاكم طرابلس
الكافر الذي قتل المشايخ والنصارى والمقدم يوسف تطاول عليه [illegible] الله
بان يقتل المشايخ والنصارى ومنهم [illegible] تطاول عليه الحاكم حتى يقتله [illegible] اخوته
[illegible] ونحنا نحب هذا الرجل [illegible] ومشايخه [illegible] [illegible] [illegible] ولكن يتوجه
علينا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كل بني حماده [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] ما [illegible] طلب ان يكتب اسعد الحصري وحرمنا تقبيل مثل ما
طلب وشرطنا عليه بما [illegible] في الكنيسة وهو يعمل حريته في دينه وحبيب [illegible]
[illegible] ما يريده واذا اجاب نصارى [illegible] وهو يعطل [illegible] والذي يتقدم عنا منه
[illegible] بالسنة [illegible] بارة [illegible] منه بالعيد اربع ذبايح [illegible] عيرة
[illegible] الذي يعطيه اياه ولا يحمل [illegible] ذلك المقدم كتبنا هذا الله اكبر .

كاتبه
محمد احمد حماده

١٥ رمضان سنة ٩٦٠ هـ ١٥٥٢ م

وسبب تحريره انا بعت الى [illegible] سمعان الحصروني المقدم الطرابلسي ورزق
في غالب منه الصحن وتنازل لهم [illegible] البيع الذي بالنهر ومنهم [illegible] الى [illegible]
[illegible] كل البيدر والحرش [illegible] [illegible] منه [illegible] الى [illegible]
ومن فوق لحد [illegible] ومن تحت لحد النهر ومن جوب [illegible] [illegible] القاطع
لحد [illegible] ومن جوب [illegible] فوق [illegible] ومن [illegible] القرانين [illegible]
واخذنا [illegible] خمس [illegible] ترتقا واربعة عشر باره [illegible] يوسف الطرابلسي
واتهم [illegible] مثل ما يريد يعمل [illegible] [illegible] في الصخر منه درجة [illegible]
[illegible] كل الحرش [illegible] والبيدر والبيارة [illegible] [illegible] مثل ما [illegible]
واخذنا [illegible] [illegible] [illegible] بالبيع [illegible] [illegible] ولا احد يقدر
يمانع [illegible] [illegible] ملكه وشهدنا علينا [illegible] والله اكبر .

١٥ رمضان سنة ٩٦٠

كاتبه
البايع [illegible]

شهود الحال
طنوس الشلفوني الطرابلسي حسن تامر [illegible] محمد احمد حماده

«من حيث المقدم النصراني هرب من وجه حاكم طرابلس الكافر اللي قتل المتاولي والنصارى».

«والمقدم يوسف تطاول عليه وضربه وقت اللي كان يقتل المتاولي والنصارى»

إن الكافر الوحيد في رأي الحاكم الحمادي هو حاكم طرابلس وخطره يهدد المتاولة والنصارى على حد سواء، وبما أن المقدم يوسف ضربه فصار من واجب الجميع مساعدته ومساندته وتقديم كل العون والحماية الممكنة له.

«كل بني حمادة وأنا حاكم هالبلاد اعطيتوا الأمان وحلفتلوا إن ما بخونه أبداً ونحنا ملزومين نوصي كل أولادنا وقرايبنا يديروا بالن منو ولا يخلو أحد يتعدى عليه».

وبما أن المقدم المذكور، تحدى الحاكم العثماني وتطاول عليه وضربه قبل أن يهرب بعائلته وإخوته إلى كسروان، يطلبون العيش بأمان مع الشيعة، فمن واجبنا أن نعطيه الأمان له ولرفاقه ولكل جنسه (يقصد النصارى) لأننا نحب هذا الرجل الشجاع الذي قام بعمل نبيل يفرض علينا أن نقف ضد كل من يعتدي عليه وعلى من يلوذ به وعلى كل النصارى (من جنسه).

أما من حيث حريته الدينية فهي مصونة بدون تحفظ. وله أن يستقدم كاهناً أو أكثر كما يشاء ويرغب، وأن يمارس الطقوس التي يريد، وله الحرية المطلقة في استقدام العدد الذي يرغب به من النصارى، ونحن نقبلهم دون التدخل في شؤونهم (يصطفل فيهم).

وينهي الحاكم الحمادي منشوره التاريخي بتقديم عرض عمل إلى كل نصراني يرغب في الحماية والأمان والعيش في دياره، بأن يخدم في حكومته لقاء راتب يبلغ ثلثماية بارة في العام، قبل أن يكتب صكاً بتمليك المقدم أرزاقاً في غبالة دون أن يكلفه بدفع ميرتها مكتفياً بتقدمة رمزية في مناسبة العيد.

لقاء كل هذه الضمانات والمنح والإعفاءات، يطلب الحاكم الحمادي خدمة واحدة من المقدم النصراني و(جنسه) تدل بوضوح، على تعطش هذا الحاكم إلى العلم. وأن حقيقة مقاصده وأهدافه، بالإضافة إلى مقاومة الوالي العثماني، وتقديم العون لكل من يقاومه هو أن ينشر التعليم بين جماعته لأنه يعلم أن النصارى في ذلك الوقت، كانوا لأسباب دينية وكنسية واجتماعية، يتمتعون بقسط متقدم من التعليم، الشيء الذي حرم منه قسم لا نعلم حجمه من جماعته وطائفته، فيشترط على المقدم مساعدته في الكتابة، ربما في ديوانه أو في تعليم بعض الأفراد من أبناء جنسه.

«تشرطنا عليه مساعدتنا في الكتيبة».

تبرز أهمية هذه الوثيقة التاريخية النادرة في الأمور الأساسية الآتية:

أولاً ـ تظهر شعور العداء عند الشيعة نحو السلطة العثمانية وواليها في طرابلس،

ومدى تحكم هذا الشعور في مشاعرهم وتصرفاتهم وسياساتهم، ويبدو أن له الاولوية المطلقة في تحديد مواقفهم أمام مختلف الامور.

ثانيا - تؤكد على أن الحماديين يحكمون مناطقهم، رغم إرادة الوالي في طرابلس ومن يعينه، دون الإلتفات إلى خلع التولية وفراماناتها التي قلما تغير من الأمر الواقع شيئاً كثيراً.

ثالثا - تثبت أن الشيعة، لم يقيموا وزناً كبيراً للتمايز الطائفي، فالكافر هو الوالي العثماني، الذي يقتل المتاولة والنصارى، وهو وحده العدو الذي يجب أن تنصرف جهود الطائفتين إلى مقاومته.

رابعا - يعرب الحاكم الحمادي عن إعجابه وتقديره وتقريظه للعمل الشجاع الذي أقدم عليه المقدم النصراني، ويعتبر أن الحماية والمساعدة التي يطلبها هي حق له، وواجب على الجميع، بسبب تحديه للوالي الكافر، وما يتعرض له من جراء ذلك من المطاردة والملاحقة.

خامسا - يتجلى التسامح الديني الكامل والمطلق في سماح الحاكم الشيعي للمقدم النصراني، باستقدام نصارى ورجال دين كما يشاء ويرغب. وإقامة المراسم والشعائر دون تدخل منه، وتشجيع النصارى على الهجرة إلى بلاده بتوفير فرص العمل لمن يريد منهم براتب سنوي عين مقداره وطبيعته.

سادسا - تبرز رغبة الحاكم وسياسته في تشجيع الهجرة النصرانية إلى بلاده، بتقديم الضمانات والمغريات والإعفاءات الضريبية لكل النصارى الوافدين. ويعلن عن مسامحته بميرة الرزق وهي زهيدة أصلاً، إذ حددها بخمسة بارات في العام والإكتفاء ممن يعمل عنده منهم بهدية رمزية بمناسبة العيد.

إن ترحيب الشيعة الكسروانين، حكاماً وسكاناً، بالمهاجرين الموارنة، أدى إلى زيادة أعداد الوافدين باطراد، ابتداء من النصف الثاني من القرن السادس عشر. وقد كان لا يزال في حلب وغيرها من المناطق والمدن السورية أعداد مهمة من الموارنة حتى القرن الثامن عشر[1].

فتكاثر الموارنة في كسروان واستقروا إلى جانب الشيعة في قرى مشتركة أو قرى مجاورة.[2] كما تعزز الوجود السني بأعداد جديدة، قصدت فيطرون وفقيع والقليعات وعرمون والجديدة وساحل علما وفتقا[3] وسواها. أما جونيه التي عرفت في فترة متأخرة وجوداً اسلامياً كثيفاً وناشطاً اقتضى أن يكون لمسجدها إماماً وخطيباً وأن

(1) الموارنة في التاريخ، متي موسى، ص 254.

(2) نواحي لبنان، عصام خليفة، ص 154.

(3) تاريخ الازمنة، الدويهي، ص 392.

يشتهر من أهلها علماء في الفقة والحديث[1] قبل أن يتكاثر فيها اليعاقبة بعد ذلك.

وفي هذه الفترة قصد النصارى كسروان الجنوبية، وسكنوا قرب الشيعة في كفر عقاب وكفرتيه، وقد بدا في حينه، أن في المكان متسعاً للجميع قبل أن تأخذ التطورات اللاحقة اتجاهاً آخر يسعى إلى إحلال طائفة مكان الأخرى، باستعمال مختلف الأساليب لتحقيق هذا الهدف، فانفجر الخلاف حول كسروان حروباً متواصلة فيها، وضعتها على طاولة المساومات والتجاذبات.

جبيل والبترون

عندما تكاثر الموارنة في جبة بشري، بدأوا امتدادهم التدريجي نحو الجنوب، في الوقت الذي كان المتاولة يقطنون في بعض نواحي لبنان الشمالية، كجهات البترون ونواحي المنيطرة والعاقورة[2].

عند انتشار الموارنة جنوباً نحو جبيل والبترون، كانت هذه المناطق آهلة بالشيعة الذين لا بد أنهم تكاثروا بعد نكبتهم في كسروان، وبعد نزوحهم القسري منها ومن الضنية بحكم القرب الجغرافي الذي يحتمه الجوار والصلات الناتجة عنه، سيما وأن جزين وجبل عامل وبعلبك والبقاع، وهي دار الهجرة الشيعية الأساسية، كانت من المناطق الواقعة تحت رقابة السلطة المملوكية ويقظتها، دفع حتماً بعض المهاجرين إلى تجنب الإستقرار فيها. كما كان من المرجح أن يختار بعض الهاربين ملجأ قريباً يسهل الوصول إليه والعودة منه بعد انقضاء العاصفة.

إلى جانب الشيعة والموارنة، كان يعيش في هذه المنطقة أعداد مهمة من السنة والروم. وإذا كان السنة كعادتهم يميلون إلى الإستيطان في المدن الساحلية، فإن الروم توزعوا على قرى عديدة كدوما والكفور وغرزوز وكفرشلمان وحدتون وبقسمايا[3].

وقد حاولت السلطة العثمانية، في مستهل عهدها، تولية حكام من السنة على المنطقتين، إلا أن هذه المحاولة لم تعمر طويلاً، بعد أن وضع الشيعة لها نهاية دموية[4]،

(1) لبنان، عمر تدمري م.م، ص 215 - 216.
(2) تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من آثار، الأب لامانس، ج2 ص 57.
(3) أصدق ما كان عن تاريخ لبنان، فيليب دو طرازي ج2 ص 54.
(4) تاريخ الازمنة، الدويهي ص 455.



جبيل



البترون

فاحتكروا الولاية عليها بعد ذلك حيث كان من المعتاد أن يتخذ الحاكم الشيعي الحمادي من قلعة جبيل قاعدة لحكمه.

عُرفت جبيل في الماضي أنها مركز علمي إسلامي يقصده الطلاب للدراسة، وحضور مجالس الحديث. وقد ذكر ياقوت خمسة أسماء شهيرة من العلماء المنسوبين إليها[1] كما ذكر غيره أكثر من هذا العدد. ومنهم أئمة مساجد ورجال فقه وشرع ودين[2].

وذكر ابن خرداذبه، أنها كانت قاعدة كورة في القرن التاسع الميلادي، مثل كورة طرابلس وكورة بيروت وكورة صيدا[3]، كما قال عنها «قدامة» إنها من سواحل جند دمشق والثغور التي تجتمع إليها المراكب من الشام ومصر للغزو[4].

ومن زوارها ناصر خسرو الذي لاحظ سورها الحصين الشاهق، وحولها النخيل وغيره من أشجار المناطق الحارة[5]. وقد ازدهرت أيام الصليبيين، وأصبحت مركز إقطاعية يحكمها أحد نبلائهم، إلا أن السلطان قلاوون استعادها بعد طرابلس وخربها وهدم سورها وقلعتها، حتى ساواها بالأرض. فكان مصيرها مشابهاً مصير لطرابلس وجارتها البترون التي وصفها المحبي «بأنها بليدة من طرابلس الشام خرج منها جماعة من العلماء وصل عدد منهم إلى حلب حيث تولوا القضاء والافتاء»[6].

في مستهل القرن السادس عشر وجد الرحالة الراهب فرنشيسكو سوريانو مدينة جبيل خربة ومقفرة مع أن لها مرسى حسن ومختص بأهل جنوى، على نوع ما، بينما كانت البترون مأهولة بعدد وافر من السكان وخصبة بالفواكه وغزيرة المياه[7]. ويبدو أن المدينتين لم تتغيرا كثيراً حتى أواخر القرن التالي، عندما مر بهما الرحالة دولاروك فوجد أن ميناء جبيل مدمر تقريباً، ويسكن البلد مسلمون لهم جامعان أو أكثر، وبعض الروم الذين ليس لهم إلا كنيسة واحدة[8]. وحينما توقف في البترون للمبيت فيها

(1) أبو سعيد الجبيلي ـ عبيد بن حيان الجبيلي ـ زيد بن القاسم السلمي الجبيلي. أبو قدامة الجبيلي ـ أسماعيل بن خضر بن حسان الجبيلي. معجم البلدان، المجلد الثاني، ص109.

(2) لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الاخشيدية، عمر التدمري، ص 214. سميت جرود مقاطعتي جبيل والبترون، بلاد المتاولة، بيروت ولبنان، القنصل غيز، ص 222.

(3) المسالك والممالك، أوردها التدمري في المرجع السابق، ص 77.

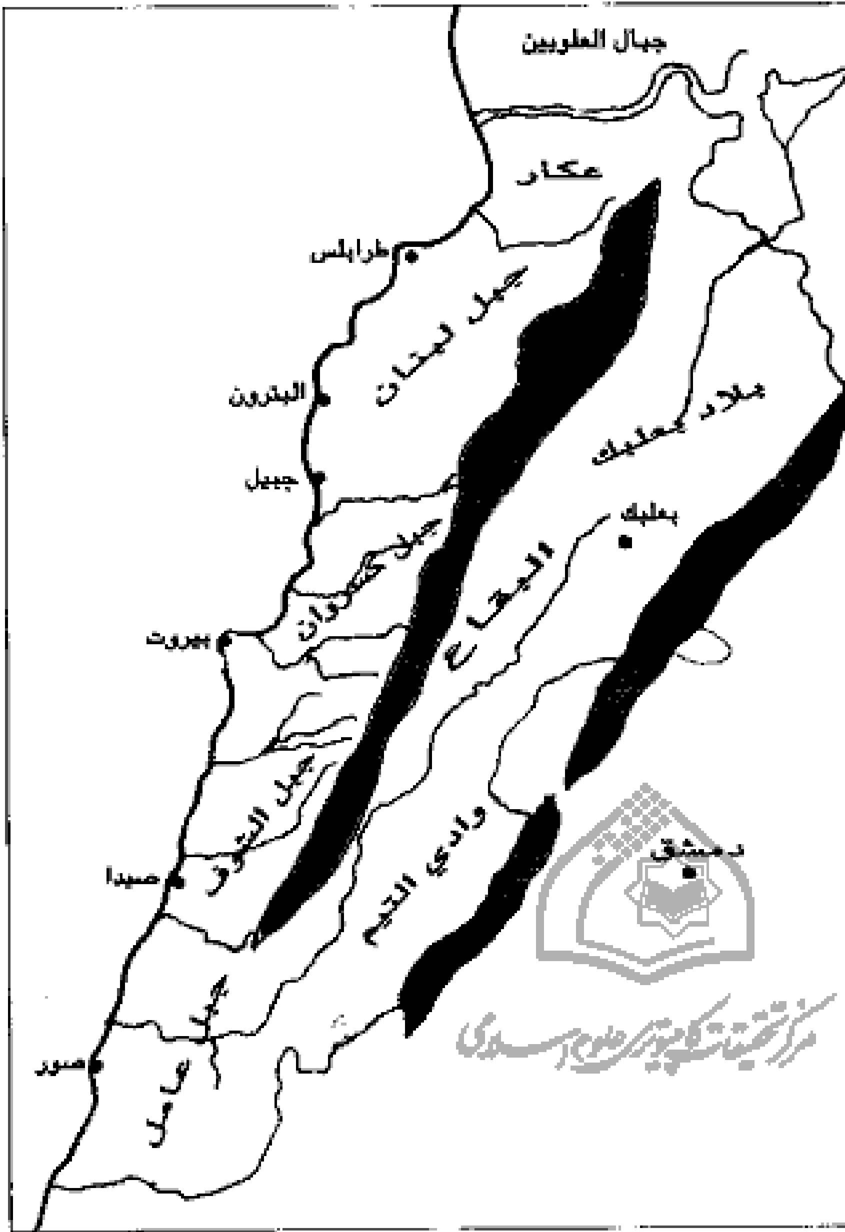
(4) الخراج وصناعة الكتابة، التدمري في المرجع السابق، ص 188.

(5) سفرنامة، ناصر خسرو، ص 48.

(6) خلاصة الاثر، المحبي، ج 3 ص 493.

(7) رحلة سوريانو الايطالي، ص212، ملحق كتاب بين الدروز والموارنة، جيرار دونرفال.

(8) de la roque p.16.



جبل لبنان وجواره

وجدها مدينة ساحلية مهدمة وشبه صحراوية، ولم يجد فيها غير ماروني واحد استضافه لقضاء الليل[1]. والثابت من الدفترنامه العثماني أن الوجود السني كان هو الغالب في المدينتين، بعد دخولهما تحت الحكم العثماني مباشرة، على عكس القرى والأرياف، حيث كان التعايش الشيعي النصراني قائماً في مختلف أرجاء الناحيتين.

كان الشيعة يعيشون في نحو ثلث قرى ناحية جبيل البالغة خمسة وأربعين قرية، بينما يتقاسمون مع النصارى قرى بجة وطورزيا وجاج. أما في البترون فيعيش الشيعة في اثنتي عشرة قرية، منها سبعٌ مختلطة مع النصارى، وهي إيليج وجربتا وحلتا وحورات وأسيا وشبطين وتولا، بينما يعيش السنة في عشر قرى ثمان منها مختلطة مع النصارى، وتتوزع المذاهب النصرانية على ثمانية وعشرين قرية أخرى.

(1) de la roque p.65.

أما في ناحية المنيطرة فقد كان الشيعة يشكلون الأكثرية من مجموع سكان الناحية في قراها الثماني، حيث يعيش الشيعة في خمسٍ منها، واحدة مختلطة، والنصارى في القرى الثلاث الباقية.

تؤكد هذه الإحصاءات الموثقة أن جبل لبنان كان متعدد الطوائف والمذاهب عند دخول العثمانيين. وإذا كان السنة هم غالبية سكان المدن الساحلية فإن الشيعة والنصارى، ومنهم الموارنة، كانوا يتقاسمون العيش في معظم قراه ومزارعه[1].

جبة بشري

إن طبيعة الطريق التي سلكها المهاجرون الموارنة الأوائل من ديارهم، حيث نشأوا في جهات حماة وشيزر وأفاميا، باتجاه جبل لبنان هي التي فرضت أن تكون جبة بشري قاعدة تجمع أساسية، ينطلقون منها إلى المناطق المجاورة في الجنوب. فكانت هذه المنطقة بالفعل مهد المارونية اللبنانية قبل انتشارها في سائر الأنحاء.

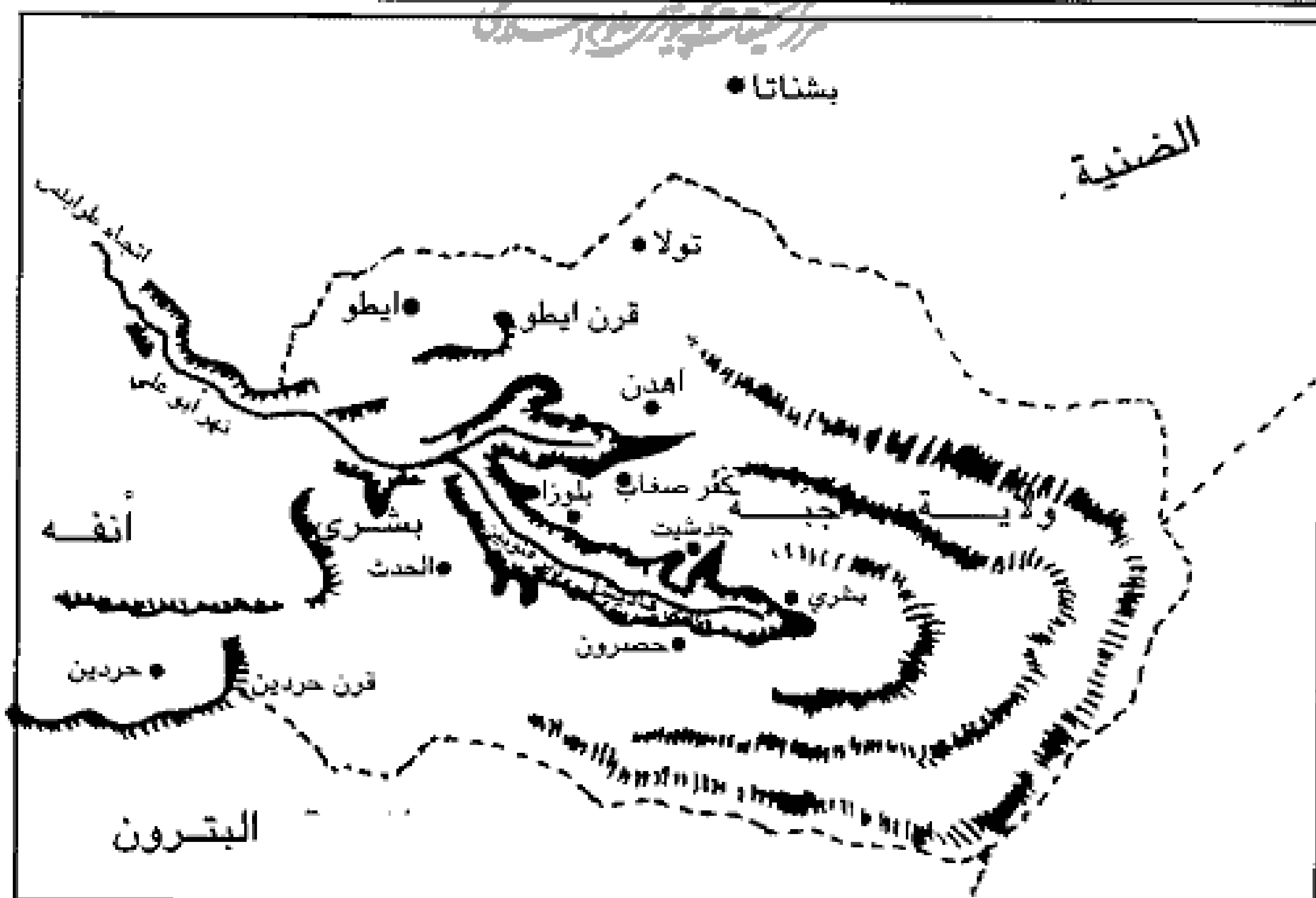
كانت جماعات المهاجرين تجتاز وادي العاصي الضيق صعوداً، باتجاه منبع النهر الذي يشكل حداً بين الشريط الخصب على ضفتيه، والأراضي المنبسطة شبه الصحراوية الممتدة وراءه إلى الشمال. فكان عليهم الاختيار بين الإستقرار في المرتفعات القريبة حيث يندر الوجود السكاني أو الإنعطاف إلى الغرب والصعود إلى القمم العالية نحو الجبال الغربية، حيث تقع جبة بشري، لأن المناطق الواقعة إلى شمال النبع، أو إلى الشرق منه، هي أراضٍ قاحلة لا تغري بالإستقرار فيها ولا يمكن اجتيازها إلا بشق النفس، على عكس السفوح الغربية التي تمر عبرها أنسب الطرق إلى بشري. فهي على الإجمال غزيرة المياه وافرة الأشجار، تكثر فيها فسحات منبسطة من الأرض، تصلح لمختلف أنواع الزراعة، مما يجعل منها مستقراً مناسباً لكل فلاح يبحث عن أرض صالحة للزراعة تؤمن له القوت والأمان.

إذا انطلقنا اليوم من نبع العاصي، وسرنا على نفس الطريق الذي سلكه المهاجرون الموارنة في القرون الغابرة، فلن نجد ثمة صعوبات كبيرة في اقتفاء آثارهم وتتبعها، على طول المسالك الجبلية التي تقود إلى الأودية والمنبسطات القريبة من غابة الأرز

(1) عن جداول نواحي لبنان، عصام خليفة.

جبّة بشري في عهد المماليك





طبيعة أراضي جبة بشري

حيث لا بد أن جماعات عديدة منهم قد استقرت مؤقتاً أو نهائياً في مزارع وقرى ودساكر، وأقامت أديرة وكنائس متواضعة، على طول هذا الطريق، بقيت قائمة إلى عهد قريب. وبعضها لا يزال يمكن الإهتداء إلى آثاره حتى اليوم. فعلى صخرة شاهقة تشرف مباشرة على نبع العاصي يقوم بناء عجيب، حفرته يد الإنسان في الصخر بطبقاته الثلاث، لا يزال الأهالي يشيرون إليه بإسم دير مار مارون، كما يطلقون على بقايا بناء مشابه آخر يقع تماماً في الجهة المقابلة المشرفة على الضفة الغربية للنهر اسم قصر البنات[1]. وفي قعر الوادي بين القصرين، يتدفق النهر من مغارة الراهب[2] وتملك الأراضي المحيطة بهذه المعالم حتى اليوم الرهبانية المارونية اللبنانية في دائرة واسعة خالية اليوم من كل وجود ماروني. وعلى بعد أميال قليلة إلى الغرب، تقوم بقايا كنيسة قديمة أثارت نواقيسها، التي كانت لا تزال تقرع إلى عهد قريب داعية المؤمنين إلى ممارسة طقوسهم المارونية، مشكلة إدارية معقدة بين متصرفية جبل لبنان وسلطات الولاية العثمانية[3].

وإذا تابعنا سيرنا باتجاه الجرود العالية، فسوف نمر بمزارع متناثرة يعيش فيها الموارنة والشيعة في بيوت متجاورة، ويتقاسمون ملكية الأراضي القريبة. وليس من المستغرب أن نصادف في طريقنا عائلات شيعية ما زالت تحمل أسماء القرى التي نزحت منها، والتي تقع في أي مكان من الجبة، حتى أطراف الكورة والزاوية الشيء الذي نلمسه واضحاً في احتفاظ بعض هذه القرى بأسماء تدل على أن سكانها السالفين كانوا بدورهم من الشيعة[4].

لذلك كان من الصعب تحديد المدى الجغرافي الذي تشمله مقاطعة جبة بشري[5] التابعة لولاية طرابلس في العهد العثماني، ولنيابتها أيام المماليك لعدم ثباته على حدود دقيقة في مختلف الحقب، وإن كان يدخل ضمن هذا التحديد على الدوام الجرود

(1) يدل اسمه أنه كان ديراً للرهبات.

(2) ينبع نهر العاصي من مغارة تحمل هذا الاسم.

(3) حصل خلاف حول هذه الكنيسة بين مدير حمص ومدير الهرمل اقتضى تعيين لجنة مشتركة بين الولاية والمتصرفية للبت فيه برئاسة ابراهيم الأسود. (راجع ذخائر لبنان الأسود).

(4) هذه القرى عديدة مثل زغرتا المتاولة وبيت زعيتر وهما اليوم في قضاء زغرتا.

(5) جاء في معجم البلدان لياقوت أن الجبة قرية من أعمال طرابلس الشام منها أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن بن أبي الفرج وكان تقياً صالحاً توفي بأصفهان في جمادى الآخرة سنة 605 هـ ويبدو من اسمه ومكان وفاته أن الغالب عليه التشيع.

المأهولة بكثافة شيعية ملحوظة اليوم، كما في الماضي البعيد، فليس من شك أن الطائفتين تعايشتا لفترة طويلة في قرى متجاورة أو مختلطة، وتشاركتا في مختلف النشاطات السياسية والإقتصادية وحتى المذهبية منذ ما قبل العهد العثماني وأثناءه، في الفترة التي اتسمت بصراع مذهبي حاد بين الموارنة وغيرهم من النصارى، والتي لم يكن من النادر فيها أن يكون الشيعة إلى جانب أحد الفريقين[1].

إذا كانت جبة بشري مهد الموارنة في لبنان فليس معنى ذلك أن هذه الطائفة قد وجدت قبل غيرها زمنياً في هذه البقعة. فالمعتقد أن طوائف نصرانية أخرى، كالروم واليعاقبة والسريان، عاشوا في أنحاء متفرقة من جبل لبنان، بما فيه جبة بشري في عهود قديمة، كما أن الوجود الإسلامي فيها كما في سائر أنحاء جبيل والبترون وجونية، وغيرها من المدن والقرى، يعود إلى القرون الأولى لظهور الاسلام. وقد ظهر في هذه النواحي الكثير من العلماء المسلمين البارزين في مختلف المجالات الدينية والعلمية. ومنذ ما قبل الفتح العثماني بدأ الحضور الشيعي البارز على مسرح الأحداث التاريخية يظهر في الجبة في مناسبات متعددة تدل على أهمية دورهم وأولويته السياسية والقيادية. هذا الدور الذي استمر بقوة في العهود اللاحقة حيث انحصرت الولاية والحكم فيها، كما في غيرها من مناطق جبل لبنان، بهم دون غيرهم من الطوائف الأخرى.

ونلاحظ في الدفتر نامة العثماني العائد لسنة 1516م وسنة 1517م وجود العديد من القرى الشيعية الصرفة، ولا سيما بين إهدن وزغرتا، التي لم تكن حينها أكثر من مزرعة صغيرة، وقرى أخرى مختلطة بين الطائفتين. كما نلاحظ بعض الاسماء التي تؤكد على عمق التعايش والتعامل الوثيق والتفاعل المتبادل بين الطائفتين مثل بطرس علي مرقص واسطفان علي حسن وهذا أمر له دلالته التاريخية البارزة خصوصاً وأنه لم يعد أمراً كثير الشيوع في هذه الأيام[2].

وقد أكد بعض الرحالة الأوروبيين وجود هذا التنوع الطائفي في قرى الجبة[3].

---

(1) كان الشيعة يناصرون الموارنة أحياناً واليعاقبة أحياناً أخرى.

(2) لبنان في أرشيف اسطمبول، عصام خليفة ص 91 ـ 92.

(3) Memoires L . p'Arvieux p.174.



بيروت



صيدا

الفصل الرابع

المدن الساحلية

بيروت وصيدا

على إثر الإحتلال الصليبي، وغارات المغول، دُمرت مدن الساحل اللبناني تدميراً يكاد أن يكون تاماً. فقد دام حصار طرابلس خمس سنوات، ثم دخلها الغزاة وملكوها بالسيف، ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها. ولما دخلها قلاوون سنة 1289م، هدم المدينة وأقام أخرى جديدة في مكان بعيد عن البحر، وكذلك أحدث الجنويون، وأهل بيزا، مذبحة رهيبة في سكان بيروت. ولم تكن صيدا أسعد حالاً فقد تداولتها أيدي المسلمين والصليبيين والمغول تسع مرات على الأقل، في مدة لا تتجاوز القرنين، انتهت بتدميرها بشكل كامل على يد الأشرف عام 1291م[1]. وبعد أن قال عنها الرحالة ناصر خسرو انه لم ير مثلها على وجه الأرض أصبحت عام 1321م في أيام أبي الفداء، مدينة صغيرة وفقيرة فيها قلعة مهدمة وكذلك صور التي أطنب الرحالة نفسه بوصف مياهها وثرائها من بين مدن ساحل الشام، لم يجد فيها ابن بطوطة إلا خراباً، وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض، وكان قد غادرها جميع أهلها، عند سقوطها، ولم يبق بها إلا صعلوك عاجز عن الحركة[2].

إن المحن والحروب والغارات والخوف من الغزو، حولت هذه المدن القوية والحصينة، إلى خرائب شبه مهجورة، أقرب إلى أن تكون قرى صغيرة مهملة تبكي عزها القديم ومجدها الغابر.

تناوب المتحاربون على هدم هذه المدن، وقتل سكانها وتهجيرهم، فلم يسلم من

---

(1) تاريخ لبنان، فيليب حتي ص 148.

(2) ابن بطوطة، ج1 ص 64.

سكانها القدامى أحد، فمن نجا من القتل والأسر، هرب إلى مناطق أخرى طلباً للسلامة، ولم يعد يهتم بأمرها أو بأمر العودة إليها بعد مرور السنين وتعاقب الأجيال.

ولما بدأت هذه المدن تستعيد القليل من عمرانها السابق في ظل سلطة المماليك القاسية، وتوافد لتعميرها جماعات جديدة، كان من الطبيعي في ظل ظروف سياسية قمعية ومعادية، أن لا يكون بينهم أحد من الشيعة. إن ما حصل للقرى والأرياف والجبال الواقعة إزاء هذه المدن، كان مختلفاً ومغايراً تماماً، لأن سيطرة الصليبيين عليها لم تستلزم خوض معارك كبيرة إنما كانت تخضع بدون دفاع تقريباً، كما يحصل عادة لمن يسيطر على المدينة الأقرب التي تشكل بحكم قواعد العمران، المركز السياسي والعسكري والإقتصادي، لما يقع في نطاقها من أرياف.

وبما أن الفاتحين الجدد القادمين من الغرب، ليسوا في غالبيتهم فلاحين ومزارعين ينشدون الإقامة والإستقرار، وإنما فرسان مقاتلون ونبلاء يسعون إلى الفتح والسلطة، يرافقهم بعض التجار، وهذه فئات من الناس تسكن عادة في المدن والموانىء، وقلما يهمها مايجري في القرى والجبال إلا باعتبارها مصادر إنتاج ودخل تفرض المصلحة بقاء سكانها في أرضهم واستقرارهم فيها لاستمرار دورة الإنتاج ودفع الضرائب المفروضة والمستجدة، وهي ضرائب ضخمة، يقول ابن جبير إنها تبلغ «**نصف الغلة، وعن كل رأس دينار وخمسة قراريط ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة**»[1] فبقي الريف في منأى عن التبدلات السكانية الكبيرة.

تميزت مدينة صور بمصير مختلف عن غيرها من المدن الساحلية اللبنانية، كطرابلس وبيروت وصيدا، فقد عمّرها ابن بشارة بعد خرابها الكامل إثر الحروب الصليبية(1284م)، وجعل لها أسواقاً ونقل إليها خلقاً من الناس، وحصنها ودافع عنها مع حلفائه بوجه الغارات البحرية التي بقي الفرنج يقومون بها إلى وقت متأخر، كما أعاد إعمارها أمير شيعي آخر، هو عباس المحمد النصار وجعلها مقراً لسكناه، فاستعادت سبيلها إلى العمران من جديد. أما باقي المدن اللبنانية الساحلية الثلاث التي دخلت بعد دحر الصليبيين تحت السلطة المباشرة للنائب المملوكي، فقد تجنب أهل الذمة كما فعل الشيعة، العودة إليها أو السكن فيها هرباً من الأوامر الرسمية والأعراف التي تفرض عليهم جملة تدابير استثنائية، جعلت من سكناهم في المدن، أو حتى

(1) رحلة ابن جبير ص 275.

زيارتهم لها، مجازفة محفوفة بالمخاطر وتستوجب التقيد بإجراءات معقدة ومهينة، فضل الذمي والشيعي معها البقاء بعيدين عنها والإقامة في الجبال والأرياف حيث يتمتعان بقدر أكبر من الحرية والامان.

«سنة 1363م نودي في البلد على أهل الذمة بإلزامهم بالصفار وتصغير العمائم. وأن لا يُستخدموا في شيء من الأعمال، وأن لا يركبوا الخيل ولا البغال، وأن يكون في رقابهم ورقاب نسائهم في الحمامات أجراس، وأن يكون أحد النعلين أسود مخالفاً للون الآخر».

أما الشيعة فلم يفرض المماليك عليهم أية عقوبات من هذا النوع، لأن العقوبة الشرعية للتشيع عندهم، هي القتل والتمثيل والتفنن في استنباط وسائل التعذيب والهلاك[1].

«في التاسع من شعبان سنة 941 هـ حرق القاضي شمس الدين محمد بن يوسف الدمشقي نائب ابن الشحنة بمصر وابن يونس بدمشق، شخصين تحت القلعة، بعد أن ربط رقبتيهما ويديهما ورجليهما في خوازيق، ثم ألقى عليهما القنب والبواري والحطب إلى أن صارا كوم رماد ثم ألقيا في نهر بردى لأنه ثبت عليهما أنهما رافضيان»[2].

إن هذه العقوبة الرهيبة التي يحكم بها على الشيعي، دون أن يرتكب جرماً، إنما بسبب انتمائه المذهبي، حتمت عليه إذا لم يشأ أن يترك مذهبه، أن يسكن في مكان بعيد لا تطاله فيه أيدي السطلة وأحكامها. وهذا مايفسر أن المدن المذكورة خلت من السكان الشيعة حتى عصرنا الحاضر، وإن عاشت فيها جاليات مسيحية، ولاسيما بعد اعتماد نظام الملة في الدولة العثمانية، وشمول الحماية القنصلية معظم النصارى. بينما كان الشيعة محرومين من كل حصانة فكان دمهم مهدورا، بحكم القانون، في كل وقت، ولم يبقَ لهم إذا شاءوا البقاء على اعتقادهم من حماية إلا اعتماد التقية.

و«التقية» لغةً هي الحذر وشرعاً هي إظهار خلاف الواقع في الأمور الدينية بقول أو فعل خوفاً وحذراً على النفس أو المال أو العرض، وهي جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة[3].

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير ج 14 ص 305 ونيابة طرابلس في عهد المماليك، الياس القطار، ص 286 ـ 287.

(2) أعلام الورى، ابن طولون ص 280.

(3) تعريف: التقية للسيد محسن الأمين، وقد دان بها الشيعة وطبقوها دون حرج أو إنكار، وتمسك بها الجعفريون. دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ج11 ص 85 وما يليها.

إن من شاء من الشيعة الإقامة في المدن أو الأماكن، التي لا يصعب على السلطات الوصول إليها ولم ينشد الحماية من القتل والاضطهاد في الإلتجاء إلى الجبال والأماكن التي يمكن أن تؤمن حماية طبيعية لسكانها، بسبب وعورة مسالكها أو صعوبة اجتيازها، سيجد حتماً في التقية الحماية الوحيدة المتيسرة له، بانتظار تغير الأحوال فيلجأ إليها، ويقوم بممارسة طقوسه المذهبية في الخفاء، وبممارسة طقوس المذهب الذي اختاره تقية وهو عادة مذهب الأكثرية[1] في العلن.

إن التقيّة وسيلة حماية عملية وناجحة، إذا اعتمدت في ظروف استثنائية آنية، ولمدة محدودة لا تسمح لمن يلجأ إليها، أن ينسى مذهبه الأصلي وطقوسه خلالها، فكلما طال الوقت وتغيرت الأجيال فترت معرفة المتقي بحقيقة مذهبه الأصلي وتأصل تعوده على ما يتظاهر به، حتى يغيب عنه في النهاية أنه ليس إلا وسيلة شرعية لدرء الأذى ويخال أن هذا هو مذهبه الوحيد.

من عادة الشيعة أن لا يتذكروا هذا المبدأ، إلا في الأيام الصعبة. ولا بد أنّ من مارس المذهب السني تقيّة، ولأجيال عدة، قد نسي مع مرور السنين أنه «وهو مذهب الحاكم» مارسه على سبيل التقية، فأخذ يحسب نفسه سنياً، وهذا مايفسر على الأرجح منشأ الجماعات السنية الموجودة حالياً في قرى البقاع الأوسط ووادي التيم وبعض قرى إقليم الخروب[2]. إلا أن تأثيره الكبير ظهر جلياً في اختفاء الوجود الشيعي تماماً بين سكان المدن الساحلية الكبيرة، بينما لا يزال حتى اليوم غالباً ومنتشراً في ضواحيها القريبة حيث السرية والتخفي أيسر منالاً عما هو داخل المدن نفسها: «**إن العوامل ذاتها التي أدت إلى انحسار التشيع عن المدن الكبيرة، دفعت بأعداد كبيرة من السنة إلى اختيارها للسكن كما استقدم المماليك عائلات كثيرة من التركمان، وأسكنوها في المدن والسواحل، بعد أن منحوها امتيازات سلطوية وعسكرية بحيث أنها شكلت جزءاً من النسيج الحاكم، كما أن عدداً من التجار القادمين من المغرب ومصر، أو بعض جزر المتوسط، بالإضافة إلى طبقة من أعوان الحاكم أو النائب، الطامعين بمنصب في بطانته أو ولايته، أو الخدمة في جنده، وهم عادة من نفس مذهبه وعرقه، سواء كان مملوكياً أو عثمانيا، فيما بعد حيث لايزال حتى اليوم الكثير من العائلات السنية في بيروت وصيدا وطرابلس تحمل أسماء تمت بصلة واضحة إلى أصولهم المتوسطية أو المهن التي مارسها أجدادهم في الإدارة الحاكمة**».

(1) أي المذهب الشافعي.
(2) تاريخ لبنان الحديث، كمال الصليبي ص 18.

لقد أخذ الشيعة يختفون من أكثر مدن الساحل اللبناني، لتحل محلهم جاليات سنية تركمانية، وفي مرحلة لاحقة جاليات مسيحية، خصوصاً من الروم الأورثوذكس، يسرت لها الحماية القنصلية امتيازات تجارية وقضائية واسعة، جعلت كل طائفة تلتف حول الدولة الأجنبية الحامية فأصبحت وكأنها من رعايا هذه الدولة مثلما هم السنة من رعاية الدولة الحاكمة.

إن هذا التغيير الديموغرافي الذي طاول الساحل اللبناني، وخصوصاً بيروت وصيدا، لم يمر دون مقاومة شيعية حاولت التصدي له وتعطيل مسيرته رغم جهود السياسة الرسمية التي توسلت القوة والقمع لتمريره وتأمين استمراره.

صدر عن والي دمشق في 25 جمادى الأخرة سنة 764هـ، الموافق20 نيسان 1363م، توقيع كريم يمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالها، من اعتقاد الرافضة والشيعة وردعهم والرجوع إلى السنة والجماعة، تحت طائلة القتل والاستئصال وتعميم العذاب واستباحة الدماء والأموال.

«وقد بلغنا أن جماعة من أهل بيروت وضواحيها وصيدا ونواحيها، وأعمالها المضافة إليها، وجهاتها المحسوبة عليها، ومزارع كل من الجهتين وضياعها، وأصقاعها وبقاعها، قد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه، وعملوا به وقرروه وبثوه في العامة ونشروه، وأخذوه ديناً يعتقدونه، وشرعاً يعتمدونه، وسلكوا منهاجه، وخاضوا لجاجه، وأصّلوه وفرّعوه وتدينوا به وشرعوه، وحصلوه وفضلوه وبلغوه إلى نفوس أتباعهم ووصلوه، وعظموا أحكامه (...) وأردنا أن نجهز طائفة من عسكر الإسلام، وفرقة من جند الإمام، تستأصل شأفة هذه العصبة الملحدة، وتطهر الأرض من رجس هذه المفسدة، ثم رأينا أن نقدم الإنذار، ونسبق إليهم بالأعذار، فكتبنا هذا الكتاب، ووجهنا هذا الخطاب، ليقرأ على كافتهم، ويبلغ إلى خاصتهم وعامتهم، يعلمهم أن هذه الأمور التي فعلوها، والمذاهب التي انتحلوها تبيح دماءهم وأموالهم وتقتضي تعميمهم بالعذاب واستئصالهم» (...)[1].

إن اقتصار هذا المنشور على أهل بيروت وضواحيها وصيدا ونواحيها، دون سائر الشيعة في جميع أنحاء السلطنة كلها، يؤكد على أن هناك وضعاً شيعياً خاصاً متحركاً وفاعلاً في هذه المناطق لم يتعداه إلى غيرها.

(1) صبح الاعشى، القلقشندي ج13 ص13.

ولم تكن المرة الأولى التي يتحرك فيها شيعة بيروت، وتضطر السلطات إلى التدخل لاحتواء الوضع، فقد سبق قبل عدة سنوات، سنة (1372م) أن قام الشيعة في بيروت، من الذين اعتمدوا التقية خوفاً من الحاكم، بحركة غامضة لم يتعرض لها صالح ابن يحي بتفصيل يوضح مداها وطبيعتها، بل ذكرها في مناسبة الحديث عن علاقة أبيه الأمير بالحاكم المملوكي:

«لما تحركت الشيعة ببيروت وأظهروا القيام بالسنة ومعهم مرسوم سلطاني وكانوا في الباطن قائمين بمذهب أهل الشيعة فجرى في بيروت بذلك حركة ردية»[1].

إن معرفة تفاصيل هذه الحركة الردية التي قام بها «شيعة الساحل المتسننين» من أهل بيروت[2] وكذلك معرفة أسباب صدور التوقيع الانذار الموجه إلى شيعة بيروت وضواحيها وصيدا ونواحيها، بالعذاب والاستئصال، هو سابق زمنياً للحقبة العثمانية التي نعرض لها أساساً. وإنما لابد من التأكيد، أن الشيعة في ذلك الوقت كانوا يشكلون قسماً مهماً من سكان المدينتين وملحقاتها، رغم تسترهم بالتسنن تقية دون ان يتمكنوا من إقناع أولي الأمر بصحة معتقدهم وانهم تلاشوا مع الوقت من بيروت وصيدا وإن استمروا في ضواحي الأولى ونواحي الثانية.

إن هذا التوقيع أو المنشور الرسمي الذي أصدرته السلطة يشير إلى حقائق تاريخية لافتة أهمها:

أولاً: «إن في بيروت وصيدا ونواحيها وجوداً شيعياً مرموقاً ومتململاً، تحسب له الدولة حساباً وتوجه له إنذاراتها قبل القيام باجراءات عسكرية لابد أنها ضخمة حتى تستدعي كل هذه المقدمات.

ثانياً: يحدد سياسة الدولة بوضوح وجلاء، تجاه رعاياها من الشيعة، وهي المنع التام لهذا المعتقد، وإرجاع أهله إلى المذهب الرسمي، وإلا فلا بد من قتالهم وتعذيبهم وإباحة دمائهم وأموالهم وإرسال عسكر الإسلام لاستئصال شأفة هذه العصبة الملحدة.

ثالثاً: إن الوجود الشيعي في بيروت وصيدا، هو ناشط ومتحرك يعلن عن نفسه بالخروج عن التقية والظهور العلني، وما يستتبع ذلك من تداعيات مذهبية وسياسية واجتماعية، يمكن أن يشكل تهديداً للسلطة الحاكمة ويوجد واقعاً مربكاً لها لا بد من معالجته والإهتمام به.

(1) 129- تاريخ بيروت، صالح ابن يحيى، ص 195.

(2) تاريخ لبنان، مكي ص 254 (يتظاهرون بالسنة) تقية على المذهب الشافعي.

طرابلس

«سكان طرابلس كلهم شيعة، وقد شيد الشيعة مساجد جميلة في كل البلاد، وهناك بيوت على مثال الأربطة ولكن لا يسكنها أحد، وتسمى مشاهد. ولا يوجد خارج طرابلس بيوت أبداً عدا مشهدين أو ثلاثة من التي مر ذكرها. مساحة المدينة ألف ذراع مربع وأربطتها أربع أو خمس طبقات ومنها ما هو ست طبقات أيضا، وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة، حتى لتظن أن كل سوق هو قصر مزين. ويقال إن بها عشرين ألف رجل، ويتبعها كثير من السواد والقرى وتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب العشر للسلطان. وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة»[1].

من الواضح أن مدينة طرابلس كانت من كبريات المدن عندما زارها الرحالة الشهير ناصر بن خسرو في بداية القرن الحادي عشر، وأن حركتها التجارية الناشطة، وأربطتها ذات الأربع أو الخمس وأحياناً الست طبقات، كما أن الرقم الذي ذكره الرحالة يفيد أن عدداً كبيراً من السكان كان يقيم فيها، إذا أضفنا النساء والأولاد إليه.

إن المساجد التي شيدها الشيعة في كل البلاد، تفيد أنهم موجودون أيضاً في البلاد القريبة منها، والسواد والقرى التي تتبعها. فلا يمكن أن يكون انتشار التشيع فيها ظاهرة معزولة عن محيطها. وقد أصبحت، بعد فترة وجيزة من ذلك التاريخ، مقر إمارة شيعية مزدهرة أسسها القاضي أمين الدولة الطائي، واشتهرت بعمرانها ومكتبتها التي تحوي أكثر من مئة ألف مجلد، مما يؤكد أيضاً على كثرة سكان هذه الإمارة، التي امتدت من جبلة في الشمال، إلى جبيل في الجنوب، قبل أن تسقط في أيدي الصليبيين على عهد آخر أمرائها فخر الدولة، الذي ذهب إلى بغداد في محاولة يائسة وفاشلة لإنقاذ إمارته عن طريق استنهاض العباسيين لنجدتها، والدفاع عنها ومحاولة تجنب المصير القاتم الذي كان ينتظر مدينته.

لم تُسترجع طرابلس من الحكم الصليبي إلا على يد السلطان المملوكي قلاوون سنة 1289م. **«الذي نازلها وحاصرها بالمنجانيق حصاراً شديداً، وضيق على الأهالي تضييقاً عظيماً ونصب عليها تسعة عشر منجنيقاً حتى فُتحت عنوة. وشمل القتل**

---

(1) سفرنامة، ناصر خسرو ص 48. يكون عدد سكان طرابلس عندما زارها الرحالة قياساً على الحسابات التي اعتمدناها في غير مكان 20000 x 6= 120000 (ماية وعشرون ألف نسمة).

والأسر جميع من فيها، وغرق كثير من أهل الميناء وسبيت النساء والأطفال».

«ثم أمر السلطان قلاوون أن تهدم البلد بما فيها من العمائر والدور والأسوار الحصينة التي كانت عليها. وأن يبني على ميل منها بلدة غيرها أمكن منها وأحسن. فهي هذه البلدة التي يقال لها طرابلس»[1].

لقد اختفت هذه المدينة العظيمة من الوجود بحجرها وبشرها وقامت مكانها مدينة أخرى بسكان آخرين، لا يمتون إلى أهلها القدامى بصلة[2] و**«من المعروف أن قسماً كبيراً من سكان طرابلس قد رحل بإزاء الصليبيين»[3].**

فمن هم هؤلاء السكان الجدد؟ وأين ذهب سكانها القدامى الأصليون الذين عاشوا فيها قبل الإحتلال الصليبي عندما كانت مدينة زاهرة وحاضرة إمارة ناهضة؟

لا بد أن الآلاف من سكان هذه المدينة المزدهرة، تمكنوا أثناء الحصار وبعد سقوطها، من النجاة من المذابح والأسر وفروا منها إلى مكان آمن، وملجأ حصين يراقبون الأوضاع من هناك بانتظار مصير المدينة النهائي.

إن الجبال الوعرة والشاهقة القريبة من المدينة تشكل ملاذاً مثالياً، لا يخفى على أحد من الهاربين لقربها وسرعة الوصول إليها ووعورة مسالكها التي تقف عائقاً أمام تقدم الجيوش نحوها ولا بد أن هؤلاء الهاربين من المدينة وجوارها أو قسماً كبيراً منهم، قد توغل في هذه الجبال ينشد الأمن والإطمئنان بعد النجاة من المعارك وما أعقبها. فلما استتب الأمر للغزاة الفاتحين، لم يعد أحد من هؤلاء الفارين إلى داخل المدينة، لأنهم لن يأمنوا على أنفسهم من العيش تحت حكم سلطة معادية غريبة الدار والدين، عرفت بقسوتها واشتهرت بما قامت به من مذابح. فبقيت أعداد كبيرة من الأهالي حيث هي في قلاعها الطبيعية الجبلية التي عرفت بمناعة شعابها، وتوفر القوت والماء في ربوعها. وهكذا انتشرت في جبل لبنان، أعداد وافرة من الشيعة، تفرقوا في جروده لكثرتهم وتوزعوا في الجبال القريبة من الضنية في الشمال، حتى أقصى جنوب كسروان، مروراً بالمنطقة الجبلية الشاهقة الواقعة شرقي مدينتي البترون وجبيل حتى تخوم بيروت.

(1) المختصر في تاريخ البشر، أبو الفداء، الجزء الرابع، ص 24.

(2) Introduction A l'Histoire Urbaine De La syrie ottomane.
Antoine ABdel Nour p308. «واسمها طرابلس الجديدة» التي أدارت ظهرها لماضيها.

(3) نيابة طرابلس في عهد المماليك، الياس القطار، ص 197.

وهذا ما يفسر الكثافة الشيعية التي كانت تعيش في كسروان القديمة، عندما استهدفت لهجمات المماليك الإفنائية والتأديبية في مستهل القرن الرابع عشر.

«طُرد المتاولة من طرابلس التي كثروا فيها وانتشروا في الجبل وكان معظمهم في الكورة في القرن الخامس عشر ثم انتقلوا إلى المنيطرة»[1].

كان من المستحيل أن يفكر الهاربون باللجوء إلى مدن الداخل التي لم تقع في أيدي الصليبيين، أو الإستقرار فيها، لأن المماليك، وقبلهم أسيادهم الأيوبيون، قد مارسوا أقصى تدابير البطش والتنكيل ضد الشيعة. وحتى لو أقدم بعضهم على ذلك، فلن يستطيع الاستقرار طويلاً، لأن السياسة المملوكية كانت تتدرج باستمرار نحو اتخاذ مواقف أشد قسوة تجاههم. وعندما استرجع المماليك طرابلس والساحل، لم يكن من المنتظر أن يعود أحد منهم إلى دياره السابقة لأن عشرات السنين قد مرت واستقر اللاجئون في بلادهم الجديدة ولم يعد الشعور بانتمائهم القديم يساورهم، ومن جهة ثانية، لأن خشيتهم من السلطة الجديدة لا تقل عن ما كانوا يخافونه سابقاً.

أما سكان مدينة قلاوون الجديدة، فقد كانوا على الغالب من الجماعات التي تعوّد المماليك الاعتماد عليها في الحالات المشابهة. فلا بد أنهم اقتصروا على جماعات من الجنود والتركمان والموظفين وبعض التجار والساعين إلى الرزق في مدينة من المقدر لها، أن تكون مركز النيابة الجديد، كما حصل فعلاً بعد سنوات قليلة. وفي جميع الأحوال، فإن هذه المدينة التي كان يسكنها فيما مضى عشرات الألوف من الشيعة لم يحتو جدول الضرائب العثماني العائد لها أكثر من تسعة آلاف اسم سنة 1633م يردها انطوان عبد النور إلى أصول أندلسية وتركية وتركمانية من المسلمين السنة، وأصول ريفية من الكورة أو من وادي النصارى من الارثوذكس[2]، إلا أن أحداً من الشيعة لم يفكر بمجرد السكن في طرابلس أو في بيروت وصيدا، بعد أن صارت المدن الثلاث مركز النائب المملوكي الذي كان يقيم في طرابلس، أو الوالي العثماني الذي أصبح فيما بعد يباشر سلطاته في المدن الثلاث.

---

(1) دواني القطوف، عيسى اسكندر المعلوف، ص 204.

(2) Introduction A l'Histoire Urbaine De La syrie ottomane.Abdel Nour p 308.

صور

قبل سقوطها في يد الصليبيين كانت صور «**مدينة مزدهرة ربطتها من خمس أو ست طبقات، وكلها متلاصقة، وفي كثير منها نافورات، وأسواقها جميلة كثيرة الخيرات. وقد عرفت بين مدن ساحل الشام بالثراء ومعظم سكانها شيعة**[1]. **فلما ملكها الصليبيون، جعلوا منها مركزاً حربياً وحصنوها وزادوا في عمرانها، حتى صارت مدينة يضرب بها المثل في الحصانة. أعدها الفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم. هي انظف من عكا سككاً وشوارع، وأهلها الين في الكفر طبائع، واجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع. فخلائقهم أسجح ومنازلهم أوسع وأفسح وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن**[2].

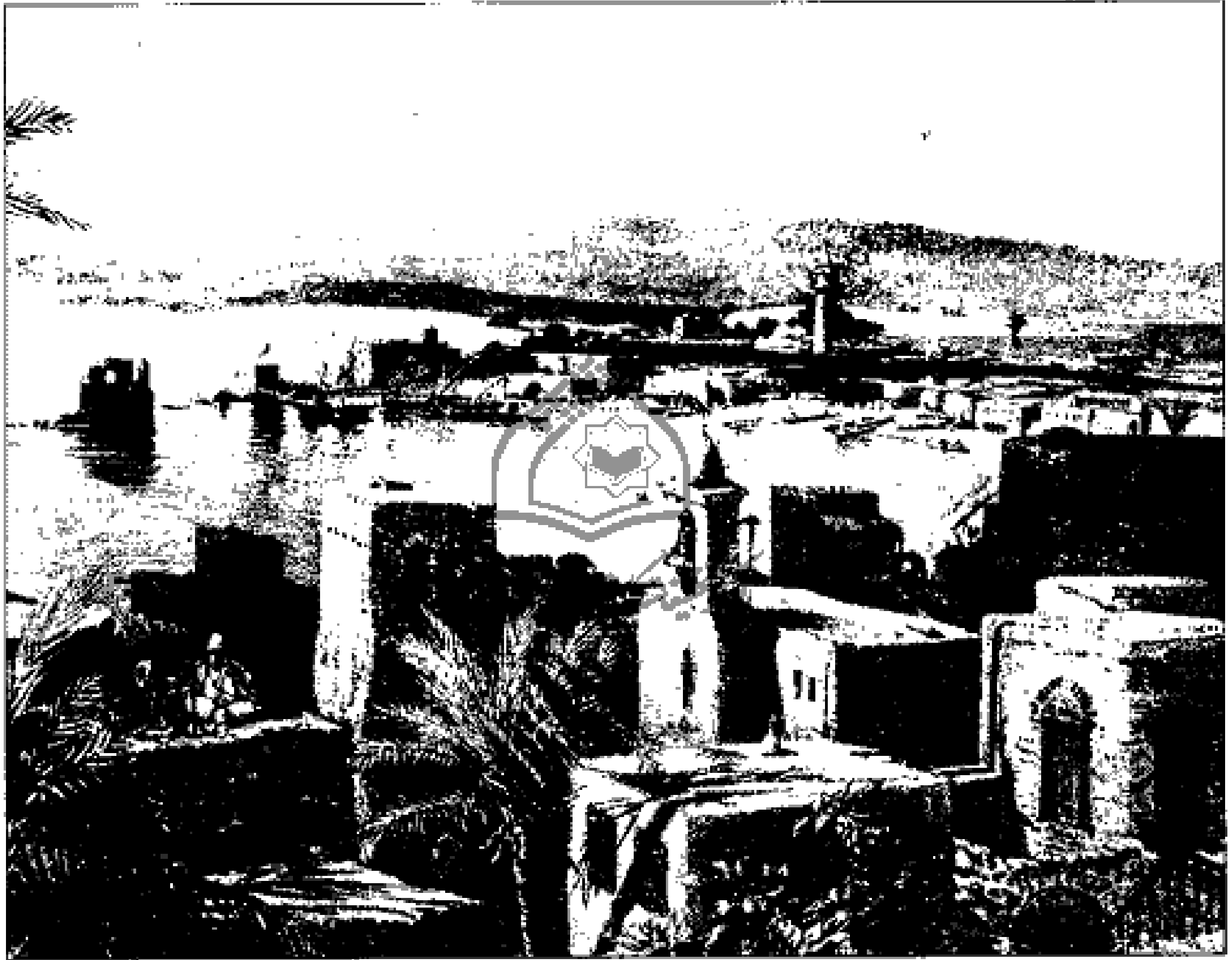
سقطت بيد الأشرف خليل سنة 1291م، فهدمها، كما فعل في باقي مدن الساحل وبقيت خراباً كما وجدها ابن بطوطة حين مر بها سنة 725 هـ ـ 1325 م [3]. وجاء في صبح الأعشى، عند ذكر أعمال صفد عن صور: «**هي مدينة قديمة بساحل دمشق وبناؤها من أعظم أبنية الدنيا وكانت من أحسن الحصون فلما فتحها المسلمون خربوها خوفاً أن يتحصن بها العدو وهي خراب إلى الآن**».

وفي أواخر القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد)،«**لم يكن فيها إلا محل صغير على شاطىء البحر يقال عنه ملاّحة، أي مستودع للملح، حتى بناها وسكنها الأمير الشيخ عباس محمد ابن نصار، المعروف بالشيخ عباس المحمد**»، الذي كان حاكماً على ناحية ساحل قانا. وكانت صور داخلة في حكمه، فجاء إليها وأنشأ بها الأبنية، منها السرايا والبناء الذي كان على باب المدينة، والجامع القديم والحمام، وعدة مخازن. وجلب إليها السكان وجعلها مقر حكومته إلى أن توفي فيها سنة (1189 هـ 1775 م). ولا يعلم هل عمرت بعد مرور ابن بطوطة وقبل تعمير الشيخ عباس لها، وبين الأمرين نحو 400 سنة[4] ومن المعلوم أن أحمد بن بشارة عمّر صور بعد خرابها وجعل لها أسواقاً ونقل إليها الناس وحصنها سنة 1420م[5].

---

(1) سفرنامة، ناصر خسرو، ص 50.
(2) رحلة ابن جبير، ص 277.
(3) رحلة ابن بطوطة، ص 63.
(4) خطط جبل عامل، محسن الامين ص 266 و د.م. إ. ش حسن، الأمين، ج 12 ص 122.
(5) تاريخ لبنان، محمد مكي ص 269 (عن الاسدي).

ازدهرت صور في عهد ناصيف النصار، بعد عمارها، وأصبحت ميناء جبل عامل التجاري ومركزاً سكانياً وسياسياً مرموقاً ومن حواضر الشيعة المهمة[1].



صور في القرن الثامن عشر H. Fenn 1854

(1) بنى عباس في صور داراً للحكومة، لم تزل عامرة إلى اليوم، وشاد فيها مسجداً وكنيسة وسوقاً ودوراً كثيرة، وأسكن فيها عائلات كثيرة من جبل عامل وجبل لبنان ولم يمض أربع سنوات حتى غدت بلدة تجارية كثر فيها الأخذ والعطاء وأمتها السفن التجارية، تاريخ ظاهر العمر، الصباغ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الخامس

حواضر العلم عند الشيعة في لبنان

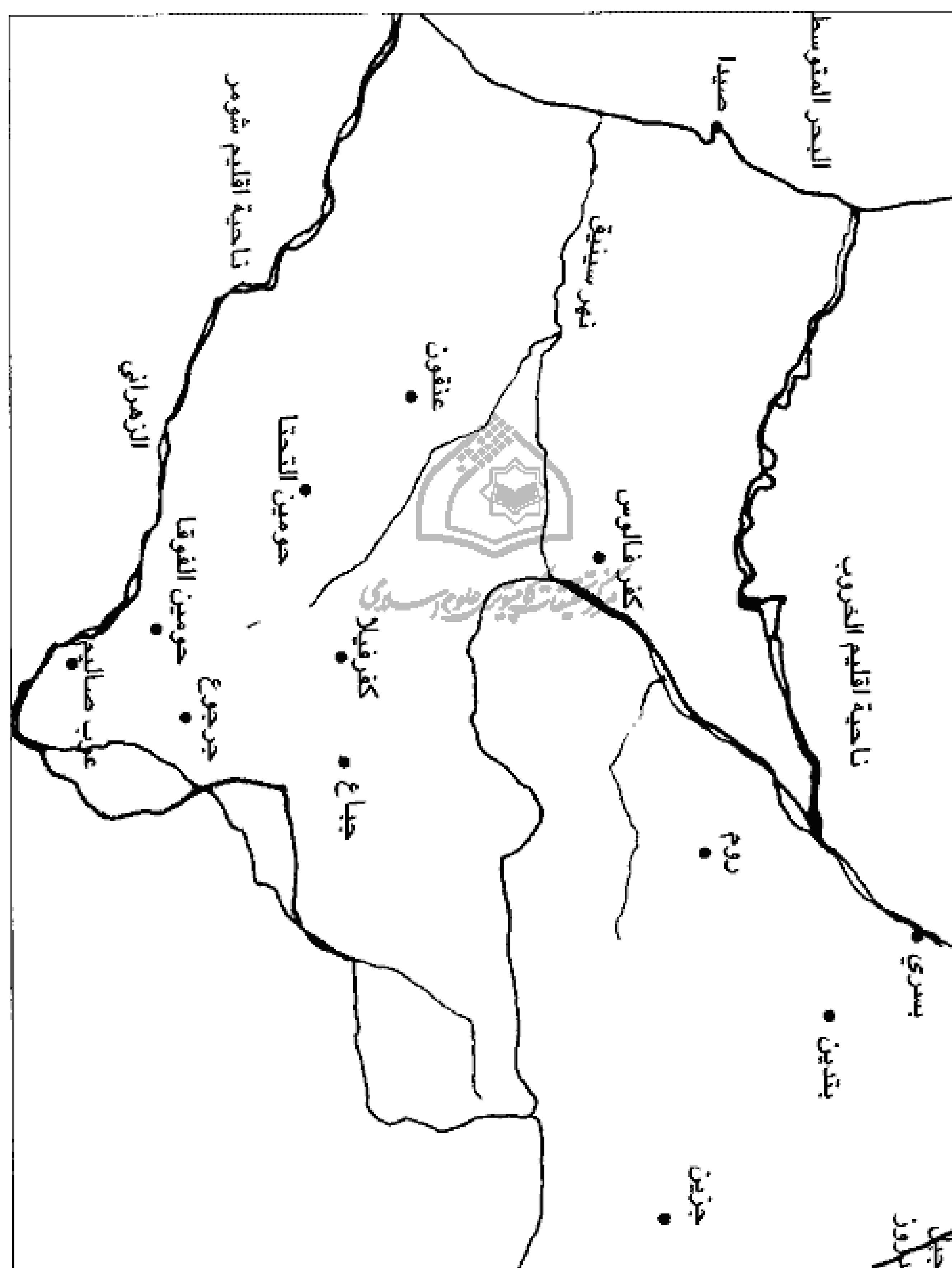
جزين

من مشاهير بلاد جبل عامل، رفدت العالم الاسلامي على امتداد قرون طويلة بعدد يصعب حصره من رجال العلم والأدب انتشروا في بلاد الشام والعراق وفارس والهند والأفغان والحجاز وكان جميع أهلها من الشيعة[1] مشهورة بعلمائها ومجتهديها[2] وقد أطلق عليها بلاد الميأذنة لكثرة ما فيها من المآذن[3] أنشأ فيها الشهيد الأول مدرسة علمية أشبه بالمجمع العلمي، تخرج منها عدد وافر من رجال الفقه والدين بعد أن تعطلت الحوزات في النجف واضطربت الدراسة على أثر غارات التتار ونكبة بغداد[4]، حتى قارنها العامليون بالنجف[5] وعدوها من مفاخرهم العلمية والدينية[6] واعتبروا خروجهم منها من أقسى النكبات التي حلت بهم.

من حوزاتها العامرة انطلقت حركات الإصلاح الديني التي هدفت إلى محاربة البدع وإعادة المذهب إلى أصوله وتحرك الشيعة بزعامتها وبقيادة عالمها الشهيد الأول صاحب أحد المراجع الرئيسية لجميع دراسات الشيعة الإمامية[7] ولكن المماليك قضوا على هذه الإنتفاضة في مهدها وأعدم قائدها سنة 1348م[8].

(1) خطط جبل عامل، ص 288.
(2) جبل عامل، علي درويش، ص 127.
(3) الحلقة المفقودة، علي جابر، ص 427.
(4) معالم الأدب العاملي، عبد المجيد الحر، ص 79.
(5) قال الشاعر العاملي ابراهيم بن الحسام
عرج بجزين يا مستبعد النجف ففضل من حلها يا صاح غير خفي
(6) تاريخ جبل عامل، آل صفا، ص 235.
(7) هو محمد بن مكي الجزيني والشهيد الثاني هو زين الدين بن علي الجبعي.
(8) تاريخ لبنان، مكي، ص 245 - 253.

جزين – اقليم التفاح



تظهر الوثائق العثمانية الرسمية العائدة للقرن السادس عشر أن سكان مدينة جزين وناحيتها والبلدات الملحقة بها مثل روم وبتدين اللقش ومشموشة وبسري كانوا جميعاً من الشيعة [1] ثم هاجروا أو هجروا منها وتفرقوا في البلدان بسبب ما توالى عليهم من الفتن والمحن[2] في ظروف غير واضحة المعالم تماماً وفي فترات مختلفة وغير محددة.

يقول السبيتي في الجوهر المجرد حول جزين:

أظن أن خروجها عن جبل عاملة من أيام فخر الدين. ولم يبقَ فيها من آثار الشيعة غير جبانة قد درست اليوم وجامع خراب، كان بعضه باقياً وكان فيها من ذرية الشهيد الأول جماعة إلى عهد غير بعيد وكذلك من أحفاد المقدمين الشيعة.

«لما استوطنت الدروز في بلاد الشوف كانت عشائر المتاولة مستوطنة إقليم جزين ومستولية عليه مع ما يتبعه من ناحيتي جبل الريحان وإقليم التفاح وكانت تلك الأنحاء برمتها مأهولة بالمتاولة. وقد كانت جزين في ذلك العهد قصبة مهمة محشودة بالسكان وفيها جامع كبير ومنارة رفيعة وكان في جزين إثنا عشر شيخاً من العلماء الأفاضل. فكانت جزين محط رحال طلبة العلم ومنتجعي الأدب. لذلك جعلوا يشمخون بأنفهم على الدروز، وتحدثهم نفسهم ببسط كف السيادة عليهم؛ فكثرت بين الطائفتين الحوادث والمنازعات التي آلت إلى استعار نار حرب كانت سبباً في تقلص ظل المتاولة عن معظم أنحاء جزين الثلاث أي إقليمي جزين والتفاح وجبل الريحان»[3].

من المؤكد أن جزين كانت في الحقبة الأولى من العهد العثماني وقبل ذلك من حواضر بلاد الشام المهمة وكانت كما هو حال ما جاورها من البلاد كجبل الريحان وإقليم التفاح ومشغرة مأهولة بالشيعة وحدهم وكان من حكامها في القرن الثامن عشر الخزرجيون وهم عشيرة من الشيعة كما كانت عشيرة شيعية أخرى «آل برو» تتولى الأمور في إقليم التفاح من مركزها في كفر حونة وكان مقدمو غرب جزين من آل علي الصغير ولكنهم انحطوا بعد العظمة وافتقروا بعد الغنى بعد أن قرضهم أحمد باشا الجزار[4].

---

(1) نواحي لبنان، خليفة ص 190.

(2) خطط جبل عامل الأمين ص 228.

(3) الحركات، أبو شقرا ص 150.

(4) كشف اللثام، نوفل نوفل ص 173. (ظهر فيما بعد إن ما توهمه نوفل وكثيرون غيره لم يكن في محله).

ليس في التاريخ اللبناني المعتمد ولا في التاريخ العاملي المتناقل ما يلقي الضوء على كيفية انحسار الشيعة وخروجهم من جزين واقليمها وما جاورها. وفي التعرض لذلك من التناقض والتباين في التواريخ والأحداث ما لا يثبت قناعة أو ينير سبيلاً. والمرجح أن النزوح الشيعي لم يكن وليد حدث معين أو معركة فاصلة في وقت من السهل تحديده كما حصل في كسروان إثر حملات المماليك وإنما هو أقرب إلى أن يكون نزوحاً قسرياً متمادياً على فترات متقطعة ومتتابعة لجماعة أثر أخرى، اضطرت تحت وطأة ظروف تاريخية واجتماعية واقتصادية ومذهبية إلى مغادرة ديارها إلى حيث يتيسر لها أماناً وحماية لم تعد تجدها في مهدها الأول. وقد تحدثت مصادر درزية ونقل عنها الكثيرون من العامليين المعاصرين عن معارك نشبت عام 1757م بين الدروز بقيادة يوسف الشهابي والمتاولة وعلى رأسهم المقدم على محمد الخزرجي والشيخان جهجاه برو وعلي الجواد وبعد سلسلة من الغارات المتبادلة تبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة حصلت معركة جل الشوك التي انهزم فيها المتاولة وأدت إلى انحسار وجودهم عن معظم أنحاء جزين بما فيها أقاليم جزين والتفاح والريحان فدخل الدروز على أثرها إلى المدينة[1].

إن هذه المرويات تدخل في إطار التقليد الشعبي المتواتر وتتنافى مع الكثير من الثوابت التاريخية الراسخة ليس أهمها أن الأمير يوسف لم يتولَّ كرسي دير القمر قبل ربع قرن من هذا التاريخ. وأنه، بعد أن وصل إلى كرسيه، لم ينتصر في أي من معاركه التي خاضها في جبل عامل وهي كثيرة.

بدا الشيعة في جزين يعانون من الإضطهاد والقمع، كسائر العامليين، في الفترة التي تمكن أثناءها فخر الدين أن يمد سيطرته إلى مختلف أنحاء جبل عامل من خلال التزامه سنجق صفد. وأن خضوع جزين لسيطرته أدى، فيما بعد، إلى فصلها عن محيطها التاريخي وجعلها أحد الأقاليم التي يتألف منها جبل الدروز. فانتقلت ملكية مساحات واسعة من الأراضي إلى العائلات الدرزية المتنفذة، الذين استقدموا فلاحين من الطوائف المسيحية و اسكنوهم في مناطق جزين وإقليم التفاح، التي أخذوها من المتاولة، ليعملوا في الزراعة لاعتمار الأرض واستدرار بركاتها[2] بالإضافة إلى أن

(1) الحركات، أبو شقرا ص، 151ـ 155. كما يتحدث المصدر نفسه عن معركة وادي الحجير ومعركة الطيبة بين المتاولة وعلى رأسهم الشيخ أسعد الخليل انتهت بانتصار الدروز ودخولهم إلى المناطق المتنازع عليها وكانت آخر المعارك بين الطائفتين سنة 1894 انتهت بصلح عام شارك فيه المسيحيون إلى جانب الشيعة. (راجع تاريخ جبل عامل صفا، ص 258 وما يليها).

(2) الحركات، أبو شقرا ص 157.

انحسار الحكم الشيعي عن هذه المناطق ترك سكانها المتاولة بدون حماية ذاتية تدفع عنهم تسلط حكامهم الغرباء وعسفهم والظلم الذي حل بهم وأوجب هجرتهم[1] وقد استمرت هذه الهجرة عقوداً طويلة تتكفىء أو تتسارع تبعاً للظروف السياسية التي تتحكم فيها.

إن النكبات القاسية التي حلت بالعامليين في حكم فخر الدين، ومن بعده أحمد الجزار وأخيراً في عهد بشير الشهابي الذي عهد بحكم جزين واقليم التفاح إلى ولده خليل[2] وما عانى أهالي جزين من عنف وقمع خلال هذه السنين، أجبرتهم على ترك مدينتهم والإنتشار في بقاع شتى. ولم يمنعهم كل ذلك من القيام بمحاولات يائسة للعودة إلى ديارهم، وسلخها عن جبل الدروز، كان أهمها سنة 1749م فكلفهم ذلك ثلثماية قتيل وأحرقت بلاد الشقيف وبلاد بشاره[3].

إن ابتداء هجرة الشيعة من جزين، كما يرى السيد محسن الأمين، لم تكن قبل (1255هـ ـ 1831م) وأن آخر من هاجر منها رجل من بني المقدم، وقد أدركه فيها رجل معمر من أهل هذا الزمان (1912م). كما أن آل شمس الدين، الموجودين في جون وعربصاليم، كانوا فيها وهاجروا منها[4]. ويقول الشيخ يوسف البحراني الذي عدد أسماء قرى جبل عامل، عن جزين، «**إنها بلد الشهيد الأول وبها ذريته في هذا العصر**»[5].

(1) خطط جبل عامل، الأمين ص 77.
(2) تاريخ الشهابي، قسم 3 ص 776.
(3) المصدر السابق، قسم 1 ص41.
(4) خطط جبل عامل، الأمين ص 77.
(5) توفي 1724م.

مشغرة

إن موقع مشغرة الجغرافي كنقطة، تواصل وعبور بين أطراف البقاع الجنوبية وتخوم جبل عامل، منحها أهمية خاصة عند الشيعة مما جعل منها، كجارتها جزين منذ وقت مبكر قبل الفتح العثماني، مركزاً شيعياً سياسياً وعلمياً مرموقاً، ومركز استقطاب للهجرات الشيعية الوافدة من مناطق الاضطهاد الشيعي، وخصوصاً كسروان بعد نكبتها. وكانت مقدمية جزين الشيعية متحالفة مع مقدمية مشغرة الشيعية بزعامة بني صبح[1] بعد أن خلفوا بني تغلب على التقدم والنفوذ في المنطقتين. ثم تعرضت القصبتان إلى حملات قمع مملوكية شبيهة بحملات كسروان استهدفت تأديب السكان المفسدين في الأرض واستئصالهم».

في سنة 690 هـ ـ1291م قام لاجين نائب دمشق، بتعذيب بني تغلب، اصحاب مشغرة وسجنهم في القلعة وقرر عليهم ماية ألف درهم تأديبا.

في محرم من سنة (766هـ ـ 1364م) «دمر نائب السلطنة سيف الدين منكلي **مشغرة وثلثياتا[2] والبلدتان في أرض حصينة لا يصل عليها إلا بكلفة كثيرة وعمر بدلهما في أسفل الوادي بحيث يصل إليهما حكم الحاكم والطلب بسهولة والسبب أنهما عاصيتان وأهلهما مفسدون في الأرض»[3].**

وهذه التهم تقرب مما نسب إلى شيعة كسروان في تاريخ سابق إثر محنتهم.

تزخر كتب التراجم والتواريخ قبل ذلك العصر وبعده بأسماء مشغرية لمعت في عالم الفقه والقضاء والأدب على مذهب الشيعة[4] والتشيع فيها قديم[5].

اختلفت الآراء حول هوية مشغرة. إذا كانت تعتبر من قصبات البقاع مثل كرك نوح وقب الياس[6]، أو من حواضر جبل عامل[7] العلمية، إلى جانب جزين وجباع وهي قريبة

---

(1) لبنان، محمد علي مكي، ص 268.

(2) تعرف اليوم باسم النبي صفا قرب لبايا ولا يزال الأهالي يعرفونها باسم تلثاثا أو سلساتا. مشغرة في التاريخ، الشيخ حسين الخشن، ص 86.

(3) البداية والنهاية، ابن كثير، أحداث 766 هـ.

(4) مثل أمل الآمل ومعجم ياقوت...

(5) خطط جبل عامل، الأمين ص 301.

(6) الإمارة الدرزية، أبو حسين ص 175.

(7) خطط جبل عامل، الأمين ص 301. وهي قصبة الشوف البياضي.

منهما. وهذه البلدات الثلاث، إلى جانب كرك نوح شكلت تاريخياً الأعمدة الثابتة في نهضة جبل عامل[1] فاشتهر الكثيرون من أهلها في علوم الدين والشعر والأدب، وانتشرت فيها المدارس في زمن عز وجودها في بلدان أخرى[2]. وتظهر السجلات العثمانية الرسمية أن سكان مشغرة كانوا في القرن السادس عشر على الأقل جميعاً من الشيعة وهو حال سكان جارتها تلثياثا وما جاورهما، وأنها كانت أكثر البلدات سكاناً في الشوف ولا يفوقها في البقاع إلا كرك نوح[3].

بعد اختفاء بني الحنش وبني فريخ عن مسرح الأحداث اللبنانية والبقاعية بدأ موقع مشغرة الجغرافي يثير الإنتباه باعتبار أنه مفصل أساسي واستراتيجي في التمدد الشيعي بين شيعة الشمال واخوانهم في الجنوب. فعزز الحرافشة وجودهم فيها وانتقل الأمير أحمد الحرفوش ابن الأمير يونس الحاكم، وأسس فيها بنياناً عظيماً[4] ليسكن هناك فقصده شيعة جبل عامل وتواصلت زيارات أعيانهم ووجوههم ونزح بعضهم إليها «**فاستمال الحرفوشي بني متوال واجتمعوا عليه**»[5] ينشدون الحماية من الاضطهاد والقمع والاستقواء على مواجهة الكيد الذي يتعرضون له. وهذا ما أثار الهواجس العثمانية المزمنة وفجر صراعاً بين الأميرين يونس وفخر الدين، نتج عنه منازعات وحروب استمرت إلى آخر أيام المعنيين.

يروي أحد فقهاء الشيعة المشغريين[6] أنه استضاف الأمير أحمد المعني بعد هزيمته بوجه الشيعة في معركة خسر فيها مائة وخمسين رجلاً من مقاتليه رجع بعدها عن طريق مشغرة ولم يجد غير منزل شيعي يحل فيه ضيفاً[7].

إلى جانب دورها العلمي الهام بقيت مشغرة إلى عصور متأخرة مركز نشاط سياسي وعسكري ودار هجرة يلجأ إليها العامليون في أيامهم الصعبة والعصبية حيث «تنتج التدابير وتوضع الخطط.

«ولا ريب أنهم كانوا يجمعون المال والسلاح أو يفكرون في كيفية الحصول عليهما

(1) الهجرة العاملية، جعفر المهاجر ص 95.
(2) تاريخ لبنان، مكي ص 271.
(3) نواحي لبنان، عصام خليفة ص 136.
(4) الغرر الحسان المجلد الثاني، حيدر الشهابي ص 780.
(5) راجع تاريخ الصفدي ص 66.
(6) هو الشيخ أحمد الحر المشغري.
(7) معركة النبطية.

وكان خط التواصل الشيعي بعلبك كرك نوح مشغرة جزين وإقليم التفاح»[1].

توافد مشايخ الشيعة من بني علي الصغير الناجون من ملاحقة الجزار، بعد معركة يارون، إلى مشغرة فكانت لهم دار الأمان من المطاردة ونقطة الإرتكاز للعودة المظفرة إلى ديارهم.[2] رغم أن تواطؤ الجزار وسعد الخوري وغدر يوسف الشهابي أديا إلى تسليم سبعة عشر شيخاً منهم انتهوا معلقين على مشانق، الجزار في عكا[3]. ورغم ذلك بقيت مشغرة تشكل مقراً رئيساً للطياح من الثائرين على الجزار وخلفائه، يغيرون منه على المتسلمين، ثم يعودون استعداداً لجولة أخرى.

عندما وصلت الجيوش الفرنسية إلى أسوار عكا انضم إليها الثائرون الشيعة لقتال العدو المشترك. وبعد تراجع نابليون عن حصارها وعودته إلى مصر رجع المشايخ إلى مشغرة [4] واستأنفوا منها عملياتهم القتالية حتى عودتهم النهائية إلى جبل عامل سنة 1805م.

ويبدو أن هذه البلدة الواقعة على معابر طرق عديدة كانت تدخل أحياناً في دائرة نفوذ بني علي الصغير كما كان شأنها مع الحرافشة في أحيان أخرى، ويرجع ذلك إلى أن لهذه الأسرة فيها مقبرة دارسة كما هو الحال بالنسبة لآل الحر[5]، العائلة التي عرفت بكثرة النابهين في العلم والأدب من أبنائها في كل جبل عامل.

كرك نوح

إحدى أهم حواضر الشيعة ومركز ولاية البقاعين في العصر المملوكي ومن أكثر البلدات اللبنانية سكاناً في العهد العثماني[6]. حافظت طيلة قرون متعاقبة على تألقها العلمي والديني فكان الإمام الأوزاعي من رواد مدارسها في القرن الثامن كما فعل

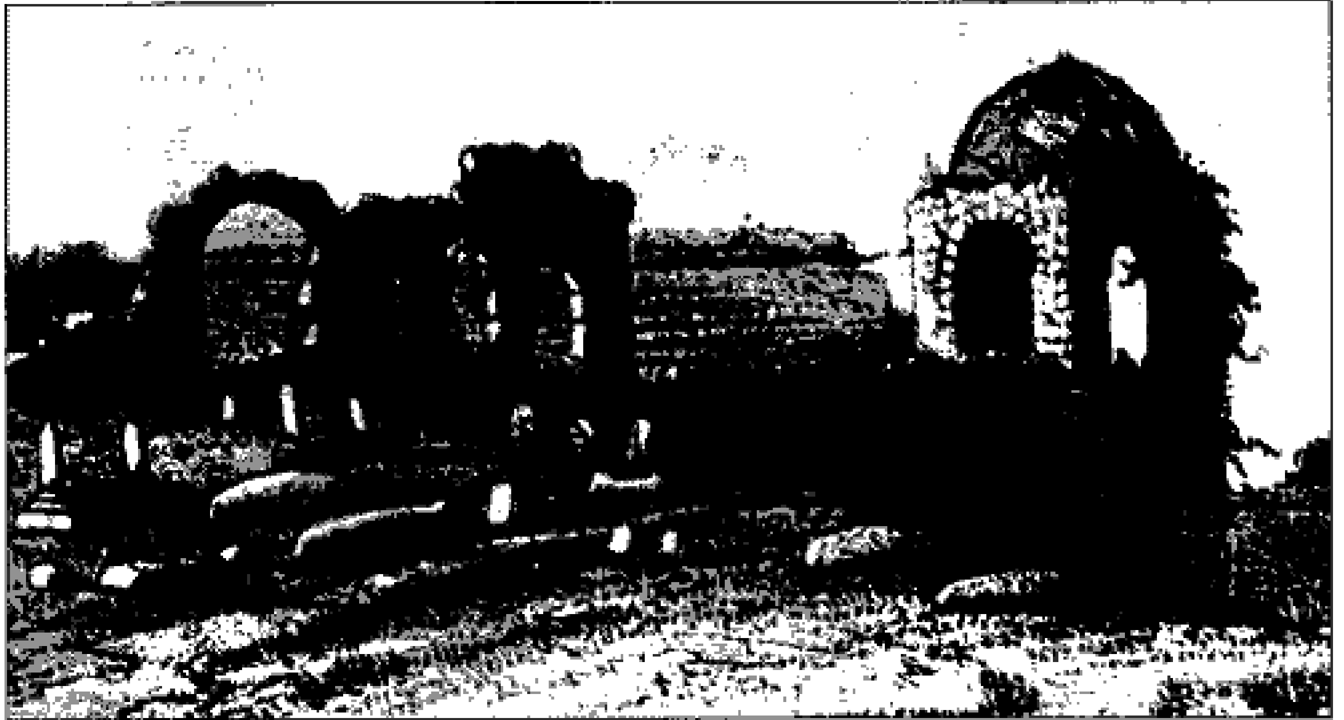
(1) مشغرة، الخشن ص 91.
(2) لقربها من جبل عامل ويبدو أنها كانت حينها في حكم الشهابي.
(3) تفاصيل هذه الواقعة في فصل آخر.
(4) تاريخ الركيني ص 127.
(5) خطط جبل عامل، الأمين ص 301.
(6) نواحي لبنان، خليفة ص 67. قدر المؤلف عدد سكان ناحية كرك نوح اعتماداً على الدفاتر العثمانية الرسمية العائدة للقرن السادس عشر بـ 21780. وهذا العدد يبلغ أكثر من أربعة أضعاف سكان نواحي بيروت وصيدا، ولا يفوقه من النواحي اللبنانية في هذا القرن الاسكان ناحيتي بعلبك وتبنين.

الشهيد الثاني بعده بثمانية قرون 1552م، واستمرت إلى جانب مشغرة وجزين مقصداً لطلاب المعرفة والعلم فترجم صاحب أمل الآمل لثلاثين عالماً كركياً كلهم من الشيعة وكذلك فعل ياقوت في معجمه وابن العماد في شذرات الذهب والمحبي في خلاصة الأثر وغيرها من كتب التراجم والسير التي خلدت نابهين من الشيعة انطلقوا من هذه البلدة العامرة بدور العلم ورجاله إلى مختلف بقاع العالم الإسلامي، فوصل بعضهم إلى أعلى مراتب السلطة والنفوذ على الصعيد السياسي وإلى أقصى درجات التأثير والإنتشار في ميادين الإفتاء والفقه والعلم والأدب[1]، حتى أصبحت نسبة العلماء إلى كرك نوح في إيران وربما في غيرها من الأمصار امتيازاً كبيراً لا يمكن إغفاله[2].

إلى جانب مكانتها العسكرية حافظت كرك نوح على اعتبارها من المراكز السياسية والإدارية المهمة في العهدين المملوكي والعثماني. وكانت محطة مزدهرة للقوافل بين الساحل اللبناني وبادية الشام وبعد أن كانت من أملاك ابن الحنش دخلت منذ مستهل العهد العثماني تحت سلطة الحرافشة وقد اهتمت بها الأسرتان خصوصاً لمكانتها الدينية



مزار الكرك



(1) بلغ العديدون منهم مراتب الوزراء والصدور وشيوخ الإسلام الخ...

(2) الهجرة العاملية، المهاجر ص 233.

ووجود المزار[1] فيها فقصدها الرحالة والمؤمنون تبركا[2] أوقف على مصارفها محمد ابن ناصر الدين الحنش وقفية ضمت كثيراً من البساتين والطواحين وحبسها على عمارة النبي نوح وفرشه وتنويره والأنفاق على المجاورين والمنقطعين وأرباب الشعائر والخدمة[3].

وكانت منذ سنة 1534م على الأقل من مراكز حكم الحرافشة ومقراتهم[4] انتسب إليها بعض أعلامهم[5] فكانت بعد بعلبك من أهم قلاعهم وضعوا فيها حامية عسكرية للدفاع عنها وكانت ولايتها تتأرجح بين حاكم يرتبط بأمير بعلبك[6] أو حرفوشي. يرتبط مباشرة بدمشق. وفي الحالتين لا تخلو من قاضٍ عثماني تناط به المراسلات الرسمية كان اسمه سنة 1611م مولانا شعبان[7] وكان يتابع حالة الأمن في الناحية كلها التي تشمل كل المنطقة القريبة من بلاد بعلبك والبقاع المتاخمة لكسروان والبترون في جبل لبنان.

بقيت هذه الحاضرة الشيعية على ازدهارها حتى هاجمها فخر الدين سنة 1622م على حين غرة واستطاع بعد مقاومة عنيفة للحامية الحرفوشية المتواجدة فيها، والمؤلفة من نحو مائة جندي والتي نزلت من البرج التي كانت تتحصن فيه على أمان علي ابن الشهاب، أن يدخلها وأحرق جماعته جميع البلد حتى لم يبقوا فيها بيتاً واحداً بلا حريق. وكانت هي وسرعين من أحسن البلاد[8] لم تنهض الكرك من كبوتها بعد ذلك أبداً فتحولت إلى مدينة محروقة وظلت نهضتها خجولة[9] ولم تعد أكثر من قرية كالعديد من قرى البقاع الأخرى وبقيت في حكم الحرافشة ومن أملاكهم حتى أهداها الأمير جهجاه الحرفوش لأولاد الأمير بشير الشهابي سنة 1807م لاستغلال مواسمها[10].

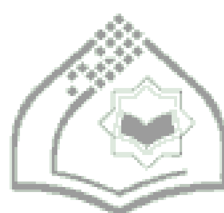
---

(1) اشتهرت بمزار النبي نوح ومزار آخر لابنته حبلة.
(2) حلة الذهب الأبريز، عبد الغني النابلسي ص 92 ـ 94.
(3) صفحات من تاريخ الشيعة، عمرو، ص 305.
(4) أخبار الأعيان، الشدياق ط. بطرس البستاني ج2 ص 19.
(5) محمد بن علي الحرفوشي الكركي وغيره.
(6) رغم أنها من بلاد بعلبك والبقاع فقد عرفها بعضهم أنها قرية في أصل جبل لبنان وقيل عنها قرية بلحف جبل لبنان (رحلة النابلسي ص 73).
(7) الإمارة الدرزية، أبو حسين ص 178.
(8) تاريخ الصفدي، ص 147 راجع الحرافشة.
(9) دائرة المعارف، حسن الأمين ج 18 ص 449 .
(10) راجع تفاصيل هذا الموضوع في فصل الأمير جهجاه. ويبدو أن تقهقر الكرك بعد ازدهارها السابق ساهم في تعزيز بلدة زحلة وتقدمها على سائر البلدات القريبة منها.

الباب الثالث



الحكم الشيعي في لبنان


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحكم الشيعي

عندما يكون موضوع البحث هو تاريخ فترة معينة من تاريخ لبنان، فإن تعبير الحكم الشيعي يحتمل تأويلات شتى وتفسيرات عديدة. لذلك لا بد من توضيح هذا التعبير وتحديده وتعيين المقصود به بشكل مبسط ودقيق يبعده عن كل التباس وإشكال في فهمه على الوجه المقصود.

إذا كان الحكم هو مسك القرار والتحكم بتنفيذه، فإنه في الفترة التي نستعرضها كان حكماً عثمانياً بلا جدال يتمثل في الوالي العثماني في مركز الولاية المعين بفرمان سلطاني صادر عن الباب العالي، والمنوط به تنفيذ سياسة الدولة في كافة المجالات المدنية والعسكرية وتعيين الموظفين ، وقيادة العسكر، وجمع الضرائب وغيرها من الأمور المماثلة.

كانت الدول الشرقية المعاصرة للدولة العثمانية والسابقة لها تعلق اهتماماً كبيراً على الخطبة والسكة ويرى الجميع فيهما أهم مظاهر السلطة ودلالاتها، وهذان الأمران بقيا مستمرين رمزاً للدولة العثمانية في مختلف الحقب التي مر بها لبنان ولغاية الحرب العالمية الأولى. قبل خروجه إلى مصر أمر السلطان سليم بكتابة منشور إلى السلطان طومان باي في محاولة لحسم النزاع سلماً وإنهاء الحرب «**إني أريد أن تكون السكة والخطبة باسمي وأنت نائب عني وأبقيك على ما أنت عليه**»[1].

رفض المماليك هذا العرض لما لهذين الشعارين من أهمية بالغة في تحديد هوية السلطة ومظهرها، رغم أن العرض يقضي بإبقاء السلطان المملوكي في منصبه مع احتفاظه بكامل صلاحياته.

---

(1) غزوة السلطان سليم ابن زنبل ص 119.

إن المقصود في الحكم هنا هو هذا الهامش المرن من الحرية الذي تتخلى عنه الدولة العثمانية ممثلة ببكلريكي الولاية في ممارسة صلاحياتها العامة في أمور ذات طابع ذاتي وأمني وداخلي وتحت ظلها دون المساس بمصالحها الكبرى، وذلك عن قصد أو تغاض أو عجز أو رغبة في تجنب العناء والكلفة، حتى أصبح هذا الأمر خصوصاً في فترات ضعفها أو عجزها جزءاً من تقاليد الإدارة وأعرافها طالما نفذ من خلاله الطامحون للتخلص من بعض سطوتها أو الحد من سلطتها، قدر ما تسمح به الأحوال والظروف وموازين القوى.

إذا كانت هذه هي حدود هذا الحكم أو مداه، فمتى يكون شيعياً أو سنياً أو ينسب إلى أية طائفة من طوائف لبنان وما هو المقياس الذي يميز حكماً شيعياً عن آخر درزي أو سني أو أي حكم آخر، هل أن طائفة الحاكم هي التي تحدد هذا الأمر، أو هي طائفة المحكومين، أو أن سياسة هذا الحكم ومراميه وأهدافه هي التي تحدد هويته. في الدولة العباسية كان يحدث أن يعقب خليفة سنياً وارث شيعي ثم تعود الخلافة إلى سني آخر إلا أن الدولة تبقى هي الدولة العباسية دون أن تكون دولة شيعية أو سنية، وفي داخل لبنان في جبل الدروز أو جبل الشوف كان الأمير درزياً أحياناً وسنياً غالب الأحيان ومارونياً في أواخر عهد الإمارة فهل كانت صفة الإمارة تتغير في كل مرة؟

في دولة، كالدولة العثمانية تحولت الطوائف فيها إلى ملل، وشكلت دويلة في قلب الدولة. وفي بلد مثل لبنان تحولت الملل فيه إلى شعوب فأصبح يقال الشعب الدرزي والشعب الماروني، والشعب الشيعي. نرى أن الحكم يمكن أن ينسب إلى إحدى طوائفه فقط في حال نشأت بين الحاكم وجماعات مؤثرة وملتزمة من محكوميه علاقة تفاعلية خاصة تعطي هذه الطائفة الشعب كياناً ذاتياً موحداً ومتميزاً عن غيره من الطوائف والشعوب الأخرى، وتتعامل مع الآخرين من المجموعات أو الولاة الحكام ويتعاملون معها على هذا الأساس باعتبارها كيانات سياسية واجتماعية تختلف عن غيرها في خصائص تنفرد بها وتميزها عما جاورها أو بعد عنها من أقاليم ومقاطعات أخرى، ولو كانت جميعها ملحقة بباشوية واحدة ويحكمها من الناحية النظرية الباشا العثماني نفسه، وكانت خاضعة إداريا لولايته سواء أكانت طرابلس أو دمشق أو غيرها من مراكز الحكم التي تتقاسم الأراضي اللبنانية المختلفة.

إن التنظيم الإداري العثماني لم يلحظ في أحكامه وأعرافه، أو يسمح بمطلق رغبته أو إرادته بقيام حكام أو متنفذين يتوارثون المناصب، أو يقصرها على طائفة معينة وعائلة واحدة وإنما كان الوالي باعتباره رأس الهيكلية الإدارية يسمي ملتزماً لمقاطعة أو

لواء أو سنجقاً لمدة عام واحد واستثنائياً لمدة أطول[1] بمبلغ يحدد بدقة ويصدر منشوراً بذلك يعين فيه عادة كفلاء يضمنون دفع المبلغ في استحقاقه المعين، دون أن يكسب ذلك الملتزم حقاً أو أفضلية أو امتيازاً عند انتهاء الأجل. ولم يكن هذا الإلتزام بالمطلق ينيط بصاحبه سلطات عامة أو يكلفه بها ولو أن بعض هذه العقود تضمنت أحياناً ما ينص على بعض الأمور الأمنية المحددة كتأمين السبل ورد النزاح في ظروف معينة. ولكن الأمور جرت في لبنان في معظم الحقبة العثمانية على خلاف ذلك، وإن حاول الولاة الاحتفاظ، ضناً بالمظاهر، بالمراسم الشكلية المتبعة رغم أنها فقدت معظم مضمونها وغايتها و اقتصرت في واقع الأمر على إضفاء الشرعية الرسمية على واقع مفروض قلما تمكنت من تبديله أو الحد من تجذره رغم الكثير من المحاولات.

عندما أصبح لبنان من أقاليم الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف كانت بذور الكيانات السياسية التي ميزت تاريخه في الفترة اللاحقة لم تترسخ بعد، ولم تكن أكثر من مراكز نفوذ تستمد قوتها من عصبيتها العشائرية أو علاقتها المميزة بنواب السلطة المملوكية في دمشق وطرابلس وصفد لأسباب شخصية أو عرقية، ولم تكن تملك حينها إلا القليل من أسباب المنعة أمام قبضة السلطة المتشددة لتتمكن من التطور والاستمرار وتكوين واقع ثابت ليس من السهولة تجاوزه أو تجاهله. ولكن مع الفتح العثماني، وما أعقبه من تراخي قبضة السلطة المركزية على أمور الأطراف والملحقات وابتعاد مركز القرار في عاصمة الدولة الجديدة مسافات شاسعة عن ولاياتها في بلاد الشام، بدأت تنتشر في وقت مبكر محاولات التخلص من سيطرة العاصمة على ولاياتها ورغم أن هذه المحاولات الأولى لم تحقق النجاح الذي أمل فيه أبطالها كالغزالي وابن الحنش وابن الحرفوش في السنوات القليلة التي تلت مباشرة عودة السلطان المنتصر سليم إلى عاصمته البعيدة إلا أنها قد تكون ساهمت في تقريب سياسة التمرد والعصيان إلى تقاليد قواعد السياسة والحكم التي سادت لفترة طويلة بعد ذلك. خصوصاً وأن هذه الدولة الجديدة لم تعمد كسابقتها إلى نشر عساكرها وقواتها في القلاع والأبراج ومراكز النيابات لتبقى في جهوزية مستمرة لقمع أية محاولة من هذا النوع.

ومع تنامي عوامل الضعف والفساد في إدارة الدولة ومعاملة رعاياها كملل متباينة باختلاف انتمائها الطائفي. وتصنيف الطوائف الاسلامية غير السنية وخصوصاً الشيعة واللبنانيين منهم بوجه أخص كمجموعات تثير الريبة والشك في ولائها،

(1) كان الحرافشة يتولون لواء حمص وغيره لمدة أربع سنوات أحياناً. الإمارة الدرزية أبو حسين ص 181.

والمساءلة والقمع في معتقدها ازدادت هذه الكيانات، العشائرية في أول أمرها، وذات الطابع الطائفي المحدد، تأطراً وبروزاً وترسخاً حتى تحولت مع الوقت إلى كيانات طائفية بامتياز تقوم على رأسها أقوى العصبيات التي أفرزها هذا الواقع العشائري فتقدمت على غيرها حتى اختفت بالتدريج باقي العصبيات والقوى الأخرى في داخل كل كيان. فلم يكد القرن العثماني الأول يقترب من نهايته حتى ظهر في الأراضي التي يتألف منها لبنان اليوم أربعة كيانات متميزة. كان الطابع الشيعي غالباً على ثلاثة منها بينما فرضت التركيبة العشائرية على الكيان الرابع منها أن يعاني من تباين مذهبي مزمن بين حكامه ومعظم سكانه، وهذه الوحدات أو الكيانات الأربعة هي:

أولاً ـ بعلبك والبقاع.

ثانياً ـ جبل لبنان.

ثالثاً ـ جبل عامل.

رابعاً ـ جبل الدروز ووادي التيم.

أما المدن الساحلية الثلاث طرابلس وبيروت وصيدا[1] فإن اختيارها كمراكز حكم لولاة الدولة هيأ لها مصيراً مختلفاً وتاريخاً آخر.

بعلبك والبقاع

كان نائب بعلبك شيعياً من الحرافشة منذ العهد المملوكي. وكان الوجود الشيعي غالباً في معظم مقاطعات البقاع الثلاث وإن كان المذهب الحنبلي طاغياً في بعلبك نفسها أما قصبة البقاع وهي كرك نوح فأهلها مشهورون بالرفض.[2] وقد عانت البلدات الكبرى الآهلة بالشيعة كثيراً من غارات المماليك وتنكيلهم.

«في يوم السبت السادس من ذي الحجة سنة 899 هـ ـ 1493م جهز نايب الشام قانصوه اليحياوي دوادره قطج وصحبته عسكرا فكبسوا سرعين من أعمال بعلبك ونهبوها وقتلوا جماعة منها ونهبوا أيضاً حرتعلا ويونين وقتلوا ونهبوا وسبوا النساء وفسقوا[3]».

(1) استحدثت ولاية صيدا سنة 1660 ودخل ضمن إدارتها ما كان يعرف بلواء بيروت صيدا قبل ذلك.

(2) اللمعة البرقية في النكت التاريخية ابن طولون ص 44.

(3) حوادث الزمان، ابن الحمصي ص 258 ـ 266. وقطج هو الدوادار والمحتسب بدمشق. ولا تزال القرى الثلاث من بلدات بعلبك المعروفة.

وفي القرن السادس عشر كان الوجود الشيعي غالباً في معظم البلدات البقاعية المهمة بما فيها زحلة وبريتال وشمت ونبحا وحربتا وايعات ودورس ومقنة وكفرزبد وديرزنون وقصرنبا ونبحا وكفردان وتمنين وبوداي وابلح وبيت شاما وتعلبايا وعميق ومكسة وسعد نايل وشتورة[1] وكانت منطقة بعلبك التي تبلغ مساحتها نحو (1000 كلم²) ومنطقة كرك نوح التي تقل مساحتها عن ذلك قليلا (841 كلم²) هما أكبر مقاطعات لبنان وأوسعها أما العاقورة التي كانت من أعمال بعلبك (81 كلم²) فقد تنازل عنها الحاكم الحرفوشي إلى حاكم المقاطعة الشيعي الواقعة إلى الغرب سنة 1702م فضمها إلى اقطاعه وعين عليها يوسف الدحداح شيخاً وأصبحت منذ ذلك التاريخ ملحقة إدارياً بجبل لبنان وبالتالي من أعمال ولاية طرابلس[2] وقد استمر الحكم الشيعي الحرفوشي، بدون انقطاع ذي شأن أو منافسة يمكن التوقف عندها، حتى سقوط الحكم الاقطاعي في جميع أنحاء لبنان في منتصف القرن التاسع عشر.

وفي عهد الأمير يونس الحرفوشي كان مشروع إنشاء إمارة شيعية تمتد من الجليل حتى نواحي حمص يثير مخاوف عميقة لدى السلطات العثمانية النافذة مما أدى إلى معركة عنجر وذيولها[3] وكان العثمانيون يخافون من قيام اتصالات غير معلنة بين الشيعة والصفويين في إيران، وقد رسمت هذه الهواجس الكثير من سياسات السلطة الحاكمة نحو رعاياها من الشيعة في مختلف أنحاء لبنان.

جبل لبنان

حتى ظهور فخر الدين في أواخر القرن السادس عشر 1590م **«كان الموارنة منحصرين في شمال لبنان أي في بعض وسوط البترون وجبيل القاحلة وفي جبة بشري[4] ولم يكن للنصارى القاطنين في هذه الجهات حظ في مناصب الدولة وادارتها بل يشتغلون في الزراعة وهم أذلاء فقراء واليهود أرقى منهم منزلة وثروة[5]»**.

---

(1) نواحي لبنان، عصام خليفة ص 124 ـ 137.
(2) أخبار الأعيان، الشدياق ص 90 والإمارة الدرزية أبو حسين ص 85.
(3) خلاصة الأثر، المحبي ج 4 ص 295.
(4) فخر الدين المعني، الخوري بولس قرالي ص 36.
(5) نفس المصدر السابق ص 216.

كان الشيعة يتواجدون في جبل لبنان حكاماً وسكاناً قبل الفتح العثماني، وكانت مراكز حكمهم في جبيل[1] وكسروان[2] وبشناتا[3] والمنيطرة[4] والهرمل[5]. كانت مقاطعات جبل لبنان في أيام المماليك هي جبة منيطرة والظنيين وبشرية وجبيل والبترون بالإضافة إلى حصن عكار[6]، وتغير هذا التقسيم الإداري في ظل ولاية طرابلس العثمانية مراراً وإن كان غالباً يستقر على كسروان والفتوح والمنيطرة وجبيل والبترون والضنية والكورة والزاوية وجبة بشري وعكار والهرمل.

تمتد المنطقة الدرزية من نهر الكلب حتى جزين حيث تنتهي الولايات الجنوبية لحكومة الأمير بشير ولسنا نجد دروزاً قرب نهر الكلب فمن أعالي هذا الجبل الذي يشرف على طرابلس ممتداً حتى ولاية عكار لا نجد درزياً واحداً فجل سكان هذه الناحية هم من الموارنة والروم وهذه الطوائف كانت في منازعات دائمة مع المتاولة حكام هذه المقاطعة القدماء ومالكيها[7].

أوكل العثمانيون ولاية طرابلس إلى أسرتين من التركمان والأكراد هما آل سيفا وآل عساف تولوا على المدينة فصار نفوذ الوالي على مقاطعاتها لا يختلف كثيراً عن نفوذ والي الشام على البقاع ووادي التيم أو والي صيدا فيما بعد على مقاطعات جبل عامل الثماني. وبعد اختفاء الأسرتين مع انقضاء القرن العثماني الأول تولى على طرابلس موظفون عثمانيون مرسلون من الباب العالي ولكن سلطانهم على كامل القسم اللبناني لم يتجاوز الشكل في غالب الأحيان فقد حكم الحماديون الشيعة جبل لبنان ساحلاً وجبلاً من بيروت إلى طرابلس[8] ولم يكن تاريخ جبل لبنان لفترة طويلة من الزمن إلا محاولات عثمانية عقيمة يقوم بها الباب العالي في اسطمبول للخلاص من هؤلاء القزلباش الملاعين[9] وتخليص البلاد من حكمهم الشرير[10] دون أن يحرزوا نجاحاً

(1) تاريخ لبنان، مكي ص 266.
(2) راجع الوثيقة «منشور أحمد حمادة إلى الحصري».
(3) أخبار الأعيان، الشدياق ص 193.
(4) تاريخ الأزمنة، الدويهي ص 363.
(5) أخبار الأعيان، الشدياق ص 192 والهرمل معروفة بناحية المناصف مساحتها 635 كلم2 وجميع أهلها كانوا ولا يزالون إلى اليوم من الشيعة.
(6) نيابة طرابلس في عهد المماليك، د. الياس القطار ص340.
(7) بيروت ولبنان، القنصل هنري غيز، 12 ص 219 .
(8) D. D .C. T1 p180 .
(9) الإمارة الدرزية، أبو حسين ص 61.
(10) المصدر السابق ص 63.

يذكر قبل منتصف القرن الثامن عشر فاستمروا حكام لبنان وأسياده[1] حتى سقطوا أمام تحالف دولي عثماني محلي فاعل.

جبل عامل

كان بنو بشارة الرافضة في عهد المماليك يحكمون ولايات جبل عامل الثلاث تبنين وصور والشقيف وقد اختفى اسمهم مع بداية العهد العثماني ليظهر بعد مدة ورثتهم بنو علي الصغير إلى جانب أسر شيعية أخرى كآل سودون وآل شكر وآل منكر وبقي الحكم الشيعي مستمراً في هذه النواحي طيلة الحقبة العثمانية ولم ينقطع إلا نحو عشرين عاماً بعد النكبة الكبرى التي أعقبت معركة يارون ومقتل ناصيف النصار سنة 1781م التي حولت سهول جبل عامل إلى أرض محروقة وسكانه إلى مقموعين ومشردين وثوار. ثم عاد الحكم الشيعي مع عودة الطياح ليستمر حتى سقوط الحكم الإقطاعي مع وفاة علي بك ومحمد بك الغامضة في دمشق سنة 1865م.



جبل الدروز ووادي التيم

كان وادي التيم المنطقة الوحيدة التي رسخت فيها جذور الدعوة الدرزية ومن المرجح أن الذين قبلوا العقيدة الجديدة كانوا من الشيعة إذا لم يكونوا من الإسماعيليين[2] وأطلق اسم التيامنة على سكان وادي التيم من الشيعة والدروز[3] وخلال الدعوة التوحيدية كان أهل القرية الواحدة في وادي التيم بل أبناء الأسرة نفسها ينقسمون فريقين: أحدهما يقبل الدعوة ويلتزم بها في حين أن الفريق الآخر يبقى على مذهبه السابق[4]. وقد استمر الإنحسار الشيعي عن هذا الوادي وعن جبل الشوف المجاور له لمصلحة المد الدرزي حتى أصبح الأخير طاغياً على الوادي والجبل معاً في العصر العثماني، وبقيت الغارات المملوكية ثم العثمانية من تقاليد الإدارة في دمشق مركز الحكم.

«في سنة 1512م قام نائب دمشق المملوكي سيباي بحملة على أهل وادي التيم وقرى المتن ونهب ما حولها[5] وفي سنة 1524م قام أمير دمشق العثماني خرّم

---

(1) D.D.C. T1 p271.

(2) مختصر تاريخ لبنان، فيليب حتي ص 117.

(3) التنوخيون، حمزة ص 130.

(4) حوادث الزمان، ابن الحمصي 570.

(5) المرجع نفسه ص 488.

الرومي بحملة على وادي التيم فقتل من أهلها جمعا كثيرا وقطع رؤوسهم وأحضرها إلى دمشق وحرق بيوتهم ونهب أموالهم وقطع أشجارهم وكانوا من التيامنة والدروز وقام النائب خرم نفسه بحملة أخرى في العام ذاته على بلاد الدروز مع عسكره فأحرقوا غالبها وقتلوا غالب أهلها ونهبوا أموالهم وسبو نساءهم وأولادهم وحضروا بهم إلى دمشق وباعوهم»[1].

رغم ما تعرضت له المنطقتان الدرزيتان المتجاورتان من حملات عثمانية، ولا سيما في القرن الأول من دولتهم، فليس هناك ما يدل على أن حكامهما كانو في فترة ما من الدروز مذهب أكثرية أهلها. فالشهابيون الذين تعاقبوا على وادي التيم كانوا من السنة واستمروا كذلك بعد أن أصبحوا حكام جبل الدروز حتى تنصر آخر حاكمَين منهم وهما يوسف وبشير. وكذلك العائلات التي سبقت الشهابين كالتنوخيين والمعنيين فليس هناك ما يثبت أنهم كانوا دروزا. إنما تشير الدلائل التاريخية علي أنهم، أو أن معظمهم كانوا من السنة أيضاً.

افترض أتباع الحكم الشهابي الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة في منتصف القرن التاسع عشر، تحت وطأة الإنقسام الطائفي الحاد حوله،أن أسراً ثلاثاً توالت على حكم لبنان وأورثت كل منها شرعيتها إلى الأخرى وذلك بوضع سياق تاريخي هش وواهن لا يصمد أمام التحليل والواقع ويتخبط في سرد أمور ووضع أحداث ليست في الواقع التاريخي أكثر من خرافات لا صحة لها.

لم يكن هناك «إمارة لبنانية» أو حتى إمارة تشمل قسماً من لبنان توالى على حكمها التنوخيون والمعنيون والشهابيون وامتازوا عن باقي العائلات اللبنانية التي كان لها في نفس الحقبة وضع إداري واجتماعي مماثل أو مشابه أو مقارب لها في مناطق أخرى ولم يختلف وضع هذه الأسر الثلاث عن غيرها في سائر المقاطعات في لبنان. إن هذا الموضوع لا بد أن يحتمل بعض التفصيل والنقاش[2].

---

(1) المرجع نفسه 569 و 575 ومن الواضح أن المقصود بالتيامنة هم الشيعة الذين حافظوا على مذهبهم القديم ولم يتحولوا إلى الدرزية.

(2) راجع حول هذا الموضوع فصل الشيعة والإمارة اللبنانية.

أولاً: التنوخيون والبحتريون

بعد استرداد الساحل اللبناني من الصليبيين، عمد المماليك إلى إتخاذ تدابير تحول دون عودتهم أو قيامهم بغارات على المدن الساحلية المحررة، وذلك بتكليف بعض السكان المحليين بمهمات أمنية محددة في مناطق معينة، لقاء أجر معلوم عيناً أو مالاً، حسب الأنظمة المعمول بها في ديوان الجيش الذي تعود له صلاحية تحديد الإقطاعات العسكرية والإشراف على ما يتعلق بها، فكان من جملة هذه التدابير استقدام عدة أسر من التركمان وتوزيع إقطاعات عليهم لقاء أجورهم السنوية وإقامتهم فيما يعرف حتى اليوم «بالأذواق» كما أنشأوا تنظيماً عسكرياً عرف بجند الحلقة يضم مجندين من أفراد بعض الأسر المحلية التي تقيم خصوصاً في نطاق معاملة بيروت. فشكلوا مع التركمان قوات رديفة للجند النظامي من أجناد النائب والأمراء تخضع لهيكلية مختلفة عن سائر الجيش بتشكيلاتها ورتبها ورواتبها. ويتألف أجناد الحلقة من مفارز تضم كل منها عدداً غير محدد من الجنود لا يزيد عن خمسين وقد يقل عن عشرة جنود وعلى رأس كل مفرزة واحد منهم يسمى أميراً.

«كان لجند الحلقة أمراء عشرة وأمراء خمسة ولم يكن بينهم أمراء خمسين. وأمراء الأربعين بينهم قلائل. وقد بلغ أجناد الحلقة في أوائل القرن الخامس عشر أربعة آلاف وتكون مناشيرهم من السلطان أو من ديوان الجيش وإقطاعاتهم في الجيش حوالي الألف دينار لأعيان الحلقة المقدمين عليهم ثم ما دون ذلك إلى مايتين وخمسين دينارا»[1].

إن معظم الأسر التي حملت لقب الأمير لقرون عديدة إنما توارثته كرتبة عسكرية من تسميات جند الحلقة - رئيس مفرزة - وليس له علاقة بألقاب الحكم والسلطة.

كان البحتريون أمراء في جند الحلقة وليست المناشير السلطانية التي ذكرها صالح ابن يحيى وتتعلق بأفراد من عائلته إلا أجورهم عن خدمات عسكرية مكلفون بها وهي سارية في مدة خدمتهم ويمكن إلغاؤها أو تغييرها في أي وقت.

كان إقطاع أشهر أمرائهم ناصر الدين بن الحسين وأقاربه لا يتجاوز عدة ثلاثين فارساً ومع ذلك عندما أرادت دولة المماليك ضبط الخراج والأراضي وتنظيم الإقطاع في بلاد الشام وعمدت إلى مسح الأراضي «روك» وتوزيعها بين الأمراء ورجال الإقطاع

(1) منطلق تاريخ لبنان، الصليبي، ص 129.

عن طريق الحظ والبخت فاستبدلت إقطاعات التنوخيين بغيرها في أماكن أخرى بعيدة عن ديارهم.

وجه ناصر الدين كتاباً إلى نائب السلطة في دمشق طالباً منه «**بما أنهم ملتزمين بمهامهم بحفظ ثغر بيروت المحروسة مجتهدين في خدمة مولانا السلطان وأملاكهم الحالية بعدة ثلاثين فارساً فإذا دخلت الروك هلكوا لأن مساكنهم فيها وأهلهم وعشيرتهم**»[1] من الواضح في كتابات صالح ابن يحيى الأمير البحتري «**وصاحب البيت أدرى بما فيه**» وكذلك المؤرخ الدرزي الآخر ابن سباط الذي أخذ عنه وتابع حتى وفاته في السنة الأولى من الحكم العثماني. إن البحتريين لم يكونوا في زمانهم أسرة تتوارث الحكم في الغرب أو في أية منطقة[2] أخرى بل كل ما في الأمر أنهم كانوا أبرز عائلة بين أعيان تلك المنطقة[3] وربما أهلتهم وجاهتهم وثروتهم بعد أن تعاطوا التجارة في بيروت في فترة ازدهارها إلى الطموح للمناصب الحكومية وإنما كان لذلك طابع شخصي فردي بحت لا علاقة له بشؤون الإمارة وتوارثها.

يقول بعض المؤرخين أن ناصر الدين الحسين أصبح بعد وفاة شمس الدين كرامه صاحب الأمرية الكبرى وكبير أمراء الغرب بعد أخذ الأمرية بمنشور من الملك الناصر محمد بن قلاوون. وفي الواقع لم يكن ناصر الدين من الناحية الرسمية أكثر من ضابط حلقة من مرتبة متوسطة[4] وكذلك أبناؤه من بعده حتى حُلَّ «جند الحلقة» ولم يعد له وجود في وقت لاحق من القرن نفسه. وليس لهذا المنشور أو لغيره من المناشير المماثلة التي يصدرها سنوياً ديوان الجيش في مركز النيابة لاجناد الحلقة والتي حفل بمثلها تاريخ صالح ابن يحيى وأخذت عنه التواريخ اللاحقة أي مدلول تاريخي يتوقف عنده في أمور الولاية والحكم في الفترة التي صدر فيها. إنما هو يعطي صاحبه لمدة عام واحد حق الاستغلال العقاري لمزارع أو قرى وأحياناً جزء منها وهي «**عرمون ومزارعها، حي بشالا، كيفون، بيصور، ثلث عين عنوب، ثلث كفرعميه، ثلث بتاتر، مرتفون، فدان في الفريديس، عيناب، ثلث حصة الملك بخلدة**».[5] وهي لا تعدو أكثر من أجور عشرين جندياً بينما اقتصرت غيرها من المناشير على أجور عشرة أو خمسة أو أربعة إلى ثلاثة جنود

(1) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى، ص 86.
(2) التنوخيون حمزة ص 234.
(3) بيت بمنازل كثيرة، الصليبي، ص 160.
(4) بيت بمنازل كثيرة، الصليبي، ص 161.
(5) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى ص 86 ـ 87.

وليست الألقاب التي تقترن بأسماء أصحابها كأمير عشرين وأمير عشرة وأمير خمسة وأمير أربعة وأمير ثلاثة إلا رتباً عسكرية متدنية لا تعني إمارة ولا سلطاناً كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان. ومن المؤكد أن هذه الرتب لم تكن يوماً وراثية[1] رغم أن الإستعمال الشعبي قد احتفظ بلقب الإمارة لعدد من العائلات التي دخلت في جند الحلقة وكانت تقيم في نواحي مدينة بيروت على الأخص كما بقي هذا اللقب ملاصقاً لأمراء جند الحلقة من التركمان الموكول إليهم المحافظة على سواحل كسروان شمالي مدينة بيروت.

إن عدة أسر تنافست على الوجاهة والرئاسة والنفوذ في جبل الدروز قبل فخر الدين. ولم يكن المعنيون في أي وقت قبله أمراء عليه أو على غيره من المناطق اللبنانية. وان المقابلة التي تتحدث عنها بعض المصادر بين السلطان سليم ووفد من أعيان لبنان من بينهم من أطلقوا عليه إسم فخر الدين الأول، الذي استطاعت بلاغته أن تثير أريحية السلطان فيمنحه مجموعة من الألقاب والمناصب، ليست إلا خرافة وضعها الشهابيون وأنصارهم في وقت لاحق لتأكيد أهليتهم المستمدة من قرابتهم للمعنيين وإثبات شرعيتهم بوجه منافسيهم الدائمين آل علم الدين. وليس هناك حاكم معين تناولته المصادر في العهد العثماني قبل فخر الدين. وأن الجامع الذي أقامه فخر الدين عثمان ابن الحاج يونس بن معن في دير القمر سنة 1493م كما ذكر ابن سباط يدل على أنهم كانوا في ذلك الوقت عشيرة قوية وثرية وأن لبعض أفرادها مطامح سياسية وإجتماعية دفعتهم لبناء مسجد في بلاد يندر فيها هذا النوع من الأبنية.

بقي المعنيون على مدى الجزء الأكبر من القرن السادس عشر مجرد مقدمين في الشوف يسيطر بعضهم على قرى مختلفة بوصفهم متغلبة محليين أكثر منه كزعماء عشائريين. وقد قوبل الحكم العثماني الجديد بمقاومة ملحوظة من القوى المحلية التي كانت موالية للمماليك أو متضررة من الحكم الجديد ولا سيما من العشائر الكبيرة فبعد مقتل ابن الحرفوش جاء دور ناصر الدين ابن الحنش قبل محاولة الغزالي لإعادة إحياء دولة المماليك فجمع عسكراً من العرب والجركس والكرد والدروز من أجل هذه الغاية ولكنه دفع حياته ثمناً لهذه المحاولة.

«ويبدو حسب ما يتضح من وثائق البندقية التي تعود لهذه الفترة أنها كانت تتعاطف بقوة مع المقاومة المحلية للعثمانيين. وتزود العناصر المنخرطة فيها ومعظمها من العشائر بأسلحة نارية هي عبارة عن «بندقية»، وربما هذا الاسم لا يزال شائعاً

(1) التنوخيون، حمزة ص 125.

بسببها حتى اليوم، وقد يكون هذا الدعم من أسباب قيام العثمانيين بانتزاع قبرص من البندقية لتصبح منذ ذلك التاريخ 1570م من أملاك الامبراطورية ودفعهم إلى القيام بحملات عسكرية متعددة على بلاد الدروز لنزع هذه الأسلحة والقضاء على المقاومة التي يبدو أن آل معن لعبوا دوراً في قيادتها واستمروا في المقاومة حتى بعد تراجع العديد من زعماء الدروز عنها فدفعوا ثمن ذلك حياة بعض رجالهم ومنهم المقدم قرقماز الذي سقط في أعنف هذه الحملات وأعتاها سنة 1586م[1]».

ليس لآل معن أي ذكر ثابت في الشوف في الأصول التاريخية قبل القرن الخامس عشر[2]. ولم تكن متابعة أخبارهم غاية مقصودة بذاتها ولم ترد أسماؤهم إلا عرضاً في مجال علاقتهم بالبحتريين والإرسلانيين[3] ولم يذكر المؤرخ الدرزي المعاصر ابن سباط أية واقعة تاريخية تتعلق بممارستهم القيادة والحكم واقتصر بذكر تاريخ وفاة رجلين منهم هما فخر الدين عثمان مقروناً بلقب أمير الأشواف ووفاة يونس شاباً في تاريخ لاحق 1511م[4] وتسكت بعدها جميع المصادر عن أخبارهم بما فيها المصادر المعاصرة لأحفادهم، والتي حاولت عبثاً بدافع من الموالاة أو العلاقة الشخصية أو الميل والتحزب، إضفاء الأصالة والإستمرار على سلالتهم منذ ما قبل الفتح العثماني[5] ولا يظهر اسمهم مرة أخرى إلا مع ظهور الأمير فخر الدين في وقت متأخر ومن خلفه من ورثته حتى انقراض هذه العائلة نهائياً بموت آخر رجالها الأمير أحمد المعني سنة 1697م. وقبل ظهور فخر الدين كان الزعماء العشائريون الفعليون في الشوف كما في سائر بلاد الدروز هم المشايخ المترئسون لتجمعات العشائر الدرزية المختلفة، وكان بإمكان هؤلاء أن يكونوا أصدقاء أو أعداء للمقدمين المعنيين حسب الظروف[6] وليس هناك ما يثبت أن المعنيين كانوا دروزاً في أي وقت بما فيهم الأمير فخر الدين. بل هناك دلائل حاسمة على أنه كان على المذهب السني كما يجزم زواجه المؤكد بأكثر من امرأة واحدة، وجمعهن في وقت واحد، واندفاعه نحو بناء المساجد حتى في القاع البعيدة عن التواجد السني أو في مكان هجرته المؤقتة في أوروبا. وقد حاول الكثيرون إثبات درزيته أو تنصره دون نجاح كبير.

«وما قصة فخر الدين إلا قصة زعيم أو عين محلي أوكل إليه العثمانيون حكم

(1) بيت بمنازل كثيرة، الصليبي ص 164.
(2) منطلق تاريخ لبنان، الصليبي ص 106.
(3) التنوخيون، مصلح ملاعب يحيى ص 204.
(4) صدق الأخبار، ابن سباط ص 931 ـ 934 و 930.
(5) مثل البطريرك الدويهي والشهابي والشدياق.
(6) بيت بمنازل كثيرة، الصليبي ص 163.

سنجقي بيروت ـ صيدا ثم سنجق صفد فيما بعد». واعتمد عليه مراد باشا القائد العسكري وصاحب النفوذ الكبير في دوائر السلطنة في مراقبة تحركات الشيعة اللبنانيين المشكوك بولائهم مع انبعاث القوة الصفوية وتجدد الحرب بين الدولتين و ما لبث التوسكانيون أن تقربوا منه واستثاروا فيه طموحاته كما فعلوا مع معاصره الجنبلاطي في حلب وهكذا بدأت مشاكله مع أسياده العثمانيين فخابت آماله بأصدقائه في ما وراء البحار وانتهى قتيلاً في عاصمة السلطنة[1] ، وهو لم يمنح أبداً رتبة عثمانية أرفع من رتبة «أمير لواء» وهي رتبة سنجق بك العثمانية على صيدا ـ بيروت وصفد».[2].

ولا بد من التأكيد على أن ألقاب الإمارة التي تطلق بغزارة في التواريخ والتقاليد اللبنانية على كثير من العائلات ليس ليها أي مدلول تاريخي أو محتوى سلطوي وإنما يبدو أنها تعود بأصولها إلى حالتين متمايزتين.

يعود بعضها في جذوره إلى أن مناشير الجيش التي تصدر في دمشق إلي جند الحلقة كانت تذكر رتبة صاحبها العسكرية سواء إذا كان أمير ثلاثة أو خمسة أو عشرين جَندياً. ومعظم العائلات التي يطلق على أفرادها هذا اللقب يعود لأنهم كانوا في وقت ما منتظمين في عداد جند الحلقة ويقيمون عادة في المناطق القريبة من سواحل بيروت حيث استمر هذا التنظيم قائماً إلى وقت متأخر[3].

أما الأصول التاريخية الأخرى لمنشأ هذا اللقب الذي عمم استعماله على أفراد عائلة بكاملها فيمكن أن تعود إلى بعض الحالات التي وصل فيها أفراد من عائلة معينة في ولاية دمشق إلى إلتزام سنجق فيها كوادي التيم بالنسبة للشهابيين وبعلبك أو حمص بالنسبة للحرافشة فيذكر الملتزم في المراسلات الرسمية بلقب أمير لواء وادي التيم أو أمير لواء حمص وهو لقب كما يبدو يختص بمنصب إداري أو عسكري ولا يحمل في طبيعته أي امتياز وراثي أو يعطي صاحبه أية وضعية إدارية أو بروتوكولية أو سلطوية دائمة[4].

(1) بيت بمنازل كثيرة، الصليبي ص 197.
(2) لبنان والإمارة الدرزية، أبو حسين ص 19.
(3) حول لقب الإمارة ومدلوله، راجع فصل«التنوخيون». وفيه تفصيل عن أمراء جند الحلقة اللبنانيين.
(4) في سورية، حملت هذا اللقب بعض العائلات من العشائر التي كانت السلطة العثمانية تسند إلى رؤوسائها منصب أمير على إحدى القلاع كقلعة الكهف والمرقب ومصياف والخوابي والقدموس مثل «آل ميرزا قبل نزوحهم إلى شرق العاصي». وكانوا يدفعون الأموال الأميرية إلى والي طرابلس الشام أو غيره من الولاة. ولم يطلق هذا اللقب أو غيره على العائلات التي وصلت إلى المناصب الرفيعة كالوزارة والولاية مثل آل العظم، وقد وصل الكثيرون منهم إلى حكم ولايات دمشق وطرابلس وصيدا وغيرها وخصوصاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

لحظ التنظيم الإداري العثماني الإشارة إلى مقاطعات معينة باعتبارها ألوية وسناجق عسكرية مثل صفد وحمص وحماه وسلمية ووادي التيم وبعلبك أحياناً وهي كسائر المقاطعات التابعة لسلطة الباشا خاضعة للإلتزام السنوي. وكل من يقع في عهدته هذا الإلتزام يطلق التقليد العثماني عليه لقب سنجق بك ويعطى رتبة «أمير لواء على سبيل الإلتزام»[1].

ولا يعني هذا اللقب أكثر من إشارة إلى منصبه الإداري ورتبته العسكرية ويبقى كغيره من ملتزمي المقاطعات الأخرى تحت إدارة ورقابة الباشا العثماني في مركز الولاية.

وكانت أكثر الألوية المذكورة في ولاية دمشق خصوصاً. فلما أنشأت ولاية صيدا ألحق بها لواء صفد والنواحي الدرزية اللبنانية في جبل الشوف. ولم يكن هذا التقسيم مرعياً في ولاية طرابلس. فلما تمكن بعض ملتزمي النواحي اللبنانية من الحصول على إلتزام لواء صفد أطلق التقليد العثماني عليهم رتبة أمير لواء أو سنجق بك ومنهم فخر الدين المعني وحسين اليازجي ويونس حرفوش والشهابيان منصور وبشيرالأول وموسى علم الدين. كما كان من عادة الحرافشة إلتزام عدة ألوية في ولاية دمشق مثل حمص وحماه وتدمر فاحتفظ التقليد الشعبي لهم ولذريتهم بهذا اللقب وأعطي مضموناً تاريخياً وسلطوياً عند العامة. أما باقي المقاطعات وخصوصاً في جبل الدروز فلا يحمل ملتزمها أية رتبة عسكرية كما كان حال سرحان العماد ومحمود أبو هرموش وغيرهم كثيرون من ملتزمي نواحي هذا الجبل في فترات مختلفة.

في الفترة نفسها التي كان الغموض يلف تاريخ هذه المنطقة التي لم يتجاوز اتساعها في أي وقت حدود مدينتي بيروت وصيدا بين البحر وسهل البقاع والتي يعجز المنقب عن تسمية حاكم أو أمير عليها قبل فخر الدين إلا باللجوء إلى الإفتراضات التي يعوزها الكثير من الإثبات والتأكيد. كانت باقي المناطق اللبنانية تنتظم في وحدات ثلاث حددت خصائص كل منها متطلبات الموقع الجغرافي والوضع الإداري والطبيعة السكنية إلا أن الإنتماء المذهبي المشترك أوجد بينها عوامل تشابه كثيرة في مجالات مختلفة ولا سيما بكل ما يعود إلى علاقاتها مع السلطة الحاكمة ومع غيرها من المجموعات الأخرى.

(1) أعطي موسى علم الدين رتبة أمير لواء على سبيل الإلتزام في الحكم الصادر في شوال 1105 أ.د.م. 28 - 105.

تابعت هذه الوحدات جميعها مسيرتها التاريخية طيلة القرون العثمانية الثلاثة، وسلكت دروباً مختلفة، كثيراً ما تقاطعت أو تباعدت وتنافرت أحياناً ولكنها في جميع الظروف كانت رحلة غنية وحافلة بما لا يحد من تحركات وتطلعات، املتها عوامل ذاتية أو خارجية أو قدرية، وتفاعلت معها آمال وعواطف وغرائز وهواجس ومطامع، وسمت تاريخ لبنان بهذه الخصوصية التي تلوح ملامحها جلية في كل حقبة منه، ومنحته بعض التمايز عن تاريخ جيرانه وشركائه في ظل الامبراطورية المترامية الأطراف.

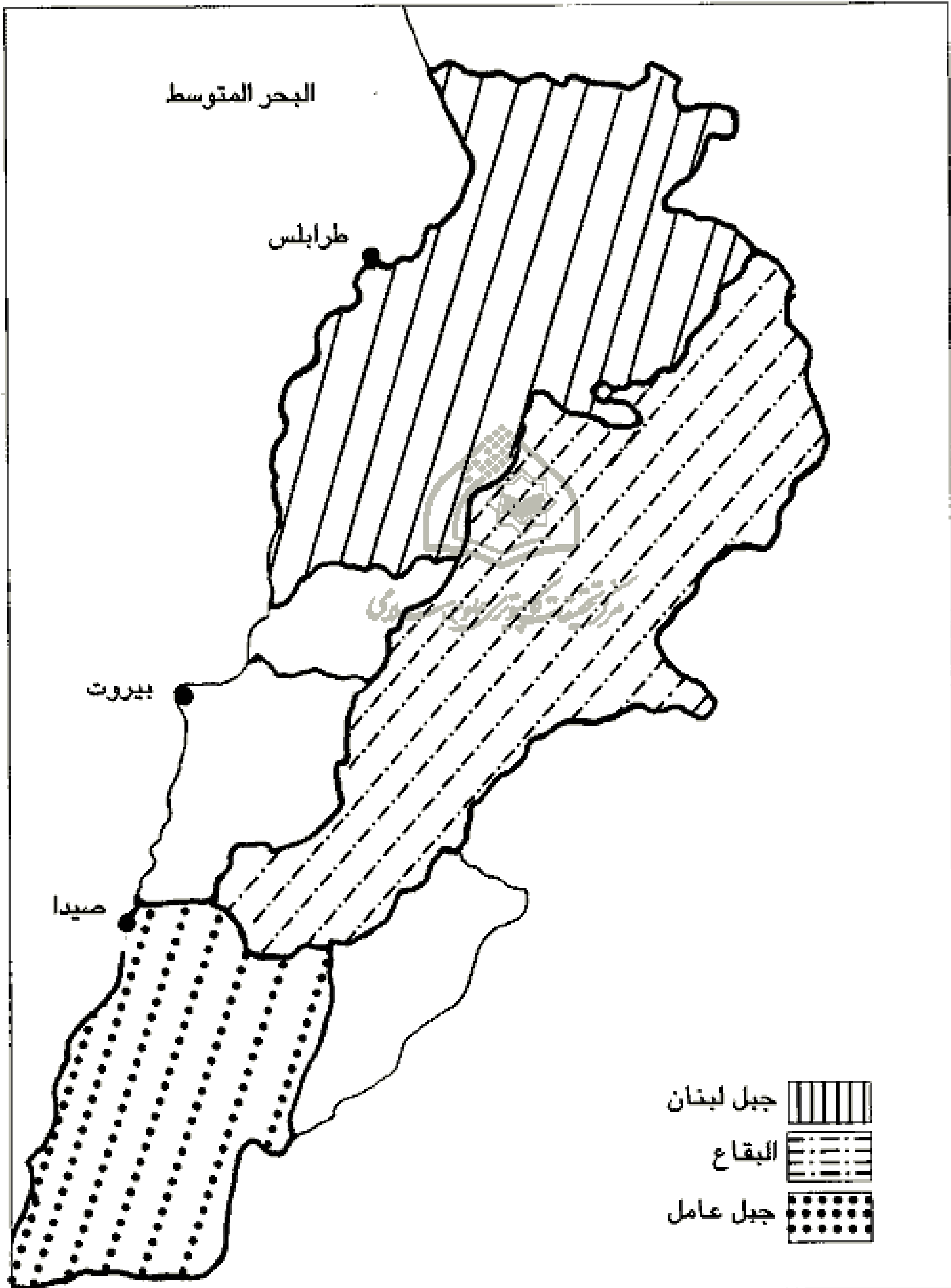
عرفت الوحدة اللبنانية الأولى في العهد العثماني بجبل الدروز، وكان وادي التيم يعتبر دائماً حديقتها الخلفية، رغم أن حكامه لم يكونوا دائماً من المذهب نفسه.

كان الشيعة يسيطرون على لبنان كله قبل العهد العثماني بمدة طويلة[1] وبقيت الوحدات اللبنانية الثلاث الأخرى تحت هذه السيطرة بعد ذلك. وطيلة هذا العهد وحتى قيام نظام القائمقاميتين والمتصرفية وسقوط الحكم الإقطاعي في لبنان كله. وأن الفصل الأبرز في تاريخ لبنان والأكثر مأساوية ودموية هي المحاولات العسكرية العثمانية التي تكاد تكون متواصلة لتغيير هذا الواقع والمقاومة التي أبداها الشيعة في وجه ذلك.

إن الوحدات الثلاث التي خضعت للحكم الشيعي معظم العهد العثماني تشكل في مجموعها أكثر من 80% من مساحة لبنان الحالية وكان الشيعة فيذلك الوقت يزيدون فيه حتماً على 38% من سكانه ويؤلفون الطائفة الأكثر عدداً بنسبة بارزة بين مجموع طوائفه.

(1) تاريخ لبنان الحديث كمال الصليبي ص 15 ويضيف ماعدا «بشري وجبيل والبترون» وفيالواقع إن هذه النواحي الثلاث بقيت تحت الحكم الشيعي معظم العهد العثماني وحتى التهجير وكان بعض سكانها من الشيعة ولو كان الوجود المسيحي السرياني ثم الماروني كثيفاً فيها.

المقاطعات الشيعية الثلاث



مساحة المقاطعات اللبنانية في العهد العثماني

المقاطعة	المساحة
البقاع وبلاد بعلبك	3285 كلم²
جبل الدروز ووادي التيم[1]	1366كلم²
العرقوب والبلان	244 كلم²
جبل لبنان	1622 كلم²
عكار	774 كلم²
كسروان[2]	521 كلم²
العاقورة[3]	82 كلم²
جبل عامل	1796 كلم²
مدن بيروت وصيدا وطرابلس	142 كلم²
الهرمل	635 كلم²
	10467كلم²

(1) راجع جدول المساحات المفصلة في كل ناحية.
(2) كان الوجود الشيعي في هذا القرن طاغياً في كسروان وكانت تحت الحكم الشيعي حتى استطاع فخر الدين اقتطاع قسم منها الحق بولاية دمشق وأصبح جزءاً من جبل الدروز بينما بقي القسم الآخر تحت حكم الشيعة. راجع فصل كسروان.
(3) كانت العاقورة جزءاً من إمارة بعلبك حتى تنازل عنها أميرها الشيعي حسين الحرفوش إلى حاكم جبل لبنان الشيعي الآخر اسماعيل حمادة سنة 1702م وبقيت في الحالتين تحت الحكم الشيعي. «الشدياق الجزء الأول ص 90».

نواحي الحكم الشيعي في البقاع

المنطقة الأولى[1] 1- بعلبك والبقاع									
النواحي 6	القرى: عدد القرى	القرى: أهم القرى	السكان[4]	المساحة	شيعة	سنة	دروز	نصارى جميع المذاهب	أقليات
بعلبك	37	بعلبك ـ رأس بعلبك	34092	1782	14610	13908		5400	يهود 174
كرك نوح	39	كرك ـ زحلة	21780	841	18222			3558	
البقاع قورنة	30	قب الياس ـ جديتا	11616	181	4974	6804			
شوف البياض[2]	24	مشغرة ـ القرعون	13062	206	4542	7260		1260	
شوف الحرادين[3]	14	عيتنيت ـ شتورة	3882	194	270	3612			
حمّارة	23	حمّارة ـ غزه	7212	163	240	5226	330	1416	
6 نواحي	167		91644	3367	42.858	36810	330	11634	174

(1) تستند هذه الجداول إلى لبنان في القرن السادس عشر، التقسيمات الإدارية، الديمغرافيا الأديان والمذاهب، عصام خليفة وهي دراسة تعتمد الطابو الدفتري العثماني.

(2) شوف البياض، ناحية في البقاع أهم بلداتها مشغرة (راجع فصل مشغرة).

(3) شوف الحرادين، ناحية في البقاع تقع بين شوف البياض وشوف ابن معن، أهم بلداتها، عيتنيت وشتورة. وكانت الشوفان البياض والحرادين من نواحي لواء الشام، بينما شوف الدروز يتبع لواء صفد، وبعد تأسيس ولاية صيدا ألحق بها، بينما بقيت البياض والحرادين من نواحي ولاية دمشق مثل بعلبك.

(4) يمثل مجموع عدد السكان ستة أضعاف عدد الذكور المسجلين في الدفتر العثماني. على ارجح التقديرات.

نواحي الحكم الشيعي في جبل عامل

المنطقة الثانية 2- جبل عامل

النواحي	عدد القرى	أهم القرى	السكان	المساحة	شيعة	سنة	نصارى	دروز	أقليات
بلاد بشارة	75	تبنين ـ بنت جبيل	23562	896	23226		336		
إقليم التفاح	25	جباع ـ كفرحونة	7458	238	7458				
إقليم الشومر	14	زريرية أنصار	5610	199	5610				
الشقيف	37	النبطية ـ كفررمان	8778	325	8616				
جزين[1]	8	جزين ـ روم	1800	96	1800				
جيرة[2]	*	الناقورة ـ علما	3264	42	2784	420			يهود 60
	159 قرية		50472	1856	49494	420	336	ـــــ	60

(1) كانت جزين تحت الحكم الشيعي قبل العهد العثماني وبقيت كذلك وحسب الدفتر العثماني فإن جميع سكانها كانوا في هذا القرن من الشيعة، وكانت وإقليمها من أول البلاد التي هُجر منها الشيعة في جبل عامل. راجع فصل «جزين».

(2) يقع القسم الجنوبي من هذه الناحية في فلسطين حالياً.

نواحي الحكم الشيعي في جبل لبنان

المنطقة الثالثة 3- جبل لبنان

النواحي	القرى		السكان	المساحة	شيعة	سنة	نصارى	دروز	أقليات
كسروان	36	فيترون - حراجل	6394	521	2310	678	2052	312	
الفتوح	11	كفر صفرا - كفور	612	67	246		366		
المنيطرة	8	لاسا - أفقا	258	139	162		96		
جبيل	45	جبيل - حاثل	2904	210	612	174	2130		
البترون	46	البترون - الكفور	7494	270	816	1566	5112		
بشري	40	بشري - إهدن	5514	245	156	66	5292		
الكورة	42	أميون - بطرام	11352	200		2082	9270		
الضنية	30	سير - بخعون	570	348		3402			
الزاوية	33	المنية - رشعين	4860	143		2262	2598		
الهرمل[1]	3	الهرمل - أكروم	570	635	300	276			282
عكار[2]	80	عكار - برقايل	10098	774	132	6498	3252		علويون
	374		50626	3052	4734	16998	30168	312	282

(1) يبدو أن الكثافة السكانية في ناحية الهرمل ،المناصف الشاسعة والتي تبلغ مساحتها 635 كلم^2 (أكثر من مساحة نواحي جبيل والبترون والزاوية مجتمعة). كانت قليلة جداً

وهناك قرائن تؤكد أن عدد السكان في هذه الناحية يفوق بأضعاف ما سجله الدفتر العثماني (50 ذكراً من الشيعة) فقد زارها الرحالة ابن المحاسن سنة ←

نواحي الحكم المعني

المنطقة الرابعة 4- جبل الدروز

النواحي	القرى		المساحة	السكان	دروز	سنة	نصارى	شيعة
الشوف	45	بعقلين ـ دير القمر	257	12750	12750			
إقليم الخرنوب	21	شحيم ـ برجا	183	4596		4356		240
المتن	24	عبادية ـ شبانيه	164	4800	4626	1626	12	
الجرد	18	عين دارا ـ مجدل بعنا	133	5256	4644	612		
الغرب	32	قدرون ـ عالية الشويفات	161	10488	9744	378		366
	140		898	37890	31764	6972	12	606

تابع هامش

1637م فوجد فيها جامعاً كبيراً عالي المنار به عواميد كبار مقبى بالأحجار وبها جامعان آخران آكبر منه [أ] وكان في القيرانية قلعة وأغلال أثارت اهتمام فخر الدين فسعى لنهبها [ب] ولم يكن سقوط أربعين قتيلاً في معركة واحدة للدفاع عن القلعة من الأمور المستحيلة [ج]. وربما جهد أهل هذه المنطقة للحؤول دون تسجيلهم في سجلات الدولة هرباً من شرها لأنها طالما جعلتهم «منهوبين وحالهم أسود من كل برحالك(د).

(أ) المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية؛ يحيى بن أبي الصفا المعروف بأبي المحاسن، ص 50.

(ب) تاريخ الصفدي، ص 77.

(ج) دواني الملوف، الجزء الأول، ص272.

(د) رحلة ابن محاسن ص 451.

(2) كانت عكار ثلاث نواحي في مستهل العهد العثماني هي حصن الأكراد، عرقا، عكار ثم أصبحت ناحية واحدة يتولاها ضابط واحد عرف بضابط ناحية عكار «تاريخ عكار، فاروق حبلص، سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس، سجل 7 ص 118 و 132».

نواحي الحكم الشهابي في وادي التيم

المنطقة الخامسة 5- وادي التيم							
النواحي	القرى	المساحة	السكان	دروز	سنة	نصارى	شيعة
وادي التيم	حاصبيا ـ ميمس	468	3684	2922	762		
العرقوب	راشيا ـ عين جرفا	165	1092		1092		
إقليم البلان	ـــ	79	ـــ				
		712	4776	2922	1854		

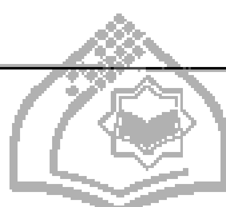


الإمارات اللبنانية في القرن السادس عشر				
	المساحة كلم²	السكان	عدد النواحي	عدد القرى
الإمارة الشيعية في جبل لبنان	3031	50626	10	374
الإمارة الدرزية في جبل الدروز	898	37890	5	140
الإمارة الشيعية في بعلبك(1)	3367	91644	6	167
جبل عامل	1796	50472	6	159
وادي التيم(2)	712	4776	3	32
مراكز الولايات	142	19548	بيروت وصيدا وطرابلس	
كسروان(3)	521	6394		
	10.467	256.574		

(1) بما فيها العاقورة التي الحقت بعد ذلك بجبل لبنان.
(2) مع اقليمي العرقوب والبلان.
(3) في القرن السابع عشر الحق قسم من كسروان بجبل الدروز.

الباب الرابع

الحكم الشيعي في البقــاع



الفصل الأول: إمارة بعلبك الشيعية.

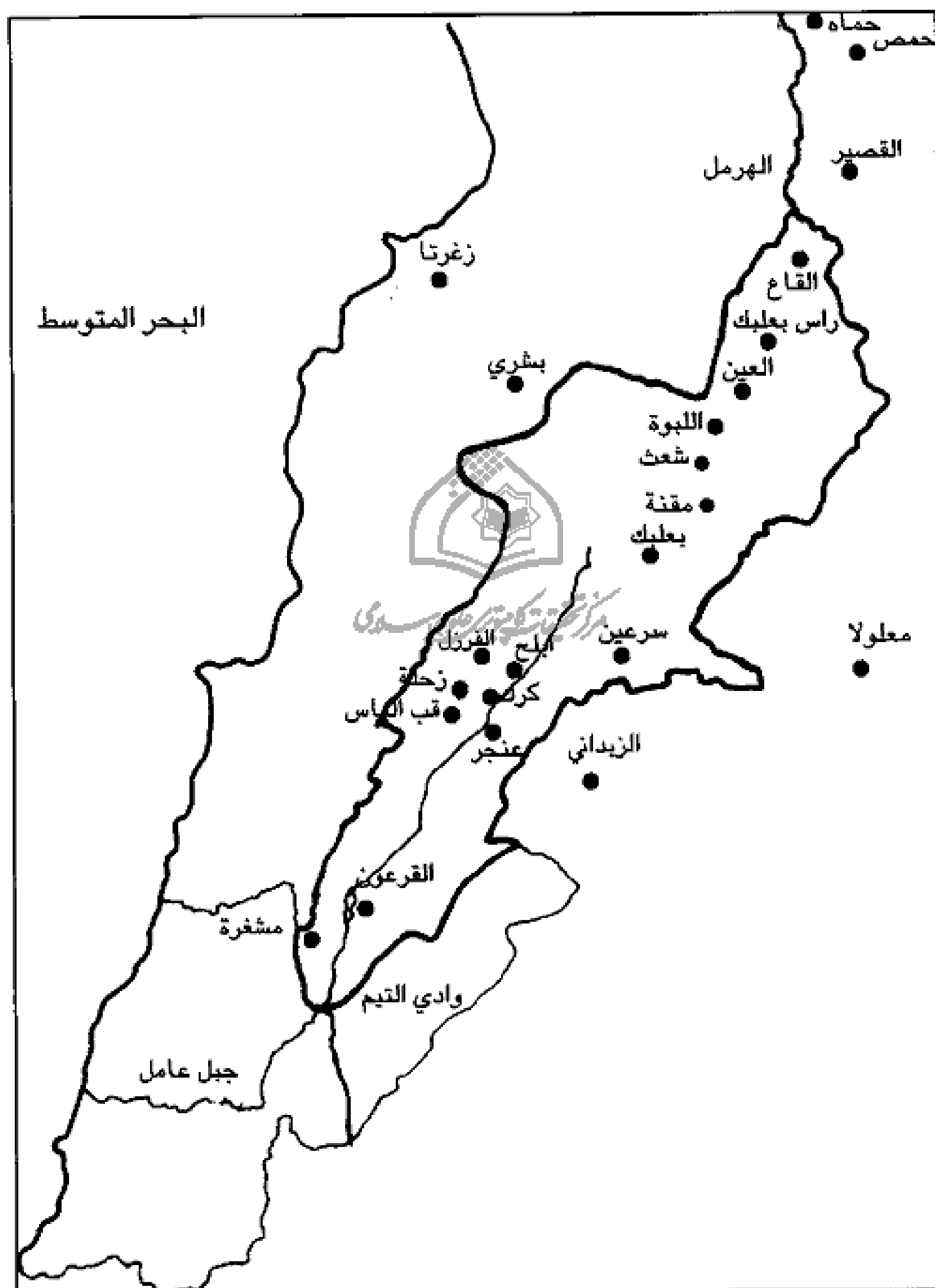
الفصل الثاني: الصراع الشيعي المعني.

الفصل الثالث: الأمراء المحاربون.

الفصل الرابع: بعلبك تحت الحكم المصري.

الفصل الخامس: آخر الأمراء.

إمارة بعلبك الشيعية



الفصل الأول

إمارة بعلبك الشيعية

حكم الحرافشة بعلبك وبلادها ثلاثماية وخمسين عاماً على الأقل[1]، توالى خلالها أكثر من ثلاثين أميراً على الحكم، من دون أية فترة انقطاع ذات شأن، رغم المحاولات التي كان الولاة في دمشق وغيرها من مراكز الحكم يبذلونها عبثاً لتغيير هذا الواقع، متوسلين كل السبل العسكرية والسياسية، ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق أي نجاح يذكر.

لقد استطاع هؤلاء الأمراء المحاربون الاحتفاظ بإمرتهم متخطين بجسارة، كل المصاعب والعوائق والظروف التي اعترضتهم، دون أن يقوم على امتداد هذه الفترة الطويلة شخص،أو أسرة أو عشيرة، أو أي مجموعة أخرى تنافسهم أو تحد من سلطانهم، أو حتى تشكل تهديداً جدياً لهم. مع أنه لم يكن هناك تجمع طبقي أو ارستقراطي أو عشائري يدعمهم، أو تنظيم حزبي أو طائفي أو مذهبي أو عرقي يقف إلى جانبهم. بل بقيت البلاد منقسمة إلى طبقتين: الأولى الأمراء على قمة الهرم، وقد يتنازعون فيما بينهم في حلقة ضيقة لم ينفذ إليها أي عنصر آخر والثانية السكان الذين تجمعهم طبقة واحدة، لا تراتبية فيها، يختار الأمير من بينهم أعوانه بمطلق ارادته. بالإضافة إلى السلطة العثمانية الحاكمة في دمشق، والتي اعتادت في مناسبات عديدة، على محاولة التدخل، من خلال عساكرها وفرماناتها، لتغيير هذا الواقع وإيجاد وضع يتناسب مع مصالحها، تكون هي فيه الممسكة فعلاً بزمام الأمور، ولا ينحصر دورها في إصدار فرمانات تثبت واقعاً لا يد لها فيه.

---

(1) من عام 1497م حتى 1865 م، تاريخ القبض على الأمير سلمان ومقتله. والى جانب البقاع مقرهم الرئيسي حكم الحرافشة في فترات مختلفة حمص وحماه وتدمر وصفد والزبداني.

في العهد المملوكي كانت بعلبك مركز نيابة تابعة لدمشق. ويمكننا تتبع معظم أسماء النواب الذين تعاقبوا على هذا المنصب حتى يونس المخصي[1] الذي يبدو أنه آخر نائب على بعلبك قبل ابن الحرفوش.

ورد اسم ابن الحرفوش لأول مرة كنائب على بعلبك في حوادث سنة (390هـ ـ1497م)، فكان في عداد المشاركين في حصار دمشق مع الدوادار أقبردي[2] الذي ناصره من المقدمين شيخ بلاد نابلس حسن بن اسماعيل، ونائب بعلبك ابن الحرفوش، ومقدم الزبداني ومقدم التيامنة[3] «ابن بشارة»[4]، ومنذ ذلك التاريخ حتى وقت مبكر من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ستبقى سلالة هذا النائب بارزة في جميع التطورات التي شهدتها مدينة بعلبك وبلادها.

لم يتضح تماماً حتى اليوم كيف توصل هذا الحرفوشي الشيعي إلى أن يكون النائب المملوكي على بعلبك، ويورث سلالته إمارتها لأكثر من أربعة قرون. إنما يمكننا أن نتلمس طريقاً شائكاً يعتمد على الحدس والتخمين، بقدر ما يبتعد عما يردده التقليد دون إثبات مقنع وحاسم.

كان الطابع السني، ولاسيما الحنبلي، يغلب على مدينة بعلبك في أواخر عصرها المملوكي[5]، وقد اشتهر من أبنائها في ذلك العصر وبعده علماء حفلت بأسمائهم كتب التراجم، كما حفلت بأسماء زملائهم أبناء قرية يونين[6] القريبة منها، إلا أن باقي الريف البعلبكي كان آهلاً بالشيعة منذ قرون عدة، وقد شاركوا في الأحداث العامة، حروباً ومداولات منذ الغزو المغولي وانحساره بعد معركة عين جالوت سنة 1259 م[7].

في القرن الرابع عشر تعزز هذا الوجود الشيعي القديم، بموجات من المهاجرين

---

(1) مفاكهة الخلان، ابن طولون ج1 ص 102.

(2) الدوادار هو المسؤول عن مراسلات السلطان وبريده.

(3) كان بنو بشارة يحكمون وادي التيم بالإضافة إلى جبل عامل وكان اسمهم يقرن أحياناً بالرافضة

(4) (مفاكهة الخلان) ابن طولون ص163.

(5) بعلبك في التاريخ ،الشيخ قاسم الرفاعي ص 123 والجامع الكبير الذي تقام فيه اليوم صلاة الجمعة هو «مسجد الحنابلة».

(6) هي يونان في معجم ياقوت من قرى بعلبك كانت مزدهرة بالعلم والعلماء وكان المذهب الحنبلي سائداً فيها (المصدر السابق).

(7) التأسيس لتاريخ الشيعة ص 111.

الهاربين عبر الجبال الغربية من بلادهم في كسروان، بعد نكبتها المعروفة، وقد تلاحقت هذه الهجرات، واستمرت بفعل ما كان يتعرض له الشيعة في هذه الجبال من اضطهاد وتنكيل، فاجتازوا القمم العالية في اتجاه المنحدرات المقابلة وما يمتد على سفوحها من سهول واسعة خصبة.

كان من تراث الشيعة، أن يفضلوا العيش في الجبال لما توفره من حماية طبيعية في الأحوال المتأزمة والخطرة، ولذلك لا بد أن المرتفعات الشرقية[1] كانت في نفس الوقت آهلة بالشيعة، حيث لا تزال آثار قراهم القديمة بادية في الوديان العديدة في هذه المناطق. كما أن أصول عائلات كثيرة تعيش اليوم في بعلبك تعود إلى هذه الوديان [2].

كما تزايد عدد سكان القرى القديمة، بما وفد إليها من عمال وفلاحين جدد. ولا بد أن بعضهم قد انتقل إلى بعلبك للإقامة فيها ولو بأعداد قليلة، تزايدت مع مرور الزمن. والمدن دائماً هي عامل جذب لأهل الريف القريب، خصوصاً من المتذمرين من أوضاعهم المناخية أو المعيشية أو الأمنية.

لابد عند الحديث عن الهجرة الوافدة من المرتفعات الشرقية باتجاه السهل ومدينة بعلبك، من الإشارة إلى بعض التقليد المحلي المتواتر، الذي يفيد أن الحرافشة انتقلوا كغيرهم من الجرود الشرقية في جبل الشيخ واستقروا في بعلبك وقراها[3]، حيث ما لبثوا أن تأمَّروا عليها وساهموا في تنشيط هذه الهجرة نحو المدينة وضواحيها، حيث اكتسبت مع الوقت طابعها الشيعي الذي تعرفه اليوم.

حافظ الحرافشة على إمارتهم لمدة طويلة رغم العواصف التي كانت تهددها باستمرار من مختلف الجهات، من الشرق والشمال خصوصاً، ورغم الظروف الداخلية الصعبة والدقيقة التي تحيط بها، في منطقه تميزت بعدم الاستقرار والثبات، وفي ظل دولة كان كثرة تغيير الولاة والحكام من أبرز سماتها وتقاليدها.

---

(1) المصدر السابق ص 115.

(2) لا تزال بعض هذه الأسر تحمل أسماء قراها القديمة مثل الطفيلي، أو تنتسب إلى جذورها في الجبال الشرقية مثل ياغي...

(3) وبالتحديد الجبة وعسال الورد وسرعين، المهاجر ص 113. وأول إشارة معروفة عن الحرافشة وردت في يوميات الرحالة المملوكي ابن طوق، تفيد أن الحرافشة كانوا مقدمي جبة عسال في الجبل الشرقي سنة 1480.

إن عوامل سلبية عديدة، كانت تعترض استقرار هذه الإمارة، وتشكل عوائق وصعوبات تقف في وجه توسعها وازدهارها يمكن إيجازها بالأمور التالية:

أولاً - موقف السلطة العثمانية

كان الولاة العثمانيون ينظرون إلى إمارة الحرافشة كأمر واقع مفروض، يحد من سلطانهم المطلق في التصرف بالأمور، كما يحد من رغبتهم ومشيئتهم في تعيين الحكام والاستبداد بجميع شؤون السلطة، وأنهم مرغمون على حصر مجال اختيارهم ومناوراتهم في أسرة معينة، لا يمكن أن تستقيم الأمور في حال تجاوزها وإغفالها. لأن من شأن ذلك في حال حدوثه، أن يخلق مشاكل أمنية وعسكرية، لا يمكن التحكم بنتائجها، وحجم تكاليفها، ولذلك كانوا عبثاً يحاولون تغيير هذا الواقع، كلما وجدوا أن الظروف قد تؤمن لهم قدراً من النجاح. فكانوا في غالب الأحيان ينظرون إليه كشر لابد من التسليم بوجوده مرغمين بانتظار ظروف أفضل للتخلص منه. خصوصاً وأن السياسة المركزية في اسطمبول قد صنفتهم دائماً كأعداء تقليديين، أكان من جهة انتمائهم المذهبي الرافضي أو خوفها الدائم من تعاطفهم مع الصفويين وما قد يجره هذا التعاطف من متاعب.

ثانياً - تدخلات حكام الشوف ووادي التيم

كان حكام الشوف وأقاربهم في وادي التيم، يتربصون طامعين بمد سلطتهم إلى هذه الإمارة، أو إلى قسم منها، ما دام ولاة دمشق هم الذين يتحكمون سنوياً بتلزيمها إلى من يدفع الثمن الأكبر. وهذا أمر يسير نظراً لنهم الولاة إلى المال وميلهم المزمن إلى التخلص من الحرافشة، فهم العقبة الأولى أمام مثل هذه المخططات والمطامع، سيما وأن لحكام الشوف وغيرهم من العائلات الشوفية النافذة، كآل جنبلاط وآل تلحوق، أملاكاً زراعية في البقاع، لا يمكن استثمارها على الوجه المرغوب دون موافقة الحرافشة، أو مساعدتهم أو عدم ممانعتهم على الأقل[1]. وهذا ما يفسر إلى حد كبير الصدام بين فخر الدين ويونس ومحاولة الشهابيين فارس وملحم التزام بعلبك من والي دمشق.

(1) فخر الدين المعني الثاني، الأب قرالي ص113.

ثالثاً - التمايز الطائفي والمذهبي

عدم التجانس الطائفي بين الأمراء من جهة، وقسم كبير من سكان الإمارة من جهة أخرى. ولاسيما سكان بعلبك التي هي مركز الإمارة، ومقر الأمير. وقد كان هذا الواقع أكثر تعقيداً في فترتها الأولى، قبل حكم الأمير يونس بن علي (1608-1623م) وأولاده الذين تعاقبوا بعده على الحكم، حسين ومحمد وعلي، حيث شهدت المدينة وبعض القرى المجاورة، حركة ازدياد ملحوظ للوجود الشيعي فيها، فتضاءلت هذه المشكلة تدريجياً مع تعاقب السنين. وإن بقي الوجود السني الكثيف سكاناً ورجال دين مصدراً لهواجس الأمراء ومتاعبهم.

رابعاً - ضعف عصبية الحاكم.

افتقد الحرافشة عصبية واسعة ومتينة يعتمدون عليها في صراعهم المستمر مع المتربصين بهم. فلم يتكوّن في الامارة، في أي وقت، تجمع عائلي أو عشائري أو طبقي يساندهم. والانتشار الشيعي لم يكن عاماً في بعلبك وجنوبي البقاع، ولم يغلب هذا الطابع على المدينة إلا في عهد الأمير يونس الذي أنشأ أول جامع شيعي فيها، بينما تجاوز جيرانهم أمراء الدروز في الشوف هذه العقبة بانتمائهم إلى إحدى العصبيتين السائدتين في منطقتهم[1]. وكان للحماديين في الغرب عشائر وقبائل تجمعها وحدة الولاء[2]. كما جمعت عصبية مذهبية واحدة جميع العامليين بدون عناء[3].

خامساً - الموقع الجغرافي والإستراتيجي.

تقع مدينة بعلبك وغالب مراكز الإمارة الأخرى مثل كرك نوح وسرعين واللبوة في منطقة سهلية مكشوفة من جميع جهاتها، مما أفقدها ميزة الحماية الطبيعية التي تؤمنها الجبال بوعورة مسالكها، وصعوبة التحرك فيها، وصلاحية التضاريس لحرب العصابات وحملات الكر والفر التي تمتع بها إخوانهم الشيعة، سواء في جبل لبنان، أو في جبل عامل. فكان الأمير، في الأزمات، يعمد عند مواجهة أي هجوم مرتقب، إلى إخلاء المدينة من سكانها والإلتجاء إلى مراكز أكثر ملاءمة للعمليات الحربية والمناورة في حال الضرورة، والحؤول دون استعمال مراكزه السهلية الدائمة الأخرى إلى مواقع

(1) القيسية واليمنية.
(2) خطط الشام، محمد كرد علي ج 2 ص 270.
(3) راجع التشيع في جبل لبنان.

يستفيد منها مهاجموه لتحويلها إلى نقاط انطلاق عسكرية للهجوم عليه أو قطع الإمدادات عنه ومحاصرته. رغم أن الجوار الجغرافي والتحالف الدائم مع حكام جبل لبنان الشيعة حدّ من تأثير هذا الواقع ومخاطره.

سادساً - إصرار الحرافشة على التمسك بحكم بعلبك

كان الحرافشة يعتبرون أن حكم بعلبك وبلادها، حق لهم، لا يتنازلون عنه أو يستبدلونه، رغم أنهم حكموا بلاداً كثيرة غيرها كالشوف وحمص وتدمر وصفد، وتخلوا عنها. إلا أن شعارهم كان دائماً «**إن بعلبك بلادنا وسنأخذها عنوة**». وهذا أمر عرف واشتهر حتى عند السلطان العثماني نفسه[1].

رغم كل هذه الصعاب والعوائق، استطاع الحرافشة الصمود والاستمرار، كحكام على بلاد بعلبك والبقاع كل هذه المدة الطويلة. وقد أعانهم على ذلك تفوقهم في بعض الخصائص والميزات التي كانت عوناً لهم على البقاء والمقاومة أمام مطامع الولاة والحكام، وتقلبات الأهواء والظروف. فكانوا كلما اضطرتهم قوة أعدائهم إلى ترك مدينتهم وسهولهم يلتجئون إلى أماكن أكثر أمناً، يحتمون بها ريثما يستجمعون قواهم للقيام بغارات يستعيدون فيها ما فقدوا من بيوت وأرزاق وبلاد، وينتقمون من عدوهم ويثأرون ممن أظهر تعاوناً معه. إن استمرار هذه الغارات والغارات المضادة، أثّر سلباً على عمران بعلبك ونواحيها ومراكزها السكنية وازدهار الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية فيها، وقد كانت بعلبك في فترة سابقة مركزاً صناعياً وتجاريا مهماً، تصدر إنتاجها من الخيوط والسماد والرماد والملبن، وما يفيض عن حاجتها من الغلال الزراعية[2]، إلى دمشق وحمص وطرابلس، حيث يشحن بعضها بحراً إلى خارج البلاد. وتحولت المدينة المزدهرة التي كانت تقارن بدمشق وغيرها من حواضر البلاد، إلى قرية كبيرة، فقدت الكثير من معالم مجدها الغابر نتيجة المحن والخطوب والدمار والحروب التي ابتليت بها على مر الزمان وكان بعض أمرائها يصعدون إلى التلة الواقعة في شرقها حيث «حجر الحبلى»، ينظرون إليها من هناك، فإذا وجدوا أنها نمت واتسعت، إلى درجة الظهور كمدينة ناشطة، بادروا إلى اتخاذ التدابير التي تفقدها هذا المظهر ولو بالهدم، خوفاً من أن يثير عمرانها رغبة لدى الباشاوات الأتراك في جعلها مركز ولاية، كما كانت في العصر المملوكي، وكما هي دمشق وطرابلس وحلب في هذا العصر، وما يجره هذا الأمر في حال حدوثه، من بلاء على البلاد، أمراء ورعية، لا سيما على

(1) الحكم السلطاني م. د. 86/127 لبنان والإمارة الدرزية، أبو حسين ص 59.
(2) مختصر تاريخ لبنان، فيليب حتي ص 157.

المسيحيين والشيعة منهم، لصعوبة سكناهم في مراكز الولايات، الأمر الذي يعرضهم إلى مضايقات تفرضها التشريعات المعمول بها كما يجيزها العرف والأمر الواقع.

إن أهم الخصائص والمميزات التي أعانت الحرافشة على الصمود هي التالية:

أولاً: خضع جميع أهالي الإمارة لحكم الحرافشة بدون معارضة أو تذمر، على اختلاف طوائفهم من مسيحيين وشيعة وسنة. رغم أن السنة أو بعضهم، ربما كانوا يميلون في السر إلى حكم عثماني مباشر، يبعد عنهم حكامهم الحاليين لاختلاف المذهب، ويستعيدون بذلك عصرهم الذهبي. يوم كانت بعلبك من مدن السنة المهمة في سوريا. ورغم ذلك لم ينازعهم طيلة وجودهم على رأس السلطة أية قوة محلية مهما كانت هويتها. فقد كان الجميع يعترفون بإمارتهم دون أن يوجد بين الاثنين، حكاماً ومحكومين، أي حاجز أو فاصل أو وسيط من أي نوع كان. صحيح أنه كان لرجال الدين مركزٌ مميز، بصرف النظر عن طوائفهم، بمن فيهم اليهود[1]، إلا أن ذلك لا يدل على وجود طبقة مميزة ثالثة، لها دور معترف به من الجميع. وصحيح أيضاً أن السنة، بمن فيهم المشايخ ورجال الإفتاء، تعرضوا لتدابير انتقامية، وأحياناً بالغة القسوة من قبل الأمراء، كلما ارتاب أحدهم بأنهم يقدمون العون والمساعدة للسلطة العثمانية، أو يرغبون في الالتحاق رأساً بوالي دمشق، فيتعرضون إلى أعمال تأديبية وانتقامية، لا تلبث أن تفتر و تختفي بعد عودة الجيوش المهاجمة او انهزامها و استقرار الأمور على أوضاعها السابقة والمعتادة. إلا أنهم كانوا يتوجسون دائماً من ميول رعاياهم السنة الحقيقية، وفاعلية روابطهم وتواصلهم مع النافذين في مركز الولاية دمشق. ومن المعلوم أنهم قتلوا مفتي بعلبك مرتين على الأقل في مناسبتين مختلفتين، وكانوا يتهمون من سلطات دمشق وانكشاريتها خصوصاً بأنهم يُكرهون السنة على التشيع.

ثانياً: كان الحرافشة محاربين أشداء ومتمرسين، ولا يعني ذلك أنهم برعوا في قيادة الجيوش وفنون الحرب فحسب، بل لأن الكثيرين منهم تمتعوا بشجاعة بالغة، وجرأة ملفتة، تجعل أحدهم يواجه العدد الكبير من جنود العدو منفرداً، أو قلة منهم تواجه عدوا يفوقها عدداً وعدة بأضعاف كثيرة، دون خوف أو تراجع أو وجل. حتى أصبحت سمعتهم القتالية ورهبتهم تقوم مقام الكثير مما افتقدوه من كثرة العدد وكمال العدة.

---

(1) كان يسكن بعلبك أيام الحرافشة جالية يهودية على رأسها، حاخام ولهم أماكن عبادة يمارسون فيها شعائرهم بحرية. De La Roque p. 38.

كان الولاة يتحينون الفرص للتدخل واستبدال الحكام الأمراء بموظفين يرسلونهم من دمشق كلما اعتقدوا بإمكان التخلص من الحرافشة بثمن معقول، وأن الظروف قد تكون مناسبة لتحقيق هذا الأمر، مما جعل سيل الحملات العسكرية المزودة بأوامر القتل والتدمير والبلص لا ينقطع عن طريق دمشق ـ بعلبك، إلا ليستمر بعدها أكثر عدداً، وأقوى عدة وبتعليمات وأوامر أشد عنفاً وقسوة.

وبما أنه لم يظهر خلال كل هذه المدة الطويلة أسرة محلية أخرى يمكن الاستعانة بها ضد الحرافشة، كما كان يحصل في الشوف مثلاً حيث يعمد الولاة إلى التلويح بتعيين أسرة آل علم الدين أو غيرها كلما شاؤا أن يذكّروا المعنيين، ثم الشهابيين، أن البديل جاهز. فقد عمد الولاة إلى إذكاء التنافس بين أفراد الأسرة نفسها، وذلك بإصدار فرمانات متناقضة، تدفعهم للتقاتل فيما بينهم، والحرص على الاحتفاظ بأكبر دعم رسمي ممكن يعزز موقعهم داخل الأسرة، و يرغمهم على تلبية جشع الباشوات المادي الذي لا يخمد.

إن تاريخ الصدام العسكري بين ولاة دمشق وأمراء الحرافشة، هو أبرز ما في تاريخ هذه الإمارة، لذلك من الصعب استعراض محطاته بتفصيل واف، فقد جرّد الوالي العثماني على سبيل المثال، أكثر من عشر حملات عسكرية، على بعلبك في مدة لا تتجاوز عشر سنوات، بمعدل حملة عسكرية كل عام (1784 - 1792) م.

سنة 1784م، أرسل والي دمشق أطُن ابراهيم باشا حملة على بعلبك ففشلت في احتلالها و هزمت وحوصرت في القلعة.

سنة 1784م، أنفذ والي دمشق جيشاً قوياً إلى بعلبك، فأحرق منازل الحرافشة وصادر املاكهم وسبى نساءهم وأعدم ثلاثة من أمرائهم.

1786م، قام الحرافشة بحملة مضادة احتلت بعلبك وطردت متسلمها التركي.

1787م، هاجم جيش عثماني بقيادة الملا إسماعيل بعلبك فانهزم وبقي الحكم بيد الحرافشة.

1788م، أرسل والي الشام أطن ابراهيم باشا حملة أخرى ولكنها هزمت وحوصرت أيضاً.

1788م، دخلت حملة من جنود حمص والشام إلى بعلبك، انتهت بتولية اسماعيل الكردي، قائد الحملة، حكم بعلبك.

انتصار الحرافشة على عساكر الشام في معركة الكرك ودخولهم إلى بعلبك.

1790م، انهزم الحاكم الجديد امام الحرافشة الذين لاحقوه حتى الزبداني.

1791م، قتل الحرافشة نحو ثلثي جنود حملة والي الشام وانهزم الباقون.

1792م، معركة القرعون بين العثمانيين والحرافشة.

1792م، معركة مع الجزار بعد هجومه على الفرزل وأبلح.

إن التقليد المتوارث والمستمر، لا يزال حتى اليوم يروي بطولات الحرافشة في ساحات الوغى، كما تتردد مآثرهم القتالية في التراث الشعبي المنظوم، قصائد عامية، قيلت على لسان بعض أمرائهم، ولا يعرف ناظمها الأصلي، وإنما يرددها من يحفظها، ليس في البلاد التي عرفت أيام عزهم فحسب، بل في بلاد أخرى قريبة كبادية حمص وصحارى الحماد، دون أن يعرف منشدوها بالضرورة من هم الحرافشة فعلاً. إنما يكتفون بترديد اسم أحد أمرائهم باعتباره فارساً مغواراً، دون ربطه بتاريخ أو بمنطقة أو بعائلة. ويقولون (بفتح القاف) سلطان، وجهجاه، وقبلان، وسلمان قصائد شعبية لها نفس ملحمي، دون أن يكون لها خلفية تاريخية أو واقعية محددة[1].

وحتى لو ابتعدنا عن التقليد فإن مصادر تاريخية رزينة وموثوقة، حفلت بأخبار عن فروسيتهم وجرأتهم. نشير إلى حادثتين منها؛ روى الأولى السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة، والحادثة الأخرى مذكورة في مراجع كثيرة استندنا فيها إلى ميخايل ألوف في تاريخ بعلبك.

قال صاحب أعيان الشيعة[2]:

«سمعت من أهل ذلك العصر، أن الأمير سلمان لما أراد الهرب من سجن دمشق، استحضر صفيحة من تنك وقص منها شبه السيف، وخرج وهو شاهرها بيده فهرب

(1) تتردد على السنة العامة قصائد وأهازيج شعبية نظمها أمراء من الحرافشة كما هو الاعتقاد الشائع، يفخر فيها الشاعر غالباً بصيغة المتكلم بنفسه وأهله وعشيرته وتحتوي عادة على أسماء تاريخية معروفة لأشخاص ومواقع وأحداث واقعية.

(2) أعيان الشيعة، الأمين ج11 ص 264.

الموكلون بالسجن، وانحاز عنه أهل الأسواق ظناً بأنها سيف مشهور بيد الأمير سلمان، فخاف كل منهم أن تكون منيته بذلك السيف فركب فرساً كان معداً له وسار».

يقول ألوف في كلامه عن الأمير أمين، أمير بعلبك: **«عند قدوم إبراهيم باشا إلى بعلبك وإقامته فيها، واستخدامها كنقطة عسكرية لجيشه نظراً لموقعها الحربي الهام، حكم البلدة الأمير جواد الحرفوش، بينما هرب الأمير أمين من وجهه، فأرسل أربعماية فارس من الهنادي لمطاردته ومازال الأمير أمين منهزماً من مكان إلى آخر، إلى أن لحقته يوماً فرسان الهنادي في عين الوعول شمالي بعلبك، وليس مع الأمير أمين سوى ولده الأمير قبلان، وأثني عشر فارساً آخر. فوقف الأمير أمين مع الحريم وقال قبلان لفرسانه: أحموا أنتم ظهري لأريكم كري وفري، ثم هجم بفرسانه على الهنادي هجمة الضرغام، ومال عليهم بضرب الحسام، وكان يخترق صفوف الهنادي بهمة لا تعلوها همة، وما زال السيف يعمل والرجال تُقتل ولله در قبلان وما فعل. إذ لم تستطع الهنادي على الثبات، فروا هاربين طالبين النجاة. وأما قبلان فرجع عن مطاردتهم إلى أبيه والدم على أثوابه كشقيقة الأرجوان، فقبل منه العيان وساروا من هناك إلى شعرة الدنادشة[1] حيث أودعوا حريمهم وطلبوا الأستانة حيث أُنزلوا في أرفع منزلة».**

حتى المراجع المعتمدة والجادة، تشيد بالمقدرة القتالية الفائقة للحرافشة والتي ساهمت في استمرارهم كل هذه المدة على رأس إمارة، معظم سكانها من العشائر والعربان، التي يلعب السيف في علاقاتها واجتماعياتها مكاناً بارزاً.

وإذا لم يكن للحرافشة عصبية عشائرية أو قبلية تساندهم، فقد أمّن لهم تحالفهم شبه الدائم مع الحماديين، مورداً احتياطياً واسعاً من المناصرين والمقاتلين، يلبون دعوتهم عند الحاجة، كما اعتمدوا على عائلات معينة عرفت بولائها لهم وشجاعتها في القتال كآل حمية وياغي من الشيعة، والسكرية من السنة، والمعلوف من النصارى، فكان جبل لبنان بما فيه الهرمل هو العمق الاستراتيجي لهم، حيث يجدون المأمن والنصير ونقطة الانطلاق للعودة إلى ديارهم منتصرين، و طرد أعدائهم في كل مرة يجبرون على مغادرتها.

---

(1) إقليم الشعرا في عكار أول من التزمه من الدنادشة، هزيم آغا سنة 1691م.

تاريخ الحرافشة

رغم أهمية الدور الذي قام به الحرافشة في تاريخ لبنان، طوال المدة الزمنية التي حكموا فيها إحدى أهم مناطقه وأكثرها اتساعاً[1]، لم يعرف لهم تاريخ مدوّن مستقل بذاته. بل هي فقرات مبعثرة لا رابط بينها، يجهد الباحث في العثور عليها وإدراجها في سياق متتابع شامل، يعطي للسرد ترابطه ودلالته، فهي ليست أكثر من نتف متناثرة في عدد قليل من أمهات المراجع عمد أصحابها إلى حشرها، ليس لغاية إثباتها كواقعة مستقلة في معظم الأحيان، بل للإستعانة بها على إبراز وجهة نظر ورأي أو واقعة أساسية أخرى.

إن أول من كتب عن تاريخ الحرافشة في فصل خاص هو ميخائيل موسى ألوف البعلبكي[2] في تاريخ بعلبك المطبوع سنة 1889م، جمع فيه ما عثر عليه من إشارات مختصرة ومتقطعة من تواريخ البطريرك الدويهي، وحيدر الشهابي، وطنوس الشدياق، وبعض ما توافر من أخبارهم عند عيسى اسكندر المعلوف وعلى ألسنة العوام من السكان، الذين كان المعمرون منهم لا يزالون يتناقلون أخبارهم لقرب العهد بها.

أهمل المؤرخون اللبنانيون عموماً أخبار الحرافشة باعتبارهم خارج الإطار اللبناني المتعارف عليه في أيامهم، والذي لم يكن يتجاوز جغرافياً جبل الشوف و جبل لبنان وساحلهما. من جهة ثانية كان تشيعهم يصنفهم خارج الملة التي ينتمي إليها هؤلاء المؤرخون، وجلهم من رجال الدين الذين لم يبذلوا جهداً كبيراً في إخفاء تجاهلهم وتحاملهم على أخبار الحرافشة، كما فعلوا مع الحماديين رغم انتمائهم إلى جبل لبنان نفسه.

كان البقاع بقسميه العزيزي والبعلبكي، يتبع إدارياً ولاية دمشق حيث امتلك الحرافشة في داخل المدينة أراضٍ ودوراً ومقبرة خاصةً، ومع ذلك،كان مؤرخو السنة الذين شكلت ولاية دمشق محور اهتمامهم الرئيسي أكثر ظلماً وأشد تحاملاً وعداوةً من زملائهم اللبنانيين، فقد تجاهل المحبي ترجمة الأمير يونس الحرفوش على أهميته، وترجم من هم أقل شأناً منه بما لا يقاس. واقتصر على ترجمة الأمير موسى

---

(1) كان حكم الحرافشة يشمل أحياناً بالإضافة إلى بعلبك والبقاع سنجق حمص وسنجق صفد وسنجق تدمر ووادي التيم وسنجق حماه.

(2) بين وفاة آخر أمراء الحرافشة وظهور هذا الكتاب ثلاثة وعشرون عاماً وهو في نحو عشرين صفحة من الحجم الصغير طبع في بيروت.

سلفه لأنه، كما قال، ولعله يبرر لنفسه سبب ترجمته: انه أقرب أهله إلى التسّنن[1].

أما الغزّي، وهو الذي عاصر أحداثاً جساماً شارك في بعضها في بعلبك نفسها، فقد اقتصر في كواكبه على ترجمة علي بن موسى في سطور قليلة[2]، وكذلك غيره من المؤرخين اللذين أظهروا شعورهم الشخصي تجاه الحرافشة في كل مناسبة اضطروا فيها إلى ذكرهم، وألصقوا بهم أبشع النعوت والصفات. يقول البديري[3] في حوادث (1164هـ ـ 1750م):

«في أوائل شعبان من هذه السنة وصل خبر إلى دمشق أن ابن الحرفوش حاكم بعلبك المتوالي الرافضي المشهور قبض على المفتي وأخيه وأحرقهما بالنار، وهدم دارهما وقطع كرومهما وقد كانت هذه العائلة الحرفوشية الخبيثة لعنها الله.....»

يقول صاحب أعيان الشيعة: **«لا يمكننا التصديق برميهم بالظلم وعسف الرعية، وأخذ أموالها زيادة عن كل من يتولى الحكم. أما زيادة التشنيع عليهم بذلك مما لا نجدهم يقولونه في غيرهم وفي غير محله وسببه، أن القوم كانوا في عصر من يخالفهم في العقيدة من المسلمين، وجوار غير المسلمين وحكامهم، فالقدح فيهم لا يخلو من نوع من العصبية، وكانوا من الشيعة مثالاً للأخلاق الكريمة والشجاعة الفائقة والفروسية وإكرام السادات والعلماء، وقد أُعطوا بسطةً في الأجسام وصباحةً في الوجوه»**[4].

لم يبق أمام أي مؤرخ، مهما التزم الموضوعية والتجرد، من سبيل آخر غير اعتماد هذه المصادر المتحاملة نفسها، لسبب وجيه وهو عدم توافر غيرها، لأن التاريخ هو في النهاية ما دوّن منه وسجّل وحفظ. أما الباقي مما ضاع أو لم يدوَّن أصلاً فلا بد أن يختفي من صفحاته إلى الأبد، وكل ما يمكن عمله هو إهمال الشتائم واللعنات التي يطلقها مؤرخو دمشق وتجاوز أهازيج النصر والحرب التي يرددها آخرون، مثل المؤرخ المرجع حيدر الشهابي ومعاونه الشدياق، كلما انتصر شهابي على حرفوشي أو على غيره ممن حرمته ظروف معينة من أن يكون له مؤرخه أو مؤرخ آخر غير منحاز ولا متحامل.

(1) خلاصة الأثر، المحبي ج 4 ص 432.
(2) الكواكب السائرة، الغزي ج 3 ص 194.
(3) حوادث دمشق اليومية ،البديري ص 160.
(4) أعيان الشيعة، الأمين ج 11 ص 262.

بقي أمر أخير، وهو أن ما دوّنه التاريخ مما ينافي المنطق السليم ويتجاوز القواعد الطبيعة ونواميس البشر، لا بد أن يخضع للتحليل والتدقيق قبل اعتماده كحقيقة واقعة وتثبيته والبناء عليه.

يقول التقليد المتواتر:

«الشايع بين الأهالي عن أصل هذه العائلة، ان الأمير حرفوش الخزاعي جدّ هذه العائلة عقدت له راية بقيادة فرقة في حملة أبو عبيدة بن الجراح على بعلبك، واستوطن بعدئذ المدينة وكثر نسله، وكانوا من أعظم الأعيان فيها إلى أن تيسر لهم الاستقلال في المدينة وأقليمها فسادوا وحكموا» [1].

«ينتسب الحرافشة إلى الأمير حرفوش الخزاعي القحطاني الذي قدم أسلافه مع عمر بن الخطاب إلى بعلبك واشتهروا فيها»[2].

لا يمكننا مناقشة هذا النسب ولا أي نسب آخر لانتفاء ما يمكن الركون إليه في تحقيق مثل هذه الأمور، الا أنه يمكننا تأكيد الانتماء الخزاعي لهذه العائلة وارتباط ابنائها بعلاقة ما مع خزاعل العراق، نظراً إلى تواصل هذه العلاقات بينهما على امتداد قرون عدة، ربما آخرها في منتصف القرن التاسع عشر عند حصول نزاع بينهم وبين الحماديين، كان له انعكاس عشائري في جنوب العراق في لواء الديوانية حيث كانت مضارب الخزاعل ولا تزال.

«إن عشيرة الخزاعل التي يقطن معظمها في لواء الديوانية هي حجازية الأصل (خزاعة) أما الآن فإنها تعرف بـ(خزاعل)ولهم جماعة لا يستهان بها في إيران كذلك لهم جماعة في لبنان بقضاء بعلبك هم (الحرافشة)»[3].

أما الأمر الثاني الذي يمكننا تأكيده ـ حتى اليوم على الأقل ـ أن حرفوشياً كان نائباً على بعلبك عام 1497م وأن هذا أقدم ذكر لهم أمكن رصده في المراجع التي تعرضت لهذه الأسرة التي استمرت في واجهة الأحداث منذ هذا التاريخ. بعد إشارة

(1) تاريخ بعلبك ألوف ص 32.
(2) تاريخ فخر الدين، عيسى اسكندر المعلوف ص 21. ولُغَة: يرى السيد محسن الأمين في بعض مدوناته أن اسم جدهم حرفوش مشتق من المنتفخ الغضبان المتهيىء للشر. وقد يكون الشر هنا بمعنى الحرب (السيف والقلم حسن الأمين ص 358). ويرى أخرون أن الحرفوش هو «الوحشي» ويقول أبو حسين في إحدى مقالاته أن الحرفوش هو المناقض «للصوفي الدرويش».
(3) تاريخ نظام المسؤولية عند العشائر العراقية ص410.

الرحالة المملوكي عن وجود المقدمين الحرافشة في الجبل الشرقي منذ 1480م.

جاء في حوادث الزمان[1]: « **ركب أقبردي على أهل الصالحية وقد جمع المقدمين ابن الحرفوش ومحمد بن بيدمر[2] وابن باكلوا[3] وابن معن وابن شهاب ومقدم حمارا[4] وابن بشارة وخالد الغزلاني** »[5]. كما جاء في مفاكهة الخلان لابن طولون، عن الحادثة نفسها «**التف عليه شيخ بلاد نابلس ونائب بعلبك ابن حرفوش ومقدم الزبداني وغيره ابن باكلوا وكبير المرج خالد الغزلاني ومقدم التيامنة ابن بشارة**».

يستفاد من النصين، كما هو واضح، أن أحد الحرافشة كان نائب بعلبك أو مقدمها في سنة 1497م، ولا نعلم ما إذا كان الفرق في اللقبين يعني منصباً ما، مع العلم أن ابن بيدمر كان نائب بعلبك حتى 1493م على الأقل قبل ان يشنق في تاريخ لاحق.

كان أمير بعلبك الحرفوشي هو الوحيد الذي حاول مقاومة العثمانيين، بعد انتصارهم على المماليك. ولكن الغزالي نائب دمشق الخائن، هاجمه وقبض عليه وقطع رأسه وأرسله إلى القسطنطينية.

«**دخل العثمانيون إلى المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا وصور دون مقاومة. وقد خضعت لهم كل المناطق اللبنانية ما عدا البقاع، الذي وقف فيها الأمير حرفوش الشيعي يقاوم الغزو العثماني وحده**»[6].

ولكن من المؤكد أن الحرافشة استمروا في حكم المنطقة بعد هذه الهزيمة، فقد كان حرفوشي آخر حاكماً على حمص سنة 1520م[7] وكان يعاون الغزالي نفسه في هجومه على حماه بعد أن قتل الشوباصي العثماني المعين على حمص[8] فهل قُتل أميران حرفوشيان في هذه الفترة القصيرة أحدهما بيد الغزالي، وآخر قاتل العثمانيين إلى جانبه، أم أن المقتول هو أمير واحد اختلف المؤرخون في تاريخ مقتله، والجهة التي كان يقاتل في صفوفها؟.

(1) حوادث الزمان، ابن الحمصي ص 161.
(2) بن بيدمر كان نائب بعلبك شنقه نائب الشام سنة 907 هـ.
(3) محمد ابن باكلو خارج على السلطة أقام بدمر وقطع الطريق قتله مقدم الزبداني.
(4) حمارا هي قرية في البقاع الغربي.
(5) خالد الغزلاني هو مقدم المرج في البقاع الغربي.
(6) سبقت الاشارة إلى هذا النص «لثانته»
(7) أعلام الورى، ابن طولون ص 260.
(8) بلاد الشام ومصر، عبد الكريم رافق ص 121.

هناك ثلاثة مصادر تتناقض حول هذا الأمير المقتول وصاحب الرأس التي استقرت في القسطنطينية. يرى جاك نانته أنه سقط في مقاومة الزحف العثماني سنة 1516م، وابن اياس الذي يقول أن الأمير الشيعي قتل بسيف السلطان مع ابن الحنش، بينما يؤكد ابن طولون أن الغزالي والحرفوشي كانا معاً في حمص عندما قاتلا الحاكم العثماني فاستقر الحرفوشي حاكماً وأكمل الغزالي طريقه إلى حماه. وربما كان هناك أكثر من حرفوشي واحد يقاتلون في معسكرين متباينين.

أما الأمير البقاعي الآخر ناصر الدين بن الحنش، الذي تولى نيابة صيدا منذ عام 1511م فقد سارع إلى الترحيب بالفاتح الجديد الذي وكله بحفظ الشام مدة غيابه، مع نائبها القديم الجديد الغزالي، في مصر لإتمام الفتح. فقام بالمهمة وحقق مطامحه الواسعة بتولي نيابة حمص بالإضافة إلى نيابة صيدا وبيروت، والأمرية الكبرى بالشام والعديد غيرها من ألقاب الشرف والسلطة[1]. إلا أن علاقته بالسلطة بدأت تهتز بعد استتباب الأمر في مصر للسلطان العثماني عندما أراد الغزالي الخلاص منه كما تخلص من ابن الحرفوش، فكانت المعركة الفاصلة بينهما في أرض «جوسيه» بين بعلبك وحمص، حيث انهزم ابن الحنش ووقع أسيراً ثم استقر رأسه في دار السلطنة. وتوهم بعض المؤرخين أن ابن الحنش وابن الحرفوش قتلا في معركة واحدة خاضاها متحالفين في مقاومة العثمانيين، ونائبهم الغزالي[2]. إلا أن الأرجح أن مقاومة الحرفوشي سبقت تمرد ابن الحنش، وان الأول قاوم الغزاة عند دخولهم بلاد الشام ووصولهم إلى تخوم إمارته في نواحي حمص، بينما والاهم الثاني ودخل في جملة كبار عمالهم. ثم فرقت المطامع المتناقضة بينه وبين الغزالي فعصى وتمرد حتى قتل على يد منافسه وغريمه، تاركاً المجال لظهور شخصية بدوية من أعوانه السابقين هو ابن فريخ، قيض لها أن تلعب دوراً بارزاً في معادلات السلطة في البقاع حتى صفد ونابلس، بما فيها صيدا وبيروت قبل نهاية هذه الأسرة على يد تحالف حرفوشي معني خلفها في السلطة، كما استولى على ما تركته من أرزاق ومقتنيات[3].

---

(1) سبق ذكره.

(2) قد يكون سبب هذا الإشتباه ما أورده ابن إياس في بدائع الزهور أن الغزالي قتل ابن الحنش وابن الحرفوش وأرسل رأسيهما إلى السلطان سنة 1518م وقد يكون الأمير الحرفوش قد قتل عام 1516م.

(3) لبنان والإمارة الدرزية، أبو حسين ص 188.

الأمير علي بن موسى الحرفوش (1537- 1590) م.

إن الوثائق العثمانية الرسمية تؤكد، من خلال ذكر بعض إخبار الامير علي والمراسلات المتعلقة به، أنه كان من أعظم أمراء بلاد الشام سلطاناً ونفوذاً في عصره، وربما في العصور العثمانية اللاحقة. وقد توصل إلى أن يفرض شروطاً على اسطنبول، لقاء قبوله بحكم مناطق واسعة لم يصل أمير محلي واحد إلى حكمها من بعده، وكان من شروطه على الباب العالي أن يتحول إقطاعه الواسع إلى ما يشبه إدارة مستقلة تلحق رأساً باسطنبول، ويكون هو بيكلريك[1] على رأسها «وزير» وان يستثني سكان إقطاعاته من الجندية، وأن يكون جميع الحكام الآخرين، من موظفيه وأتباعه، بمن فيهم فخر الدين المعني. ولعل ما وصل إليه من قوة وصولة ونفوذ هي التي عجلت في نهايته على يد السلطان العثماني، بعد أن سهلت دسائس الأمير المعني لوالي الشام، التمكن منه غيلة وغدراً.

بعد سقوط أول أمير حرفوشي قتيلاً بيد العثمانيين الفاتحين، تسكت المراجع فترة وجيزة عن أخبار الحرافشة. ولكن يمكننا أن نستنتج من ترجمة الغزي لعلي بن موسى الحرفوش، أن والده الأمير موسى كان أميراً على بعلبك قبل سنة 1537م[2] ثم خلفه ولده علي قبل أن يقدّم أبو علي بن قنبر (الشهير بالأقرع) في نفس العام، رشوةً للدفتردار محمود قدرها خمسة عشر ألف دينار، مقابل عزل علي الحرفوش وتعيينه حاكماً على بعلبك. مما أدى إلى خرابها ورحيل معظم أهلها وتعطل الأحكام الشرعية والحياة العادية فيها، بعد أن عتا ابن الأقرع وأتباعه وصادر الأموال والمحاصيل ليجمع الأموال التي التزم بها للسلطنة[3].

«فعزم جماعة من أقارب الأمير علي الحرفوش صاحب بعلبك، أن ينزعوا حكومتها من يد الأقرع لأنه من غير أولاد الأمراء، وحكومة بعلبك متوارثة لبني الحرفوش. فجاءه ألفا رجل جمهعم بنو حرفوش من كسروان والشوف، وأرادوه أن يخرج بعياله حيث شاء و رغم أن الحرافشة انهزموا في هذه المعركة وسقط من عسكرهم ألفا وثمانون قتيلاً. فقد استطاع علي بن موسى أن يقتل الأقرع بعد حين مما أغضب والي دمشق والصدر الأعظم»[4].

(1) لقب تركي بمعنى بك البكوات أو الحاكم العام وملك الأمراء أو أمير الأمراء أخذه العثمانيون عن السلاجقة ثم ضعف شأنه مع الأيام ويكون حامله عادة يحمل رتبة وزير.
(2) سبق الإشارة إلى هذه الترجمة.
(3) أحمد ابن الاقرع من رجال الامير علي وأعوانه في الأصل.
(4) خطط الشام، محمد كرد علي ج 2 ص 230 ـ 231.

امتد حكم هذا الأمير، حتى مقتله (1589م)، أكثر من نصف قرن، وهو يقاوم دسائس ولاة الشام وحكام الشوف حتى قبض عليه علي باشا بن علوان والي الشام، وساقه مع الأمير منصور بن فريخ وقانصوه الغزواي إلى أسلامبول (1585م). ولكن السلطان مراد أطلقهم أحراراً وعادوا إلى بلادهم أمراء. كما فشل والي الشام الجديد سنان باشا (1586م) في القضاء عليه قبل أن يصبح صدراً أعظم ويخلفه في ولاية دمشق ابنه محمد باشا.

«في يوم الجمعة في ثامن عشر من شهر ذي القعدة سنة (998 هـ ـ 1589م) دخل الأمير علي بصحبة يانظ إبراهيم وجماعة من الينكرجية فاجتمع بمحمد باشا وبن سنان باشا وكان يومئذ نائب الشام فأكرمه وهرع إليه الناس للسلام عليه ونزل في بيت يانظ إبراهيم ثم قبض عليه بعد عشرة أيام وحبس وعرض الباشا فيه إلى أبيه وهو الوزير الأعظم وكان أبوه حين كان في الشام نائباً أراد القبض عليه فهرب منه فلما علم بإمساكه أنهى إلى حضرة السلطان أنه من العصاة فأمر بقتله فضربت عنقه داخل قلعة دمشق بعد صلاة العشاء ليلة السبت في ثاني عشر من شهر محرم سنة (999 هـ ـ 1590م) وأرسل رأسه إلى التخت السلطاني ودفن جسده في مقبرة الفراديس بدمشق وقد تم قتله بدسيسة الأمير فخر الدين المعني»[1].

كان أمين بعلبك وأمير لواء حمص، وأمير لواء تدمر، ويبدو ان كسروان والشوف كانت قد دخلت في إقطاعه فترة ما، وكذلك بيروت. كما تدل هوية المقاتلين الذين استعاد بهم حكم بعلبك من أحمد الأقرع، والخلاف الناشب بينه وبين الأمير سيف الدين على بعض الأملاك في مدينة بيروت. حضر إلى اسطنبول سنة 1585م، حيث جرت مفاوضات ترمي إلى تلزيمه لمدة أربع سنوات، مقاطعات ابن معن في مدينة صيدا، والمقاطعات التابعة لها، ومقاطعات محمد بن شرف الدين[2]، بما في ذلك القرى وحصن الأكراد، على ان يدفع ماية ألف فلوري بزيادة خمسة وعشرين ألفا عن مبلغ التزامها المعتاد. لكنه اشترط لقبول ذلك مايلي:

(1) الكواكب السائرة، الغزي ج3 ص 194.

(2) أحد أقارب فخر الدين ومعاصروه وصاحب إقطاع في جبل الدروز يمتد حتى حدود بيروت (فخر الدين فوستنفلد ص 99).

1 ـ تحويل الولاية المذكورة إلى «بيكلريك»[1]

2 ـ تخصيص علي بك «وهو اسمه في المراسلات الرسمية بالإضافة إلى لقب الإمارة» بمبلغ ثمانماية ألف أقجة من عوائد الضرائب.

3 ـ تحويل زعامة ابن معن وشرف الدين إلى خاصة تابعة له[2].

4 ـ عدم فصل المقاطعات المذكورة عن بعضها.

5 ـ تخصيص معاشات لمن يقوم هو بتعيينهم.

6 ـ إعفاء الزعماء وأرباب التيمار من الحروب الهمايونية طالما استمروا في أداء واجباتهم المحلية[3].

وينتهي الأمر السلطاني الذي فصل كل هذه الأمور بالقول **«إذا لم تقبل كافة هذه الشروط فإن علي بك لا يوافق على زيادة مبلغ الإلتزام»**[4].

رغم المناصب المهمة التي وصل إليها الأمير علي، ورغم زيارته إلى اسطنبول، والمفاوضات التي أجراها مع الباب العالي، كانت السلطات العثمانية حتى قبل ذلك التاريخ، تنظر إليه بريبة وشك، وتنتظر الفرصة المناسبة للقضاء عليه. كما يدل على هذا الأمر السلطاني الصادر إلى والي دمشق وقاضيها (في 19 جمادي الثاني 1992هـ ـ 28 حزيران 1584م[5]):

«لقد أُعطي لواء تدمر سابقاً إلى الأمير علي بن حرفوش، أمين بعلبك التابعة لدمشق. وقد توالى وصول الأنباء التي تفيد أنه يقوم بمساعدة أهل الفساد باستمرار، وأنه شخصياً لا يخلو من الفساد.أجل، لقد صدر الأمر، أنه بعد حسن التدبير، فإنه يجب إلقاء القبض على المذكور، سواء كان في دمشق أو في منطقة

---

(1) لبنان والإمارة الدرزية، أبو حسين ص 108.

(2) زعامة أرض زراعية تقطع للمحاربين والمقصود هو إلحاق إقطاع ابن معن وابن شرف الدين بإدارته.

(3) يقصد فيها الإعفاء من الخدمة العسكرية أو الجندية ولم تخضع بلاد بعلبك واقطاعات الحرافشة للفرعة العسكرية طالما بقيت تحت سلطتهم وخرق هذا الامتياز كان من أهم أسباب ثورتهم سنة 1850م وتوجههم إلى دمشق.

(4) حول دعوة الأمير علي إلى اسطمبول ومفاوضاته مع الباب العالي والأحكام السلطانية الصادرة بشأنه. راجع لبنان والإمارة الدرزية، أبو حسين ص 109.إن ابراهيم باشا قائد الحملة العثمانية وصهر السطان نقل إدارة شؤون البلاد بكاملها إلى الأمير علي الحرفوش سنة 1585م، وتوجههم إلى دمشق. فخر الدين ومعاصروه، «قوستنفلد ص 104».

(5) ص ا.م.د. 53 - 198 الإمارة الدرزية ص 180.

أخرى، وعموماً حيثما وجد، يجب إلقاء القبض عليه وحبسه وعرض حالته. آمر، عند وصول رجب أحد متفرقة عتبتي المعلاة، أن تقوم بإلقاء القبض عليه وحبسه ثم عرض الأمر وقد كتب هذا الأمر بهذا الخصوص».

ويبدو أن هذه الفرصة المناسبة لم تسنح قبل سنة (998 هـ ـ 1590م)، عندما استدرجه والي الشام وابن الصدر الأعظم إلى دمشق حيث كانت نهايته. بعد أن أرسلت اسطنبول هذا الحكم الحاسم إلى دمشق المؤرخ في 15 ذي الحجة 998هـ ـ 10 تشرين الأول/ أكتوبر 1590م.

«حكم إلى والي دمشق»

لقد أرسلت مكتوباً يفيد بأنك ألقيت القبض على ابن حرفوش وعساف الكذاب،[1] وحبستهما في إحدى قلاع دمشق.وقد عرضت أن يعطى لكل منهما لواء. آمر بقطع رأسيهما وإرسالهما إلى سدة سعادتي. ويجب أن لا تتوانى دقيقة أو ساعة واحدة (عن تنفيذ الأمر) عند وصول الجاوش رضوان أحد جاوشية عتبتي المعلاة، حاملاً أمري الشريف. إقطع رأسي المذكورين بموجب الفرمان الشريف، وأرسلهما بسرعة إلى عتبة سعادتي مع الجاويش المذكور. فليكن معلوماً أن هذا من مهمات الامور وأنك يجب أن لا تضيع دقيقة واحدة في إجراء فرماني الشريف»[2].

كان من المرجح أن تفشل المفاوضات بين الأمير علي والدولة العثمانية. فرغم أن الشروط التي وضعها كان فيها قدر من سعة السلطان والاستقلالية الإدارية لم تألفه السياسة العثمانية في سوريا منذ أن أصبحت ايالات في الإمبراطورية، فهو لم يكن في أي وقت حاكماً عثمانياً مطيعاً حتى عندما نقل ابراهيم باشا، قائد الجيوش العثمانية وصهر السلطان إدارة شؤون البلاد بكاملها إليه سنة 1585م[3] فالأحكام السلطانية التي تناولته في دفتر المهمة العثماني تزخر بأخبار شقاوته وتمرده وإغارته على مختلف الأنحاء فليس غريباً أن تحاول السلطة استجلاب طاعته بهذا الثمن المرتفع.

في تموز 1576م أرسل قاضي الزبداني إلى العاصمة طلباً عاجلاً للمساعدة في الدفاع عن بلدته من غارات الحرفوشي مع سبعين أو ثمانين فارساً من رجاله وبعد

(1) ادعى أنه ابن طربيه أمير اللجون بغير حقيقة (تاريخ فخر الدين، المعلوف ص 61)
(2) لبنان، الامارة الدرزية، أبو حسين ص 180
(3) فخر الدين ومعاصروه قوستفلد ص 104.

سنوات قليلة صدر أمر سلطاني إلى حاكم دمشق باتخاذ تدابير عسكرية رادعه ضده بعد أن أغار على قرى عديدة خارجة عن سيطرته في بعلبك واعادة الممتلكات المنهوبة[1] وبعد أشهر في نفس العام تلقى والي طرابلس أوامر بمواجهة الأمير المتمرد والذي يتلقى من فخر الدين مساعدات في ثورته في بعلبك[2] ونقل السلطة على البقاع إلى الإيالة المستحدثة في طرابلس، تسهيلاً للقضاء عليه إلا أن هذا التدبير لم يستمر طويلاً وأعيد إلحاق البقاع بولاية دمشق كما كانت دائماً[3]. نلاحظ من حكم سلطاني صدر في أيلول 1583م أن لهجة الباب العالي قد اختلفت عن السابق نحو علي بعد أن هاجمت عصابات بدوية وتركمانية بعلبك فبادر أميرها للدفاع عن مقاطعته وحماية سكانها فوصلت الأوامر إلى والي دمشق لمساعدة الأمير هذه المرة من أجل استعادة النظام والسلم[4]

ان سكوت الدولة عن عدوها القديم يعود بدون شك إلى القلاقل والاضطرابات التي سادت مناطق حكمه في هذه الفترة وحاجتها إليه لإعادة الأمن ومقاومة العابثين به. ويتأكد ذلك في انذار وجهته اسطمبول إلى حاكم جبلة.

«احذر واحترس، فإنك ستعتبر مسؤولاً عن كل عمل شغب يقوم به أقرباؤك «أولاد سيف» الذين هاجموا قرى بعلبك الهمايونية ومعهم ثمانماية إلى تسعماية فارس مسلح بالبنادق وجنود مشاة بحجة أن علي الحرفوش حاكم حمص كان وراء إلقاء القبض على حسن سيف وقتله[5]».

من الواضح أن الحكومة المركزية كانت تنتظر الفرصة المناسبة للقضاء على الأمير الحرفوشي وقد سنحت لها عند زيارة طوعية قام بها إلى والي دمشق وذكرت الأسباب رسمياً بأنها مخالفاته الضريبية. وليس هناك ما يؤكد الإتهامات التي وجهت إلى دسائس فخر الدين ومدى مساهمتها في مقتله.

ويبدو البروفسور أبو حسين غير مقتنع بالمبررات العثمانية ولا بدور الأمير المعني في إعدامه، فانه يعتقد أن هرطقته المتشددة، وعلاقاته المفترضة مع الصفوية الإيرانية هما المسؤولان عن نهايته[6].

---

(1) ا. م. د 227:512.
(2) ا. م. د. 110: 39.
(3) ا. م. د (363-64) 150: 47.
(4) ا. م. د 52:20.
(5) ا. م. د 254- 64:86.
(6) الامارات الشيعية ص 85.

الأمير موسى بن علي (1590-1607) م.

خلف الأمير موسى والده في جميع مناصبه بما فيها أمانة بعلبك وإمارة لواء حمص، تتجدد كل اربع سنوات وليس التزاماً سنوياً كما هو معمول به في سائر المقاطعات والألوية[1]. وليس القرب من التسنن الذي ألصقته به الدولة وأجهزتها وأوساط الباشا في دمشق الا حجة واهية قصدت بها تبرير عجزها عن منع موسى من خلافة والده المقتول على تشيعه.

كان بنو فريخ يتقاسمون حكم البقاع مع الحرافشة. فتحالف الأمير موسى مع الأمير فخر الدين للقضاء على قرقماز بن الفريخ. وتم له ذلك اثر انتصاره في زينون سنة 1594م حيث كانت نهاية بني فريخ.

استمر هذا التحالف بين الأميرين بوجه يوسف سيفا والي طرابلس وعدو والي دمشق محمد باشا المنتقل من ولاية مصر سنة 1598م.

وانهزم السيفي في معركة جرت بينهما في نهر الكلب كما يقول معظم المؤرخين بينما يؤكد غيرهم أنها جرت في أعزاز الواقعة في ولاية حلب. ثم قام موسى بهجوم أخر على السيفي قريباً من مركز ولايته فدهم جبة بشري في حزيران 1602م ونهبها بينما كان أهلها في الساحل يعملون بحل الحرير[2].

«لما بلغ يوسف باشا ذلك جمع سكمانيته وأهل الناحية، وهم أكثر من خمسة آلاف نفس، فكبسوا بعلبك في حزيران /يونيو 1602م. ونهبوا المدينة فهرب أهلها إلى الشام. والتجأ شلهوب بن نبعة مع جماعة من بيت الحرفوش إلى قلعة بعلبك، وكان معهم من أهل البلاد ما يزيد على ألف رجل غير النساء والأولاد، فحرق ابن سيفا بلاد الحدث وقتل ابن نبعا وابن فاطمة وقد اجتهد يوسف باشا في قتل الشيخ رعد بن نبعه من طبشار لأنه كان في وقعة نهر الكلب وقتل الأمير علي الذي هو ابن أخيه»[3].

ولم تأت المصادر على ذكر موسى أثناء الهجوم، مما يرجح أنه كان غائباً لسبب غير معلوم.

كان لجند الشام فرقة دائمة في حلب بقيادة سردار، ومهمتها جمع

(1) المرجع السابق ص 181.
(2) تاريخ الأمير فخر الدين، المعلوف ص 75.
(3) تاريخ الدويهي ص 456.

الأموال والاتاوة ومراقبة تحركات الولاة. وعائداتها من الأموال، تقسم بين فخر الدين وموسى الحرفوش وكورد حمزة والخداوردي رئيس جند الشام.

رفض والي حلب نصوح باشا الاعتراف بحقوق أمراء الجند الشامي في هذه الأموال، مما أدى إلى فتنة استمرت طيلة عامي 1603و1604م وقد شارك الأمير موسى فيها وانتصر لأمراء الجند، وقاتل نصوح باشا ولعب دوراً بارزاً في شؤون ولايات حلب ودمشق وطرابلس ومناطقها.

وقد يكون الأمير موسى قام بحملتين، فالتبس الأمر على بعض المؤرخين إحداها إلى إعزاز لمقابلة السيفي، والأخرى إلى غزير لاحتلالها. وقد جاء في تاريخ بعلبك لابن ألوف «**إن الأمير موسى، نبذ طاعة الدولة. فأرسلت عليه الجيوش فتوجه خفية إلى الأستانة العليا. وكانت بلدة غزير عاصية وقد استفحل أمرها فاستأمن للدولة هناك وتعهد لها بفتح غزير وخرابها، وأنه ينال جزاء ذلك رضى الدولة عليه وتولي أحكام بعلبك، فأجيب طلبه. فلما عاد إلى دياره جمع خمسة عشر ألف مقاتل ودهم غزير واستولى عليها حسبما وعد**»[1].

وقد يكون الشعر الذائع الذي أرسله أمير حماه أبو الفوارس إلى صديقه الحرفوشي يتعلق بمعركته في أعزاز مع السيفي لقربها من مدينته ولا بد أن يكون اهتمامه قليل بما يجري في غزير لبعدها عنه.

غزير طور ونار الحرب موقدة — وانت موسى وهذا اليوم ميقات
الق العصا لتلقف كل ما صنعوا — ولا تخف فحبال القوم حيات

ـ كان الأمير موسى بطلاً شجاعاً جواداً مقداماً مندفعاً لعمل الخير فاضلاً شاعراً أديباً بليغاً[2].

قال مفتخراً

(1) تاريخ بعلبك، ألوف ص 33. (تناقلت المصادر هذه الرواية وهي بعيدة عن المعقول ولا تتوافق مع واقع الامور وتقاليد الحكم العثماني وأعرافه). وليس لغزير وحدها أن تعصى على الدولة وتثير اهتمامها. وقد كانت في ذلك الوقت مقراً لبعض الحماديين. وكان السيفيون ولاة في طرابلس.
(2) خلاصة الأثر، المحبي ج 4 ص 432.

السنت نجل علي وهو من عرفوا — منه المخافة في الأحشاء والكبد
وانني أنا موسى منه قد ورثت — كفي سيوفاً تذيب الأمن في الخلد[1]

كان الأمير موسى يتمتع بمزايا عديدة أثارت إعجاب أكثر من كتب عنه، فوصفوه بالشجاعة والحكمة والجود والبلاغة. وتبدو الفروسية جلية من خلال شعره، والحكمة من سعيه إلى إحلال الصلح والوئام بين جند دمشق والمتحالفين لمهاجمته، وقد فقد إمارته من جراء هذا المسعى بعد أن غدر به حليفه السابق فخر الدين.

تولى ابن سيفا قيادة جند الشام ليحارب المتمردين على السلطان، وعلى رأسهم ابن جانبولاد الذي وصل مع جيشه قاصداً دمشق، إلى تخوم إمارة موسى. فقصده موسى مداراة ومحاماة عن أرضه وطلب إليه حبياً أن يبقى بعيداً عن إمارته. واجتمع المعني وموسى وجانبولاد على نبع العاصي قرب الهرمل[2] فتداولوا في الأمور، فطلب موسى اتفاقية سلام تعقد بين المتخاصمين، وتعهد بالذهاب إلى الشام ومحاولة تحقيق شروط جانبولاد سلميا. فتمت الموافقة على اقتراحه. وقال له جانبولاد: **«اذهب سليماً وكن يا موسى كليماً»**، فحضر إلى الشام **«فرُمي من عسكرها بغاية الملام وآلموه بغليظ الكلام ظنا من جهلائهم انه عليهم وما كان ناوياً إلا سوق الخير إليهم**[3]»، فقابل أمير الأمراء بدمشق وعرض عليه مطالب جانبولاد وحلفائه وهي:

- أن تعطى حوران لعمرو بن مفرج البدوي من عرب الفارجة، والبقاع العزيزي لمنصور بن الفريخ.

- أن يؤذن للحاج كيوان نعمة بالدخول إلى الشام، ويكتب عرضاً بأن جانبولاد لم يدخل إلى أرض الشام،وأن فخر الدين يؤدي ما عليه من مال السلطان، وبلاده موصوفة بالأمان.

وبدا لموسى أن أهل السلطة في دمشق قد قبلوا بهذه الشروط والمطالب بعد أن عقد أمير الأمراء ديواناً لبحثها، **«واتفقوا ان حوران لعمرو ولكن في السنة المقبلة، واعطاء البقاع لمنصور غير معقول لكونه عند الرعايا غير مقبول، وأما كيوان فيرجع وعليه الأمان»**[4].

ولكن الشيخ محمد بن سعد الدين[5] رفض ما تم الاتفاق عليه، فرجع الأمير موسى إلى

---

(1) أعيان الشيعة، الأمين ج 15 ص 85.
(2) نبع العاصي هو الحد الفاصل بين ولاية دمشق وولاية طرابلس.
(3) خلاصة الاثر، المحبي الجزء الرابع ص598.
(4) تاريخ فخر الدين، المعلوف ص 82.
(5) هو رأس مجالس الشام وأعيانها.

جانبولاد مخذولاً ليبلغه فشل مساعيه، فعزم جانبولاد على قصد دمشق ومهاجمتها.

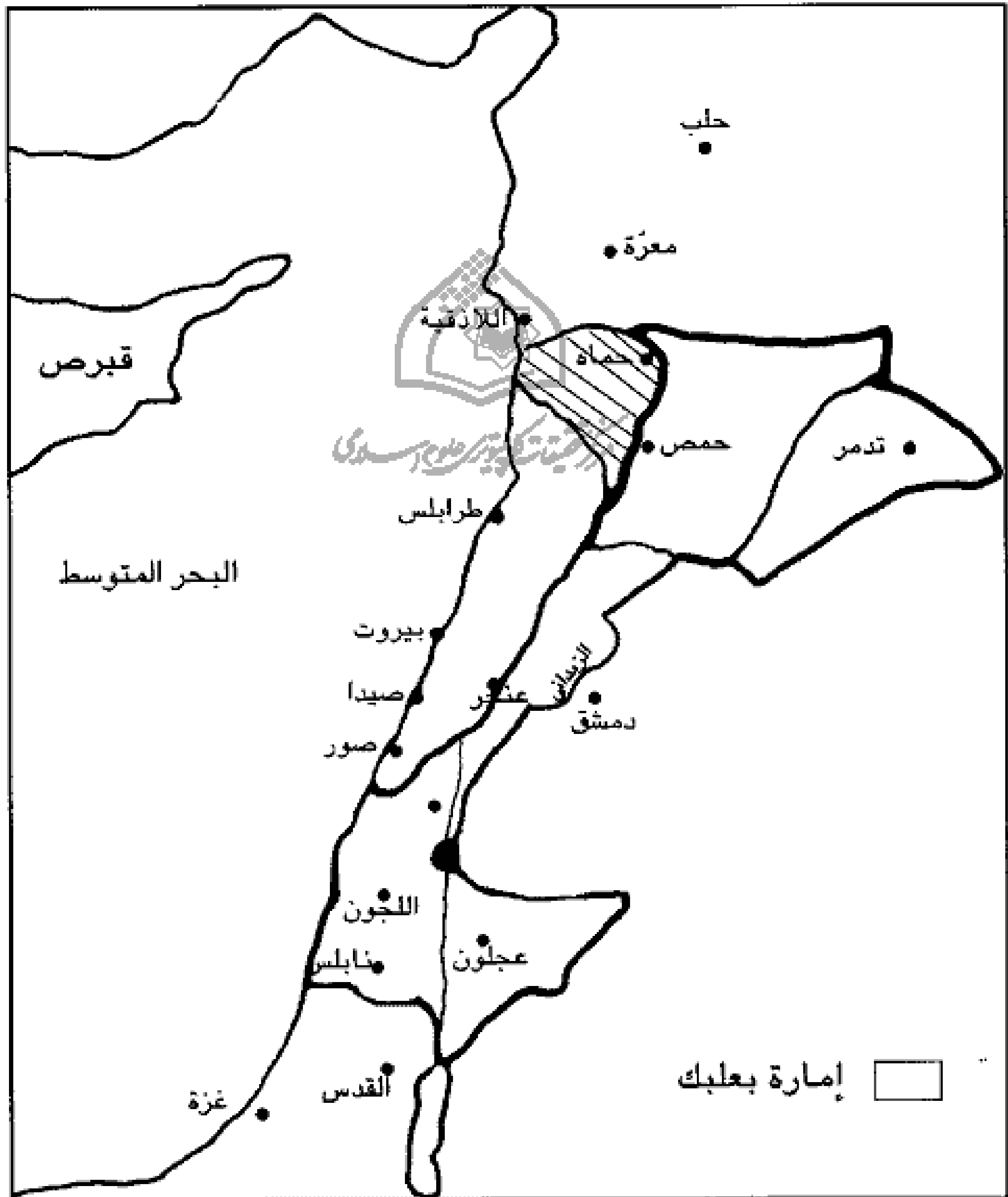
عاد موسى إلى دمشق ليخبر أهلها بنية جانبولاد وأعوانه، فاستاء الحليفان من موقفه وانحاز إليهم الأمير يونس بن حسين ابن عم موسى، وقصد الجميع بعلبك فنهبوها وفرقوا أهلها، وتسلمها يونس وسار الجميع إلى دمشق وحاصروها يوم السبت في جمادى الأولى سنة (1015 هـ 1607م)، وانتصروا في اليوم التالي على جند الشام، وفر ابن سيفا بعد أن ترك ماية ألف قرش لتعطى لجانبولاد لكي لا يدخل المدينة. وانتهى الحصار بصلح نال فيه جانبولاد ماية وعشرين ألف غرش ورضي المعني على أن تكون بعلبك والبقاع للأمير يونس الحرفوش. أما الأمير موسى فرفض كل ذلك وذهب إلى القيرانية قرب نبع العاصي، وجمع عشيراً كبيراً لقتال ابن عمه واستعادة إمارته، إلا أن المرض داهمه فصرف العشير ورجع إلى دمشق مريضاً فمات يوم الجمعة في السابع عشر من صفر (1016 هـ 1608م)، ودفن في مقبرة باب الفراديس بالقبة المعروفة ببني الحرفوش إلى جانب والده.

إن عودة الأمير موسى إلى دمشق بعد أن فشلت مهمته السلمية في المرة الأولى، وكان فيها عرضة للتشكيك والاتهام، حتى أن رؤساء الجند «آلموه بغليظ الكلام»، تبدو بعيدة عن حسن التصرف، وما عرف عن موسى من الحكمة والحصافة. فكيف يترك إمارته تحت رحمة جيش يقف ساعات قليلة بعيداً عن بعلبك ويذهب إلى الشام للانضمام إلى جنده وهم في حالة اختلاف وضعف خبرها شخصياً في زيارته الأولى؟

إن أقل ما يمكن أن يقوم به موسى، إذا لم يكن راضياً عن مسار الأمور، أن يلتزم جانب الحياد، ويذهب إلى مركز إمارته لمراقبة مجرى الأحداث والدفاع عنها في حالة الحاجة. خصوصاً أن الخلاف بين جانبولاد والمعني من جهة، وأمراء الشام من جهة أخرى، قد انتهى سلمياً بدون قتال، وتبين أن طلب إعطاء البقاع لمنصور بن فريخ كان مناورة سياسية غايتها طرح إمارة البقاعين العزيزي والبعلبكي، على بساط البحث لاستبدال موسى بابن عمه يونس الوثيق الصلة بفخر الدين. إن الذي نراه أقرب إلى واقع الأمور، أن الأمير موسى عاد مرة أخرى إلى دمشق لاستكمال مساعيه التفاوضية بطلب من جانبولاد وفخر الدين اللذين عمدا إلى إبعاده لاستغلال فرصة غيابه ومهاجمة بعلبك ونهبها ثم تسليم الحكم فيها إلى يونس، خصوصاً بعد الأهمية التي وصل إليها موسى، حتى استطاع أن تكون كلمته مسموعة حتى في دار السلطنة منذ زيارته لها، وأن يجند في حملاته خمسة عشر ألف مقاتل، وهذه أمور لن يتقبلها فخر الدين بطيبة خاطر بل سيسعى حسب عادته إلى التخلص

منه كما فعل مع والده علي وسيفعل بعد ذلك مع يونس نفسه. وليس الإلتزام بوساطة موسى إلا مناورة قصد المعني من ورائها ابعاده عن الحكم. والسعي إلى استبداله بحرفوشي آخر توهم فيه خور الهمة والعزيمة.

امارة بعلبك في أقصى اتساعها




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثاني

الصراع الشيعي المعني

صراع الأميرين

كان الأمير يونس الحرفوش 1608- 1625م رجل سلام وصلح ومفاوضات، في زمن كان القتل والنهب والتدمير من دواعي الفخر والاعتزاز عند القادة والحكام، فسعى لنشر المودة والإلفة بين جيرانه من الرؤوساء والولاة، حتى صار يقصده الجميع لفض نزاعاتهم وحل مشاكلهم. كما كان رجل بناء وعمران، أحيا موات الأرض في سهل البقاع، وأعاد له رونقه وازدهاره « **فانتشرت البساتين في قراه وصار فيها مياه جارية وفواكه وبساتين وأعناب وتين**». وقد أشار الصفدي في أكثر من مكان وهو من رجال فخر الدين وبطانته إلى ثروة الحرافشة وغلالهم التي ضبطها سيده و أدهشته وفرتها وكثرتها. **فقد استمر أهل الشوف والجرد والمتن من مشايخ ومقدمين وفلاحين يعملون ليلاً ونهاراً لمدة شهر على نهب الغلال حتى خلصوه، كما صادروا «ثلاثين حاصلا من القمح وثلاثين أخرى من الشعير في بعلبك وحدها، كذلك ما كان لهم من طرش عند عرب البقاع. أرسل فخر الدين ضبطه وكان أزيد من ستمائة رأس من جاموس وبقر غير الذي أخذه الناس»**[1].

إن علاقة الأمير يونس بالأمير فخر الدين سابقة لتاريخ توليه حكم بعلبك، فقد سبق والتجأ إليه لتسوية خلافات بينه وبين ابن عمه الحاكم منذ عام 1605م[2]. ولم يكد يصبح حاكماً على البقاع، حتى ظهرت النوايا العدائية من الدولة العثمانية حياله، ربما

---

(1) تاريخ الصفدي ص 134.

(2) تاريخ بعلبك، نصر الله ص 237. كان حكم الأمير يونس يمتد أحياناً بالاضافة إلى البقاع فيشمل حمص وصفد وعجلون ونابلس. صيدا عبر حقب التاريخ. منير الخوري، ص 221.

بسبب شخصيته القوية، وميله إلى التوسع والاستقلال، فحاول والي دمشق حافظ أحمد باشا بناءً على أوامر السلطان أحمد (1020هـ ـ 1611م) توجيه حملة لقتاله بغية تحجيمه ووضع حد لمطامحه، ولكن تدخل فخر الدين مع صديقه الصدر الأعظم مراد باشا أفشل هذا التدبير.

توفي مراد في العام نفسه، وخلفه نصوح باشا، فسارع فخر الدين إلى إرسال كتخداه مصطفى، محملاً بالهدايا والخدمة إلى ديار بكر، حيث كان الصدر الأعظم الجديد على رأس عساكر الدولة. ورغم الأحكام السلطانية التي تقضي بقتل الأمير يونس، نجح فخر الدين هذه المرة أيضاً بإرضاء الوزير وتغيير خاطره على يونس والحصول على رضا القائد العثماني[1].

استمر التحالف بين الأميرين واشتركا في العام التالي 1613م، في إرسال حملة إلى إربد، بقيادة علي المعني لمواجهة عساكر والي دمشق. ولكن يونس بالتنسيق مع الشهابيين أحمد وعلي، حاكمي وادي التيم، انضم مكرهاً إلى الحملة الكبيرة التي أرسلتها الدولة بقيادة حافظ أحمد باشا لقتال فخر الدين، وساهم بالإشتراك مع حسين سيفا في معركة جانبية عند جسر الخردلي، مع أحد ضباط المعني الساعين للوصول إلى قلعة الشقيف انتهت بأسر بعض جنوده وانسحاب الباقين. وتشير بعض الدلائل إلى أن هذه المعركة هي أقرب إلى أن تكون تعبيراً عن موقف ظاهري سياسي، يرمي إلى إرضاء القائد العثماني دون إلحاق الضرر بخصمه، ما دام جنوده القادمون من غزير بقيادة جلب حسين بلوكباشي[2] تمكنوا من دخول القلعة، رغم هذه المناوشة الليلية، مع مفرزة من خمسين جندياً، لاسيما وأن الأمير فخر الدين قرر عدم المواجهة وأبحر إلى أوروبا.

بعد رحيل فخر الدين عاد أحمد حافظ باشا إلى اتباع السياسة العثمانية التقليدية تجاه يونس، وطالبه بتسليم عمارة قب الياس وحصن اللبوة، ووصل بعسكره إلى بعلبك حيث أمضى عشرة أيام من المفاوضات، انتهت بدفع يونس خمسين ألف غرش لقاء تسليم الحصنين وحوائج السكمانية الذين قتلهم ابنه أحمد وعاد الوزير ليقضي الشتاء في الشام بينما بقي فيها أحد قواده عمر باشا والي الأناضول مع عساكره في المدينة.

عين سلاحدار جركس محمد باشا[3] والياً على الشام سنة 1615م. فأعطى ولاية البقاع

(1) أخبار الأعيان، الشدياق ص 239.
(2) المصدر السابق ص 246. والسلحدار(silahdar) هو رئيس مخازن الأسلحة.
(3) تاريخ الصفدي ص 35.

لشلهوب الحرفوش، لقاء أثني عشر ألف غرش خدمة، وأرسل معه خمسماية فارس مع كورد حمزة بلوكباشي ومصطفى آغا، فمانع الأمير حسين بن يونس في حارة قب الياس ولم يسلّم، وجاء لمعاونة شلهوب الشيخ مظفر ومقدمو كفرسلوان وحسن آغا مملوك حسين سيفا، لأن شلهوب ينتسب إليهم من جهة أمه. وانتقل إلى مكسه وقدم يونس إلى الكرك وجرت بينهما رسل ومفاوضات انتهت بعودة يونس وابنه حسين إلى بعلبك، ودخل شلهوب إلى حارة قب الياس حيث ضبط البلاد لمدة شهرين. ولزيادة التضييق على يونس أرسل والي الشام (صوباشيا) إلى بعلبك للإقامة فيها، فتوجه الأمير يونس إلى حلب لمقابلة الوزير محمد باشا الموجود فيها وأعطاه أربعين ألفاً ذهباً بالإضافة إلى خدمة فأقرّه على البقاع وبعلبك، وعاد إليها ومعه أحكام من الوزير إلى جركس محمد باشا برفع يد شلهوب، وإعادة يونس إلى البقاع فتولى ابنه حسين بعلبك وعاد أحمد إلى حارة قب الياس[1].

قام يونس بجهود حثيثة لتسوية علاقات المعنيين مع الدولة في غياب أميرهم فوضع حداً للنزاع القائم بين حاكم صيدا، محمد آغا بشناق والأمير علي المعني، انتهت بدخول الأخير إلى المدينة. **(واصطحب معه إلى حلب حسين اليازجي ومصطفى كتخدا، لمقابلة الوزير محمد باشا فأنهى حصار قلعتي بانياس والشقيف، واستحصل على تقرير صفد وصيدا على الأمير علي. وعاد مع رسول الوزير باكير آغا لتنفيذ الاتفاق. فخرج المحاصرون في القلاع من نساء فخر الدين وجنوده، ولما أراد يوسف آغا أن يتسلم الحصون ويرفع منهم جميع أولاد العرب ويكونون بيد الترك، صعب ذلك على الأمير يونس وشرع في هدمها. وتابع مساعيه التفاوضية والسياسية فساعد في إسناد سنجقية عجلون إلى الأمير حمدان بن قانصوه، واستحصل على سنجقية حمص بالإضافة إلى ما بيده. ودخل على صيدا مع علي المعني وحسين اليازجي، ومعهم خمسماية من السكبان والأمير علي الشهابي، وقرّب بجهوده وكفالته في تزويج المعني بابنة الشهابي وآزر المعنيين في وجه آل سيفا فجمع ثلاثة آلاف مقاتل من الشهابين والمعنيين ورجال بلاد بشارة وانتصر على يوسف سيفا في موقعة عين الناعمة)**[2]. وبدا في هذه الفترة الشخصية السياسية والعشائرية الموثوقة والحكيمة ومحل ثقة الجميع واحترامهم. واستمر حريصاً على مساعدة المعنيين في غياب الأمير فخر الدين، وأدى لهم خدمات كان لها الأثر البارز في احتفاظهم بمكانتهم في غياب كبيرهم، رغم أن الأنباء كانت قد بدأت تتوالى عن مشاريع الأمير الغائب وتحالفاته المثيرة، فقد أمن لهم استسلاماً مشرفاً للقلاع

(1) تاريخ الدويهي ص 471.
(2) تاريخ الدويهي ص 473.

والحصون، كما استحصل للأمير علي على سنجقية صيدا وأمن دخوله إليها بعد ممانعة واليها السابق محمد بشناق، كما ساهم في إتمام زواجه من ابنه أحمد الشهابي. ولما أرسل علي المعني مدبره مصطفى كتخدا إلى بعلبك ملتمساً من الأمير يونس مساعدته عند والي دمشق للحصول علي سنجقية صفد، لم يتوانَ عن اصطحاب المدبر إلى دمشق والحصول لسيده على صفد مقابل أموال دفع قسما منها وتكفّل بالباقي. ولما عاد المدبر وأخبر الأمير علي بالأمر كتب إلى الأمير يونس يشكره على معروفه بالكفالة وأرسل له العشرة آلاف غرش التي دفعها مسبقاً[1].

أما الصفدي، المعاصر وربما المشارك في تقرير هذه الأمور، فيقول: «ان المدبر **مصطفى كتخدا تلاقى مع أصحاب الديون في بعلبك وعندما حضر من الشام لاقاه قبوجي باشا الوالي من قبل الدفتردار وكورد حمزه والحاج كيوان البلوكباشيان، وجميع أصحاب المال وأرباب الديوان، وكتبوا الحجة المطلوبة واستدان مصطفى عشرة آلاف غرش من الأمير يونس ودفعها إليهم مسبقاً، وكتبوا الباقي إلى عيد شهر رمضان سنة (1027هـ -1617م) وكفل المبلغ الباقي الأمير يونس فإذا لم يدفع عند حلول أجله يدفعه الأمير ويستلم سنجقية صفد، فلما علم المعني بما حصل أرسل العشرة آلاف غرش للأمير يونس وتشكر منه»**[2].

إن هذه المساعدات التي قدمها الأمير يونس للمعنيين، تفترض المعاملة بالمثل عند عودة فخر الدين من منفاه، ولكن ما حصل هو خلاف ذلك. إذ أن بوادر العداء بدأت تظهر مبكرة بين الأميرين، حتى انتهت إلى مواجهة عسكرية ودخول فخر الدين إلى بعلبك وتدميرها، ثم ما أعقبها من محاولات يونس كعادته حل الأمور بالتأني والمسالمة، ولكن فخر الدين تمكن بأمواله ودسائسه أن يدفع والي دمشق إلى قتله كما فعل في السابق مع الأمير علي الحرفوش.

إن العداء الشديد الذي ظهر من فخر الدين نحو حليفه السابق ونسيبه بعد عودته من إيطاليا، يثير استغراباً شديداً يدفع إلى التساؤل عن أسبابه الحقيقية والمستترة التي حدت به، إلى البحث عن أسباب ظاهرة تبرر هذا الخلاف وتؤججه. إلا أنها تثير التساؤل والحيرة لدى الباحث المراقب.

(1) نزهة الزمان، الشهابي ج1 م2 ص 779.
(2) تاريخ الصفدي ص 64.

لابد أن هناك أسباباً هامة ومؤثرة حتمت على الأمير العائد هذا التصرف، رغم أن الحرفوشي كان واسع الصدر يميل إلى الموادعة، ولو اقتضت التنازل عما يعتبره من حقوقه، فقد قام يونس بجميع الخطوات التي كان من شأنها أن تزيل أسباب الخلاف أو تخفف من حدته على الأقل، دون أن يترك الأمور تصل إلى نقطة الحرب والقتال.

كانت الحرب بين الدولتين الصفوية والعثمانية، تتجه إلى النشوب من جديد فقد هاجم القائد العثماني حسن باشا أذربيجان سنة 1578م. واستولى على خوى وسلماس وأرسل السلطان العثماني مراد الثالث حملة بقيادة مصطفى باشا، استولت على كردستان. كما سارت حملة أخرى بقيادة عثمان باشا إلى تبريز ودخلتها دون حرب.

بعد وفاة القائد العثماني انتقل الصفويون إلى الهجوم بقيادة ابن الشاه حمزة ميرزا وأجبروا الجيش العثماني على الانكفاء إلى سلماس. على أثر هذه الهزائم احتدم الموقف السياسي في العاصمة اسطنبول لاسيما وأن النفقات التي استلزمتها هذه الحروب جعلت الوضع الاقتصادي صعباً على الحكومة والشعب معاً. فلم ير السلطان مخرجاً إلا بحملة جديدة أوكل قيادتها لفرهاد باشا، استطاعت الوصول ثانية إلى تبريز والسيطرة على كردستان ومناطق إنتاج الحرير في كنجة وشيروان، ولكن ما لبث أن استلم مقاليد الأمور في فارس الشاه عباس وبدأت معه الحروب مع العثمانيين تأخذ منحى مختلفاً عن السابق[1].

خاف العثمانيون من تأثير العلاقة المذهبية بين أعدائهم الصفويين وشيعة لبنان على أمن واستقرار جبهتهم الداخلية. ويبدو أن الصفويين كانوا في ناحية بعلبك على اتصال سري ـ منذ أمد ـ بالأمراء المحليين من آل حرفوش[2]. ومع انبعاث القوة الصفوية في بلاد فارس بدأ أمراء آل حرفوش بمد نفوذهم إلى بلدة مشغرة الاستراتجية في أقصى جنوب وادي البقاع، لتأمين اتصال مباشر مع إخوانهم الشيعة في جبل عامل، وكان العثمانيون يصرون على منع مثل هذا الاتصال وظلوا على يقظة تجاه موقف الشيعة في الشام. ولتخفيف هذا الخطر التفت العثمانيون إلى آل معن في الشوف بعدما جرى تأديبهم ونزع أسلحتهم، على أثر الحملات العثمانية الناجحة على بلادهم سنة 1586م[3].

(1) تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، عباس صباغ ص 142.
(2) بيت بمنازل كثيرة، كمال الصليبي ص 165.
(3) المصدر السابق ص 165.

ووقع اختيار الدولة على فخر الدين ابن المقدم قرقماس فانعمت عليه بسنجقية صيدا - بيروت سنة 1590م[1].

وصلت الدولة العثمانية إلى وضع عسكري واقتصادي حرج، بعدما تكبدت خسائر كبيرة وهزائم متوالية على الطرف الأوروبي من حدودها، حتى فقدت عام 1596 م. تسع عشرة ولاية. فضلاً عن سوء حالة الولايات المتبقية. في الوقت نفسه كان الشاه عباس قد نجح في إنشاء جيش عصري زوده بالأسلحة النارية على الطريقة الأوروبية، وذلك بمساعدة بعض الخبراء الإنكليز، كما أنشأ مصانع للأسلحة زودته بخمسماية مدفع وآلاف البنادق[2].

ومع اندلاع المعارك بين الصفويين والعثمانيين، عُين فخر الدين أمير لواء على سنجق صيدا مما منحه سيطرة مباشرة على شيعة جبل عامل الموالين للصفويين.

هل كانت مهمة فخر الدين المكلف بها من قبل السلطة العثمانية هي مراقبة الشيعة والتضييق عليهم، ثم ضربهم إذا دعت الحاجة أو إذا تحركوا لمساعدة الصفويين؟

هناك حوادث كثيرة تجعلنا نذهب في هذا الاتجاه، ولا نجد لها تفسيراً مقنعاً آخر. سيما وأن جميع الدلائل تشير إلى علاقة خاصة بين مراد باشا ـ أحد كبار رجال الدولة العثمانية ـ وفخر الدين، أسبغت عليه حماية لا يمكن تفسيرها إلا بوجود مهمة غير معلنة يقوم بها المعني تؤمن له كل أسباب النفوذ والسلطان على أعلى المستويات، وتقيه غوائل تغيير الولاة وغضبهم وتقلباتهم.

تعود علاقة فخر الدين بمراد باشا إلى فترة ولايته الأولى على دمشق، فهو الذي مهد له الطريق ليتحول من منافس على حكم جبل الدروز ـ مع عدد من أعيانه ـ إلى أحد أهم حكام بلاد الشام، بعدما أزال من أمامه أقوى منافسيه علي الحرفوش ومنصور الفريخي. حيث تجمع المصادر على أن دسائس المعني هي التي دفعت الوالي العثماني إلى قتلهما. كما هيأت المناصب القيادية المهمة التي تولاها مراد باشا، قبل أن يصبح الوزير الأول في الدولة، السبيل لفخر الدين إلى أن يسير قدماً في مراتب السلطة والنفوذ وأن يضم إلى مقاطعته،

(1) المصدر السابق الصفحة نفسها.
(2) المصدر السابق ص 166.

مقاطعاتٍ أخرى يزداد بأموالها ورجالها قدرة على توسع جديد كما يقول هو نفسه[1].

تولى مراد باشا ولاية دمشق مرتين، ثم أصبح قائد الحملة التي قاتلت جانبولاد وقره سعيد وغيرهما من المتمردين، وولي مدينة حلب والروملي وديار بكر، ثم أصبح سرداراً على بلاد الأناضول ثم سرداراً على العجم وقائد الجيوش المعروفة بجيش الشرق حتى مات سنة (1020 هـ ـ 1611 م)[2].

تؤكد أهمية المناصب التي تولاها هذا الرجل أنه بقي من أصحاب النفوذ البالغ والتأثير القوي في مختلف دواوين الباب العالي ومناصبه، و هو الذي منح فخر الدين مظلة الحماية الرسمية على جميع تصرفاته والدعم لكل متطلباته. فلما توفي حاميه تغيرت الأحوال واضطر بعد فترة قصيرة إلى الهرب من وجه جيوش الدولة باحثاً عن سند آخر من وراء البحار.

يقول عيسى اسكندر المعلوف عن هذه العلاقة الوطيدة بين الرجلين: «**سنة 1592 م. كان مراد والياً على دمشق، فسار إليه المعني بالهدايا مع خاله سيف الدين التنوخي، وتمكن من مودته واستمال إليه الدولة بواسطته، ونفذت لديه كلمته فمكنه من ولايته، وكان يختلف إلى دمشق كثيراً لمقابلته، وكان صديقاً مخلصاً له حزن لموته**»[3].

بدأت معاملة الدولة الخاصة لفخر الدين تتغير لحظة وفاة مراد باشا:

«**بعد وفاة مراد باشا تولى نصوح باشا الوزارة العظمى بعده، ومن عادة فخر الدين إذا تولى أحد من الوزراء الصدارة العظمى، يوجه إليه الخدم ويرسل معهم كتخداه لحسن طاعته لولي الأمر، فوجه كتخداه مصطفى لخدمة الاستقبال وقدرها خمسة وعشرين ألف غرش، ما خلا الأقمشة والخيل فلم يُرِه الوزير تلك البشاشة المعهودة بل كلمه بكلام فظ وأعطاه أحكاما سلطانية ومكاتيب في هذا الخصوص**»[4].

إن مقابلة الوزير الفظة لرسول فخر الدين ـ رغم الهدية القيمة – والأحكام السلطانية المبرزة بحقه تدل على أن مراد باشا سردار العجم وقائد الحرب فيها انفرد وحده عن السياسة العامة للدولة، بحماية فخر الدين وتقويته وتوسعة نفوذه على حساب

(1) فخر الدين المعني الثاني، قرالي ص133.
(2) تاريخ فخر الدين، عيسى اسكندر المعلوف ص 62.
(3) المصدر السابق ص 62.
(4) تاريخ الصفدي ص 5.

معظم جيرانه، وإزالة منافسيه، وعلى رأسهم الأمير علي الحرفوش الذي كان على خصام معه ومع خاله وأقرب معاونيه، حتى في بيروت نفسها[1].

تواصل الجناحين

ليس من الغريب أن يبني أحد الأمراء الحرافشة بيتاً في مشغرة ويسكنها، فالبلدة تقع ضمن إقطاعهم، وهي من مراكز العلم والسكن والحكم عند الشيعة منذ أمد بعيد[2]. إن المستهجن في الأمر أن يعتبر المعنيون، أن في هذا تهديداً لمصالحهم وتحدياً لنفوذهم. ولا يمكن فهم موقفهم الحازم والشديد حياله، إلا إذا كان يشكل تهديداً لأحد مخططاتهم المستترة، والتي لا يمكن استقراؤها إلا بإلقاء الضوء على مجموعة من المواقف والتصرفات السابقة واللاحقة، و البحث عن الدوافع الظاهرة والخفية.

إذا كان الذي أزعج المعنيين هو موقع مشغرة الجغرافي، على تخوم سنجقية صفد التي دخلت آنياً في التزامهم، بمساعي وأموال وجهود الأمير يونس الحرفوش، فإن علاقتهم بهذه السنجقية قريبة العهد، ولم يسبق لأي معني آخر، أن كان له أي اهتمام بها سابقاً وليس لهم فيها، في مطلق الأحوال، أية مصالح مادية أو بشرية أو سياسية راسخة وتاريخية، يرغبون في المحافظة عليها. وأن التزامها السنوي متاح لأي شخص آخر، حتى أن عاملهم حسين اليازجي التزمها رغماً عنهم، مما أدى إلى نزاع دموي معه[3].

إن الأسلوب الذي صاغ به الصفدي روايته عن هذه الواقعة، يوحي بوضوح وكأن أحمد ابن الأمير يونس، قد ارتكب مع أبيه جريمة كبرى بالإقامة في مشغرة، واستقبال زواره من شيعة جبل عامل الذين توافدوا عليه بحكم الأعراف والروابط التي لا تخفى على أحد.

يقول الصفدي عن الأمير أحمد ابن يونس:

«غرّه الطمع بتدبير والده وحيله فجاء وسكن قرية مشغرة وأسس بها أساس بنيان، وصار يراسل ويكاتب بني متوالي، من المشايخ المتعينين، فطلع إليه من شيعته

---

(1) الإمارة الدرزية، أبو حسين ص 109.

(2) حول «مشغرة حاضرة العلم والسياسة» راجع فصل آخر تحت عنوان «مشغرة».

(3) انتهى إلى مقتله على يد علي فخر الدين المعني.

وملته بهدايا أولاد داغر، وأولاد علي الصغير وابن منكر الحاج ناصر الدين. بحجة أنهم يسلمون على قرابتهم الحاج علي بن منكر لكونه كان نازحاً عنهم منذ رجع الأمير علي إلى البلاد وحكمها ونازلاً عند ابن الحرفوش الأمير يونس. فلما رأى الأمير علي ذلك وعلم أن مجيء الأمير أحمد المذكور، إلى مشغرة مبني على الفساد، وأنه مراده المجيء إلى هذه القرية ليس إلا استمالة لبني متوال إليه واجتماعهم عليه» [1].

يبدو جلياً من هذا النص ـ خصوصاً وأن كاتبه مطلع عن كثب على أفكار سيده وهواجسه ـ أن اتصال الحرفوش بشيعة جبل عامل، يشكل في نظر المعني عملاً عدائياً، وتآمراً على نفوذه وسياسته وهذا هو سبب الرسالة الإنذار التي وجهها إلى الأمير يونس مع رسول شيعي خاص هو السيد نور الدين من قرية جباع، **«إذا كان مرادكم محبتنا وصداقتنا فامنعوا ولدكم الأمير أحمد من البناء في قرية مشغرة ومن السكن بها أيضا»**[2].

يبدو أن المعني مصمم على منع اتصال الحرافشة بشيعة جبل عامل منعاً باتاً وحاسماً، رغم أن الأمير يونس في ذلك الوقت كان الشيعي الأقوى الذي يتقرب منه الناس، لحل مشاكلهم، والاستعانة به في قضاء حوائجهم، بما فيهم الأمير المعني نفسه أحياناً. ومع ذلك فقد كان جواب يونس على هذا التحذير ينسجم تماماً مع شخصيته المسالمة التي تجنح إلى السياسة والموادعة، في مختلف الظروف، مهما كان الطرف الآخر متعالياً ومتوتراً:

«نحن ما مرادنا إلا التقرب من جنابكم بالمليح وأن الذي خطر في بالكم لم يخطر ببالنا» [3].

فما الذي خطر في بال الأمير المعني؟ هل كان يريد أن يحول دون اتفاق شيعي وتواصل عام قد يقف عائقاً أمام بعض مخططاته التي كانت وقتها لا تزال في طور الإعداد ولم تسمح الظروف بتنفيذها بعد؟ أم انه كان يرمي إلى إبقاء متاولة جبل عامل معزولين عن إخوانهم في الشمال، ومحرومين مما قد يوفره لهم الأمير يونس من حماية ورعاية، ليسهل استفرادهم والتحكم فيهم، قبل الانتقال إلى بعلبك

(1) تاريخ الصفدي ص 66.
(2) المرجع السابق ص 66.
(3) المرجع السابق ص 66.

للقضاء على الأمير وشيعته، وهو ما حصل فعلاً بعد ذلك بسنوات قليلة. أم أن التقرب من السلطة العثمانية، التي طالما برع في ابتداع أساليبه، يستلزم في ظل احتدام المعارك على الجبهة الإيرانية، قطع الطريق على كل محاولة للتواصل بين طرفي بلاد الشيعة في الشمال والجنوب. وحسن السياسة يقتضي إزالة الجفاء، الذي يعكر صفاء علاقته العثمانية، والهواجس التي قد تكون خطرت على بال بعض رجالها النافذين، من جراء زيارته الأوروبية المجهولة المقاصد، والمثيرة لبعض الشبهات.

تصاعدت لهجة المعني التهديدية في رسالته الثانية مع نفس الرسول: «**لابد من منع ذلك إن قصدتم صداقتنا على اليقين، وإن كان لكم فيه غير ذلك فعرفونا بها لنكون على بصيرة**»[1]؛ إنها لهجة تسبق عادة إعلان الحرب وإشهار العداء. لكن يونس كعادته آثر الحد من تفاقم الأمور «فأرسل قريبه أمير حاج إلى الأمير علي لينوب عنه في الإحتجاج ويبين الأعذار ويوضح الأخبار وأرسل إلى ابنه يمنعه من العمارة».

ولكن رغم كل ذلك بقيت هواجس المعني تؤرقه لأن «**حكايات الأمير يونس ومراسلاته إلى مشايخ بني متوال لم تنقطع، وهم لم يمتنعوا في التردد إليه**»[2].

هل كان ذلك يتعارض مع مشروع فخر الدين القاضي بإنشاء ممالك أوروبية في لبنان وفلسطين وقبرص على الأقل، ووعوده بتسليم القدس إلى الطامعين فيها يداً بيد؟[3]، وما كان لمدينة صور خصوصاً من دور أساسي في هذا المشروع، كمرفأ حربي وتجاري تنطلق منه الجيوش القادمة للوصول إلى القدس، عن طريق جبل عامل والجليل[4]. وقد بوشر فعلاً بإعداد الخرائط اللازمة لهذه المدينة والقلاع العاملية مثل نيحا والشقيف وبانياس والمنارة،استعداداً للغزو المرتقب[5].

كان فخر الدين وغيره من أعوانه ومفاوضيه الأوروبيين، يعتقدون أن المسيحيين والدروز يدعمون هذا المشروع وسيحاربون من أجله. فكان المطلوب من فرناندو الأول عشرة آلاف جندي لشد أزر الدروز في هذه الحملة، بالإضافة إلى عشرين ألفاً من

(1) المرجع السابق ص 67.
(2) المرجع السابق ص 67.
(3) في آذار 1625 أوفد البابا أوربانس الثامن الأب توما إلى توسكانا فروى لقاصد فلورنسا الرسولي أن فخر الدين كتب للبابا يستحثه على احتلال الأرض المقدسة وقد وعد الأمير بتسليمه سنجق القدس يداً بيد (فخر الدين المعني الأب قرالي ص 155).
(4) حول أهمية ميناء صور للحملة الموعودة راجع المصدر السابق ص 154 ـ 155.
(5) فخر الدين المعني، قرالي ص 155.وبانياس والمنارة قريتان على حدود جبل عامل الجنوبية.

أهالي جبل لبنان، يمكن تجنيدهم وتكليفهم التخريب في أرض العدو كما جاء في تقرير رفعه أحد البنادقة إلى غراندوق توسكانا... «**فيجتمع لديكم من جنودكم الدروز ونصارى الجبل بين الأربعين والخمسين ألفا تبلغون بهم مرامكم وتتوجون ملكاً على القدس وسورية**»[1].

فما هو مكان الشيعة ومصيرهم في مثل هذه المشاريع؟ لابد من الوقوف طويلاً أمام التوقيت الذي اختاره فخر الدين ليشن على الشيعة حملة تنكيل وبطش وإرهاب، بدأت منذ اللحظة التي ترك فيها الباخرة وهو لم يزل في عكا قبل نزوله إلى البر، مما يدل على أن الأمر كان مبيّتاً قبل وصوله إلى أرض الوطن، والغاية منه ضربهم وإلقاء الرعب في قلوبهم، وإبعاد مشايخهم وحكامهم لغاية لابد من النظر فيها، والتمعن في أبعادها وأهدافها. يقول الصفدي: «**إنه كان قد بلغ الأمير فخر الدين أحوال مشايخ بني متوال ومقابلتهم لابن الحرفوش في قرية مشغرة، فحين وقعت عيناه على الشيخ ناصر الدين بن منكر مسكه لأنه من أعيانهم**»[2]. ومن الواضح هنا أن الحاج المذكور جاء مع غيره من مشايخ المتاولة للترحيب بالأمير واستقباله، كما استقبله في صيدا الأمير أحمد الحرفوش بتقدمة من الخيل[3]. ويؤكد أن أول مهمة قام بها القادم من غيبة استمرت أكثر من خمس سنوات، هو انتقاله إلى عكا وتفريق قصاده على سائر البلاد، والتضييق على الشيعة بحجة جمع مال الإرسالية لمدة ثلاث سنوات فقتل ونهب في عدة أمكنة من جبل عامل مما أرغم مشايخهم على مغادرة بلادهم والإلتجاء إلى الأمير يونس الحرفوش: «**طاحت مشايخ بلاد بشاره بيت شكر وأولاد علي الصغير، ولما بلغ الأمير فخر الدين هجاج مشايخ بلاد بشاره أرسل هدم بيوتهم وضبط جميع غلتهم**»[4].

أجبر فخر الدين مشايخ المتاولة على ترك دورهم والفرار إلى مناطق بعيدة عن ديارهم، حيث يجدون الأمن والحماية عند الحرفوشي، ثم عمد إلى هدم هذه الدور ومصادرة الأرزاق كي يتخلص نهائياً من وجودهم في جبل عامل، فلا يبقى فيه إلا العوام وسائر الناس، بلا جامع يوحدهم أو قائد يلتفون حوله، فيسهل التحكم بهم. ولا يشكلون في المستقبل أية قوة يحسب حسابها، أو يؤبه إلى قرارها في مصير أرضها

(1) من تقرير كاتشيا ماري (Catceeia mari) إلى فرديناند الأول، قرالي م.م ص 159.
(2) تاريخ الصفدي ص 69.
(3) المرجع السابق ص 69.
(4) المرجع السابق ص 71.

وناسها. فهل كانت هذه هي الخطوات الأولى لتمهيد الأرض أمام جيوش الغزاة المرتقبة في طريقها إلى القدس، أم أن هذا هو المطلوب من فخر الدين، لإرضاء السلطات العثمانية التي كلفته بمهمة قهر الشيعة والتنكيل بهم؟ وهو بحاجة إلى استدرار رضاها واستعادة ثقتها بعد غيابه الطويل المثير للريبة. أم انه يضرب العصفورين بالحجر الواحد فيرضي الطرفين معا ولو اختلفت الأهداف بينهما؟

وما هو موقف يونس الحرفوش إزاء ما ينزله حليفه القديم بالشيعة من ضربات مؤلمة متلاحقة؟

بقي يونس كعادته متحفظاً ومتأنياً يعالج الأمور بروية ودبلوماسية، فأرسل مدبره حسين الشارب يلتمس من الأمير فخر الدين إطلاق الشيخ ناصر الدين مقابل كفالته لاثني عشر ألف غرش تدفع تسديداً لديونه في دمشق، واستقبل الهاربين من جبل عامل، وفي الوقت نفسه لم يتأخر عن إجابة طلبه أن يضبط ما لآل سيفا من المواشي والغلال في القيرانية والهرمل بعد أن حاصر البرج الذي دخله سكمانيته ابن سيفا لمدة ثلاثة أيام، كما أرسل نجدة من أربع بلوكباشية من عساكره إلى فخر الدين للاشتراك في حصار ابن سيفا في حصن الأكراد[1].

تواصلت العلاقات الفاترة بين الأميرين المعني والحرفوش، غير أنها لم تصل إلى حد القطيعة رغم أنهما لم يتقابلا منذ عودة فخر الدين من ايطاليا حتى عبوره في بلاد بعلبك، فمر آتياً من البترون عبر حدث بعلبك ثم وصل إلى المجر[2] على نبع العاصي. وكان الأمير يونس عندها في حصن اللبوة الذي لا يبعد كثيراً عن المكان فتوجه فخر الدين لزيارته فالتقيا على الطريق وسلم كل منهما على صاحبه فدعاه فخر الدين إلى خيمته فلبى الدعوة ومكث مقدار «شرب فنجان قهوة»[3] وقام مودعاً محتجا بتقدمة الميرة والعازق للعسكر إلا انه لم يرجع ولم يرسل شيئاً وهذا ما يدل على توتر العلاقات بينهما، وأن يونس ينظر بعين الشك والريبة إلى فخر الدين لأن إرسال الميرة هو من التقاليد المرعيّة التي تعبر عن الصداقة والمودة والثقة.

---

(1) تاريخ الصفدي ص 77. سكمان أو سكبان SEKBAN هو حارس الكلاب في الأصل وأصبح يعني حارس القلعة. توفنجي TUFFENGI جندي مشاة. كتخداه أوكيخيا KIAYA هو سيد البيت في الأصل وأصبح يعني الوكيل أو السكرتير.

(2) وادي ضيق إلى الجنوب من مغارة الراهب ودير مار مارون لا يزال يحمل هذا الإسم «المجر» حتى اليوم ربما لأن مياه اللبوة كانت قديماً تجري فيه حتى تصل إلى نبع العاصي.

(3) يقصد بذلك أن الزيادة لم تستغرق وقتاً طويلاً.

قام الأمير يونس بمحاولة جريئة لإنقاذ علاقاته المتدهورة مع فخر الدين وربما لكي يأمن شر تقلباته ودسائسه.

يقول الصفدي:

«في محرم الحرام من سنة (1030هـ-1620م) قدم الأمير حسين بن الحرفوش وكواخي والده وجماعته إلى عند الأمير فخر الدين ببيروت خاطبين كريمته للأمير أحمد فتوجه فخر الدين إلى صيدا وقضى لهم مرادهم، وعاد كل منهم بما حصل له من المجابرة وأرسل كريمته مع المتعينين من أعيان جماعته وتوجهوا إلى قب الياس، وجاء الأمير يونس والتقاهم بها وراعى الذين توجهوا من قبل الأمير فخر الدين حق رعايتهم وعادوا إلى أستاذهم»[1].

من الواضح أن فخر الدين عاد من أوروبا وهو يحمل ضغينة وعداءً نحو يونس الحرفوش وعائلته وجماعات الشيعة الموالية له في جبل عامل. فلم تكن إقامة ولده حسين في مشغرة إلا القشة التي قصمت ظهر البعير، وأفسحت المجال لظهور هذا الخلاف إلى العلن واتخاذه المنحى التصعيدي الذي سيؤدي إلى الصدام مستقبلاً بين الأميرين.

إن الاضطهاد والتنكيل الذي أوقعه المعني بشيعة جبل عامل، واعتقال بعض شيوخهم، وتهجير الباقي، وهدم القرى الشيعية وحرقها ومصادرة الأرزاق والممتلكات، لا بد وأنها تركت في نفس يونس ألماً دفيناً، حالت طبيعته الهادئة دون ظهور ردات فعل فورية ومتشنجة. ولكن جميع أسباب الصدام توفرت ولم يبق إلا إشعال الفتيل الذي حاول يونس تأخيره ما أمكن. لقد منع ابنه من الإقامة في مشغرة، وبذل المال لتحرير الشيخ المنكري المعتقل، وتحمل وجود الهاربين من مشايخ جبل عامل لديه دون أن يثير هذا الأمر أو يزيد الشرخ اتساعاً بينهما، ثم إنه نفذ طلبات فخر الدين في مقاتلة آل سيفا في القيرانية، وأرسل له النجدة إلى قلعة الحصن، وأخيراً سعى إلى مصاهرته لعل النسب يفيد في إخماد العداء. ولكن فخر الدين كان ينقب في دفاتره عن أسباب قديمة، يمكن له أن يثيرها لتعقيد الأمر والجنوح نحو حرب جرى إعداد أسبابها وخطتها بعناية وبراعة وتصميم.

إن صعوبة البحث في الأحداث التاريخية الظاهرة تتضاعف حينما يعمد الباحث إلى

(1) تاريخ الصفدي ص 99.

النفاذ من خلالها إلى خلفياتها ومسبباتها، ليصل إلى قناعة كاملة، بأن الحدث لا يحمل وجهاً آخر غير الذي يبدو من النظرة العابرة الأولى.

إن العداء البالغ الذي أظهره فخر الدين غداة وصوله إلى عكا، وقبل أن يتسنى له الوقت الكافي للإطلاع على مجرى الأمور في غيابه، ومقابلة ولده علي وشقيقه يونس والذي عبر عنه بتدابير عنيفة وقاسية أجبرت المستهدفين من متاولة جبل عامل على النزوح إلى منطقة أخرى، بدون إبداء مبررات وأسباب أو الإفصاح عنها. كما أن المحاولات المتكررة التي ابتدأت قبل وصوله وتتابعت فيما بعد لإثارة يونس الحرفوش وجره إلى صراع لا يريده ويتحاشاه مهما كان الثمن، وهو الأمير الذي يملك من أسباب المنعة والثروة والسلطة **«وقوة النفس على ابن معن وغيره من أمراء أولاد العرب»**[1] ما أقر به خصمه نفسه قبل غيره، إن هذا الإصرار على إشعال فتيل الصراع يكشف عن الغاية الحقيقية لفخر الدين في ذلك، ما دام ليس هناك سبب جلي، مثل الكثير من الأسباب التي تثير الحروب بين رجال الحكم وأصحاب السلطة عادة.

وجد فخر الدين في حارة قب الياس سبباً لإذكاء العداء فوصل فجأة إليها مع سكبانه وطرد صهره منها، وفرق بينه وبين زوجه، ولما امتنع الحرفوشي عن أية ردة فعل عنيفة تجاه هذا التصرف أمر جماعته بنهب البلدة وسلب غلالها، وعمد أخيراً إلى مهاجمة أكثر المزارات الشيعية احتراماً وتقديراً في المنطقة، فدمرها وأحرقها، لعل ذلك يؤدي إلى ما يبتغيه من إجبار يونس على خوض حرب، لم يقتنع، رغم كل ما جرى بضرورتها وجدواها.

يروي الصفدي الأسباب التي دفعت المعنيين إلى إشهار الحرب على الحرافشة، فإذ هي أسباب واهية وتافهة يمكن لأي مدبر أن يعالجها بدون كبير عناء. إن ذنب يونس أنه **«تقوى في عدد الفدادين وقطعان المعز وتوسعت عليه الأرزاق وباع في سنة الغلا غلالاً بأبلغ الأسعار وصار يمنع أهل الشوف من الزراعة وكان للأمير علي بن معن بعض تيمار في قب الياس يسمى «تل النمورة»[2] فأرسل إليه مباشراً من قبله فمنعه الأمير حسين الحرفوش فلما ظهرت من بيت الحرفوش هذه الأحوال ركب الأمير فخر الدين من بيروت بصحبة عساكره ونزلوا تحت حارة قب الياس».**

(1) تاريخ الصفدي ص 135.

(2) تل قرب عنجر لا يزال يحمل الإسم نفسه حتى اليوم وهو محل نزاع قضائي حالي أمام المحاكم.

خرج الأمير حسين من حارة قب الياس واجتمع بالأمير فخر الدين ودعاه إلى ضيافته فقبل منه ودخل مع بعض سكبانه إلى الحارة فلما استقر به الجلوس أبرز من يده وثائق تفيد بأنه اشترى الحارة من ورثة الأمير منصور بن الفريخ وقال له:

«على موجب هذه الحجج الحارة ملكنا وأسكناك بها هذه المدة الطويلة والآن احتجنا إلى موضعنا فتوجه أنت إلى عند والدك بالأمن والأمان»[1].

خرج الأمير حسين مطرودا بدون زوجته، واتجه إلى بعلبك، بينما أمر فخر الدين رجاله بنهب البلدة، وأعطى إجازة لجميع أهل الشوف والجرد والمتن بأخذ غلال بيت الحرفوش، وكذلك جميع طرشهم. وأرسل يستقدم المعلمين والقلاعين من صيدا وبيروت ليهدموا الحارة.

لا بد من التساؤل عما إذا كانت حارة قب الياس أو تل النمورة أو وفرة غلال ابن الحرفوش هي أسباب كافية لشن حملات عسكرية وحروب، تستقطب معظم القوى الموجودة على الساحتين العسكرية والسياسية.. أم أن هناك وسائل أجدى وأقل كلفة وأقرب إلى حسن التصرف يستطيع فخر الدين اللجوء إليها لاستعادة ما يدعيه من حقوق في حارة قب الياس التي تقيم فيها ابنته وزوجها؟

وربما شعر الصفدي أن هذه الأسباب غير كافية وغير مقنعة فحاول تبريرها بسلامة نية سيده، و نبل مقاصده وأن كل ما يرمي إليه هو «**توطية نفس الأمير يونس وأولاده**» وأن حارة قب الياس انتقلت إليه بالشراء فهو يطالب بحق شرعي وعادل[2] وأخيراً جاء برواية مكتوب كورد حمزة، التائه لعلها تكون أكثر إقناعاً وأشد واقعية خصوصاً وأن الوزير في دمشق أرسل بعض معاونيه لإجراء الصلح بين الأميرين ففشلوا في تحقيق ذلك.

يقول الصفدي الذي انفرد بهذه الرواية الغريبة والتي يبدو أنها من وضع وابتكار كيوان صديق الأمير المعني ونصيره ووالده الروحي، لأنه تماثل مع ما عرف عنه واشتهر به من أساليب مبتكرة في الخداع والاحتيال، وتظهر لمساته واضحة في طريقة وضعها[3].

---

(1) تاريخ الصفدي ص 135.

(2) أثبتت الوثائق العثمانية المنشورة حديثاً بطلان هذا الزعم كما جاء في الحكم السلطاني الصادر في أول تشرين الثاني 1615م، والقاضي بإعادة هذه الحارة وغيرها من الممتلكات الأخرى إلى أصحابها الشرعيين آل فريخ. الإمارة الدرزية، أبو حسين ص 187 ـ 188.

(3) حول اشتهار كيوان بأساليب الخداع والإحتيال راجع المحبي ج3 ص 299.

«أرسل الأمير يونس مكتوباً إلى كورد حمزة بلوكباشي، يعلمه فيه بعزل ابن معن عن صفد وعما صار في جماعته في بانياس وعجلتون، وأظهر فيه البغض وشدد على كرد حمزة باغتنام هذه الفرصة فاختلط هذا المكتوب مع المكاتيب التي أراد إرسالها للأمير فخر الدين لأنه أميّ لا يقرأ ولا يكتب فلما اطلع فخر الدين على ذلك تغير خاطره على بيت الحرفوش لأنهم كانوا رذلا»[1].

إن رواية الصفدي حول هذا المكتوب التائه لا تستقيم مع المنطق السليم وواقع الأمور. ألم يكن الأمير يونس على دراية بالتحالف الثلاثي المقدس الذي قد يكون من تقاليد الإنكشارية المتبعة بين فخر الدين وكيوان وكورد حمزة، حتى يرسل له ما يمكن أن يستعمله كورد حمزة لإثارة فخر الدين عليه. وهل من المسلم به أن يقع كورد حمزة في مثل هذا الخطأ وهو الذي تعود على أمور الديوان والإدارة وكانت سلطته غالباً هي الفصل في أمور تعيين الولاة وحكام المقاطعات. وهل من الممكن أن يكون هذا المكتوب حلقة أخرى من سلسلة من الحوادث المصطنعة والمفتعلة كمقدمة لمعركة عنجر وما حصل أثناءها وبعدها؟

«في شهر ربيع الأول في سنة (1030 هـ ـ 1620م) صار الاتفاق بين الأمير فخر الدين والحاج كيوان وكورد حمزة وباقي عساكرهم عموماً أن يرفعوا من بينهم الشقاق ويتركوا النفاق ليكونوا شيئاً واحداً **«عدو أحدهم عدو لهم جميعاً وصديقه صديقهم»**[2].

لا يمكن الاستهانة بهذا الحلف الثلاثي المقدس الذي يجمع بين أمير طموح واثنين من كبار جند الولاية استطاعا في وقت ما، أن يمسكا بزمام السلطة الرئيسية في ولاية الشام التي تعيِّن الولاة وتجرِّد الحملات وتتحكم في سائر الأمور.

بدأت ملامح الخلاف الجدي بين الحاكمين تبرز بشدة، عندما بدأ فخر الدين يسيء معاملة متاولة جبل عامل التابعين لسنجق صفد الذي تولاه لأول مرة قبل وفاة راعيه القبوجي في ذروة الحرب العثمانية الصفوية سنة 1598م واشتد مع توثق العلاقات بين الحرافشة من جهة ومشايخ صفد المتاولة من جهة أخرى، فلما فشل يونس في محاولاته للإبقاء على علاقات ودية معه، رغم نجاحه في الحصول على الأمان له وهو في أوروبا، ومساعدة ولده علي في الحصول على سنجقية صفد في غياب أبيه ؛ وصل إلى قناعة

(1) تاريخ الصفدي ص 134، وتبدو مشاعر المؤرخ العدائية تجاه الحرافشة في هذا النص كما في غيره.
(2) الصفدي ص 94.

مفادها أنه لا بد من رفع يد فخر الدين وسلطته عن شيعة جبل عامل. والسبيل الأنسب إلى ذلك هو في توليه شخصياً هذه السنجقية المتصلة بإمارته فيصبح بعدها فعلياً الأمير الشيعي القوي الذي يمتد حكمه من بوادي الشام إلى سهول فلسطين وما بينها من بلاد المتاولة، ما يهدد جدياً مشاريع غريمه المعقدة وأهدافه المبهمة.

وهذا هو ما عجل في دفع فخر الدين إلى التخطيط لمعركة عنجر ورسم فصولها بمكر ودهاء نادرين.

معركة عنجر

تولى الأمير يونس أخيراً سنجقية صفد بزيادة «ألف ذهب» وأصبح بحكم مناصبه «**سنجق صفد أمير لواء حمص ضابط بعلبك وبقاع العزيز**»[1] حاكماً على الشيعة من أعماق البادية شرقاً حتى أطراف بلاد بشارة، بما فيها مقاطعات جبل عامل الثلاث، والبقاعين ومدينتي بعلبك وصور، ومناطق صفد ونابلس وعجلون في فلسطين[2].

أغضب ذلك الأمير فخر الدين وجعله يستنفر جميع طاقاته وقواه العسكرية والمالية والسياسية، فأرسل من المنية مكاتيب لباشا الشام وأوطاق اليكجريه والدفتردار أنه:

« **بلغنا أن ابن الحرفوش زاد على صفد ألف ذهب وقبلتم منه ذلك فنحن عندنا خدمة لحضرة مولانا السلطان على بلاد بعلبك ماية ألف ذهب، وإن كان عندكم غرض نفس وهوى يصير فتنة وإن قبلتم زيادة ألف ذهب ولم تقبلوا ماية ألف ذهب تحضر لديكم فالأمر إلى الله تعالى**[3] **ثم وصلته أخبار من معتمده والواقف على مصالحه في اسطنبول تفيد أنه اجتهد على زمان حسين باشا الوزير في أن يقرر سنجق صفد فما أمكن**، إلا أنه فاجأ الجميع بما فيهم دولة الشام بزيارته إلى صفد وإعلانه أنه استلم أحكاماً ورسائل رسمية من الوزير علي باشا في اسطنبول بتقريره من جديد سنجقاً على صفد، أرسل صورتها إلى والي دمشق، وقال لتأكيد الخبر ودفع الشك والارتياب أن محمد آغا العنتابي ومحمد بلوكباشي أحضرا هذه الأحكام من الباب العالي « **فلم يلتفت أحد من دولة الشام إلى ذلك وجعلوا ان ذلك تزويراً.**»، فقد وصلت إليه أخبار تولية السلطان الجديد مراد وتوزير علي باشا، الذي

(1) لبنان والإمارة الدرزية، أبو حسين ص 182 ـ 183.

(2) نقلاً عن وثائق المحكمة الشرعية في دمشق، الحرافشة، فؤاد خليل ص 80.

(3) تاريخ الصفدي ص 139.

خدمه الحاج درويش بخمسة آلاف غرش حال تسميته، قبل أن يسمع بها أحد[1].

على الصعيد العسكري وبعد تحضير دؤوب، ومقدمات كثيرة معدة بعناية مدروسة، بدأ فخر الدين أخيراً حربه المعلنة على يونس ومن ورائه، على ما لاح في الأفق من بوادر اتحاد شيعي بين ألوية حمص وبعلبك وصفد التي اجتمعت في حكومة الحرفوشي. فجمع ألفي خيال، وهاجم بلدة كرك نوح التي كان لها مكانة دينية مهمة عند الشيعة، وفتح باب المزار وقتل ما ينوف عن ثلاثين رجلاً من أتباع ابن الحرفوش وأسر نفراً أرسلهم إلى بيروت. وكان في البلدة مئة مقاتل من جماعة الأمير يونس عليهم مملوكه صوباشي البلد وابن الغتمي، فلما باغتتهم كثرة الخيل دخلوا إلى المزار ثم صعدوا إلى المئذنة واحتموا فيها ولما وصل ولده علي وشقيقه يونس برجالهم، نزل المدافعون بأمان علي الشهابي. فأحرق الأمير جميع أحياء البلد بعد استسلام المدافعين صلحاً، حتى لم يبقَ فيها بيت واحد بلا حريق. وتوجه منها إلى **سرعين التي كانت قديماً مسكناً لآل حرفوش فهرب أهلها إلى الزبداني. ولكن عشير الأمير تبعهم ونهب منهم ما قدر عليه، واستمر فخر الدين بالبلد إلى قرب الظهر حتى أنهوا حرقها ولم يبقَ فيها بيتٌ عامر، وكانت هي والكرك من أجمل البلاد وأغناها**[2].

اندلعت الحرب بين الأميرين، وبدأ فخر الدين هجومه على البقاع، وبما أنهما كانا أهم حكام البلاد فقد انقسم الناس إلى حزبين متحاربين، جنّد كل منهما أقصى ما يمكنه من مناصرين وموالين.

ضم معسكر الأمير فخر الدين رجال الشوف والغرب والجرد والمتن وأحلافه من الشهابيين والأمير أحمد بن قانصوه والشيخ أحمد الكتاني والشيخ حسين بن عمر الناقة، يقابلهم في المعسكر الحرفوشي الأمير يونس وسكبانيته ورجال بلاده وأقاربه وحلفاؤه عمر بن سيفا والأمير عباس مع أعراب حمص وتركمان بعلبك وعرب آل موسى.

وكان في ولاية الشام ثلاثة أشخاص يديرون أمورها حينئذ، وهم الوالي مصطفى باشا الخناق «كتخدا» مراد باشا الوزير صديق المعني وحاميه[3]. **«وهو رجل ظلوم غشوم اعتمد على كيوان في أمور الولاية حتى صارت حقيقة أمور**

(1) المرجع السابق ص 145 ـ 146.
(2) الصفدي ص 147.
(3) تاريخ الأمير فخر الدين المعلوف ص 181.

السلطة في يده. وفور دخوله الشام والياً، بعث كيوانا إلى المعني يطلب مالاً منه خدمة استقبال، ونفقة عسكر[1]. وصاحبا النفوذ الأول في الولاية كيوان وكورد حمزة وهما من رؤساء الجند في الشام، استبدا بأمور الولاية دون الوالي، وصارا يوزعان الولايات والسناجق، ويتصرفان كما يريدان حتى لقب كيوان بالطاغية، وهو أصلاً من أوباش الناس، اشتهر بالاحتيال والتزوير،[2] وكان أقرب الناس إلى فخر الدين، ساعده في جلائل الأعمال وسافر معه إلى أوروبا ورجع قبله ليسعى له بمساعدة يونس الحرفوشي في الحصول على العفو ليعود آمناً من غضب الدولة. وكانت العلاقة التي جمعت بين الرجلين وثيقة وحميمة حتى لقبه بعض كتاب سيرته من الأجانب بالأب الروحي لفخر الدين[3]، وقد أقسم الأب الروحي والابن وكورد حمزة على الولاء الواحد والاتفاق على جميع الأمور قسماً مراسمياً احتفالياً فريداً من نوعه.

وقعت فتنة بين كيوان وجند الشام واتسع الخلاف بينهما فسار إلى المعني في قب الياس وهو يتهيأ للهجوم على البقاع وقتال يونس الحرفوش، ومكث عنده حتى أرسل الوالي وفداً من الجند يضم عشرة بلوكباشية واسترضوه فعاد معهم إلى دمشق، حيث عقد الوالي ديواناً ضم كبار أعيان الجند والأهلين، فاختلف مع كورد حمزة الذي خرج غاضباً مع بعض أنصاره، كطريفي بلوكباشي ومصطفى بلوكباشي ابن النميلي والتحقوا بفخر الدين في البقاع.

اشتهر كيوان في الأعمال الاحتيالية التي تجعل الأمور تبدو خلاف حقيقتها، وقد ذكر المحبي في ترجمته قصصاً من باب التندر تثير الدهشة لغرابتها، وتؤكد أن هذا الرجل بارع في الإحتيال و التزوير واحترافهما، وكانت هذه الأساليب سبيله للوصول إلى مركزه في ديوان الولاية وأسلوب عمله فيه[4]. ووافقه الشيخ نجم الدين الغزي أحد مشايخ وأعيان دمشق، وممن عرفوا كيوان وشهدوا نهايته في بعلبك. وترجم لأحد

(1) المصدر السابق ص 181.

(2) خلاصة الأثر، المحبي الجزء الثالث ص299 -301 اسهب المحبي في ذكر تعدي كيوان و براعته في النصب والحيلة وكيف كان يظهر انفراده عن فخر الدين كذباً وتحايلا. (مثل افتعاله رواية مكتوب الأمير يونس).

(3) تاريخ فخر الدين، جيوفاني ماريتي ص 143.

(4) خلاصة الأثر، المحبي ص 300-301 ترجمة كيوان.

ضحاياه الذين أوقع بهم بمكره واحتياله.(عبد القادر العنبري)[1] أرخ وفاته بعض شعراء الشام ومن بينهم شيخ الأدب أبو بكر العمري[2] مدونين خبثه وظلمه وكذبه وعدوانه.

إن الرجال الثلاثة، كيوان وكورد حمزة وفخر الدين، هم الذين سخروا مواهبهم النادرة والمتعددة، وإمكانيتهم الذهنية والمادية والسلطوية، وتجاربهم المتمرسة والعميقة في التخطيط والتحضير وصولاً إلى معركة عنجر.

تثير معركة عنجر بالطريقة التي جرت فيها، والتحالفات التي أدت إليها والنتائج التي أسفرت عنها بعد دراسة أسبابها ومبرراتها، والأوضاع السياسية التي سبقتها ورافقتها وأعقبتها، والتقصي الدقيق المتجرد عن المشاركين فيها والمخططين لها، عدة تساؤلات وملاحظات، لابد من التوقف عندها والتمعن في كل هذه الملابسات خصوصاً وأن هناك تبايناً وتناقضاً بين المراجع المختلفة حول معظم هذه الأمور.

لم تكن معركة عنجر بالتأكيد كغيرها من المعارك المعتادة التي تنشب بين حاكم محلي متمرد وعاص من جهة، وقائد أو بكليريكي عثماني يعيده بالحرب والقتال إلى الطاعة والسكينة من جهة أخرى. فقد اختلطت فيها الأدوار وتداخلت بشكل أساسي وجذري يحول دون تصنيفها في خانة المعارك ذات الأهداف الواضحة، والأفرقاء الظاهرين، بل إنها من المعارك النادرة التي يصعب تعيين المتقاتلين فيها والمتقابلين والتحديد الدقيق مع أي فريق يحاربون.

لتوضيح ذلك لا بد من إلقاء بعض الضوء على الأمور الآتية:

1 ـ سعى المعني بطرق متعددة لافتعال خصومة وعداء غير مبررين مع حليفه القديم، لأسباب يلفها الغموض. إلا أنها تتعلّق بمشروعه العتيد وتتركز حول غاية أساسية تجنح إلى إثارة يونس الحرفوش لمقابلته العداء بمثله، مقدمة لتأزيم الصراع ثم تفجيره

---

(1) الكواكب السائرة، الغزي ج 3 ص 1740 والعنبري من رؤساء دمشق له قوة وبأس واختلاط بالحكام.

(2) أرخ العمري وفاته فقال:

ولما طغى كيوان في الشام واعتدى ... وأرجف أهلها وللظلم فصلا

فقلت لهم قروا عيونا وأرخوا ... ففي بعلبك قتل كيوان أصلا

وقال آخر:

قال لي صاحبي وقد مات كيوان ... هل كان وقف له الذكر يتلى

كيف راح الخبيث ناديت أرخ ... علم الله راح كيوان قتلا

والهابه عسكرياً. فابتدأ بتصرفات مريبة بدون سبب ظاهر، أعقبها بغارة عسكرية وحملة غزو وتدمير أحرقت قرى البقاع ونكلت بسكانه ونهبت خيراته، حتى لم يعد أمام الحرفوش سبيلاً لتأخير صدام فرض عليه.

2 ـ ينحصر هدف هذه التحرشات، وما أعقبها من دسائس سياسية في ديوان والي الشام وبين أنكشاريته، وما انتهت إليه من تجريد العساكر وخوض المعارك، في القضاء على الأمير الشيعي، ومن ورائه ما بدأ يظهر جلياً من التفاف شيعي حوله من مختلف المناطق، والخوف من تأسيس وحدة إدارية متكاملة تشمل كافة مقاطعات البقاع وجبل عامل، وتمتد من صفد إلى حمص، شيعية القيادة والهوى والتوجه. وقد شرح المحبي، وهو من أهل دمشق وأعيانها، الجو السائد في دمشق قبل الخروج إلى معركة عنجر فكان مما قاله.

أساء يونس معاملة السنة وضيق عليهم وأجبرهم على النزوح من بعلبك وباقي نواحي إمارته إلى دمشق محرضين عساكر الشام ضده [1].

إن يونس رافضي، والرفض جريمة في شريعة ذلك العصر توجب قتال صاحبها. فالقتال معه في عرف ذلك الزمان كفر وقتاله واجب شرعي[2].

يقول أحد الباحثين من الذين شككوا بما أورده الصفدي في أكثر من مناسبة وواقعة:

إن كورد حمزة كان عميلاً خاصاً لفخر الدين[3]، سواء صحت واقعة المكتوب أم لم تصح. إذ ان مجرد تبرع كورد حمزة بإرسال المكاتيب لفخر الدين، يكفينا دلالةً على أنه كان عميلاً له قبل المعركة. فكيف يتحول إلى عدو له وحليف لأخصامه بعد قليل في الوقت الذي وصل فيه فخر الدين إلى قب الياس للانقضاض على البقاع، وصل كيوان وقد انسحب من ديوان الولاية إثر مجادلة حادة وملاسنة صاخبة، وترك واليها وانكشاريتها وهو من أكبر آغوات الانكشارية فيها ومن أهم رؤساء جندها، وأن انسحابه وحده من الجيش في وقت يستعد فيه للحرب. كافٍ لأن يحدث صدمة معنوية لهذا الجيش فكيف يتركونه ينسحب حراً أمامهم وهم يعلمون إلى أين تتجه الأمور ؟ ويتساءل الباحث نفسه عما فرض على قيادة جيش الشام وكورد حمزة بالذات أن لا يمنعوا كيوان

(1) خلاصة الأثر، المحبي ج4 ص 295.
(2) المرجع السابق ص 295.
(3) يرد في بعض المراجع «كرد حمزة» بدون الواو.

من الرجوع حراً إلى جيش عدوهم ولو بالإعتقال أو القتل لو أن خصومة الاثنين هي جدية وليست مصطنعة لأحكام التآمر.

لفهم ما حصل حقيقة في معركة عنجر، لابد من الرجوع إلى التفاصيل الكاملة لمعركة عراد التي شارك فيها الاقطاب الثلاثة أنفسهم: فخر الدين ويونس ووالي الشام وإنما في جهات مختلفة، إلا أن الخطة والأسلوب التي حكمت الأولى استعين بها في الثانية لتشابه الظروف والمعطيات.

يقول المحبي عن تفاصيل معركة عراد سنة 1606م:

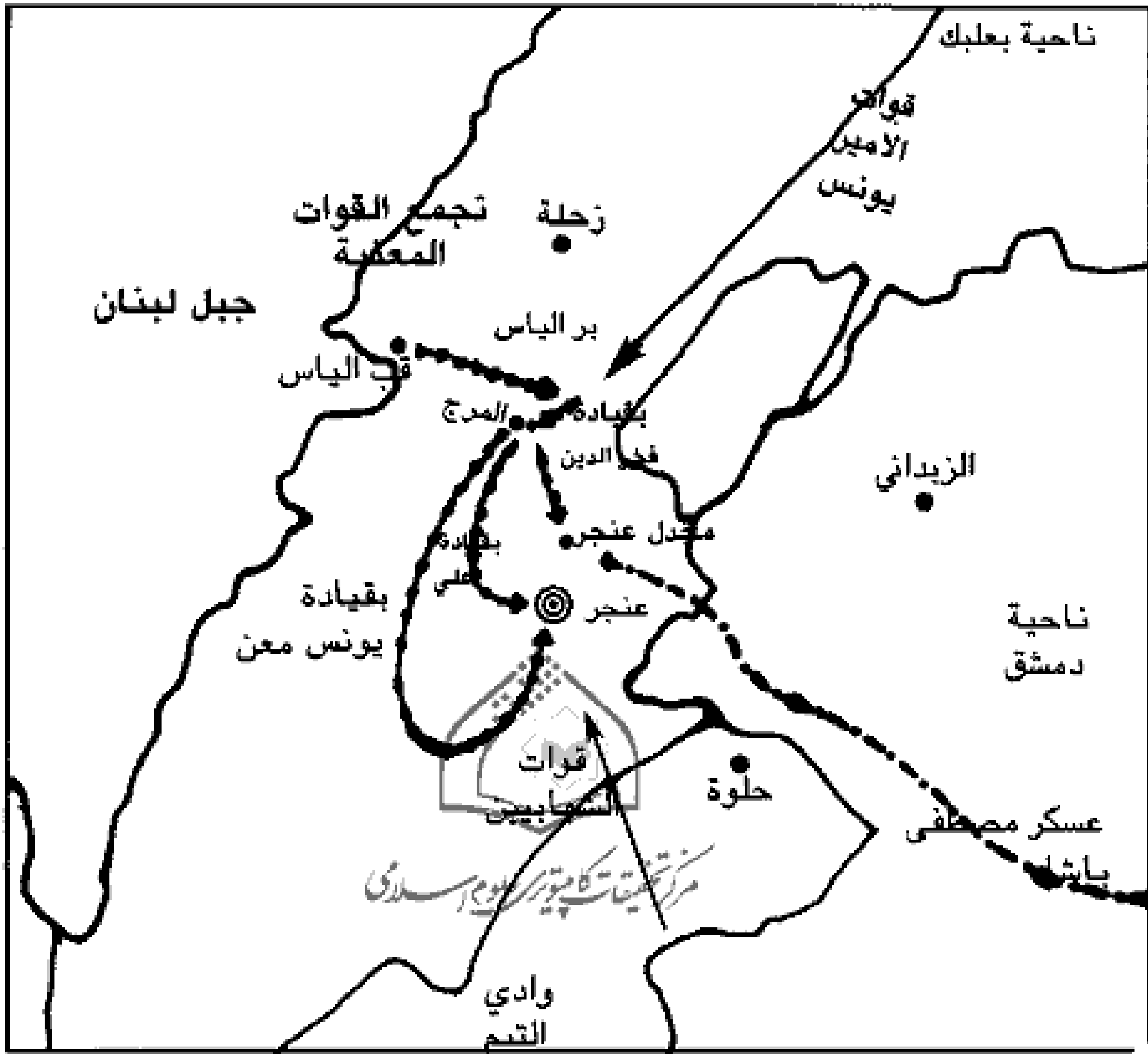
«راسل ابن جانبولاد الأمير فخر الدين بن معن أمير الشوف، وبلاد صيدا وأظهر له انه قريبه مع بعد النسبة، فحضر إليه واجتمعا عند منبع العاصي وسار الأمير علي ومعه ابن معن إلى ناحية البقاع العزيزي من نواحي دمشق، ومرا على بعلبك وخربا ما أمكن تخريبه منها واستقرا في البقاع. وأظهرا أنهما يريدان مقاتلة عسكر الشام ولم تزل العساكر الشامية ترد إلى دمشق. حتى استقر في وادي دمشق الغربي ما يزيد على عشرة آلاف وتزاحف العسكران حتى استقر ابن جانبولاد وابن معن في نواحي العراد وزحف العسكر الدمشقي إلى مقابلتهما وكان ابن سيفا وصل إلى دمشق وأظهر التمارض، ولم يرحل مع العسكر الشامي واستمرت الرسل مترددة بين الفريقين ليصطلحا، فلم يقدر لهم الإصطلاح وتزاحف الجيشان فتوهم ابن جانبولاد من صدمة العسكر الشامي فشرع في تفخيذ أكابر العسكر عن الإتفاق وأوقع بينهم. ثم إنه أرسل إلى طائفة من أكابرهم فوردوا عليه في مخيمه ليلاً وألبسهم الخلع وتوافقوا معه على أنهم ينكسرون عند المقابلة وكان في جانب ابن جانبولاد ابن معن وابن الشهاب أمير وادي التيم ويونس بن الحرفوش فطابت نفسهم لملاقاة الشاميين، وتقابل الفريقان في يوم السبت من أواسط جمادى الآخرة سنة خمس عشر بعد الألف ولم يقع قتال فاصل بين الفريقين ثم في صبيحة نهار الأحد وقف العسكر الشامي في المقابلة واقتتلا فما مر مقدار جلسة خطيب إلا وقد انفل العسكر الشامي حتى قال ابن جانبولاد العسكر الشامي ما قاتلنا وإنما قابلنا للسلام علينا»[1].

يستفاد من نص الصفدي عن اتفاق ربيع الأول من سنة (1030 هـ ـ1620م)[2] ومن

(1) خلاصة الأثر، المحبي ج3 ص 136-137.

(2) إتفاق فخر الدين وكورد حمزة وكيوان والقسم على أن يكونوا يداً واحدة في ربيع أول سنة 1030هـ ـ 1620 م.

معركـــة عنجـــر



◎ معركة عنجر ......◄ قوات فخر الدين ——◄ قوات الأمير يونس —◄ قوات والي دمشق



تعابيره الحرفية المراسمية، أنه نوع شبيه بما يتعامل به أعضاء الجمعيات السرية. يدل على أن بين الثلاثة أكثر من اتفاق آني على مصالح سياسية عرضية. إنه اتفاق دائم وثابت ومستمر، وعلى جميع الأمور وفي جميع المجالات، فمن المنطقي أن يخطط الثلاثة لهذه المعركة المصيرية التي أرادها فخر الدين للقضاء على خصمه وأن يستعملوا كل الأساليب والوسائل وخصوصاً تلك التي اعتاد عليها وبرع فيها كل من كيوان وكورد حمزة وأن الخلاف الذي ظهر بينهما في ديوان الباشا ليس إلا حيلة وخدعة مسرحية يقصد منها التحضير المحكم لهذه المسرحية التي قضي لها أن تمثل بعد فترة في عنجر[1].

بثّ فخر الدين عيونه وأرصاده وجواسيسه في كل دواوين الدولة، حتى في عاصمتها. وهذا أمر معروف وشائع طالما أثنى عليه المعجبون بسيرة الأمير، واعتبروه حكمة سياسية بالغة. وأن كيوان وكورد حمزة وهما، كما لا يخفى على أحد، من أهم الرجال المؤثرين في ديوان ولاية الشام الذين ناصروا فخر الدين وآزروه، ووزعوا أمواله تقادماً ورشوات في كل اتجاه. فهل يمكن ليونس الحرفوش وهو حتماً لا يجهل مثل الجميع التحالف الخاص الذي يجمع الرجال الثلاثة وتمرسهم بنصب شراك المكر والخداع، أن يستأمن أحدهم على سر يخفيه عن رفيقهم الثالث فخر الدين من النوع الذي عرف به كيوان واشتهر بإجادته في جميع أرجاء الولاية؟

وهل كان من السذاجة ليكشف أخص مشاعره ونواياه نحو فخر الدين في رسالة عادية إلى كورد حمزة ويستأمنه على سر يتعلق به وهو أقرب أخصائه وزميله في القَسَم الثلاثي؟ وهل كان أمير لواء حمص وضابط بعلبك والبقاع يجهل نوع العلاقة بين الرجلين وكلهم في النهاية أقطاب في ولاية إدارية واحدة هي ولاية الشام، ويونس لا بد أن يكون خبيراً بكل خفاياها، بعد كل هذه السنين، ولم يكن يجهل مع صداقته السابقة مع فخر الدين، أن كورد حمزة قد اعتاد على «**إرسال مكاتيب إليه حيث يكون بأخبار الولاية وما يجري فيها من أمور**»[2] كما يقول الصفدي.

ابتدأت المعركة عند وصول الشهابيين إلى المجدل، قبل وصول فخر الدين، فقابلهم العسكر وأخرجهم من البلدة فهربوا إلى تل مواجه لنبع عنجر، وتحصنوا في برج خرب هناك فملك سكبان أبن سيفا وابن الحرفوش البلد.

---

(1) اعتاد الثلاثة على تمثيل أدوار مشابهة في أمور أقل أهمية. راجع الغزي والمحبي في ترجمة كيوان.

(2) الصفدي ص133 (في هذا الشهر جاءت مكاتيب من كورد وحمزة وهو بمدينة حمص إلى الأمير فخر الدين بأخبار الجانب الشمالي).

وصل فخر الدين برجاله من ناحية الشمال نحو برج المجدل، وشقيقه يونس من ناحية الجنوب تحت البلدة فقسموا جيشهم ثلاثة أقسام فكانت الميسرة لفخر الدين والقلب لولده علي وعلى الميمنة مدبره وشقيقه يونس، ثم أطلق فخر الدين مائتي فارس (ومئة واحدة على رواية الصفدي) «**فانفكت الآية مصطفى باشا وقامت الغبرة وأنذعر الوزير أي انذعار وأدبر عسكره طالباً الفرار، فتبعهم المنتصرون إلى طاحونة عنجر وأسروا ماية منهم وقتلوا أربعماية رجل وخمسة من القواد، ثم قبضوا على الوزير وعشرة من خواصه، والتهى الناس بالغنائم فحملوا الخيام والأثقال والجمال أما الباشا الذي لم يتمكن من الهرب فمُسِك قبضاً باليد ولما وصل إليه فخر الدين وولده علي نزلا عن خيلهما وقبلا ذيله وعينوا معه أحد رجالهم ليوصله إلى قب الياس. أما المنهزمون فباتوا ليلتهم في بعلبك ثم غادرها يونس إلى اللبوة بعد أن ترك سكبانيته لحفظ القلعة وأرسل عياله إلى قلعة الحصن وتوجه هو إلى حلب**».

هذا ملخص ماروا‌ه الصفدي وتبعه الشدياق عن هذه المعركة التي يقولان إن أثني عشر ألف مقاتل شارك فيها مع الحرفوش وخمسة آلاف كانوا مع فخر الدين.

«**عاد فخر الدين بعد العصر إلى قب الياس واجتهد في جمع أسباب مصطفى باشا وأعطى جماعته ألف غرش لفكاك أسبابهم الموجودة في أيدي العشير فهان عليهم ما صعب، وقابل الباشا المقيم عند الحاج كيوان، فحلف له أن هذه الركبة ما كانت باختياره بل غصباً عليه، بإقدام من كورد حمزة بلوكباشي. ورحل الثلاثة: فخر الدين ومصطفى الوالي وكيوان إلى تمنين، ثم دخلوا بعلبك في نهار الأحد الثاني عشر من محرم (1033هـ-1623م)** » فلم يجدوا فيها من أمرائها أو من سكانها أحداً غير مايتي نفر توفجية وتسعة من البلوكباشية سردارهم أحمد بن حرب من الدوير في جبل عامل موكلين بحفظ القلعة. فنزل الأمير فخر الدين وولده علي في دار الأمير يونس، ومصطفى باشا في دار الأمير شلهوب، وأحمد شهاب وسلمان سيفا في دار صهر الأمير يونس، وتفرق الباقون في بعلبك ينهبون ما قدروا عليه ونشر الحرفوش سكبانيته في بعلبك، وحصن اللبوة وبرج القيرانية[1].

إن أول تدابير اتخذها مصطفى باشا بعد وصوله إلى بعلبك واستقباله وفداً من أعيان الشام وكبار الآغوات، تداول معهم بمختلف الشؤون بمشاركة فخر الدين وكان من بينهم نجم الدين الغزي، المؤرخ الذي نزل مع الوفد في خيام على منتزه رأس العين هي:

(1) الصفدي ص 153.

1 ـ «يكون الحاج كيوان آغا اليكجرية وطريفي حسين بلوكباشي كتخدا».

2 ـ أعطى لفخر الدين تمسكاً ـ أمراً ـ بقتل المسوكين من الجنود الإنكشارية الذين قاتلوا معه في معركة عنجر ولكن فخر الدين أبدى لهم عذراً وأقنع الباشا بعدم تنفيذ الأمر. «**وطاول في القضية وأبدى المعذرة**»[1].

3 ـ أرسل إلى متسلمه في الشام وإلى كبرائها وأعيانها أمراً بالقبض على الإنكشارية الموالين لكورد حمزة وقتلهم، فنفذ الأمر بخنق بعضهم في القلعة، وهرب الباقون إلى حمص وحماة وحلب وتفرقوا في الأقطار أيدي سبأ»[2].

4 ـ أعطى لفخر الدين مقاطعة غزة وتوابعها وأحكام التحاويل بسنجق صفد وأعطى ولده علي مقاطعة بقاع العزيز. وتحويل سنجق عجلون إلى حسين ولده الآخر ونابلس إلى مصطفى كتخداه، وسنجق اللجون إلى منصور، ابنه الثالث ونظم الوالي والأمير أمور جند الشام سوياً وبدا في هذه المرحلة وكأنّ فخر الدين أعطي الصلاحيات التي كانت لكيوان وكورد حمزة مجتمعين.

إن ما يثير مزيداً من الريبة والشك في حقيقة معركة عنجر كما أوردها الصفدي، إن هذه الفرامانات التي أصدرها الوالي مباشرةً بعد المعركة تعاقب كورد حمزة وجميع أتباعه وهو الذي حافظ على ولائه للوزير منذ البداية، بينما تنهال المناصب والمقاطعات على كيوان وفخر الدين اللذين قاتلاه وأسراه على زعم الصفدي. ويمكن تفسير ذلك بأن الوالي كان في حكم المسلوب الإرادة لوقوعه في قبضة فخر الدين المنتصر ولكن سياسته استمرت بدون تغيير بعد عودته إلى مركز ولايته حيث عاقب كل من كان له صلة بكورد حمزه وكيوان بينما استمرت علاقة التعاضد والتحالف بينه وبين فخر الدين حتى بعد عزله عن الولاية.

في هذا الوقت حدثت مشادة علنية، لأسباب غير معروفة أثارت تكهنات متباينة بين فخر الدين وكيوان، لأن الأمير منع الخروج إلا بإذنه « **ولما منع الحارس خروج كيوان ركب الأمير بنفسه إليه حتى يسترضيه. فانتهى الجدال بأن حول الأمير عن فرسه وتقدم إليه وجذبه من جواده ورماه إلى الأرض وضربه سكينين في رأسه ودعا السكمان للإجهاز عليه ودفنه**»[3]. هذه هي الرواية المتداولة عن مقتل هذا الرجل

(1) المرجع السابق ص 154.
(2) المرجع السابق 154.
(3) المرجع السابق 157.

الغامض بيد من كانت تجمعه به علاقة أكثر غموضاً، لقد تبارى المعجبون بفخر الدين في استنباط أسباب تبرير قتله، فأسعفتهم مخيلاتهم بحكايات غريبة وغير مقنعة، وليس لها أي مستند تاريخي، يمكن إسعافها بمسحة بسيطة من الجدية والواقعية فاكتفى المحبي بالقول إن هذا القتل كان بسبب معركة عنجر[1] أما الصفدي فيبرّره بحضور الأجل المحتوم وفراغ العمر[2] ويرده المعلوف إلى غيظ كيوان من المعني، لأنه لم يقتل الأسرى من الإنكشارية. وأن كيوان توعد المعني بقوله «إنه سيذهب إلى إسلامبول ليشكو أمره فيها»[3] كما ذكر الشدياق إنه ضرب السلحدار فلامه المعني خوفاً من غضب مصطفى باشا وتبعه حيدر شهاب وآخرون[4].

أما النجم الغزي الشاهد العيان فلم يحزن كثيرا على قتله وقال مؤرخاً

لولاه لم يدخل إلى جلق عشران أفساد وسكمان[5]

تفرد الراهب جيوفاني ماريتي[6] بما ذكره عن موت كيوان «**بكى فخر الدين على كيوان لأيام عديدة لأنه كان يتخذه كوالده وكان يحس بالواقع إنه يدين له بألف وألف واجب فهو مستشاره الشهير والعزيز**».

«**بعد قتله، ذهب فخر الدين إلى مصطفى باشا ليبلغه ما حدث، فأجاب هو كان مستحقاً لذلك من قبل الآن. وهذا الذي كان مقدر عليه استوفاه لعل الله تعالى يفعل كذلك بكورد حمزة بلوكباشي حتى تخمد الفتنة وتستريح مملكة الشام**»[7] .

«**عند خروج مصطفى باشا من بعلبك عائداً إلى الشام، مع كل من كان بها من جند والأعيان، طلع فخر الدين وولده لتوديعه. وعند مفارقته نزلا عن خيلهما وقبلا ذيله وخلع على كل واحد منهما خلعة.. كانت له طلعة من بعلبك وأي طلعة!..**»[8].

إن معركة عنجر هي النتيجة الطبيعية لصراع مرير وحاسم بين أميرين قويين لكل

(1) خلاصة الأثر المحبي ص 301.
(2) الصفدي ص 155.
(3) فخر الدين، المعلوف ص 187.
(4) أخبار الأعيان، الشدياق ج1 ص 277. الكواكب السائرة، الغزي ج 3 ص 170.
(5) الكواكب السائرة الغزي 32 ص 170.
(6) تاريخ فخر الدين ماريتي ص 143.
(7) تاريخ فخر الدين، عيسى المعلوف ص 187.
(8) تاريخ الصفدي ص 156.

منهما تحالفاته العائلية والطائفية والسياسية. وقد انقسم جند الدولة في الظاهر بين رئيسين. إن قادة معركة عنجر يمثلون الفئة العسكرية التي تعتمدها الولاية عادة لبسط سلطانها وقراراتها. فكان كيوان وأنصاره في جهة فخر الدين وكورد حمزة وجماعته في الجهة الأخرى. أما الوالي فلا يبدو لا قبل المعركة ولا أثناءها ولا بعدها خصوصاً، صاحب وزن وقرار مؤثر وجلي وفعال. بل هو من أكثر المستفيدين منها في كل الأحوال لأنه سيتخلص من فئة من عسكره تشكل قسماً كبيراً من القوة التي تمنعه من مباشرة سلطاته. وبالفعل إن النتيجة التي أدت إليها في الواقع هي في مصلحته تماماً وربما فاقت أحسن توقعاته، لأنه تخلص من الفئتين وأفسحت له المجال للقضاء على جماعة الجند التي خرجت معه من الشام قبل أن يقضي على من كان يحارب مع المتربصين خارجها. فمع عودته من بعلبك ودخوله إلى الشام هدم حارة **كورد حمزة، وضبط جميع أرزاقه وودائعه التي عند الناس، من نقد وأسباب بما قيمته خمسون ألف غرش. ولم يترك بلوكباشياً ولا يكجرياً ولا متعيناً ولا صاحب مال حتى صادره، حتى توصل إلى الدفتردار، بعد أن كان لا يقدر أن يعادي أقل من يكون من يكجرية الشام. فصار يمسك ويقتل أكبر من يكون فيهم**[1].

إن ما ظهر مباشرة بعد المعركة من تفاهم وتحالف واتفاق وتبادل منافع بين فخر الدين ووالي الشام، يثير فعلاً الريبة والدهشة. فقد سارا معاً لاستكمال غايات المعركة في احتلال بعلبك ونهبها، والقضاء على رؤساء الإنكشارية وآغواته أكانوا من المقاتلين مع الباشا أوالمقاتلين له، دون صدور أدنى إشارة غضب أو استنكار أو لوم أو عتب من أي جهة رسمية، تستهدف من قاتل أحد أهم ولاة الدولة، وغدر به وقتل جندها. وكانت عادة تستنفر قواتها وجيوشها وعمالها لأقل من ذلك بكثير. بل إن ما حصل هو عكس ذلك، إذ تواردت الخلع والفرامانات والإشارات التي تدل على ثقتها ورضاها، وتشجيعها لفخر الدين. حتى أن الوالي مصطفى باشا نفسه، بدا عدواً ليونس الحرفوشي وحليفاً صادقاً للمعني منذ اللحظة التي خرج فيها من دمشق إلى البقاع حتى انتهاء ولايته على الشام.

إن المعركة نفسها تثير أيضاً أكثر من علامة استفهام. كيف يمكن لمئة أو مائتي فارس أن يثيروا بمجرد توجههم نحو ميدان المعركة ذعر وإدبار وفرار ألوف الجنود المحترفين الذين يمتهنون القتال، ويتخذونه حرفة يعتاشون منها، ولهم فيه باع طويل وتجارب، وخبرة وتقاليد عسكرية كانت محل فخر الإمبراطورية لفترة طويلة؟

(1) الصفدي ص 106.

خرج الجند من دمشق ليؤدوا دوراً مرسوماً بعناية من قائديهم كورد حمزة وكيوان، وهو الفرار عند ابتداء المعركة، لمنع فرسان يونس من القيام بأي مجهود قتالي. لأن فرار العسكر بهذا الشكل سيؤثر حتماً على باقي المقاتلين من العشير، وأن الذي اشترك في معركة عراد وبوجه العدو نفسه، من الطبيعي أن يستعين بنفس الوسيلة التي حسمت المعركة هناك لتحسمها هنا، حيث لا خوف كما كان الحال في المعركة السابقة من الدخول إلى الشام ونهبها واجتياحها.

لا بد أن الأمير يونس كان في جو هذه الدسائس والإتفاقات السرية وكان على اطلاع على أسلوب فخر الدين في التعاطي مع مثل هذه الأمور بحكم تحالفه السابق معه والعلاقة القديمة بينهما، ولم ينسَ ما حصل في معركة عراد إذ كان مشاركاً فيها، ولكن هل كان له خيار آخر يقيه المصير الذي ربما تراءى له؟ لقد أعاد جنوده لحراسة بعلبك قبل حدوث المعركة، والقائد الحكيم لا يعمد إلى هذا التدبير، إذا كان مطمئناً إلى سير المعركة. كما أن رجاله ورجال ابن سيفا هم الذين قاتلوا، وربما وحدهم، لأنهم احتلوا قرية المجدل وأجبروا طلائع المعني من الشهابيين على التراجع وإخلاء البلدة والدخول إلى البرج[1].

لقد عاد مسرعاً إلى بعلبك، لأنه تأكد من موقف مصطفى باشا الحقيقي، وكان همه إنقاذ عائلته، لعلمه بمصيرها في حال دخول الوالي وفخر الدين إلى المدينة. فهو يذكر أن مراد باشا باع والدة علي جنبلاط بثلاثين غرشا، فأرسل عائلته إلى مأمنها وأخلى البلد، للحؤول دون مجازر شبيهة بما جرى سابقاً في حلب. وتأكد من وضع حصونه وسكمانه وذهب إلى حلب لمعالجة الأمور.

لماذا أراد باشا الشام إعدام الإنكشارية الذين وقعوا في الأسر؟ وتملص فخر الدين وهو الذي لم يعرف عنه الرحمة والحلم في أي موقف مماثل؟ وما الذي يبرر قتل كيوان بيده لمجرد منعه من الخروج من بعلبك وتهديده بالشكوى إلى اسطنبول؟ فتخلص فخر الدين منه رغم علاقتهما السابقة والحلف الثلاثي الذي يجمعهما؟ وقد سُرَّ مصطفى بقتله وتمنى مصيراً مماثلاً لزميله كورد حمزة رفيق فخرالدين الثالث، ثم استأصل عند عودته إلى دمشق ما بقي فيها من الإنكشارية بصرف النظر إلى أي جهة ينتمون.

إن الصفدي، وهو المصدر شبه الوحيد لكل من كتب عن هذه المعركة على أنها جرت

(1) عادة كان المشاة في جند الحرافشة يتسلحون بالبنادق والسيوف العريضة النصال أما سلاح فرسانهم فكان البنادق والسيوف والدبابيس والتروس ولم يعرف بدقة رقم محدد لعديده وأن قدره بعضهم أحياناً بخمسة عشر ألف مقاتل من السكان وأبناء البلاد (التاريخ العسكري، سويد ص360 الجزء الأول).

بين فخر الدين والعسكر الشامي، إذا صحت نسبة التاريخ إليه، كان من المقربين والمتزلفين لسيده إلى حد يدفعه إلى ذكر ما يوافقه كما يريد وإغفال ما يمكن أن لا يرضيه. فإذا انتقلنا إلى مصدر محايد ومطلع عرض لهذا الموضوع لوجدنا أن المشهد يختلف تماماً، ولرأينا ان الجند الشامي خرج من دمشق لمقابلة أبن الحرفوش لا لنصرته.

«**إن العسكر الشامي كانوا قصدوا محاربة أولاد الحرفوشي وإخراجهم من بعلبك وطلبوا من مصطفى باشا أن يخرج معهم فابى أولاً وأمر بالتربص فلم يرضوا إلا بخروجه فخرج بهم بعد أن كتب عليهم حجة بذلك فلما تقابل الفريقان انكسر العسكر الشامي ووقع الوزير في أيدي عشير أبن معن ثم بقي عنده بالبقاع أياماً ثم ذهب معه إلى بعلبك في طلب أولاد الحرفوش**»[1].

ويقول المحبي في مكان أخر: «**كان الشاميون قد خامروا عليه. فلما وقع المصاف بين الفريقين بالقرب من عنجر ولى العسكر الشامي هرباً فانكسر مصطفى باشا**»[2].

إن رواية المحبي تؤكد ان الجند خامروا على الوالي وان هناك اتفاقاً غير معلن بالهروب عند ابتداء المعركة ثم بملاحقة الحرفوش حتى بعلبك وإخراجه منها وأن الوالي كان على علم بما يخطط له، لذلك أصرّ على كتابة حجة تبرر خروجه وتوثق هذا التبرير لئلا يتحمل مسؤولية ما حدث كموظف عثماني وقد قام بذلك مختاراً وتابع ملاحقة يونس حتى إخراجه من بعلبك وعاد اخيراً الى دمشق ليقضي على من بقي من شهود على هذا التخامر و المشاركين فيه.

كان المحبي في العادة متحاملاً على الشيعة والحرافشة وعلى يونس بالتحديد، ورماهم بالرفض والجور واقتصر في خلاصة الأثر على ترجمة الأمير موسى لأنه كان يعتقد انه أقرب أهله إلى التسنن، وهو يؤكد بشكل واضح لا لبس فيه أن الجند الشامي خرج من دمشق لقتال ابن الحرفوش.

ليس لما قاله الصفدي حول معركة عنجر اهمية كبيرة فهو من المقربين من فخر الدين والملازمين له وربما كان من أخص أعوانه وقد أمره بوضع مؤلفه لغايات سياسية ليس لها علاقة بالتاريخ أو الحقيقة. ويعترف الصفدي بذلك بكل وضوح عندما يقول انه

(1) خلاصة الأثر، المحبي ج 4 ص 295.
(2) المرجع السابق ج 3 ص 267.

كتب تاريخه «استجابة لإشارة مَنْ إشارتُهُ غُنْمٌ ومخالفته غُرْمٌ»، وهذه الاشارة لا بد ان تكون صادرة عن حاكم أو رجل خطير يحسب لرغبته ألف حساب فلم يكن من المعقول ان يرمي الصفدي سيده بتهمة التآمر والتمرد على الدولة التي يجهد بأمواله ورشاويه للاحتفاظ برضاها.

إن مؤرخاً حيادياً[1] لم يكن طرفاً في هذه الاحداث ولم يناصر أحداً فيها يوضح كل ذلك بروايته الموضوعية التالية:

«أتي مصطفى باشا إلى مدينة دمشق في أوائل سنة (1033 هـ ـ 1623 م) ولم يطل به الأمر حتى دب الخلاف بينه وبين حاميتها التي طلبت منه أن يقودها على وجه السرعة في حرب ضد بني الحرفوش فرفض في البداية وأعطى الأوامر بالتريص إلا أن الجيش لم يتراجع برغبته التي كانت تزيد إلحاحاً فما كان من الوزير إلا أن نزل عند إرادتهم فأصدر إلى الجيش أمراً مكتوباً وخرج على رأسهم للحرب.

فلما وصل إلى قرية عنجر فوجئ بالدروز الذين كانوا بقيادة الأمير فخر الدين وما أن تهيأ الجيشان للدخول في المعركة حتى دق النفير ونشب القتال ولم يمض الوقت الطويل حتى لاذت الجيوش الشامية بالفرار وبسبب ذلك حلت في صفوف مصطفى هزيمة شنعاء ووقع اسيراً..»[2].

صمد المحاصرون في قلعة بعلبك وفي حصن اللبوة من رجال يونس رغم المحاولات المتكررة من فخر الدين وجماعته لإقناعهم بالتسليم خصوصاً وأن بعلبك كتبت لبيت معن إلا أن جوابهم كان لا يتغير « **لا نسلم وفينا روح ولو مكثنا في هذه القلعة عمر نوح**» وقد أصبحوا في غاية الضيق لقلة المؤن حتى أصبح أكلهم مقتصراً على القمح والملح لأن ابن الحرفوش ما كان يظن أن أحداً يلقاه فلم يجهز القلعة بما قد تحتاجه من مؤن وآلات الحصار فكان الحصول على الحطب يقتضي منهم مغادرة القلعة لسرقته فيتعرض بعضهم للموت لهذا السبب.

وصل إلى بعلبك وهم على هذه الحال الحاج حسن من جماعة فخر الدين ليؤكد خبر القبض على يونس، فأرسله فخر الدين ليبلغ الخبر إلى المحاصرين في القلعة لعل ذلك يقنعهم بالتسليم، ويبدوا أنهم كانوا على علم به من رفاقهم في اللبوة، فبدأت

(1) المستشرق الألماني هنري فوستنفلد.

(2) فخر الدين أمير الدروز ومعاصروه، فوستنفلد ص 164.

المفاوضات بين الفريقين حتى توصلوا إلى اتفاق لتسليم القلعة بدون قتال بشروط تحفظ حياتهم وحريتهم وكرامتهم، بعد أن قتلوا نحْو أربعين رجلاً من جماعة المعني خلال مدة الحصار. وفي اليوم الثالث من تسلمه القلعة، عين فخر الدينماية وخمسين معلماً ممن كانوا في المتاريس لهدمها باستعمال الآلات والدبورة والأزاميل.

في العاشر من ربيع أول (1033هـ ـ 1623م) وصل محمد باشا إلى حماه، ومعه فرمان بتعيينه والياً على الشام، وعزل مصطفى باشا إلا أن أهالي المدينة وعسكرها منعوا الوالي الجديد من الدخول إليها، وأرسلوا حملة من ألف جندي لمنعه من ذلك، فرجع محمد باشا إلى حماه، وجعل خرجه وكلفته على حسين ابن يونس الحرفوش وأرسل عروضا إلى الباب العالي بما حصل معه وأقام منتظراً الجواب.

كما أرسل مصطفى باشا محاضراً من قاضي المدينة وعلمائها يدعي بأن أهل الشام وجندها منعوه من تسليم الولاية إلى خلفه، لأنه اجتمع بالأمير يونس الحرفوش وكورد حمزة وقد يأتي بهم إلى دمشق فتضرر الناس وأرسل المحاضر مع كتخداه سلمان آغا وعين معه عدداً من الإنكشارية وأرسل معهم بعض جماعته لتوصيلهم إلى حماه في طريقهم إلى الباب العالي بعد أن دفع فخر الدين نفقات الطريق.

لم يمض شهران على دخول فخر الدين ومصطفى باشا إلى بعلبك حتى ظهرت الأمور على حقيقتها في دمشق باتفاق الأعيان والأهالي فيها على العداء ليونس الحرفوش ورفض الوالي الجديد، لأن هواه قد يكون معه، كما ظهر موقف مصطفى باشا من فخر الدين ومن يونس وقربه من الأول وكرهه للثاني، وأن جهود فخر الدين وأمواله تبذل لإبقاء مصطفى باشا والحؤول دون تبديله لأن المؤامرة قد تتكشف ويقع الاثنان في متاعب مع اسلامبول فنادراً ما يتمرد اهل دمشق وواليها على فرمانات سلطانية صادرة عن الباب العالي.

من الواضح ان فخر الدين هو الذي يمول الجهود المبذولة وحركات المعارضة للوالي الجديد، وقد يكون هو المحرك الرئيسي لها خصوصاً وأن كتخداه مصطفى قد انتقل إلى دمشق قريباً من مصطفى باشا لسنده في موقفه بعد أن أصبح «**كلامه نافذاً في سائر الاحكام، وغدت بعلبك مسرحاً لانكشارية دمشق، وما يحصل منهم من تنكيد وتشويش**»[1].

(1) إن كل هذه التطورات والتحالفات التي أعقبت معركة عنجر ومواقف كل من فخر الدين ويونس إزاء النزاع بين الوالي القديم مصطفى باشا والمعين محمد باشا تؤكد أن كل ما جاء في تاريخ الصفدي حول معركة عنجر لا يتوافق مع الحقيقة ومنطق الأحداث والمواقف اللاحقة.

غادر فخر الدين بعلبك في الرابع من شعبان سنة (1033هـ ـ 1623م) بعد إقامة سبعة أشهر فيها بعد ان خرب جميع دورها بما فيها دور الحرافشة وعجز عن هدم قلعتها إلا إنه الحق بها أضراراً بالغة وقبض من حسين ابن يونس ستة عشر الف قرش مقابل المصافاة والصلح والإصلاح وعدم المعاداة على ان يفك الحصار عن حصن اللبوة بعد ان رفض المحاصرون التسليم رغم طول مدة الحصار.

أما الأمير يونس فعاد إلى بعلبك حيث بقي أياماً قليلة ثم سار إلى معرة النعمان حيث قبض عليه مراد باشا ورفعه إلى قلعة سلمية ثم نقله إلى حلب ولم يفرج عنه إلا بعد ان دفع مبلغاً كبيراً من المال.

لم تنهض بعلبك من كبوتها ابداً بعد ان دمرها فخر الدين. فأموال سنة 1623م لم يُجْبَ منها شيء ولم يستطع الأمير يونس ان يجبي اكثر من سبعة آلاف غرش من أصل ضمانها الذي انخفض إلى عشرة آلاف غرش[1] بعد أن وصل إلىماية الف ذهباً، ورغم كل ذلك استمر فخر الدين في محاولاته للتخلص منه نهائياً حتى تمكن من ذلك بدسائسه لدى والي الشام سنة 1625م فكانت نهايته كنهاية سلفيه علي وموسى على يد الولاة العثمانيين مدفوعين بدسائس فخر الدين ورشاويه[2]. وكان خراب بعلبك من اسباب حملة الدولة على فخر الدين وإلقاء القبض عليه مختبئاً في أحد الكهوف ثم مقتله في الأستانة في 3 نيسان 1635م . وقد شارك في هذه الحملة ولدا يونس حسين ومحمد انتقاماً لمقتل والدهما واستمرا يحكمان بعلبك كأسلافهما[3]. وازداد نفوذ الحرافشة وقوى حكمهم في بعلبك والبقاع بعد موت فخر الدين وصاروا «**يتلاعبون بمقاطعتي طرابلس وصيدا المجاورتين تلاعباً كبيراً**»[4].

إذا وضعنا رواية الصفدي عن معركة عنجر جانبا. فهو قبل كل شيء من رجال فخر الدين وبطانته وقد وضع مؤلفه بناءً لرغبة ملزمة من سيده .ورجعنا إلى مصادر أكثر حياداً مثل المحبي الدمشقي رغم عدائيته المذهبية التي، أعلن عنها في أكثر من مناسبة وردت في مؤلفه، لآل الحرفوش، لوجدنا أنه لم يكن أميناً في سرد بعض الحقائق واخفاء بعض الوقائع، ولا غرابة في ذلك فواضع هذا المؤلف سواء صحت نسبته إلى

(1) أخبار الأعيان، الشدياق ص 289.

(2) تاريخ بعلبك، نصر الله ص 264.

(3) خلف الأمير يونس أربعة أولاد هم أحمد وعلي وحسين ومحمد.

(4) التاريخ العسكري، سويد الجزء الأول نقلاً عن العرفان 1924 ص291 ـ297.

القاضي الصفدي أو إلى غيره[1]. لم يتوخ من وراء كتابته التاريخ المجرد وهو ليس مؤرخاً ولم يعرف له تاريخ آخر. وغايته خدمة أغراض سيده السياسية وتأكيد الوقائع كما أرادها لا كما وقعت فعلاً، ونشرها وتوثيقها، استباقاً لأية محاولة قد ترمي إلى إظهار حقيقة الأمور والكشف عن خدعة كيوان ورفيقيه وفضح مناورتهم أمام السلطة العثمانية خصوصاً.

أقسم الرجال الثلاثة كيوان وكورد حمزة وفخر الدين على أن يكونوا يداً واحدة في كل أمورهم، وفي كل ما يعود إلى شؤون الحكم والسياسة في ولاية دمشق لذلك أبدى فخر الدين اصراراً غريباً على فرض معركة عسكرية على يونس لا يريدها، بدون مبرر مقنع ولا سبب واضح فاستباح كل المقدسات العائلية في قب الياس، والدينية في كرك نوح، وقواعد المودة ورفقة السلاح وعرفان الجميل في سرعين. في هذه الأثناء تظهر فجأة في أوساط جند الشام حمية مذهبية معادية للشيعة تقود إلى حركة ذاتية، تفرض على الوالي قسراً رغم إرادته، وبدون أوامر من رؤوسائه، الخروج من مركز باشويته لقتال يونس الحرفوش واخراجه من بعلبك. فأبى أولاً فلم يرضوا إلا بخروجه بالذات. فخرج بهم بعد أن كتب عليهم حجة بذلك. وهو رجل غشوم لم يكن أكثر من ألعوبة في يد كيوان صاحب المواهب الإستثنائية في الخداع والمكر والألاعيب وإظهار الأمور على غير حقيقتها، حتى أصبح علماً في كل هذه الموبقات. وهو الأب الروحي لفخر الدين وأحد رئيسي جند الشام وثالث أصحاب القسم.

وصل الباشا إلى عنجر وفي ذهنه أنه خارج لملاقاة يونس الحرفوش، ففوجىء بفخر الدين في ميدان المعركة وبهجوم على جنده المخامر قام به مئة أو أكثر من جنوده، لم يلبث إلا قليلاً حتى لاذت الجيوش الشامية بالفرار تاركة قائدها أسيراً بين يدي المنتصر، بلا جهد ولا حرب ولا قتال.

هذه حقيقة لعبة عنجر، وضع قواعدها كيوان، ونفذها الحلفاء الثلاثة، وكان ضحيتها قائد شيعي متحفظ وباشا عثماني ساذج. فدخلت إلى التاريخ الوطني اللبناني كأعظم مفاخره ومأثره.

---

(1) أحمد بن محمد الخالدي الصفدي: هو رجل دين درس في الأزهر. كان إماماً،فقيهاً، درّس وأفتى وناب في القضاء. ترك مؤلفات دينية وأدبية، لم يذكر أحد من مترجميه بمن فيهم المحبي، تاريخه في فخر الدين. من جملة مؤلفاته والأرجح أنه منسوب إليه لإعطائه قيمة ومصداقية.

الفصل الثالث

الأمراء المحاربون

الأمير عمر

نجح فخر الدين عن طريق استعمال علاقاته ودسائسه وأمواله في دفع الوزير العثماني إلى القضاء على حياة يونس الحرفوش في أول سنة (1037هـ ـ 1627م)[1] وبقي أولاده في بعلبك، التي كانت في حالة من الخراب استحال معها جمع المال السلطاني، ولما وصل أحمد كجك باشا سنة 1634م لقتال فخر الدين، استدعى ولدي يونس حسين ومحمد، فشاركا معه في القتال حتى تم القبض عليه وتولى حسين البقاع البعلبكي ومحمد البقاع العزيزي، وبقيا في الحكم على الأرجح حتى وفاة حسين سنة 1656م. ويبدو أن الأمور قد استقرت بعدهما على الأمير عمر الذي كان أميراً سنة 1666م. كما يظهر في قصيدة شهيرة يؤرخ فيها الشاعر عبد الرحمن التاجي البعلبكي انتهاء بناء قصر له[2]،وقد بقي هذا الأمير في الحكم رغم ما تخلل مدة حكمه من نزاعات مع أقاربه حتى أول محاولة مأساوية قام بها الشهابيون ووالي الشام لإخراج بعلبك من سلطة الحرافشة وتسمية شهابي حاكماً عليها وهي المحاولة الأولى التي قام بها الشهابيون للوصول إلى حكم بعلبك.

---

(1) اختلفت المصادر في تعيين تاريخ وفاة يونس وقد اعتمدنا الدويهي الذي حدد التاريخ باليوم والشهر والسنة.

(2) عمر الأمير الندب من عمر الورى ... إحسانه الصافي فكل يحمد
من أسرة سادوا الورى بمكارم ... عز وآلاء لهم لا تجحد
وإذا تأملت البقاع وجدتها ... تشقى كما تشقى الرجال وتسعد
ولذاك ثغر السعد قال مؤرخاً ... قصر زهي للأمير مشيد
سلك الدرر، المرادي ج2 ص 288.

«ضمن الأمير فارس شهاب بلاد بعلبك من قبل دولة الشام وطرد منها الأمير عمر بن الحرفوش الذي توجه إلى ناحية بيت حمادة. وفي السابع والعشرين من شهر آب جمع الأمير عمر الرجال ونزل إلى المير فارس فقتله وقتل من جماعته خمسة وخمسين رجلاً من أجاويد وادي التيم» [1].

هذه هي المرة الأولى التي يتولى فيها شهابي حكم بعلبك ولا بد أن هذا التدبير المتسرع الذي يفتقد إلى الحكمة قد أثار سخط الشيعة واستنكارهم ليس في بلاد بعلبك وحدها بل في مختلف أماكن تواجدهم سيما في جبل لبنان المجاور حيث لجأ عمر طالباً العون وعاد إلى إمارته يصحبه مقاتلين من الحماديين الشيعة هاجموا الأمير الشهابي وقضوا عليه وعلى عدد من أصحابه الآتين معه من وادي التيم[2].

من الطبيعي أن يثير هذا الحادث أصداء كبيرة في وادي التيم، فنهض الشهابيون طلباً للثأر وعلى رأسهم أمير حاصبيا موسى وأمير راشيا علي، وصارا يمخرقان في أطراف البقاع، فشعر أحمد المعني بخطورة الأمر وجاء بنفسه إلى بعلبك لمعالجة الوضع ونجح في إجراء مصالحة بين الحرافشة والشهابيين، من أهم بنودها أن يدفع الحرافشة دية الشهابي القتيل ورفاقه وأن لا يسكن الدروز في بلاد بعلبك[3].

عاد عمر إلى حكم بعلبك، غير أن النزاعات مع أقاربه ما لبثت أن أجبرته على العودة إلى الحماديين مرة أخرى حيث توفي هناك سنة 1683م ودفن في طورزيا. وعلى أثر ذلك تمكن «ابن صدقة» أن يحوز على سنجقية بعلبك وتدمر ووادي التيم ويترك بعلبك تحت حكم شديد ابن شقيق عمر[4].

(1) الدويهي ص 569 ولم يجرؤ بعد مقتل فارس شهابي آخر على التزام بعلبك حتى التزمها ملحم شهاب لسنة واحدة 1748م. سجلات محكمة دمشق (العشيرة ص 78). وقد أشرنا إلى هذه الواقعة أكثر من مرة لتعدد دلالاتها.

(2) خطط الشام ج2 ص 264.

(3) أخبار الأعيان، الشدياق 113. سبق الإشارة إلى هذه الواقعة.

وكانت الدية المتفق عليها مبلغاً من المال ورأسين من أصايل الخيل. والدية لا يمكن أن تدفع غير مرة واحدة فلا دين في الدية ولا تأخير لأجل حسب الأعراف السائدة. ولم تكن التقاليد المرعية تسمح حينها بدفع الدية مقابل أمير شهابي أو من هو في مكانته فيكتفى في مثل هذه الحالة بدية رمزية غالباً ما تكون تسليم القاتل وسلاحه إلى أهل القتيل إذا كان يساويه منزلة وقدراً فيعفون عنه ويعود مكرماً إلى قومه.

روى ميخائيل ألوف هذه الحادثة مع بعض التباين في تفاصيلها وروايته أكثر انتشاراً وتداولاً على ألسنة العامة وبطلها هو الأمير شديد وليس الأمير عمر ويقول إن الدافع إلى قتل الأمير الشهابي يعود إلى مقتضيات العرض والشرف، لا إلى التنازع على الحكم بين الأميرين فقط (تاريخ بعلبك الوف ص 65).

(4) الدويهي ص 571.

الأمير شديد

استمر التناصر والتعاون العسكري بين الحرافشة والحماديين في عهد الأمير شديد ثابتاً ومستمراً كما كان قبله، ففي العام التالي 1684م عندما هاجم الحماديون قلعة طرابلس لإطلاق رهائنهم ثم داهموا عشقوت،اشترك الحرافشة إلى جانبهم وكان من المقاتلين أفراد من بيت حمية، وهي عائلة كانت ولازالت تسكن في السهول الواقعة غربي بعلبك.

«وفي سنة 1686م جاء أمر من الباب العالي إلى علي باشا والي طرابلس مع عبد الله حلبي ابن مخائيل الفرنجي بالركبة على الأمير شديد بن الحرفوش بسبب أنه أخرب عليه قرية رأس بعلبك وأحرق قلعتها فنادى بالركبة عليه واجتمع إليه الأمير بشير بن الشهاب والمقدم قاتيباي بن الشاعر ورعد شيخ الضنية وأصحاب الأغراض وساروا إلى بعلبك عن طريق الهرمل أما الأمير شديد فسار إلى بلاد جبيل واحتمى في المشايخ بيت حمادة»[1]. وعاد التحالف الشيعي يبرز من جديد[2]. مرة أخرى تأتي أوامر الباب العالي بتأديب الحرافشة والتخلص منهم فيجمع الوالي العثماني كل القوى المحلية التي يمكنه جمعها بمن فيهم أعيان ولايته والدنادشة وحكام وادي التيم التابع لولاية دمشق ويسير قاصداً قتال الحرافشة في بعلبك، إلا أن الموقف الشيعي الواحد المقاوم يساهم في الحؤول دون تحقيق هذا الغرض.علماً أن موضوع قريتي رأس بعلبك والقاع كان في أكثر من مناسبة موضوع خلاف الحرافشة مع ولاة الشام الذين اعتبروا القريتين من الأملاك السلطانية المباشرة التي تجبى رسومها لمطبخ أم السلطان[3].

إن لجوء الأمير شديد هذه المرة إلى جبل لبنان سبب هجوماً قاده والي طرابلس فأحرق العاقورة وأربعين قرية من قرى الحمادية وهدم قبر الأمير عمر الحرفوش في طورزيا[4] إلا أنه انهزم في معركة عين الباطنية حيث باغته ليلاً الحرافشة والحمادية وقتلوا منهم خمسة وأربعين رجلا وانهزم العسكر[5].

---

(1) الدويهي ص 547.

(2) تاريخ بعلبك، نصر الله ص 276.

(3) دواني القطوف، المعلوف ج 1 ص 263.

(4) أخبار الأعيان، الشدياق ص 195.

(5) خطط الشام، كرد علي ص 265.

الأمير حسين

كان الأمير حسين حاكماً قوياً جداً[1] كما وصفه دبلوماسي فرنسي في تقريره المرفوع إلى حكومته وهو معاصر للشيخ اسماعيل حمادة الحاكم في جبل لبنان، وكان الرجلان على صلات وثيقة جداً وكانا يتبادلان الزيارات والمدبرين، حتى أن الأمير تنازل له عن بلدة العاقورة رغم أنها من توابع ولاية دمشق فأدخلها في إقطاعه، ولما شاهد يوسف الدحداح يخدم عنده في بعلبك أعجب به وطلبه منه ليدبر له الأحكام وعاد معه وقرّبه منه وجعله شيخاً على العاقورة[2].

والأمير حسين الحرفوش هو الذي طلب الأمير حيدر شهاب حمايته فمنحه إياها وأعطاه ألفين وخمسماية رجل من خيرة محاربي بلاده أعادوه إلى الشوف وخاض على رأسهم مع ألف وخمسماية محارب آخر استطاع جمعهم من حزبه، معركة عين دارا التي أعادته إلى دير القمر حاكماً[3].

بقي حسين في الحكم حتى سنة 1712م ويبدو أنه قتل في غمرة أحداث تقاتل وشغب لم تصلنا موثقة من أي مصدر يركن إليه، وإنما أكثر ما بقي منها نتف من الأخبار المتواترة على ألسنة الناس تروى بصيغ مختلفة وبشكل مجزأ لا يمكن أن يعتمد عليه أساساً لتوضيح حقيقة ما جرى أو على الأقل ليشير إلى طبيعته وكنهه، وغالب هذه المرويات تأتي على ذكر ما يعرف بمجزرة «جنينة اللطامة»[4].

---

(1) راجع تقرير القنصل حول معركة عين داره.

(2) أخبار الأعيان، الشدياق ص 90.

(3) راجع معركة عين دارا في مكان آخر.

(4) «جنينة» أو حديقة أو مجزرة اللطامة إسم حادثة غامضة تتردد كثيراً على ألسنة العامة وتروى بأشكال مختلفة ومتباينة حتى حول إسم الأمير الحرفوشي الذي قام بها فيقول بعضهم إن الأمير جهجاه بعد عودته من العراق واحتلاله بعلبك ومقتل أو هرب الحاكم التركي «الزنجي» دعا أعيان السنة إلى مأدبة ثم فتك بهم حتى أصبح السنة أقلية في المدينة وذلك انتقاماً لمساندتهم للحاكم التركي وما أنزلوه في الشيعة من اضطهاد وعسف خلال فترة حكمه. ويتناقل الأهالي سيراً عن عائلة كانت حينها من مقدمي السنة في المدينة آل كَسَرْ وقد قضى على معظم أبنائها في هذه الحادثة ولم يبق منهم إلا أفراد قلائل.
هذه الحديقة عرفت فيما بعد بـ (جنينة اللطامة) إشارة إلى ما حدث فيها وما أعقب ذلك من لطم أقرباء القتلى حزناً على ذويهم. وتقع هذه الحديقة قبلي القلعة وهي الآن في ملكية الآثار (بعلبك في التاريخ الرفاعي ص 69). ويرى آخرون أن الأمير حسين قتل على أثر ثورة قام بها أهالي بعلبك وكانت المجزرة نتيجة لذلك. وقال آخرون غير ذلك أيضاً. تاريخ بعلبك نصر الله ص 282-291 ، البديري ص 157.
وتاريخ وفاة حسين موضوع خلاف بين المؤرخين وإن كان 1724م هو التاريخ الأكثر تداولاً. ولكن هناك وثائق رسمية تؤكد أنه توفي سنة 1712م وأن الأمير اسماعيل كان حاكماً بعد هذا التاريخ.

الأمير اسماعيل بن شديد

خلف اسماعيل حسيناً وشيد داراً للامارة كما يفيد تاريخ رواه المعلوف عن الخوري نقولا الصايغ[1] وتروي الوثائق العثمانية الكثير من أخبار علاقته المتوترة مع الدولة التي يغيب معظمها عن المصادر المكتوبة. والتي بقيت مجهولة إلى وقت قريب.

في سنة 1719م قام اسماعيل بدعم حملة الحاج الشامي، بوحدة من 200 جمل وعدد من الحراس المزودين بالبنادق[2] ولكن علاقته الحسنة مع السلطات لم تعمر طويلاً، ربما بتأثير من ثورة حليفه وصديقه اسماعيل حمادة في جبل لبنان، كما يفيد هذا الأمر السلطاني المؤرخ في آب 1722.

إن اسماعيل حمادة تمرد ورفض تجديد عقد الإلتزام على جبيل وأثار معظم رعيتها، وأرسلهم إلى أراضي القزلباش اسماعيل الحرفوش في مقاطعة بعلبك[3].

ولكن هذا القزلباش استمر في الحكم طويلاً بعد ذلك، وعادت الدولة لتستنجد به لرد غارات العرب والأكراد والتركمان الذي يهاجمون بعض القرى ويسببون التماسات ومناشدات بالتدخل تصل إلى اسطمبول من الشخصيات الدينية المحترمة في بعلبك[4] في حزيران 1729م تمرد أحد الحرفشة على الدولة، وسطا على قافلة من عشرين جملاً وعشرين بغلاً قادمة من دمشق، وأسر تجارها وحراسها وسجنهم في قرية مضايا في مقاطعة الزبداني[5]، فالقى والي صيدا المكلف بمتابعة هذه الحادثة اللوم على الأمير اسماعيل لتقصيره في حفظ الأمن في مقاطعته، وكان هذا الحادث مقدمة لتوتر العلاقات مجدداً بينه وبين اسطمبول، فأرسلت له في كانون الأول في نفس العام إنذارا خطيراً تتهمه بالإخلال بالأمن في بيروت وضواحيها وتقديم الحماية والمأوى إلى الخارجين عن القانون في سائر مدن الشام. وعدم تنفيذ أوامر السلطان.

إن المبعوث الإمبراطوري جاء إلى بعلبك فوجد هذه العصابات هناك. ولما أظهر للتو الأمر الامبراطوري بطلبهم. قلت بفظاظة: «إنهم طلبوا الأمان تحت حمايتي». ولم تسلمهم إلى المبعوث، وأعدته خاوي اليدين. إنك سوف تحاسب على هذا الفعل وتؤنب.

---

(1) دم اسماعيل فردوس عدن تاريخه مغنى البهيج.
(2) الإمارة الشيعية ص 227 نقلاً عن تاريخ عمر نجيب العمر.
(3) ا. د. م سجل 415: 130.
(4) ا. د. م سجل 392: 135. المقصود بهم رجال الدين السنة في بعلبك.
(5) ا. د. م سجل 372: 135.

عندما يصلك هذا الأمر الإمبراطوري، سلمهم إلى مبعوثنا. إياك أن تحمي أو تستضيف اللصوص الهاربين من دمشق أو صيدا أو بيروت أو طرابلس أو حمص أو حماه»[1].

في سنة 1731م كان لا يزال في منصبه كما يفيد عقد زراعي، حول قرية اللبوة، محفوظ في محكمة دمشق الشرعية على الرغم من أمر سلطاني صدر إلى والي دمشق معدداً مظالمه وجرائمه ووجوب عزله عن منطقة بعلبك وقتله لأنه رافضي المذهب[2]. كما وصل في نفس الوقت أمر آخر إلى والي طرابلس يتضمن نفس الأحكام خوفاً من إلتجائه إلى حلفائه في هذه الولاية. ويشير إلى الفتوى الشريفة التي تقضي بقتل هذا النوع من الناس. إشارة إلى فتوى أبو السعود أفندي بوجوب قتل الروافض والقزلباش وأن اسماعيل يجب أن يقتل لأنه شيعي هرطوقي[3].

لم يكن القبض على اسماعيل مسألة سهلة على الدولة فلجأت إلى الخديعة والمكر وبذلت له الامان فلما وثق بعهدها قتلته سنة 1733م بتهمة الرفض والتشيع.

الأميران حسين وحيدر

رغم أن اسماعيل قتل على الرفض فقد خلفه رافضيان من أولاده هما حيدر وحسين و كانا على وفاق في أول أمرهما، ولكن التدخلات العثمانية والمطامع الشهابية، فرّقت بينهما فتنازعا وتبادلا الإمارة أكثر من مرة.

ظهر غضب الباب العالي على الأخوين باكراً وانهالت شكاوى دمشق تتهمهما بالسطو على الممتلكات، والتسبب في نقصان الجباية[4] وفي نهاية عام 1744م بدت الأحكام الامبراطورية أكثر جدية وتصميماً وأمرت بإعطاء التزام بعلبك إلى شخص آخر. ولكن هذه الأوامر بقيت كغيرها بدون تنفيذ، حتى وصل الغضب الرسمي على حسين إلى الذروة اثر اتهامه بأكبر عصيان ضد السلطة العثمانية يمكن تصوره.

«السفاح الأمير حسين بن اسماعيل حرفوش استمر في عصيانه بالرغم من صدور أوامر بالقضاء على شرهم ونصرة الحق. عصى القانون المقدس، والمراسيم

(1) ا. م. د سجل 24: 136.
(2) ا. م. د سجل 140:226.
(3) ا. م. د سجل 311: 140.
(4) ا. م. د سجل 150 ص 230.

الإمبراطورية معلناً كفره وزندقته»

قتل يحي أفندي مفتي بعلبك لأنه رفض إصدار حكم لمصلحته، فشنقه وصادر ممتلكاته[1].

إن قتل رجل دين سني على يد حاكم رافضي هو أمر اثار موجة من الغضب والاستنكار في الدوائر الدينية والرسمية على اختلاف مستوياتها.

«طالما هذا اللص وعائلته وأقاربه باقون في مركزهم في بعلبك، فإن الناس لن يكونوا بامان من ظلمهم وتعدياتهم... منذ الآن وصاعداً لا تعطوا المقاطعة لهذا اللص حسين حرفوش أو لأحد من أقاربه أو عائلته أو أتباعه أو السائرين على نهجه، اعطوها لشخص عادل»[2].

في مثل هذه الظروف كان حيدر شقيق حسين هو الوحيد الذي يمكن أن يتولى الأمور في امارة بعلبك فتنحى له حسين وأصبح هدفاً لحملات التفتيش العثمانية حتى اعترفت السلطة في أيار 1747م بأنه مجهول محل الإقامة[3] ولكن سرعان ما وصلتها آخر اخباره.

«لم يهتم بأموره الخاصة فهو جمع ثلثماية أو أربعماية من رجال العصابات، وهاجم قافلة متجهة من دمشق إلى بيروت، فنهب ماية كيس من البضائع، وهدم القرى، وأحرق المؤن، وهاجم المتجولين حول بعلبك»[4].

ولكن رغم عصيانه الدائم وما نسبته اليه الأحكام الشريفة من شرور وآثام، لم يجد السلطان حلاً بعد ان عجز ولاته عن القضاء على هذا الكافر الزنديق، الا أن يشملهُ بعفو مبرر يرتكز على مشاعر التعاطف والشفقة والخير.

«إن صاحب عقد التزام بعلبك ابن الحرفوش (لتزداد قوته) أرسل عريضة إلى مقامنا الشريف يقول فيها أنه كان دائماً يدفع الضريبة في مواعيدها ومع فوائدها، واستلم الإيصالات، وبرأ ذمته، ولم يخالف القانون».

(1) ا. م. د سجل 152 ص 169-170.
(2) ا. م. د سجل 152 ص 243 - 254.
(3) ا. م. د 153 ص 69.
(4) ا. م. د 153 ص 120.

إن أبناء المفتي المتوفي في بعلبك يحي أفندي، قدموا شكوى بحقه واتهموه بالقتل، طالبين إعادة ممتلكات والدهم إليهم.

أرسلت الدولة مأموراً، فهاجم حسين وسرق وبعثر كل أشيائه وحاجياته وكل ما ملكت يداه. وكان عليه أن يغادر فوراً إلى المنفى. أما اليوم فإنه وعائلته وقومه في حال يرثى لها ويستحقون التعاطف والخير.

إن جريمته قد عفي عنها، ولا يجب أن يتحمل المزيد من الشقاء بعد ذلك»[1].

يبدو من فحوى هذه المراسيم السلطانية أن حسيناً اتهم بقتل المفتي السني في بعلبك وهو تحد خطير للدولة الحاكمة ولو أنها لن تكون المرة الأخيرة التي يفقد فيها هذا الرمز السني حياته على يد حاكم رافضي.

إن نصا في يوميات حلاق دمشقي يثير شكاً جدياً حول صحة هذه التهمة الخطيرة.

«في عام 1159هـ بعد رجوع أسعد باشا من الحج أرسل عسكراً عظيماً إلى مدينة بعلبك لقتل واليها حسين. فلم يجدوا له أثرا، فدخلت الأغوات وسلبوا وفعلوا ما فعلوا. ثم أتوا بثمانية رجال من أعيان بعلبك ومن جملتهم مفتيها لدمشق الشام فشنق المفتي وضربت أعناق الباقين[2].

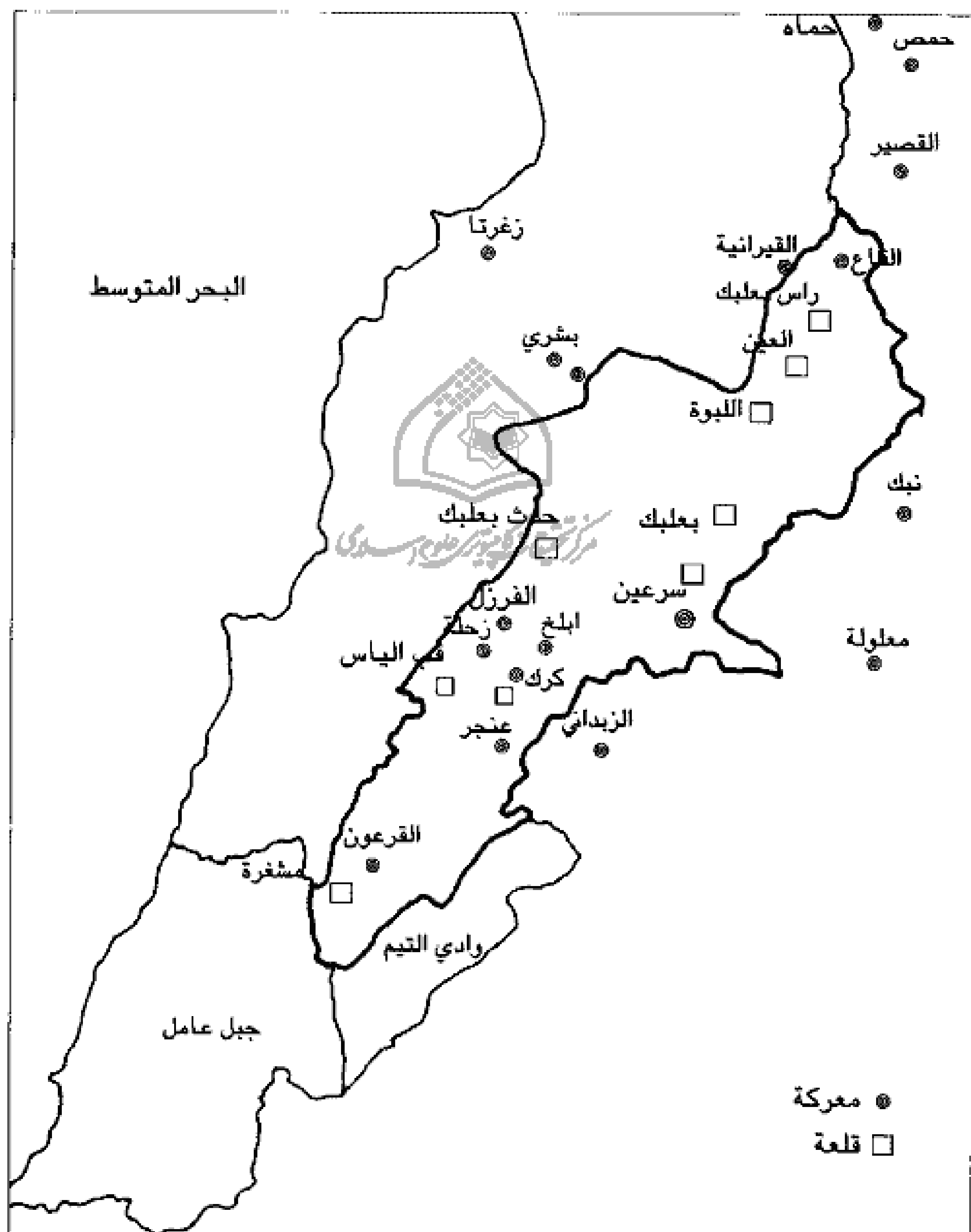
إن هذا الحلاق الدقيق الملاحظة، والمقيم في دمشق، والذي يشتم آل حرفوش في أكثر من مناسبة. لا يمكن أن يقع في خطأ جسيم يتعلق بمثل هذه الواقعة التي حصلت في دمشق. ولا بد أنها بقيت أياماً حديث الناس ومحل اهتمامهم. فهل أن المراسيم السلطانية اتهمت الحرفوشي زوراً أو جهلاً بهذا العمل الذي نفذته إدارتها في دمشق.

إن المؤرخ نفسه يعود في مكان آخر وينحي باللائمة في قتل المفتي يحيى أفندي المشهور بالعلم والكرم على آل الحرفوش في معرض ذكره لحادثة مماثلة كان ضحيتها المفتي البعلبكي أيضاً جرت بعد ستة أعوام على الحادثة الأولى[3].

راهب باسيلي من حمص أقام فترة في زحلة يتحدث في تاريخه عن تعديات متفرقة قام بها الأخوان حيدر وحسين طاولت مسيحيي منطقتهم مدنيين ورجال دين. وصلت حتى إلى إقدام بعض رجالهما على قتل قس كاثوليكي لمجرد صفته الكهنوتية ورفضه

(1) ا. م. د سجل 153 ص 169.
(2) حوادث دمشق اليومية الشيخ أحمد البديري الحلاق ص 71.
(3) المصدر السابق ص 160.

بعض القلاع والمعارك في امارة بعلبك



جحد ايمانه[1] وهي حادثة نادرة في سيرة هذه الأسرة وعاداتها رغم ما ينسب إلى بعض أمرائها من عسف وتنكيل طال مختلف الطوائف بما فيهم أحياناً بعض الشيعة.

الأمير حيدر بن اسماعيل 1724 - 1774م

لم ينتهي النزاع بين الأخوين إلا باغتيال حسين في 6 جمادي أولى 1164هـ - 1750م في أحد شوارع بعلبك فاتجهت أصابع الإتهام إلى أخيه بالضلوع في تدبير ذلك.

«في يوم الثلثاء جاء خبر إلى دمشق بأن حاكم بعلبك الأمير حسين كان خارجاً من الجامع فاغتاله ثلاثة أشخاص ورموه بثلاث بنادق وفروا هاربين فحمل إلى داره وفي اليوم الثاني توفي وقد قيل بأن القاتلين له أخوته حيث أن له من الإخوة سبعة والله أعلم»[2].

وذكر مهندس انكليزي كان يقوم بدراسة الاثار في بعلبك أن حيدراً قتل حسيناً وصار حاكماً مكانه[3].

إن هذا الإغتيال الغامض وضع حداً لنزاع طويل بين الأخوين حسين وحيدر فتح مجالاً رحباً للتدخلات الخارجية في شؤون الإمارة عن طريق نصرة أحد المتنازعين، فكانا يتناوبان على الحكم حسب موازين القوة. فيستقر أحدهما في دار الإمارة، ويتحصن الأخر في القرى الجبلية البعيدة ليخرب على أخيه ويستعد لجولة أخرى.

«بينما كان باشا الشام في الحج سنة 1158هـ ـ 1745م أرسل الأمير ملحم الشهابي عسكراً إلى بلاد بعلبك لمساعدة حسين ضد حيدر فخرب الدروز بلاد بعلبك وقطعوا أشجارها وطردوا حيدر وأقاموا حسين مكانه»[4].

وفي العام التالي كانت عساكر والي الشام تستبيح بعلبك نهباً وسلباً وقتلاً وتطارد حسيناً لقتله دون جدوى.

بعد أقل من ثلاثة أشهر على امارة حيدر وصل إلى دمشق نبأ لا بد وأنه أثار موجة من الإستياء والعداء ضد العائلة «الخبيثة الحرفوشية».

---

(1) حوادث لبنان وسورية الأب روفايل كرامه ص 8 - 12.
(2) يوميات البديري ص 157.
(3) الرحالة وود «Robert WooD» في أطلال بعلبك.
(4) البديري ص 71.

«إن ابن الحرفوش حاكم بعلبك المتوالي الرافضي المشهور قبض على المفتي وعلى أخيه وأحرقهم بالنار وهدم دورهم وقطع كرومهم»[1].

لم يكن حيدر منذ السنين الأولى من ولايته على وفاق مع باشا دمشق وأقرانه، ولا مع الباب العالي في اسطمبول. وكان غضب السلطان الدائم منه على وشك أن يلتهب كما جاء في انذار وجهه له في تشرين الأول 1755م .

إن الولاة الثلاثة في سوريا يتهمونك بالإغارة المستمرة على القرى بدل حمايتها. إن أعمالك اللاشرعية والغير مقبولة جعلت ثار غضبي على وشك أن يلتهب[2].

وتفيد عريضة وصلت إلى اسطمبول من ناظر الأوقاف السلطانية، وهي من المؤسسات العثمانية المهمة. وكان ريع أوقاف بعلبك من أهم عائداتها. إن القيمين على هذه المؤسسة كانوا في مقدمة الغاضبين من آداء حيدر وعائلته عموماً.

«إن الأوقاف الإسلامية في البقاع في مأزق شديد فمنذ ثلاث سنوات لم يدفع حيدر شيئاً، ويتدخل في كل أمور الأوقاف. إن حملة عثمانية ضد آل حرفوش وحدها قادرة على اصلاح الوضع[3]».

كان حيدر أميراً مقداماً سخياً ومحمود السيرة وصاحب نخوة وحمية دفعته إلى الإهتمام بتوثيق علاقاته مع الشيعة في جبل لبنان وجبل عامل ومساندتهم والتشاور معهم.

أقام فترة منفاه الاختياري في جبل عامل حيث شارك ناصيف النصار في بعض مساعيه التوحيدية[4].

قاسى من ولاة الدولة وحكام الشوف الكثير من الجور وإثارة القلاقل والحروب.

«في سنة (1168هـ ـ 1755م) عزلت الحكومة الأمير حيدر عن بلاد بعلبك فأبى الخروج منها وأمر جميع من فيها بالرحيل وكل من أقام بعد ثلاثة أيام ينهب ماله

---

(1) يوميات البديري ص 160 اغتيل حسين في 6 جمادى أولى 1164 وقتل المفتي في أول شعبان من العام نفسه فيكون قاتله حيدر وليس حسين كما توهم بعضهم.

(2) ا. م. د. سجل 157 ص 195.

(3) الإمارات الشيعية ص 234 نقلت من نص العريضة عن BOA: Cevedet EVKa 9176

(4) دواني القطوف، المعلوف ص 252 ـ 253.

وعياله فطفشوا إلى البلاد والقرايا وأقام بها هو عاصياً وأعطت بعلبك لحسين بن الحرفوش»[1].

وكانت الدولة قد أعطت بعلبك إلى الأمير إسماعيل بن شديد بسماية والي طرابلس ولم يتمكن حيدر من استعادتها قبل سنة 1763م.

كما حاول الشهابيون انتزاع بعلبك من الأمير حيدر ولكن تعذر عليهم ذلك دون الاستعانة بحرفوشي آخر يعملون باسمه وقد تمكن ملحم من ضمان بعلبك من والي الشام وأقام مكانه أخويه أحمد ومنصور ولكن الأمر لم يستقم له لمدة طويلة فهاجم بالتحالف مع حسين شقيق حيدر بعلبك ودخلها الأميران في سنة (1160هـ -1747م) وخربا ما أمكنهما وتولى حسين الحرفوش نيابتها[2] حتى تاريخ مقتله سنة 1750، بتدبير شقيقه حيدر.

كما أن الأمير يوسف الشهابي ورداً على وقوف حيدر إلى جانب الحماديين في جبل لبنان دعم أحد إخوته محمد في الوصول إلى حكم الإمارة فالتجأ حيدر إلى جبل عامل ثم عاد إلى إمارته من جديد ليموت فيها أميراً[3].

في الفترة الطويلة التي حكم أثناءها وصل على الأقل ثلاثة أمراء من أقاربه إلى حكم بعلبك فكان يعلن العصيان ويصر على استرجاع إمارته وقد نجح بذلك في جميع الظروف.

في أثناء حكمه بدأت حملة تهجير الشيعة من جبل لبنان فساندهم، واتهمته وثائق عثمانية أنه قام بقيادة حملة عسكرية على المناطق المرتفعة في الجبل وهاجم بشري مسبباً موت العديد من المسيحيين بينهم نساء وشيوخ، في نفس الوقت الذي كان فيه والي طرابلس يقوم بمطاردة الحمادية على رأس عساكره[4].

كما استقبل الكثيرين من المهاجرين والفارين والمطاردين من جبل لبنان فأرسلت الأوامر العثمانية إلى الشهابيين بملاحقة هؤلاء القزلباش وردهم[5].

توفي الأمير حيدر حاكماً على بعلبك سنة 1774م وكان **«قد سن في العمر كريماً جداً»** كما يقول الشهابي[6].

(1) تاريخ البديري م.م ص 187.
(2) تاريخ الأمير حيدر ص 34 ـ 38.
(3) دواني القطوف، المعلوف ص 252.
(4) م. ط. ش سجل 17 ص 145.
(5) م. ط. ش سجل 17 ص 146.
(6) تاريخ الأمير حيدر الجزء الأول ص 64.

الأمير مصطفى (1774 - 1784) م

تولى مصطفى إمارة بعلبك خلفاً لأخيه حيدر سنة 1774م دون ولده درويش الذي اكتفى بعد فشل مساعيه بحكم بعض قرى بلاد بعلبك، ولكن المنافس البارز له كان الأخ الثالث محمد الذي استطاع الوصول إلى الحكم بقوة جيش أرسله والي الشام عثمان باشا المصري عام 1776م إلى بعلبك فهرب مصطفى إلى زحلة ليستعد للمقاومة.

«تولى الجزار ولاية صيدا في نفس العام فجعل مقره في عكا ووقعت رهبته في قلوب الخلق واستساد على المتاولة وأخذ بلادهم وقهر حكامهم وبدد شملهم وضبط أراضيهم وأرزاقهم»[1].

بدأ أحمد الجزار حربه البقاعية على المتاولة (آخر نيسان 1777م) بإرسال حملة يقودها كاخيته ابن قراملا إلى بعلبك وبدأوا **«يتمخطرون في الطرقات ومسكوا البعض من كبراء المتاولة وأخذوا منهم أموال كثيرة ومسكوا الأمير محمد الحرفوشي وحبسوا الجميع ثم غادروا بعلبك بعد مدة وهاجموا سعدنايل وأخذوا مواشي أهلها وقتلوا بعضاً منهم ثم هاجموا زحلة بعد أن تكاثروا بوصول نجدة من عسكر الأكراد»**[2].

وبعد مناوشات عديدة أحرقوا القرية ودير مار الياس **«ولولا الأمير مصطفى لكانوا قتلوا أناساً كثيرين لأنه قاوم ورجاله القلائل وحارب العسكر وشغله حتى يهرب الناس.»** وقد خلفت حملة الجزار الأولى على البقاع ويلات كثيرة حتى سميت السنة التي حصلت فيها «بسنة ابن قراملا»[3].

بعد خروج العسكر من بعلبك عاد الأمير مصطفى إليها وعادت تدخلات والي الشام ومطامع يوسف الشهابي تنعكس خلافات بين الحرافشة ونزاعاً على الحكم. وفي إحدى الحملات التي ساقها والي دمشق إلى زحلة مطارداً مصطفى سنة 1781م استغل الأمير سيد أحمد شقيق الأمير يوسف الفرصة وطلب مواجهة باشا الشام وطلب منه أن يعطيه قلعة قب الياس ويوليه على البقاع.

---

(1) الدر المرصوف، المنير ص 20 (جروس برس).

(2) حوادث لبنان وسوريا، كرامه ص 55-56 (الدر المرصوف، المنير ص 25) (جروس برس). كانت زحلة وسعدنايل مثل الفرزل وشتورة بلدات شيعية صرفة.

(3) المرجع السابق ص 26. وكان ابن قراملا ظالما غدارا سفاكاً للدماء فارساً عظيماً وكان له من العمر خمس وعشرون سنة.

يقول حيدر المؤرخ:

«في آخر (1196هـ - 1781م) حضر إلى دير القمر محمد الحرفوش طالباً مساعدة الأمير يوسف للحلول في الحكم مكان مصطفى فوجه معه عسكراً وافراً بقيادة أبناء عمه بشير بن قاسم، وحيدر أحمد، فدخل الجيش إلى بعلبك بعد أن هرب منها مصطفى وعياله إلى حمص ثم عاد إليها والياً بمساعدة والي الشام محمد باشا العظم. فعاد محمد إلى دير القمر حيث بقي هناك حتى وفاته بعد أربع سنوات ودفن فيها»[1].

ساءت العلاقات بين يوسف الشهابي ومصطفى بسبب تدخلات يوسف في شؤون إمارته ولأنه **«أرسل عسكراً مع الأمير شديد مراد إلى بر الياس فكبسوا هذه القرية ونهبوها ونهبوا أيضاً في طريقهم قرية من بلاد بعلبك تسمى النبي[2] وكان فيها أرزاق كثيرة وقتلوا فيها شيخاً متوالياً من بيت حمية»**[3]، كما أن مطامع الشهابيين بقلعة قب الياس قد أثارت غيظ مصطفى ودفعته هذه التدخلات إلى طلب غرامة كبيرة من أهالي زحلة فرحلوا خوفاً منه. ولكن المفاوضات ما لبثت أن قامت بينه وبين يوسف **«فراسله بإصلاح أمره معه وقدم الوسايل بدفع المال فأجابه يوسف بذلك واصطلح الأمر بينهما»**[4]. على قول الأمير حيدر.

في مدة حكم الأمير مصطفى نكب الجزار متاولة جبل عامل **«فانكسروا أمام عساكره الجزارة بعد أن هلك من الفريقين خلق كثير وقتل الشيخ ناصيف زعيم المتاولة وأكبرهم ونزح من بقي منهم إلى بلاد بعلبك ليحتموا عند بني حرفوش»**[5].

استقبل بنو الحرفوش النازحين من أهل جبل عامل فحموهم وأكرموا وفادتهم[6] وكان بينهم عدد من رجال العلم والمشايخ وأهم زعماء آل نصار بعد مقتل ناصيف ومنهم قبلان الحسن، صاحب مقاطعة هونين.

بعد اجتياح جبل عامل وفرار بعض أهله إلى بعلبك كان لا بد من أن يأتي دور مصطفى باعتباره الأمير المتوالي القوي الذي قاتل الدولة مراراً واستقبل المطرودين من ديارهم فاتفق أحمد الجزار ووالي الشام محمد درويش باشا ودهموا مدينة بعلبك

(1) تاريخ حيدر الشهابي ج 1 ص 340 دفن في مقبرة الشهابيين.
(2) ربما قرية النبي إيلا اليوم وهي شمالي زحلة.
(3) تاريخ القس روفايل كرامه ص 69.
(4) تاريخ الشهابي ج 1 ص 134.
(5) تاريخ كرامه ص 68.
(6) جبل عامل حسن الأمين ص 357.

فقبضوا على مصطفى واخوته الخمسة ونقلوهم إلى دمشق فشنقوا ثلاثة منهم بينهم مصطفى وسبوا حريم الحرافشة ونهبوا المدينة ونصبوا فيها حاكماً من الانكشارية يدعى رمضان آغا (1784م). ثم استحصل الجزار على خط شريف من الاستانة بفصل بلاد بعلبك عن ولاية الشام والحاقها بحكمه وأرسل حاكماً عليها من قبله اسمه سليم آغا. وهكذا جرى في بعلبك ما جرى مثله في جبل عامل وجبل لبنان من قتل الحاكمين وسبي النساء وتدمير العمران وافناء الرعية وتهجيرها ليسهل قيادها والتحكم فيها وامتصاص أقصى ما يمكن من خيراتها والتخلص من المتاولة أعداء الدولة والدين والسلطة. إلا أن جذوة المقاومة لم تخمد حتى في منافيهم حيث تشردوا فقاد فارس الناصيف جهود متاولة جبل عامل لاسترداد أرضهم وبلادهم، كما كان حرفوشي آخر يستعد للعودة إلى بلاد آبائه واستعادة موقعهم وبيده سيف حمله معه من بلاد بعيدة وهو جهجاه بن مصطفى.

الأمير جهجاه بن مصطفى (1787-1817)م

يحدث أحياناً لبعض الشخصيات التاريخية التي تقوم بأعمال معينة تثير إعجاب العامة وتقديرها أن ينسج الخيال الشعبي حولها هالة أسطورية من القدرات الخارقة فينسب إليها أعمالاً لم تقم بها يوماً ويضع على لسانها أقوالاً لم تتلفظ بها، فيختلط الأمر بين الواقع والخيال فيصعب وضع حد فاصل بينهما.

وضع جيش والي الشام بالاتفاق مع أحمد الجزار نهاية مأسوية للأمير مصطفى وأهل بيته وعائلته، جعلت الاعتقاد يسود لفترة أن ذلك كان نهاية هذه العائلة صاحبة التاريخ الطويل، وأن الحكم قد انتقل إلى آغوات الباشا ومماليكه القادمين من أماكن قصية، إلا أن وريثه الشاب استطاع الفرار من المجزرة واختفى في البراري حيث لم يعلم أحد مكانه وعزَّ عليه المساند والنصير في محيطه فاتجه إلى بلاد بعيدة كان يسمع من أهله أن لهم فيها من تجمعهم معه رابطة القربى والدم والتاريخ. فتوجه إليهم في جنوب العراق مستثيراً نخوتهم وطالباً منهم حقه الذي تكفله الأعراف والتقاليد في مده بالدعم والمساندة. وإذا كان بعد المسافة يحول دون مؤازرته بالرجال والمقاتلين فقد اكتفى بمال وفير وسيف بغدادي وفرس كريمة أصيلة يخوض بها معركته المنتظرة[1].

(1) أعيان الشيعة الامين الجزء السادس ص 350. وكما يستفاد من القصيدة الشهيرة التي يرددها المنشدون على لسان جهجاه.

عندي سيف من بغداد جبتو   بضن بحربتو سم الأفاعي

يلاحظ أن ما قام به جهجاه لاستعادة حكم أبائه يكاد يتكرر بكل تفاصيله في ما ينسب إلى علي الصغير الوائلي في ظروف مماثلة.

ترك جهجاه مضارب الخزاعل قرب البصرة وهم قومه وقبيلته وعاد إلى بلاده يتسقط أخبارها ويستحث أنصار أبيه وعائلته على الاستعداد للقتال، فوجد أن الحاكم مكان أبيه من قبل الوالي هو محمد آغا العبد (زنجي) فداهمه بفرسان غطى حوافر خيولهم باللباد حتى لا تحدث صوتاً يفقده عنصر المفاجأة ودخل إلى بعلبك بعد أن قتل كل من صادفه في الطريق وانتصر على أعدائه انتصارا كاملاً وهرب العبد إلى سيده في دمشق كما تقول الكتب إلا أن رواة سيرته وأشعاره يصرون على أنه قتل بيد جهجاه[1].

«في خلال ثمانية أيام من أيلول حضر الأمير جهجاه ابن الأمير مصطفى إلى بعلبك بعسكر وحارب العبد متسلم بعلبك وانتصر عليه فانهزم إلى دمشق مع جماعة وبقي منتظراً أمر رجوع الباشا من الحج. ودخل الأمير المذكور بعلبك وجلس في سرايتها وملكها بالسيف وضبط كل ما كان مختصاً بدائرة الحكومة»[2].

كان على جهجاه أن يستعد للمعركة المقبلة سيما وقد وصلته تهديدات والي الشام بحجة أنه عاصٍ وقد أخذ بعلبك قهراً واغتصاباً وقتل عند أخذها البعض من عسكر العثماني. ولما كانت محاولة التخلص من حرفوشي دون الاستعانة بأحد الطامحين من أقربائه غير مأمونة النتائج فقد أرسل الوالي خلاع حكم بعلبك إلى كنج بن محمد الحرفوش مع العسكر ليتولى الحكم بعد جهجاه [3].

«أمر جهجاه كل سكان بعلبك وضياعها بالرحيل وكسر الطواحين وذهب مع جماعته وعصى في قرية تسمى صنبرا من معاملة بعلبك فحاصره العسكر وأخيراً تدخل عباس التل حاكم الزيداني وتم الاتفاق أن يعود جهجاه إلى حكم بعلبك ويدفع للوزير مبلغاً من المال فجاء جهجاه إلى زحلة فحصل فيها فرح عظيم وتهاني وقواص وأمر المطران بالرجوع مع النصارى وبدأت الناس تعود إلى بعلبك»[4]. أما كنج فقد سجن في دمشق ليدفع نفقات الحملة الفاشلة ومات في سجنه بظروف غامضة وقيل إن جهجاه هو الذي سعى في نهايته[5].

---

(1) جاء في هذه القصيدة الشعبية:

ما تدري يوم اللي كان العبد حاكم لا يعدل بحكمه ولا يراعي
تـركتـه مضرجـاً غـربي بعلبك بحد السيف قطعتو رباعي

(2) حوادث لبنان وسوريا، كرامه ص 103.

(3) دواني القطوف، المعلوف ص 267.

(4) المطران هو بنادكتوس التركماني الحلبي الطبيب مطران بعلبك من الرهبنة الشويرية (توفي سنة 1808م) (دواني القطوف، المعلوف ج 1 ص 267).

(5) تاريخ كرامه ص 107.

تمتع جهجاه بموهبة عسكرية خارقة في التخطيط والقتال أمنت له الفوز في أكثر من عشر معارك على الأقل خاضها ضد الولاة العثمانيين بمن فيهم أحمد الجزار، ورد بنجاح حملات متتابعة تهدف إلى القضاء عليه وتعيين موظف عثماني مكانه.لقد صمد في فترة عصيبة على الشيعة كان الجزار خلالها قد اجتاح جبل عامل وشرد رجاله وأعيانه، كما خسروا مواقع حكمهم في جبل لبنان ولازالوا يتعرضون لضغط متواصل لاستئصالهم من ديارهم . فلم تبقى غير بلاد بعلبك ملجأ يأوون إليه يضمدون جراحهم ويتخذون منه قاعدة انطلاق لجهودهم الرامية إلى العودة إلى ديارهم وبيوتهم وقراهم، وميداناً ينطلقون منه في حملات قتالية متتابعة لاستعادة ما فقدوه، في ظل قوة عثمانية طاغية تتفوق على طاقتهم المحدودة للقتال والمواجهة، فكان الهاربون إلى بلاد بعلبك من جبل عامل ومن المنيطرة وجبيل وغيرها من مناطق شمال لبنان يقومون بقدر ما تسمح طاقاتهم المتبقية بغارات إلى ديارهم الأولى يواجهون بها من أجبرهم على تركها ثم يعودون لتنظيم غارة أخرى بانتظار تغير الظروف، فكانت بلاد بعلبك هي القلعة الشيعية الأخيرة التي لم تسقط بعد وربما هذا هو السبب الذي جعل جهجاه هدفاً لهذا العدد الكبير من الحملات التي ترمي إلى اجتياح بعلبك والقضاء على الحكم الشيعي فيها وإقفالها بوجه الهاربين من الشيعة، بل وربما تهجير أهلها أنفسهم كيلا يبقى أمام الجميع من ملاذ آمن غير البوادي الصحراوية الواقعة إلى الشرق والنائية عن مراكز العمران من مدن وقرى وسهول خصبة الخالية من السكان إلا من قبائل بدوية من الرعاة الرحل.

إن مقاومة جهجاه المستميتة والناجحة فاجأت أصحاب مخططات التهجير النافذين والولاة العثمانيين ورجالهم.

اعتمد هذا الأمير في ظل اختلال ميزان القوى مع أخصامه على تخطيطه العسكري البارع، وشجاعته المتناهية، وإقدامه المنقطع النظير وسمعته القتالية في المعارك التي كثيراً ما دفعت المواجهين له إلى الهرب من أمامه عند الصدام رغم تفوقهم الكبير في العدد والعدة حتى قبل نشوب المعارك واحتدام القتال.

لقد اعترف بمواهبه القتالية معظم المؤرخين المعاصرين له، رغم أن ميولهم قد تكون غالباً مع المعسكر الآخر، وقد حضر بعضهم أكثر من معركة خاضها فكانوا من شهودها العيان ووصفوا كيف كان جهجاه يقودها بشكل مميز وفريد يدل على معرفة بفنون الحرب وتمرس بالقتال. رغم أنه لم يكن ـ مقارنة بأعدائه ـ كثير الأعوان والمقاتلين، إذ كان يعتمد على عنصر الاستدراج والمباغته فيقود خصمه إلى الميدان الذي يناسبه ثم يداهمه معتمداً على كفاءته النادرة وينتصر عليه مناقضاً لكل التوقعات والمعادلات

السائدة. ولعل من المناسب الاكتفاء بسرد بعض معاركه المهمة والتي حفلت بها بعض المراجع المعاصرة لها وسنعتمد بالأكثر على مؤرخ شارك شخصياً في مشاهدتها دون المشاركة في القتال، وهو مثل غيره من المؤرخين لا يتمكن من إخفاء إعجابه بشجاعة جهجاه ومقدرته رغم قلة ما يكن له من المودة والتأييد[1].

لم يتأخر جهجاه عن اغتنام أول فرصة سنحت له لمقاتلة أحمد الجزار عندما انقسم الشهابيون فريقين[2]، أحدهما مع الجزار وعلى رأس قواته أميران، هما علي أمير حاصبيا ومحمد أمير راشيا، وعلى رأس الفريق الآخر الأمير يوسف الذي ناصره جهجاه وانضم إلى عسكره في قب الياس حيث جرت المعركة الحاسمة في وادي أبو عياد فانهزم عسكر الجزار ولاحقه المنتصرون حتى قرية خربة روحا فنهر الحاصباني « **وكان وجه الحرب للأمير جهجاه»**.[3]

عاد الأمير جهجاه، إلى بعلبك منتصرا، ولكن الجزار أعاد جيشه المنهزم إلى متابعة القتال، فوقعت المعركة الثانية بالقرب من قرية جب جنين في البقاع سنة 1789م بدون مشاركته فانكسرت قوات الأمير يوسف واضطر للتراجع إلى الباروك،[4] ثم للتخلي عن الحكم للأمير بشير قاسم في نفس العام.

بعد انتصاراته على الجزار ووالي الشام، توقف جهجاه عن دفع المال السلطاني بعد أن ذاع صيته واشتهر أمره، فبقيت الدولة تنتظر الفرصة المناسبة للقضاء عليه وطرده من بعلبك حتى سنة 1789م حين وجهت إليه من حمص عسكراً بقيادة إسماعيل الكردي، فباغته في قرية خارج بعلبك ففوجئ جهجاه ولم يكن معه رجالٌ ولم يكن على استعداد فانسحب كعادته لتدبير المقاومة، فهاجم الكردي بعلبك وانحصرت إنجازاته في القبض على حريم جهجاه ونهب متاعهن ونقلهن إلى دمشق[5].

عاد جهجاه إلى بعلبك وأخلاها مع القرى المجاورة من جميع سكانها ثم ذهب إلى الجبال حيث جمع أقاربه ورجاله «وسار بهم إلى زحلة وطلب من أهلها أنه إذا خرج هو لمحاربة الآغا الكردي أن يخرجوا من بيوتهم لمشاهدة الحرب دون الاشتراك فيها أو الاقتراب من ميدانها»[6].

(1) الدر المرصوف، المنير ص 61 وغيرها.
(2) تاريخ الأعيان الشدياق الجزء الثاني ص 349.
(3) المرجع السابق ص 63.
(4) لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ـ تاريخ الأمير حيدر قسم1 ص 146.
(5) حوادث لبنان وسورية، كرامه ص 113.
(6) الدر المرصوف المنير (جروس برس) ص 64.

عاد إسماعيل آغا إلى دمشق، فسرّ به الوالي وأكرمه على سببه حريم جهجاه وأنعم عليه بحكم بعلبك، فعاد بصحبة عسكرٍ عظيمٍ وأقام في بعلبك حاكماً.

جمع إسماعيل الكردي عسكره وقصد زحلة للقضاء على تمرد جهجاه، فأمّن أهلها وأبلغهم انه يلاحق غريمه وحده، « **فأجابوه أن جهجاه خارج لملاقاته ونحن لا نحميه ولا نحاربه**»[1].

جمع الأمير المحارب رجاله في الكرك ثم ذهب إلى فالوغا طالباً مساعدة الأمير شديد مراد، وعاد إلى زحلة يستعد للمعركة، فأرسل نقولا الدروبي إلى إسماعيل ليقول له «قم واجمع عسكرك واحضر حتى نسلمك جهجاه الموجود في زحلة.» وقد حضر هذه المعارك المؤرخ القس حنانيا المنير فوصفها بإسهاب وتفصيل نادرين، معتمداً على مارآه وسمعه وشارك به.

« **كنت حاضراً هذا الشر مغيراً ملبوسي**»[2].

«**حضر القائد العثماني حالاً مع عساكره وهم ستماية فارس وماية راجل ولما وصل إلى زحلة أرسل من قبله جاويشاً ينادي بالأمان وأنه لا يطلب أحداً غير جهجاه فركب الأمير جهجاه مع عدد قليل من رجاله ـ وكان إذا خرج أبو ملحم جهجاه للحرب بدأت أهالي زحلة تخرج في إثره كباراً وصغاراً ليشاهدوا الحرب من بعيد ـ فنظر العسكر إلى جهجاه مقبلاً عليهم بجراعة ومن دون جزع وتابعه قوم كثيرون ففزع العسكر وهربوا أمامه فلحقهم وأرعبهم وحاربوه فغلبهم وقتل منهم ما ينيف عن مائتي رجل أو أكثر ولم يقتل من جماعته أحد وتبعهم إلى الزبداني خارج حدود البقاع وعاد إلى زحلة وأرسل إلى بعلبك من أتاه برأس المفتي لأنه كتب وتكلم ضده**».

وقد وقعت هذه المعركة في 10 كانون الثاني 1789م.

«**وصلت هذه الأنباء إلى والي الشام دالاتي إبراهيم باشا فنوى أن يهاجم جهجاه ولكن جاء من ينصحه أن الأمير الحرفوشي متى شاهد الركبة قوية يهرب إلى الجبل ولا يمكن أن يحكم بلاد بعلبك غيره فسكت الباشا وأرسل له خلاع الحكم وحريمه عن طريق عباس التل مرة أخرى واكتفى بأربعين كيساً قبضها منه**»[3].

---

(1) المرجع السابق ص 65.

(2) المرجع السابق ص 77.

(3) الدر المرصوف، المنير دار الرائد ص 86.

معركة زحلة

في آخر كانون الأول 1791م وضع جهجاه خطة لاحتلال بعلبك وطرد عسكر والي الشام أحمد الجزار منها ولم يكن معه أكثر من مئة محارب صلداتي فاستأجر مئة آخرين من أهل زحلة والجبل لمدة يوم واحد بخمسة قروش أو سبعة لكل منهم.

كان هناك حرس على المدينة من جهة الغرب حيث تمتد السهول الفسيحة فاختار الدخول من الشمال من ناحية اللبوة. وكانت خطته تقضي بالدخول خلسة إلى وسط المدينة دون أن يشعر به أحد ومنع رجاله من القيام بأية حركة أو صوت قبله وأعطاهم كلمة السر وهي« عبد الله» فمن لا يرد عليها بمثلها تطلق النار عليه فوراً.

بعد قتل الحرس دخل مع شقيقه سلطان ورجاله إلى المدينة بعد منتصف الليل ولما وصلوا إلى وسطها، أعطى جهجاه الإشارة بإطلاق الرصاص وارتفاع الصياح فظن العسكر الموجودون فيها أن جيشاً كبيراً يداهمهم، فلم يقدروا على المحاربة وأذهلتهم المفاجأة فاركنوا إلى الفرار والقليل منهم من استطاع أن يحمل سلاحه أو يركب فرسه فقتل أكثر من نصفهم وهرب الباقون إلى دمشق واحتل جهجاه المدينة وأقام في زحلة منتظراً[1].

وصل الهاربون إلى الشام وأخبروا بما حدث لهم فتعهد الملا اسماعيل بالثأر من جهجاه «**وقصد زحلة مع ألف ومائتي فارس ولم يكن في زحلة يومها أكثر من مائتي بارودة بالإضافة إلى خمسين أو ستين هم مجموع رجال جهجاه فحفر الأهالي حول زحلة خندقاً يسورها من جميع الجهات بحيث لا تقدر الخيل على الدخول إليها إلا من معابر ممهدة**»[2].

«هاجم إسماعيل البلدة من جهتي الشمال والجنوب فاحتمى الرجال في الخنادق حتى إذا قربت الخيل منهم يطلقوا النار عليها دون أن يظهروا أمام العسكر فينكفئ مهزوماً وكانت مهمة سلطان ومعه عشرون من رجاله أن يقاوم الفرقة الثانية من العسكر فإذا تعرض لهجوم تحميه الرجال الذين كمنوا في الكروم فجعل سلطان من نفسه فخاً يطارده العسكر حتى يدفعهم إلى الاقتراب من المكمن حيث يصبحون هدفاً سهلاً لسلاح الكامنين».

---

(1) الدر المرصوف، المنير دار الرائد ص 76.
(2) المرجع السابق ص 77.

استمرت هذه المعركة أكثر من خمس ساعات انهزم العسكر على أثرها بعد أن قتل وجرح منه كثيرون ولم يقتل من المدافعين سوى رجل واحد هو ابن مبارك.

هذه المعركة التي اشترك فيها ووصفها بدقة القس المؤرخ حنانيا المنير بعد أن استبدل لباسه الكهنوتي تظهر مواهب جهجاه الخارقة في رسم الخطط الحربية الناجحة والتي تعتمد غالباً على عنصر المفاجأة والسرعة والتي يمكن الاستعاضة بهما، بالإضافة إلى الشجاعة والمراس، عن التفوق الكاسح في العدد والسلاح.

جهجاه والجزار

تولى أحمد الجزار ولاية الشام بالإضافة إلى ولاية عكا سنة 1790م، فأراد أن يسدد حساباته القديمة مع جهجاه فاتفق مع بشير شهاب على عزله والاستعانة على اتمام ذلك بحرفوشي آخر هو قاسم ابن الأمير حيدر، فجهز الإثنان عسكراً سار من دير القمر وانضم إليه خمسماية رجل من زحلة والمتن من الأمراء اللمعيين. وكان جهجاه في تمنين فالتقى العسكران في أبلح فانتصر عليهم وهربت فرسان الجبل، «أما الزلم فأدركتهم رجال أبو ملحم، الذي من كبر مروءته، كان نبه على رجاله أن لا يقتلوا أحداً بل يشلحوهم فقط سلاحهم وثيابهم ويطلقوهم. وقد قبض على الأمير مراد بن شديد اللمعي فأعاد له حوائجه وفرسه وأطلقه مكرماً لأجل صداقة أبيه. وكان رجال جهجاه أقل من ربع العسكر المهاجم ولم يخسر في هذه المعركة سوى أربعة رجال فقط.

يقول مؤرخ معاصر في وصف هذه المعركة(1):

«كان جهجاه جامعاً عسكره معه في قرية تمنين فحالما بلغه حضور العدو قام من تمنين إلى أبلح، فلما نظرته عساكر لبنان وقع الخوف في قلوبهم، فهربت الخيالة، أما المشاة فأمسكوهم وأخذوا منهم أسلحتهم بعد أن قتل كم واحد منهم وكان ذلك في 21 حزيران 1790م».

إنها معركة أخرى ينتصر فيها جهجاه بدون قتال رغم قلة جنوده إذ أن هيبته وسمعته قد تمكنت من النفوس بحيث أن العسكر يسرع إلى الهرب من أمامه بمجرد حضوره دون حرب ولا طعان، وهذا شيء غريب في العلم العسكري سيما وأن من يؤرخ

(1) حضر هذه المعركة القس حنانيا المنير أيضاً ووصف أحداثها. ويقول إن رجال جهجاه كانوا أقل من ربع العسكر الذي هاجمه ص 66 ـ 67. وذكر الأمير حيدر تفاصيل هذه المعركة بما لا يختلف عن ذلك ويرى أنها وقعت في أواخر سنة 1789م (تاريخ حيدر قسم 1 ص 50).

للمعركة هو معاصر وشاهد يقيم قريباً من مكانها. وتظهر في هذه المعركة ملامح الفروسية والنبل في أخلاق جهجاه «فقد كسر مهاجميه وأخذ منهم جملة سلاح وخيل وما أراد أن يقتل أحداً منهم وقبض على الأمير مراد ولما وصل إليه أطلقه».

«أراد الأمير بشير أن يثأر لهزيمته ولا يبدو ضعيفاً أمام الجزار فجهز عسكراً كثيراً جمعه من كل البلاد وعلى رأسه أخوه الأمير حسن وكاخيته ناصيف آغا وعدد من الأمراء أقاربه ومشايخ الدروز فلما علم جهجاه سار على خطته نفسها بإخلاء المدينة والقرى من الناس ومن الغذاء أيضاً فقد كان في دار المطران قنطاران من الزبيب فأمر أن تعلق للخيل لكي لا يجد المهاجمون ما يستفيدون منه عند وصولهم وذهب إلى اللبوة للاستعداد للحرب»[1]. ولما وصل المهاجمون إلى بعلبك انهمكوا في «أعمال السلب والنهب حتى إن الدروز الذين معهم نبشوا المخباية في دار المطران وأخذوا كل ودائع النصارى ومصاغهم»[2] وثقل العسكر على الأهالي وفرضوا عليهم تقديم الذخائر[3].

ولكن يبدو أن الذي أمرهم بالمسير وهو أحمد الجزار» اقتنع بعدم جدوى العسكر فأمرهم بالعودة فحضروا إلى دير القمر بخيبة وعار عظيم على الأمير بشير وأخيه حسن وعلى الأمير قاسم الحرفوش وعلى كل أمراء الجبل وعلى الدروز أيضاً[4]. من الواضح أن الجزار شعر بعدم قدرته على احتلال بعلبك مع حليفه بشير شهاب والقضاء على جهجاه، فجهز بعد شهر من حملة دير القمر وعودتها المخزية جيشاً من عساكر دولة ومغاربة كثيري العدد وبعض مشايخ الجبل وأرسلهم مع الأمير قاسم الحرفوش وهو شاب يافع في السابعة عشر من عمره ولكنه يستعمل كهدف عسكري من شأنه الحد من المقاومة المحلية لكونه من الحرافشة وابن الامير حيدر صاحب الأثر المحمود عند أهالي الإمارة.

عند وصول العسكر انسحب جهجاه أمامهم متظاهراً أنه هارب[5] ولكنه عاد ليلاً إلى بعلبك فأحرق بيادر تمنين ورياق ونهب ما وقع تحت يده لمنع الغزاة من الاستفادة منها وانسحب إلى رأس بعلبك هذه المرة بينما دخل قاسم إلى المدينة وبقي برها خربان والأهالي هاربة ولكن جهجاه ما لبث أن ظهر فجأة في رأس العين في بعلبك في أحد أيام حزيران 1771م وحارب قاسم وانتصر عليه وقتله

(1) حوادث لبنان وسورية، كرامه ص 116.
(2) المرجع السابق نفس الصفحة.
(3) المرجع السابق نفس الصفحة.
(4) المرجع السابق ص 116.
(5) الدر المرصوف ص 117.

مع اثني عشر شخصاً[1] ودخل إلى بعلبك وملك المدينة بسيفه وحكم بها».

لم تهدأ الحرب بين الجزار وجهجاه حتى تاريخ عزله من ولاية الشام سنة 1795م، فاستمرت الحملات تتوالى من دمشق إلى بعلبك ولكن حنكة جهجاه وشجاعته لم تتركا لها مجالاً لتحقيق أي هدف سياسي فتعود فاشلة بعد أن تترك آثار التدمير والخراب والقتل في أمكنة مرورها. وسنأتي باختصار شديد على بعض هذه الحملات وكيف واجهها أمير بعلبك الصامد.

بعد مقتل قاسم الحرفوش ودخول جهجاه إلى بعلبك أرسل الجزار عسكراً لمهاجمة المدينة والقبض عليه أو قتله فانسحب جهجاه إلى الزبداني هذه المرة حيث جمع رجالاً وهاجم بعلبك فقتل نحو ثلثي العسكر ودخل السرايا. وجاء في بعض المصادر إن شهابي وادي التيم أعانه بمائة درزي قاتلوا معه[2].

«**فأعاد الجزار الكرة بعسكر أكبر فانسحب إلى حوض الأمير سلمان تحت زحلة فتبعوه إلى هناك في 20 كانون الثاني 1792م فهاجمهم وقتل خمسة عشر رجلا منهم وطردهم إلى القرعون في آخر البقاع وعاد إلى قب الياس**»[3].

في شباط من نفس العام أمر الجزار عسكر الشام في البقاع أن يهاجم جهجاه حيث هو في قلعة قب الياس فانسحب إلى الشمال وتبعه العسكر ونهبوا الفرزل وأبلح ولما عجزوا عن جهجاه قتلوا في طريقهم بعض الرعاة من الأولاد وبعثوا برؤوسهم إلى الجزار فلما رآها عرف أنها رؤوس رعاة مواشي، حنق على جنوده وأرسل لهم يقول «**لقد أرسلتكم لتقطعوا رأس جهجاه الحرفوش وأنتم لم تستطيعوا إلا قتل الأولاد فاتركوا البقاع فعادوا إلى عكا وأراحوا البلاد من شرهم**»[4].

ويقول مؤرخ آخر: «**إن العسكر قتل سبعة عشر ولداً من الرعيان وأرسلوها مع دالاتي حملها إلى رجل فلاح وذهب بها إلى عكا عند الجزار فلما وقف على رؤوس الأولاد رعيان البقر مخائيل السكروج استعلم ذلك من حاملهم وعرضه على الجزار فحنق وقال لهم أنا أمرتكم لتقطعوا رأس الأمير جهجاه وأنتم قطعتم رؤوس أولاد رعيان مواشي وطلب العسكر إلى عكا**»[5].

(1) تاريخ الأمير حيدر ج1 ص 151.
(2) دواني القطوف، المعلوف ص 272.
(3) المرجع السابق.
(4) المرجع السابق.
(5) تاريخ سوريا ولبنان، كرامه ص 127.

وكانت آخر حملة شنها الجزار على بعلبك في السنة الأخيرة من ولايته الثانية على الشام ولم تختلف عن سابقاتها، فقد انسحب جهجاه إلى رأس بعلبك وأخلى الناس بمن فيهم الرهبان، و تعطل موسم القز إذ كان قريباً وعاد عسكر الجزار مخذولا كعادته.

نجح الجزار في اجتياح جبل عامل وقتل زعيمه الأكبر وشرّد أهله، كما نجح عثمان باشا وأولاده في تنصيب يوسف شهاب والياً على جبيل والبترون وجبة بشري وكسر شوكة الشيعة في جبل لبنان، إلا أن هذه القوى القادرة ومن يحركها ويقف وراءها فشلت في النيل من جهجاه الحرفوشي رغم محاولاتها المتكررة بسبب عبقريته العسكرية الفذة وجرأته القتالية النادرة وهذا ما حفظ للشيعة في سائر أنحاء لبنان ملجأً آمناً يأوون إليه ونقطة انطلاق يتحركون منها ويتحصنون فيها. وهكذا استطاعوا الصمود أمام المخططات الهادفة إلى إفنائهم وتلاشيهم كما توقع الكثيرون، ولجهجاه في منع ذلك فضل لا يُجحد.

نهاية جهجاه

إن النكبة التي أنزلها والي عكا والشام أحمد الجزار بالأمير مصطفى وأولاده وسائر الحرافشة سنة 1784م دفعت الناجين منهم إلى التضامن والالتفاف حول جهجاه إبن مصطفى لاستعادة امارتهم، فكان شقيقه سلطان هو وزيره وقائد عسكره ورفيقه في معظم المعارك التي خاضها الأخوان بوجه الجزار وغيره من ولاة الشام وحكام الشوف وسائر الساعين لتقويض الإمارة والطامعين فيها.

بعد موت الجزار 1804م تحسنت علاقات الحرافشة مع الأمير بشير بعد أن كف عن التدخل في شؤون بعلبك بسبب مطامعه الشخصية أو تنفيذاً لأوامر الجزار أو غيره من الولاة، وتوقف الضغط العسكري على جهجاه لسنوات عدة انصرف فيها إلى تثبت أوضاعه وتمتين حكمه، سيما بعد أن تخلص من منافسة أولاد عمه عمر بالقضاء عليهم (1794م)، فاستقبل الأمير بشير الشهابي في بعلبك وقدم له الذخيرة (13 ك1 1799م) وأرسل شقيقه سلطان بعسكر إلى جبيل بصحبة جرجس باز القادم من بلاد صفد، كما سعى لضم الهرمل إلى أقطاعه بعد أن قتل أربعين رجلاً من أعوان الحماديين المعارضين لذلك[1] وعين فارس الشدياق مدبراً لشؤونه[2].

(1) تاريخ بعلبك، نصر الله ص 295 والغرر الحسان، الشهابي ص 425.
(2) أخبار الأعيان، الشدياق ص 118.

عندما تردد والي دمشق الجديد كنج يوسف باشا في ارسال خلع حكومة بعلبك إلى جهجاه بادر إلى تجميع الرجال ونشر الفتن ليظهر للوزير أنه وحده القادر على حفظ زمام الأحكام وإدارة شؤون تلك الجهات، فأرسل إليه الخلع بوساطة الأمير بشير وجرجس باز ولما كان الأمير بشير يطمع منذ زمن بقرية الكرك من أملاك الحرافشة، تنازل جهجاه له عنها وكتب صكاً ببيعها لأولاده قاسم وخليل وأمين وأرسله له فوكل فيها نعمان بلوك باشي وصارت في ملكه. ويبدو من أبيات قالها نقولا الترك بهذه المناسبة أن الأمير بشير اعتبر تملكه لبلدة الكرك حدثاً مهماً وسعيداً وجديراً بتقبل التهاني والمدائح: وهذا الصك هو كل ما استطاع بشير أن يشبع به طموحاته الواسعة في حكم البقاع والسيطرة على أرضه وقسم منها.

كما كرك البلاد بك استجارت فعزت وازدهت بعد الاهانة

وقد جاءت براءتها تنادي جهاراً أنها لك مالكانة[1]

بدأت بوادر الشقاق بين جهجاه وأخيه سلطان في سنة 1808م فرحل الأخير إلى حمص مستاء ولم يرجع إلى بعلبك إلا بعد تدخل الأمير بشير في الصلح بين الاخوين.

ولكن الخلاف تجدد في العام التالي 1809م فقابل سلطان والي الشام كنج يوسف باشا، ودفع له ثلاثمئة كيس فعينه مكان أخيه وأصحبه بعسكر دولة فقام جهجاه إلى الكرك وأرسل عياله إلى عكار.

كان على جهجاه أن يقابل والي الشام ليعود إلى مركز إمارته، ولكن الأمير المقاتل الحذر من هذه الدولة ورجالها والخبير بوعودها والذي عاهد نفسه أن لا يمكّنها منه، رفض مقابلة باشا دمشق وترك زحلة إلى عكار مع بعض أنصاره وخيم مثل بدو الصحراء في أراضي علي بك الأسعد[2] فاستاء منه بشير شهاب واستخف به وتركه وبقي مصراً على رفض مقابلة الباشا حتى بعد تدخل الملا اسماعيل[3]. فاستمر صراع الأخوين بتشجيع من ولاة دمشق الذين يبتزون الاثنين معا، فتبادلا الإمارة والمنفى أكثر من مرة والتجأ سلطان إلى عكار عند عبود بك قريب علي بك، وحينما عاد أميراً من

(1) مالكانة هي الأراضي التي يملكها مالك دون أن يكون لورثته حق التصرف بالبيع.

(2) D. D. C. T4 P23 وعلي بك الأسعد هو من أعيان المراعبة في عكار ووالي طرابلس (1824 - 1826م) توفي 1827م، ابن عم عبود بك صديق جهجاه.

(3) متسلم حماه 1810م غضب عليه سليمان باشا فالتجأ إلى الأمير جهجاه في بعلبك حتى عاد إلى منصبه في نفس الوقت من العام (تاريخ الشهابي ج3 ص 572).



الأمير جهجاه الحرفوشي

جديد فرَّ جهجاه إلى الضنية هذه المرة ثم إلى الهرمل منتظراً نتائج مساعي صديقه الدائم اسماعيل في حماه. تميزت الفترة الأخيرة من حكم جهجاه بنزاعه مع أخيه سلطان، فكان الأميران يتناوبان على الحكم مما سهل لباشوات دمشق التدخل في شؤون الإمارة والعائلة التي سقط منها في معارك الأخوين خمسة عشر أميراً كما يقول أحد الرحالة الغربيين، الذي عرف بعلبك وأميرها جهجاه وقال عنه أنه يقيم في بعلبك ويحتفظ حوله بمايتي فارس متوالي. وقد قابله رحالة أوروبيون كثيرون وخصوصاً من الانكليز وتحدثوا عن قسوته ومطامعه [1].

أمضى الأمير جهجاه سنواته الأخيرة متنقلاً بين الامارة في بعلبك والمنفى في عكار أو الهرمل حتى وفاته أميراً في 17 آذار 1817م دون أن يقابل والياً عثمانياً إلا في ساحة القتال.

عند وفاة جهجاه كان ولده نصوح في الثانية عشرة من عمره فسار به عمه الأصغر أمين إلى دمشق والتمسوا من واليها صالح باشا حكومة بلاد بعلبك فأعطاهم الخلع وهرب سلطان إلى الهرمل والتجأ إلى بيت حمادة مشايخ المقاطعة[2].

(1) Travels in Syria and the Holy Land, by John Lewis Burckhardt chapter 1.

(2) تاريخ الأمير حيدر ج 3 ص 633.

الفصل الرابع

بعلبك تحت الحكم المصري

الأمير أمين بن مصطفى

هو ابن الأمير مصطفى وشقيق الأميرين جهجاه وسلطان. تولى الإمارة بعد موت أخيه واستقل بحكمها سنة 1825م[1] رغم دسائس الأمير بشير الشهابي لدى والي الشام. ولما دخل ابراهيم باشا إلى المدينة رفض الأمير الحرفوشي التعاون مع المصريين وظل موالياً للعثمانيين فأعلن تمرده وفر إلى البر يتنقل من مكان إلى آخر مطارداً من القوات المحتلة، وقد فشلت الجهود المبذولة للعفو عنه والتي شارك فيها عدوه القديم الأمير بشير لأنها اشترطت أن يقابل ابراهيم باشا شخصيا، ولكن الأمير أمين رفض مقابلته خوفاً من غدره أو ربما خوفاً من غدر الأمير بشير وأن يكون مصيره مشابهاً لمصير ابن عمه جواد بعد ذلك.

«استمر الأمير أمين يجوب القرى والأرياف مع عائلته وولده قبلان هاربين ومطاردين. وقد أظهر قبلان من ضروب الفروسية والشجاعة ما أصبح حديث الناس يتناقلوه رواية وشعراً. ثم تركا البلاد إلى العاصمة اسطمبول حيث قوبلا من أصحاب الشأن بالتكريم والاحترام وعاد الأميران بعد انسحاب ابراهيم باشا»[2].

---

(1) تاريخ بعلبك، نصر الله ص 303 وينسب إليه أنه كان وراء مقتل ابن شقيقه جهجاه. الأمير نصوح.

(2) أخبار الأعيان الشدياق ص 449 تاريخ بعلبك الوف ص 102 جمع قبلان كالعديد من أفراد أسرته مجد السيف والقلم فترددت سيرته كمقاتل أسطوري ساهم الشعر البعلبكي في بقائها حية في الوجدان الشعبي حتى اليوم.

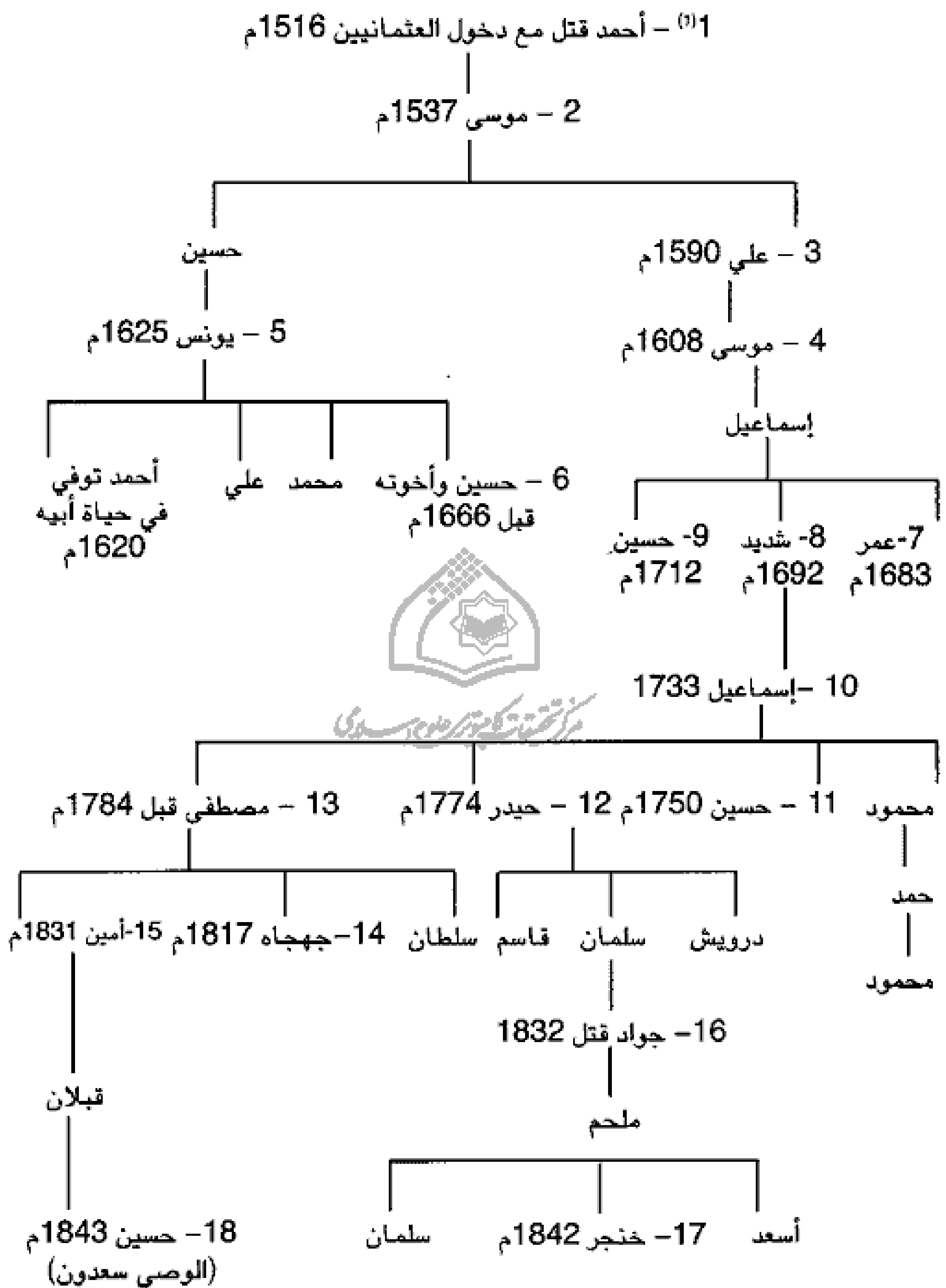
سل عنه يوم القريتين وقبله ... في يوم حمص فذاك يوم ثان
وسل الهنادي ما لقوا لما التقوا ... معه وما لاقوا من الخذلان

الأمير جواد بن سلمان

تولى إمارة بعلبك عند دخول المصريين الامير جواد الحرفوشي سنة 1831م ولكن سياسة ابراهيم باشا كانت تقضي بالتخلص تدريجياً من جميع الحكام المحليين الذين كانوا يدفعون مالاً معلوماً للخزينة فعينت هؤلاء الحكام مأمورين من طرفها براتب محدود قد لا يساوي عشر إيراد بلادهم السابق ثم عمدت لعزلهم وتعيين موظفين غرباء مكانهم[1].

«حتى الأمير بشير الشهابي نفسه حليف محمد علي ورجله في بلاد الشام الذي أحضر من والي مصر محمد علي أمراً جازماً بخصوصه لشريف باشا أن يتصرف في لبنان مستقلاً كعادته، فهذا الامتياز صار ثقيلاً عليه وصار يترقب فرصة يهين بها شرف الاميرء فرفع أولاً استقلالية أمراء آل حرفوش في بلاد بعلبك ورتب لهم معاشاً[2] وعزل جواد عن إمارة بعلبك »وعين عوضه أحمد آغا الدزدار فكان ذلك سبب عصيانه على الدولة المصرية فأخذ يحرك الفتن عليها ويجول من مكان إلى مكان إلى أن أدركه يوماً بقرب يبرود مئتا فارس أكراد أرسلهم شريف باشا المصري حاكم دمشق عليه وكان مع الأمير جواد أبناء عمه الأمراء محمد وعساف وعيسى وسعدون وثلاثون فارساً فهجم بعضهم على بعض واقتتل الفريقان، وفعل الأمراء الحرافشة فعالاً خلدت لهم ذكراً جميلاً فانهزم الاكراد وقتل منهم أحد أمرائهم عجاج آغا وذهب بعد ذلك الأمير جواد إلى بلاد حمص وقد تفرقت عنه أصحابه وبينما كان في محل يدعى الحريشة دهمه ثمانمئة فارس من الهنادى فرسان ابراهيم باشا وأخذوا يطلقون عليه الرصاص ثم أمسكوا عليه جسر التل المنصوب على العاصي الذي لا بد له من المرور منه للتملص منهم فحينئذٍ هجم عليهم هجمة وفرق جمعهم بضرب الحسام ومر منه بعد أن قتل منهم نحو عشرين فارساً وفر هاربا، غير أنه ما برح لا يأمن على نفسه ورأى أن العصيان لا يجديه نفعاً وأن لا مناص له من يد أعدائه فاستأمن للأمير بشير وطلب منه أن يأخذ له الأمان من ابراهيم باشا إلا أن هذا كان يكرهه فخانه وسلمه إلى شريف باشا حاكم دمشق فأماته شر ميتة»[3].

(1) منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، مشاقة ص 122.
(2) منتخبات مشاقة ص122.
(3) تاريخ بعلبك الوف ص 45.



(في الفترة الأخيرة المضطربة تناوب حمد ومحمد ومحمود وخنجر وشديد ويوسف بن حمد على الإمارة)

(1) الأرقام تشير إلى تسلسل ترتيب الحكام الحرافشة.

يروي محسن الأمين في أعيان الشيعة نقلاً عن كتاب حوادث الشام أن «**الأمير جواد سكن بعد عزله في يبرود وجعل له ابراهيم باشا 1150 قرشاً راتباً لقلة ذات يده وكونه من اشراف الناس وبعد ذلك صدر أمر بتوقيف صرفيات الكتاب والمتسلمين والنظار لكثرة النفقات وبقيت الصرفيات موقوفة ثمانية أشهر ولما كان الأمير جواد جواداً كاسمه وقلّت ذات يده جمع إليه جماعة وحرك معه أولاد عمه الأمير خنجر والأمير محمد وصار يقطع الطريق وصارت له شهرة عظيمة وهابه الناس ثم أرسل كتاباً إلى رجل اسمه عبد القادر آغا خطاب بأن يأخذ له مرسوم الأمان من الوزير شريف باشا حاكم دمشق من قبل ابراهيم باشا فأخذ له ذلك المرسوم ثم كاتب الأمير جواد الأمير خليل الشهابي أن يحضر إلى دمر ليدخل معه لمواجهة الوزير فدخل دمشق وواجه الوزير شريف باشا وبقي في دمشق أياماً وجعل يعين عنده خيالة وطلب شريف باشا إلى ابراهيم باشا أن يجعله (سرسواري) رئيس خيالة ولكن خلافاً قديماً حول اتهامه بمقتل أحد الأكراد تجدد بينه وبين أحمد آغا اليوسف وشمدين أغا من رؤوساء أكراد الصالحية وبما أن شريف باشا شدد عليه قليلاً ولكونه أبي النفس شجاعاً ركب وخرج خارج البلد وبعث إلى أحمد آغا اليوسف أنه إذا كان له عنده حق فليخرج إليه ليتحاسبا على ذلك الحق وكان بين أكراد الصالحية رجل يسمى عجاج آغا وهو متسلم جبل دروز حوران وهو من الرجال المشهود لهم بالفروسية فاستأذن الوزير وأخذ رجاله وتوجه إلى ناحية النبك فبلغه أن الأمير جواداً في دير عطيه فلما بلغ الأمير جواداً حضوره ركب وخرج من القرية وصار الحرب بينهم وقتل عجاج آغا وجرح الأمير جواد واشتد خوفه لكون أحمد آغا يخص الأمير بشير وتوجه الأمير جواد إلى عند بشير فقبل وصوله أرسل الأمير بشير جماعة فكمنوا له عند جسر القاضي وقبضوا عليه وأحضروه إلى الشام فأمر شريف باشا بقتله فقتل**»[1].

إن هذه الرواية رغم غرابتها تفيد أن الأمير جواد عصا على المصريين فأرسل شريف باشا عجاج آغا لقتاله فقتله جواد وذهب ينشد الأمان عن طريق بشير وبوساطته ولكن بشير تذكر خلافهما القديم فسلمه إلى شريف باشا في دمشق حيث قتله سنة 1248 هـ - 1832م.

يحيط الغموض بنهاية جواد وقاتله، هل اغتاله الأمير بشير غدراً أم سلمه بحيلة إلى

(1) أعيان الشعية، محسن الأمين ج6 ص 380.

شريف باشا فقتله؟ أم أن بشيراً سعى فعلاً إلى الحصول على عفو له غير أن شريف باشا قتله بدون رضاه وسعيه. المهم أن جواداً بقى متمرداً حتى مقتله وقاتل المصريين في كل مكان لتعذر قتالهم في بعلبك نفسها. ففي تقرير دبلومسي أرسله القنصل الفرنسي في طرابلس بيروتيه (PERETIE) إلى وزير خارجية فرنسا المارشال سولت بتاريخ 7 حزيران 1839م يفيد أن مدير طرابلس لم يحقق أي نتائج في سعيه إلى مراقبة المتمردين في جوار عكار والقضاء عليهم بسبب الخوف المسيطر من هذه العصابة المؤلفة من نحو خمسماية رجل وعلى رأسهم الأمير جواد[1].

من بين الذين وصفوا نهاية الأمير جواد من معاصريه أحد المقربين من الأمير بشير والذي عمل مدبراً عند الشهابين لفترة من حياته، فسرد هذه الرواية التي تؤكد أن مقتل الأمير جواد كان رغم إرادة بشير «**وأن الأمير جواد كان عاصياً لا يستقر بمكان وقد عجز المصريون عن الظفر به حتى سئمت نفسه في الفرار والمطاردة فتوجه إلى دير القمر مع ثلاثة من خواصه وطرح نفسه في سجن المجرمين فأخرجه الأمير بشير ووعده بالسعي عند الحكومة للعفو عنه، ولما كان ابراهيم باشا بعيداً في حلب كتب الأمير إلى الحكمدار شريف باشا فجاء جوابه بإرسال الأمير جواد ورفاقه إلى دمشق سريعاً وسأل الأمير محمود الشهابي[2] وكان في دمشق إذا كان جده يغتاظ في حال قتل الامير جواد فأرسل محمود الخبر إلى جده بسرعة ورجع الجواب قبل وصول جواد إلى دمشق ومعه رسالة لبحري بك[3] تلتمس عدم قتل جواد واستبدال العقوبة كونه سلم نفسه طائعاً فحاول بحري بك اقناع شريف باشا بالعودة عن عزمه واخطار ابراهيم باشا حتى يبت بالأمر فرفض وكتب إلى ابراهيم عن رغبته في قتل جواد وعند وصوله أحضره لديوانه وأجلسه وتكلم معه طويلاً وصرفه ثم الحق به المأمورين بقتله مع اتباعه فقطعوا رؤوسهم أمام باب السرايا مما أوجع الامير بشير كثيراً وخاب أمله بالمصريين وصار يترقب منهم زوال نعمته كما أزالوا نعمة غيره**»[4].

تحاول هذه الرواية تبرير قتل جواد الحرفوشي وتنفي الخيانة والغدر عن الأمير بشير، وأن القتل جرى رغم إرادته وبعيداً عن تدبيره رغم أن راويها هو من أهل الدراية

---

(1) D. D. C. T5 p421

(2) حفيد الأمير بشير الشهابي.

(3) أحد أركان الحكومة المصرية في دمشق.

(4) منتخبات في الجواب على اقتراح الأحباب، مشاقة ص 138. ومن الواضح أن مشاقة مطلع على الحقيقة ولكنه يداري شرف الأمير بشير بذكر خلافها.

والعلم وقد مارس أعمال الحكم كما أنه ملم بالتقاليد المرعية والتي تقضي «**بحماية الوقيع والدفاع عنه في جميع الظروف. وأن من حسن التدبير أن يكتب بشير إلى شريف باشا يستصدر منه عفواً على جواد قبل أن يسلمه إليه وإذا عجز عن ذلك ينأى بنفسه عن التدخل بالأمر والتعهد به ويعلم وقيعه بحقيقة الحال**».

ولكن يبدو أن ميخائيل مشاقة والمؤلف المجهول الذي نقل عنه محسن الأمين يبخسان الأمير الحرفوشي حقه مرتين: الأولى في رواية مقتل عجاج آغا الضابط المصري وما نتج عنها، والثانية محاولة مشاقة تبرئة بشير الشهابي من المساهمة في قتل جواد والغدر به بعد أن أمّنه وكفل تسليمه إلى محمد شريف، وهذا عمل مشين ومستنكر يشابه ما قام به سلفه وابن عمه يوسف بتسليم عدد من آل علي الصغير إلى الجزار بعد أن أمنهم واسكنهم تحت حمايته في مشغرة. وهذا ما كشفته الوثائق المصرية الرسمية وباعتراف صريح من الشهابي نفسه الذي يناقض هذه التبريرات.

كان الأمير جواد شجاعاً أبياً كسائر عشيرته[1]، ثار على ابراهيم باشا بعد أن دخلت جيوشه بعلبك وحولتها إلى مركز عسكري قيادي في حربها ضد الدولة العثمانية وحملات القمع التي تشنها على المتمردين وقد واجه الحملات المصرية التي كانت تطارده في أمكنة كثيرة بشجاعة نادرة اشتهرت بين الناس وألهمت الشعراء قصائد بمدحه والإشادة بشجاعته[2]. وقد بقي يقاتل المصريين حتى معركة دير عطيه التي روتها وثيقة مصرية أرسلها حاكم دمشق الحكمدار محمد شريف إلى القائد العام ابراهيم باشا جاء فيها:

«**عندما وصلت قافلة الجمال التي كانت تحمل أحذية الآي الفارديا المشاة الأول في دمشق إلى النبك علمت بوجود الامير جواد وعصابته في تلك النواحي فخشيت أن تستمر في طريقها إلى حماه وأرسلت تعلمه بواقع الحال فأرسل عندئذ قوة من الفرسان بقيادة عجاج آغا ولدى وصول هذه القوة إلى النبك تيقنت أن الأمير جواد ورجاله في دير عطيه فتابعت سيرها إلى هناك واشتبكت مع شرذمة الثوار في قتال أسفر عن جرح الأمير جواد وقتل الأمير خنجر والأمير محمد والأمير فندي من**

(1) أعيان الشيعة الأمين ج 6 ص 380.
(2) وهي كثيرة ومنها للشاعر البعلبكي محمد الحسين المرتضى:

يحمي النزيل ويلقى الضيف مبتسماً ... إذا أتى وديون المجد يقضيها
كل الكمالات رب العرش صيرها ... من حظه فتعالى الله معطيها
حلم وعدل وجود وافر ونهى ... ينهى الأهالي ويعفو عن تعديها
جواد قد جاد رب العالمين به ... على البلاد فيا طوبى لأهليها

الثوار وقتل عجاج آغا واحد البلوكباشية والفرسان من جانب السلطة». ويفيد أنه كتب عندئذٍ إلى الأمير حمد متسلم بعلبك ليتعقب الأمير جواد والبقية الباقية من جماعته، وأنه عين شقيق عجاج آغا رئيساً على فرسانه في السويداء إلى أن يصدر الأمر بتعيين خلف لعجاج المذكور. وقد ورد في ذيل هذه الرسالة الكلام التالي: **«لقد كتب إلى اسماعيل بك وخفتان بك وشريف باشا بالقبض على الأمير جواد توطئة لاعدامه في دمشق»**[1].

خرج جواد من المعركة جريحاً بعد أن فقد ثلاثة أمراء من قادة الحرافشة، وربما تدخل بعض الوسطاء من معارف العائلتين الحرفوشية والشهابية لتسوية موضوع جواد بالاستعانة بمكانة الأمير الشهابي عند السلطات المصرية المتنفذة، والتقاليد والاعراف تقضي بأن الكفيل إذا وجد في نفسه القدرة والأهلية والرغبة في القيام بتسوية الخلاف كما ينبغي تطوع لذلك، وإذا كان لديه أدنى شك في اتمام الموضوع على الوجه الصحيح يبقى بعيداً عنه لئلا يلحقه عار الفشل ووزر النتيجة.

ولكن الشهابي، كما يبدو من رسالته إلى محمد شريف، وجد في تسليم جواد إلى جلاده خدمة يقدرها الحاكم المصري ويتقرب بها إليه دون الاهتمام باعتبارات المروءة والنخوة وعادات البلاد وأعرافها.

تفيد رسالة بتوقيع الأمير بشير الشهابي مؤرخة في جمادى الأولى موجهة إلى محمد شريف باشا: **«نعرض أنه ليلة تاريخه الجمعة نحو الساعة الواحدة من الليل فلم نشعر إلا والأمير جواد الحرفوش حضر لمحلنا وقيعاً مترامياً وحيث أننا لا محل لنا ولا وقيع إلا رضى هذه الدولة السعيدة فحالاً وضعناه تحت الترسيم لكي نوجهه إلى أعتاب دولتكم ويكون الأمر به لسعادتكم وبعده سيصل محفوظاً والآن لأجل احاطة العلم السامي بذلك اقتضى تقديم هذه العريضة عجالة»**[2].

يتضح في هذه الرسالة أن بشيراً يعتبر الحرفوشي وقيعاً لا أسيراً أو سجيناً. والوقيع كما هو معلوم هو الذي يضع مصيره باختياره بين يدي صاحب مكانة يثق به هو وسائر الناس لإنهاء مشكلته على وجه يضمن سلامته وحريته وكرامته. وتؤكد هذه الرسالة

---

(1) المخطوطات الملكية المصرية المجلد الرابع عدد 5936 ص 170. تبين هذه الوثيقة حقيقة معركة دير عطية ومقتل عجاج آغا وتؤكد عدم صحة ما نقله صاحب «الأعيان عن كتاب حوادث الشام» واتهام الأمير جواد بمقتل الكردي. وإن معركة النبك حصلت بين عسكر مصري وثائر على هذا الحكم.

(2) المصدر السابق رسالة بشير عدد 5960 ص 182.

الواضحة المقاصد أن بشيراً رغم اعترافه بأن جواداً هو وقيعه ومع ذلك يضع مصيره بين يدي محمد شريف لأن كل ما يهمه هو رضى هذه الدولة السعيدة، وكأنه يحث الحاكم المصري على قتله دون الاهتمام بالاعتبارات الأخرى، وخصوصاً ما قد يلحقه من أذى معنوي وانعكاس ذلك على حرمته ومكانته الاجتماعية والاخلاقية والعشائرية.

وهذا ما تؤكده رسالة محمد شريف إلى ابراهيم باشا في جمادى الأخرى 1255 حول القبض على جواد، وهي تتضمن ملخصاً لكتاب بشير إليه حول التجاء جواد واستعداده لتسليمه، ثم يفيده بأنه سيأمر بإعدامه حال وصوله إلى دمشق امتثالاً للأمر السرعسكري السامي[1].

ثم أتبعها برسالة أخرى تنبأ بوصول الأمير جواد إلى دمشق وإعدامه مع ستة من أعوانه مؤرخة في 5 جمادى الأخرى سنة 1255م[2].

وجد ابراهيم باشا أن بعلبك تهدد بموقعها المتوسط كلاً من دمشق وحمص وطرابلس وبيروت وتسيطر في الوقت نفسه على طريق عسكري شهير يصل شمال سوريا بجنوبها، ويضيق جداً عند بعلبك نظراً لاقتراب السلسلتين بعضهما من بعض ،فنظم حاميتها وزودها بكل ما تحتاج إليه نقطة عسكرية محورية لينشغل بها العثمانيون عن عكا وأمر ابن أخيه عباس «**أن يأتي إلى بعلبك على رأس الألاي الثاني عشر من المشاة وألاي الخيالة الثالث وبطاريات ثلاث ففعل وأصبح لديه في بعلبك أربعة ألايات من المشاة وألايان من الخيالة ومدفعية كافية**».

إن كثافة القوات المصرية في بعلبك حدتْ من إمكانية تحرك الحرافشة ضدهم رغم أن أكثرهم يعارضون هذا الوجود ويتحينون الفرصة المناسبة للانقضاض عليه.

كان الأمير أمين والامير جواد أول من أعلنا رفضهما الخضوع لابراهيم باشا وخرجا إلى البر يقاتلان عسكره حيث أمكنهما، ثم سافر أمين إلى الأستانة وبقي جواد متمرداً يتجول مع رجاله في كل مكان لمقاتلة عسكر الدولة ودعوة الناس إلى الثورة عليها حتى قتل بيد شريف باشا في دمشق. وكان ابراهيم باشا قد عين بعد عزل جواد حاكماً من رجاله على بعلبك هو أحمد آغا الدردار ثم عين بعده خليل آغا وردة ولكنه يبدو أنه اقتنع أخيراً بوجوب عودة الحاكم الحرفوشي فأصبح الأمير حمد الحرفوش أميراً على بعلبك تحت النفوذ المصري.

(1) المرجع السابق عدد 5960 ص 182.
(2) المرجع السابق عدد 5972 ص 187.

الفصل الخامس

آخر الأمراء

الأمير خنجر الحرفوش

بعد إعدام جواد في دمشق ومقتل رفاقه الأمراء الثائرين في معركة دير عطية، قام الحرافشة في البقاع وساندهم والحماديون في الهرمل وعكار ومتاولة جبل عامل بقيادة حسين التصار بثورة عامة وشاركوا في المعارك الدائرة حتى انسحاب المصريين وسقوط حليفهم الأمير بشير ونفيه إلى خارج البلاد.

فاستولى الحرافشة بقيادة الأمير محمد الحرفوشي على بعلبك على رأس تسعماية من جماعته وسبعماية من المعلقة قرب زحلة، فغنموا أكثر من الف بندقية وأسروا أربعماية من جنود المدينة[1].

ورغم أن النجدات المصرية القادمة من حلب دخلت إلى بعلبك من جديد في 10 حزيران 1840م، إلا أن الأمير محمود الحرفوشي احتل حصناً قرب بعلبك واستولى على خمسة مدافع وكميات من الذخيرة، وأسر مائتي جندي ثم دخل إلى بعلبك ظافراً مع غروب شمس 29 تموز 1840م وفي الصباح سيطر على الأبنية ونهب مخازنها وأسر ثلاثماية من العساكر وفر الباقون مستنجدين بعثمان باشا المرابط في زحلة[2].

وفي اليوم التالي 30 حزيران غنم الأمير محمود قافلة من ثلاثماية جمل محملة بالذخائر قادمة من حلب، وسقط حراسها الأربعماية أسرى دون أن يبدوا مقاومة ذات شأن[3].

(1) D. D. C . T6 P66 .
(2) D. D. C . T6 P88 .

(3) المرجع السابق، التقرير نفسه.

وصل ابراهيم باشا إلى بعلبك وأقام فيها مترقباً التطورات العسكرية ومتابعاً أخبار البوارج الانكليزية التي تقصف مدن الساحل، ثم عقد مؤتمراً في المدينة للتداول حضره شريف باشا والامير بشير وبحري بك وكبار القادة وعزز قواته فيها حتى وصلت إلى عشرين ألف جندي، وعادت بعلبك مركزاً لقيادته العامة. وفي حين كانت التعزيزات المصرية تصل إلى بعلبك من حلب وعكا وبيت الدين كانت الثورة على المصريين قد عمّت جميع المناطق في بيروت والجبل وكسروان وجبل عامل وبرز بين الحرافشة أمير آخر قدر له أن يلعب دوراً مهماً في الأحداث السياسية والعسكرية اللاحقة، وهو الأمير خنجر الحرفوش. في ايامه اعلن الحماديون والحرافشة ثورة مشتركة على المصريين استمرت حتى جلائهم[1].

«لعب الأمير خنجر الحرفوش دوراً بارزاً في غالب الأحداث السياسية الخطيرة التي عصفت بلبنان في أيامه، فابتدأ ظهوره بمشاركته في الثورة العامة على حكم ابراهيم باشا وتنقل بين مختلف نواحي بلاد الشام جامعاً الرجال للقتال وداعياً العموم إلى الثورة على الحكم المصري فكان على رأس الثوار في كسروان حيث توجه ابراهيم باشا بنفسه مع اثني عشر الف جندي من المشاة لقتاله وأرسل رجالاً إلى جبل عامل لدعم الشيخ حسين الشبيب النصار عندما أعلن تمرده على الحكم المصري الشهابي، وقاتل في بيروت وضواحيها في المكلس والمنصورية وبيت شباب ودير القلعة وجونيه وغزير كما قاتل في البقاع و النبك والزبداني ودمشق ومرجعيون وبلاد بشارة وصفد ويافا»[2].

التقى خنجر مع أخيه سلمان بالأمير علي اللمعي في المريجات، وانضم اليهم الأمراء اللمعيون والشهابيون بعسكر العامة في الحازمية والدكوانة واشتبكوا مع المصريين في الأشرفية فانهزموا.

«وجّد الأرنبود في طلبهم فتبددوا مخذولين. لما علم عباس باشا بتفرق الثائرين أمر الأمير بشير بالقبض عليهم فقبض على خنجر وأخيه وستة رجال من المتاولة وأودعهم الأمير عبد الله الحبس في غزير فلما عرف بهم أهل كسروان هاجموا السجن وأخرجوا الأميرين ومن معهما وانحدروا إلى جونية ثم إلى المكلس حيث اشتبك الأمير خنجر وجماعته بالعسكر وعلى رأسه عباس باشا وسلمان باشا الفرنساوي والأمير مجيد فأرسل الباشا عليهم عسكر الأرنبود ففرّ الأمير خنجر

(1) الامارات الشيعية ص177.
(2) أخبار الأعيان، الشدياق ج 2 ص 473.

وأحرق العسكر المكلس وبعض المنصورية وبيت مري ودير القلعة. وقصد بيت شباب مع السرعسكر عمر باشا النمساوي ليوزع السلاح على الثائرين، حيث اشتبكوا مع الأمير مسعود حفيد الأمير بشير فعادا إلى جونية»[1].

ويقال إنه كان على اتصال وتنسيق مع المستر وود قنصل بريطانيا في دمشق وقد لاحق فلول الجيش المصري المنسحب، فالتقى مع الأمير محمد الحرفوش والأمير عبد الله شهاب شقيق الأمير بشير ملحم في الزبداني وانطلقوا مع فرسانهم إلى الهامة باتجاه دمشق ولكن ابراهيم ترك المدينة باتجاه الجنوب فوافوا الأمير بشير ملحم إلى مرجعيون وسار الجميع إلى صفد عن طريق بلاد بشارة ثم إلى يافا حتى دخل ابراهيم باشا غزة وسار مع عساكره إلى داخل مصر فعاد الجميع إلى بلادهم.

إن العداء الذي أظهره الشيعة تجاه الحكم المصري والثورة المبكرة التي قاموا بها، قبل أن تنتشر إلى سائر الجهات اللبنانية في آخر أيام هذا الحكم، بعد تدخل الدول الأجنبية السافر للقضاء عليه، دفع الدولة العثمانية المنهزمة إلى الإعتماد على الشيعة في مقارعة خصمها المنتصر فنصبت خنجراً قائداً على مقاطعات جبل لبنان وطلبت منه احتلال مدينة طرابلس ومقاتلة أعدائه المصريين حتى اخراجهم، كما يفيد بيورلدي صادر عن عزت محمد باشا سر عسكر بر الشام موجه إلى متسلم طرابلس وأعيانها وإلى «**افتخار الأمراء الكرام المنصوب من طرفنا رأساً على كامل أمراء ومشايخ ورجال مقاطعات بلاد جبيل والكورة وجبة بشري وتوابعهم الأمير خنجر الحرفوش زيد مجده** » يطلب إليه وإلى مشايخ هذه المقاطعات بناءً على تعهدهم. «**أن يمشوا إلى مدينة طرابلس ويضربوا عساكر الدشمان الموجودة بها ويشتتوا شملهم ويخرجوهم ويستولوا على المدينة**[2]». ولا يخرج مضمون هذا البيورلدي عن فحوى الكتاب الذي أرسله جو قموش باشا إلى حمد المحمود متسلم بلاد بشارة يطلب منه احتلال مدينة صفد و«مطاردة ابراهيم باشا والبطش به»[3] أو عن الكتاب الذي أرسله محمد رشيد باشا إلى الشيخ سعد الدين حمادة والشيخ أبي نصر حمادة والشيخ محمد كنج حمادة «**أعطاهم فيه قول على بلادهم وتفويض أمورها بيدهم**» داعياً إياهم «**أن تشدوا همتكم بالمجاسرة أنتوا وأهل بلادكم**» لمقابلة العدو نفسه[4].

(1) أخبار الأعيان، الشدياق 469.
(2) أوراق لبنانية مجلد 1955 ص 127.
(3) نص الكتاب كاملاً في فصل جبل عامل
(4) المحفوظات الملكية المصرية الجزء الثاني أسد رستم رقم 3915 ص 499.

«بعد انسحاب ابراهيم باشا إلى بلاده عينت الدولة خنجر الحرفوش أميراً على بعلبك دون معارضة. وفي هذه الأثناء عاد الثائر الحرفوشي القديم وعدو المصريين الأمير أمين وولده قبلان من اسطمبول إلى بيروت ومعه أمراً شاهانياً بولاية بعلبك وأرسل ابنه إلى دمشق ليصادق على الأمر المذكور ولكن والده توفي بينما بقي هو ينتظر في دمشق انتهاء الاجراءات التي يقتضيها التصديق، ولما كان يوماً في القصر الذي نزله ينتظر انتهاء مهمته أقبل نحوه بعض الجند ليبشروه بصدور الفرمان طمعاً بإنعامه فظن أنه صدر أمر بقتله فجن من ساعته وبقي مجنوناً حتى وفاته سنة 1864م»[1].

حصار زحلة

نشبت الفتن الطائفية في لبنان على أثر انسحاب المصريين ونفي بشير المالطي وتعيين بشير ملحم مكانه. اجتاح الدروز دير القمر وبقيت زحلة كبرى بلدات المسيحيين تعيش في حالة قلق خوفاً من التعرض لهجوم درزي شبيه بما حصل في الجبل.

كان وضع الزحليين العسكري حرجاً نظراً لقلة عددهم وانفراد بلدتهم بالوقوع بين طوائف متباينة بعيدة عن جبل لبنان مما يعوق وصول النجدات بسرعة فقرر أهلها أن **«يطلبوا مساعدة الحرافشة فاتفقوا مع الأمير خنجر واخوته وأولاد عمه وكانوا زعماء قومهم ورؤساء عشائرهم على الدفاع عنهم في حال تعرضت زحلة لهجوم درزي»**[1].

تقفل زحلة الأودية الشرقية للبنان، فإذا دخلها الدروز ينفتح الطريق أمامهم إلى قلب السناجق المسيحية. لذلك كان لمعركة زحلة أهمية تتجاوز البلدة إلى سائر المقاطعات المسيحية الأخرى فكان الدفاع عنها مسألة بالغة الأهمية بالنسبة للدول الأوروبية وقناصلها المعتمدين في دمشق. **«فسعى القنصل الانكليزي السر ريتشارد وود إلى تأمين وقوف الحرافشة بجانب أهالي زحلة واستحصل لهم على إذن من نجيب باشا**

---

(1) تاريخ بعلبك، ألوف ص 47.
(2) تاريخ زحلة، المعلوف ص 164.



زحلة في القرن الثامن عشر

والي الشام يجيز لهم مساعدة أهالي زحلة[1]. ولما توجه وفد منهم شاكين مولولين ترك القنصل الروسي دمشق ووصل إلى البقاع وأصر على خنجر الحرفوشي الأمير الشجاع لتنظيم فصيلة من المتطوعين المتاولة للدفاع عن المدينة»[2].

كما ساهم ثابت البحمدوني كآخية الأمير سلمان في التوسط بين أهالي زحلة وسيده شقيق خنجر لمساعدتهم في رد غارة الدروز عنهم وقد وعدوه أن تكون زحلة حمى للحرافشة عند الحاجة[3].

«في يوم الأربعاء 22 تشرين أول 1841م دخل الأمير خنجر زحلة مع ستماية فارس تدق أمامهم الطبول بقيادة حسن حميه من طاريا وسلمان الحاج سليمان من بدنايل وفارس الديراني حامل البيرق من قصرنبا[4] وفي 25 من نفس الشهر زحف

(1) تاريخ بعلبك، نصر الله ص 315.
(2) سوريا ولبنان وفلسطين، بازيلي 373 وحول دور القنصل وود يراجع منتخبات مشاقه ص 140.
(3) تاريخ زحلة، المعلوف ص 164.
(4) تاريخ زحلة، المعلوف ص 166. والرجال الثلاثة من عائلات معروفة اليوم في بلاد بعلبك.

الجميع بقيادة الأمير حيث جرت المعركة مع الدروز المهاجمين في شتورة وجلالا خارج المدينة ففر الدروز إلى قمل وأصيب زعيمهم شبلي العريان برصاصة في بلعومه وأخوه علي بأخرى في فخذه وقتل منهم أكثر من سبعين قتيلاً ولم يقتل من الزحليين إلا ثلاثة وقتل واحد من رجال الأمير. فقطع شبلي العريان آذان القتلى وأرسل مع ابن عمه خزاعي يطلب العون من الشوف ووادي التيم وحوران فجاءته النجدات بالخيل والرجال»[1].

«وفي أول تشرين الثاني كان نحو خمسة وعشرين ألفاً من الدروز يهاجمون زحلة[2]. فوضع الأمير خنجر ثلثماية من رجاله في خندق قديم عند البيادر وقطع طريق المعلقة فانكسر الدروز وتبعهم أهالي زحلة ورجال الأمير وقتل منهم أكثر من ثلاثماية، وأربعة من أهل زحلة وثلاثة عشر نفراً من المعلقة. كما قتل الأمير يوسف الحرفوشي عند عين الفلفلة وأصيب الأمير منصور برصاصة ما لبث أن مات بعدها بأيام في قرية النبي شيت». هذا ما يتناقله أهالي زحلة عن هذه المعركة التي يراها الجانب الآخر في شكل مختلف فيقولون: «إن صاحب هذا المشروع هو ناصيف بك نكد الذي قصد زحلة بألف وخمسماية مقاتل من الدروز فاكبر الزحليون الأمر وقاموا وقعدوا ووجهوا كبارهم وأعيانهم إلى الأميرين خنجر ومحمد الحرفوشي حكام البلاد البعلبكية يستغيثون بهم وقد حملوا إليهم الهدايا النفيسة فأنجداهم بسبعماية من المتاولة».

«وقف الدروز مترددين أمام مداخل زحلة بين مقدم ومحجم ففاجأهم الأميران الحرفوشيان في خيلهما الجرارة فاشتد بهم أزر النصارى فهاجموا الدروز فقرر الدروز الانسحاب ولم تتبعهم الزحالنة لأنهم كانوا يتمنون بُعدهم ولم يقتل من الدروز إلا سبعة رجال فقط»[3].

«بعد انسحاب الدروز وصلت فرقة من الجيش السلطاني تحت قيادة رشيد باشا وعسكرت في المعلقة فخاف النصارى أن تكون غايتها المساعدة عليهم كما فعلت زميلتها الموجودة في دير القمر عندما احتلها الدروز. ولكن الأمير خنجر سارع

(1) تاريخ زحلة، المعلوف ص 166 كانت المعركة الأولى بين الأمير خنجر وأولاد عمه وجماعته مع الدروز في تعلبايا فهزموا العريان قائد الدروز ولكنهم عادوا لمهاجمة زحلة بثمانية آلاف محارب، تاريخ بعلبك ألوف 47.

(2) يقول الشدياق إنهم كانوا نحو ستة آلاف وانضم إليهم العريان بألف فارس (أخبار الأعيان ص 489).

(3) هذا ما ترويه المصادر الدرزية عن حصار زحلة ويبدو الاختلاف الشديد بين الروايتين، الحركات أبو شقرا ص 62.

لمقابلة القائد، وسأله إذا كان آتياً لمساعدة الدروز أم النصارى فأجابه رشيد باشا لست ضد أحد منهم فنصحه خنجر بأن المعلقة هي المكان الأنسب للبقاء فيه في هذه الحالة»[1].

لم يكن خنجر يثق بحياد القائد العثماني خصوصاً أن ما حصل في دير القمر من انحياز إلى الدروز كان معروفاً من الجميع لذلك طلب منه عدم الدخول إلى زحلة والبقاء خارجها في المعلقة. فحمى الأمير خنجر زحلة مرتين الأولى من اجتياح الدروز والثانية من الدخول العثماني.

أثار موقف خنجر في دفاعه عن زحلة إعجاب الكثيرين من الذين أرّخوا هذا الحدث ومن المعاصرين له. يقول بازيلي قنصل روسيا في بيروت (1839 ـ 1853 م) «**لو لم يدافع الأمير خنجر الحرفوشي عن شعاب زحلة ومداخلها لاجتاح الدروز كل لبنان»**[2].

«كان أهل زحلة احتاطوا بمعاهدة الأمراء الحرافشة على مساعدتهم لرد غارة الدروز ووعدوهم بأن تكون زحلة حمى لهم عند الحاجة وقد تم هذا الأمر بواسطة البحمدوني كاخية الأمير سلمان، فأتى إليها الأمير سلمان وبعض بني عمه بخيله ورجاله البعلبكية الشجعان فكسر أهالي زحلة بمساعدتهم الدروز شر كسرة».

ويقول مؤرخ مسيحي معاصر لحصار زحلة:

«بالحقيقة إن للحرافشة الفضل ليس على زحلة فقط بل على كافة النصرانية في لبنان لأنه لولا انكسار الدروز في زحلة لكانوا أذلوا النصرانية لدرجة متناهية بعد فوزهم السابق على أهالي دير القمر»[3].

بقي خنجر أميراً حتى سنة 1842م حيث استطاع الأمراء بشير وسعدون وشديد، أن يحصلوا على ولاية بعلبك لحسين ابن قبلان ابن أمين، وأقاموا له وصياً سعدون لأنه كان صغير السن، فتوفي سعدون بعد سنة واحدة، فاستولى الأمير حمد على الحكم وبقي حتى

---

(1) T7 P 51 Bourée تقرير القنصل بوريه.

(2) سوريا ولبنان وفلسطين بازيلي ص 374.

(3) حَسر اللثام عن نكبات الشام، مكاريوس ص 13، حفظ بعض المؤرخين النصارى للحرافشة جميلهم في صد الغزاة عن زحلة وإبعاد العسكر العثماني عن الدخول إليها بحجة المحافظة كما فعلوا في دير القمر ولكن بعضهم الآخر تعمد تجاهل هذا الواقع فكل ما ذكره الشدياق عن الأمير خنجر أنه فر من زحلة بجماعته إلى جهة الفرزل متأهباً للهرب إن ظفرت الدروز دون أن يأتي على ذكر سقوط أميرين قتلى في المعركة هما يوسف ومنصور فضلاً عن رجالهما الأخرين (أخبار الأعيان 489) ولم تفِ زحلة بتعهدها بأن تكون حمى للحرافشة فوشى بعض أهلها بالأمير سلمان إلى العثمانيين في 12 كانون الثاني 1859م.

عام 1845م عندما استطاع الأمير محمد أن يحضر أمراً بالتولية مصحوباً بمحمد آغا بوظو على رأس الف وخمسماية من الجند الأكراد وخيم في بر الياس فلاقاه الأمير حمد برجاله إلى تمنين والتقى الأميران في الدلهمية حيث تم الفوز بعد معركة حامية للأمير حمد فقتل من الأكراد ستين رجلاً وقتل من رجاله ثلاثة فقط. وعاد إلى بعلبك ظافرا.

ولا تزال ألسنة البعض تردد منشدة أبياتاً زجلية نظمها الأمير حمد أو نظمها مجهول على لسانه فعرفت واشتهرت وفيها يذكر أسماء بعض المعارك التي برز فيها الحرافشة قبله معدداً مآثر قومه ومفتخراً بتاريخهم[1].

ثورة الحرافشة والهجوم على دمشق

إن الفتن المتواصلة بين الحرافشة بالاضافة إلى نوايا الدولة المزمنة بالتخلص منهم وتسليم حكم بعلبك إلى متسلمين من آغواتها أدت إلى صدور فرمان سلطاني يقضي بتجزئة بلاد بعلبك إلى مقاطعات صغيرة على رأس كل منها أمير حرفوشي مما أوجب أسباباً إضافية للمشاحنات بينهم، فاستغلت الدولة هذا الواقع وتجاوزت الأمراء المتنازعين محمد ويوسف بن حمد وشديد وخنجر، والغى السلطان حكم الحرافشة على بعلبك سنة 1850م.

ثار الحرافشة ودخل الأمير محمد بعلبك وحكم البلاد رغماً عن إرداة الدولة والتف حوله أقاربه وجموع أنصارهم وأعلنوا رفضهم للجباية والتجنيد الاجباري والتدخل المباشر للإدارة العثمانية في بلادهم واتجهوا إلى دمشق[2]، فأرسلت الدولة جيشاً لمواجهتهم بقيادة مصطفى باشا فالتقى الفريقان في قرية معلولا في الجبل الشرقي وتحصن بها محمد مع إخوته عساف وعيسى وخليل وأولاد عمه آل حسن، فحصرتهم العساكر الشاهانية إلى أن دخلتها بوسيلة من أهلها فهرب الأمير خليل وأولاد عمه وبقي محمد وعيسى وعساف محاصرين في كهف يرفضون التسليم واستبسلوا في القتال حتى هجمت عليهم العساكر فقتلت عيسى وأسرت محمد وعساف[3]. وعاد مصطفى باشا وطوق بعلبك مع ثلاثة آلاف جندي فجاءه الحرافشة مسالمين للتفاوض[4] ومنهم الأمراء حمد[5] وابنه يوسف وخنجر

(1) قصيدة شعبية يعدد فيها مفاخر قومه وما اشتهر من أيامهم موجهة إلى قائد العسكر العثماني ومطلعها
ولك بوظو لا تسوق جنان أنتم عشائر خصمكم فرسان

(2) مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية دومينيك شوفاليه ص 471.

(3) تاريخ بعلبك الوف ص 949 تاريخ زحلة معلوف ص 187.

(4) أعيان الشيعة ج11 ص 340.

(5) أمير بعلبك الذي ثار سابقاً على السيطرة المصرية. وبعد نفيه استمر ولده محمود ثائراً في القرى.

وفاعور وشديد وسليمان لكنه غدر بهم وأمر بالقبض عليهم ونقلهم إلى دمشق، ثم نقلوا إلى جزيرة كريت مع محمد وعساف وألغيت إمارة بعلبك وتحولت إلى لواء عينت على رأسه القائمقام تيمور باشا[1].

أرسل القنصل العام الفرنسي في بيروت لسباردا تقريراً إلى وزير خارجية الفيكونت دولاهيت بتاريخ 8 تشرين الثاني 1850م جاء فيه:

« في نفس الوقت الذي انفجرت فيه الثورة في حلب ثار الحرافشة أمراء بعلبك والبقاع وقصدوا دمشق ولكنهم حوصروا في معلولا التي غالب سكانها من المسيحيين فانهزموا والقي القبض عليهم ونقلوا إلى دمشق فيما انصرف العسكر التركي كعادته إلى القتل والنهب».

وصل الأمراء الحرافشة مقيدين إلى بيروت واقتيدوا على متن باخرة تركية مبحرة إلى القسطنطينية قال أحدهم الأمير خنجر أنه ليس مذنباً ولم يكن إلا أداة وأنه يجب معاقبة من هو أعلى منه رتبة[2].

رغم كل هذه النكبات استمرت مقاومة الحرافشة وقد هرب بعض المبعدين من كريت ومنهم أمير بعلبك محمد ورفع الحرافشة كعادتهم لواء الثورة والتمرد من جديد وكان على رأسهم هذه المرة الأمير سلمان الحرفوش.

سلمان آخر أمير حرفوشي

هو من أهم أمراء الحرافشة وآخر من عاش ومات كأمير منهم وسار ذكره على السنة الرواة والشعراء ولا تزال أخباره وسيرته تروى في المجالس والسهرات حتى يومنا هذا، مثل جهجاه وجواد وقبلان ومحمد وغيرهم من سابقيه.

لازم أخاه خنجراً وشاركه في معظم تحركاته فقاتل إلى جانبه المصريين والعثمانيين ودافع عن زحلة وقاتل بشيراً الشهابي وأولاده كما قاتل مع الثوار سنة 1840م في مختلف مناطق لبنان من كسروان إلى العاقورة إلى بيروت ووصل مطارداً جيوش ابراهيم باشا حتى تخوم غزة. فكان إلى جانب خنجر ووراءه في كل أعماله.

(1) تاريخ بعلبك الوف ص 49.

(2) القنصل De Lesparda P383 D. D. C. T9 ويتحدث القنصل لسباردا في تقرير آخر أن الحرافشة أصبحوا مدينين بأموال كثيرة للتجار كما ذكر شوفاليه في كتابه عن مجتمع جبل لبنان.

في رجب 1250 هـ 1836م أرسلت له الدولة العثمانية بيورلدي سرور وابتهاج بصداقته واعتراف بخدماته للدولة العليا ووعد بإحالة متسلمية بعلبك إلى عهدته بعد استعادتها[1].

بعد نفي خنجر أصبح سلمان أهم أمراء أسرته الذين نجوا من القتل أو النفي ولما عينت الحكومة قائمقاماً على بعلبك ثار بعض الحرافشة وعلى رأسهم محمود الحرفوش فأرسلت الدولة «الايا» رابط في ثكنة بعلبك التي بناها ابراهيم باشا وبدأت الحملات تنطلق منها للقضاء على التمرد، ولما عجزت العساكر عن إخضاع محمود فاوضته الدولة ومنحته عفواً ثم عزل القائمقام وعين مكانه فرحات باشا فبدأ التمرد الأول لسلمان بعد أن اتهم زوراً بقتل ابن عمه محمود[2] فأعلن عصيانه وجمع الرجال حوله وسيطر على القرى وفرض الغرامات وقطع الطرقات فعزل فرحات باشا في نفس العام وعين القومندان صالح زاكي بك وكيلاً للقائمقامية وأتى إلى بعلبك مصحوباً بعسكر «شاهاني» وفي مدة وكالته ذهب الأمير منصور عم الأمير محمود ومعه أحمد حمية وأخرجا أمراً بقيادة مئتي خيال وتعهدا للدولة بإنهاء تمرد الأمير سلمان فطارداه حتى التقيا به في سهل طاريا فتناوشوا هناك وأسفرت المعركة عن انهزام الأمير منصور ومن معه وسير القومندان صالح بك العساكر متبعاً آثار سلمان دون أن ينال منه.

وفي سنة 1854م أصدرت الدولة عفواً عنه وعينته قائداً على مئتي فارس بلقب «سرهزار» وعهد إليه والي دمشق بالمحافظة على الأمن في القضاء فتودد إليه رجال الحكم في الولاية ومتصرفية جبل لبنان وقناصل الدول الأوروبية. ورغم وجود قائمقام على بعلبك كان الأمير سلمان هو الحاكم الفعلي الذي توجه إليه مختلف المراسلات الرسمية مشفوعة بألقاب التكريم والتعظيم والتي تتعلق بأمور الأمن والتجاوزات، وردت نصوص أكثر من ثلاثين تحريراً منها موجهة إليه من متصرفية لبنان بين عامي 1854 و1857م[3].

رغم أن والي دمشق لم يولّ سلمان رسمياً على بعلبك إلا أنه كان في هذه السنوات يباشر الأمور كأمير بحكم الواقع نظراً لقوة شخصيته ونفوذه على الأهلين وتجذر عائلته في حكم بعلبك وإمارتها فاضطرت سلطات الولاية وغيرها من المراجع

(1) لم يجتمع الشيعة على القتال إلى جانب العثمانيين إلا في مواجهة ابراهيم باشا.

(2) تبين فيما بعد ان أحمد حمية هو قاتل الأمير محمود الحقيقي فقتله سلمان، المحفوظات الملكية المصرية أسد رستم الجزء الابع ص480.

(3) ان نصوص هذه المذكرات والرسائل مدرجة في المحررات السياسية فيليب وفريد الخازن.

الرسمية العثمانية إلى غض الطرف عن هذا الواقع ومعاملة سلمان وكأنه الأمير الحاكم وتجاوز القائمقام المعين في أمور كثيرة.

ساعدت بريطانيا السلطان في حروبه لاستعادة بلاد الشام من سيطرة إبراهيم باشا وخرجت من هذه الحرب كصاحبة النفوذ الأوروبي الأول في عاصمة السلطنة وسائر أنحائها، وأصيبت السياسة الفرنسية بنكسة خطيرة أدت إلى تراجع نفوذها أمام منافستها الكبرى، فأصبح المعتمدون البريطانيون يتدخلون في أخص الشؤون الداخلية العائدة للولاة العثمانيين وللسلطان في اسطمبول الذي وقع أسير النفوذ البريطاني بعد أن أمن له النصر في هذه الحرب الشاقة.

كان الحرافشة من أول الثائرين على إبراهيم باشا فقاتلوا المصريين منفردين أولاً وبالاشتراك مع الجيوش العثمانية فيما بعد وساهموا في دحرهم ومطاردتهم حتى حدود مصر. قام الأمراء خنجر وسلمان ومحمد بدور مهم في هذه الحرب في صفوف العثمانيين في مختلف أنحاء بلاد الشام ومع ذلك تنكرت لهم السلطات العثمانية بعد الحرب ووجهت عليهم عدة حملات عسكرية قتلت بعضهم ونفت آخرين وشردت من نجا منهم في البوادي والقفار. ويبدو من مراجعة تقارير الدبلوماسيين البريطانيين العائدة لهذه الفترة أن السياسة البريطانية في دمشق وبيروت قد بالغت في عدائها المجهول الدافع لهذه الأسرة، ولعبت دوراً واضحاً في التأثير على السلطات العثمانية الملاحقة أمرائها واستئصال نفوذها وحتى وجودها وكانت مواقف المعتمد البريطاني في دمشق بالغة الحماس في التحريض على إبعاد الأمير محمد الهارب من كريت وإقصاء الأمير سلمان وسائر الحرافشة عن أي نفوذ سياسي في بعلبك، بل وصلت إلى حد التأكيد على بقاء سلمان في سجنه ومكافأة الآغا الذي ألقى القبض عليه[1].

استطاع الأمير محمد حاكم بعلبك السابق وأخوه عساف أن يهربا من المنفى في جزيرة كريت إلى قبرص ثم إلى يافا ومنها إلى بلادهما حيث أعلنا العصيان على السلطة وتنقلا بين قرى بعلبك مع رجالهما. في الوقت الذي كان فيه الأمير سلمان مقيماً على الطاعة في المدينة ما أدى إلى تنافس بينهما كاد أن يتحول إلى مواجهة وصدام فتدخل الوسطاء لإزالة الجفاء والخصام بينهما وتوصلا إلى إقرار اتفاق بين الأميرين

(1) المحررات، كتاب القنصل البريطاني إلى حكومته المؤرخ في 12 كانون الثاني سنة 1859م جزء أول عدد 206 ص 353-354.



[illegible]

صورة عقد بين أمير حرفوشي واحد المزارعين حول شراكة ماعز

وافق عليه الوالي العثماني في دمشق و حين بدا أن الأمور تميل إلى الوفاق وأن الدولة راغبة في العفو عن المنفي الهارب وإشراكه في الامتيازات التي خصّت بها سلمان ليستمر على طاعتها، تدخل القنصل برانت لدى الباشا لنسف هذا الاتفاق وأوغر صدره على الأمير محمد وجهد للتأثير عليه بغية اتخاذ موقف معادٍ للأميرين كما يعترف هو نفسه في تقرير أرسله إلى حكومته في 27 كانون الثاني 1858م يقول فيه:[1].

«أتشرف بإنبائكم أن الأمير محمد الحرفوش قد فرَّ منذ نحو عشرين يوماً من منفاه في قبرص وجاء يافا ومنها دخل جبل لبنان وقد حمل مسيحيي زحلة التابعة ايالة بيروت على الإنضمام إليه لمهاجمة الأمير سلمان من بعلبك أحد أعضاء عائلته المعين من قبل والي دمشق محافظاً على توطيد الراحة في القضاء المذكور وله راتب أربعين فارساً. وقد زين الأمير محمد لشعب زحلة اقناع مسيحيي دير القمر بالإنضمام إليه بحجة أن الأمير سلمان هدد بعض مسيحيي زحلة القائمين على حراثة الأراضي حول بعلبك بالطرد والقتل. فاجتمعت قوات هؤلاء المسيحيين متحدة ويقدر عددها بألف مقاتل بين راجل وفارس، وعند اتصال الخبر بالأمير سلمان جمع عاجلاً بعض اتباعه وذهب بهم من مقره في العين إلى بعلبك تاركاً شقيقه وراءه ليستنفر قوةً عظيمة ويلحق به. ولدى وقوفي على هذه الحوادث عهدت إلى ترجماني أن يسأل الباشا التوسط بين الفريقين فيأمرهما بلزوم السكينة فأجاب الباشا الطلب وتوقف القتال حيناً بحيث تمهد لبعض ذوي النفوذ التدخل في الأمر واقترحوا أن يعرض على الباشا قسمة الراتب بين الأمير محمد والأمير سلمان فيعطى كلٌ منهما رزق عشرين فارساً وإبقاء محافظة القضاء بينهما. فقبل الأمير سلمان بهذا الاقتراح وهو موطد النية على عدم إجرائه بوجه من الوجوه اعتقاداً أن الباشا لا يوافق عليه مطلقاً.

وفي خلال هذه المفاوضات تمكن الأمير سلمان من اقناع الزحليين ومحالفيهم بالانفصال عن الأمير محمد. وقد أُخبرت أن الباشا أصبح ميّالاً إلى الرضى بالاقتراح المتقدم ذكره وقسمة رزق الجنود بين الأمير سلمان والأمير محمد إجابة لمساعي أصدقاء هذا الأخير.

ولذلك رأيت من واجبي أن أوضح للباشا أن موافقته على هذه القسمة بحق رجل أرسل إلى المنفى وهرب منه خفيةً واعتدى على مندوب دولته لا توليه شرفاً. ومن جهة

(1) المرجع السابق كتاب القنصل برانت ج 1 عدد 243 ص 292 ـ 293.

أخرى فالمرجح بأن الأمير سلمان لا يرضى بالتسوية المذكورة بل يهاجم الأمير محمد علناً فينشأ عن ذلك حرب أهلية. ومن خلال ما تقدم فإن الأمير محمد يعيش مع أتباعه على نفقة أهل القرى التي ينزل فيها ويغتصب منهم الأموال قسراً ويستولي على مداخيلهم. فوعدني دولته بالانقياد لرأيي وإنفاذ الأوامر إلى الفريقين بلزوم السكينة. وعليه فآمل أن الأمير سلمان سيعزز في مركزه وأن الأمير محمد سيكره إذا لم يقبض عليه ويعاد ثانية إلى منفاه».

وكان القنصل العام البريطاني المستر مور أشد تحاملاً من زميله في دمشق على الأمير محمد فأفصح عن اقتراحه بشأن إبعاده عن كل سوريا بشكل حاسم وصريح كما جاء في أحد تقاريره تعليقاً على رسالة زميله برانت:

«أتشرف بإفادتكم أن الأمير محمد الحرفوشي قد رجع خفية من المنفى إلى بعلبك منذ ثلاث سنوات لا منذ عشرين يوماً كما قال المسيو برانت في رسالته، فيوافق كثيراً لاقرار السكينة العامة وراحة أهالي بعلبك والأقضية المجاورة إبعاد الأمير محمد الحرفوشي عن قضاء بعلبك حتى وعن سوريا بأسرها»[1].

لم يقتصر عداء القناصل البريطانيين على الأمير محمد بل أن تقاريرهم الأخرى تؤكد على شموله سائر الحرافشة وخصوصاً الأمير سلمان رغم مواقفه العديدة المتوافقة مع توجه الدبلوماسية البريطانية وخصوصاً عندما أنقذ مع أخيه خنجر وسائر أبناء عائلته وأنصاره زحلة من الهجوم الدرزي الشهير وفي مناسبات أخرى كثيرة ومنها حريق بريتال واجتماع بدنايل مع القنصل البريطاني.

وضع الأمير سلمان حداً لبعض التجاوزات التي قام بها بعض أقربائه في زحلة وسعى بالتعاون مع القنصل الانكليزي المستر ريتشارد وود إلى إجراء الصلح بين الفريقين فزار القنصل والأمير سلمان بدنايل حيث تم الصلح بينهما يوم الخميس في 29 تموز 1854[2].

قتل ناطور زحلي في بريتال فقام أهالي زحلة بهجوم على البلدة وأحرقوها ويبدو أن أهلها كانوا من مناصري الأمير محمد الحرفوشي المقيم فيها، فأمر الأمير سلمان حاكم بعلبك جميع المتاولة أن لا يعترضوا الزحليين ولا يقاتلوهم وقام بناءً على اتصالات قناصل الدول الأوروبية وقائمقامية النصارى بوأد الفتنة ومنع ردات الفعل[3].

(1) من القنصل العام في بيروت مور إلى حكومته بتاريخ 17 شباط 1858 ج1 عدد 247 ص 295.
(2) تاريخ زحلة، المعلوف ص 188.
(3) تاريخ زحلة، المعلوف 191.

امتدت شهرة سلمان وسطوته ونفوذه إلى مناطق بعيدة عن بلاده وانتشرت بين القبائل وفي البوادي.

ففي سنة 1858م أثار محمد الخرفان من أمراء قبيلة الموالي[1] الأمير سلمان الحرفوش ليمده بجيش لمناهضة عرب الحديدية[2] الذين واقعوه ودحروه إلى قرية القاع[3] على حدود قضاء بعلبك فجمع الأمير سلمان جنداً من جميع قضاء بعلبك وكان حاملا العلم حمود الحاج سليمان وياغي الطفيلي من بعلبك. فلما بلغوا محل زين العابدين على بعد ثلاث ساعات من حماه في الثامن من تشرين الثاني التظى سعير الحرب، فأبلى عسكر الحرفوشيين بلاءً حسناً، وانكسر الحديديون بعد أن قتل منهم أكثر من ثلثماية نفر، فطمع البعلبكيون بهم واقتفوا أثرهم ثم شغلهم النهب عن تأثرهم. فتقدم محمد الخرفان وأعطى الأمير سلمان أفخر المسلوبات ووعده أن يزوجه ابنته على مرأى ومسمع من الأمير محمد الحرفوشي فأوغر ذلك صدر هذا حقداً وكان قد أبلى بلاءً حسناً. فلم يرَ مكافأة فانثنى على محمد الخرفان ورماه بالرصاص فجندله وعندئذٍ طمع الأعداء بهم فأعادوا الكرة عليهم بثبات جأش فأثخنوهم جراحاً ودحروهم إلى قرب مدينة حماه وهناك كفوا عنهم فقتل من عسكر البعلبكيين أكثر من تسعين نفراً. وذكر الأمين هذه الحادثة في أعيانه بما هو قريب من ذلك[4].

في 19 تشرين الثاني 1858م أرسل القنصل برانت تقريراً إلى حكومته ضمنه تفاصيل هذه الحادثة[5]:

«سبق لي أن تشرفت فأخبرت سعادتكم في رسالتي المنفذة في 15 الجاري بأن فارس المزيد زعيم قبيلة عربية نزع إلى الثورة وهاجم محمد الخرفان زعيم قبيلة عربية أخرى، قد كانت الحكومة أناطت به السهر على الراحة حوالي حمص. وأن الأمير سلمان الحرفوش من بعلبك جمع قوة من الشيعة والمسيحيين لنصرة هذا الأخير، وانضمَّ إليه وطارد فارس المزيد إلى ما وراء حماه حيث اشتبك القتال فظهر الأمير

(1) الموالي: ينتشر الموالي بين معرة النعمان والبادية التدمرية ونزاعهم مع الحديديين قديم استمر بعد سلمان وآخر ما وقع بينهم من صدامات كبيرة جرت سنة 1933م ومحمد الخرفان من شيوخهم التاريخيين وأهم أمرائهم في القرن التاسع عشر ما زال الموالي يرددون أخباره حتى ويومنا. البدو، الجزء الأول ص 455.

(2) ينتشر الحديديون بين حماه وحلب وقد تمت تسوية نزاعات قديمة على الملكية بينهم وبين الموالي عام 1928 وذلك بمبادلة المناطق المتداخلة بين القبيلتين. البدو الجزء الأول ص 434.

(3) قرية في آخر بلاد بعلبك مما يلي لواء حمص.

(4) أعيان الشيعة، محسن الأمين ج ص 262.

(5) المحررات السياسية ج1 عدد 200 ص 349.

سلمان على خصمه ظهوراً باهراً بيد أنه، بينما كان رجاله مشتغلين في جمع أسلاب العدو، تراكضت قبيلة الحديدية من قضاء حلب لنصرة فارس المزيد فأعاد هذا الكرّة على الأمير سلمان وكسره شر كسرة، وقتل من رجاله زهاء 150 رجلاً وفي عدادهم محمد الخرفان، وأحد أعضاء أسرة حرفوش، ويقال أن العرب كانت خسارتهم أعظم من الفريق الآخر. ثم عاد الأمير سلمان إلى قريته العين».

«وقد وُلّي فارس آغا قدرو قائم مقامية بعلبك وحرم الأمير سلمان راتب الفرسان الموظف عليه قبلاً، لأن القائم مقام الجديد يستصحب معه ماية وخمسين فارساً. هذه القوة قد زيدت لطرد الأمير سلمان من بعلبك. فإنه منذ علم بأن الباب العالي أمر القائمقام بالقبض عليه أصبح يستخف به».

بعد عودته من حماه عصى الأمير سلمان على الدولة ثانية وجال في البلاد يدعو إلى التمرد ويجمع الرجال ويتحدى الدولة وأمام عجز الحاكم التركي فارس آغا عن معالجة الأمر، أمدته الدولة بخمسماية جندي نظامي بقيادة حسني باشا للقضاء على هذا التمرد.

«كان الحرافشة يتخذون زحلة ملجأ لهم وسكانها عضداً منذ القديم»[1]. وكان اتفاق بدنايل يقضي باتخاذها مكاناً آمناً يحتمون فيه عند الأزمات، فدخلها سلمان متخفياً وقد شجعه على ذلك ما كان يعتقده من اخلاص الزحليين له بعد تاريخه الطويل في مؤازرتهم والدفاع عنهم ولكن بعض أبناء المدينة وشوا به للقائد العثماني فوقع في قبضتهم مرة أخرى في 12 كانون الثاني 1859م.

أرسل القنصل الانكليزي إلى حكومته تقريراً مسهباً عن تفاصيل اعتقال سلمان في زحلة يظهر فيه حماسته لهذا العمل وتظهر تقاريره طيلة مدة سجن سلمان خوفه من أن يخرج الأمير من سجنه بتسوية مع الدولة يسعى إليها بعض الأعيان وتقضي بدفع عشرين إلى أربع وعشرين ألف ليرة انكليزية ويرى أن مثل هذه التسوية تشف عن قصر نظر لأنه يخشى إذا أطلق سبيل الأمير أن يعود إلى الثورة مع عائلته وأبناء طائفته المتاولة وهو يغار على هيبة الحكومة وأمن المناطق التي تقع تحت سيطرة الثوار[2].

كما أورد في هذا التقرير المرفوع إلى حكومته:

(1) تاريخ زحلة المعلوف ص 146.

(2) يبدو انه كان هناك بوادر اتفاق بين متاولة بعلبك ونصارى زحلة، بان يدفع الزحليون الفدية عن الامير سلمان، لقاء اشتراك المتاولة في صد الهجوم الدرزي على نصارى البقاع بقيادة اسماعيل الاطرش وخطار العماد. كما تفيد رسالة سرحان الهاشم.

«أتعجل بإيقاف سعادتكم على كيفية القبض على الأمير سلمان وفقاً للبيان الذي تلقيته الآن. لقد كان يرود الناحية فيراقبه يوزباشي متنكر من فرقة الفرسان المنظمة المقيمة في بعلبك بإمرة حسني بك فلما اهتدى اليوزباشي المذكور إلى مخبأه في أحد بيوت زحلة ذهب حالاً إلى بعلبك وأخبر حسني بك فركبا وتابع آخر إلى المعلقة وهي قرية مجاورة لزحلة لكن الأولى تابعة إيالة دمشق والأخرى إيالة بيروت وكان أن أخذ الجنود المقيمة في زحلة وطوّق البيت النازل فيه الأمير سلمان وأنذره شراً إذا لم يسلّم ذاته فأبى وأخذ يطلق النار على الجنود بيد أنه لم يصب أحداً لأن الوقت كان ليلاً ثم عرض أن يستسلم إلى حسني بك إذا ما أتاه إلى داخل البيت فأجابه أن يأتي هو بذاته إليه فلم يرضَ وحينئذٍ استدعى حسني بك صاحب البيت وسأله عن ثمن بيته فإذا هو خمسة آلاف قرش تركية. فقال البك: أنه يدفع له عشرة آلاف وأمر الجنود بإضرام النار فيه وبينما هم يهمون بذلك بدا للأمير سلمان أن يستسلم وجاء مع ثلاثة من أتباعه عزلاً وعرض على البك مالاً ليسمح له بالفرار فامتنع»[1].

يتابع القنصل برانت ارسال تقارير حول سجن سلمان مبدياً أراءه بذلك و**«ضرورة القبض على كل فرد من أسرة حرفوش بسبب قوتهم وظلمهم وثوراتهم العديدة على سلطة السلطان».**

«جيء بالأمير سلمان بعد ظهر أمس وسجن في سراي «السر عسكرية». وألقوا اتباعه في السجن العمومي في دار الولاية وفي نية السر عسكر إذا أمكنه أن يقبض على كل فرد من أسرة حرفوش محقاً بسبب سيطرة سلالة هؤلاء الأمراء القوية وقد ظلموا الفلاحين وقاموا بعدة ثورات على سلطة السلطان وإن كانوا ساعدوا قوات جلالته في محاربتهم محمد علي باشا مصر».

ويذهب القنصل بعيداً في عواطفه تجاه حسني بك الضابط التركي الذي ألقى القبض على سلمان مشيداً به وطالباً من حكومته مكافأته مادياً على ما قام به ما يمكن أن يشتم منه أن حسني بك لا يبغي من وراء عمله تنفيذ أوامر واليه فحسب وإنما يقوم بخدمة لجهة أخرى تستوجب المكافأة والتقدير.

«إن سلوك حسني جدير بكل إطراء فقد أبدى بسالة ونشاطاً ونزاهة ولا شك بأنه سيكافأ على سلوكه بما يستحق. إني لا أعرفه ولكني سمعت اطراء حياله ووصف جدارته من كل فم ولا أرتاب في أن سعادتكم ستهتمون بأمره ليحصل على مكافأة مناسبة».

---

(1) المحررات تقرير مذكور ص 353-354.

[illegible]

رسالة سرحال الهاشم

في هذه الفترة التي كان الأمير سلمان يقوم بمهام الأمير الفعلي على بعلبك، بالرغم من أن سلطات دمشق عينت متسلماً تركياً يقوم بمهام القائمقام، لم تأبه له كثيراً حتى الهيئات الرسمية كالقناصل ومتصرفية جبل لبنان فبقيت تتعامل مع سلمان وتتواصل معه لمعالجة الأمور الهامة. حتى أن السلطات العثمانية نفسها وبحكم الأمر الواقع كانت تقدمه في مراسلاتها على القائمقام وتضفي عليه من الألقاب والتشريفات البرتوكولية ما لم تخص به ممثلها نفسه.

اجتمع عموم الشيعة في جبيل وبلاد بعلبك والهرمل من حماديين وبعلبكيين وأصدرو وثيقة تحدد الأسس الأخلاقية والتشريعية العامة التي التزم الجميع بها. على أن يخضعوا في كل أمورهم ومنها دفع الضرائب الرسمية «الميري» إلى أولي الأمر منهم وهم الأمير سليمان وسائر الحرافشة والمشايخ الحمادية دون تمييز بين سكان قرى لواء بعلبك وباقي الأهالي من الحماديين في مختلف مناطقهم[1].

إثر القبض على الأمير سلمان ظهرت بوادر تمرد بين الشيعة على اختلاف انتماءاتهم وتردد «الصوات» يدعون الناس إلى حمل سلاحهم للإنضمام إلى الثوار. وعمت مظاهر الإستعداد من كفر زبد في أواسط البقاع إلى سائر البلاد. وقام بعض المتمردين بالدخول عنوة إلى بعلبك فهرب المتسلم، ونهب المغيرون ما وجدوه في دار الحكومة وممثلها.

إن وثيقة غير معروفة لوجيه ماروني هو الشيخ سرحال الهاشم كتب وصفاً شاملاً للحالة الحاضرة. وكان شاهد عيان لها ومشاركاً نشيطاً في تحركاتها، في رسالة بعث بها إلى أحد وجهاء المتاولة في جبل لبنان الشيخ حسن همدر تناول فيها الحالة العامة في البقاع من جوانب عديدة مؤرخة في 26 ذي القعدة 1276 هـ ـ 1859 م[2].

(1) الوثيقة راجع رسالة سرحال الهاشم.

(2) هناك مقاطع غير واضحة في هذه الرسالة بسبب كثرة استعمال الرموز والإشارات والإيماءات ولكن أهم ما فيها أنها تأتي على ذكر الجهود والمحاولات لإطلاق سراح الأمير سلمان من سجنه ولو وصل الأمر إلى قتال الدروز، لأن المسيحيين تكفلوا بدفع الفدية عنه. فهل كانت الغاية من هذه التحركات والدعوات إلى القتال هو القيام بتمرد ضد السلطة، وقد بدأت بهجوم على بعلبك. أم أن الغاية هي مساندة الزحليين في التصدي للهجوم الدرزي الذي بدأت تباشيره في ما أشارت إليه الرسالة من وصول ثلاثة آلاف فارس درزي من حوران إلى البقاع وعلى رأسهم اسماعيل الأطرش. أحد زعماء الدروز الذي قدم بقومه من حوران وكان مع خطار العماد على رأس المقاتلين الذين دخلوا زحلة وأحرقوها في نفس العام. رغم أن هناك تقارير دبلوماسية تفيد عن تدخل مكثف للقنصل الانكليزي لثني الأطرش عن غرضه.

«نص الرسائل المتبادلة بين الأطرش والقنصل الانكليزي موروفي المحررات السياسية الجزء الثاني العدد 53» وبعد دخول الدروز إلى زحلة ذهب الأطرش إلى المختارة فتلقاه سعيد جنبلاط بالإجلال والهدايا (الحركات أبو شقرا ص 202) .

حال وصولنا إلى بلاد بعلبك، بادرنا بجمع الجماعة وصالحنا بينهم ووضعنا بينهم العهود الشرعية بأنهم يعملوا بمشربكم ومشرب أوادم بيت حمادة الذي حضروا الجمعية وبادرنا بجمع «صوت» حتى وصلنا لقرية كفرزبد بأول بلاد البقاع.........

تدلوا علينا أن عسكرهم قليل، والمانع لجمع الصوت هو المتسلم في بعلبك، والمراد أن يجفلوه حتى يخرج من بعلبك، وبعد ذلك تصير البلاد في يدهم، ويفعلوا بمشربنا ونحن صحبتهم، فما شعرنا إلا وفعلوا المكيدة وحاطوا القراية، وصاروا يتكنوا بعشيرة الحمادية فانهزم المتسلم وقتل من ربعه خمسة أو ستة أشخاص، ونهبوا موجوداته ما ينوف عن ألف كيس من خيل وتحف وسلاح ودراهم. ولم يقارشوا أحد من بعلبك.

وصاروا يتكلموا مع الحمادية والبعلبكية أننا ما فعلنا ذلك، إلا بمشرب الشيخ حسن همدر وختيارية بيت حمادة.

إن مرامهم بكل تأكيد، يجمعوا الصوت سعفة للنصارى لمحاربة الدروز، لأنهم متكفلين بدفع المطلوب عن الأمير سلمان.

أما من طرف المتسلم وحسني بك، فإنهم كتبوا مضبطة بأن العمل عملكم وعمل بيت حمادة وأنهم وجهوا أنفار صحبة آل حرفوش لعمل ذلك القبيح.

ربما بكره الجمعة يصل ألف خيال أكراد وربما يحصل قتل وفتك في عشيرة الحمادية، فيا صاحب المروة استدرك بقيام حريم بيت حرفوش من ضيع الحمادية. ونحن نتوجه بعشرة أنفار مع الشيخ اسماعيل وكافة المشيخة وكم نفر لقيام المذكورين في بلادنا.

انهضوا الهمة ونحن نجمع لكم حمادية أهل البلاد صحبة الشيخ محسن نرجو السرعة. وإن لزم خطاب للشيخ محسن أرسلوه نحن نوصله. واكتبوا إلى حمادية بلاد بعلبك. لأن الإمراء المرقومين ما فعلوا ذلك إلا لعدم الحمادية.

من الواضح أن كاتب الرسالة يسعى إلى المساهمة مع الحماديين والحرافشة بجمع المقاتلين من أجل غاية لا توضحها الرسالة تماماً. لأن المرسل له على علم واتفاق مع المرسل بشأنها. فهو يطلب منه كتابة خطاب إلى الشيخ محسن كبير الحماديين لحثه على المساهمة في هذا المسعى.

رسالة من لامير بشير أحمد أبو اللمع قائمقام النصارى إلى البطريرك الماروني حول العلاقات المارونية المتوالية وأ ضاعها خلال حوادث الستين ووجوب ارجاع طانيوس شاهين عن مهاجمة قرى المتاولة وإعطائهم قولا بعدم حصول الحرب لأن الأمير محمد الحرفوش قد عاد الى بلاده ليلا، وحرصا على النصارى المشتتين في بلاد المتاولة.

ولكنه يعتقد أن بعض الحرافشة يجمعون المقاتلين من أجل غاية أخرى، وهي مناصرة النصارى ومحاربة الدروز. ويبدو أنه غير راض عن ذلك وأن هذا التعارض في الأهداف سبب اشكاليات ومنازعات وصلت إلى حد التقاتل.

إن المتسلم المهزوم من بعلبك وضع تقريراً اتهم فيه بيت حمادة وبيت حرفوش بمهاجمة بعلبك ونهب موجوداته، وقتل عساكره بينما يرى كاتب الرسالة أن الحرافشة تستروا باسم الحمادية ليقوموا وحدهم بهذه الغارة وهو يخاف ان تؤدي إلى هلاك الحمادية. على أثر حملة يقوم بها ألف كردي من عساكر الدولة للإنتقام من أصحابه الحمادية. لذلك يعد العدة للتوجه مع المطاردين إلى جبل لبنان حيث يقيم عيال الحرافشة في ضيع الحمادية لأن رجالهم كانوا في ذلك الحين مطاردين لتمردهم على الدولة وعصيانهم.

الحرافشة والفتن الطائفية 1860م

تتباين المصادر حول حقيقة موقف الشيعة عموماً في البقاع في الفتن الطائفية التي اجتاحت البلاد سنة 1860م.

لا شك أن ما تعرض له الشيعة الجبليين انعكس توتراً في البقاع لم يصل إلى درجة المجابهة العامة كما جرى في مناطق أخرى، وإن كانت بعض التقارير تتحدث عن أعمال سلب وتعديات قام بها الحرافشة على بعض القرى[1] واغارات مارونية على أطراف قرية حدث بعلبك.

إن الأنباء التي نقلها المهاجرون الجبليون الشيعة شحنت النفوس بمشاعر التوتر والعداء. كما وصلت رسائل إلى الحرافشة كتبها نصارى من الجبل تحدثت عن نوايا نصرانية بالإعتداء على عيالهم اللاجئين إلى بعض القرى الحمادية في الجبل.

إن عريضة أرسلها وكلاء عموم زحلة إلى البطريرك إثر وصول جماعة من قبله إلى المدينة لمعاينة الأحوال عن كثب. تنقل صورة واضحة عن أوضاع زحلة، وسائر النصارى في البقاع، وعلاقتهم بالحرافشة وشعورهم بأن وجودهم في البقاع لا يستقيم بدونهم. وهو شعور حقيقي ليس فيه محابات ولا مدارات ولا مجاملة، لأنه موجه إلى المسيحي الأول ولن يصل إلى مسامع غيره في كل حال.

«نقضي أنه عند حضور أولادكم لهذا الجانب وجدنا حاصلة المغايرة من طايفة

(1) D. D. C. T11 p144. مذكور سابقاً

عريضة وكلاء عموم أهالي زحلة إلى البطريرك

الحمادية على تعلقاتنا. لزم أننا جعلنا الوسايط لأجل المسالمة مع جناب أفندينا الأمرا حرفوش المحترمين. وتوجهنا للثم أيديهم. وبوقته اندرج حال أولادكم. وكل من النصارى الزراع توجه لمحله وصار لجمع الباقي من مزروعاته. والآن لقد اطلعنا على تحرير وارد إلى بعض جنابهم من أحد نصارى بأن طانيوس بك شاهين مراده ضرب العاقورة بسبب أن عيال جناب الأمراء الموفى إليهم بالمحل المرقوم وحيث أننا وجنابهم الحال مصرحه اطلعنا على التقرير المرقوم، وقدمنا لجنابهم الرجا بأن هذا الأمر ربما يكون عادم الصحة. وباشرنا بتقديم لديكم لكي يكون بشريف مسامعكم، إنه أولاً لولا وجود الأمراء ببعلبك، حالنا لم يمشي قطعاً ولا بوجه مطلقاً والذي كنا نظنه من طانيوس المرقوم أنه عوضاً عن هذه المساعدة نحونا يقدم كافة الخدمات إلى عيال جنابهم حتى يزدادوا بقيام مصالحنا. والآن ظهر الأمر بخلافه فلأجل ذلك لزم نصرح... لغبطتكم لكي يصدر أمركم إلى المرقوم طانيوس يكف يد عن كذا عمل. لأن يكفي ما جرى علينا. واذا وقع أدنى انجرار، من المعلوم يصير الحال أكثر من الماضي واذا رغبنا إيضاح الذي عمال يحصل لجناب الأمراء من المساعدة لعموم النصارى يطول الإسهاب بشرحه. فالرجا في غيرتكم وحكمتكم يصنع كلما يقع فيه اللياقة مع أعيال جنابهم. اكرموا علينا بمرسوم الإيجابي لكي يصير عرضه لديهم لأجل رفع (الوسوسة) لأن أملنا بغيرتكم لنمد جنابهم كلما يلزم من المساعدة. هذا ما لزم مع عدم ابراحنا من صالح دعاكم. ونكرر لكم ما تقدم ثانياً وثالثاً»[1].

25 آب 1860م

أولادكم

وكلاء عموم زحلة

(1) إن هذه الوثيقة لا تحتاج إلى إيضاح وتعليق حول العلاقة بين نصارى البقاع وشيعته والأمراء الحرافشة (صورة الوثيقة الأصلية).

نهاية سلمان

بقي سلمان عاصياً ومتمرداً يتنقل من مكان إلى آخر حتى دخل زحلة وبات فيها ليلتين فأعلم بعض أهلها حسني بك بمكانه فأتى وحاصره في أحد بيوتها ثم قبض عليه ونقله إلى السجن في دمشق.

تفيد التقارير الدبلوماسية المرسلة إلى الحكومة البريطانية اهتمام المعتمدين والقناصل بسجنه وسعيهم إلى عدم الإفراج عنه. وكان القنصل البريطاني يرسل إلى حكومته باستمرار ما يفيد بأنه لا يزال مسجوناً حتى يخال أن استمرار سجنه هو من القضايا السياسية المهمة عند الخارجية البريطانية. ولما بدأت المساعي لاطلاقه تقترب من النجاح، بدا موقف القنصل معارضاً يعتبر أن هذه التسوية تشفّ عن قصر نظر وأنه **إذا أطلق الأمير ضم إليه أعضاء عائلته الكثيرين وأبناء طائفته المتاولة وعاد إلى إثارة الفتن التي اعتادتها هذه الأسرة فتسقط هيبة الحكومة وتخرب المحال التي تقع تحت سيطرتهم**[1].

عندما سجن سلمان استمر أخوه أسعد وابن عمه محمد في عصيانهما ودهما بعلبك فجراً ودخلا بيت الحاكم التركي فهرب واختبأ فقتلوا أربعة من أتباعه ونهبوا موجوداته من سلاح وخيل ونقود وفروا سالمين[2] إلى قرية نحلة وصعدوا في حركاتهم المناوئة للدولة في سائر أنحاء بلاد بعلبك فسار القائمقام فارس آغا إلى دمشق وعاد مصحوباً بخمسماية جندي بقيادة حسن آغا اليازجي ولكنه فشل في القضاء على الثائرين.

عندما تعثرت المساعي المبذولة لإطلاق سراحه هرب سلمان من سجنه بعد سبعة شهور، وعاد إلى بلاد بعلبك عاصياً ومطارداً حيث هاجم الحرافشة في هذه الفترة بعلبك ونهبوها، رغم نصائح القنصل الانكليزي بتعزيز حامية المدينة بعدد من الفرسان. ثم لم تلبث المفاوضات مع حسني بك والقائمقام محمد راغب أفندي أن أدت إلى عودة أسعد الحرفوش إلى الطاعة وتعيينه مأموراً على جميع المسلوب في الفتن الطائفية التي كانت على أشدها وجعلته «يوزباشي» على مئتي خيال كما أنهى الأمير تمرده وعاد إلى طاعة الدولة التي كلفته بالمهام الشاقة التي لا يمكن أن يقوم بها سواه. وقد ساهم في هذا العفو يوسف كرم الذي تدخل مع فؤاد باشا لإقراره.

---

(1) تزخر «المحررات» بالتقارير الدبلوماسية التي تدل على عداء القنصل البريطاني للحرافشة وخصوصاً سلمان ومحمد.

(2) حول هذه الحادثة راجع وثيقة سرحان الهاشم في مكان آخر.

«أثناء إقامة فؤاد باشا في إهدن وبناء على طلب يوسف كرم منح المفوض فوق العادة عفواً لكل المتمردين والمحكومين بعقوبات مختلفة من الحرافشة. إن يوسف كرم دون أن يأخذ في حسبانه ما قام به هؤلاء في حوادث 1860م دفع لهم ديناً قديماً من العرفان بالجميل وأمن تأييدهم له مستقبلاً كما أن فؤاد باشا كان يبحث عن مناسبة للعفو عن هذه العائلة وإعادة علاقتها مع الحكومة»[1].

عاد سلمان إلى القيام واقعياً بمهام حاكم بعلبك وقد عين قائداً للقوى غير النظامية التابعة لجيش عربستان.

لم يكن التقيد بأوامر الدولة والانصياع لارادتها سهلاً على سلمان الحرفوش، إن طبيعته ونشأته وتجاربه وتراث أسرته تناقض ذلك. كان يتوق دائماً إلى إمارته المغتصبة حيث يمارس سلطته مستقلاً بلا قيود، رغم أنه الأمير الواقعي وموضع الطاعة والاحترام من الجميع، إلا أن كرهه الموروث للأتراك وخبراته معهم وتاريخ قومه جعله يأخذ موقف الحذر منهم والمرتاب بمصداقيتهم.

كُلّف بحكم مناصبه الرسمية بأمور كريهة إلى نفسه منفرة لطباعه مثل مطاردة المطلوبين من أهله كمحمد وأخيه عساف عند هروبهما من المنفى وإعلانهما العصيان ثم التجائهما إلى الشيخ طعان حمادة في شمسطار[2] القرية الواقعة غربي بعلبك من أعمال جبل لبنان والخارجة عن سلطة الولاية، أو عندما أمره حليم باشا بالإغارة على الهرمل وما نتج عن هذه الغارة من ذيول محلية ودولية. فلما طلبت منه الدولة أن يرافق جردة الحج مع فرسانه خاف حوادث الدهر وأعلن العصيان مرة أخرى وليست أخيرة.

وعندما حضر حسني بك لجمع القرعة العسكرية التي لم تكن تحصل قبلاً في بعلبك تحت حكم الحرافشة وهذه هي المرة الأولى التي تعتمدها الدولة في المدينة سنة 1864م، استأمن الأمير العاصي ولكن أقاربه وأتباعه ورجاله حنقوا عليه ودعوه إلى الثورة والعصيان حيث مكانه الطبيعي المعتاد.

عاد الأمراء إلى الثورة فطاردتهم الدولة وقاتلوها في قرية الشعيبة ثم الفاكهة ثم وادي فعره وصعوداً إلى الجرود في عيون أرغش، وأخيراً وقع الأمراء حسين قبلان وفارس وداوود وتامر في الأسر فنفوا إلى أدرنة مع حريم سائر الحرافشة. أما ياغي

(1) D. D. C. T11 p144. وفؤاد باشا هو وزير الخارجية العثماني الذي سبق ذكره

(2) تاريخ بعلبك، نصر الله ص 334.

ياغي الفارس المشهور وتابعهم الأمين فشنق في بعلبك بعد أربعة أيام من أسره[1] ولم يبق من العصاة إلا سلمان وأخوه أسعد ولكن أسعد ما لبث أن أطاع وحده فنفي إلى أدرنة وبقي سلمان وحيداً عاصياً وفاراً ومطارداً ومريضاً حتى جاءت النهاية.

أمضى الأمير سلمان عامه الأخير يقاتل ثائراً مع صديقه القديم يوسف كرم الذي سعى يوماً لدى فؤاد باشا للحصول على عفو عن الحرافشة. وقد خاض معه معظم معاركه في أنحاء مختلفة من شمال لبنان.

في شباط 1866م هاجم يوسف كرم وسلمان الحرفوش بلدة غزير من ناحية البحر والجبل ولكنها نجت من التدمير بفضل الفرق العسكرية التي أرسلت لحمايتها. كما تجرأ الرجلان على مهاجمة الفرق الامبراطورية المخيمة في الزاوية[2].

جاء في تقرير الضابط الفرنسي «التاب» (AL THABE) المرفوع إلى رئيسه في وزارة الحرب الفرنسية بتاريخ 5 شباط 1866 م[3].

«ان العناصر التي تؤلف قوات كرم هي الأمير سلمان الحرفوش سيد بعلبك الذي انتزع الأتراك منه مقاطعته منذ عدة سنوات ووضعوا ثمناً لرأسه. وكنت وحيداً في زغرتا مع قوات الدرك عندما هاجم كرم والأمير حرفوش على رأس رجالهما زغرتا لاحتلالها».

وجاء في تقرير آخر رفعه قنصل فرنسا العام في بيروت إلى وزير الخارجية بتاريخ 8 آذار 1866 م[4]:

«ان ظهور الامير الحرفوش في الجبال، وما حصل في الكورة من شأنه تأخير النتائج التي نسعى اليها، وهي اخضاع الجبليين المضللين دون ان يهرعوا الى التطرف ويلتحقوا بالمقاومة المسلحة».

ان يوسف كرم لو لم يشد ازره سلمان الحرفوش لما حدثته نفسه باقل مقاومة[5]

وقد بذل مدير غزير أفندي شهاب محاولة للإيقاع بين كرم وحرفوش فأرسل

(1) ولا يزال يطلق على بعض ذريته أحياناً إسم بيت المشنوق وهم من أوجه بعلبك حتى اليوم.
(2) D. D. C. T12 P 309 .
(3) D. D. C. T12 p 315 .
(4) D. D. C. T12 p 366 .
(5) الامارة الشهابية والاقطاعيون الدروز: نسيب نكد ص37.

برقية إلى داوود باشا في 21 آذار 1866م يخبره عن عرض سلمان قتل رفيقه لقاء وعد بالعفو يضمنه قنصل فرنسا المقيم في بيروت مباشرة بعد الهجوم على غزير[1] وهي تثير الشكوك حول جديتها وصحتها والغاية من إرسالها وهي على الأرجح ليست إلا نوعاً من المناورات التي لجأ إليها الحاكمون عند عجزهم عن وضع حد لتمرد الصديقين بغية التفريق بينهما.

إن آخر معارك سلمان مع الأتراك جرت في عين عطا في جبل لبنان الشرقي على مقربة من بعلبك، انسحب على أثرها الرجلان تاركين في الميدان عدداً من القتلى والجرحى، **وقد تأكد أن كرم وحرفوش اللذين كان يعتقد بأنهما محاصران انسحبا بعد عدة ساعات برفقة ثلاثة أو أربعة رجال**[2].

«قبضت العساكر الامبراطورية على سلمان حرفوش وابن أخيه في نواحي حمص ولا أعلم المصير الذي ينتظرهما»[3].

تعددت الروايات حول مكان القبض على سلمان وظروفه، كما اختلفت حول كيفية موته وملابساته وإن كان غالب المهتمين يعتمدون على بيت في قصيدة شهيرة مغناة وردت على لسان سلمان عند القبض عليه وهي بشكل رسالة موجهة إلى أخيه أسعد الذي كان حينها في المنفى:

حسن درويش يا أسعد خان فيّ ورماني بالمهالك والردى

يقول ألوف:

«ذهب إلى بلاد حمص فارّاً فوشى عن مكانه رجل يسمى حسن درويش وكان قد رباه الأمير سلمان في صغره فوشى لهولو باشا فحضر بعسكره وقبض عليه وأرسله إلى دمشق وتوفي في السجن بعد ثلاثة أيام في عهد القائمقام محمد بك اليوسف»[4].

بعد معركة عين عطا تفرق رجال سلمان وهرب هو إلى زيتا وهي قرية صغيرة

(1) D. D. C. T12 P 348.
(2) D. D. C. T12 P 351 .
(3) من تقرير القنصل الفرنسي العام في بيروت M. Des Essards إلى حكومته في 23 نيسان 1866م. D. D. C. T12 P360
(4) تاريخ بعلبك، ألوف ص 52.

تقع على الحد الفاصل بين بلاد حمص وبلاد بعلبك شمالي الهرمل على بعد عدة أميال منها، في وسط أملاك الحماديين التي ساءت علاقته بهم بعد غارته على الهرمل تنفيذاً لأمر حليم باشا فأنفت نفسه الأبية أن يقصدهم لاجئاً مع سوء العلاقة وهم أخواله كما كانت عادة أهله في الظروف العصيبة، ولعله كان ينتظر فرصة مناسبة أو أن يعلموا بوجوده من فلاحي القرية.

أصابه مرض الجرب فاختفى في مغارة منعزلة مع خادمه حسن درويش وابن أخيه فَدْعَمْ الفتى الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره. فأرسل خادمه إلى حمص ليجلب له دواء فعاد مع الجند طمعاً بالمكافأة فأسر وقيد على فرسه ونقل إلى دمشق سجيناً بينما نجا ابن أخيه ليروي ما حدث.

تدارس قناصل الدول في دمشق موضوع سجنه وقرروا زيارة الوالي صباحاً للتباحث بشأنه فلما علم الوالي بعزمهم سارع إلى قتله ليلاً خوفاً من مطالبتهم بإطلاقه أو بالحفاظ على حياته[1].

قتل الأمير سلمان بيد الأتراك كمعظم آبائه وأجداده بعد أن تشتت الحرافشة بين قتيل ومنفي في كريت وأدرنة والأناضول ومصر وغيرها من الأمصار التي قلما سمع باسمها من بقي منهم في بلادهم. ولا يزال الناس بعد فَقْد كل رجل خطير الشأن عظيم القدر يخشون من الفراغ الذي سيخلفه، يرددون مع سلمان أو مع من قال على لسانه هذا البيت الذائع من الشعر الذي قل من لا يحفظه ويردده من أهالي بلاد بعلبك والهرمل وسكان البوادي والمدن حتى حلب والجزيرة.

يا ذُلِك يا بعلبك بعد سلمان   صرتي مراح لخيول العدا

(1) هذا ما روته عن نهاية الأمير سلمان إبنة أبن شقيقه ورد الحرفوش وهي آخر أميرات الحرافشة من القرن الماضي. عاشت في بيتنا وكانت تحن إلى أخبار أهلها وذكراهم فخورة بذلك. وتذكر أن إحدى نساء الأمير سلمان وكانت تعيش في اسطمبول زارت بعلبك لبعض شؤونها في مستهل القرن العشرين فاستقبلت بما يليق بمثلها من أهل المدينة ومكثت فيها إسبوعين.

بين الولاية والمتصرفية

على امتداد قرون عديدة كان يبدو أن هناك حلفاً واقعياً وثابتاً يحكم العلاقات بين العائلتين الشيعيتين القويتين، حرفوش وحمادة والذي انحصر الحكم الشيعي بهما منذ ما قبل الفتح العثماني في ولايتي طرابلس ودمشق بعد انفصال سنجق صفد وإلحاقه بولاية صيدا المستحدثة، حتى توهم بعض المؤرخين الأجانب أن الأسرتين من أصول واحدة قدمتا إلى لبنان معاً فأقامت إحداهما في بلاد بعلبك والبقاع بينما انتشرت الأخرى في جبال لبنان الغربية حتى أطراف بلاد بعلبك عند منبع العاصي[1] والواقع إن ما يجمعهما على هذا الصعيد أنهما قدمتا من منطقة واحدة وراء الفرات من عشيرتين متجاورتين تنتميان إلى مذهب واحد[2] بقي يساهم مع عوامل أخرى متطابقة في الكثير من تحديد مظاهر وجودهما السياسية والعامة وغالباً ما قاتلا معاً في جبهة واحدة، في وجه عدو واحد وتعرضتا لظروف وتعقيدات تحمل ما لا يحد من عناصر التشابه والتماثل قد يبلغ حد التطابق أحياناً.

قام نظام المتصرفية في جبل لبنان بضمانة الدول الأوروبية الكبرى في ذلك الوقت وبقيت بلاد بعلبك تؤلف جزءاً من ولاية دمشق بينما ألحقت الهرمل كما كانت دائماً بجبل لبنان. وفي الفترات النادرة التي لم يكن فيها الأمير سلمان ثائراً على والي الشام كانت السلطات تسند إليه مهمات ومناصب إدارية وعسكرية تحاول من ورائها أن تثنيه عن رفع سلاحه بوجهها بعد أن عجزت أن تأمن شر هذا السلاح بطرق أخرى. وبحكم إحدى مناصبه هذه قام سلمان بناء على أوامر المشير حليم باشا سرعسكر ولاية سوريا بغارة على الهرمل أملتها تجاذبات السياسة الدولية فيما بين أقطابها من جهة وبينها وبين الدولة العثمانية من جهة أخرى.

يشرح القنصل الفرنسي الانعكاسات الدولية لهذه الحادثة العادية التي حولتها الأغراض السياسية إلى أمر خطير له بُعْدٌ دولي ساهم في وضع حد لنفوذ أسرة تاريخية عريقة كانت محور أحداث جسام طيلة أكثر من أربعة قرون.

يمكن متابعة مراحل هذه الحادثة العادية في مظهرها والمعقدة من حيث نتائجها في

(1) جبل لبنان. تشرشل ص 151.
(2) سوريا ولبنان وفلسطين. بازيلي ص 45.

وثائق رسمية ثلاث: تقارير القنصل الفرنسي، موقف الدولة العثمانية المعلن على لسان معتمدها قبولي أفندي وموقف الحكومة الفرنسية في رسالة وزير خارجيتها (توفونيل).

جاء في تقرير القنصل الفرنسي العام في بيروت «اوتري» (OUTREY) إلى السيد «توفونيل» (THOUVENEL) وزير الخارجية بتاريخ 19 تموز 1862م[1]:

«حدث في لبنان حادث خطير أرى نفسي مضطراً إلى إبلاغه لسعادتكم: منذ عشرة أيام علمت أن سلمان الحرفوش يقوم بحملة في قضاء بعلبك وأن مهمته أن يقوم بعمليات في لبنان ترمي إلى توقيف عدة أشخاص مطلوبين من مشير دمشق. اعتقدت أن هذه الأخبار مغلوطة وأعترف أنني لم أعرها اهتماماً كبيراً لأنني اعتدت على مبالغات السكان في سوريا. ليل أمس فوجئت كثيراً لدى علمي أن حملة سلمان الحرفوش قد اتجهت نحو الهرمل ولم يتمكن في المرة الأولى إلاّ من توقيف شخص واحد أطلق سراحه بعد هجوم الأهالي على جماعته وأنه عاد إلى العمل بعد أوامر جديدة وصارمة من حليم باشا، وقد سقط في الهجوم على برج الهرمل أربعة قتلى أو جرحى وتمكن سلمان من توقيف أربعة من الأهالي قادهم إلى دمشق. بدا لي أن هذا الخرق لحدود الجبل خطير ورأيت من واجبي أن أرسل إلى قبولي افندي المذكرة المرفقة وكنت أفضل أن أتخذ هذه الخطوة بعد الاتفاق مع ممثلي القوة العظمى في بيروت ولكن وكيل السلطان ملزم بالذهاب إلى حلب هذا المساء ولم أشأ أن أضيع لحظة واحدة قبل اطلاعه على تطورات القضية ووجهة نظري فيها.

عند استلامه رسالتي جاء قبولي أفندي لمقابلتي ولم ينفِ الوقائع ولكنه حاول أن يخفف من خطورة تصرف حليم باشا بأن يشرح لي أسباب هذه الحادثة على الوجه الآتي:

«يبدو أنهم أبلغوا المشير بوجود بعض المشبوهين في الهرمل عند عامل الناحية المتوالي[2] وخصوصاً الهاربين من الجندية وأن طلب تسليمهم من داوود باشا[3] لم يؤدِ إلى نتيجة لأن حاكم لبنان العام لم يتمكن من القبض على المطلوبين لعجزه أو لعدم رغبته أو لعدم تواجد الأشخاص أصلاً في البلاد. تختلف الروايات حول هذا الموضوع باختلاف مصادرها».

(1) D.D.C T11 P712.

(2) الشيخ محسن حمادة.

(3) متصرف جبل لبنان المقيم في بعبدا.

بعد عدة أيام من المراسلات قرر حليم باشا القيام بهذا الأمر بنفسه متجاوزاً داوود باشا وأنظمة الجبل ونظم في السر الإجراء الذي أطلعكم عليه.

أعرب لي قبولي أفندي عن مدى أسفه لأن اجراءات متسرعة تتخذ دون استشارته ولم يتردد في الاعتراف بمعارضته لها ولم يعدني شيئاً لأنه يبدو أن لا سلطة له على المشير ولكنه وعدني بأن يكتب إلى حليم باشا ليستدعي سلمان الحرفوش من بعلبك.

لدي بعض الأفكار السيئة حول هذا القائد المتوالي. يجب أن أعترف أننا لا نستطيع تجريمه لأنه خالف أوامر رؤسائه. إن قائد جيش عربستان وحده هو المسؤول عن خرق حدود الجبل.

في 19 تموز أرسل القنصل العام مذكرة رسمية إلى قبولي أفندي المفوض غير العادي للباب العالي في سوريا[1].

«منذ عدة أيام علمت أن الأمير سلمان رئيس الفرق غير النظامية في بعلبك تلقى أوامر سرية من دمشق بجمع ما يمكنه من الرجال والذهاب إلى لبنان لتوقيف عدة أشخاص محددين وخصوصاً الشيخ محسن وتبيح له التعليمات استعمال السلاح عند الضرورة.

لقد تأكدت أن الأمير سلمان خرق حدود لبنان على رأس مئتي رجل واحتل برج الهرمل في أراضي الجبل وأن عدة قتلى أو جرحى سقطوا ونقل أربعة موقوفين إلى دمشق. في الواقع إن سكان الهرمل طلبوا العدالة من حكامهم المباشرين وليس من غير الممكن في حال عدم الاستجابة من أن يسعوا إلى الأخذ بثأرهم بقواهم الخاصة وذلك بالقيام بغارات على الحرفوشي وجماعته في سهل بعلبك نفسه، وفي حال حدوث ذلك لا يمكن التكهن بنتائج ذلك على الجبل وسيعتبر أهالي الهرمل عندئذ في حالة الدفاع المشروع عن النفس».

وجاء في مذكرة قبولي الجوابية:[2].

بيروت في 22 محرم 1279هـ (19 تموز 1862م)

«كتبت هذا الصباح للقائد العام وعلمت مثلكم أن الهرمل هي برج نائي موجود على حدود الجبل وأن رئيسه الشيخ محسن يمنح ملجأ للهاربين من الجيش الامبراطوري وأن سلمان الحرفوش دخل لتوقيفهم ولكن الشيخ محسن شرع بالمقاومة رافضاً تسليم المطلوبين وأن الجنود المرافقين للأمير سلمان قاموا ببعض أعمال العنف.

(1) D. D. C. T11 P 220 .

(2) المصدر السابق. يلاحظ أن رد السلطات العثمانية جاء في اليوم ذاته لتاريخ المذكره الفرنسية.

إن حكومة جلالته تتجنب كل ما من شأنه المساس بالأنظمة التي تحكم جبل لبنان. وسأعالج هذا الموضوع مع داوود باشا».

وجاء في رسالة وزير الخارجية الفرنسية[1]:

«إن الإعتداء ضد الهرمل الذي قام به سلمان الحرفوش بأمر من حليم باشا يعتبر في الواقع خرقاً دولياً لحدود لبنان. وقد طلبت من سفيرنا في اسطمبول أن يتقدم من الصدر الأعظم طالباً إليه الاحترام الدقيق لامتيازات لبنان المكرسة في الاتفاقات الأخيرة.

ويبدو لي أن أفضل ما يمكن المطالبة به هو تعويض عائلات الضحايا لأن سكان الهرمل كانوا في حالة الدفاع الشرعي عن النفس ومن شأن ذلك أن يكرس مبدأ عدم خرق حدود الجبل في نظر الجميع». ثم يضيف الوزير أن مباحثات تجري لنشر **ضباط فرنسيين على حدود الهرمل بعلبك بين لبنان والولاية لمراقبة التجاوزات ومنعها.**

إن هذه الحادثة الدولية الخطيرة التي كانت محور اتصالات وتجاذبات واسعة بين مختلف وزراء خارجية الدول الكبرى حينها والسلطات العثمانية بما فيها الصدر الأعظم نفسه لها على الصعيد المحلي أسباب ومعنى ونتائج مغايرة تماماً.

في منتصف القرن التاسع عشر اشتد اتجاه السياسة العثمانية في لبنان نحو التخلص من نفوذ بقايا الأسر الحاكمة القديمة وتنصيب موظفين من الإدارة العثمانية كمتسلمين وقائمقامين مكانها. فبعد زوال الحكم الشهابي في الجبل عينت ولاية دمشق قائمقامين من الأتراك حكاماً على بعلبك وبلادها. حيث كان هناك أسرتان تتقاسمان النفوذ والعصبية هما الحرافشة أمراء بعلبك الدائمين والحماديين الذين تكاثروا في بلاد بعلبك بعد الهجرة من جبل لبنان وأصبحت الهرمل المجاورة مركز القيادة والولاء لجميع الحماديين حيثما وجدوا. ورغم علاقات التحالف والمصاهرة بين الأسرتين كان لا بد أن تظهر بذور الازدواجية في استقطاب السلطة والولاء. استغلها موظفو الباب العالي للإيقاع بينهما خصوصاً بعد أن ظهر أن القضاء على سلطة الحرافشة والأمير سلمان تتطلب جهوداً عسيرة غير مضمونة النتائج، فسعت إلى ايقاع الصدام بين الأسرتين رغبة بالتخلص منهما معاً أو من

(1) D. D. C. T11 p226.

الأمير الحرفوشي المتمرد المتعب والمشاكس، فدفعته إلى القيام بهذه المغامرة الشائكة التي أثارت مشكلة سياسية على الصعيد الدولي لم تكن في حسابات حليم باشا ومساعديه.

كان شيخ الهرمل زعيم الحماديين يصطاف في مضاربه في السفوح المشرفة على بلدة الهرمل حينما داهمه سلمان بمن استطاع جمعهم من رجال البقاع وقسم منهم ينتمون إلى العشائر الحمادية المقيمة في بلاد بعلبك رافقت الأمير دون إبلاغها وجهة الهجوم وهوية الهدف، وتحت إمرته إلى جانب المقاتلين غير النظاميين فرقة من العساكر العثمانية وأوامر من حليم باشا القائد العام للجيش العثماني في ولاية سوريا بتنفيذ الهجوم ودعمه وتغطيته. لم يكن الشيخ محسن متحسباً لهذه الغارة المفاجئة لكنه قابل مهاجمه بالعدد القليل من أقربائه والعاملين في داره من «خز متكاريه»[1] وأجبرهم على الانسحاب بعد أن انشق عن صفوف المهاجمين الفرسان من العشائر حينما أدركوا هدف الهجوم وغايته[2].

أدت هذه الغارة كما توقع القنصل الفرنسي إلى أن يأخذ الحماديون ثأرهم[3] بقواهم الخاصة من خلال غارات على الحرافشة في سهل بعلبك نفسه، أهمها غاراتهم على عيون ارغش ومداهمتهم لعدد من الأمراء ولم تنته هذه الغارات إلا بانحسار الوجود الحرفوشي الفعال عن البقاع وبلاد بعلبك نهائياً.

السقوط

بعد ثورات متلاحقة وحروب مضنية مع العساكر العثمانية توالت الخطوب على الحرافشة خصوصاً بعد ثورة الأمير محمد وهجومهم الجسور على دمشق وسقوط أهم أمرائهم في معركة معلولا بين قتيل وأسير سنة 1850م وما أعقبها من غدر مصطفى باشا بمن تبقى منهم وارسالهم إلى المنافي البعيدة في أرجاء الامبراطورية. وأمضى أمراؤهم الذين نجوا من القتل أو الأسر آخر أيامهم كسلمان وحمد ومحمود يواجهون قوة لا قدرة لهم عليها. ومن الملفت أن المعتمدين الانكليز كانوا يدفعون السلطات

(1) إسم يطلق على الأعوان المسلحين.
(2) كانوا يجهلون أن الحملة تستهدف الشيخ محسن وهم يرتبطون به بولاء عشائري يمنعهم من مقاتلته.
(3) وهذا ما أيده وزير الخارجية الفرنسي مسيو توفونيل M.THOUVENEL في رسالته المذكورة انفاً والمؤرخة في 22 آب 1862م. هاجم الحماديون مناطق الحرافشة رداً على انتهاك سيادة الجبل. عنوان بحث في جريدة الديار عدد 18 آذار 2000 . انطوان شعبان.

العثمانية باتجاه القضاء على الحرافشة واستئصالهم من سوريا كلها غيرة على مصلحة هذه الدولة وأمنها كما يقولون[1]، وكانت إنكلترا في هذه الفترة أهم حلفاء السلطان وأكثرهم نفوذاً على إدارته، فبدا أن الموقف الدولي يكاد يجمع على معاداة آل الحرفوش، وإنزال العقاب بهم، والتخلص من وجودهم في لبنان. فإن الدول الكبرى الفاعلة بريطانيا وفرنسا والدولة العثمانية المختفلة على معظم الأمور المتعلقة بلبنان والمتنافسة على النفوذ فيه، قلما اتفقت على أمر كاتفاقها على الخطر الذي يمثله آل الحرفوش على مصالح كل منها[2] رغم أن الدولة العثمانية وفرنسا لأسباب مختلفة أعادت النظر في هذا الموقف لاحقاً وبعد فوات الأوان.

كان القنصل الإنكليزي يقترح على حكومته ضرورة القبض على كل فرد من أسرة حرفوش، بسبب قوتهم وظلمهم وثوراتهم، وأبعاد أميرهم عن كل سوريا[3].

بينما يعرب القنصل الفرنسي عن مخاوفه إلى حكومته من أن تشكل هذه العائلة تهديداً للقوات الفرنسية المرابطة في لبنان بتوجيه من المنافسة الأولى لدولته وهي انكلترا.

كتب القنصل الفرنسي العام في بيروت الكونت بونتيفوغليو Le Comte Bentivoglio إلى وزير خارجيته توفونيل بتاريخ 9 أيلول 1860م.

1 ـ لم تنقطع تحركات سعيد بك[4] وسائر زعماء الدروز التي تكاد تكون يومية إلى القنصلية الإنكليزية، أن تأكيد الحماية والنصائح المعطاة جعلت هؤلاء الشيوخ أكثر اطمئناناً مما كانوا عليه منذ بضعةأيام.

لقد أكدوا لي أن هجرة الدروز نحو حوران توقفت[5] **ولا يفكرون، إلا بنوع من التحالف الذي أوشك أن يبرم مع متاولة بعلبك لمقاومة أي هجوم فرنسي يشن عليهم بالتعاون مع الفرق العثمانية.**

---

(1) راجع تقارير القنصل الانكليزي برانت حول ضرورة الخلاص من الحرافشة (مذكور في مكان سابق).

(2) تقارير القنصل البريطاني وتقرير القنصل الفرنسي عن التحالف الحرفوشي الدرزي وتصريح فؤاد باشا في محاضر اللجنة الدولية الذي تناول آل الحرفوش، يصبون جميعاً في هذا الإتجاه.

(3) المحررات الخازن ص 353 مذكور بكامله في مكان آخر.

(4) الزعيم الدرزي سعيد بك جنبلاط.

(5) هرب الكثيرون من الدروز إلى حوران هرباً من الملاحقة والعقاب بعد وصول الجيوش الفرنسية إلى لبنان وتأليف اللجنة الدولية المنوط بها معالجة ذيول حوادث 1860م.

إن المتوالي حسن همدر[1] عضو مجلس القائمقامية المسيحية يقوم بالوساطة بين أمراء بعلبك الحرافشة والمقاطعجية الدروز في لبنان ليصلوا إلى هذه النتيجة[2].

إن الحماس الذي أبداه القنصل الإنكليزي في متابعة حملة حسني بك للقبض على الأمير سلمان وطلب المكافأة له من السلطات الإنكليزية من أجل ذلك، وهو ضابط عثماني قام بما هو من صلب مهمته في خدمة دولته. يثير التساؤل عما إذا كان هذا العمل خدمة مدفوعة الأجر بناءً على طلب دولة أجنبية.

إن القنصل الفرنسي قلق من نجاح الوساطة التي قد تؤدي إلى قيام جبهة عسكرية في وجه القوات الفرنسية المرابطة في لبنان.

وهكذا أصبح القضاء على الحرافشة مصلحة مشتركة بين الدولتين اللدودتين.

ويبدو أن الدولة العثمانية وعلى لسان وزير خارجيتها تبادل انكلترا وفرنسا موقفهما السلبي نحو هذه العائلة وأنها ترى وجوب معاقبتها.

في إحدى اجتماعات اللجنة الدولية طرح المندوب النمساوي السيد فيكبيكر weckbeecker سؤالاً يتعلق بالعقيد حسني بك حيث أثارت عضويته في هيئة محكمة بيروت غير العادية فضيحة نظراً للتهم الموجهة إليه حول ما أتاه حين كان قائداً لحامية بعلبك.

وقد أجاب فؤاد باشا أن أية تهمة صريحة لم توجه إليه حتى الآن وأن سلوكه سيخضع لتحقيق دقيق وسيتم ابعاده عن منصبه في المحكمة مؤقتاً والذي يبدو له أن طبيعة الذنب المنسوب إليه أقل خطورة من ذلك المنسوب إلى بعض أفراد عائلة حرفوش[3]

تضافرت عوامل عدة للتعجيل في طي صفحة من تاريخ الشيعة في البقاع تعود إلى أربعماية عام خلت. أولها اتفاق الرأي الدولي الممثل بانكلترا وفرنسا أكثر الدول نفوذاً في هذه الحقبة، مع رغبة الدولة العثمانية، في الخلاص من هذه العائلة بالإضافة إلى

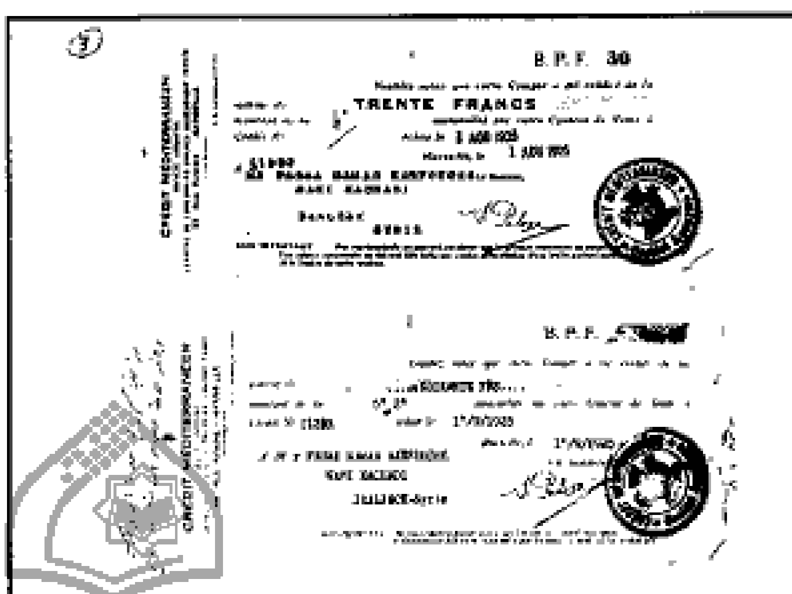
(1) هو حسن همدر حمادة من الحصين في كسروان (مقاطعات جبل لبنان رياض غنام ص 289 وقد سبق ذكره.

(2) D.D.C T10 p256.

(3) لجنة بيروت الدولية المحاضر الكاملة الأب انطوان ضو ص 62 ـ 63 أيضاً . D.D.C. T10 p320
ويبدو أن ممثلي فرنسا وبريطانيا وتركيا أجمعوا على اتخاذ موقف سلبي من هذه العائلة.







سند رسمي بالمعاش

نمرة القايمة	٧٩٢
الاسم والشهرة	
اسم الاب	
قيمة المعاش	
تاريخ التخصيص	
تاريخ ومحل الولادة	
نوع المعاش	

صورة فرمان تخصيص الراتب بدل أملاك مضبوطة. وأوامر دفع تركية وفرنسية ولبنانية.

خصصت الدولة العثمانية لكل فرد من الحرافشة راتباً شهرياً بدل املاك العائلة التي صادرتها الدولة بكاملها.

وقد بقيت الحكومات المتعاقبة تدفع لهم هذه الرواتب في عهدي الانتداب والاستقلال.

عاملين داخليين مهمين أولاهما الحرب الطائفية التي بدلت مقاييس كثيرة وتحالفات تقليدية ودعم مسيحي كانت كلها من المسلمات السياسية في هذه المنطقة. والعامل الثاني جبهة شيعية لم يعد تماسكها التاريخي مؤثراً بفعل المستجدات والتدخلات والآثار التي خلفتها الحوادث الطائفية وتشعباتها وانعكاساتها وآثارها السياسية والنفسية أيضاً.

تمكنت السلطة أخيراً من التحكم في مصير الحرافشة وهو أمر عجزت عنه طويلاً فيما مضى. حتى حريم الأمراء وصغارهم لم ينجوا من مشقة الأسى ومعاناته. فقبضت الدولة عليهم وأرسلتهم إلى بلاد لم يسمعوا بها قط قبل ذلك كأدرنة وكريت ومجاهل الاناضول[1] إضافة إلى تشرد بعضهم في دمشق والقاهرة وسائر مدن ومناطق الامبرطورية، ولم يبق في هذه العائلة غير بعض أفراد ساكنين في القرى لا أهمية لهم كما يختم ألوف تاريخه عن أيامهم الغابرة[2]. وقد صادرت الدولة أرزاقهم وبيوتهم وأملاكهم[3] وخصصت لكل فرد منهم راتباً أسمته بدل أملاك مضبوطة بقي المورد الوحيد للمشردين منهم في مختلف مناطق الامبراطورية حتى سقوط الخلافة العثمانية سنة 1924م[4] أما القلة التي بقيت في بلاد بعلبك في لبنان فقد استمرت الدولة المنتدبة تدفع لهم مرتباتهم حتى الاستقلال[5] وبقيت أملاكهم مصادرة رغم بعض المحاولات القضائية لاستعادتها. وقد توهم بعض المؤرخين أن من ذرية هذه العائلة من تخلى عن تشيعه واستبدله بمذهب آخر وهذا قول لا صحة له رغم أن هناك من يحمل الإسم نفسه دون أن تجمعهم معه أية رابطة من قرابة أو نسب وإنما هو تشابه في الأسماء وحسب. فقد زعم أحد المؤرخين أنهم تنصروا[6] وقال آخر أنهم تظاهروا بالدرزية[7] وبالغ ثالث فزعم أنهم تظاهروا بالتشيع[8]، وكل ذلك ليس له أساس في تاريخ أو منطق أو واقع. فالحرافشة شيعة قبل قدومهم إلى لبنان من جنوبي العراق قبل الفتح العثماني وقد استمروا على تشيعهم رغم ما عانوا لأجل ذلك من عنت وعناء دون أن يشذ واحد منهم عن هذا المذهب. وقد عانى الشيعة في بلاد بعلبك بعد غيابهم حالة من

(1) تاريخ بعلبك، ألوف ص 52.
(2) تاريخ بعلبك، الوف 53.
(3) راجع الكشف الذي يتناقله الحرافشة عن أملاكهم المصادرة.
(4) راجع عريضة أحد الحرافشة من سكان مصر التي رفعها إلى الملك فاروق سنة 1941م.
(5) تنازل الحرافشة عن مرتباتهم لقاء مبلغ مقطوع دفعته الحكومة اللبنانية لكل فرد منهم. وثيقة c4.
(6) فخر الدين المعني الثاني، الخوري بولس قرالي ص 44.
(7) مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، رياض غنام ص 179.
(8) أسد رستم، آراء وأبحاث ص 53 ـ 104.

الضعف والتراجع لاحظها قنصل عام فرنسي عمل في بيروت بعد أكثر من عقد على نفيهم فكتب إلى حكومته.

إن القسم السوري الذي يمتد في الشمال حتى الهرمل وفي الجنوب نحو جبل الشيخ. ومرتفعات راشيا وحاصبيا والتي تحوي السهول الخصبة في البقاع وبعلبك ذات أهمية كبيرة بموقعها الجغرافي بين لبنان و«انتي لبنان» (الجبل الشرقي) وبسكانها.

كان قضاء بعلبك فيما مضى تحت التبعية المطلقة للمتاولة ولكن شيئاً فشيئاً أخذ المسيحيون يحلون مكانهم فإذا لم تتوقف هذه الحركة فمن المرجح بعد عدة سنوات أن يأخذ الروم مكان عدة آلاف من المتاولة لا يزالون في هذه النواحي.

ومن أجل إقامة التوازن بين الطائفتين قام مدحت باشا بجهود ناشطة في القسطنطينية حتى يحصل على العفو لصالح العائلة الشديدة الأهمية حرفوش التي سادت قبل نفيها، في قضاء بعلبك.

إن سهول البقاع التي كان قسم منها ملحقاً بلبنان منذ عدة سنوات هي حالياً وبشكل كامل بين يدي المسيحيين وخصوصاً الموارنة[1]. إن هذا السهل الذي فيه ماية وأربعين قرية يدفع مليون فرنك ضرائب مع أن نفقاته الإدارية لا تتجاوز 75 ألف فرنك وفيه ثلاثين مدرسة بروتستانتية[2].

نال الحرافشة من تجاهل المؤرخين اللبنانيين المعاصرين والمتأخرين ما نال سائر أبناء طائفتهم في مناطق أخرى.

إن هذه العائلة التي حكمت قسماً كبيراً من لبنان - ربما هو القسم الأكبر مساحة وسكاناً[3] وجباية[4]، بالاضافة الى المناطق الوسطى من سوريا في فترات كثيرة. ونبغ من أهلها بالإضافة إلى ميادين السيف والحكم والسياسة، أعلام في العلم والفقه والشعر ما لا يمكن طمسه من كتب التراجم، ودواوين الشعر، والذاكرة الشعبية الباقية رغم السنين، وإن ما خلفوه من آثار لا تزال باقية، من القلاع والحصون والمرابط والمساجد

(1) بعد نفي الحرافشة ومصادرة أملاكهم تمكنت بعض العائلات المسيحية، ومعظمهم من الذين كانوا يعملون في خدمة الحرافشة والاهتمام بأمورهم المالية والكتابية، من الحصول على ملكية القسم الأكبر من الأملاك المصادرة عن طريق الإدارة العثمانية.

(2) D.D.C T14 p.226

(3) راجع جداول السكان والمساحة في فصل آخر.

(4) لبنان في القرن السادس عشر، عصام خليفة، جدول الجباية في بعض النواحي اللبنانية ص 61.

جدول قديم بأملاك حرفوشية مصادرة في البقاع.

عريضة مرفوعة إلى الملك فاروق من أبناء الحرافشة الذين نفوا إلى مصر.

والأوقاف. وقد كانت بعلبك وبلادها من أغنى مناطق سوريا أوقافاً وحبوسات على المدارس والمشاهد داخل البلاد وخارجها، بما فيها الحرمين الشريفين وكان الأمراء الحرافشة يقومون، بالإضافة إلى مهامهم في الحكم، بالولاية الشرعية عليها. لم يجد أحد أوائل المكلفين والمتبرعين المساهمين بوضع أول تاريخ شبه رسمي عن لبنان[1] ما يقوله في الإشارة إلى هذه العائلة وتاريخها الذي استمر أكثر من أربعماية عام سوى أنها: «**عائلة من الشيعيين بجوار بعلبك، يخاف سطوتها عابرو الطرق وسكان سهل البقاع وهي عائلة الأمراء الحرافشة**».

وهذا هو حال معظم زملاء هذا المؤرخ الذي أدخل كفيره في صلب التاريخ اللبناني الكثير مما وضعته مخيلته الخصبة وحدها، فانخدع به الكثيرون جهلاً أو تجاهلاً وساروا على منواله. والغريب أنه لولا رغبتهم وحماسهم في إبراز بطولة فخر الدين وأمجاده لكان نصيب هذه العائلة من الذكر في مجرى الأحداث أقل بكثير. فأمجاد الأمير بحاجة إلى قلاع تسقط، وقرى تدمر، وأرزاق تنهب وخصوصاً أمراء يهزمون. من هنا كان للحرافشة دوراً يؤدونه في تاريخ لبنان. ولو أردنا التوقف عند مثل هذه الهنات. لوجب علينا مناقشة الجزء الأكبر من التأريخ اللبناني الكلاسيكي، عندما يأتي على ذكر الحرافشة أو غيرهم من الشيعة اللبنانيين. حتى أن صحة تشيع هذه العائلة، وتعلقها بمذهبها، تعرض للكثير من الأوهام التي حاولنا عبثاً أن نجد لها مبرراً ولو باطلاً في صفحات التاريخ، باعتبار أن من اشاعه وروجه هم من جهابذة هذا العلم وكبار رجاله.

يقول أسد رستم

تظاهر الأمراء الحرافشة بالإنتماء إلى الشيعة ليسايروا سكان المنطقة التي تولوا أمر اقطاعها[2].

«وقال آخر مجتهداً ليوضح كيف أصبح الحرافشة دروزاً؟

إن بلاد بعلبك التي يحكمها الأمراء الحرافشة، كانت تخضع لسلطة آل تنوخ ولا

(1) لبنان مباحث علمية واجتماعية الجزء الأول لجنة من الأدباء بهمة اسماعيل حقي بك متصرف جبل لبنان والمؤرخ هو الأب بولس نجيم مذكور سابقاً (م. 1931).

(2) آراء وأبحاث أسد رستم ص 104.

يستبعد أن يكون الحرافشة قد اعتنقوا الدعوة التوحيدية إرضاء لسادتهم[1]».

ولم يقتنع الأب بولس قرالي أنهم كانوا سنة أو دروزاً فكان له رأي آخر.

«عمرت البلاد واينعت الأراضي، وجر تيار المسيحية حكامه أنفسهم، من آل شهاب المسلمين، وحرفوش الشيعي، فتنصروا، وأصبح لبنان معقل الكاثوليكية في الشرق»[2].

إن مناقشة مذهب الحرافشة هو عبث لا طائل منه (فالرفض) لازمهم منذ العصر المملوكي ودفعوا من أجله ثمناً باهظاً في العهد العثماني. ولم يشذ عن هذا المسلك واحد منهم في القديم والحديث.

وقد فات المؤرخ رستم أن مدينة بعلبك لم يكن من أهلها شيعي واحد بعد نحو قرن على حكم الحرافشة في أيام الأمير علي.

سكان مدينة بعلبك[3]
في منتصف القرن السادس عشر

سنة	10614
نصارى	1182
يهود	174
شيعة	لا يوجد
دروز	لا يوجد
المجموع	11970

(1) مذكور سابقاً غنام.
(2) مذكور سابقاً الأب بولس قرالي ص 44.
(3) راجع جداول السكان والمساحة في فصل آخر.

الباب الخامس

الحكم الشيعي في جبـل عامـل



الفصل الأول: بنو وائل

الفصل الثاني: جبل عامل في ظل التزام فخر الدين سنجق صفد

الفصل الثالث: الثورة الكبرى

الفصل الرابع: ناصيف النصار

الفصل الخامس: حرب الطياح

الفصل السادس: الحكم المصري في جبل عامل

الفصل السابع: نهاية الحكم الوطني


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الأول

بنو وائل

بنو وائل[1] الذين عُرفوا بعد فترة ببني بشارة، فسمّي جبل عامل باسمهم، ثم حملوا اسم علي الصغير، أحد رجالهم، وبعدها، ببني نصار وأخيراً اشتهروا ببني الأسعد، هم عشيرة من بادية نجد تنتسب إلى السوالم من عنزة[2] هاجرت إلى جبل عامل في وقت مبكر من العصر المملوكي أو قبله بقليل، في تاريخ لا يمكن الجزم به، واستقرّت في جنوب بلاد بشارة وأقامت مضاربها على تلّة، حيث تقوم الآن قرية عديسة، وما لبثت ان سادت على غيرها وحكمت جبل عامل أو بعضه في صورة مستمرة تخللها بعض فترات الإنقطاع المتباعدة حينما ترغم على الانكفاء أو الاختفاء لتعود بعد حين إلى الظهور من جديد، تتأرجح بين القوة والضعف وبين السؤدد والعناء وقد اتخذت مراكز حكم متعددة وأقام شيوخها في قلاع وحصون، أهمّها قلعة تبنين مقرّ الحاكم العام وشيخ المشايخ صاحب السلطة الأولى على باقي أبناء عشيرته وغيرهم من الحكّام والسكّان. وقد بقيت هذه القلعة مقرّ إقامة بعضهم إلى عهد قريب[3].

هذا ما تكاد تجمع عليه معظم المصادر المعروفة، وهو المتواتر عند الناس. وقد أسهب المؤرّخون العامليّون في تفاصيل نسب هذه الأسرة، وأسماء النابهين من أفرادها، قديماً وحديثاً، وعلاقتها ببني بشارة، ودورها القيادي في جبل عامل، بعد خضوعه للعثمانيين وتقدّمها صفوف المقاومين لسلطانهم، أو المدافعين عن شخصيّته الخاصة، بوجه الطامحين إلى السيطرة عليه والقضاء على خصوصيته وتميّزه.

(1) بطن من ربيعة من العدنانية تفرّع إلى بكر وتغلب وعنزة.

(2) بطن من أسد بن ربيعة.

(3) آخر من ولد في هذه القلعة نزيه ابن شبيب باشا الأسعد توفي عام 2005 وقد زار هذه القلعة وكانت لا تزال عامرة السيد محسن الأمين أثناء الحرب الأولى، أعيان الشيعة، ج 11م، ص 278.

ـ تداخل تاريخ هذه الأسرة بتاريخ جبل عامل بحيث يصعب الفصل بينهما. فأيام قوّتها ومنعتها هي الفترات المجيدة في تاريخه، وأيام بؤسها وتقهقرها هي الفترات السوداء في مسيرته، والعكس صحيح. كما لو أن القدر التاريخي ربط بينهما طيلة هذه القرون المتعاقبة.

ـ كان ابن بشارة في العصر المملوكي، من كبار رجال الدولة والحكم، يشغل عدّة مناصب قيادية في الأجهزة المدنية والعسكرية، في نيابة دمشق بالإضافة إلى كونه حاكماً عاماً على جبل عامل ورئيس العشائر فيه أو مقدم العشير كما هو لقبه الرسمي. وقد يكون أحياناً «مقدم التيامنة»، مما يفيد أنه يحكم وادي التيم أيضاً لأن النطاق الجغرافي لهذا الإقليم كان يشمل منطقة من جبل عامل أوسع مما اقتصر عليه فيما بعد وفي جميع الحالات هو المدافع المباشر عن البلاد التي يحكمها التي قد تتسع أحياناً إلى خارج حدود جبل عامل، فتشمل مناطق مجاورة تمتدّ أو تنحسر طبقاً للظروف السياسيّة والإدارية السائدة، يرد عنها الغارات سواء أتت من البحر كما فعل سنة 1451م[1] عندما ردّ الغزاة الفرنجة عن صور. أو من البر كما فعل قبيل الاجتياح العثماني في معركة شيحين سنة 1503م[2].

ظهر واضحاً أن هذه العائلة لعبت دوراً قيادياً مع غيرها، في مقاومة نفوذ فخر الدين بين صيدا وصفد، وفي السعي إلى إقامة حلف شيعي عاملي ـ بعلبكي في وجه تمدده. مما أجبرها على النزوح من بلادها بانتظار تحسن الظروف. ولا نعلم يقيناً إذا كان هو النزوح السياسي الأول لكنه حتماً لم يكن الأخير لأنه تكرّر في مناسبات لاحقة أكثر مأساوية وقهراً.

لازم تاريخ هذه الأسرة المتفاوت بين الشدة والرخاء، والمتقلب بين العزّ والعنت، عوامل أساسيّة ثلاث تركت بصمات عميقة على كلّ مسيرتها، وبصمات أعمق على كلّ ملامح تاريخ جبل عامل وهي: التشيّع والسيف والشعر.

(1) خطط الشام كردعلي، ج 2، ص 189.
(2) صدق الأخبار الجزء الثاني، ص 929.

1 - التشيّع

كان جبل عامل هو المقاطعة اللبنانيّة الوحيدة التي كان جميع سكانها، حكّاماً ومحكومين، ينتمون إلى طائفة واحدة. مما جنبه طيلة تاريخه، التعقيدات والمتاعب ذات الطابع المذهبي أو الطائفي التي عرفتها المناطق اللبنانيّة الأخرى.

كان معظم سكّان جبل الدروز كجيرانهم في وادي التيم دروزاً، في الوقت الذي كان الحاكمون غالباً من السنة، يمارسون سلطتهم عبر طبقة درزيّة أرستقراطيّة تتألّف من عائلات محدودة ومحدّدة، تتولى الإشراف الواقعي المباشر على منطقة أو قرية أو عدّة قرى، بما فيها دير القمر نفسها، مركز الإمارة[1]، ويباشر الحاكم التنّوخي أو المعني أو الشهابي سلطته بواسطة هذه الطبقة، وعبرها دون أن يتمكّن من تجاوزها دون مخاطر كبيرة.

وعندما تكاثر المسيحيون والموارنة خصوصاً، اهتزّ الإنتماء الطائفي عند العائلة الحاكمة، فلم يعد من السهل معرفة حقيقة بعض الأمراء الشهابيين وأنسبائهم اللمعيين، فالتبس الأمر على الجميع ولا يزال الغموض حتى اليوم يلفّ حقيقة الإنتماء الطائفي لبعض الأمراء، وتباين الإنتماء بين أبناء البيت الواحد. فقد كان الأمير يوسف مارونياً على الأرجح، وشقيقه سنياً مما أدّى بالنتيجة إلى اصطفاف طائفي ما لبث أن تطوّر إلى فتنة وصدام مما أطاح بالإمارة الشهابيّة وأشعل حوادث منتصف القرن التاسع عشر الدامية.

في مدينة بعلبك والبقاع الأوسط كان يغلب الوجود السني في أوّل الأمر بينما الحكّام الحرافشة من الشيعة. وكذلك الحال في جبل لبنان فقد كان الحماديون شيعة بينما أصبح السكّان الموارنة أكثريّة بمرور الوقت. وهذا التباين سبّب مشاكل وقلاقل كثيرة في المنطقتين، وكان من أهم أسباب المتاعب التي لازمت تاريخهما.

أما الوائليّون فهم كمعظم سكّان جبل عامل، من الشيعة[2]، وكذلك جميع الأسر القديمة التي سادت قبلهم أو في زمانهم. فكان هذا التجانس المذهبي الشامل، عامل وحدة وتآلف بين الجميع، حكاماً ومحكومين، على اختلاف ألوانهم وطبقاتهم

(1) كان حكم دير القمر لآل نكد بينما هي في نفس الوقت مقر الحكم الشهابي.

(2) كان عدد سكان جبل عامل، حسب الدفاتر العثمانية في القرن السادس عشر، أكثر من خمسين ألفاً بينهم نحو ثلثماية مسيحي يقيمون في تبنين، والباقون من الشيعة.

وأوضاعهم الإجتماعيّة والثقافيّة. مما عزّز اللحمة بينهم وأكد على وحدة الشعور والإنتماء والترابط. فكانوا، جميعاً، محاربين وفلاّحين، في آن معاً، ينصرفون إلى الزراعة والمهام العادية في زمن السلم، ويبادرون إلى السلاح والقتال عندما تدعو الحاجة. وكان رجال الدين والفقه يشاركون العامة في الحالتين. فكان هناك تحالف وتلاحم بين الحكام الزمنيين والمراجع الدينيّة، فهما عادة على وفاق وتعاون، يساهم أصحاب العمائم في تثبيت سلطة رجال السيف ومساعدتهم، بما لديهم من تأثير أدبي بالغ في صفوف الناس بإدارة الشؤون المدنية أيام السلم، ودعم الجهود العسكريّة عندما تدعو الحاجة. وكان بنو وائل أنفسهم يخضعون لسلطة المراجع الدينية في أمور الشرع والقضاء والإجتهاد، ويظهرون لهم الإحترام الشديد، ويقدّمون لهم مظاهر الإجلال والخضوع. وقد ذكر المؤرّخون العامليون كثيراً من الحوادث التي تدلّ على نوعية العلاقة التي كانت تقوم بين الحكّام الوائليين ومراجع الشيعة من كبار الأئمة والعلماء. ومنها أن الشيخ ناصيف النصار الوائلي، قصد بموكب حافل على عادته قرية «عيناثا»، لزيارة العلاّمة السيد محمد الأمين المعروف بمفتي البشارتين فوجده يناول أحجاراً وطيناً لبناء جدار منزله، فنزل الشيخ عن ظهر جواده، وقبّل يد السيّد وأخذ يساعده على نقل الأحجار والطين، ولم يقبل أن ينوب عنه بعض رجاله وذلك **تبرّكاً وإجلالاً وخضوعاً لما يمثل هذا السيد من موقع روحي مميّز**[1]. وكان العلاّمة الأكبر شيخ الطائفة عبد الله آل نعمة الجبعي، إذا زار تبنين نزل ضيفاً على أحد الأهلين فيهرع إليه حمد البك أو علي بك حكام ذاك العهد، ملتمسين قبول دعوتهما فلا يقبل. ولم يعرف عنه أنه صعد القلعة أو قبل ضيافة حاكم. وكان كغيره من العلماء والقضاة على نزاهة بالغة وكانت سلطتهم هي السلطة العليا التي تُحنى لها الرقاب والرؤوس. **ولم يكن يجسر زعيم قط مهما عظم شأنه، وكبر مقامه وتوفّر ماله وجنده، على مناوأة العالِم أو ردّ حكمه**[2].

(1) تاريخ جبل عامل صفا، ص 96.
(2) المصدر السابق، ص 105.

2 - السيف

كان لجبل عامل في مختلف العصور، حدود جغرافيّة ثابتة ومحدّدة متعارف عليها، تشكّل كياناً سياسياً موحّداً يتميّز بخصائص ثقافيّة ومذهبيّة وإجتماعيّة وديموغرافيّة، تختلف عن خصائص المناطق المحيطة به، مما جعل من الدفاع عن هذه الحدود أحد أهم المهمّات الأساسيّة التي تحدد أهلية حكامه وجدارتهم، وتثبت التفاف السكّان حول قيادتهم ودعم رجال الدين والعلم لهم. فكان على حكّامه من الوائليين، أن يكونوا قبل أي أمر آخر قادة عسكريين، على قدرٍ كافٍ من الكفاءة والأهليّة للقيام بواجب الدفاع عن هذه الحدود المهدّدة دوماً، بفاعليّة ومهنيّة. فأعانتهم طبيعتهم القتاليّة وتقاليد الفروسيّة، التي نشأوا عليها جيلاً بعد جيل على القيام بهذه المهمّة بمهارة نادرة، واحتراف مميّز، جعل منهم محاربين أشدّاء وفرسان مجلّين وفي حالة استعداد للقتال تكاد ان تكون دائمة. لقد أحاط بهم الطامعون والمتربّصون من كلّ الجهات. فإلى الشمال والشرق هناك حكّام الشوف الحاضرون ابداً، لتلبية اوامر الولاة العثمانيين بالهجوم على بلادهم واكتساحها في كلّ وقت. ومن الجنوب تتوالى غارات الأعراب بقصد الغزو والنهب، أو يتحرك الحكام الفلسطينيون الطامحون إلى توسيع رقعة نفوذهم ومدّ سلطتهم نحو الشمال. فكانوا في حالة استعداد دائم لصدّ أيّ هجوم محتمل في أيّ وقت وأيّ مكان. وكان الصدام بينهم وبين الولاة العثمانيين من الأمور التي ما تكاد تتوقف، حتى تتجدّد بصورة دوريّة وكأنها من التقاليد السياسيّة طيلة عقود طويلة، كما هو حال المناطق الشيعية الأخرى في لبنان.

لقد اضطرّتهم هذه التهديدات الدائمة إلى تحويل جبلهم إلى مجتمع عسكري متمرّس، له تقاليده وأساليبه الحربيّة يتحوّل سكانه جميعاً إلى جنود مجهّزين وجاهزين، عندما تدعو الحاجة ويدقّ النفير. كما يتحوّل حكّامه إلى قادة ومقاتلين سواء كانوا من الأسرة نفسها أو من الأسر الحاكمة الأخرى التي يربطها جميعاً تنظيم تراتبي، أثبت جدواه وفاعليّته في مناسبات عديدة.

«أصدر الشيخ ناصيف النصار عام 1749م منشوراً يقضي بترميم الحصون والقلاع ونقل مراكز الحكومات إليها وشحنها بالسلاح والمقاتلة»[1]. «وكان تحت يده حصون وقلاع وفداوية يركبون الخيل وفرسان وأبطال شجعان»[2].

(1) المصدر السابق، ص 87.
(2) الدرر الحسان الشهابي، ص 79.

وكانت الأوامر تصدر عن الزعماء والقادة بالوقوف دائماً على قدم الإستعداد وحمل السلاح لدى سماعهم أوّل طلق ناري[1].

كانت مراكز حكمهم في قلاع محصّنة أقاموا فيها مع رجالهم، يخرجون منها للقتال. فإذا ظفروا عادوا استعداداً لجولة أخرى، وإذا انهزموا غادروا البلاد إلى خارجها، وقاموا بغارات على أعدائهم حتى يتمكّنوا من العودة منتصرين بفعل صمودهم أو بتغيير الظروف، كما فعلوا عند عودة فخر الدين من أوروبا سنة 1618م أو عند حكم محمود أبو هرموش لجبل عامل سنة 1707م أو عند اكتساح الجزّار لبلادهم ونكبة جبل عامل الكبرى سنة 1780م.

كانت قلاعهم وحصونهم منتشرة في سائر أنحاء بلادهم وأهمها : تبنين، هونين، مارون، ميس، دوبيه، شمع، شحور، يارون، القط، برج قلاويه.

تمرّس العامليون على الحرب والفروسيّة، ووصلت شهرة بعض رجالهم إلى خارج جبلهم فقال الشدياق إن محمود النصار كان يعد بألف فارس[2] وعده نوفل بماية[3]، كذلك اشتهر قاسم المراد وناصيف نفسه.

لقد تعاقب على حكم الشوف ثمانية أمراء شهابيين بين 1697م و1840م، بالإضافة إلى عدد غير محدود لم يعمّر حكمه طويلاً. لم يمت أمير واحد منهم في معركة على صهوة جواده، بينما قتل في الفترة نفسها من المقاتلين عدد يصعب تحديده، من حكّام جبل عامل وقادته. منهم علي بن علي الصغير وأولاده 1661م ومحمود النصار وقاسم المراد 1779م وناصيف النصار 1780م وقبلان الحسن وأخوه إبراهيم 1785م وحمزة بن محمد النصار 1784م وحمد العباس وأخوه حسين وأولاد عباس العلي 1783م وحسين الشبيب 1839م كما مات في سجون الدولة وغالباً بالسم. مشرف 1700م وفارس الناصيف 1824م وعلي بك ومحمد بك 1865م.

كانت حروبهم دفاعية في معظمها تتمّ عادة على أراضيهم، وداخل حدودهم، بوجه عدو غريب أتاهم غازياً من الشمال، معنياً أو شهابياً، أو من الجنوب معتدياً على حدودهم طامعاً باجتياحها، كظاهر العمر، أو مؤدباً ومعاقباً يصدونه. أكان

(1) راجع تاريخ صفا 82 - 83.
(2) نزهة الزمان الشهابي، ص 1004.
(3) كشف اللثام نوفل، ص 200.

والياً على دمشق أو صيدا أو عكا. فلم يُعرف أنهم دخلوا في قتال خارج حدود بلادهم طمعاً في تحكّم وسيطرة. ولم يخرج رجالهم للقتال خارج جبل عامل إلاّ لمساعدة حليف. (ضاهر العمر، أبو الذهب، يوسف شهاب) أو مطاردة غازٍ (عسكر ابراهيم باشا المصري - أعراب الحولة ومرج بن عامر) ثم يعودون إلى ديارهم حال انتهاء القتال. وقلّما جرى مع غيرهم من الأعيان نزاع على أرض أو حكم أو مغنم، إلاّ ما تتناقله بعض التواريخ من روايات وأساطير عن وقائع حائرة وغامضة، جرت في المجهول في بداية أيامهم. اختفى على إثرها أخصام مُفترضُون من آل سودون وشكر، بينما حافظت علاقاتهم مع العائلات العامليّة المقدّمة مثل المناكرة وبني أبي صعب في غالب الأحيان على ما تمليه الأعراف، من ودّ وتواصل، ويقتضيه الخطر الخارجي من تناصر وتحالف.

وغالباً ما كان هاجس جيرانهم في الشمال، المدفوعين بتشجيع من أولي الأمر في دمشق أو صيدا، هو الإستيلاء المتمادي على أطراف جبلهم والتوسّع على حسابه. وقد تمكّنوا بعد حروب متمادية من تحقيق بعض مما سعوا إليه، ولاسيما عند حلول النكبات الكبرى بهم واضطرارهم إلى الجلاء إلى خارج بلادهم، كما حصل في عهد فخر الدين، وبعد ذلك في عهد الجزّار، فخسروا على فترات متقطّعة مناطق وقرى عامليّة في مقاطعات جزّين وإقليم التفاح وجبل الريحان، وبعضها كان من حواضر العِلم والسياسة عندهم.

قاتلوا في الشمال كما قاتلوا في الجنوب. وقد استلزم الحفاظ على عاملية قريتين صغيرتين (البصّة ومارون) معارك عديدة ومفاوضات شاقّة، تجاوزت ما اعتادوا على القيام به من غارات متباعدة في نفس الجهة لصدّ غزوات الأعراب المتكرّرة (بنو ضحى - الهنادي) ومطاردتهم حتى مضاربهم أحياناً لمنع تكرار هذه الغزوات.

دافع الوائليون على رأس العامليين أكثر من أربعة قرون عن جبلهم بوجه الطامعين، وبذلك حافظوا على طابعه وتراثه وخصوصيّته وقيمه، التي بقيت حيّة إلى اليوم. ولولا استماتهم في ذلك، لكانت حال النبطيّة وبنت جبيل وتبنين وشحور والزرارية وصور، وهي من مراكز حكمهم وحواضر عاملة، كحال ما غيّرت من طبيعته وطابعه، النكبات والمآسي والأطماع، من بعض ديار جبل عامل القديمة والعريقة كجزين وهونين.

3 - الشعر

إذا كان الشعر ديوان العرب فهو على الأخص يحمل تاريخ بني وائل وسيرتهم وأيامهم وحروبهم ومعاركهم، وتاريخ ولاداتهم ووفياتهم وأعراسهم، وقلاعهم ومبانيهم وأيام عزّهم وبؤسهم وانتصاراتهم وهزائمهم ومشاعرهم وعلاقاتهم. فهو من أهم المراجع التي حفظت تاريخ جبل عامل وتاريخهم من الضياع، وصانته من عوادي الأيام وتعاقب السنين. فقد كان الكثير من شيوخهم وفرسانهم ينظمون الشعر ويذكرون فيه وقائعهم وأسماء معاركهم وكيفيّة خوضها، وتواريخها وأسماء أعدائهم من حكّام وقبائل وأسر. ويفاخرون بأنسابهم وماضيهم وحاضرهم مما يجعل من اليسير متابعة أخبارهم وتاريخهم من خلال ما ينظمون من الشعر وما ينظمه غيرهم في مدحهم والإشادة بمآثرهم وتعداد أعمالهم، والحوادث التي جرت معهم بتفاصيلها وتواريخها وأسمائها. وقد انتبه بعض المؤرّخين المتأخّرين إلى هذا الواقع فأرّخوا لهم من خلال شعر بعضهم[1]. وتمكنوا بفضل هذا الإرث الشعري الثمين، من سدّ بعض النقص الحاد في المراجع التاريخيّة القديمة التي تعرض لتاريخ جبل عامل وبني وائل خصوصاً وغيرها من المواضيع.

تبارى الشعراء العامليون عند كلّ حدث تاريخي مهمّ، في تحويله إلى موضوع قصيدة، تتناول أدقّ تفاصيله وأسبابه وآثاره مما يمكن أن يكون بحث مفصّل حول أهميّة هذا الحدث وتقييمه ووضعه أحياناً في موقعه المناسب بين ما سبقه ولحقه من أحداث أخرى.

إن المساجلات الشعريّة بين الشعراء العامليين وغيرهم، ساهمت في إلقاء مزيد من الوضوح على تفاصيل أحداث جسام، ووجهات النظر المختلفة والمتناقضة حيالها، وأحياناً كان التراشق الشعري، يترافق مع المعارك السياسيّة والحربيّة، فبقي الشعر محفوظاً. وعزت الآثار الباقية كما أن التأريخ على حساب الجمل شعراً، كان من تقاليدهم المرعيّة عند كلّ حدث هام، سواء أكان معركة أو هجرة أو ولادة أو وفاة أو تدشين قلعة أو بناء مسجد، فتحدّد زمانها بدقّة دون أن يضطر المؤرّخ كما يُفعل عند الشك إلى التقصّي والمقابلة والجهد في البحث والترجيح.

(1) الجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بك الأسعد، الشيخ علي السبيتي. والعقد المنضد، شبيب باشا الأسعد.

إنّ خلاف ناصيف مع ظاهر وتحالفه معه، وما جرى بينهما من مواقع ووقائع في الحالتين، وتشريد العامليين بعد النكبة التي اعقبت معركة يارون، ومعاناة المبعدين وحنينهم وغير ذلك، من المحطات المفصليّة في تاريخ جبل عامل، لا تزال تتردّد من خلال ما خلّفه الشعراء وجلّهم ممن تأثّر بهذه الحوادث، وكانوا من شهودها العيان. وقد يكون الشاعر أحياناً من صانعي الأحداث أنفسهم، كحمد المحمود وعلي بك، أو من الشعراء الآخرين المقرّبين منهم أو المبعدين عنهم، ولكنهم تركوا لنا ما جادت به قرائحهم تأثّراً بحادثة، أو ابتغاء منفعة، أو سعياً لغاية. وعدد هؤلاء غير محدود وإن كانت شهرة بعضهم تقدّمت على غيره كابراهيم الحاريصي، وابراهيم يحيا وحبيب الكاظمي وسليمان الصولي وعلي السبيتي وابراهيم صادق وغيرهم.

إن التراث الشعري يشكّل بهذا المعنى مصدراً مهماً لا يمكن تجاهله عند التأريخ لجبل عامل، أو لإحدى أسره. وخصوصاً هذه الأسرة التي مارست الشعر نظماً أو كانت من موضوعاته الأثيرة أو كان بعض رجالها من المتذوّقين أو المشجّعين أو المقصودين أو ربما أحياناً هدفاً للهجاء والهجوم من عدو أو خصم أو خائب، وفي جميع هذه الحالات لا بدّ من توضيح المعالم بين ما يجنح إليه الفن الشعري من خيال ومبالغة وبين ما يقتضيه عِلم التاريخ من تيقّن ودقّة.

وقد يكون الشعر العامي أحياناً أكثر التصاقاً بالتاريخ من المقفّى، لخلوّه من الصناعة والتكلّف وشدّة التصاقه بالوجدان الشعبي والذاكرة المتواترة والمتوارثة، بما فيه من أزجال وأهازيج قد لا يعرف قائلها وإنما تناقلته الأجيال وردّدته، لتآلفه مع طبعها وعواطفها دون الإلتفات بالضرورة، إلى ما يتضمّنه من دلالات تاريخية يمكن أحياناً توثيقها والإسناد إليها. مثال على ذلك قصيدة شاعر قالها في معركة كفرمان، لا تزال تتردّد على ألسنة العامة، كما في تصانيف المؤرّخين. وتزخر بالدلالات عن عواطف الناس وأسماء الأبطال وسير القتال، مقيّدة بالوزن والمعنى بحيث يصعب الحذف أو التحريف أو التغيير في متنها وفي وقائعها، لشهرتها وشيوعها على الألسن وفي الذاكرة[1].

(1) مثل قصيدة شناعة المريحي في معركة كفرمان وهي قصيدة طويلة مطلعها:

قال ولد مريح في بيوتو شكل في زمان كلّ أحوالو شكل

بنو وائل وبنو بشارة

«جمع الأمير ناصر الدين بن الحنش الجموع (سنة 909 هـ - 1503م) وكانوا نحو خمسة آلاف رجل إلى قرية شيحين[1]. وزحف على عبد الساتر بن بشارة في جماعة قلايل، فانكسر جيش ابن الحنش بإذن الله تعالى، بغير رجال كثيرة وقُتل من جماعة ابن حنش نحو مائتين قتيل والله أعلم، ثم عفوا بعد ذلك عنهم»[2].

هذه آخر مرّة ظهر فيها اسم ابن بشارة في كتب التاريخ، وكان يتردّد قبلاً كأحد زعماء العشير في البلاد التي تحمل اسمه وما جاورها. وكان يقرن أحياناً بالرافضي[3]. للدلالة على تشيّع أسرته التي كان من المؤكّد أنها حكمت جبل عامل، وأنها كانت ذات قوّة وبأس وقد تعاقبت أجيال منها على القيام بمختلف وظائف الحكم والجيش والسلطان[4].

بعد معركة «شيحين» ومع الفتح العثماني، اتّسع نفوذ ابن الحنش وتنامى دوره، حتى أسند إليه حفظ الشام في غياب السلطان سليم ونائبه الغزالي في مصر، فيما اختفى اسم أسرة ابن بشارة ولم يعد يظهر لأيّ من أفرادها ذكر، ولم يعد لهم في بلادهم اثر سوى الاسم الذي عرف به القسم الجنوبي من جبل عامل أو بكامله في بعض الاحيان.

تساءل الكثير من الباحثين عن مصير هذه العائلة، هل قضى عليها الإجتياح العثماني ولاقت نفس المصير الذي سيلقاه ابن الحنش بعد فترة وجيزة؟ هل ذهب بنو بشارة ضحيّة الدفاع عن سوريا مع المماليك ففتك بهم السلطان سليم أو بعض جنده؟

من العسير الحصول على جوابٍ شافٍ بهذا الشأن، لفقدان المصادر. فلا بدّ إذن

---

(1) قرية عاملية في نواحي صور.
(2) صدق الأخبار ابن سباط ص 929، الدويهي ص 378.
(3) إنباء الغمر العسقلاني، الجزء 7، ص 216 الحلقة الضائعة من تاريخ جبل عامل، علي جابر ص 435 .
(4) السلوك المقريزي، ج 3، ص 456 و 532، ج 4، ص 67.

من إعمال منطق الأمور ومنهج التاريخ، للوصول إلى تفسير، قد يبدو مقنعاً، ولو لم يكن هناك سبيل لإثباته وتأكيده.

يقول محمد جابر آل صفا في تفسير انتقال سلطة بني بشارة إلى غيرهم: «إن **محمد بن هزاع الوائلي القحطاني من رؤساء عشيرة عنزة، كان معاصراً للأمير بشارة أو لأحد أعقابه وصهراً لهم، وإليه انتقلت الإمارة في جبل عامل بعد انقراض سلالته. وابن هزاع هو الجد الأوّل لآل علي الصغير، فيتصل نسبه ببني تغلب، القبيلة الوائلية المعروفة، وأوّل من قدم من بادية نجد إلى الديار العامليّة في عصر الدولة الصلاحيّة، وحطّ رحاله ونصب خيامه على الجبل الجنوبي قرب قرية عديسة، وأسّس هناك بناية لم تزل آثارها ماثلة كما ذكر بعض أفراد الأسرة**»، ويضيف المؤرّخ باحثاً، عن بشارة، وأن منهم، **من قال إنه بشارة بن مقبل القحطاني وهذا القول انفرد به الشيخ علي سبيتي وتابعه شبيب باشا الأسعد في العقد المنضد**[1].

في الواقع أن شبيب الأسعد لا يبتعد كثيراً عن محمد جابر آل صفا، عندما ذكر أن محمد ابن هزاع الوائلي القحطاني، دخل جبل عامل وكان الحاكم هو الأمير بشارة بن مقبل القحطاني. فجرت واقعة بين الوائلي وبشارة انتهت بغلبة الأوّل، فاستولى على البلاد وحكمها وتزوّج بنت بشارة. فورث الحكم من بعده أبناؤه وأحفاده واتخذوا من قلعة تبنين مركزاً لحكومتهم، واستمرّوا حكّاماً حتى أفضت الحكومة إلى أحمد بن مشرف الوائلي[2].

تفتقد الروايات التي تناقلها معظم المؤرّخين اللاحقين، إلى الإقناع والترابط، حتى ولو تجاوزنا الخلط الواضح في الأنساب والتواريخ. أنّ حكماً يدوم نحو أربعة قرون، كما يعتقدون وهي المدة الفاصلة بين وفاة صلاح الدين الايوبي، التي حدثت في عهده الواقعة والمصاهرة وانتقال الحكم حتى ظهور أوّل وائلي صغيري حاكم في جبل عامل في المصادر المكتوبة، لا بدّ أن يظهر لصاحبه اثر أو ذكر أو إسم في تاريخ معروف، كما ظهر لبني بشارة طيلة الفترة نفسها، وبشكل متتابع، مما يؤكّد أنهم بقوا حكّاماً حتى أواخر العصر المملوكي على الأقل. وهذا ما يرجّح أن الأقوال المتواترة في

(1) تاريخ جبل عامل، صفا ص 36.
(2) العقد المنضد، شبيب الأسعد، ص 26.

هذا المجال، أقرب إلى الأساطير والمرويّات، منها إلى الصدقيّة والواقعيّة. وهي تتناقض مع أبسط عناصر الإقناع والتسليم بواقعيتها حتى يجوز إعتمادها.

وهناك أسطورة أخرى شائعة وردت بأشكال متعدّدة في معظم التواريخ العامليّة، وهي رواية علي الصغير الذي أعطى اسمه لعائلته طيلة عدّة أجيال، ومآلها **أن أحمد ابن مشرف الوائلي توفي، وزوجته بحال الحمل، وكان تزوّجها من بني عمومته بني سالم المعروفين بالسوالمة، وهم فخذ من أفخاذ عنزة، فجاء أخوتها وقومها وحملوها إليهم، وكانت منازلهم بأطراف بادية الشام مما يلي نجد، فولدت غلاماً، وحيث كان لها أخ اسمه علي وكان غائباً في اليمن سمّت ابنها علياً، وعرف بالصغير للفرق بين اسمه واسم خاله. فكان يُقال له علي الصغير، فشبّ الغلام وامتاز بالنجابة، ولما صار في الخامسة عشر من عمره، وقف على حقيقة أمره وأمر أبيه وأن جماعة يُقال لهم بنو شكر، أصبحوا يتصرّفون بالأحكام لخلوّ البلاد من حكم هذا البيت في غاية التأسّف يتمنّون عودته لحكومة أبيه وجدّه وانقاذهم من جور ظلم المتسلّطين عليهم، وأخبرته عن رجلين من وجوه البلاد وخواص أبيه. فجهّز قوماً من بني رحمه ونهض بهم وسار قاصداً تلك البلاد ووصل، والقوم مشغولون بأعراس لهم في تبنين وقانا، فجمع أنصار أبيه وهاجمهم فدارت عليهم الدائرة واستولى على البلاد ومازال بحكومتها وعنها تلقّاها بنوه[1].**

إن الأساطير المتوارثة في صدور العامّة تبقى في باب أحاديث السمر، إلى أن يعمد أحدهم إلى إدخالها في تاريخ مكتوب، فيتناقلها المؤرّخون، وتصبح من صلب التاريخ وجزءاً منه، تبنى عليها الوقائع وتستنتج منها المبادىء رغم أنها لا تتطابق مع الواقع أحياناً إلاّ بأسماء أبطالها وبعض ملامح متناثرة ليس من اليسير فرزها والبناء عليها. إن الروايتين الشائعتين تؤكّدان أمرين مهمّين:

1 ـ إن الوائليين قد خلفوا بني بشارة في الحكم وإن هناك نسباً يربط بين الأسرتين.

2 ـ تفيد الرواية الثانية أن هذه الأسرة قد واجهت ظروفاً صعبة فقدت فيها موقعها المتميّز، حتى قام مقدام من أفرادها أعاد لها أمجادها بشجاعته وبسالته وحسن تدبيره. إن نقطة الإنطلاق، هي أن حقيقة ثابتة لا تقبل المناقشة والتأويل،

---

(1) العقد المنضد الأسعد، ص 26.

وهي أن بني بشارة كانوا من الحكّام في جبل عامل حتى أوائل القرن السادس عشر، عند الفتح العثماني. ثم غابت أخبارهم عن مسرح الأحداث حتى القرن السابع عشر، تاريخ ظهور اسم أسرة جديدة تفرض نفسها على مجريات الأمور العامّة، وتتقدّم في مراتب السلطة والتعاطي مع الحكّام هي أسرة علي الصغير.

لا بدّ من استعراض الأحداث التاريخيّة والوقائع والظروف التي أحاطت بجبل عامل والمناطق المجاورة قبيل الفتح العثماني 1516م.

بعد معركة (شيحين 1503م) تصالح نائب دمشق سيباي (1506م) بسعي من الأمراء مع ناصر الدين ابن الحنش، فرضي المماليك عن أمير البقاع الذي تولّى نيابة صيدا، بالإضافة إلى مقدميّة البقاع، وكبرت منزلته عندهم، حتى استطاع أن ينضمّ إلى كبار الشخصيّات التي كانت في استقبال السلطان قانصوه الغوري، في طريقه إلى حلب لمواجهة السلطان سليم الأوّل، وأن يقدّم له تقدمة كبيرة من المال والغذاء. وفي العهد العثماني حصل على إقطاع الأمرية الكبرى بالشام وأعطوه سنجقاً وأصبح حاكماً على البقاع وصيدا وبيروت قبل أن يقتله الغزالي 1518م.

بعد مقتل ابن الحنش برز أحد خدمه البدوي بن فريخ، وترقّى به الحال إلى أن التزم مالاً عظيماً على لواء صفد ونابلس وإمارة الحج، فخرّب كوراً كثيرة، وقتل خلقاً كثيراً حتى خُنق في قلعة دمشق لظلمه وتخريبه العمالات التي استولى عليها، وخصوصاً البقاع وصفد كما أخاف الدروز وقتل منهم مقتلة عظيمة، وربما فعل مثل ذلك بكثيرين غيرهم.

إنّ الفترة التي أعقبت الفتح العثماني، هي من أكثر الفترات التاريخيّة غموضاً وفقراً بالمصادر التي تعرض لأحداثها. فقد انقضى مع العهد المملوكي عصر المصنّفات التاريخيّة الموسّعة، كابن طولون والمقريزي وابن تغرى بردى والمرادي وغيرهم. ولم يظهر في لبنان مؤرّخ معروف قبل القرن السابع عشر. لذلك كان من الصعب إلقاء الضوء على هذه الفترة المهمّة، لانعدام المصادر وشحّها، حتى أننا لا نستطيع معرفة اسم حاكم بعلبك الحرفوشي بعد مقتل أميرها سنة 1516م، وينقطع التاريخ حتى نهاية القرن السادس عشر، إلاّ من فقرات نادرة في بطون حفنة من كتب السير والتراجم.

كذلك في الشوف فقد تضاربت الآراء حول من كان يحكم قبل فخر الدين المعني الثاني، رغم أن التواريخ اللاحقة التي وضعت في القرن السابع عشر وما بعده، حاولت ان ترمّم هذا التاريخ فاختلقت أسماء أمراء وأسر حاكمة لا تصمد أمام أيّ نظرة مدقّقة.

خريطة بلاد بشارة

بنت جبيل 1858م.

كان جبل عامل، إدارياً من أعمال صيدا وصفد. وقد توالى على حكمهما ابن الحنش وابن فريخ، وهما حاكمان على جانب كبير من القوّة والبطش، والميل إلى القتل والتدمير والتخريب، وكان بنو بشارة من أهمّ الأسر الحاكمة في هذه النواحي، لأننا لا نعرف أسرة أخرى محليّة مجاورة، تتمتع بوضع منافس أو مشابه لها. لو كان ابن الحنش قد هزم أو انتصر في معركة شيحين على بني بشارة، فإن الدافع لقتالهم متوفّر في الحالتين. كما أن خليفته ابن فريخ أوقع في البلاد التي حكمها الخراب والقتل، كما فعل في البقاع ومع الدروز، وفي جهات صفد. فقد يكون أحدهما أو كلاهما، قد ترك اثراً من بطشه في جبل عامل، كانت هذه الأسرة ضحيّته، مما جعلها تتكفىء وتختفي عن واجهة الأحكام والأحداث، ولو إلى حين. لاسيما وأن الجيوش العثمانيّة المنتصرة، كانت تنظر إلى الشيعة بعين العداء والنفور. وقد تركت بصماتها في الكثير من بلادهم. فليس غريباً أن يعمد أحد عمّالها أو بعض جيوشها إلى استدرار رضى المسكين بزمام الأمور بالعسف على الشيعة، والتنكيل بهم، كما حصل في البقاع. انطلاقاً من كلّ هذه المعطيات، يبدو من المرجّح، أن أحد الحاكمين ابن الحنش أو ابن فريخ أو كليهما، وراء اختفاء بني بشارة عن مسرح الأحداث، في هذه الفترة العصيبة التي اتسمت بتبدّل الحكّام والدول. وأن ما اشتهر عنهما من قسوة وبطش، وما عرف عن عدائهما لآل بشارة، وتولّيهما أحكام صيدا وصفد، أرغم هذه الأسرة بعد مواجهة لم تصلنا تفاصيلها، أن تتراجع وتختفي، بانتظار تغيّر الظروف والأحوال، ثم تعود إلى الظهور عند أوّل فرصة سانحة، ولكن باسم جديد هو علي الصغير الوائلي.

إننا نرى أن بشارة وعلياً الصغير، ما هما إلاّ إسمان لأسرة واحدة، تغيّر اسمها بتعاقب الظروف والأجيال والدول، كما يحصل غالباً مع غيرها من الأسر المقدّمة، وكما حصل مع أسرة علي الصغير نفسها بعد فترة من الزمن عندما اختفى هذا الإسم وعُرف أبناء حامليه ببني نصار، ثم تبدّل إلى بني الأسعد. فلا غرابة أن أسرة تبدّل اسمها كلّ ثلاثة أجيال، وهي في أوج مجدها كما يتبدّل اسم بني بشارة في حالة تقهقرهم وتراجعهم. وربما ظهر في بني بشارة رجل شجاع أعاد إليهم سابق مجدهم وأعطى للأسرة اسمه «علي الصغير» كما فعل حفيده نصار من بعده ثم أسعد الخليل أخيراً. وهذا أمر معروف ومتّبع عند الكثير من العشائر العربيّة الكبيرة. ومن المعلوم انه تفرّع عن أسرة علي الصغير في أحقاب مختلفة، وحتى بعد أن أصبحت تعرف باسم

نصار، العديد من الأسر الأخرى التي حملت أسماء مختلفة، لا يمكن حصرها بسهولة، والتي ربما لا يعلم حقيقة نسبها إلا بعض أبنائها والمطلعين على دقائق تواريخ الأنساب في عاملة.

إن أسرة خطيرة الشأن حكمت جبل عامل وغيره، من مقاطعات بر الشام، وتداول اسمها واسم العديد من أفرادها غالب تواريخ هذه الحقبة، مقرونة بألقاب الحكم والسلطان ومفصلة أهمية دورها وجلائل أعمالها[1]. فابن بشارة هو مقدّم التيامنة[2]. وبنو بشارة زعماء العشير في القرن الرابع عشر[3]. ومن عادة السلطان أن يكتب باستقرار ابن بشاره في نظر الشام كما فعل سنة 783 هـ[4] وقد استقرّ جمال الدين ابن بشارة في نظر الجيش عوضاً عن ناصر الدين بن مشكور[5]. وفي سنة 811 هـ قدموا إلى وادي التيم وعاشوا في معاملة صفد.

بلغ أيوب بن بشارة العاملي، أن هجوماً من الفرنج في أكثر من عشرين مركباً أغاروا على مدينة صور ونهبوها، فأقبل مسرعاً برجاله فقاتلهم وأجلاهم عن البلد وقبض على عدّة منهم وقطع رؤوسهم.[6]

إن ألقابهم والمناصب التي أسندت إليهم، وجليل أعمالهم ووقائعهم، تدلّ بما لا يقبل الجدل، أنهم من الذين لا يغفل التاريخ أخبارهم، ولا يهمل أعمالهم، ويجعل من المستغرب ألا نجد لهم أثراً بعد معركة شيحين، ولا تفسير لاختفائهم وزوال آثارهم بعد سقوط الدولة التي كانوا من أركانها وأصحاب السطوة والنفوذ فيها، وهي دولة المماليك، وحلول دولة أخرى معادية مكانها قد ينالهم من بطشها ما يكرهون، فقاوموا مع من قاومها، وانهزموا بعد انتصارها، أو فضّلوا التنحّي عن واجهة الاحداث حتى تنقضي العاصفة. وقد حافظوا على تميّزهم وتقدّمهم بانتظار تغيّر الأحوال والظروف، وعادوا مجدداً إلى واجهة الأحداث بعد أن بدّلت العادة والعرف وتعاقب الأجيال اسمهم القديم باسم أحد رؤسائهم البارزين وصاروا يعرفون باسم علي الصغير.

---

(1) الحلقة الضائعة من تاريخ جبل عامل، علي جابر ص (440 - 436).
(2) السلوك المقريزي، ج 4، ص 67.
(3) المصدر السابق، ص 72.
(4) المصدر السابق، ج 3، ص 456.
(5) المصدر السابق، ص 532.
(6) خطط الشام، ج 2، ص 189.

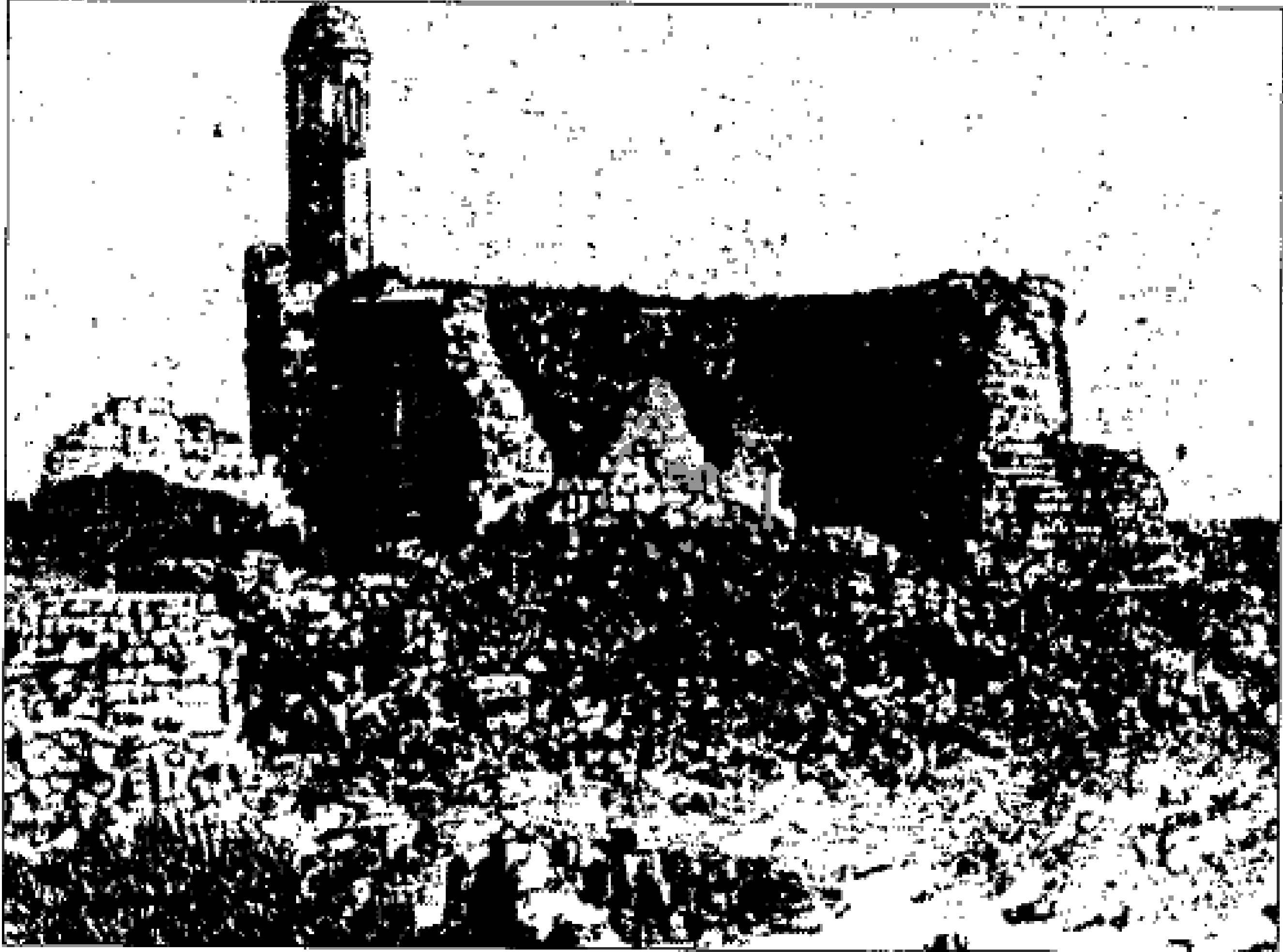
بدأ إسم علي الصغير يتردّد لأوّل مرّة في مستهل القرن السابع عشر، في مقدّمة الأحداث كأسرة لها المقام الأوّل، على رأس قمّة النفوذ والمكانة في جبل عامل. مما يؤكّد أنها صاحبة عزّ تليد وماض مجيد، يسمحان لها باحتلال هذا المقام بدون منافسة ظاهرة، أو معارضة فاعلة، ودون إشارة إلى حدث أو نسب أو تطوّر. يفسّر ذلك غير ما ذهبنا إليه، حتى جاء المتأخّرون ينظرون في العلاقة بين الإسمين: بنو بشارة وبنو علي الصغير. فافترضوا لغياب التوثيق والتأكيد أنهما أسرتان متمايزتان، وأخذوا يجهدون في البحث عن طبيعة العلاقة بينهما، فاختلفت الآراء بين معركة حسمت الأمر بغلبة واحدة انتزعت الحكم من الأخرى، أو إعجاب أمير من الأولى بخصال أحد أفراد الأسرة الثانية، دفعته إلى استخلافه في الحكم والمال، أو مصاهرة ربطت بين الأسرتين، وجعلت التوارث بينهما طبيعياً وشرعياً كما حصل في الشوف، عند انتقال الحكم من المعنيين إلى الشهابيين. ولكن غاب عن ذهن هؤلاء أن انتقال الحكم بالمصاهرة، أو بالغلبة أو بتغلّب الظروف لا يزيل الأسرة الأولى من الوجود تماماً، وإن أفقدها مقام الرئاسة والنفوذ.

بقي إسم علي الصغير ملازماً للأسرة التي حملته فترة محدّدة من الزمن، ثم توارى كما توارى إسم بشارة قبله. وأصبح بنو نصار هو الإسم الوحيد الذي يتردّد على الألسنة. واختفى علي الصغير في زوايا التاريخ. وربما ضاع الرابط بين الإسمين لولا توفّر التوثيق والتاريخ والتأليف التي كانت كلّها معدومة قبل ذلك. وإلا لكنا نبحث اليوم عن العلاقة بين علي الصغير ونصار وأين اختفى بنو علي الصغير؟ ولما علمنا أن بشارة وعلي الصغير ونصاراً هم إسم لأسرة واحدة لم يعد أحد من المتحدّرين من ذرّيتها يحمل أياً من هذه الأسماء حتى اليوم. وقد يجهل بعضهم ما يربطهم بها من نسب.

إن واقع الحال يكاد يجزم، أن فتىً من بني بشارة كان على قدر كبير من الإقدام والنخوة والشجاعة، استطاع بقدراته وصفاته وما بقي لقومه من ذكر وأثر، أن يعيد لهم ما ضاع من أمجادهم، وما سلف من تقدّمهم. فاشتهر أمره وذاع صيته وعظم قدره حتى عرفه الناس وأطلقوا اسمه على سائر قومه ونسجوا حوله الأساطير، فاستقدموه من المجهول بطلاً فتك بأعدائه من آل سودون أو آل شكر، فأعاد أمجاد أبيه وأجداده. مما لا يدخل في علم التاريخ، وإنما هو أقرب إلى الوجدان الشعبي وما يلصقه بأبطاله الخياليين من الخوارق والمعجزات.

حصل نزاع بين عائلتين حاكمتين سقط فيه أحد شيوخ بني علي الصغير قتيلاً فقام

قومه بالإنتقام له بمجزرة كبيرة تحدّث عنها الناس، وجنح بهم الخيال مع الوقت فبنوا على هذه الحادثة رواية متكاملة، بكلّ عناصر الإثارة والمبالغة فاختلط التاريخ بالأسطورة، مع أن التفريق بينهما يسير. ويمكن ردّ كلّ عنصر إلى حيث ينبغي أن يكون في موضعه الصحيح. ولا بدّ من الإشارة إلى أن لكلّ عشيرة عريقة فتاها الذي يماثل علي الصغير[1].



جامع هونين[2] عندما كانت من مراكز الحكم في جبل عامل. بناه قبلان الحسن سنة 1166هـ ـ 1753م.

وتاريخه الباقي حتى اليوم.

ومسجد فاز ببنيانه	ذو الفضل قبلان حليف الندى
مذ أمه الناس وصلوا به	أرخت خروا رُكَعاً سُجدا

(1) قصة «بعيزق»، الذي لم يبقَ غيره من آل العماد الدروز، تشبه رواية علي الصغير. والروايتان قريبتان من تاريخ الأمير جهجاه الحرفوشي المثبتة تاريخياً وإن كان الخيال الشعبي والشعر العامي أضاف عليها مسحة ملحمية.

(2) قرية تقع الآن في فلسطين المحتلة.

الفصل الثاني

جبل عامل في ظل التزام فخر الدين سنجق صفد

بقي جبل عامل بمقاطعاته المختلفة ملحقاً إدارياً، بسنجقية صفد. ولم يكن يعني العامليون كثيراً من هو العامل «سنجق بك» الذي يعينه والي دمشق مباشرة، أو عن طريق الملتزم الأساسي وقد تولاها منصور بن الفريخ مرّات متتابعة ولفترة طويلة. وكان يفضّل الإقامة فيها[1]. ويرسل من ينوب عنه إلى غيرها من المقاطعات كنابلس وعجلون والبقاع. ولما كان منصور حاكماً شيعيّاً قويّاً في دولة سنيّة المذهب[2]، فلا بدّ أن العامليين شعروا في ظلّ ولايته، أنهم أكثر حماية وأمناً. لذلك لم يحدث ما يفيد عن تبرّمهم أو تمرّدهم، ربما بسبب فقدان المصادر أو لانتفاء المبرّرات. إلاّ أن إحساسهم بالخوف والقهر، لم يكن قد ظهر بعد كما حصل في ظلّ ولاية فخر الدين بعد فترة من الزمن.

منذ أن تولّى صيدا (سنة 1009هـ ـ 1600م) أصبحت صفد هي الهدف التالي لفخر الدين، وقد ساعده في الوصول إلى مبتغاه توفّر ثلاثة عوامل مهمّة:

1 ـ بعد اشتعال الحرب العثمانية الصفوية من جديد، ازدادت ريبة الإدارة العثمانيّة من موقف الشيعة الموالي للصفويين. ورأت تعيين حاكم محلّي عهدت إليه أمر مراقبتهم والتصدّي لهم في حال قيامهم بأيّة تحرّكات معادية[3].

---

(1) فخر الدين أمير الدروز، ڤوستنفيلد، ص 109.

(2) كان منصور بدوياً يتكسب بالرجادة. ثم تولى البقاع وصفد وعجلون وإمارة الحج. يقول بعضهم بتشيعه ومنهم ڤوستنفلد، فخر الدين ومعاصروه ص 151.

(3) بيت بمنازل كثيرة، الصليبي، ص 165.

2 ـ استدرج مراد باشا والي الشام بدسيسة من فخر الدين، الحاكم القوي، ابن فريخ إلى مقرّه في دمشق وقتله في (13 ربيع اول 1003هـ ـ 1593م). ثم أتبعه بابن الحرفوش في نفس العام. فتخلّص بذلك من منافسين، كانا يقفان عائقاً أمام مطامحه الواسعة.

3 ـ خدمت الظروف فخر الدين بوصول صديقه وصاحبه مراد باشا إلى الوزارة الأولى، فعيّنه «سنجق بك» على صفد بالإضافة إلى مركزه في جبل الدروز وصيدا[1].

قبل فخر الدين، لم يكن هناك ما يدل على توتّر العلاقات بين العامليين وجبل الدروز. ولكن مع تعيينه على صيدا، وسكنه على تخوم جبل عامل، حصل أوّل صدام بينه وبين الشيعة في معركة الزهراني (1600م). فلما أصبح والياً على صفد 1603م دخل العامليون في حكمه. ولو انه اكتفى كمن سبقه من ولاة الترك الذين تعاقبوا عليها بجمع المال السلطاني، وإيراد دمشق حصّتها منه، لكانت الأمور ربما سارت على وتيرتها السابقة. غير أنه كان يبغي من ولايته أموراً تتجاوز جمع الضرائب، إلى تمهيد جبل عامل وإعداده لتسهيل مشروعاته الواسعة وطموحاته المعقدة. فاستولى على بعض القلاع والحصون وأمدّها بالمقاتلين، وصار يعدّ العدّة لتنفيذ ما يجول بأفكاره من مخططات.

استولى بالحيلة على قلعة بانياس[2]، بعد أن ضرب خيامه بالقرب منها فجاء صاحبها لدعوته على عادة بلاده، فدخل الأمير ضيفاً مع عدد من مرافقيه وقد أخفوا سلاحهم عن الأنظار، ثم تبعه الباقون على دفعات كمسالمين. ولما تكامل عددهم وثبوا على الموجودين بالقلعة فتملّكوها وأُجلي أصحابها وَوَضع مكانهم عسكراً من قبله[3].

كما أخذ قلعة الشقيف خدعة من صاحبها[4] وكانت بحراسة حامية من الفلاحين البسطاء وحصّنها جيّداً ونقل إليها أمواله وخزائنه[5].

ثم سيطر بالطريقة نفسها شيئاً فشيئاً على كلّ المناطق التي تقع بين بيروت وجبل الكرمل[6].

(1) فوستنفيلد، مصدر مذكور، ص 150.
(2) بانياس قرية في الجليل قريبة من جبل عامل تقع اليوم في الأراضي السورية وهي غير المدينة الساحليّة كما توهّم فرالي وغيره.
(3) فوستنفيلد، م.م.، ص 151.
(4) للبحث عن تاريخنا، علي الزين، ص 229.
(5) تاريخ فخر الدين، بولس فرالي، ص 84.
(6) فوستنفيلد، م.م. ص 151.

نشر فخر الدين في جبل عامل حاميات عسكريّة، وأسكن شقيقه يونس في مدينة صور التي احتفظ لها بمكانة هامة في جميع خططه المستقبلية فرمّم ميناءها وأقام فيها بعض الأبنية[1].

نظر العامليّون بتوجّس وريبة إلى ما يقوم به فخر الدين. فقد اعتادوا على «سنجق بك» يقوم بتحصيل المبلغ المقرّر وهو ستون كيساً. ثم يتبدّل بعد عام أو أكثر فيما انفرد فخر الدين بإقامة مراكز عسكريّة في قلب بلادهم، خبروا من تصرّفات جنوده ما ساءهم وأثار قلقهم فانتشر التذمّر في نفوس الناس، وبدأ الأعيان والوجهاء والعلماء يتذاكرون للإتفاق على موقف أو عمل ما. فانعقدت الجمعيات العامّة[2] لاستعراض الأمور مما أوجد، وربما لأوّل مرّة، حالة واسعة من الشعور العام بالخطر الجماعي، ساهمت في دفع الناس شيوخاً وفلاحين وعلماء، إلى البدء في التفكير باتخاذ تدابير دفاعيّة والبحث عن سبل الحماية والترقب والاستعداد.

إن هذه المخاوف العامّة والهواجس المشتركة، حرّكت شعور العامليين وإحساسهم بشكل أكثر تحديداً ووضوحاً بوحدتهم وكيانهم. وربما بدأوا منذ هذه اللحظة بالتصرّف كوحدة متميّزة، لا كشيوخ متباعدين توحّد المصالح بينهم حيناً، وتفرّقهم أكثر الأحيان، وبدأ التاريخ أيضاً من هذه اللحظة بالاهتمام بهم، والتعرّض لهم وذكر شؤونهم وأخبارهم، بعد أن أهملهم زمناً لأنه لم يكن لديهم ما يستوقفه من قبل ويثير اهتمامه.

قبل فخر الدين لم يكن من السهل أن ننظر إلى العامليين كشعب تجمعه لحمة محدّدة، ويتميّز عن غيره من جيرانه بوضع سياسي وأمني وإداري خاص، تختفي فيه أو تكاد معظم عوامل التفرقة والتباين. ولكن ممارسات فخر الدين وحّدت بينهم ودفعت بكلّ عائلاتهم وأطيافهم وطبقاتهم إلى اتخاذ موقف إزاءها.

إن القتل والسجن وهدم البيوت ومصادرة الأرزاق ونهب المواشي والقيام بغارات عشوائيّة، تخلّف وراءها الدم والدمار، ساوت بين العامليين، وغرست بينهم إحساساً بالحاجة إلى التضامن والتعاون والسعي الموحّد، إلى الحدّ من كلّ هذه

---

(1) قرالي، م.م. ص 84.

(2) انعقدت جميعات من الجانبين الشيعي والمعني وموضوعها واحد في الحالتين وهو العلاقات المتردية بين الفريقين تاريخ الصفدي ص 66 ـ 67 ـ 68.

التعديات، والبحث عن قوّة يمكن الإستعانة بها. يشدهم إليها التقارب الجغرافي والتجانس المذهبي فقصدوا الأمير الحرفوشي المقيم في مشغرة، وشكوا إليه متاعبهم وتشاوروا سرّاً في التدابير التي يمكن أن تحدّ من سياسة فخر الدين العاملية. فكان أن زادت هذه الإتصالات، الخرق اتساعاً وقادت إلى تصلّبه وجنوحه إلى قدر أكبر من التنكيل والبطش، أجبر جميع الشيوخ الكبار وغيرهم من الأعيان، إلى اللجوء إلى بعلبك وطلب المعونة والحماية من الأمير يونس الحرفوش، الذي نجح بعد فترة في رفع يد فخر الدين عن ولاية صفد، حماية لسكان جبل عامل وتولاّها هو شخصياً. وكان ذلك من أهم أسباب النزاع الذي انفجر عسكريّاً بين الأميرين بعد ذلك.

ظهر العداء بين فخر الدين ومتاولة جبل عامل منذ تولّيه على صيدا، ثم على صفد. واشتدّ بمرور الوقت حتى أثناء غيابه في أوروبا استمرّ جماعته بالإغارة على قراه فباغتوا عيناتا سنة 1614م واصطدموا بأصحابها آل شكر.

وكان آل منكر العامليين قد شاركوا في حملة الحافظ احمد باشا سنة 1614م. كما دعموا حسين اليازجي المتولّي على صفد، وكذلك آل شكر وآل علي الصغير قبل أن يقع اليازجي قتيلاً في معركة مع الأمير علي فخر الدين[1].

وحال عودته أظهر عداوته لهم وقبض على أحد شيوخهم الذي جاء مرحباً به، **ففارقوه وما عادوا قابلوه**[2]. وهرب مشايخ بلاد بشارة، بيت منكر وأولاد علي الصغير إلى بعلبك عند الأمير يونس، فداهمت عساكر فخر الدين **عيناتا وأنصار وبنت جبيل وهونين الفوقا والزرارية فهدموا البيوت ونهبوا الغلال**[3].

إن ممارسات فخر الدين الإنتقامية في جبل عامل أزالت النفور والتباين بين مختلف عائلاته وطبقاته وخلقت الظروف المناسبة التي دعمت نفوذ آل علي الصغير كقوّة مركزيّة مطاعة، على حساب بعض العائلات، التي كانت تنافسهم أحياناً فاختفى آل سودون وآل شكر وبقي العداء للمعنيين متأجّجاً حتى نهاية حكمهم في الشوف وصار الصدام بين الفريقين من الخصائص السياسيّة الدائمة بين المنطقتين.

(1) تاريخ الصفدي، ص 40.
(2) المصدر السابق، ص 71.
(3) المصدر السابق، ص 72.

آل سودون وآل مشطاح

إذا كان التمعن في تاريخ لبنان عمليّة عسيرة ومعقّدة وشاقّة، كمن يتلمّس طريقه في الظلام، عبر حقل من ألغام الهوى والعصبيّة والمذهبيّة والعشائريّة والمبالغة، التي تبرز ما يوافقها، وتغفل ما يناقضها. فإن في تاريخ جبل عامل كلّ ذلك، بالإضافة إلى فخّ آخر يتمثّل في عدد كبير من الأساطير، تسرّبت إلى متنه في حقب مختلفة وتجذّرت فيه حتى صار إعادة الفصل بينهما عمل شاق يقتضي الكثير من الدقّة والحذر.

حفل جبل عامل في العصور المتأخّرة بالعديد من المؤرّخين والكتّاب وأهل العِلم، ممن تعمّقوا في كتب التاريخ والسِّيَر واستنبطوا منها ببراعة ملحوظة أحداثاً وأسماء لا تعني شيئاً محدّداً في ذاتها، ولكنهم دعموا بها هذه الأساطير وربطوها بخيوط قد لا يلمس وهنها إلاّ أصحاب المعرفة والقدرة والجلد، وبنوا عليها أخبارهم ووثّقوها وأفاضوا في التحليل والمقارنة والجدل حولها، ونسبوها إلى معالم جغرافيّة وأثريّة لا يتأكّد من واقع وجودها ودلالتها، إلاّ من عاينها وشاهدها. وتأكّد من جدّيّة نسبتها وجدواها. إن انتزاع هذه الأساطير والحكايات من حيث وضعت. وإعادتها إلى مكانها الطبيعي في حيّز المرويّات والتراث وتنقية التاريخ من آثارها وتداعياتها، كان يسيراً وممكناً لو لم يكن لها ولو في جزء يسير وهامشي من وقائعها، ما يحتّم إبقاؤها حيث هي وإهمال معظم الباقي.

قد يرى البعض أن الحل هو في الإقتصار على المصادر الموثوقة، وإهمال هذا النوع من السِيَر بكاملها خوف الوقوع في الزلل والشطط. ولكن هذا الحل له محاذيره البالغة فان ما كتب عن جبل عامل، في مؤلّفات البعيدين عنه، سواء في مناطق لبنانية أخرى أو خارج لبنان، قد أهمل عمداً، في أحوال عديدة، الإهتمام بأحداثه ذاتها إلاّ بما يساعد في إبراز واقعة تستأثر باهتمامها وعنايتها، فترد أحداثها مبعثرة ومختصرة. هذا عدا عن ما قد تجنح إليه من تحامل في غالب الاحيان.

لذلك لا بد من مقاربة هذه الأساطير التاريخيّة، ولو بأقصى الحذر والتأنّي والإعتماد على المقارنة والتدقيق، للوصول إلى الهدف المنشود في وسط هذا الحقل من الألغام.

يبدأ تاريخ جبل عامل العثماني الموثق والمكتوب، في السنوات الأولى لحكم فخر الدين المعني في جبل الدروز. وهذا ما ينطبق إلى حدّ بعيد على سائر المناطق اللبنانية، وقبل ذلك كان يضطر الساعي إلى ملاحقة نتف مبعثرة، لا يركن اليها في بناء سياق تاريخي واضح ومتكامل.

ليس من المرجّح أن يكون العامليون قد رحّبوا بالسلطان العثماني الفاتح، بل إن عواطفهم على الأقل لا بدّ أن تكون إلى جانب المماليك، رغم ما عانوا، وعانى الشيعة الاخرون من جورهم. إلاّ أنهم خضعوا كسائر بلاد صفد وصيدا لحكم ناصر الدين ابن الحنش، ثم لخلفه منصور ابن فريخ. إلاّ أن المؤرّخ محمد جابر آل صفا، يذكر نقلا عن تاريخ جودت باشا ملخّصاً يفيد: «**إن السلطان سليم بعد انتصاره في مرج دابق عام 1516م وسقوط سوريا في يده سأل عما إذا كان بقي من آل سودون أحد يذكر، فذكروا له أميراً منهم يدعى سودون بك من أهل التقوى اختار العزلة في بيته وعكف على العبادة، وله ولدان من أهل الشجاعة والبأس، أحدهما يدعى ذو الفقار والثاني قاسم زار السلطان سليم هذا الأمير في بيته، وشهد على اعتكافه وصلاحه وورعه فأكرمه وأحسن إليه وأعجب ببسالة ولديه فأنعم عليهما بإقطاع بعض الأراضي وجعل كلّ منهما رئيساً لفرقة من الجند**»[1].

لا يذكر الكاتب إذا كان سودون في حينه من سكان جبل عامل، وإن كانت الزيارة قد تمّت في بيته أم أن هناك سودون آخر يقيم في مكان خارجه.

إن اسم سودون يتردّد في جبل عامل باعتباره إسم أسرة قد حكمت بعضه في يوم غير معلوم التاريخ، ومنطقة لا يمكن تحديدها، إلاّ أن المرويّات العامليّة تصرّ على الكلام عن هذه الأسرة، وتسهب في أخبارها. ويقول المؤرّخ المذكور نقلاً عن مخطوطة شاهدها، وأوراق مؤرّخين آخرين اطلع عليها إن «**أسرة سودون أو أبو سودون حكمت جبل عامل أو قسماً منه في عهد المماليك، وبقيت في عهد العثمانيين، وكانت على**

(1) تاريخ جبل عامل صفا، ص 38.

نزاع على الحكم مع آل علي الصغير، وتدخل الأسطورة لتروي قصّة صغيري حاكم هو حسين بن علي الصغير أُجبر كقريبه الآخر، على النزوح هرباً من فخر الدين المعني تاركاً الحكم لآل سودون ولأسرة أخرى من أعوانها هي آل مشطاح وعمل مروّضاً للخيول ـ ميرياخور ـ في جبال نابلس متخفّياً قبل أن يعثر عليه بعض جماعته عند آل طوقان[1] ويدعونه للعودة فأمده صاحب نابلس بخمسماية فارس سار بهم إلى بلاده حتى وصل إلى بنت جبيل، وكانت قاعدة آل سودون فهاجمهم، وقتل رجالهم، وشتت أنصارهم من آل الشامي، وآل مشطاح، وتعقّب ابن سودون الهارب من وجهه على طريق خربة سلم، وأدركه عند العين وقتله واجتزّ رأسه. فسمّيت العين باسم عين بو سودون حتى اليوم، وقتل مدبّره ابن مشطاح بطريق القصير: عند شقيف هناك لا يزال يدعى للآن (شقيف مشطاح). وبما أن نائب الشام سنة 1478م كان اسمه سودون استنتج بعض العامليين، أنه ربما عيّن أحد أقاربه في أحد مناصب الحكم في جبل عامل فتوارثته أسرته حتى قضى الصغيري عليها»[2].

يغلب الطابع الأسطوري على هذه الرواية التي لا تختلف كثيراً عن الروايات التي اشتهرت عن آل علي الصغير. ولكن أسرة سودون كانت بدون شك، من أصحاب السطوة والحكم في سنة 1600م على الأقل وقد قاتلت فخر الدين وهزمته في ذلك التاريخ كما أورد الدويهي.

«في سنة (1009هـ ـ 1600م) جاء باشا الشام في البحر، وطلع لمدينة صيدا الأمير فخر الدين وقدّم له الهدايا والذخائر، فطيّب خاطره وكتب عليه إيالة صيدا وأقاليمها فسكن الأمير فيها. فحسدوه بيت سودون، حكّام بلاد بشارة وقرايبهم بيت ظريفة القاطنين في قلعة بانياس فزحفوا على بلاد صيدا نحو ألفي رجل ونزلوا عند نهر الزهراني. فخرج إليهم الأمير فخر الدين بخمسماية رجل فوقعوا في المآية خيال التي كانوا قد بعثوها لينهبوا ساقية صيدا فكسروهم ثم اجتمعت عليه الرجال وكسروا جماعة الأمير»[3].

يبدو من نص الدويهي، أن هذه العائلة كانت تحكم فعلاً في بلاد بشارة، وأنها كانت

(1) عائلة من أعيان نابلس أصلهم من المماليك صار منهم متسلمون عليها من وزراء الشام.
(2) المصدر السابق، ص 41.
(3) الدويهي، ص 422.

على قدر من السلطة بحيث استطاعت أن تجمع ألفي مقاتل، وتهزم فخر الدين. وقد تكون أسرة من أهل العِلم، لاشتهار أكثر من عالِم دين، يحمل هذا الاسم، وأحدهم ينسب إلى ميس الجبل[1] حيث تقول الأسطورة إن كبيرها قتل قريباً منها. وقد تكون أسرة علي الصغير هي التي قضت على وجود آل سودون إستناداً إلى المرويّات الشعبيّة، وربما بمساعدة آل طوقان حكّام نابلس. ولم تترك هذه الأسرة بعدها أثراً يذكر عنها، سوى عين ماء بالقرب من ميس الجبل، وأساطير تروى بين العامة عن ظلمها ووحشيّتها[2].

يقتضي تنقية بعض التواريخ العامليّة من الأساطير التي علقت بها، والمبالغات الحماسيّة التي تحدّ من واقعيّتها، والتي تتشارك في ذلك مع بعض أهم المصادر التاريخيّة اللبنانيّة التي تتناول نفس الحقبة الزمنيّة وتعالج الأحداث والوقائع نفسها أحياناً. فتاريخ الأمير حيدر هو من أهم المراجع التي لا بدّ، لأيّ باحث، من الرجوع إليه يعمد إلى الإسهاب في وصف معركة ربحها المعنيون أو الشهابيون، على العامليين مبالغاً في ذكر التفاصيل البسيطة، بلغة حماسيّة ومسجّعة، بينما يختصر إلى حدّ الغموض إذا كانت الأحداث تجري باتجاه لا يرضي ميوله وعواطفه، وفي ذلك لا يختلف عن الركيني مع تبدّل الأطراف وتناقض العواطف.

يقول الركيني في وصف هجوم عاملي علي الشوف.

«حين وصل الخبر إلى أهالي الشوف، بوصول عسكر الذين قلوبهم بحبّ الله مشغوف، زعق في الشوف غراب البين ونادوا بأجمعهم الهرب من أين إلى أين؟ ووقع فيهم الرحيل والشتات وخرجت المخدّرات في البراري هائمات إلخ...»[3].

ويقول الأمير حيدر في وصف معركة مشابهة:

«ولما وقعت العين على العين، وهاج كلّ من الفريقين، صدم الأمير حيدر جموع الشيعة فاخترقها، وبادر صفوفهم فمزّقها، وانكسرت جموع الشيعة المتاولة وانقضوا بعزائم عاطلة. ..الخ»[4].

(1) هو الشيخ حسين بن علي بن محمد بن سودون الميسي، توفي سنة 1566م، ذكره صاحب الأعيان كما ذكر غيره يحملون إسم سودون.
(2) صفا م.م.، ص 42.
(3) تاريخ الركيني، ص 95.
(4) الغرر الحسان الشهابي، ص 9.

ما إن ظهر فخر الدين المعني الثاني على تخوم جبل عامل، حتى بدأ التاريخ يلتفت إلى هذه البقعة التي كان أهملها منذ الفتح العثماني، لأنه لا يهتمّ عادة إلا بالأحداث الكبيرة المدوّية، وبقدر ما ينتج عنها من حروب وصدامات تترك تعقيداتها وبصماتها على التطوّرات اللاحقة. تميّزت الفترة السابقة لفخر الدين، بالإضافة إلى قلّة المراجع التي تناولتها في لبنان عموماً بما حصل أثناءها من أحداث جسام وتطوّرات خطيرة من شأنها أن تثير انتباهاً خاصاً واهتماماً زائداً حتى في الأماكن البعيدة جغرافياً عنها. ويبدو أن الأمور استمرّت في جبل عامل، على نفس وتيرتها السابقة للفتح العثماني، بحكم التقاليد والأعراف المطاعين من الجميع. يدير شؤونه العامة إلى جانب علمائه الذين احتفظوا بدورهم الفعّال، أسر حاكمة اقتصرت علاقتها مع دمشق وصفد على دفع الضريبة المفروضة، وحدوث بعض المتاعب عند التلكؤ عن الدفع في المواعيد المقرّرة. وكانت المرّة الأولى التي يعرض فيها الدويهي إلى تاريخ جبل عامل عند ذكره للهجوم الذي قام به آل سودون على فخر الدين بالقرب من صيدا سنة 1600م، كما يفتتح الصفدي سلسلة طويلة من الأحداث التي ذكرها عن جبل عامل وبلاد بشارة. بذكر الهجوم الذي قام به بعض جنود فخر الدين على عيناتا والمعركة التي جرت من جرائه.

برزت أسر ثلاث على راس العامليين طيلة فترة حكم فخر الدين (1590 ـ 1600م)، بالإضافة إلى أسرة سودون وقرايبهم بيت ظريفه القادمون من وراء حدود جبل عامل (بانياس) وهي آل شكر وآل منكر وآل علي الصغير.

إذا كانت الأساطير تناولت نهاية آل سودون وآل شكر، على يد علي الصغير، أو أحد أحفاده القادم من بلاد بعيدة لاستعادة مكانة عشيرته، بعد أن شرّدها خصومها من الأسرتين، ولم يبق غيره للثأر والحكم، فإن التاريخ يدحض هذه الرواية تماماً ويؤكّد أن العائلتين قاتلتا فخر الدين في نفس الوقت، الذي كانت فيه أسرة علي الصغير تشارك معهما في مقاومته، والتجأت مع بيت شكر إلى بعلبك عند الأمير يونس ورحّبت الأسرتان بولاية حسين اليازجي على صفد، ومن الواضح أنهما كانا يتواجدان معاً على رأس السلطة أو الزعامة، ويسيران في نفس الإتجاه السياسي المعادي والمقاوم للتسلّط المعني.

لقد انقطعت أخبار أسرة سودون منذ انتصارها على فخر الدين في الزهراني، أما آل شكر فقد ذكرهم الصفدي ثلاث مرّات على الأقل «كبسة عيناتا 1614م» وتأييدهم ولاية حسين اليازجي، بالإشتراك مع الصغيريين، وأخيراً قيام فخر الدين بالإنتقام منهم بهدم بيوتهم ومصادرة غلالهم 1617م والتجاؤهم أخيراً إلى بعلبك في نفس

العام، كما ذكر الصفدي أسماء آخرين من أعيان عاملة تعرّضوا لتنكيل فخر الدين ورجاله أمثال الحاج علي بن أبي شامة في بنت جبيل، وفرحات بن داغر في قرية أنصار[1].

من المؤكّد أن آل سودون كانوا حكّام بلاد بشارة، أو من حكّامها على الأقل وأنهم هاجموا فخر الدين وقاتلوه وانتصروا عليه، كما أنه من المؤكّد أن آل شكر كانوا من العائلات المرموقة في العقد الثاني من القرن السابع عشر.

ومن المؤكّد أيضاً أن العائلتين قد اختفتا عن مسرح الأحداث في النصف الأوّل من القرن السابع عشر، إثر هزيمة قاسية لم تقم لأيّ منهما بعدها قائمة.

بعد استبعاد الأساطير التي تفسّر هذا الموضوع بشكل روائي غير مقنع، ومراجعة المصادر العامليّة الجادة التي لا يزال بعضها مخطوطاً والإستدلال بالوقائع العامة العائدة لهذه الفترة، يمكن ترجيح تفسير مغاير يقترب من الواقع إلى حدّ بعيد دون إمكانية إثباته، بما يضعه موضع الحادثة التاريخيّة التي لا تقبل الجدال.

دخل جبل عامل في إقطاع فخر الدين بحكم التزامه سنجق صـ.ـد. ودخلت عساكره إلى قراه وقلاعه. فهبّ مشايخ البلاد لمقاومته وفي مقدّمتهم الشيخ حسين الصغيري كبير أسرته، الذي اضطر إلى الهرب من بطش الملتزم الجديد، فاختفى في مكان قرب نابلس، بانتظار الفرصة المناسبة للعودة. وفي خلال غيابه اشتدّ نفوذ آل سودون وتعاظمت قدرتهم وتكاثر جنودهم، فقاموا بهجومهم مع أقربائهم على فخر الدين في صيدا، بعد أن شعروا كغيرهم بخطورة مطامحه للسيطرة على بلادهم. وعندما رأى الصغيري الفار أن الظروف تسمح له بالعودة إلى بلاده وإستعادة وموقعه السابق فيها، وذلك قبل أو أثناء غياب فخر الدين في إيطاليا، وتغيّر أحواله عاد الصغيري، وربما برفقة مساعدة صغيرة من آل طارقان زعماء نابلس. فقاتل أخصامه من آل مشطاح والشامي، وانتصر عليهم وتعقّبهم حتى أفناهم ولم يترك لهم نصيراً ولا أثراً، وعاد إلى حكم بلاده كما كان من قبل. ولما عاد فخر الدين من غيبته الطويلة وساءت علاقاته مع الشيعة، هرب آل علي الصغير وآل شكر إلى بعلبك، وعملوا سويّاً على الوقوف بوجه فخر الدين. وبعد سقوطه عاد النازحون إلى بلادهم، حتى حصل خلاف بين الأسرتين سنة 1649م انتهى بالقضاء على آل شكر. ولم تظهر بعد ذلك أسرة أخرى تنافسهم حتى استقرّت الأحكام بين يدي أسر ثلاث متحالفة ومتعاونة. وهم الصغيريون والمناكرة والصعبية.

(1) تاريخ الصفدي، ص 71.

كانت نهاية فخر الدين على يد والي دمشق سنة 1633م. فتولّى حكم الشوف علي علم الدين، وهرب ملحم المعني إلى جبل الشيخ ينتظر الفرصة المناسبة للإنقضاض عليه.

تلاشت السلطة المعنية واستعاد العامليون التحكّم بشؤونهم على ما كانوا عليه قبل أن يتولى فخر الدين «سنجق صفد». ولا بدّ أن كراهيّتهم له قد انتقلت إلى من خلفه من أسرته، وهو الأمير ملحم فوالوا خصمه الأمير علي علم الدين وعملوا على دعمه ومساندته.

استطاع الأمير ملحم المعني بعد أن دفع ثلاثين ألف قرش إلى الوزير مراد باشا، أن يعود إلى حكم جبل الدروز، وأن يلتزم سنجقيّة صفد، ويعيّن من قبله اسماعيل الكردي من أمراء رأس نحاش، متسلّماً على صور حتى تاريخ وفاته سنة 1658م.

رغم الوهن الذي أصاب الأسرة المعنيّة في أواخر عهدها، في حكم الأخوين قرقماز وأحمد، ثم حكم الأخير منفرداً، لم يهمد النزاع العاملي المعني تماماً. فقد قام أحمد المعني بغزوة فاشلة على النبطية، لم تحرز نتيجة تذكر، فاستجار بوالي صيدا والتقى الإثنان مع العامليين في واقعة وادي الكفور (1078 هـ ـ 1666 م) في عهد الشيخ أحمد بن علي الصغير شيخ المتاولة[1]. كما هزم ألف من العامليين أحمد المعني وهو على رأس جيش من سبعة آلاف رجل وذلك سنة (1070 هـ ـ 1659م)[2].

قلاع جبل عامل

ينفرد جبل عامل عن غيره من المناطق اللبنانيّة بعدم وجود مدن أو قرى معيّنة، كمراكز ثابتة للحكم، يقيم فيها الحاكم إقامة دائمة، ويباشر منها مهمّاته في سائر الجهات كدير القمر في جبل الدروز، وبعلبك في البقاع، رغم وجود بعض القرى التي كان يقيم فيها أفراد من بعض العائلات الحاكمة، مما جعلها هدفاً سهلاً للغارات، يشنها من يسعى إلى مهاجمتها أو إلى الإنتقام من أصحابها، كعيناتا لآل

(1) هو أول من حمل هذا اللقب، راجع الغرر 733 والفقيه 386.

(2) مشغرة في التاريخ ،الشيخ حسين الخشن ص 101.

شكر، وبنت جبيل لآل سودون، والنبطية للصعبيين والكوثرية للمناكرة. غير أن فترة تدخّل فخر الدين في جبل عامل، والغارات التي قام بها في مناسبات متعددة، ضد عائلات وأهداف ومراكز سكنيّة عامليّة مختلفة، والسياسة التي سار عليها خلفاؤه من المعنيين والشهابيين بعده، بالإضافة إلى تعديل التنظيم الإداري السابق، واعتبار صيدا مركزاً لباشويّة منفصلة عن ولاية الشام، فرض على الحكّام العامليين أن يبتعدوا عن القرى لتجنّب المفاجآت العسكرية، وما ينتج عنها من خسائر فادحة بالرجال والأموال، والإنتقال إلى أبراج أو قلاع محصّنة، تحدّ من إمكان الغارات المفاجئة، وتؤمّن أكبر قدر من الحماية بوجهها وتحافظ على حالة استعداد دائم لأيّ طارىء أو غارة أو هجوم أو غزوة، سواء من جانب الوالي في صيدا أو عامله في الشوف أو من الاثنين معاً. وربما كان ذلك من التقاليد الإقطاعيّة والعسكريّة الغربية التي مارسها الصليبيون طيلة مدّة وجودهم في جبل عامل، من إقامة الحاكم أو القائد في قلعة محصّنة وهو تقليد ساد لفترة طويلة في العهود الإقطاعية في أوروبا نفسها.

عمد حكّام جبل عامل إلى بناء أبراج محصّنة أو ترميم القلاع القديمة الباقية من العهد الصليبي وقبله، والإقامة الدائمة فيها لما توفّره من ميزات دفاعيّة ضدّ أيّ هجوم مفاجىء، وكأنهم في حالة حرب وتأهّب واستنفار دائمين، يتحكّم بهم الخوف والقلق والترقّب والإستعداد لأيّ طارئ، يأتي من خارج البلاد، ويجلب معه عادة المآسي والكوارث، والطمع في إخضاعها، ونهب ما أمكن من أرزاقها المتواضعة. ففي منتصف القرن السابع عشر كان معظم شيوخ جبل عامل قد انتقلوا إلى قلاع يقيمون بها خارج المدن والقرى على الشكل الآتي:

حاكم مقاطعة تبنين (بلاد بشارة) قلعة تبنين.

حاكم مقاطعة هونين (بلاد بشارة) قلعة هونين.

حاكم مقاطعة صور (ساحل قانا) قلعة مارون.

حاكم مقاطعة ساحل معركة (الشومر) قلعة ميس.

حاكم مقاطعة بلاد الشقيف قلعة شقيف أرنون.

حاكم مقاطعة جباع قلعة جباع.

حاكم مقاطعة إقليم التفاح لا قلعة له في هذا الوقت.

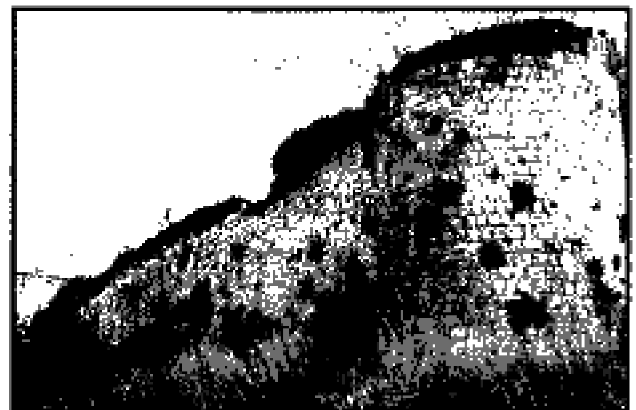
وانتشرت في مختلف أنحاء جبل عامل قلاع أخرى كثيرة منها القليعة، مركبا، ابل السقي، تل دبين، دير ميماس، الخربة، كونين، القعقعية.

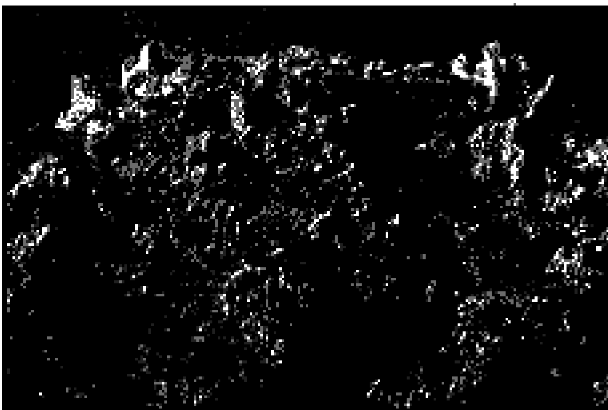
كانت سلطة العثمانيين على جبل عامل في هذه الفترة تقتصر على جمع الضرائب التي يجبيها والي صيدا. وكثيراً ما تمنّع العامليون عن الدفع، وكان ذلك سبباً للكثير من الحروب والمشاحنات. وفي سنة 1773م كانت الضرائب العثمانية موزعة على مقاطعات جبل عامل وقلاعها[1] مقارنة بباقي مقاطعات ولاية صيدا على الشكل التالي.


قلعة تبنين


قلعة ميس


قلعة شمع


قلعة مارون


قلعة الشقيف

(1) تاريخ لبنان الحديث، منير وعادل اسماعيل و D.D.C. T2 p. 325 - 327 من تقرير للقنصل الفرنسي في صيدا.

	بالقروش
منطقة بلاد بشارة باشراف الشيخ ناصيف المقيم في قلعة تبنين.	18158
منطقة بلاد بشارة بإشراف الشيخ قبلان المقيم في قلعة هونين.	18158
منطقة صور بإشراف الشيخ أحمد العباس[1] المقيم في قلعة مارون.	18158
بلاد الشومر بإشراف الشيخ علي العباس المقيم في قلعة ميس.	9770
بلاد الشقيف بإشراف الشيخ علي الفارس.	11247
بلاد جباع بإشراف الشيخ حسين منصور المقيم في قلعة جباع.	7196
بلاد التفاح بإشراف الشيخ حمزة منصور وليس له قلعة[2]	7196
مجموع مقاطعات جبل عامل.	97809
جبل الدروز.	66927
البلاد الخاضعة لحكم الشيخ ضاهر العمر صفد وعكا والناصرة.	137353
مدينة بيروت.	58786
مدينة صيدا.	50000
مجموع ميري ولاية صيدا.	410875

(1) ربما كان اسمه مركباً كما جرت العادة في تسمية أبناء هذه العائلة وهو أحمد عباس المحمد النصار.
(2) أصحاب القلاع الخمس من العائلة الصغيرية الوائلية والباقون من بني صعب ومنكر.

العامليون وجبل الدروز بعد فخر الدين

يحاول بعض المؤرّخين العامليين المعاصرين، بذريعة الإلتزام الدقيق بالواقعية والموضوعيّة تفسير الإنتفاضات الدمويّة المتوالية التي قام بها العامليون ضد الولاة العثمانيين، والمعارك التي خاضوها ضد المعنيين ثم الشهابيين المدفوعين غالب الأحيان بأوامر من الولاة المذكورين، بأنها لا تعدو كونها جهوداً للتخلّص من أيّ وسيط محتمل بينهم وبين العثمانيين، أو انها نزاعات عاديّة على الحكم والنفوذ بين الطامحين، وقد ذهب فريق منهم، إلى حدّ اعتبارها انتفاضات فلاحيّة، ذات مضمون إقتصادي بحت، يرمي إلى التخفيف من الضرائب المرتفعة التي تتخطّى قدراتهم المتواضعة على الدفع.

يقول أحدهم: «**إن الحديث في جبل عامل عن الحكم الوطني، والروح الوطنية والتضامن القومي، هو إسقاط مفاهيم برزت في بداية القرن العشرين، على أحداث ووقائع تاريخيَة حدثت في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين**».

إن في هذا التفسير تجنّياً وتحاملاً على الواقع التاريخي العاملي، رغم صحّة القول، إن المفاهيم القوميّة في القرن العشرين هي غيرها في القرون السابقة. ولكن الشعور الإنساني بالإنتماء إلى وحدة ما، هو نزعة غريزية وطبيعة أصيلة، لازمت الحسّ البشري في مختلف المجتمعات والعصور. وأن شعور العامليين بوحدة الإنتماء والمصير والتطلّعات، هو الذي عيّن السبل المشروعة لتحقيق المصالح العامة، لمجموعة تتأثّر سلباً أو ايجاباً بنفس المقدار في ظلّ واقع قائم ومحاولة تغيير نحو الأنسب والأفضل والأكثر عدالة وأماناً.

من أجل ذلك، كانت الإنتفاضات العامليّة في غالب الأحيان، تقوم بوجه الوالي العثماني في صيدا الممثل المباشر للسلطة الحاكمة، وللسطان، سيّدها المطلق ورمز جبروتها. ولم تكن الغارات المعنيّة والشهابيّة المتكرّرة إلاّ وجهاً، من وجوه هذا الصراع، لأنها تتمّ عادة بأمره وبموافقته أو باعتماده نتائجها على الأقل.

إن مقدار الضريبة وطريقة دفعها، والمستفيد منها، لم تلعب إلاّ دوراً محدوداً في هذا

المجال. لأن دافع الضرائب الأساسي وهو الفلاح العاملي، يدفع وبنفس المقدار سواء كان الحاكم عاملياً أو معنياً أو عثمانياً. فلا يختلف الأمر في جميع هذه الأحوال. ولكنه يندفع إلى القتال بحماس وإقدام للدفاع عن مثلٍ يعتبر أنها من الأهمية بحيث تدفعه إلى المخاطرة بنفسه وبماله للدفاع عنها وتحقيق ما يمكن منها.

إن الإنتصار في هذه المعارك، يثير مشاعر الإعتزاز والفخر في نفسه، كما أن الهزيمة تثير الحسرة والأسى، وفي الحالتين يعتبر نفسه معنياً شخصياً وذاتياً بالأمر، وهذا هو الشعور الحقيقي بالوطنيّة، بصرف النظر عن تسميتها أو حيزها الجغرافي أو البشري. إنه يقاتل دفاعاً عن حدود بقعة جغرافيّة معيّنة، في أيّة جهة كانت ويلبّي دعوة الزعيم الشاهر سيفه من أجل قضية مشتركة وعامة.

إن معركة العاملي في وجه الوالي العثماني، أو المعني أو الشهابي، القادم من الشمال، أو الزيداني القادم من الجنوب، هي في واقع الامر معركة واحدة لهدف واحد، هو الدفاع عن وطن، يعتبره وطنه، وقومٍ يعتبرهم قومه، قبل أن تتسع مفاهيم الوطن والقوم في القرون القادمة، وتتعمّق في مفاهيم الفلسفة والتاريخ والجغرافيا وعلم السياسة.

ربما كان هذا الشعور كامناً قبل أن يأتي فخر الدين ويثيره، ولكنه ازداد حدّة وبروزاً مع غارات المعنيين اللاحقة، فلم يكد والي صيدا الأول خورشيد باشا، يستلم مهام باشويّته المستحدثة، حتى عمّت الثورة بوجهه كامل أنحاء جبل عامل، ولم تخمد بعدها بصورة نهائيّة أبداً. فكانت تتأجّج من وقت إلى آخر، تبعاً للتطوّرات السياسيّة والعسكريّة الطارئة، وكلّما هاجم شهابي بعسكره قرية من قراه، أو دسكرة من دساكره، أو حصناً من حصونه، دون الإهتمام بشخص صاحب كلّ منها، ومن يكون. لأنه يكفي أن يكون عاملياً ليثير النخوة والإندفاع في وجدانِ كلّ عاملي آخر ويبادر مسرعاً إلى التصدّي والدفاع.

لقد قاوم العامليون فخر الدين باندفاع، وبإمكانيات محدودة. ولما تبيّن لهم عقم هذه الجهود بسبب البون الشاسع في موازين القوى، هاجرت قياداتهم المعروفة في ذاك الزمان دون أن يشذّ أحد من عائلاتهم الحاكمة التي سيلتفّون حولها في الملمّات للبحث عن قوّة خارجيّة يستندون إليها، وتجمعهم معها روابط معيّنة تحتّم قيام تحالف سياسي مشترك. فلما انتهى عهد فخر الدين، وعاد المعنيون إلى حجمهم العادي، قام العامليون بمحاولة صدّهم، اعتماداً على قواهم الذاتية وحدها، لأن التعادل في القوى عاد إلى فرض توازناته على الصراع، فلما جاء الشهابيون واستعان بهم ولاة صيدا، كان

العامليون قد اكتسبوا مزيداً من الشعور بالإنتماء والخبرة في المقاومة والنزوع إلى الإستقلالية في تصريف شؤونهم فأخذت المعارك حجماً أكبر، ولم تعد الغارات المباغتة تكفي لتحقيق نتائج سياسيّة وسلطويّة، فتوالت ثوراتهم منذ عهد مشرف وقبله، وتتابعت في عهد أولاده حتى اكتسبت في وقت ما بعداً عاماً إقليمياً ودولياً، وتحوّلت إلى حرب شاملة بين ناصيف النصار على رأس العامليين، والسلطة العثمانيّة بقيادة ولاتها في صيدا وعكا ودمشق، وعمّالهم من الشهابيين بقيادة يوسف الشهابي. وتحالف العامليون لأول مرّة مع قوى محليّة كظاهر العمر، وإقليميّة كأبي الذهب، ودوليّة «الاسطول الروسي». واتسع ميدان الحرب إلى مختلف أنحاء سوريا، وامتدّ إلى سنوات طويلة، تحوّل جبل عامل في نهايتها إلى أرض محروقة بعد أن قتل زعيمه وخيرة مقاتليه وعلمائه، وتشتّت الباقون في مختلف الأنحاء، وضاعت معالم استقلاله وازدهاره التي قاتلوا من أجلها طوال أجيال. ولم يبقَ لفترة طويلة إلاّ الدم والدموع والحسرات والذكريات، وقصائد يتناقلها الأبناء عن الفردوس الضائع المفقود.

من الصعب أن نفصل روح التمرد والثورة التي طبعت تاريخ شيعة الشمال بما يجري عند اخوانهم في الجنوب. فالعدو العثماني هو واحد في المنطقتين والقمع والتنكيل وفتوى أبو السعود أفندي ومن عمل بها واستوحى منطلقاتها هي المحرك الرئيس في الحالتين. إن الحرب الشيعية العثمانية العامة التي اندلعت في واواخر القرن السابع عشر ألهبت بنارها جبل عامل وجبل لبنان في وقت واحد، وإن لم يكن ذلك متداولاً ومعروفاً حتى عند أكثر العامليين غوصاً في المصادر التاريخية وستوضح الوثائق الرسمية أن هذه الثورة الواحدة دارت في جبهتين، وشملت الشيعة في كل المناطق التي يتواجدون فيها ضمن حدود لبنان الحالي.

ظهور بني علي الصغير

إن المتناقضات والمغالطات والمبالغات التي تناولها المؤرّخون العامليون في شأن بداية هذه الأسرة، وتسلسل أنسابها ونزاعاتها الأولى مع غيرها من الأسر، لا تصمد أمام أوّل تحليل علمي أو منطقي أو واقعي أو تاريخي، يحاول مناقشتها وإخضاعها لسياق تاريخي مقنع، أو محتمل. فهي لا تخرج عن كونها مجموعة غير مترابطة من السرد القصصي المرسل، الذي لا يكاد يتضمّن من التاريخ، إلاّ إشارات مبهمة تتخبّط بدون تحفّظ في التواريخ، والأسماء والحوادث، وتنتقل بين العصور بما يخالف في معظم الأحيان، أو ينفلت من الإطار العام المتعارف عليه في التسلسل والمنطق ومجريات

الأحداث المعروفة أو المحتملة.

إن ما هو متداول في أمهات، المراجع العامليّة المعتمدة وغيرها، والذي يفتقر أحياناً إلى قابليّة الإطمئنان له، والإقتناع به، لا يثير خللاً مهمّاً في السياق التاريخي العام، لأن التعرّض له أو إغفاله سيان. ما دام لا يمسّ البناء التاريخي في جوهره ولا يشكّل ثغرات مهمّة فيه.

عُرفت الأسرة الوائليّة في بدايات العصر العثماني بالأسرة الصغيريّة، أو أولاد علي الصغير. وكانت في عهد فخر الدين تشترك مع أسر أخرى، قد تتساوى أو تقلّ أهمّيّة عنها، في إدارة الأمور العامّة في جبل عامل، والتي تركّزت في هذه الفترة حول مقاومة محاولات فخر الدين للسيطرة عليه وإخضاعه عن طريق التزام سنجقيّة صفد والتنكيل بالقوى التي تعارض هذا التوجه أو تقاومه.

في بداية القرن السابع عشر، كان آل سودون من حكّام بلاد بشارة. كما أن هناك أسرة أخرى، هي آل شكر، كانت كما يظهر، تشارك آل علي الصغير في حكم أجزاء من البلاد من مركزها في عيناثا، الذي قد لا يكون المركز الوحيد. وتنتهج الأسرتان سياسة واحدة في تحالف ظاهر، أو على الأقل في حالة عدم عداء. إذ أن آل شكر قاموا بنجاح، بصدّ غارة لبعض جند فخر الدين على قريتهم، وقتلوا قائد الغارة وعدداً من جنوده، ولاحقوا المعتدين حتى الحولة، كما أن الأسرتين اجتمعتا على تأييد ولاية حسين اليازجي عدوّ فخر الدين ومنافسه على صفد، كما فعلت الأسرة الثالثة «آل منكر» سنة 1617م. قبل أن تضطر الأسرتان إلى ترك ديارهما في العام نفسه والإلتجاء إلى القوّة الشيعيّة في البقاع التي كان يمثّلها الأمير يونس الحرفوش.

ذكر المؤرّخ الصفدي هذه الحوادث عن بيت شكر، وهو معاصر لها وربما مشارك في أحداثها، مما يؤكّد صحّة وقوعها ومدلولاتها ويفيد أن الأسر الأربع التي ذكر إحداها الدويهي وذكر الصفدي الثلاث الباقية، كانت تتقاسم، وربما على درجات مختلفة، النفوذ والحكم في جبل عامل في الفترة التي كان فيها فخر الدين أميراً على جبل الدروز ومتولّياً على سنجق صفد أو ساعياً لولايته.

كانت معركة الزهراني التي انتصر فيها آل سودون على فخر الدين، كما كان لجوء آل شكر بصحبة آل الصغير إلى حمى الحرفوشي في بعلبك آخر ما ذكره التاريخ عن العائلتين الأولتين، فلم يسمع أو يؤتى بعدها على ذكر لهما. وبدا وكأن الصغيريين انفردوا بحكم جبل

عامل ومشيخة العشيرة منذ ذلك التاريخ.

أسهبت الروايات العامليّة في تفصيل أحداث النهاية المأساوية لآل سودون، وتمايزت في سرد الطريقة التي تمّت بها، كما تفاوتت في تحديد زمانها. ولكنها اتفقت على حصول نزاع متمادٍ بينها وبين آل علي الصغير، انتهى بإستئصالها على يدهم في وقت اختلف في تعيينه. ونرجّح أن ذلك حصل على يد حسين بن علي الصغير المعاصر للأمير فخر الدين، والذي اضطر بعد خلافه معه إلى الفرار خارج بلاده نحو الجنوب، فانفرد آل سودون بالحكم وطغوا، حتى تألّب الناس عليهم. فعاد حسين الصغيري وربما بنجدة من بعض حلفائه في جبال نابلس والبلقاء، ومن بني عمّه في البادية، وقام على رأس حزبه بمداهمة آل سودون في بنت جبيل، فطوّق منازلهم، وهزم جندهم، وقتل رجالهم، وشتّت أنصارهم، وتتبّع آثارهم حتى أفناهم قتلاً وتشريداً،ولم تقم لهم بعدها قائمة. ويبدو أن هذا الهجوم الناجح كان في حدود سنة 1613م وهي السنة التي اضطر فيها فخر الدين إلى ترك إمارته والسفر إلى إيطاليا، مما غيّر الأوضاع في جبل عامل، وسمح للصغيري بالعودة، بعد أن انحسر نفوذ عدوّه فخر الدين، ولما عاد بعد خمس سنوات 1618م انفجر الخلاف مجدداً بينه وبين جميع العائلات المقدّمة في جبل عامل. ولم يعد لبني سودون عندها وجود.

بعد زوال بني سودون بقي بنو شكر من الأسر النافذة، وذوو السلطان في جبل عامل، وكانت عيناتا قاعدتهم، وربما مدّوا نفوذهم في وقت ما إلى قانا وتبنين. ويبدو أن الأسرتين كانتا في أوّل الأمر على شيء من التفاهم والتحالف، إلاّ أن خلافاً حاداً ما لبث أن استعر بينهما، وأدّى إلى صدام دموي قتل فيه أحد مشايخ الصغيريين، وانتهى بانهزام بني شكر ومقتل كبيرهم أحمد وتشتّت الباقون فكانت نهايتهم كعائلة عامليّة حاكمة سنة 1649م[1].

استمرّ العداء المعني الصغيري بعد مقتل فخر الدين، وانحسر حكم المعنيين عن الشوف، وتولّى عليه الأمير علي علم الدين من قبل والي الشام سنة 1639م فكان من الطبيعي أن يناصره آل الصغير باعتباره عدوّ المعنيين ومنافسهم على الحكم، فلما مرّ السلطان مراد في حلب قاصداً بغداد لمحاربة الصفويين، اجتمع إليه أصحاب الإيالات والحكم من بلاد الشام وغيرها، فخاف ابن علم الدين وارتحل إلى

(1) جبل عامل تاريخ وأحداث، رامز رزق، ص 200.

بلاد بشارة فاجتمع عليه أهلها وناصروه، فقصدهم الأمير ملحم المعني، وهاجم قرية أنصار في 19 آب 1638م وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، وتوالت الصدامات بين علم الدين وملحم، فهرب أهل الشوف والغرب والمتن والجرد من بلادهم وخليت بلاد الدروز. وفرّ الأمير ملحم[1] ويقول المؤرّخون العامليون إن ألفاً وخمسماية قتيل من المتاولة سقطوا في أنصار مقرّ آل منكر، واستباح ملحم القرية سلباً ونهباً، وكانت هذه المجزرة حلقة في سلسلة الغارات المعنيّة التي شملت الكوثريّة وعيناثا وبنت جبيل والزرارية وحومين، وهي التي أطلق عليها العامليون معركةُ أنصار الأولى تمييزاً لها عن معارك أخرى وقعت في نفس القرية في تواريخ لاحقة [2].

على أثر حركة العصيان الواسعة التي اشترك فيها الحماديون والمعنيون والشهابيون وغيرهم سنة 1658م، قامت الدولة باتخاذ تدابير قصدت منها مواجهة مثل هذه الحركات في المستقبل، ومنها تسمية صيدا مركز ولاية مستحدثة، وتعيين والٍ تركي عليها هو علي باشا، وإلحاق جبل عامل وجبل الدروز بها، بعد أن كان الأوّل يتبع سنجق صفد، والأخير ولاية دمشق، وكان هدفها الرئيس في هذا التنظيم الإداري الجديد إضعاف أولاد العرب وزيادة فعاليّة الرقابة على مناطقهم[3]. جاء الوالي الجديد إلى صيدا لتنفيذ سياسة الشدّة والبطش، التي أزمعت الدولة على اتباعها مع رعاياها من أولاد العرب.فكانت الفتنة العظيمة بينه وبين مشايخ المتاولة التي ذكرها الشهابي باختصار شديد، وسكت عنها المؤرّخون العامليون القدامى، بينما اقتصر المحدّثون على الإشارة إلى عظمة الواقعة وفداحة الخسائر وكثرة الضحايا وعلى رأسهم علي بن علي الصغير وأولاده سنة 1072هـ ـ 1662م[4].

ربما هذا هو الصدام المباشر الأوّل بين الصغيريين وبين الوالي العثماني، دون أن يطلب من حكّام الشوف معاونته في حربه. لأن العلاقات بين الطرفين لم تكن تسمح بذلك، بعد أن اختفى الحكّام القدامى من معنيين وشهابيين هرباً من السلطة،

---

(1) الدويهي، ص 519, وكذلك الشدياق، ص 125.
(2) المتاولة في جبل عامل، أحمد رضا (جبل عامل بين 1516-1697م) علي ابراهيم درويش، ص 151.
(3) الدويهي، ص 551 (حتى يحطّم ذراع أولاد العرب عمل صيدا باشوية).
(4) جبل عامل في التاريخ الفقيه، ص 176.

واستبدلت بهم أخصامهم في مناصب الحكم.

على أن إرادة القتال وإمكاناته، قد نمت وترسّخت عند الوائليين والعامليين عموماً، واستحداث مركز ولاية في صيدا، سيزيد من إمكانات الصدام مع ولاتها وسيثير في العامليين وشيوخهم هواجس جمّة.

بعد مقتل علي وأولاده الذين لا نعرف عددهم، وهل هم كلّ أولاده أو بعضهم، تولّى الحكم أحمد بن علي الصغير، وهو أوّل من أضاف المؤرّخون اللبنانيون إلى اسمه لقب «شيخ المتاولة»[1] وقد توفي فجأة عام (1090هـ 1679م). بعد أن شهد على الأرجح وقعتي النبطية والكفور (1077هـ ـ 1666م) والتي انتصر فيهما المشايخ. على الأمير أحمد المعني في معركة النبطية[2] وعلى والي صيدا في المعركة الثانية.



قصر الشيخ من بني علي الصغير في تبنين.

(1) المقتطف الشيخ أحمد رضا سنة 1910 ص 491 (درويش م.م.).
(2) راجع عن ذلك واقعة استضافة عالم مشغري للأمير المعني في فصل «مشغرة».


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثالث

الثورة الكبرى

إن نجاح فخر الدين في التزام لواء صفد من والي دمشق ومحاولاته ولو بالعنف المتواصلة للسيطرة على جبل عامل، أرست سياسة العداء والخصام بين العامليين والمعنيين وازدادت العلاقات توتّراً ودمويّة بعد حلول الشهابيين مكان أنسبائهم المعنيين في حكم جبل الدروز.

فما كاد أوّل شهابي يصل إلى الحكم حتى أصبح الأداة الطبيعية الطيّعة في يد الباشا العثماني لإخضاع الشيعة في جبل عامل. وقمعهم كلّما أمرت الإدارة العثمانية بذلك[1]. وقد استمرّت هذه الحربة مشرّعة في يد الباشا العثماني[2]. حتى أواخر عهد الشهابيين وانهيار إمارتهم في جبل الدروز، بعد خروج ابراهيم باشا وحليفه الأمير بشير الشهابي من لبنان.

المواجهة الأولى ـ الشيخ مشرف

هو مشرف بن أحمد بن علي بن حسين بن علي الصغير ثار سنة 1110هـ ـ 1699م أو 1700م على إرسلان باشا وخرج عن طاعته وقبض على جماعة من رجاله وقتلهم.

تنسب إليه مزرعة مشرف بساحل صور وداره فيها باقية حتى الآن[3]، وكان قد بنى

---

(1) استعمل هذا التعبير Instrument naturel du Pacha في وصف بشير الأول القنصل الفرنسي Bourée في تقريره عن تاريخ لبنان المرفوع إلى رئيس الوزراء الفرنسي مسيو غيزو Guizot في 17 كانون الثاني 1848م، D.D.C. T9, p 208.

(2) استعمل القنصل الروسي في بيروت بازيلي هذا التعبير في وصف الأمير ملحم حيدر شهاب في تاريخه، ص 62.

(3) أعيان الشيعة محسن الأمين 142 ص 466 وقد اختلف في تاريخ وفاة مشرف فقال الأمين إنه توفي في صيدا في صفر سنة (1112هـ ـ 1700م).

فيها مسجداً، ونقش على أحد جدران داره شعراً وذيّله بالجملة التالية «أشاد هذا البناء وأعلاه وأحسن النظر لو كافأ بناه الشيخ الكبير الملقّب بالصغير شيخ مشرف بن نصار دامت سيادته».

يقول الشدياق:

«وسنة 1700م خرج الشيخ مشرف بن علي الصغير المتوالي اليمني صاحب مقاطعة بلاد بشارة عن طاعة إرسلان باشا، وقبض على بعض غلمانه وقتلهم. فاستنهض الوزير المذكور الأمير بشيراً لقتاله، وأطلق له ولاية صفد مع مقاطعات جبل عامل الثلاث، وهي مقاطعة بلاد بشارة ومقاطعة إقليمي الشومر والتفاح. ومقاطعة الشقيف. فجمع الأمير من رجاله القيسيّة ثمانية آلاف مقاتل، وزحف بهم إلى قتال مشرف اليمني فالتقى به في قرية المزيرعة من بلاد بشارة. واصطفَّ الفريقان للقتال. ولم تضطرم نار الحرب بينهم إلاّ قليلاً حتى انكسر رجال مشرف وهلك منهم خلق كثير. وقبض على مشرف وأخيه الحاج محمد، ومدبّرهما الحاج حسين المرجي، فأرسلهم الأمير إلى إرسلان باشا. فقتل الوزير الحاج حسيناً وسجن مشرفاً وأخاه. وولّي الأمير من صفد إلى جسر المعاملتين، فوضع الأمير ابن أخيه الأمير منصوراً والياً على صفد. وجعل تحت يده أبا ظاهر عمر بن أبي زيدان العُمر المشهور، شيخاً على تلك الديار لأنه قيسي. وحضر إلى الأمير بنو منكر المتاولة أصحاب إقليمي الشومر والتفاح، وبنو صعب المتاولة أيضاً أصحاب مقاطعة الشقيف، ودخلوا في خاطره فأقرّهم على مقاطعتهم. ورجع إلى دير القمر معتزاً»[1].

يقول حيدر:

«في هذه السنة ظهر الشيعي بن علي الصغير صاحب مقاطعة ديار بشاره إحدى مقاطعات جبل عامل، وقرّر الخروج عن طاعة إرسلان باشا ونبذ أمره. ورمى القبض على جماعة من غلمانه وقتلهم. فاستنهض الوزير المذكور الأمير بشيراً إلى قتاله ومجازاته، وأطلق له ولاية مدينة صفد مع ولاية مقاطعات جبل عامل الثلاث وهي مقاطعة ديار بشارة ومقاطعة إقليمي الشومر والتفاح. ومقاطعة الشقيف. وضمّ الجميع إلى ولايته. فجمع الأمير جموعه القيسيّة من الديار اللبنانيَة. وصار قاصداً قتال مشرف المذكور، وكان مشرف يمنياً فأسرع الأمير بشير إلى قتاله ولم يتأخر.

(1) الشدياق، ص 312. يسميها القنصل تشرشل انتفاضة المتاولة. جبل لبنان ص 26.

فالتقى به في قرية المزيرعة من قرى بلاد بشارة وقد جمع رجاله وأحزابه لملتقاه، «فحشد إليه الأمير بشير بجيشه واصطفّ الفريقان للقراع ولم تهج الحرب بينهما إلاّ قليلاً حتى انفضّت رجال مشرف وانحطّت عزايمهم. وولوا مدبّرين فظفر بهم الأمير بشير وأهلك منهم خلقاً. وقبض على مشرف بن على الصغير وأخيه الحاج محمد. ومدبّرهما الحاج حسين المرجي. وأرسلهما إلى إرسلان باشا فقتل الوزير المشار إليه الحاج حسين واعتقل مشرف وأخاه ووضعهما في السجن. وأطلق للأمير بشير التصرّف في تلك الديار جميعها. فاستولى عليها واستقرّ له الأمر فيها. فوضع أخاه الأمير منصور والياً على صفد، وجعل تحت يده شيخاً على ديارها عمر ابن أبي زيدان، وكان المذكور رئيساً قيسياً. وهو والد ضاهر العمر المشهور. وكان قبله شيخ بلادها»[1].

هذا كل ما ذكرته المصادر اللبنانية الكلاسيكية عن ثورة الشيخ مشرف. وتبعهم العامليون في الخطوط العامة لهذه الرواية، بسبب فقدان أي مصدر عاملي خاص أضاف إليها شيئاً مهماً، إن هذه المصادر كانت السند الوحيد المتوفر لكل من تعرض لهذه الحركة. وإن أضافوا إليها بعض الآراء الخاصة. والحماس العاطفي، الذين لم يغيروا في وقائعها وأسبابها ونتائجها شيئاً يتوقف عنده. فهي بقيت حادث صدام عادي بين شيخ حاكم وبعض رجال الوالي، فكان لا بد من تأديب هذا الشيخ الجسور، فما كان من البطل الشهابي إلا أن لبى نداء سيده العثماني ولقن المتطاولين على غلمان الباشا درساً قاسياً وتركهم بين قتيل وأسير.

إن الوثائق العثمانية الرسمية والأوامر السلطانية واليسير الذي حفظ في سجلات المحكمة الشرعية في صيدا وطرابلس بعد أن أصبحت جميعها في متناول الباحثين وخرجت من المحفوظات إلى التداول، تبرز لهذه الحركة وجهاً مغايراً ومختلفاً عن كل ما كتب بشأنها سواء في تاريخها الصحيح أو في مضمونها ودلالاتها.

لم تكن ثورة الشيخ مشرف في الواقع إلا المشاركة العاملية في الثورة الشيعية العامة التي قامت في الشمال. وكان جبل لبنان والبقاع جناحها الشمالي كما كان جبل عامل جناحها الآخر. فكان المتمردون ينتقلون من الجنوب إلى الشمال وبالعكس حسب ما تقتضيه التطورات، وما تفرضه طبيعة المواجهات الدائرة، أو مستلزمات النجدة والمساندة والأمان. كما أن الدولة تعاملت معها كحركة واحدة قام بها متمردون ينتمون

---

(1) الغرر الحسان الشهابي، حوادث 1115هـ، ص 5.

إلى الجهة نفسها، واتخذت في سبيل القضاء عليها تدابير مشتركة في وقت واحد.

أنيطت إدارة العمليات السياسية والعسكرية بالسلطات العليا في العاصمة دون أن يكون للشهابي أو للوالي إلا تلقي الأوامر وتنفيذها.

قام الشيخ مشرف بتحركه بالتزامن مع اشتداد المعارك في الشمال، حيث كان المقاتلون من جبل العامل يتسللون في عمق الأراضي الخاضعة للسلطة وينضمون إلى اخوانهم في المعارك الدائرة شمالاً في ولاية طرابلس.

في شباط 1696م صدر عن الباب العالي الحكم السلطاني حول اشتراك العامليين في الثورة.

«إن المغضوب عليهم القزلباش الذين يتلقون تعزيزات من جبل عامل يرهبون عابري السبيل والفلاحين في جبال سرحال في ولاية طرابلس»[1].

ووجهت في الحكم نفسه أمراً إلى والي صيدا **لإعاقة القزلباش، ومنعهم من العبور شمالاً نحو طرابلس، حيث يتسببون بالدمار والهلاك.**

وفي أيار 1696م تلقى الأمير أحمد المعني أمراً صريحاً يحمل بعض الاتهام الضمني بمساعدة الثوار ومساندتهم. ويبدو أنهم يتجمعون في المناطق الشمالية من جبل عامل تمهيداً للالتحاق بميدان المعارك بدعم ومساندة من الشيخ مشرف.

«إذا تكررت هذه الأعمال بدعمك ومساندتك أو بدعم ومساندة الشيخ مشرف مثل تقديم الملجأ إلى اللصوص القزلباش القاطنين في المناطق الزراعية القريبة من صيدا. وحيثما وجدوا يقتضي استئصالهم»[2].

يرى المؤرخان الشهابي والشدياق ومعظم من أخذ عنهما (وهم جمهور المؤرخين في لبنان والعامليون منهم) أن انتصار الشهابي على مشرف وأسره بين يدي الوالي كان سنة 1700م فبطشت به وأقصته عن الحكم، وأصبح الشهابي هو السيد الوحيد يوزع المقاطعات على الموالين له بعد أن وضعها الباشا بتصرفه المطلق.

إن سجلات محكمة صيدا تفيد أن عقود الإلتزام أعطيت منذ آذار 1699م كما جرت العادة، إلى الشيوخ أنفسهم، فكان علي الحاج أحمد (الصفيري) متسلماً بلاد

(1) ا. م. د السجل 317 - 81: 108.
(2) ا. م. د السجل 1093 - 108:259.

بشارة ومحمد ناصر الدين (المنكري) على اقليم الشومر بالإشتراك مع سليمان ابن صعب[1] (الصعبي) واستمر ذلك في السنوات اللاحقة.

هذا ما يؤكد أن المؤرخين اللبنانيين وغيرهم لم تفتهم الدقة في التواريخ فحسب، بل إن ما ذكروه من اطلاق مقاطعات بلاد بشارة والشومر والشقيف تحت يد الأمير بشير هو قطعاً مناقض لما يستفاد من السجلات في محكمة صيدا الشرعية، ولسنوات عديدة بعد هذا التاريخ. وأن الباب العالي وجه اهتمامه إلى الاقتصاص من مشرف في تاريخ سابق قبل إقصاء أحمد المعني وهربه وربما اتخذت نفس الإجراءات ضد أمير الدروز وشيخ الشيعة معاً.

إن كل ما استطاع الأميران الشهابيان منصور وبشير الحصول عليه من مغانم في جبل عامل فيما بعد هو جباية بعض الرسوم الهامشية الخارجة عن نطاق السلطة بما فيها الرسوم على الجواميس وأثقالها في منطقتي بلاد بشارة والشقيف وهو تدبير مألوف في نظام الجباية العثماني[2] بينما بقيت عقود الإلتزام الرسمية بين يدي المشايخ العامليين كما كان الحال دائماً.

في الوقت الذي بلغت فيه ثورة الشيعة الشماليين أقصى امتدادها ووصلت المعارك مع القوات العثمانية ذروة عنفها صدر أمر سلطاني إلى ولاة دمشق وصيدا وبيروت بشن هجوم تأديبي على سبعة عشر قرية في جبل عامل فهرب السكان وخلت البلاد من أهلها فانخفضت الضرائب بمقدار ثلاثين ألف قرش وطرد الحكام المحليين الذين خلفوا مشرف وهم علي الحاج أحمد وأحمد النصار من الوائليين ومخايل ابن علي منكر وسليمان الصعبي[3] وهم رؤوساء العشائر العاملية الثلاث.

وفي الفترة التي كانت القوات العثمانية تتأهب للقيام بهجوم ضخم على آل حمادة في بلاد جبيل والبترون، تسلم والي صيدا أمراً من الباب العالي يطلب منه اتخاذ أقصى التدابير لمنع الإتصال بين جناحي الثورة والحؤول دون وصول التعزيزات من جبل عامل إلى ميدان العمليات في الشمال ومنع الشيعة الشماليين من التواصل مع اخوانهم الجنوبيين لإحكام الحصار على الفريقين تمهيداً للقضاء عليهما. فطلبت منه أن يسارع

(1) م. ص. ش سجل واحد ص 28.
(2) الإمارة الشيعية ص 189. سجلات المحكمة الشرعية في صيدا سجل رقم 1 ص 6 - 7.
(3) اموري مهمة دفتري سجل 114 ص1 وشكايات سجل40 ص 675.

إلى «قطع وربط الطرقات والممرات حتى لا يستطيع القزلباش أن يأتوا إلى جبال صيدا وبيروت لمساعدة هؤلاء اللصوص. وحتى لا يتمكن أحد من آل حمادة من الهرب إلى الأمير بشير (ولاية صيدا) أثناء ابادتهم»[1].

إن هذه الإبادة تستهدف الفريقين معاً، ما داما يقاتلا سوياً جنباً إلى جنب، في الشمال كما في الجنوب.

ومن أخطأته سيوف السلطان منهم، كانت سجونه له بالمرصاد، فحشر العاملي مع الجبيلي في زنزانة ضيقة، لم يخرجا منها أبداً.

إن عدداً كبيراً من أفراد آل حمادة ماتوا في سجن صيدا بسبب الإكتظاظ مع إخوانهم في الدين في جبل عامل[2].

«بعد عزل إرسلان باشا عن ولاية صيدا وحلول الأمير حيدر الشهاب خلفاً للأمير بشير المتوفّى، عاد الصغيريون إلى إظهار ثورتهم وتمرّدهم، وأغاروا على بعض بلاد الشوف وانضمّ إليهم المناكرة والصعبية، فتقرّب حيدر من والي صيدا الجديد، واشترى منه التزام المقاطعات الجنوبية، واستعدّ لحربهم بدعم من الوالي الذي توخّى من هذا النزاع بعض المكاسب الماليّة والسياسيّة»[3].

هاجم حيدر النبطية فالتقاه المتاولة خارجها، فانتصر عليهم وهلك منهم خلق كثير، ودخل بعضهم إلى القرية وتحصّن فيها فأغار الأمير بفرسانه وأهلكهم جميعاً، وانجلى بنو علي الصغير عن بلاد بشارة واستولى حيدر على ديارهم وأقام محمود أبو هرموش نائباً فيها من قبله سنة 1707م[4].

إن قدر هذه الأسرة التاريخي كقدر جبلها أن تقاوم باستمرار، عدوّاً شرساً يتفوّق عليها في مصادر القوّة والإمكانيات تفوّقاً ساحقاً، إذ لم يكن بمقدور جبل عامل بالنسبة لمساحته وعدد سكّانه، أن يجنّد أكثر من آلاف معدودة من الفلاحين الذين يضطرون عند دعوتهم للقتال إلى هجر أرضهم ومواسمهم وعائلاتهم، فلم يكن المقاتل العاملي

(1) شكايات سجل 40 ص 722 - 723.
(2) الإمارات الشيعية ص 154 نقلاً عن ابن نجيم في مجلة المشرق عدد 25 سنة 1927 ص 810- 820.
(3) التاريخ السياسي للإمارة الشهابيّة، عباس أبو صالح، ص 47.
(4) الشدياق، ص 313.

معتاداً على البقاء طويلاً في ساحة القتال، أو على خوض الحرب بعيداً عن موطنه. فالعامليون في النهاية فلاحون مسلّحون، لا يستطيعون هجر قراهم وزرعهم وعائلاتهم طويلاً، وهي مهدّدة بالتدمير والبوار والسبي. فعدوّهم الرئيسي هو والي صيدا الذي يمثّل الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، الذي يتمتّع باحتياط من الإمكانات البشريّة والماديّة لا حدود لها، وبمقدوره الإستعانة بما يلزم من قوّات الولاة العثمانين الآخرين،كما أن سلطته تخوّله في الوقت الذي يريد إصدار الأوامر إلى القسم الشمالي من ولايته، والمؤلّف من جبل الدروز وملحقاته، بحشد رجاله ومساعدته على إخضاع العامليين المتمرّدين، وهو ما فعله باستمرار بحيث أن الغارات التي قام بها ولاة الشوف على جيرانهم في جبل عامل تواصلت بشكل يكاد يكون ممنهجاً على امتداد قرون عديدة.

لم يكن الشهابي يتجاوز ما يقوم به أي ضابط عثماني يأتمر بأوامر الوالي في صيدا أو دمشق وبمساعدته وتحت اشرافه.

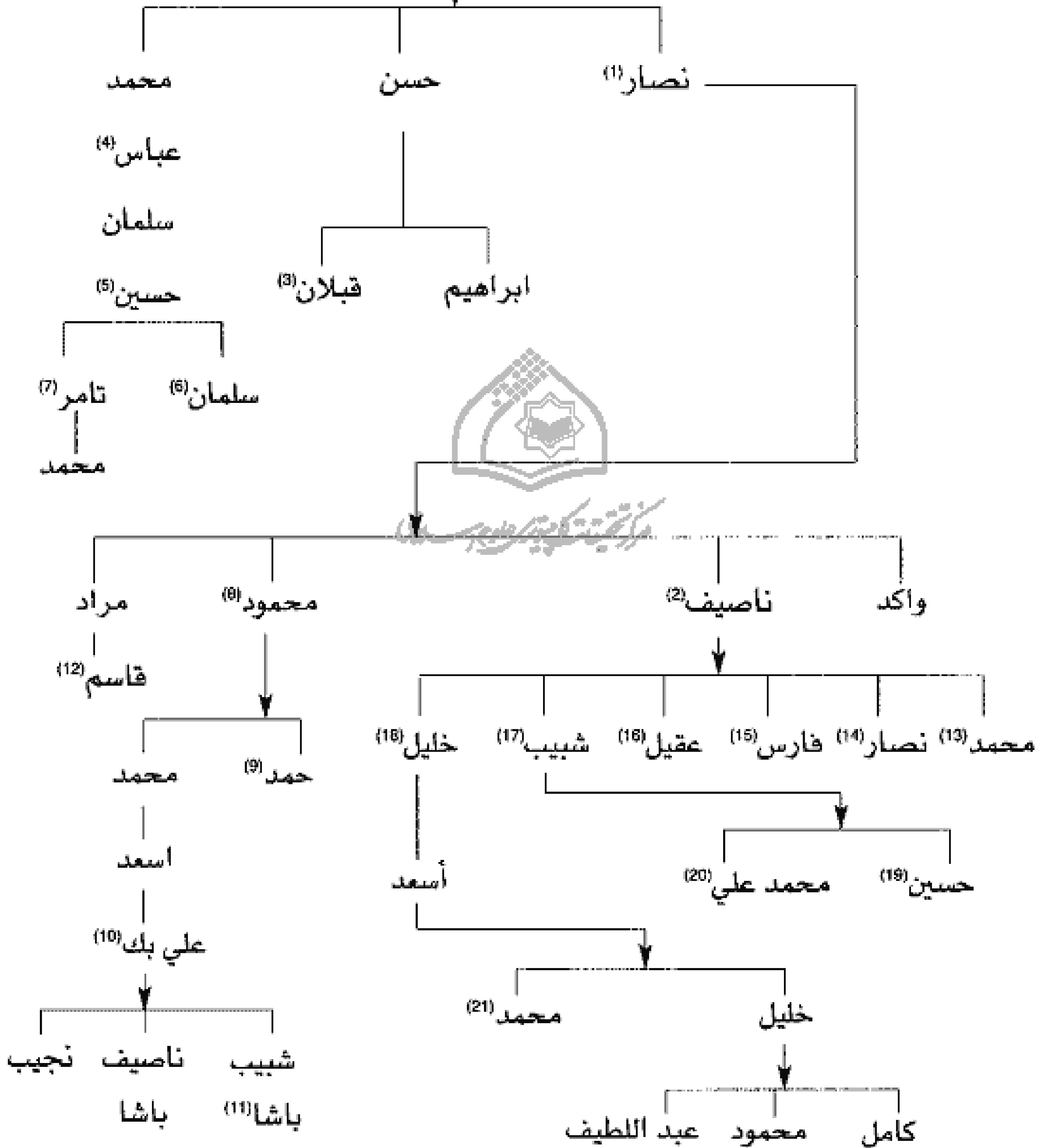
في هذه الفترة التي خلت فيها بلاد بشارة من سكانها وانخفضت الجباية إلى أدنى درجاتها ورفض المشايخ الشيعة قبول عقود الإلتزام العثمانية وفضلوا الرحيل عن ديارهم على الخضوع لإرادة السلطة. عهد الوالي بتأديبهم والإقتصاص منهم إلى حيدر الشهابي، وأمده بكل أسباب المساندة والدعم. ورغم كل هذه المعاناة استمر المشايخ في تمردهم، ورفضهم دفع الضرائب المتوجبة إلى والي دمشق، رغم أن أمرا سلطانياً وصل في حينه إلى والي صيدا يطلب فيه القيام بتسديد المبالغ المتوجبة على مقاطعات جبل عامل الثلاث بلاد بشارة والشومر والشقيف[1].

إن النقص في جباية الرسوم أثار اهتمام الباب العالي ولا بد أن تقارير الولاة عن فراغ الأرض من الفلاحين دافعي الضرائب، وخلو البلاد من مشايخها الملتزمين، ورفضهم القيام بهذه المهمة تبريراً لعجزهم عن إيراد المبالغ المطلوبة إلى الخزينة العامة، قد أثارت قلق الباب العالي فتلقى والي دمشق أمراً بالإهتمام في معالجة هذا الواقع ومراقبة الظلامات التي يوقعها الأمير في جبل عامل[2].

(1) ا. م. د. الحكم 422 - 101: 120.

(2) ا. م. د حكم 131:415.

بنو وائل الذين عرفوا في العهد المملوكي ببني بشارة، وفي العهد العثماني ببني علي الصغير، وفي مرحلة لاحقة ببني نصار ثم آل الأسعد.



(1) لا يمكن الركون الى مصادر موثوقة لمعرفة أسماء السابقين لنصار من آل علي الصغير ←

ولكن هذه المظالم استمرت بوتير متصاعدة .

في 15 كانون الثاني 1731م أرسل القس توما اللبودي تقريراً عن الأحوال العامة في البلاد إلى رئيس رهبانيته في روما جاء فيه:

تابع الهامش

فهو نصار بن أحمد بن نصار بن مشرف بن أحمد على قول الشيخ عبد المحسن الظاهر وهو نصار بن أحمد بن نصار بن مشرف على قول الشيخ الفقيه وربما أقرب الى الواقع ان يكون هو نصار بن نصار بن مشرف المتوفي سنة 1114 هـ 1702 م بن أحمد بن علي الصغير شيخ المتاولة المتوفي سنة 1090هـ 1679م. وتداول المؤرخون جدول نسب من وائل بن ربيعة إلى علي الصغير وفيه خمسة عشر عقبا ومن علي الصغير إلى ناصيف وفيه ثلاثة عشر آخرون (جبل عامل علي درويش ص 244) لم نثبته لغموض مصدره.

(2) تزعم ناصيف جبل عامل من سنة 1750م الى 1781م.

(3) أكبر آل نصار سناً مكث بعد نكبة الجزار مدة في بعلبك والهرمل وقتل في العراق سنة 1785م.

(4) باني صور وحاكمها توفي سنة 1778م.

(5) صاحب مقاطعتي جبل هونين ومرجعيون والشيخ العاملي الوحيد الذي سالم المصريين توفي سنة 1848م.

(6) خلف والده في بنت جبيل باسم مدير جبل هونين وتوفي في ميس سنة 1880م.

(7) راجع الوثيقة رقم D1 بتوقيع تامر وشقيقه سلمان.

(8) هو أحمد (ابو حمد) الفارس الشهير قتل في الجولان سنة 1779م.

(9) توفي سنة 1852. وهو المعروف بـ حمد البيك.

(10) آخر حكام جبل عامل في العهد الاقطاعي توفي سنة 1865م.

(11) صاحب العقد المنضد توفي في صيدا سنة 1917م.

(12) قتل مع عمه محمود في نفس المعركة.

(13) هو الاكبر سناً بين أولاد ناصيف.

(14) توفي في الطيبة سنة 1814م.

(15) توفي مسموماً سنة 1824م. وهو قائد ثورة الطياح وشيخ المشايخ.

(16) يقول البعض انه هو الذي قاد الهجوم على تبنين واحتل قلعتها ايام الجزار.

(17) توفي في شحور سنة 1805م.

(18) مات قبل عودة فارس الناصيف واتفاقه مع سليمان باشا وانتقل ولده اسعد الى الطيبة.

(19) حسين الشبيب قائد الثورة على المصريين شنق في دمشق سنة 1839م.

(20) شارك في الثورة مع اخيه ونجا من الاسر وعاش بعده 40 عاماً.

(21) شارك ابن عمه علي في الحكم والمنفى ومات الاثنان معاً في دمشق بالسم غالباً.

«قبل تاريخه بعشرين يوماً هاجم الأمير حيدر بلاد المتاولة والقبلية بلاد الشقيف واقليم الشومر باثني عشر ألف رجل ونهب البلاد وقتل فيها نحو أربعين قتيلاً وأخذ منهم ألفاً وحرق البلاد ونهب سحته وقطع أشجاره وهدم سرايات الحكام هدماً مريعاً»[1].

قاد شيوخ من آل الصغير هذه المقاومة، فتمرّسوا بالقتال وأساليبه وفنونه واكتسبوا ذهنيّة المحاربين وطبيعتهم، فصاروا أقرب إلى القادة العسكريين، منهم إلى الشيوخ الحاكمين. ولا بدّ أنهم تأثّروا بالتراث الشيعي في المقاومة والمواجهة، مما أكسب حروبهم طابعاً رسوليّاً وقدريّاً، تجاوز في أحيان كثيرة المبادئ والتقاليد العسكريّة المتعارف عليها، في تقدير قوّة الخصم والموازنة بين احتمالات الربح والخسارة.

لذلك بدا أن الكثير من رؤسائهم ورجالهم، وكأنهم جاهزون للقتال أبداً في حصونهم أو خارجها، على صهوات جيادهم وسيوفهم مشهرة، وليست فترات السلام النادرة التي نعموا بها، إلاّ فرصة عرضيّة للترقّب والاستعداد للجولة المقبلة.

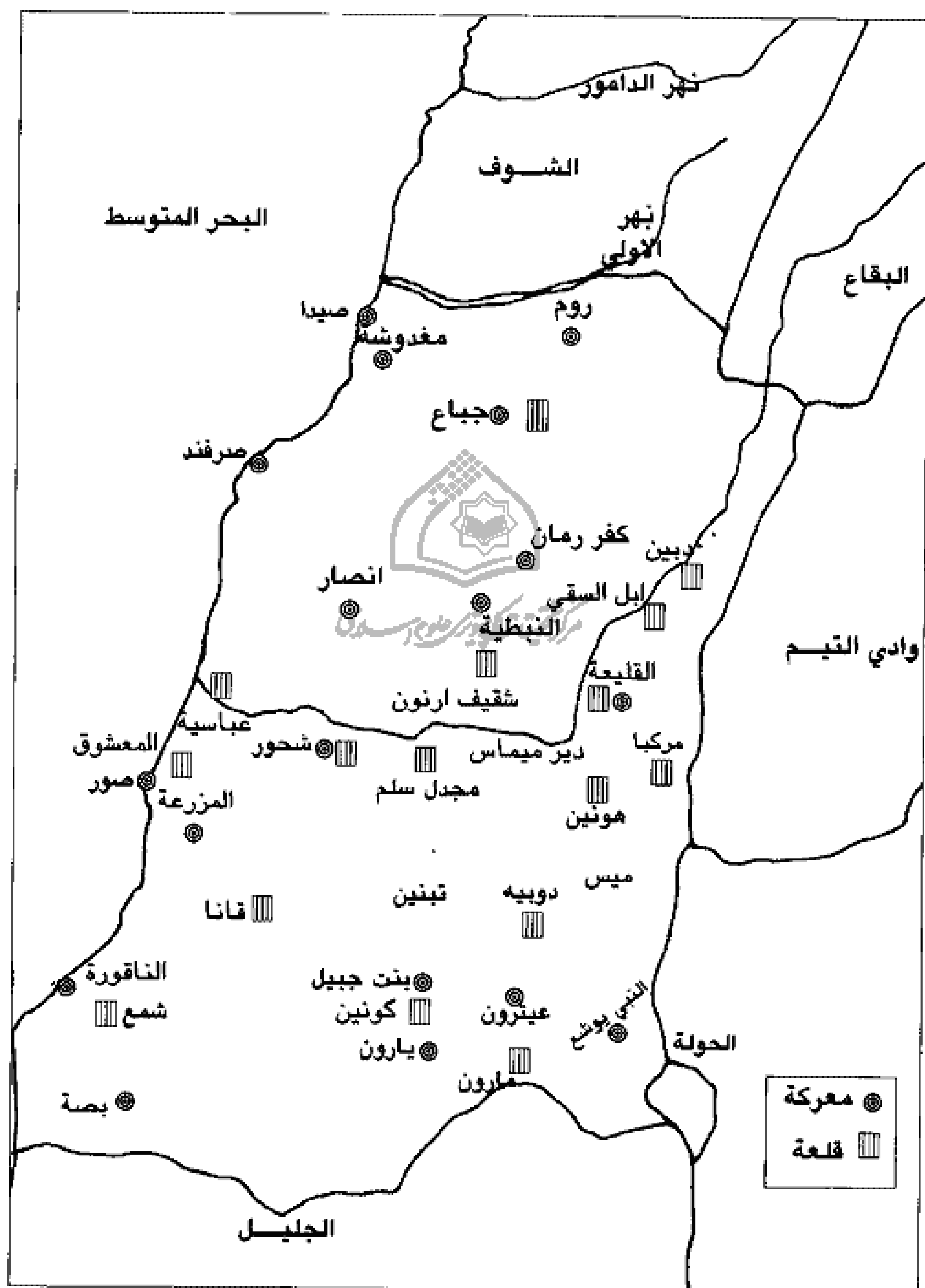
لا نكاد نعرف معركة هامّة خاضها الصغيريون إلاّ وكان عدوّهم يفوقهم عدداً وعدّة بأضعاف مضاعفة[2]. فلم يكن حول مشرف غير عدد قليل من الأعوان، حينما هاجمه بشير الأول الشهابي على رأس جيش من ثمانية آلاف مقاتل. فتصدّى له في معركة القاسمية قبل أن يلجأ إلى داره في المزرعة، حيث حوصر وأسر في النهاية، ليقضي نحبه بعد فترة وجيزة بعيداً عن بلاده، بين يدي الباشا في صيدا في ظروف غير واضحة المعالم، كما تقول المصادر اللبنانية.

وكذلك الحال في معركة النبطيّة التي خاضها الصغيريون مع باقي حلفائهم لصدّ حملة الأمير حيدر على بلادهم، بإيعاز من والي صيدا. فلمّا خرقت صفوفهم وتمزّقت، سارع الباقون على قيد الحياة إلى التحصّن والقتال في داخل القرية، حتى هلكوا جميعاً، ولم يستسلم أحد منهم، وانجلى مَن بقي مِن آل علي الصغير عن بلاد بشاره إلى حيث يمكنهم الإستمرار في المقاومة بشكل مختلف.

حتى في المعارك التي انتصروا فيها، كان عددهم قليلاً أمام أعدائهم، ففي معركة

(1) مجموعة اللبودي الأب بطرس فهد الكسليك ص 148.
(2) كان هذا هو حال الشيعة في مناطقهم الثلاث لأن عدوهم، وهو السلطة العثمانية غالباً، يتمتع بقدرات وإمكانات غير محدودة أمام طاقاتهم المتواضعة.

بعض المعارك والقلاع في جبل عامل



البحيرة كان جيش والي الشام عثمان باشا مؤلّفاً من اثني عشر ألف رجل مزوّدين بالمدافع، ولكن القائد الصغيري الشهير ناصيف، هاجمهم بخمسماية فارس، بعد أن قطع على نفسه عهداً أمام رجاله أن يبني مقاماً جديداً للنبي يوشع إذا ظفر بالعدو، وكانت نتيجة المعركة مقتل معظم أفراد جيش الوالي، ولم ينجُ منهم إلاّ من ألقى بنفسه في البحيرة، ولم يفقد المهاجمون جنديّاً واحداً، كذلك في معركة كفرمان التي هزم فيها مئات من العامليين بقيادة الشيخ الصغيري نفسه جيش الأمير يوسف شهاب وأوقعوا فيه آلاف القتلى.

في سنة (1144هـ ـ 1732م) جاء دور الأمير ملحم ابن حيدر ليتفق مع أسعد باشا العظيم والي صيدا، على قتال الصغيريين. بعد أن وعده بولاية بلاد بشاره فسار إليهم متذرّعاً بأسباب تافهة[1]. وقد مال إلى جانبه سلمان الصعبي والي الشقيف، فدهم بني علي الصغير والتقى بهم في أرض يارون، وقد جمعوا رجالهم وأحزابهم. فظفر بهم الأمير وأهلك منهم خلقاً، وقبض على مقدّمهم نصار، وفرّ إخوته إلى قرية جويا، فسار خلفهم وتبعهم إلى القنيطرة وقتل من غلمانهم جماعة، ونهب تلك الديار ثم رجع إلى لبنان ومعه نصار الصغيري موثوقاً وبقي عنده معتقلاً مدّة فحضر إخوته بعد أيام وارتموا لدى الأمير ملحم، واستغاثوا بعفوه وحلمه حتى اطلقه[2].

ولكن الشكاوى من نقص الجباية كانت لا تزال الهاجس العثماني الأول وكان ولاة دمشق وصيدا يدلون أمام الباب العالي بالمبرر الذي أصبح تقليدياً ودائماً وهو استمرار المعارك التي تنعكس سلباً على الجباية[3].

فرضت الظروف السياسيّة والإدارية المحيطة بجبل عامل والتي جعلته يبدو كجزيرة متميّزة، وسط محيط معاد وطامع، على آل علي الصغير أن يقودوا مقاومة تكاد تكون يائسة في بعض الأحيان وقدريّة في أحيان أخرى فقاموا بهذه المهمّة على امتداد أجيال متعاقبة، صامدين أو نازحين ومطاردين غالباً. وكان كبار شيوخهم ورؤسائهم يبدون كفرسان محاربين، ينتهون في غالب الأحيان إما أسرى كمشرف ونصار، وإما قتلى في

(1) التاريخ السياسي، عباس أبو صالح، ص 60, السبب الذي ادعاه الأمير ملحم أنهم أظهروا الشماتة والسرور بموت والده حيدر ويقول الشدياق انهم خضبوا ذيول خيولهم بالحناء سروراً (أخبار الأعيان، ص 317).

(2) نزهة الزمان، الشهابي، ص 913، حيث يكتفي المؤرّخ بالقول إن الأمير ملحماً قتل ثلاثة عشر رجلاً من قبيلتهم «علي الصغير» ونهب الدروز تلك البلاد ثم رجع أولاد الشيخ نصار وفكّوا أخاهم.

(3) ا. م. د. 145:52

المعارك كعلي بن علي الصغير ومنصور بن علي الصغير[1] وناصيف النصار ومراد النصار، ومحمود النصار وقاسم المراد وحمزه المحمد وغيرهم. ولطالما أُجبروا على الجلاء عن بلادهم وبيوتهم، والإلتجاء أحياناً لسنين طوال، إلى البوادي والقفار، والقيام بغارات متواصلة على مراكز العدو الذي تسلّط على بلادهم حتى يعودوا بفضل خيولهم وسيوفهم إلى ما كانوا عليه.

لقد جلوا عندما تسلّط فخر الدين على جبل عامل، وأقاموا في مشغرة وبعلبك كما جلوا عند تعيين محمود أبو هرموش حاكما على بلاد بشارة، وكان جلاؤهم الأقسى والأطول بعد اجتياح الجزار لجبل عامل ومقتل الشيخ ناصيف وتشتت العامليين في أماكن مختلفة.

واقتضى الأمر من الشيخ فارس الناصيف، حرباً عواناً وغارات دامية، استمرّت نحو عشرين عاماً، حتى استطاع العودة مع من نجا من عشيرته إلى ديارهم.

من أجل ذلك اختلطت الأسطورة بالتاريخ في سيرة هذه العائلة، وتناقل الناس في عهود مختلفة سيرة البطل الغامض في بادية نجد أو العراق أو جبال نابلس والبلقاء، والذي يعود شاهراً سيفه على حصان أصيل، يجمع أحزابه ويقتل أعداءه ليعيد مجد آبائه بعد أن اغتصبه الغرباء الظالمون، وقد تكرّرت هذه الرواية في أجيال مختلفة، مما يؤكّد تعرّض هذه الأسرة مرّات عديدة إلى ظروف مأساوية قضت بإختفائها بعض الوقت لتعود إلى موقعها السابق في كلّ مرّة.

لم يلقَ العامليّون السلاح بعد الهزيمة القاسية في يارون فجرت معركة أنصار المثيرة للجدل قبل انقضاء العام والتي قال عنها المؤرخون العامليون أنها لم تكن إلا خدعة قام بها أولي الأمر تنفيذاً لفتوى الشيخ نوح الشهيرة[2] بينما يراها غيرهم من مفاخر الشهابيين بعد أن سقط فيها ألف وخمسماية قتيل[3] واستمرت الأحوال على اضطرابها حتى ظهور ناصيف النصار على مسرح الأحداث.

حفل تاريخ العامليين والشهابيين بمواجهات متلاحقة وحروب متواصلة من الصعب حصرها وتتبعها بوضوح لتضارب التواريخ والتفاصيل والأسماء التي أوردها كل من الفريقين، فجاءت متباينة إلى حد التعارض والتناقض وهي لن تضيف جديداً إلى طبيعة

(1) قتله عثمان باشا والي صيدا سنة 1716م وحكم بلاد بشارة، قاسم شهاب «فأنشى بها مظالم كثيرة»، تاريخ الشهابي ص 16.

(2) جبل عامل في قرنين، السبيتي العرفان م. 5.

(3) تاريخ الشهابي الجزء الأول ص 29.

العلاقة العدائية بين المنطقتين والصدام المستمر، يقول العامليون:

« في سنة 1163 هـ ـ 1750 م نشبت في قريتي الخربة[1] والقليعة حرب بين عسكر الشيعة البالغ مجموعه ثمانماية رجل وعسكر الأميرين نجم وسيد أحمد. انتهت بانتصارهم وحلفائهم الصفديين على الأميرين الذين بلغت قتلاهم أكثر من ألف[2].

وحول معركة جباع التي جرت في نفس العام 1750م يسترسل الشهابي والشدياق في الإشادة بانتصار ملحم على المتاولة وكيف أحرق الأمير الشهابي بلادهم وقطع أشجارهم وعن كفاءة قادة عسكره من الموارنة وعن مئات القتلى المتاولة الذين سقطوا في ساحة المعركة[3].

بينما يقول العامليون أن عدة معارك حصلت هذا العام بين المتاولة والدروز بقيادة الأمير ملحم.

«في اليوم الثاني عشر من ذي القعدة كان الأمير ملحم معسكراً بجيشه الجرار على نبع القصيبة مستعداً لمحاربة الشيعة فنمى إليه حدوث موقعة في أرض القليعة من أعمال مرجعيون بين الأميرين نجم وسيد أحمد الشهابيين وبين الشيعة، وانتصار الشيعة على عسكرهما وأشار عليه أصحاب الرأي من رجاله بأن يباغت بلاد بشارة صبحاً قبل اجتماع رأيهم على أمر يصلحهم. فتقيم الضجة في بلادهم ويلقي الرعب في قلوبهم وعسكرهم فيتفرقوا، وبذلك ينال منهم مأربه بإخضاعهم، فاستحسن هذا الرأي ومشى بجيشه إلى الغرب من القصيبة وقطع به مخاضة (عين ابي عبد الله) على نهر الليطاني، وكان مشايخ بلاد بشارة مرابطين على جسر القعقعية فبلغهم خبر زحفه فلاقوه مسرعين في أرض دير قانون النهر بنفر يسير نحو خمسين رجلاً فحاربوا عسكر الأمير ملحم بهذا العدد القليل وكان عدد جيشه زهاء عشرة آلاف، فانجلت الواقعة عن قتل أربعة رجال منهم وخمسة من رجال الأمير ملحم، وكان من جملة قتلى الشيعة الشيخ مراد بن نصار الصغيري. ثم انصرف عسكرهم بحماية وبلغ الأمير قريتي شحور ومارون فهدمهما وأحرقهما في 13 ذي القعدة من هذه السنة»[4].

وكانت هذه المعارك آخر مواجهات جرت قبل أن يستأنف الغارات الشهابية على جبل عامل الأمير يوسف بأوامر ورعاية عثمانية في عهد ناصيف النصار.

(1) برج الملوك حالياً قضاء مرجعيون.
(2) الشيخ سليمان طاهر مجلة العرفان مجلد 24 ص 942
(3) تاريخ الشدياق ص 321 وتاريخ الشهابي ص 41.
(4) الشيخ سليمان ظاهر، مجلة العرفان مجلد 24 ص 799 للبحث عن تاريخنا ص450 الشيخ علي الزين. ويبدو الاختلاف والتناقض بين روايات الفريقين واضحاً وليس هناك روايات محايدة تزيل هذا الغموض الشديد.

الفصل الرابع

ناصيف النصار

«هو شيخ المتاولة الكبير المشهور في كلّ سوريا ببسالته وعظم قدره»[1].

كان عميد عشائر جبل عامل بطلاً مغواراً وقائداً محنكاً، جمع إلى الشجاعة والنخوة سخاء الكف وحسن التدبير، والغيرة القوميّة والمروءة المحضة»[2].

ناصيف هو أشهر أمراء الشرق الأوسط وأعظم أمير عربي قام في القرن الثاني عشر للهجرة[3].

«عهد ناصيف النصار هو أزهى عهود جبل عامل، وأشقى عهوده هو الذي تلا استشهاده». «كان العامليون في عهده يتمتعون بالحريّة والاستقلال، لا يخضعون لظالم ولا يتحكّم بهم غاشم فبرزوا في ميادين القتال وفي معاهد العِلم وفي مجالس الشعراء»[4].

«هو رئيس عاملة على الإطلاق، مدبّر شؤونها وحامي صولتها ومفرج كربتها ومعيد حريّتها ومحطّم نير الاستعباد. ومبيد الظلم والجور والاستبداد».

هو القائد المطاع، والجندي الباسل الفاتح، والمصلح المفكر والأمير الحكيم العليم.

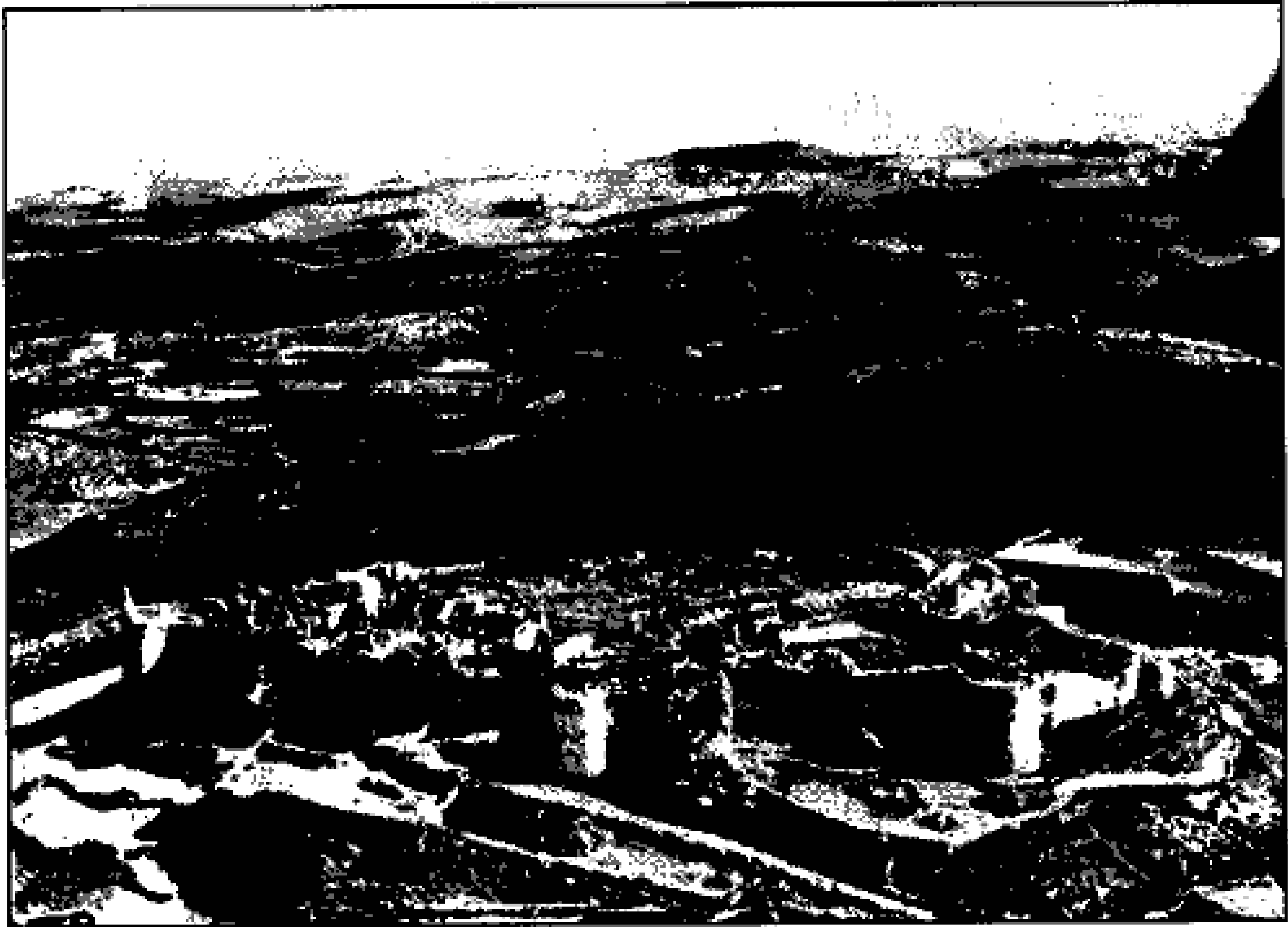
---

(1) D.D.C. T2, p 212.
"Nassif grand chek des Muthualis et fameux parmi ces peuples par sa valeur"
من تقرير الفارس دوتوليس De Taulés في 2 أيار 1772م.

(2) تاريخ جبل عامل، صفا، ص 117.

(3) المصدر السابق، ص 51.

(4) جبل عامل السيف والقلم، حسن الأمين، ص 145.



قلعة تبنين مقر ناصيف. كما كانت مقر الشيخ الحاكم قبله واستمرت كذلك بعده حتى نهاية الحكم العاملي.

«لم ينهزم في معركة قط ولم يشترك في حرب إلاّ وربحها وكانت انتصاراته غريبة في بابها تكاد تنكرها العقول، قتل من أعدائه ثلاثة آلاف قتيل في موقعة كفر رمان وقتل من جيشه خمسة عشر رجلاً فقط، وقتل من أعدائه في وقعة البحرة ثمانية آلاف، وقتل من عسكره رجل واحد هو الشيخ جبر الحمادة وبعد نصره كان لا يستأصل ولا ينهي ولا يدمّر. تمكّن من يوسف الشهابي وظاهر العمر وعفا عنهما وهزم آل المزيد بعد أن قتلوا أخاه محمود وابن أخيه قاسم المراد وطاردهم إلى الرمثا في أرض الأردن، ثم عفا عنهم وخلع على ولدي كبيرهم فاضل المهنا واستمرّ الشعراء يتغنون بمراثي أخيه وابن أخيه نحو ماية سنة»[1].

أشاد به القناصل الذين عرفوه[2]، وأشاروا إلى علوّ مكانته ومبلغ نفوذه وبسالته في الحروب. كما أحاطه المؤرّخون العامليون بهالة أسطوريّة رفعته إلى مرتبة الكمال كإنسان، وكحاكم، وكفارس. وتغنّت بمآثره وصفاته قرائح الشعراء من معاصريه ومن تلاهم، بسيل من المدائح والمراثي التي تعدّد مناقبه، وتشيد بمحامده، وتبكي في **إستشهاده العصر الذهبي لجبل عامل، عصر العزّة والمنعة والانتصارات كما هو عصر العلم والعدل والحرية وحسن التدبير.**

«هو عامود المتاولة وأفرس أهل عصره»[3].

«هو شيخ المتاولة وكبيرهم بطل صنديد وفارس غر»[4].

ابتدأ التاريخ يحدّثنا عن ناصيف منذ سنة (1163 هـ ـ 1749 م) في كلّ شهر بل في كلّ يوم إلى سنة استشهاده سنة 1780م»[5].

كان ناصيف يتمتع في الواقع بمزايا فريدة قلّما اجتمعت في غيره من حكّام بلاد الشام في عصره، ليس كحاكم أو شيخ أو قائد عسكري انتصر في عشرات المعارك فحسب، بل وربما قبل ذلك كإنسان وفارس، اجتمعت فيه الصفات الإنسانية المحمودة، إلى جانب شمائل الفروسية النبيلة، فجعلت منه شخصية تاريخية مميّزة، تصلح سيرته

(1) جبل عامل في التاريخ الفقيه ص 398 ـ 402.

(2) D.D.C. T2 p. 150.

(3) الدر المرصوف في تاريخ الشوف، القس حنانيا المنير، طبعة دار الرائد، ص 73.

(4) المصدر السابق، طبعة جروس برس، ص 35.

(5) الفقيه، م. م.، ص 397..

الواقعيّة لتكون أقرب إلى سير التراث الشعبي الذي يجسّد ما يطلبه الناس في الانسان، والحاكم والفارس من صفات منشودة يفتقدونها عادة، ولا سيما في الحقبة العثمانية التي عانى الناس خلالها من خبث الحكّام ونهمهم وظلمهم طيلة قرون عديدة.

لا تفيدنا المصادر المعتمدة، كثيراً فيما يتعلّق بالتاريخ الدقيق لولادة ناصيف وظروف نشأته الأولى[1]. قبل أن يصبح الزعيم الأكبر لجبل عامل، وغالب المصادر العامليّة التي عرضت للموضوع، تكتفي ببعض الافتراضات والاستنباطات والمقارنات، التي يمكن أن تلقي بعض الضوء على ذلك، فتعيّن تاريخ ولادته إعتماداً على سنّه عند وفاته، التي تفاوتت فيه الأقوال بين الخامسة والستين في بعضها، حتى يصل إلى التسعين في أقوال أخرى، وتستعين بالحدس للمقاربة من ظروف نشأته وطبيعتها ومحيطها[2].

ولد ناصيف على الأرجح سنة، 1713م وبدأ يشارك إخوته وأولاد عمومته في تولّي الأمور، بعد وفاة أبيه سنة 1731م أصبح الشيخ الأوّل، والمرجع العام في وقت سابق وقريب لسنة 1750م التي بدأ فيها مسيرته الحربيّة والسياسيّة والقياديّة كشخصيّة تاريخيّة مميّزة. تواكب المراجع التاريخيّة المختصّة مسيرته التي ستطول أكثر من ثلاثين عاماً بعد هذا التاريخ.

كان والده نصار الشيخ الأكبر، وعمّه حسن صاحب قلعة هونين وحاكمها، وعمّه الآخر محمد مقيم في قلعة مارون، فلما ظهر ناصيف كان قبلان ابن حسن، وعباس ابن محمد إلى جانبه من أهمّ شيوخ الأسرة الوائليّة.

كانت هناك مخاطر عديدة تهدّد جبل عامل، وتعيق استقراره وازدهاره، ونزوع أهله المتأصّل إلى الاستقلال في إدارة شؤونهم، والخضوع لشيوخهم وحدهم، لا لأيّ حاكم آخر، سواء أكان عثمانياً أم من الطامعين الدائمين من جيرانهم، فكان على ناصيف أن يهتمّ بمعالجة هذه المشاكل التاريخيّة المزمنة التي كلّفت البلاد الكثير من أمنها ودماء أبنائها، والتي يمكن إيجازها بالأمور الأساسيّة التالية:

1 ـ العداء الثابت والمستمر للعثمانيين وخصوصاً ولاة صيدا والشام وما سبّبه ذلك من صدامات دمويّة، تكاد تكون متواصلة فتدفع العامليين إلى التمرّد، مما يؤدّي إلى حملات تأديبية يشنها والي صيدا مباشرة، أو بواسطة حكّام الشوف ووادي التيم.

(1) إن مولد الشيخ ناصيف كان غامضاً ونشأته أكثر غموضاً (تاريخ تبنين ص 114).

(2) يقول الشيخ عبد المحسن الظاهر في مخطوطه عن الأسرة الوائلية. إن ناصيف ولد في مجدل سلم سنة 1715م.

تتصف بالقسوة والبطش والدمويّة، ينتج عنها عادة مئات الضحايا والويلات، وإحراق الأرزاق والقرى، وتخريب العمران والحرث والنسل. وكثيراً ما كانت تتسبّب في وقوع العديد من شيوخ بني علي الصغير أنفسهم بين قتيل وأسير أو مطارد.

2 ـ أطماع حكّام الشوف المتعاقبين بإخضاع جبل عامل لسيطرتهم، خصوصاً وأنه كان يتمتع نسبيّاً بشيء من الإزدهار الإقتصادي، إضافة لما فيه من حصون وقلاع وموارد بشريّة، تثير شهيّة المعنيين والشهابيين بعدهم، خصوصاً وأن الوضع الاجتماعي والمذهبي للمقاطعات التي يلتزمونها عادة من والي صيدا لا تسمح لهم، بممارسة سلطة مطلقة على سكّانها. فقد كانت دير القمر مثلاً، وهي مركز حكومة الشهابيين تقع في ملك وحكم النكديين، وكذلك باقي المناطق الأخرى. ولم يكن التوسّع خارج جبل عامل أو حتى التفكير به ممكناً، لأن حدود جبل الدروز الشماليّة هي حدود ولاية طرابلس، كما أن حدوده الشرقيّة هي حدود ولاية دمشق. فكل محاولة توسّع نحو أيّ منها يصطدم بسلطة أحد الواليين، بينما يشترك جبل الدروز وجبل عامل في الخضوع كلاهما لولاية واحدة هي ولاية صيدا. وبالتالي لوالٍ واحد معاد في غالب الأحيان للعامليين، ويرحّب بأي فرصة لاخضاعهم وتأديبهم. مما أوجد بين سكان المقاطعتين أحقاداً مستمرّة وثارات متأصّلة. طبعت علاقتهما لقرون عديدة، وكان والد ناصيف نفسه قد وقع أسيراً في معركة أنصار التي سبّبت أعمالاً ثأريّة دمويّة، لم تقتصر على معركة مرجعيون التي أعقبت الهجوم العاملي على وادي التيم وما رافقها من فتك وتخريب.

3 ـ لم تكن العواصف تهبّ على جبل عامل من الشمال وحده، بل كانت أطرافه الجنوبيّة تعاني من مشاكل مهمّة أيضاً، وإن كانت من نوع آخر. فهو وإن خلت أرضه من وجود قبائل بدويّة ذات بأس وشأن، فإن أطرافه الجنوبيّة في الحولة ومرج بن عامر والجولان وحتى جبال نابلس والبلقاء ونواحي صفد، تزخر بالقبائل التي اعتادت على القيام بغزوات منتظمة ولا سيما في مواسم الحصاد والرعي إلى داخل البلاد تغزو وتخرّب وتعود بالغنائم إلى مضاربها بانتظار موسم آخر تعاود فيه غزواتها.

ومن جهة أخرى ظهرت في المناطق نفسها، قوّة ناشئة بدأت تشكّل نوعاً من الكيان المستقل المتماسك وتلوح مطامعه على الحدود العامليّة بالسيطرة على بعض القرى الحدوديّة، مما يقتضي معالجته ووضع حدّ له، سيما وأن هذا الخطر الناشئ

قابل للتمدّد والتوسّع ولا بدّ من التصدّي له حرباً أو سلماً، خصوصاً وأن شيخاً بدوياً قوياً وطموحاً هو الشيخ ظاهر العمر قد استقطب مع أولاده غالب العشائر المهمّة في البلاد، وأصبح الجميع يحسبون لبأسه وسطوته كلّ حساب.

4 ـ يتألّف جبل عامل تاريخياً من ثماني مقاطعات هي تبنين، وهونين وساحل معركة، وساحل قانا، ومرجعيون[1]، والشقيف، وإقليم الشومر، وجباع. وكان شيوخ من بني علي الصغير يحكمون المقاطعات الخمس الأولى بينما مقاطعة الشقيف في يد الصعبيين، وجباع والشومر بيد المناكرة، ورغم أن حاكم تبنين هو الحاكم العام والرئيس العمومي الذي تراجعه سائر الشيوخ. ورغم أن تقاليد عشائرية وأعرافاً وأصولاً تحكم العلاقات بين الجميع، وتشكّل ضوابط واجبة الاحترام والاتباع بقوّتها المعنويّة والأدبيّة وبسلطة الرئيس العمومي، إلاّ أن بعض النزاعات لا بدّ أن تنشب أحياناً بين أفراد الأسرة الواحدة أو الأسر المختلفة. مما ينعكس سلباً على وحدة البلاد وقوّتها وتلاحمها، وهو شيء خطير على بلاد تكاد أن تكون في حالة حرب واستهداف دائمين، لذلك كان على ناصيف أن يهتمّ بذلك ويثبّت الأسس التي تقوم عليها وحدة البلاد، لتواجه أعداءها كجبهة متراصّة تحت قيادة فاعلة، كما أن حصون البلاد قد لحق بها الخراب والهجر بفعل الحروب المتواصلة، أو تعدّد أصحابها واختلاف أحوالهم بين القدرة والعجز، وهذا يشكّل ثغرة هامّة في إمكانيات البلاد الدفاعيّة، ويلحق بالبنية العسكريّة العامّة الوهن والتفكك. وأخيرا كان على البلاد أن يكون لها مرفأ خاص لتنشيط التجارة والتبادل، خصوصاً وأن صيدا وهي أقرب مرفأ إلى عامل تقع تحت سلطة الوالي الذي قد يكون معادياً في أكثر الأحوال.

كان ناصيف رجل حكمة وسياسة كما هو رجل حرب وقتال، وكان يفضّل اللجوء إلى الأساليب الأولى لمعالجة الأمور ولا يتخطاها إلى الحرب، إلاّ إذا عزّ عليه السبيل لتلافيها. إن أوّل الأمور التي وجّه ناصيف اهتمامه إليها هو ما يُعرف، بالجبهة الداخلية، أي القضاء على أسباب النزاع بين شيوخ أسرته فيما بينهم، أو مع الشيوخ الآخرين من آل صعب وآل منكر، سيما وأن بوادر نزاع كانت تظهر أحياناً بينه وبين ابن عمّه قبلان الحسن، أكبر أبناء العشائر سنّاً وأعظمهم قدراً وعلاقات قبل ظهور

(1) في فترة ما تأرجح اقليم مرجعيون بين وادي التيم وجبل الدروز حتى استقر مع جبل عامل مع عودة الشيخ فارس الناصيف والمعاهدة التي أبرمها مع والي عكا.

ناصيف. فسعى إلى إحلال التفاهم والاتفاق بين جميع المشايخ، بإعطاء كلّ منهم ما يرضي طموحاته ويعتبره من حقوقه الموروثة. فسعى إلى تكريس ذلك باجتماع عام حضره ظاهر العمر كما جرت عادة العشائر بدعوة شيخ موثوق صاحب قدر ومنعة ورأي يشاركهم في مداولاتهم. ويقوم بدور الحكم والشاهد والمساعد على إحلال المودّة والصفاء بين الجميع فتمّ الإجتماع في صور سنة (1164هـ ـ 1750م). تقاسم فيه المجتمعون المقاطعات والقلاع والحصون على الشكل التالي[1]:

قلعة تبنين (الرئاسة العامة)	ناصيف النصار
قلعة هونين	قبلان الحسن النصار
قلعة مارون (دير كيفا) وصور	عباس المحمد النصار
بنت جبيل	سلمان الحسن النصار
قلعة دوبية	ظاهر ومراد النصار ثم ولده قاسم المراد
مزرعة زبقين	آل بزيع الصغيريين
قلعة الشقيف	علي وحيدر الفارس الصعبيين
قلعة ميس	علي العباس
جباع	آل جواد والمناكرة
قلعة قانا وشمع	آل الواكد (ابو صليبي) الصغيريين

كما اتفق المجتمعون على تقسيم باقي القلاع والمراكز على سائر المشايخ وفروع الأسرة.

ازدهرت مدينة صور في عهد ناصيف بعد أن كانت قرية صغيرة. وكان آخر من عمّرها ابن بشاره سنة 1421م كما حاول فخر الدين تحصينها وبنى شقيقه يونس محلّ إقامة له فيها. فلما دخلت في حكم عباس المحمد ابن عمّ ناصيف وأحد أركان حكمه أعاد عمارتها وأسكن فيها عائلات مسيحيّة ومسلمة، وأقام فيها داراً للحكومة ومسجداً وكنيسة، وأحيا ميناءها. وعرض على القنصل الفرنسي تسهيلات تجاريّة، لتشجيع التجّار الأوروبيين على استعماله. فأصبحت سوقاً تجارياً رائجاً، وقد أثار

(1) تاريخ تبنين، م. م.، ص 115.

هذا المرفأ الشيعي في ذلك الوقت اهتمام التجار الفرنسيين فسعوا إلى التقرب من الشيخ عباس وكسب وده كما أدرك القناصل أهميته التجارية وموقعه الفريد على الطرق الممتدة من صيدا إلى عكا.

أرسل القنصل الفرنسي في صيدا كليرامبو في أول تشرين الأول 1763م إلى حكومته في باريس تقريراً جاء فيه:

أتشرف بأن أرسل لسعادتكم ربطاً القرار الذي اتخذته الجالية (الفرنسية) ويتعلق بهدية قدمت باسمها إلى الشيخ عباس المحمد الحاكم الجديد[1] وملتزم هذه المناطق ومرفأ صور وأهمية هذا المرفأ لسفننا وضرورة إقامة علاقة صداقة مع هذا الشيخ الذي يتولى الحكم فيه، بالإضافة إلى ضرورة حفظ سلامتنا على الطرق الممتدة من صيدا إلى عكا، وصور قائمة بينهما، تجعل هذه الهدية أمراً ضرورياً.

وتلمسون سعادتكم حسن تصرف هذا الشيخ تجاهنا في الرسالتين اللتين وجههما إلي وأعتقد أنه كان صادقاً في كلامه[2].

كان عباس يقيم فيها شتاءً ويستعملها ناصيف مكاناً لاجتماعاته السياسيّة واستقبال ضيوفه الهامين[3] وصار لجبل عامل ميناؤه الخاص بين صيدا مركز الولاية وعكا حاضرة ظاهر العمر، وأصبحت صور من حواضر جبل عامل التجاريّة والسياسيّة، وأمّتها السفن

(1) الشيخ عباس هو حاكم صور ومقاطعات قانا وشحور والشعب. بنى عباس في المدينة داراً للحكومة لا تزال عامرة حتى اليوم، ومسجداً وكنيسة وحماماً وسوقاً كبيراً فيه عشرات المحلات والأقبية والمستودعات على مقربة من الميناء. وأنشأ بيوتاً لصيادي الأسماك والبحارة غرب الميناء، وهي الآن حارة النصارى. كما أنشأ أبنية للسكن في شبه الجزيرة الجنوبي، ورصف الأزقة والشوارع وأقنية المياه، فاكتمل بناء المدينة بأحيائها الأربعة القائمة حتى اليوم وهي النصارى، والمنارة، والجورة، والمصاروة (المصريين)، واستغرق البناء عشرة أعوام واستقدم سكاناً من جبيل وعكا وصيدا والقرى العاملية. وبنى لنفسه داراً على رابية قريبة هي الآن بلدة العباسية.

لقب بالمعشوق لوسامته وحب الناس له ودفن في مسجد صغير حمل اسمه «المعشوق» وقيل أن هذا المسجد حمل الإسم قبل ذلك ولا يزال قائماً حتى اليوم وعليه بلاطة نقش عليها:

هذا مقام وضريح محمد عباس الوائلي حاكم صور وقسم كبير من اقليم الشومر. وعليها تاريخ وفاته شعراً.

أبي حمد العباس نجل محمد　　سجاياه من ذا اللحد فاح عبيرها
فلما سرى للخلد قلت مؤرخاً　　فللحور مرنا روحه أو مسيرها　　1187 هجرية

«عون الأمين، مجلة حريات عدد 27. 2001 وخطط جبل عامل محسن الأمين ص 266)

(2) تاريخ لبنان الحديث منير وعادل اسماعيل ص 120-121 وهو ترجمة للوثيقة 42 في D.D.C. T2 p133

(3) مثل مشايخ الدروز وأمراء الحرافشة وولاة الدولة.

(4) تاريخ جبل عامل، صفا، ص 92.

للمتاجرة وإفراغ شحنها وابتياع منتوجات البلاد من قطن وتبغ وزيوت وحبوب،[4] فالتزم ناصيف الميناء من والي صيدا، حتى قال عنه «لاكروا» انه كان يتعاطى التجارة والحرب معاً، وأنه كان مخيفاً كتاجر كما كان مخيفاً كجندي، وأقام في قلعة تبنين بعد أن أعاد بناءها ورمّمها مستعملاً حجارتها القديمة نفسها، فزهت واشتهرت كمركز مهمّ للسياسة والحكم والأدب في آن معاً.

كان المتاولة يومئذ في سماء عزهم، فقد بلغ جيشهم العشرة آلاف فارس من الأبطال المدرّبين، ولهم حكم بلاد بشاره وصور، وارتفعت عنهم سلطة ولاة لبنان، فتمادوا في سلطتهم حتى كانوا يغيرون على أطراف ولاية الشام ويمسكون المال، السلطاني عن والي صيدا[1].

أحكم الشيخ ناصيف سيطرته على أسرته وعشيرته حتى ضعفت في وجهه مقاومة سائر الأسر، ويبدو أنه أرضى آل صعب بالمصاهرة وأخضع آل منكر بالسياسة[2].

كان آخر نزاع جرى في أسرته هو الصراع الذي جرى على صور بين قبلان وعباس فقد رفض قبلان قبولها أوّلا، لأنها كانت بلدة خربة لا يوجد فيها من أسباب العمران غير ملاحة في ضواحيها. فكانت من نصيب الشيخ عباس الذي عمّرها وأنشأ فيها مرافق كثيرة، حتى غدت بعد أربع سنوات بلدة عامرة ذات تجارة واسعة، فعاد قبلان إلى المطالبة بضمّها إلى حكمه فلم يُجب لطلبه. فهاجمها في غياب عباس ونهب بعض دورها ومتاجرها، وأسر حمزة المحمد شقيق عباس وساقه إلى هونين. وقد أورد محمد جابر آل صفا في تاريخه، تفاصيل هذا الخلاف وتطوّراته، بما يدلّ على الكثير من تقاليد جبل عامل وشمائل أهله وشيوخه في هذه الفترة[3].

ولم يظهر في جبل عامل أيّ صراع داخلي بعد هذا التاريخ حتى إنقضاء عهد ناصيف.

اهتمّ ناصيف في السنوات التالية بتثبيت سلطته على عموم جبل عامل بعد أن أمّن التفاف أسرته حوله وخضوعهم لسلطته، فقام بعدّة غارات ناجحة، قصد من ورائها القضاء على غزوات البدو الضاربين في فلسطين، على أطراف بلاد بشارة، فأغار مع شقيقه واكد على (عرب القنيطرة) عام (1166هـ - 1752م)، ومع ابن عمّه عباس على أهل «شريعة منذور» (بين طبريا وبانياس) وقتل منهم عشرين رجلا. كما أغار الشيخ قبلان

(1) المصدر السابق، ص 84.
(2) السيف والقلم، م. م.، ص 186.
(3) محمد جابر آل صفا، م. م.، ص 93 ـ 95.
(4) تاريخ الركيني، ص 38 ـ 36.

والشيخ عباس على عرب «مرج رميش» في نفس العام «ونهبوهم نهبة عظيمة»[4]. وأصبحت قوّة ناصيف مرهوبة، وسلطته مرعيّة في كلّ جبل عامل وفي جواره. يشير الركيني إلى ركوب الشيخ محمود أبو حمد النصار إلى إقليم الشومر واعتقال الحاج علي سليمان الصعبي، لمخالفة ارتكبها بحقّ أحد الناس، كما استنجد به الشيخ ظاهر العمر لإعانته على تأديب أولاده وإعادتهم إلى طاعته. ولما اطمأن إلى صلابة وضعه الداخلي، والتفاف الجميع حوله وتحت قيادته، كان عليه أن يتعامل مع القوى الخارجيّة الكبيرة التي تحيط بجبل عامل وتتحكّم به.

كانت السلطة العثمانية هي الأولى التي وجّه ناصيف اهتمامه نحوها. فهي التي قاسى منها العامليون الويلات على امتداد أجيال طويلة، وهي صاحبة السطوة الأهم التي يسعون إلى الحدّ من وطأتها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ومهما كلّفهم ذلك. في الفترة التي أعقبت تولّي ناصيف زعامة جبل عامل، قام والي صيدا بخمس حملات عسكريّة على الأقل، فقتل وخرب ونهب ما قدر عليه، في مختلف نواحيه وقد عدّد «الركيني» وهو المؤرخ المعاصر له عدة حملات قام بها الباشا أوّلها في جمادى الأول 1167هـ ـ 1753م على قرية أنصار فنهبها وقتل بعض أعيانها مما دفع بالعامليين في اليوم التالي إلى مهاجمته في «مغراقة أنصار» وهو واد بين أنصار وقلعة ميس والزرارية. فأرسل ناصيف أخاه وابن عمّه، إلى الشام لغاية من العسير معرفتها تماماً، إنما لا بدّ أنها تهدف إلى الشكوى من والي صيدا، وربما السعي إلى وضع حدّ لتعدّياته، ولكن من الواضح أن هذه البعثة لم تحقق غرضها بدليل معاودة الوالي سعد الدين العظم هجومه على بلاد بشاره مرّة اخرى. فقتل ونهب ثانية، مما اضطر ناصيف إلى السفر في اليوم ذاته إلى الشام لعلّه يحقق ما عجز مبعوثاه عن تحقيقه، ولكن يظهر أنه لم يوفّق في رحلته أيضاً بدليل أن معركة عظيمة وقعت بعد أقل من شهرين بين ناصيف وقبلان والوالي نفسه، في رأس العين وقتل من الفريقين نحو ثمانين رجلاً. وتكرّرت المعارك على الوتيرة نفسها، مما يدلّ على أن جهوده لوضع حدّ سلمي لهذه الحملات لم تأتي بنتيجة تذكر، وأن اتصالاته بوالي الشام شخصياً أو بواسطة موفدين، لم تؤدي إلى تحسّن الحال، حتى وصل إلى قناعة ثابتة، بعقم محاولة الحد من اعتداءات الولاة العثمانين باتباع سبل المفاوضة والاقناع، وبحتمية المواجهة لذلك نراه بعد هذا التاريخ يسعى بنشاط واندفاع إلى تحسين العلاقات مع جيرانه الدروز والزيادنة. ومحاولة خلق جبهة متحالفة بين الأطراف الثلاثة للوقوف في وجه العدو الممقوت من الجميع.

كان زعماء عاملة قبل عهد ناصيف متباعدين متنافسين، لا تجمعهم عقيدة ولا يلتقون على موقف، رغم وحدة المذهب والديار، وكانت علاقتهم مع الدروز تتسم بطابع الخلاف

والتنابذ غالب الأحيان، سواء في الشوف أو في وادي التيم، وطالما استغلّ العثمانيون هذا النفور واستعمله الولاة لمصالحهم وغاياتهم.

بعد توحيد كلمة العامليين بدأت مساعي ناصيف النشيطة والمتواصلة لتوحيد كلمة الفلسطينين والدروز وشيعة الشمال، في جبهة واحدة متحدة ومتحالفة، بدل تبديد جهودهم في نزاعات تفسح المجال للوالي العثماني للنفاذ من خلالها، وضرب أحدهم بالآخر لإضعاف الجميع، حتى يسهل إخضاعهم واستنزافهم وتبديد قدراتهم وطاقاتهم، فندب نفسه لهذه المهمّة ممتطياً جواده متنقّلاً من قطر إلى قطر، ومن بلد لآخر، ليجمع زعماء هذه الأقطار وكأنّ هو وحده المعني بهذه المهمّة دون غيره من هؤلاء الزعماء.

فقام بعدة رحلات ودعا إلى سلسلة من الإجتماعات في سبيل هذه الغاية. ففي شهر رجب عام 1179هـ ـ 1775م صارت **الجمعيّة بين الشيخ ناصيف والشيخ عباس وعلي الفارس والأمير اسماعيل والشيخ علي جنبلاط في حاصبيا**[1].

من الواضح أن المقصود بالجمعيّة هو اجتماع عام يتفق على عقده مسبقاً لبحث أمور معيّنة يتجه المجتمعون لبحثها سوياً، والإتفاق على موقف موحّد منها. والمجتمعون مع ناصيف هم عباس المحمد حاكم صور، وعلي الفارس الصعبي صاحب قلعة الشقيف، والأمير اسماعيل الشهاب حاكم حاصبيا، والشيخ علي جنبلاط كبير الدروز وممثّل الأمير يوسف الشهاب.

قال الشيخ عبد المحسن الظاهر، إنّ المجتمعين قرّروا الإتفاق والمعاهدة على عدم الإعتداء والغدر ببعضهم (العامليون والدروز).

وبعد عدّة أسابيع قصد ناصيف وابن عمّه عباس وعثمان الظاهر، بلاد الدروز لاستكمال المباحثات والمشاورات التى جرت في الاجتماع الأوّل، وانضمّ إليهم أحد أولاد ظاهر كما حضر الإجتماعات التي عقدت في الطيبة، الأمير محمد الحرفوش وحمل معه رسائل من ناصيف إلى بعلبك. وتمكّن حليفه الأمير إسماعيل من حكم حاصبيا و«كبر اسمه وخافت منه أهل البلاد واتفق مع المشايخ بن متوال»[2].

بذل ناصيف جهوداً حثيثة ومتواصلة لإتمام مشروعه التحالفي، بين الأطراف الأربعة، رغم العوائق والعقبات، لأنه كان متيقناً كما يبدو من أن تحالف متاولة جبل عامل مع أمير

(1) المصدر السابق، ص 52 ـ 51.
(2) تاريخ الشهابي القسم الأول ص 67.

الدروز في دير القمر، ومشايخهم الكبار ودروز حاصبيا ووادي التيم، والشيخ الزيداني وقوّته المتصاعدة، بالإضافة إلى حرافشة بعلبك وشيعتهم، سيغيّر الكثير من موازين القوى في كلّ بلاد الشام، ويضع حدّاً نهائياً للنفوذ المطلق للبشاوات الأتراك وتدخّلهم في كلّ الأمور التي قد تعود عليهم بالمنفعة الشخصية، على حساب حرّية وكرامة ولقمة الأهالي المحليين وزعمائهم، فتنقّل مرّات عديدة بين عكا وصور وجبل الدروز، ولكن علاقته بظاهر العمر في هذه الفترة تعرّضت لشرخ خطير حيث نشب النزاع المسلّح على أثره بين الرجلين وحصلت بينهما عدّة مواقع وغارات حدودية متبادلة، خرج الطرفان بعدها أكثر اقتناعاً بعدم جدوى هذا الخلاف العارض، وبضرورة التحالف لتحقيق أهداف مشتركة كان كلّ منهما يعمل لها مستقلاً عن الآخر، رغم ما يجمعهما من رؤية موحّدة للأوضاع ويقرّبهما من طباع متجانسة ومتشابهة.

رغم أن هذه الاتصالات والزيارات، أثمرت في إيجاد علاقة ود وتأييد بين ناصيف وكبار زعماء الدروز في تلك الفترة، ولكن شخصيّة الأمير يوسف الشهاب الضعيفة والمتردّدة، وحرصه الشديد على الاحتفاظ برضى الولاة العثمانيين في صيدا، ثم في عكا بعد ذلك، وتنفيذه لرغباتهم وأوامرهم، حالت دون إتمام التحالف الشيعي الدرزي، وجعلت يوسف ينضم إلى المعسكر المقابل الذي يسير وراء الباشا ويقاتل أمامه.

برغم هذه الصعوبات أسفرت جهود ناصيف التوفيقية وجولاته المتواصلة، عن توثيق روابط الود والإلفة والإتفاق على التآزر والتناصر في سبيل أهداف عامة بين مجموعة من أعيان البلاد. كان من الواضح أن مقاومة العثمانيين وعدم دفع الضرائب والإنفراد في تدبير شؤونهم بمعزل عن تدخلات الولاة المزعجة تأتي في رأس أولوياتها. وتضم هذه الجماعة ظاهر العمر في فلسطين وناصيف النصار في جبل عامل واسماعيل الشهابي في وادي التيم وعلي جنبلاط أحد أهم مشايخ الدروز، والأمير منصور الشهابي في دير القمر.

ما لبث هذا التحالف أن أعاد خلط الأوراق السياسية على صعيد بلاد الشام عموماً. فنشأ فيها حزبان كبيران، يتنازعان النفوذ والسلطة في البلاد التي يدعوها الأتراك عربستان، فكان هناك حزب الأتراك وعلى رأسه عثمان باشا وزير الشام وأقرانه باشاوات الولايات الأخرى الأقل شأناً. وبالمقابل هناك الحزب الآخر وعماده الشيخ ظاهر ومشايخ بلاد عكا وصفد وعشائر المتاولة في جبل عامل وشيوخ القبائل الرُحل

(1) تاريخ ضاهر العمر نقولا الصباغ ص 25

الضاربين في هذه البلاد. أما مشايخ جبل نابلس وغزة ويافا والرملة والخليل فانقسموا بين الحزبين[1].

وكذلك الدروز فشايع الأمير منصور الحزب الآخر بينما اتخذ يوسف وبتاتير من كواخيه ـ كما هي عادته ـ جانب الدولة.

وقيض لحزب المشايخ مناصر اقليمي ذو شأن هو علي بك الكبير، ومساند دولي فعال هو الأسطول الروسي، الذي يجوب الشواطىء السورية منذ حين. والذي سيكون عاملاً فعالاً في بعض المعارك التي بدأت تلوح تباشيرها ويجري الإستعداد لها من الجانبين.



ناصيف النصار على صهوة حصانه

ناصيف وظاهر

أراد القدر أن يحكم ظاهر العمر وناصيف النصار، بلدين متجاورين متداخلين في عصر واحد، وتجمع بين الرجلين أوجه شبه عديدة. كان كلّ منهما فارساً مغواراً ومحارباً شجاعاً وقائداً محنّكاً، جمع إلى الشجاعة والنخوة والتسامح، حكمة القيادة ونبل الخلق والفروسية، وتشاركا في العداء للترك والنزوع إلى التخلص من سطوتهم. وحمل مشاريع سياسيّة استقلاليّة تفوق قدرتيهما وطاقة وموارد بلديهما على القيام بها.

كانت العلاقات عاديّة بين الشيخين في أول أمرها، وكانا يلتزمان في علاقتهما بما تقضي به الأعراف بين شيوخ العشائر، فقد حضر ظاهر كشاهد وحكم على الإتفاق الذي تمّ بموجبه توزيع القلاع والمقاطعات بين آل نصار في صور سنة 1164هـ 1751م وكان على صداقة وطيدة مع قبلان الحسن صاحب قلعة هونين، وابن عمّ ناصيف، كما كان الإثنان يحاولان أحياناً تسوية خلافات ظاهر الكثيرة مع بعض أولاده الثمانية، قياماً بما تمليه أواصر الصداقة والودّ بين الأسرتين.

وضع ظاهر يده على لواء صفد رغماً عن الباب العالي غير آبه لغضبه وتهديداته[1] واهتم بصناعة القطن وترويجها، فكان بحاجة إلى ميناء تحت سيطرته لإنماء التجارة في مناطق حكمه، فانتقل إلى عكا وبنى فيها سرايا عظيمة وسوراً وأبراجاً[2] فازدهرت ونمت وتقاطر إليها الناس من أنحاء سوريا وقبرص فاعترفت به الحكومة الفرنسية كحاكم على عكا[3] رغم الأوامر الصادرة من اسطمبول إلى باشوات دمشق وصيدا بإنهاء سيطرته اللاشرعية على معظم الجليل[4] بعد دخول طبريا والناصرة تحت سلطته وأرسلت فرقة خاصة من المدفعية وأخرى للألغام لهدم تحصيناته[5].

في حينه كان الشيخ ناصيف النصار «هو الشيخ الكبير للمتاولة الذي يحكم البلاد من صيدا إلى حدود عكا»[6].

كانت العلاقات متينة بين الشيخين بحكم الصداقة والجوار ووحدة الطبائع والأهداف،

(1) أ. م. د 40- 43 149 سنة 1734
(2) خطط الشام الجزء الثاني ص 288
(3) الإمارات الشيعية ص 195 .
(4) أ. م. د 53-56 149 سنة 1742 تموز
(5) أ. م. د 38 150 سنة 1743 حزيران
(6) Clairanbaull D.D.C T2 p 150 من تقرير القنصل كليرا نبول صيدا 23 نيسان 1776.

مع أن فترات من الخلاف عكرت صفوها، ووصلت في بعض الأحيان إلى الحرب بينهما، فقد انتهت بعد خمسة عشر عاماً من التجاذب إلى حلف متين العرى وثابت الأهداف، كان له الأثر الكبير في تاريخ هذه المنطقة من سوريا.

تأزّمت العلاقات بين الشيخين بسبب قريتين حدوديتين هما البصة ومارون. كانتا في حكم ناصيف باعتبارهما من أراضي جبل عامل، فكتب له ظاهر طالباً منه التخلي عنهما بدعوى أنهما تابعتان لفلسطين، فردّ ناصيف بالرفض غاضباً وناصحاً ومتوعّداً وبعض ما جاء في ردّه «**إنا عندنا مقابل سيفك سيوف أحد منه، وبإزاء كيدك مكائد كثيرة، إنك تندم لأننا طالما بغي علينا فانتصفنا من الباغي وعاهدنا فقمنا بعهدنا وانت ورأيك، ونحن نرى فيما يبدو منك والسلام**».

إن العلاقات المضطربة بين ظاهر وأولاده، لعبت دوراً ما في دفع الأمور إلى الصدام العسكري بينه وبين ناصيف، فعلي الظاهر وعثمان الظاهر كانا غالباً يتمرّدان على والدهما، ويلعبان دوراً أساسياً في علاقته بناصيف، عندما يتدخّل مصلحاً بينهما أو حامياً لأحد الأولاد المتمرّدين، أو مشاركاً مع الأب في إعادة الأبناء إلى حظيرة الطاعة الأبويّة بحدّ السيف، كما فعل في معركة وادي المعظمية. أو يستقبل بعضهم أحياناً أخرى كهاربين، أو لاجئين، من انتقام أبيهم كما فعل مع عثمان ثم مع علي.

سواء كانت الأسباب تعود إلى الانشقاق الواقع في بيته، أو إلى مطامعه في السيطرة على بعض أطراف جبل عامل، أو التحرّش بناصيف، فقد قام ظاهر بهجوم مباغت على قرية البصة[1]. وقتل منها أناساً، ونهب بعض مواشيها في 23 ربيع الثاني (1180هـ. 1766م). وبعدها بأيام أغار على طربيخا حيث تصدّى له ناصيف، وانتصر عليه في معركة كبيرة عدّت من المعارك المهمّة في التراث التاريخي، وأدبيات جبل عامل «**في يوم الاثنين ثاني جماد الأول كبس ظاهر العمر قرية تربيخا وصار بينه وبين الشيخ ناصيف وقعة عظيمة وانكسر الشيخ ظاهر كسرة عظيمة، وقتل من عسكره مئة وخمسون رجلاً، وأخذ من عسكره أيضاً مئة قلعة. وقتل عشرون رجلاً من عسكر الشيخ ناصيف**»[2].

يطنب العامليون في الإشادة ببطولة ناصيف وأخيه محمود في هذه المعركة، وكيف غنم ناصيف فرس ظاهر وأنزله عنها، بعد أن أحكم الرمح في صدره، ثم عفا عنه، وأعاد له فرسه المعروفة «بالبريصة» قائلاً له لا حاجة لنا بالبريصة بعد أن رجعت لنا

(1) تاريخ الركيني، ص 54.

(2) المصدر السابق، ص 55. والقلعة هي الفرس بما تحمله من عدة.

«البصيصة»[1]. ويروي المؤرّخ الفلسطيني ميخائيل الصباغ المعركة على شكل مختلف قليلاً، دون أن يجزم بانتصار أحد الفريقين فيقول ما ملخّصه: «إن المتاولة وهم قوم من ذوي البأس والجسارة والنجدة، وأميرهم وكبيرهم ناصيف النصار بحدود بلاده بلدين لهم، وهما البصة ومارون، فكتب لهم ظاهر أن يتنازلوا له عنهما، فأرسل له ناصيف الجواب بالرفض وأغلظ له القول، فذهب سعد أخو ظاهر علّه يقنع ناصيف بالتنازل، فما استفاد شيئاً، فغضب ظاهر وأرسل يطلب تقرير البلدين من باشة صيدا فأرسل له الباشا تقريرهما، فأرسل عليهما خيله وطرد ولاة المتاولة منهما وتولاهما. فبلغ ذلك إلى ناصيف فجرد خيله وأتاه فالتقيا بقرب قرية طربيخا، ووقعت بينهما حرب طالت أياما، كانت سجالاً، فلما رأى الدنكزلي ذلك استغفل القوم وكبس المتاولة في بلدهم على غرّة، وأخذ ولدين لناصيف وعاد إلى أرض المعركة فالتزم ناصيف أن يترك موقع القتال ويسرع ليخلّص ولديه فانكسر المتاولة بسبب ذلك شرّ كسرة».

يشكك المؤرخون العامليون في صحّة واقعة غارة الدنكزلي ونجاحه في الوصول إلى عمق جبل عامل، إلا أنهم يشيرون إلى أسر الولدين بطريقة الصدفة، ويضيفون أن ولدي ناصيف كتبا لأبيهما يصفان ما لقياه من حسن معاملة ظاهر، وأنهما مع ما هما فيه من رعاية واحترام يطلبان أن يأتي على رأس عسكر لتخليصهما من الأسر، فكتب لهما والدهما ما يفيد أنه لم يهنأ له عيش ولم يغمض له جفن منذ وقعا أسيرين. وأنه ينتظر انخفاض مياه الأنهار ليثيرها حرباً شعواء، تميد لها الجبال ويطير لها الهام. فلما وقف ولداه على جوابه أعادا الكتاب عينه إلى أبيهما، بعد أن كتبا على حاشيته البيتين التاليين «جواباً يفيد بعدم قبولهما عذره»

كتب الزمان عجائبا — في جبهة الأيام سطرا

هل سمعتم أو رأيتم — أن نهرا صد بحرا

وكان ظاهر واقفاً على هذه المراسلات فدعى بالغلامين وسرحهما إلى أبيهما مكرّمين، بعد أن أهداهما جوادين من خيرة خيوله[2]. فكان ذلك من الأسباب التي أزالت الجفاء وسرّعت بالتحالف بين الشيخين.

من الواضح أن معركة طربيخا الدولاب كما يسمّيها العامليون كانت من المعارك المهمّة

(1) جبل عامل في التاريخ الفقيه، ص 95.
(2) تاريخ صفا، م. م.، ص 120.

التي تردّدت أصداؤها في تراثهم القومي والشعري، وعدّوها في مفاخر جبلهم، فكانت موضوع سجال شعري ومبارزة أدبيّة بين كلّ من شعراء المتاولة والدروز والفلسطينين. وطالما أثارت قرائح الشعراء العامليين فتغنّوا بها وبأبطالها.

واكب الشعر العاملي كعادته هذه المرحلة السياسيّة والعسكريّة الخطيرة والحافلة بالأحداث والتحالفات والحروب، فكان ديواناً سياسياً اجتماعياً وعسكرياً يزخر بالتفاصيل والمشاعر والآراء التي يمكن أن تشكّل مرجعاً تاريخياً قيّماً لكلّ أحداث هذه الفترة وخلفياتها.

قال الشاعر النابلسي.[1] يهاجم العامليين ويتهمهم بالخيانة مما يدلّ على وجود تحالف سابق بينهم وبين ظاهر قبل إغارته على البصة.

كنتم له يمنى فخانت اختها ... لا خير في يمنى تخون شمالها

يا عصبة جادت بما لا ينبغي ... ولربما جلب النفوس نكالها

فيردّ الشعراء العامليون مدافعين مفتخرين مهدّدين، فكأن هذا التراشق الشعري، وصف تاريخي شامل للمعارك وظروفها ونتائجها، من وجهة نظر كلّ الأطراف. وهي عرض مفصّل للأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والعسكريّة للمجموعات المهتمّة والمشاركة، وربما شارك شاعر درزي في هذا السجال فكان لكلّ طرف شاعره أو صحيفته بلغة اليوم، تعبّر عن موقفه وما يراه إزاء كلّ التطوّرات التي ازداد تسارعها، وحجمها في هذه الحقبة، وقد حفلت كتب الأدب العامليّة بهذا الفيض الشعري الذي فجّرته الأحداث، وما خلفته من آثار ونتائج. إن قيمة هذه القصائد ليس في ما بلغته من الفن الشعري فحسب بل إن قيمتها في أنها سجل لتاريخ جبل عامل العسكري[2] والسياسي وسجل موثق لمشاعر بنيه إزاء كلّ هذه الأحداث.

ان مابقي محفوظاً أو متداولاً في هذا السجال الشعري، الذي ينظّمه عادة شعراء من معاصري الأحداث والمشاركين فيها والمتعاطفين مع أحد أطرافها تنقل إلينا بأمانة، دفقاً من التفاصيل والمشاعر والعواطف والآراء العائدة لجميع الأطراف والتي كانت

(1) هو الشاعر الفلسطيني عبد الحليم النابلسي كان بينه وبين الشاعر العاملي الشيخ ابراهيم الحاريصي مفاخرات ومراسلات أدبيّة وقد أرسل له بعد معركة طبريخا قصيدة طويلة أبرز ما جاء فيها:

يا للرجال لمحنة لا يرتجي ... غير ابن نصار يحلّ عقالها

ناصيف من يحمي الثغور ومن به ... أبدت سماء المكرمات هلالها

بطل له ألقى الزمان قياده ... لو طاولته الشامخات لطالها

ويد مقبلة البنان كريمة ... مدّت على المستضعفين ظلالها

(2) جبل عامل السيف والقلم حسن الأمين ص 377.

تحكم الأحداث المعنيّة وتقوم بدور المصدر التاريخي لكلّ أوجه تفاعلاتها فهي التعبير الصادق عن المناخ السائد حولها بكل خلفياته[1].

كما يحدث عادة بعد كلّ معركة عسكريّة كبيرة. طرحت معركة طربيخا الدولاب طبيعة العلاقات بين ظاهر وناصيف، نفسها بقوّة على الوضع السياسي العام، وربما أراد ظاهر من ورائها الحصول على موقع أفضل مما كان له قبلها، واستمرّ بعدها في مفاوضات ترمي إلى تنظيم هذه العلاقة في إطار محدّد وواضح، سيما وأن موقعه الإداري قد يجعله يعتقد بتقدمه على ناصيف، باعتباره الحاكم المعيّن من قبل السلطة العثمانية على صفد وغيرها من المقاطعات الفلسطينية، والحائز على عدّة ألقاب تفيد عن مكانته السامية في سلسلة الرتب الرسميّة، فهو حاكم صفد، وشيخ عكا، والباشا، وأمير الأمراء[2] بالإضافة إلى عدة ألقاب ومهام أخرى. في الوقت الذي ينحصر نفوذ ناصيف في البلاد التي يعتبرها بلاده، دون أن يحاول في أي وقت التوسّع خارجها أو الحصول على أيّ رتبة عثمانيّة، أو وظيفة تجعل له صفة ما في الإدارة الحاكمة. إلاّ أن نتيجة المعركة أفرزت واقعاً مغايراً لما خطّط له ظاهر، إذ برز ناصيف على إثرها قوّة عسكريّة يحسب لها حساب، ومدافعاً عن حدود جبل عامل لا يتساهل حتى في حدود قرية صغيرة تقع على أطراف مقاطعته، ويبدو أن قصّة أخذ ولدي ناصيف اليافعين التي ذكرها الصباغ ونقلها عنه معظم المؤرّخين اللاحقين، في حال صحّتها، هي ردّ على استقبال ناصيف لعثمان، الإبن المتمرّد على والده والذي **«كان يعتبر ناصيف حاميه الكبير، ويعيش في كنفه، ويشاركه في مساعيه السياسيّة الرامية إلى تكوين جبهة محلّية متحالفة، حيث كانت تسود في البلاد حالة حرب تهدأ لتعود فتتجدّد كلّ**

---

(1) يقول الشاعر ابراهيم يحيا العاملي مفتخراً ببني قومه وانتصاراتهم على ولاة الدولة ونكبتهم بعد معركة يارون ومشاعرهم نحو الأمير الشهابي وما حلّ بعلماء جبل عامل من خطوب:

كأن لم يكونوا في مقام من العلي ... عليّ يرد الطرف وهو حسير
ولا طوقوا بالمشرفية والقنا ... وزيراً غشيماً بقتفيه وزير
ولا خفقت أعلامهم فوق فيلق ... كما رفرفت فوق الفضاء طيور
ومن نكد الأيام أن شهابهم ... له بعد ما زال النهار ظهور

وقال أيضاً:

وكم عالم في عامل طوت به ... طوائح خطب جرحها ليس يلأم

(2) حسن الأمين، م. م.، ص 188. وكانت الدولة قد اعترفت أخيراً بالأمر الواقع فشرعت سيطرة ظاهر على عكا وملحقاتها.

ثلاثة أشهر»[1].

نشطت الوساطات لإحلال السلام وإزالة أسباب الجفاء بين الزعيمين وأهمّ من ساهم فيها زعماء الدروز الثلاثة، علي جنبلاط[2]، وعبد السلام العماد[3]، وكليب النكدي[4]، بالإضافة إلى الأمير اسماعيل الشهابي، أمير حاصبيا، وخال الأمير يوسف، **وكانوا جميعهم يدعمون ناصيف ويقومون في الوقت نفسه بالوساطة بينه وبين ظاهر**[5].

ويبدو أن من الذين قاموا بدور أساسي في جهود الصلح، سعد العمر شقيق ضاهر، وعباس المحمد حاكم صور، وقد رتّبوا اجتماعاً بين الرجلين في صور بتاريخ 17 ربيع الأول 1181هـ 16 آب 1767م وذلك بعد مرور أيام على معركة جرت بين رجال باشا صيدا وفرسان الشيخ عباس، حضره عباس وظاهر وعلي جنبلاط إلا أن ناصيف لم يحضره لأسباب غير واضحة تماماً[6]. وربما كانت زيارة الأمير حيدر الحرفوش نزيل عيناتا إلى صور، بعد ثلاثة أيام من هذا التاريخ لها علاقة بكلّ هذه الجهود التي نجحت أخيراً في حمل الرجلين على إبرام اتفاق تاريخي بينهما في عكا بتاريخ «8 رجب 1181هـ ـ 6 تشرين الثاني 1767م». بدأت معه مرحلة جديدة في تاريخ الشيعة وتاريخ بلاد الشام كلّها. أهم ما جاء فيه:

«أقسم ناصيف وظاهر على السيف والمصحف أن يكونا وقومهما متصافين ما دامت الأرض أرضا والسماء سماءً». «وان يساعد أحدهما الآخر على كلّ من حاربه أو ناوأه أو هاجمه وأن تكون الضربة ضربة والطعنة طعنة».

«ان لا يكون للباشا شأن مع جميع المتاولة في دفع مال الميري، وأن يمنع عنهم كلّ ظلم يأتي من قبله، ويساعدهم على أعدائهم وكلّ من ناوأهم وقاتلهم».

إذا وقع حرب على ظاهر وطلب مساعدتهم يلبّون ويدفعون لظاهر وحده مال الدولة، ويقوم هو بمحاسبة الباشا به.

---

(1) D.D.C. T 2, p 150.

(2) من كبار مشايخ الدروز، توفي سنة 1778م.

(3) من كبار مشايخ الدروز، توفي سنة 1788م.

(4) من كبار مشايخ الدروز، التحق بالأمير يوسف وقاتل معه في جبيل، ثم هرب والتجأ إلى جبل عامل عند الشيخ ناصيف النصار، توفي سنة 1785م.

(5) D.D.C. T 2, p 151 من تقرير القنصل الفرنسي في صيدا المشار إليه سابقاً.

(6) تاريخ الركيني، ص 57 ـ 56.

وأسقط ظاهر لناصيف الربع من مال الميري المقرّر على بلاد بشارة وأعاد له البصة ومارون[1].

كانت هذه المعاهدة الدفاعية الهجومية التي تحدّ من ارتباط المتاولة بالباشا العثماني، تتطابق مع أهداف ظاهر وناصيف في الوقت نفسه، وتلبّي حاجتهما معاً، وتتناسب مع ما يخططان لمستقبل الأيام. **«في تلك الأثناء لم تستطع قبائل المتاولة القوية الشكيمة القاطنة في صور وذيول لبنان الجنوبي أن تتعايش لا مع الباشاوات ولا مع جيرانها اللبنانيين، شيخ هذه القبائل كان ناصيف النصار، قوياً وقادراً يملك أراض غنيّة وعدداً من الحصون، وكان باستطاعته أن يدفع إلى الميدان عدّة آلاف من أميز الفرسان حذا ظاهر للحصول على هدفه المنشود حذو الأمير فخر الدين، إذ رأى أن إئتلافاً عاماً للقبائل العربيّة المتاخمة لأملاكه يساعده في تأسيس دولة مستقلّة وعلى هذا عقد حلفاً قوياً مع المتاولة واشترط على الباشا أن يرفع عنهم الضريبة»**[2].

ان ما دفع ظاهر للتحالف مع المتاولة كما يستنتج القنصل بازيلي، هو غايته الطموحة الساعية إلى تأسيس دولة مستقلّة. ولا يبعد هذا الهدف كثيراً عما يسعى ناصيف إلى الاستعانة من جانبه بهذا التحالف لتحقيقه. فقد أصرّ على فك ارتباطه بباشا صيدا وأخذ من ظاهر عهداً بالوقوف معه في وجه الظلم الذي يتعرّض له جبل عامل، وركّز على ذلك في مضمون الإتفاق بحيث يبدو جلياً أن فك الارتباط، مع الباشا ومقاومة سلطانه، هي الغاية الأولى التي سعى إليها ناصيف من وراء اتفاقه مع ظاهر، كما أن مخاوفه التاريخية من أمير الشوف، لا بدّ لعبت دوراً مهمّاً في تكوين هذا الحلف.

بدأت أحكام الإتفاق تأخذ طريقها إلى التنفيذ بعد إبرامه. فشارك ناصيف حليفه في القيام بحملات متوالية في فلسطين لتثبيت سلطان ظاهر على المتمرّدين عليه بمن فيهم ولده علي. وقام الحليفان بغارات على نابلس وصفد ومرج الجش. حتى حان الوقت لتوجيه الجهود نحو مقارعة العدو الأكبر والأقوى وهو الوالي العثماني سواء في دمشق أو في صيدا.

لا بدّ أن غاية ناصيف الأساسيّة من مساعيه السياسيّة التي استمرّت سنوات طويلة، تقضي بإعداد نفسه وقومه وجيرانه ليكون الجميع على أتم الاستعداد، حتى تأتي

(1) حول المعاهدة بين الشيخين جبل عامل، حسن الأمين، ص 191. و يلاحظ أن ظلم الباشا العثماني كان هاجسهم الأهم.
(2) سوريا ولبنان وفلسطين، بازيلي ص 71.

الظروف المناسبة للاصطدام مع العثمانيين، وانتزاع أكبر قدر ممكن من الإستقلال عن سلطانهم، والحدّ من ممارساتهم القمعيّة على جبل عامل وسكّانه، وقد قطع شوطاً كبيراً بحسب ما تسمح به إمكانياته المحدودة، في بلوغ هذه المرحلة. فقد أمّن وحدة القيادة بالتفاف سائر القوى العاملية حوله، كما أعدّ ما استطاع من عدّة لذلك، وأمّن تحالفات بالغة الأهميّة في محيطه القريب، فظاهر العمر أقوى حكّام فلسطين، وهو متفق معه في الغاية والأهداف، وقد انضمّ إليهما الجار القوي اسماعيل الشهابي أمير حاصبيا. كما أنشأ صلات ودّ وتفاهم مع زعماء الدروز الثلاثة[1]. ولو بقي منصور في جبل الشوف أميراً ولم يبعده ابن أخيه يوسف ويحلّ مكانه، لربما كانت الأمور قد أخذت وجهة أخرى، ولكان الحلف الذي طالما سعى إليه ناصيف قد شمل عامّة الزعماء المحلّيين على اختلاف مقاطعاتهم وطوائفهم.

كانت النهضة الإقتصادية التي نعمت بها المنطقتان في ظل حاكميها تدفع نحو زيادة أواصر التعاون والتكامل التجاري بينهما. وشهد مرفئا صور وعكا ازدهاراً تجارياً بارزاً، نتيجة ازدياد التعامل التجاري مع أوروبا وخصوصاً فرنسا، وكذلك مصر وقبرص، فاهتم الفلاحون بزراعة التبغ والقطن، وصار التجار الفرنجة يتصلون بهم مباشرة ويدفعون لهم ثمن انتاجهم مقدماً. فتنامت المساحات المزروعة، وأصبح للقطن العاملي وخاصة انتاج بلدة أنصار سمعة عالية في الجودة وللتبغ رواجاً شديداً في دمياط. وبذلك ارتفعت مداخيل الفلاحين والعاملين في التجارة وأصحاب الأراضي والمشايخ. فانعكس كل ذلك إيجاباً على قوتهم العسكرية، ونفوذهم السياسي وأصبحوا يجاهرون باستقلاليتهم عن الإدارة العثمانية مباشرة وبشكل حاسم.

في شباط 1754م وقبل نهاية السنة المالية أعلنت السلطات المركزية في اسطمبول، بدهشة وذعر، أن بلاد بشارة واقليم الشومر والشقيف بقيت بدون عقود الإلتزام هذه السنة، لأن الحكام السابقين رفضوا تجديد عقودهم. إن الوالي أبلغ إدارته أنه رغم محاولاته لم يتمكن من تجديد العقود مع من كان منذ القديم مستفيداً منها[2].

إنهم يقدمون أعذاراً واهية، ويتذمرون من ارتفاع الضرائب، وأن كل قرش إضافي مدفوع يقتضي إعادته إلى الفلاحين. إن أوامر عديدة أخرى وصلت إلى الإدارة العثمانية

(1) جنبلاط وعماد ونكد.

(2) أموري مهمة دفتري (ا.م.د.) سجل 156 ص 231.

المحلية تعالج هذا الواقع الداهم فإن شيعة جبل عامل يرفضون أن يعودوا إلى طاعة السلطنة [1].

كان الشيخ ناصيف يمارس سلطته باستقلالية ملحوظة مستهيناً بالباشوات الأتراك متحدياً لهم كلما وجد فرصة لذلك.

«اعتقل الشيخ ناصيف نائب القنصل الفرنسي في الرملة واقتاده إلى تبنين».

«أبلغ القنصل الفرنسي في صيدا باشا الولاية بالحادث فكان كل ما فعله أن أبدى استياءه من الشيخ المتمرد الذي يرفض أن يدفع له الميري المتوجبة للباب العالي»[2]

وكان الوالي يقف عاجزاً أمام تحديات ناصيف له حتى في عقر داره مركز الولاية.

«أرسل الشيخ ناصيفماية وخمسين فارساً وأمرهم بمصادرة البضائع ومصادمة قوات الباشا إذا حاول منعهم» [3].

كانت الدولة العثمانية تمرّ في أتعس أحوالها وقد انتشرت الحركات الانفصاليّة والاستقلاليّة في الكثير من ممتلكاتها. فكانت مصر والجزيرة العربيّة واليونان ترفع راية العصيان، وتخرج عن الطاعة، كما أن الأسطول الروسي يجوب موانئ المتوسط والشواطئ المصريّة والسوريّة خصوصاً، يدعم هذه الحركات ويدفعها قدماً، حتى الانكشاريّة في العاصمة نفسها تمرّدوا على السلطان، وساءت الأحوال في أكثر من مكان، مما شجّع حلف «ظاهر - ناصيف» على مباشرة تحرّكه، خصوصاً وأن حليفاً قوياً في مصر هو علي بك الكبير قد اتفق معهما على المساعدة والتعاون في مواجهة العدوّ المشترك.

اشتدّ أزر ظاهر العمر بمحالفته لزعماء الشيعة واعتزّ جانب الشيعيين وطمحت نفوس الفريقين للاستقلال الناجز، فخلعوا نير السلطة التركيّة وأبوا دفع الضرائب[4].

بعد عودة الجيوش المصريّة إلى بلادها خافت الدولة العثمانيّة من مغبّة التحالف والتمرّد الذي جمع ظاهراً وناصيفاً، فانتدبت عثمان باشا الصادق والي الشام يعاونه

(1) الامارات الشيعية ص 198.
(2) من التقارير الدبلوماسية الفرنسية Marit. V2. p96 عن جبل عامل السيف والقلم الأمين ص348
(3) المصدر السابق من أرشيف غرفة التجارة والصناعة في مارسيليا ملف رقم 795 في 1781-12-24
(4) تاريخ صفا، ص 122.

والي صيدا، على رأس ثلاثين ألف مقاتل لإخضاع جبل عامل وبلاد فلسطين، والقضاء على الحليفين. وكان ناصيف على رأس مقاتليه يعد نفسه لهذا اليوم منذ زمن طويل، فخاض في هذه المرحلة ثلاث معارك تاريخية مهمّة، طالما أثارت في العامليين مؤرّخين وشعراء فيضاً من مشاعر الفخر والاعتزاز، باعتبار أن ما قام به أسلافهم على قلّة عددهم، يدلّ على اندفاعهم في الدفاع عن بلادهم وتمرّسهم في فنون الحرب والقتال، وقد انتهت هذه المعارك بدخولهم مدينة صيدا مركز الباشا العثماني. وهذه المعارك هي معركة البحرة ـ معركة «النبطية كفررمان» ومعركة «الحارة الغازية».

1 - معركة البحرة

اتفق الزعماء الثلاثة علي بك وظاهر وناصيف على قتال والي الشام عثمان باشا ودولته، فأرسل المملوك المصري صهره، وقائد عسكره محمد أبو الذهب، على رأس حملة عسكريّة من أربعين ألف جندي ومائة وعشرين قطعة مدفعيّة. على أن يلتقي ناصيف وظاهر على أبواب عكا، ومنها تنطلق الجيوش نحو دمشق. وبالفعل كان أبناء ظاهر وأبناء ناصيف في استقبال الحملة عند وصولها إلى عكا. لما وصل أبو الذهب إلى أراضي غزّة والرّملة ومقاطعات عكا حضر إليه أولاد ظاهر ومشايخ المتاولة وانضمّوا إلى عسكره، فصار جيشاً عظيماً ينوف على ستين ألف رجل، وسار بتلك العساكر طالباً دمشق[1].

اتجه الجميع إلى دمشق بعد أن انضمّ إلى العسكر المصري عشرة آلاف مقاتل عاملي واثنا عشر ألف مقاتل فلسطيني.

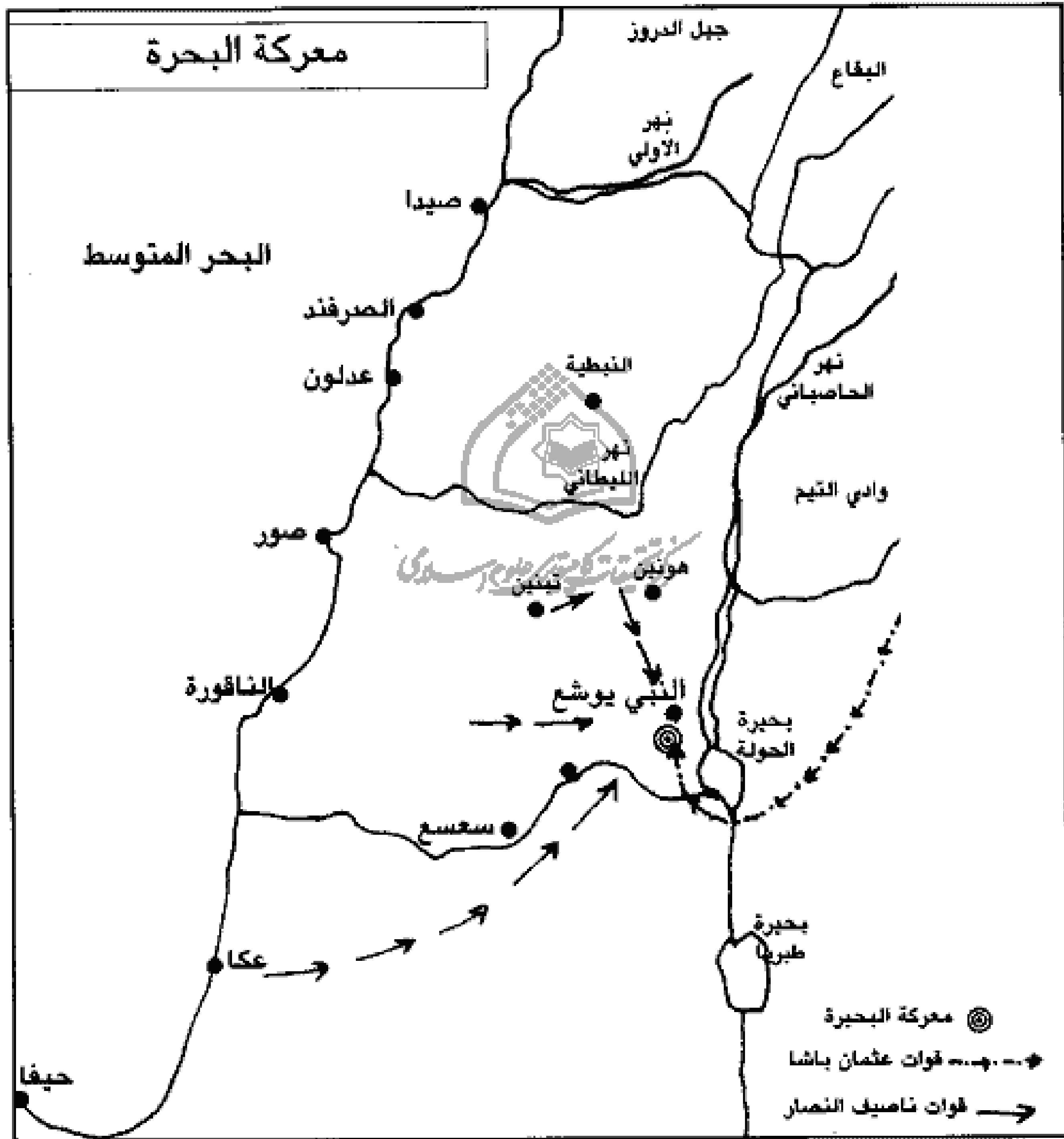
«توجّه أبو الذهب جهة دمشق ووصل إليها يوم الإثنين تاسع عشر من صفر 1185هـ. وكان معه تسعة صناجق وخمسة من أولاد ظاهر ومشايخ المتاولة الصفديّة أهل البدع والرفض».[2] وعند وصول الجيوش المتحالفة إلى دمشق أرسل علي بك كتاباً إلى أهلها يطلب منهم نصرته، بعد أن عدّد مظالم الوالي العثماني، وأن غايته تطهير هذه الأرض نصرة للدين وغيرة على المسلمين «واستخرنا الله وهو نعم الولي وسألناه أن ينصر دين محمد بعلي».

تجاوب أهل المدينة وخرجوا لملاقاة العسكر المتحالف فسقطت دمشق سلماً بعد أن

(1) D.D.C. T2. p 174 تقرير الملحق التجاري الفرنسي في صيدا، السيّد دراغون Dragon بتاريخ 31 أيار 1771م. ويقول المرادي إنهم ثمانون مدفعاً.
(2) سلك الدرر، المرادي، ج 1، ص 57.

هرب واليها وجماعته فدخل العسكر إلى المدينة في السادس من حزيران 1771م. وتلقّى القادة الفاتحون ابو الذهب وظاهر وناصيف التهاني من الوفود التي تقاطرت من كلّ انحاء برّ الشام[1].

ولكن أبا الذهب فاجأ حلفاءه لأسباب غير واضحة تماماً برغبته في العودة السريعة



(1) تاريخ تبنين، م. م.، ص 139. يقول فولني إن القوى التي دخلت دمشق تتألف من خمسة آلاف فارس من المماليك وألف وخمسماية راجل من المغاربة ويتبع كل مملوك خادمان ورجلان يحملان العصي وألف وخمسماية فارس صفدي بأمرة علي الظاهر وألف ومايتي فارس متوالي بقيادة ناصيف (ثلاثة أعوام في مصر والشام فولني الجزء الأول ص 86).

مع عساكره إلى مصر غير عابئ بمحاولات ظاهر وناصيف إقناعه بالعدول عن عزمه فعاد الجميع إلى ديارهم بانتظار ما يجد من تطورات.

«شاع رحيل أبي الذهب في الغد. فتعجّب أهل الشام كلّ العجب من ذلك، ولم يعلموا السبب فيه ورجع أولاد الشيخ ظاهر والمشايخ المتاولة كلّ منهم إلى مكانه وقد ذهلوا من قيامه وتأسّفوا على سعيهم الباطل»[1].

«أثار ذلك كلّه ذهول الشيخ ظاهر وناصيف النصار اللذين حاولا سؤاله عن الباعث على نكوصه على عقبيه على هذا المنوال غير أنه لم يجيبهما على سؤالهما بل هددهما شامخاً بأنفه، ورحل هو ورجاله بقضّهم وقضيضهم كأنهم منهزمون من وجه عدو جادّ في اثرهم»[2].

ويصف الخوري مخايل ابرك المعركة ودخول ابي الذهب دمشق ثم انسحابه المفاجىء منها مستغرباً وينهي بالقول **«في اليوم الخامس عشر من وصوله نادى بالأمان وهدم خيامه ورحل راجعاً إلى مصر الله لا يمتعه بالسلامة ولم يعرف أحد سبب رحيله ورجوعه»[3].**

حين بلغ عثمان باشا قيام أبي الذهب عن الشام كان هارباً في حمص فرجع إليها وحضر عنده الأمير يوسف الشهابي[4]. الذي يبدو أنه وعد عثمان باشا بالاشتراك معه في الهجوم الذي كان في نيّة الباشا أن يقوم به على المتاولة في الحولة كما يظهر في اعتذار الوالي إلى الدولة عن كسرته في موقعة الحولة إنها كانت في خيانة الدروز لتخلّفهم عن الميعاد.

قام عثمان باشا في 30 آب 1771م من دمشق قاصداً بلاد الشيعة من الجهة الجنوبيّة الغربيّة فاجتاز جسر بنات يعقوب جنوب الحولة، ولم ينحرف بعسكره نحو بلاد ظاهر العمر في صفد وطبريا بل انحرف إلى شمال الجسر، حيث نزل على حدود بلاد المتاولة بين بحيرة الحولة والجبال العامليّة المطلّة على البحيرة وما حولها من سهل الخيط وسهل الخالصة[5].

ويقول المؤرّخون العامليون إن العامليين وحدهم هم الذين قاتلوا جيش الوالي

(1) نزهة الزمان الشهابي ص 964.
(2) للبحث عن تاريخنا، علي الزين ص 504.
(3) المصدر السابق، ص 505.
(4) الغرر الحسان، الشهابي، ص 87.
(5) للبحث عن تاريخنا، الزين، ص 511.

العثماني تحت قيادة ناصيف وحوله حمزة المحمد وحمد العباس وعلي الفارس.

أما الركيني فيسهب على غير عادته في الحديث عن هذه المعركة ربما لما بلغه عن أهميّتها في حينه ويقول في وصفها «**ركب الشيخ ناصيف والشيخ حمزة والشيخ حمد العباس والشيخ علي ظاهر العمر وأولاده إلى جسر بنات يعقوب لمحاربة عسكر عثمان باشا باشة الشام ومعه باشتين، فكسروا الباشوات المذكورة كسرة عظيمة وأحاطوا بالدولة الذلّ والهوان، لأنهم انخملوا خملة عظيمة، ما صار مثلها في الزمان، ورموا بأنفسهم وخيلهم، وجميع ما معهم في بحيرة الحولة، وغنموا منهم من جميع الأجناس، ولا سيما المدافع، والجمال، والخيل، والبغال، وما عليهم من السيوف المسقطة، والفراش والأثاث، فقد صارت لمن ليس له فيها ملك ولا ميراث. وأما العمائم والقواقيق، فقد طاشت على وجه الماء تركض أسرع من حجارة المناجيق. وأما الجبخانة من البارود، فقد احترقت، وسطع منها إلى السماء عامود، وقتل أناس، وأناس اسودّت منهم الجلود، فانخملت الدولة خملة قوم عاد وثمود، وأحاط بهم البلاء والمصائب السود، وما سلم من عساكر الدولة إلاّ القليل، وكانوا عشرة آلاف نفر، وعسكر البشارية ثلاثة مئة خيّال، سلم أجمع، ما قتل إلاّ رجل واحد، اسمه الشيخ جبر من الحمادية.**

وأما ما كان مع الدولة من عسكر العرب، فقد هربت كجمال أحاط بها الجرب، وشردوا في البراري هاربين، إلى النجاة طالبين، فأصبحت عساكرهم خامدة، وفي الخمول والخجل راقدة، كهشيم تذروه الرياح، وزال عنهم السرور والأفراح، وكانت الوقعة والخذلة على الدولة».

ويسترسل في وصف الهزيمة القاسية التي وقعت على عسكر الدولة بلغة خطابيّة مسجعة قبل أن يختمها شعراً مما يدلّ على الأثر البالغ والصدى الكبير الذي خلّفته هذه المعركة في مشاعر المعاصرين وأذهانهم[1].

شكّلت النتائج الحاسمة لمعركة البحرة منعطفاً أساسيّاً في السلوك السياسي العام والعلاقة بين المتاولة من جهة والسلطة العثمانيّة الحاكمة وباقي القوى المحلّية المؤثّرة في الأحداث، من جهة أخرى فقد رفعت من معنويات العامليين بعد معاناة طويلة وأكّدت قدرتهم على مواجهة جبروت الباشوات وبطشهم كما أكّدت وجودهم كقوّة مؤثّرة وفاعلة في مختلف المعادلات السياسيّة والعسكريّة السائدة في تلك الفترة وما بعدها.

(1) تاريخ الركيني، ص 66.

«كبسوا على عساكر الشام تحت غسق الظلام فأبلوهم بالويل والنقم وكسروهم كسرة مهولة وغرقوا أكثرهم في بحيرة الحولة وهرب عثمان باشا بنفر قليل من رجاله وقد احتوت الأعداء على وطاقه وأثقاله»[1].

وينقل محمد جابر آل صفا عن لاكروا: «ان جيش ظاهر والمتاولة داهموا جيش عثمان زحفاً على بطونهم من أربع جهات وكان جيشه مؤلّفاً من عشرة آلاف مقاتل واثنتي عشر مدفعاً وأربعة مدافع لدكّ الحصون عدا العربان وعشائر عنزة والصقر والهوارة وأن ناصيف النصار قطع بسيفه رأس قائد مارديني ظنّاً أنه عثمان باشا الذي فرّ ناجياً بنفسه وترك خيمته وسلاحه وخيوله وأما الجيش فقد فني عن آخره ومن سلم من القتل رمى بنفسه في بحيرة الحولة فمات غرقاً».

ويقول المؤرّخون العامليون «إن حملة عثمان باشا كانت على الشيعيين لما نبذوا طاعة ولده درويش باشا والي صيدا، ورفضوا دفع مال الميري المقطوع. فجهّز عثمان باشا لحربهم، وعسكر الشيخ ناصيف النصار بجنوده في جوار مقام النبي يوشع الواقع في الشرق الجنوبي من جبل عامل. وعقد مشايخ الشيعة ديوان مشورة ورتبوا خطّة بالهجوم وتضرّعوا إلى الله أن ينصرهم على العدوّ الباغي. وكان مقام النبي يوشع بناية حقيرة فقطع الشيخ ناصيف عهداً على نفسه أن يبني المقام بناءً فخماً إذا ظفر بالعدو. ثم كنّس المقام بعمامته تواضعاً وتبرّكاً. ولما أحرز النصر بناه على الشكل الحاضر، ورفع فوق الضريح قبّة شامخة وانتدب ناصيف فرقة من أبسل جنوده وأوفرها شجاعة لا تزيد عن خمسماية فارس فبيّتت العدوّ وزحفت إليه ليلاً فأحاطت به من جهات ثلاث وأعملت فيه السيف. ولم ينج من القتل إلاّ من ألقى نفسه في البحيرة. ولم يقتل من المهاجمين جندي واحد. وفرّ الوالي عثمان باشا منهزماً لا يلوي على شيء. وكان الناس لعهد قريب يعثرون على أسلحة الغرقى في البحيرة»[2].

دبّ الخوف في قلوب الولاة العثمانيين بعد معركة البحيرة فترك والي صيدا درويش باشا مركز ولايته مع جماعته إلى الشام عند والده ولم تفلح المحاولات التي جرت لإقناعه بالعودة إليها والدفاع عنها بوجه الهجوم الشيعي المرتقب[3].

(1) تاريخ حيدر الشهابي، ص 89.
(2) تاريخ جبل عامل، صفا، ص 123.
(3) كان درويش باشا في أشدّ حالات الحزن فهو لا يأكل ولا ينام وكان أقلّ ما يمكن أن يحدث معه تجعل دموعه تنهمر. D.D.C. T 2, p 176 تقرير مسيو دراغون Dragon المشار إليه سابقاً.

2 - معركة كفررمان

إذا كانت معركة الحولة من أهمّ المعارك التي انتصر فيها ناصيف النصار والمتاولة على الدولة العثمانيّة، فإن معركة كفررمان هي من أهمّ المعارك التي تقابل فيها المتاولة والدروز المتحالفين مع ولاة الدولة العثمانيّة، وخصوصاً والي الشام وأولاده ولا سيما والي صيدا درويش باشا ومن ناصرهما.

«عاد درويش إلى صيدا مرغماً، فعصيت عليه المشايخ بني متوال حكّام بلاد بشارة وأرسلوا يتهدّدوه أنه يقوم من صيدا، فأرسل درويش باشا أعلم الأمير يوسف وترك له مال ميري بيروت وجبل الشوف تلك السنة، وعاد هارباً إلى الشام عند والده عثمان الذي طلب من الأمير يوسف المسير إلى بني متوال»[1].

كان الأمير يوسف أمير الدروز الكبير كثير الإخلاص للباب العالي، وكان عليه أن يلتقي مع الباشا مع خمسة وعشرين ألف مقاتل إلى ثلاثين ألفاً. لقد أعفي ثلاث سنوات من الميرة بدون مقابل وقبض خمسين كيساً،[2] وكانت نفقات جيشه وتجهيزاته على نفقة السلطان. لما نظر الباشا إلى عصاوة بني متوال وظاهر العمر خاف على نفسه لأنه كان جباناً فأخلى مدينة صيدا، ورجع إلى الشام فطلب منه الأمير يوسف أن يرجع إلى صيدا وأن يكون الأمير وعساكر بلاده في خدمته، فما قبل الباشا بذلك وبعد وصوله إلى الشام أرسل عثمان باشا **ينخي الأمير يوسف على المسير إلى بني متوال**[3].

لا يمكن النظر إلى جيش يوسف الزاحف لمقاتلة الثائرين الشيعة إلاّ على أنه جيش عثماني في التجهيز، والهدف والأوامر رغم أن أفراده هم من الدروز والمسيحيين في غالبيتهم، لذلك لم يهتمّ أميره بمحاولات ناصيف تجنّب الصدام والوصول إلى تفاهم يؤمّن له حصر نشاطاته العسكريّة بوجه القوّات العثمانيّة وحدها، ويبدو أن مفاوضات حثيثة قد حصلت لتجنّب الحرب، وكان من الساعين إليها كبار مشايخ الدروز وعلى رأسهم علي جنبلاط وهم أصدقاء ناصيف والمتفهّمون لخطته ومقاصده منذ المساعي التي قام بها الطرفان في وقت سابق لإزالة الخلاف بينه وبين ظاهر. ويقول القس حنانيا المنيرّ وهو من المعاصرين لهذه الحرب: إن علي جنبلاط حمل رسالة من ظاهر

---

(1) تاريخ الشهابي، ص 90.
(2) D.D.C. T 2, p 210 تقرير الفارس دوتوليس (De Tulis) المشار إليه سابقاً.
(3) تاريخ الشهابي، ص 90.

يعرض على يوسف ثلاثة تقديمات مقابل تخلّيه عن العثمانيين والإنضمام إلى حلفه مع ناصيف وهي:

1 ـ أن يحمل المشايخ المتاولة على أن يحضروا ويترامو عليه ويطلبوا رضاه.

2 ـ وأن يقدّموا له نفقة عسكر دراهم معلومة.

3 ـ أن يسلّمه مدينة صيدا «التي كانت على أهبة السقوط بين أيديهم».

فبقي يوسف مصرّاً على الحرب رغم موقف الزعماء الدروز ونصيحة الأمير اسماعيل بالتمهّل ريثما تنتهي المفاوضات **«وطلب من ابن اخته أن يتأخر حتى وصوله لأن المتاولة يدفعون إلى الأمير ما يريد وأنه يحمل رسالة منهم حملها له علي الظاهر».**[1] وكذلك موقف الأمير منصور الذي كان يؤيّد المتمرّدين ولو في سرّه.

كانت غاية ناصيف مقاتلة العثمانيين وحدهم والاستعانة بكلّ القوى المحلّية لمجابهتهم فحاول أن يثني يوسف عن حربه ولو كان الثمن التنازل له عن صيدا وهذا ما يؤكّد أن غايته لم تكن إلاّ الخلاص من سلطة العثمانيين لا توسيع نفوذه أو زيادة أملاكه ومقاطعاته بدليل العرض الذي قدّمه إلى يوسف بأن يتولّى القيادة العامة للثورة مقابل مشاركتهم جميعاً في محاربة العثمانيين للتخلّص من ظلمهم[2].

يقول قنصل فرنسا الفارس دو توليس في أحد تقاريره الدبلوماسيّة المرسلة من صيدا والمؤرّخة في 18 حزيران 1772م.

«إن الذي دفع المتاولة وهم جميعهم من شيعة علي إلى الثورة ضد الباب العالي هو طغيان الباشا ولا يربحون شيئاً من ثورتهم غير الاستقلال والتخلّص نهائياً من دفع العائدات المفروضة عليهم من السلطان»[3].

«جهّز الأمير يوسف ركبة على المتاولة وكانوا حينما رأوا أنهم قد انتصروا على عثمان باشا في موقعة الشيخ ظاهر وأن علي بك قد حضر إلى بلادهم واتفق مع الشيخ قد قويت شوكتهم وتمرّدوا فأخذوا يتطاولون على أطراف بلاد الشوف والحولة ومرجعيون وتلك الجهات وتواردت عليهم الشكايات فكتب إلى خاله الأمير

(1) المصدر السابق، ص 91.

(2) سوريا ولبنان وفلسطين، بازيلي، ص 77.

(3) D.D.C. T 2, p 253.

اسماعيل حاكم وادي التيم واستدعاه إلى الركوب معه عليهم فأجاب. ونهض الأمير يوسف حتى وصل إلى جباع الحلاوة أولى بلاد المتاولة، فاجتمعت المتاولة عسكراً واحداً وتجرّد منهم نحو مئة خيّال، وأقبلوا على عسكر يوسف فانكسر العسكر أمامهم ولم يصدّقوا ذلك حتى رأوا العسكر يزاحم بعضه على الهزيمة، فساقوا في أثارهم واعملوا في أقفيتهم السلاح فمات منهم خلق كثير بالسيف، وبعضهم بالتعب، وبعضهم بالعطش، وكانوا نحو ثلاثين ألفاً ففقد منهم أكثر من ألف وخمسماية نفر وتشتتوا في البراري والقفار، وكان يوم غنيمة للمتاولة فاغتنموا أسلاباً لا تحصى وعادوا إلى بلادهم ورجع يوسف إلى دير القمر مخذولاً وقام العويل والنحيب في جميع أقطار البلاد وكنت ترى النساء في كلّ مكان كالأغربة من لبس الحداد. وانكسرت بعد ذلك نفس يوسف وتمرّدت المتاولة»[1].

هذا ما يصف به معركة كفر رمان مؤرّخ شوفي، بينما يختصر آخر فيقول ان متاولة بلاد بشارة تعصّبوا مع ظاهر العمر ضد باشة صيدا، فطلب الباشا من الأمير أن يركب معه بعسكر على المذكورين فجمع الأمير ثلاثين ألفاً وذهب لمحاربتهم وقد وجد بين قوّاد العساكر بعض الخونة من الأمراء والمشايخ، **فلهذا السبب ما حصل توفيق فانكسرت عساكر الأمير وقتل منها أكثر من ألف وانهزم الباشا في صيدا**[2].

يتفق المؤرّخون الشوفيون بمن فيهم الأمير حيدر في غرره، على أن المتاولة لم يكونوا راغبين في قتال الأمير يوسف، وأنهم أبدوا استعدادهم لإعطائه ما يريد وأن مشايخ الدروز والأميرين اسماعيل ومنصور الشهابيين كانوا يرون وجوب التمهّل والمفاوّضة وصرف النظر عن هذه الحملة التي أمر بها والي الشام ووالي صيدا وقبض يوسف ثمنها من السلطات العثمانيّة مالاً واعفاءات وإغراءات، وربما كان تعهّده بقتال الشيعة هو الذي عجّل أو ساعد على إحلاله أميراً مكان عمّه منصور الذي ترك الإمارة مضطراً إلى بيروت والذي كان يتجه بعواطفه وجهوده لتأييد الثوّار ضدّ الدولة، ولكن يوسف بتأثير من صغر سنّه وعدم خبرته ونهمه إلى المال والسلطة، وكونه أداة طيّعة بين يدي جماعة غامضة تدير الأمور باسمه منذ تولّيه على جبيل لغايات رسمتها دون أن يكون له من القرار شيئاً، ولم يكن له رأي ولا تدبير، فقد كان سعد الخوري عقله المدبّر، أصرّ على موقفه وهاجم المتاولة في عقر دارهم[1].

(1) الدر المرصوف في تاريخ الشوف، القس حنانيا المنير، ص 46.
(2) حوادث لبنان وسوريا، القس روفائيل كرامة، ص 39.

«فقام عثمان باشا والي الشام انطلاقاً من التكتيك التركي بتأليب الدروز ضد المتاولة فهاجم الأمير يوسف عملاً بنصيحة الباشا على رأس عشرين ألفاً من الجبليين بلاد المتاولة حارقاً الضياع والمزروعات ولم تنفع محاولات علي الظاهر بإقناعه بالتخلّف عن محالفة الأتراك وتولّي شرف قيادة ائتلاف كلّ القوى الجبليّة فيتخلّص الجميع بالتالي من جور الباشوات فهاجم خمسماية من المتاولة الشرسين حتى الوحشيّة عساكر الأمير في النبطية ولم يستطع الدروز الصمود ولو للحظة خاصة وأنهم كانوا يحاربون لمصلحة الباشا رغماً عنهم فولّوا هاربين باتجاه الجبال من ملاحقة المتاولة الذين أراقوا منهم دماء كثيرة وعاد يوسف إلى دير القمر ملطّخاً بعاره 1500 أرملة كرفّ من الغربان ملأوا سماء القمم اللبنانيّة بالزعيق واللعنات أما العقال الدروز الذين كانوا يحتلّون عاصمة البشليك فقد تراجعوا من الخوف بعد سماعهم بأنباء الهزيمة»[2].

«عند وصول الأمير يوسف إلى قرية كفر رمان أحرقها كما أحرق قرايا إقليم التفاح وجباع وسار إلى النبطية فالتقى بطارش عسكر المتولة بنحو خمسماية خيّال فانكسر عسكر الدروز كسرة عظيمة لم يكن في الزمان انكسار مثل تلك الكسرة حتى مات كثير من التعب ومنهم من عدموا عقولهم وكثيراً رموا سلاحهم وثيابهم وقيل ان إنساناً تعلّقت ثيابه في شجرة فبقي واقفاً إلى أن وصلوا إليه وقتلوه. وقد مات من الدروز ما ينوف عن ألف وخمسماية قتيل ولو تكون وصلت عساكر المتاولة لما كان سلم إلاّ القليل»[3].

يكاد يجمع المؤرّخون الشوفيون قبل العامليين والأجانب على أن عسكر المتاولة الذي اشترك في القتال لم يتجاوز عدد أفراده الخمسماية فارس، مقابل عشرين إلى ثلاثين ألفاً، وربما أكثر. كان عدد الجيش المهاجم ومع ذلك حقّق العامليّون هذا النصر الكاسح الذي «لم يحصل مثله في الزمان» كما وصفه الأمير حيدر.

لا يمكن مقارنة هذه المعركة بأيّة معركة أخرى من حيث نتائجها وعدد المشاركين فيها من الجانبين واختلال المساواة العدديّة بين الفريقين بالإضافة إلى الفرق الشاسع في الاستعداد والتجهيز. فعسكر الدروز هو الذي بادر بالهجوم مجهّزاً على نفقة الدول

(1) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، بازيلي، ص 91.

(2) المرجع السابق، ص 76.

(3) تاريخ الشهابي، ص 91.

العثمانيّة ومتمتّعاً بإمكانياتها اللامحدودة بينما فرسان ناصيف وصلوا فجأة في لحظة المعركة وشاركوا فيها على غير استعداد سابق، ومع ذلك كانت هذه الحصيلة الكبيرة من القتلى والفارين والعراة والمذعورين أمام عدد قليل من الفرسان.

كيف يرى المؤرّخون العامليون معركة كفر رمان.

يقول محمد جابر آل صفا إن أسباب هذه المعركة كما سمعتها وأنا غلام يافع من الشيوخ والمعمرين يرويها أحدهم عن أبيه عن جدّه ممن شهد المعركة بنفسه فيصفها وصفا دقيقاً كأنك تراها ويذكر الأماكن التي حصل فيها العراك والهجوم والدفاع وأسماء القوّاد الذين أبلوا بلاءً حسنا فيها :

«خسر الباشا معركة الحولة ـ البحرة ولم يقدر الأمير يوسف على نجدته رغم إعلانه النفير العام. فزحف لاكتساح جبل عامل بجيش كثيف يزيد على أربعين ألف مقاتل ولما دخلوا البلاد من جهة صيدا بدأوا يحرقون القرى ويدمّرون المزارع ويقطعون الأشجار ويقتلون من يقع في أيديهم من السكّان الآمنين ولا يعفون عن شيوخ ولا صبية ولا نساء».

كتب الشيخ علي الفارس إلى الشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ جبل عامل يبسط له القضيّة ويستنجده للدفاع عن البلاد وحماية الطائفة فهبّ ناصيف وأرسل الصُوّات لجمع الجنود وكتب إلى حليفه ظاهر العمر صاحب فلسطين يطلب النجدة.

«وكان جيش الأمير يوسف يسير في أربع فرق. فالفرقة الأولى وهي المقدّمة وفيها الأمير يوسف في أوّل الجيش. والفرقة الثانية، وهي الجناح الأيمن كانت تسير في طريق جباع ـ حومين ـ حيوش ـ النبطية. والفرقة الثالثة وهي الجناح الأيسر كانت تسير في طريق العرقوب ـ فالميذنة ـ الجرمق ـ كفر تبنيت ـ النبطية. والفرقة الرابعة وهي القلب كانت تسير في طريق جرجوع ـ عرب صاليم ـ والنبطية. ولما وصلت طلائع الجيش المهاجم إلى جباع وأحرقتها بعث الشيخ علي الفارس رسولاً آخر إلى الشيخ ناصيف يخبره بحركة العدوّ وما فعله من الفظائع ويستعجل قدومه».

ثم عبأ خيّالته تعبئة حربيّة محكمة. فأحاطت بفرقة الأمير من جهات ثلاث من الغرب والشرق والجنوب تاركاً جهة الشمال ليسهل طريق الفرار والانسحاب. وخشي حماس الشبّان المشاة فحبسهم في «خان الميري» ومنعهم من التحرّك إلاّ بإشارته،

وبدأت المعركة بإطلاق الرصاص، فذعر الأمير يوسف، ورأى الخطر المحدق به، فأرتبك وتشوّشت جنوده، وضيّق المهاجمون الحلقة، فالتجأ إلى الفرار راكباً بغلة لا يلوي على شيء. وكانت الأوامر أن لا يقطعوا عليه الطريق ولا يمسَّ بسوء. ولما سمع الشباب المحصورون بالخان أزيز الرصاص اشتدَ هياجهم فنقبوا جدار الخان الشمالي، ولم تزل آثار النقب إلى اليوم، وتعقّبوا العدوّ فاشتبكوا معه في ساحات ثلاث (في الجزائر) شمالي البلدة، (ووادي بو نعيم) شرقيها، وبين زيتون كفررمان. وكان جيش الشيخ ناصيف المؤلّف من ثلاثة آلاف مقاتل قد وصل إلى قرب قرية شوكين وهناك التقى بكشاف يصيح (علق الشر، علق الشر) أي دارت رحى الحرب. فأسرع برجاله سالكاً طريق (زبدين) ودخل البلدة من الجهة الغربيّة ليدهم مقدّمة الجيش المخيّمة غربي البلدة. وتنكب عن طريق «نبعة حبيب» لأنها مضيق واقع بين جبلين فخاف الكمين. وسار بخيله خبباً إلى ساحة العراك ورأى الحرب قائمة على قدم وساق فهجم هجوم المستميت، ولم يلبث العدوّ أن لوى عنانه متقهقراً إلى كفر رمان.

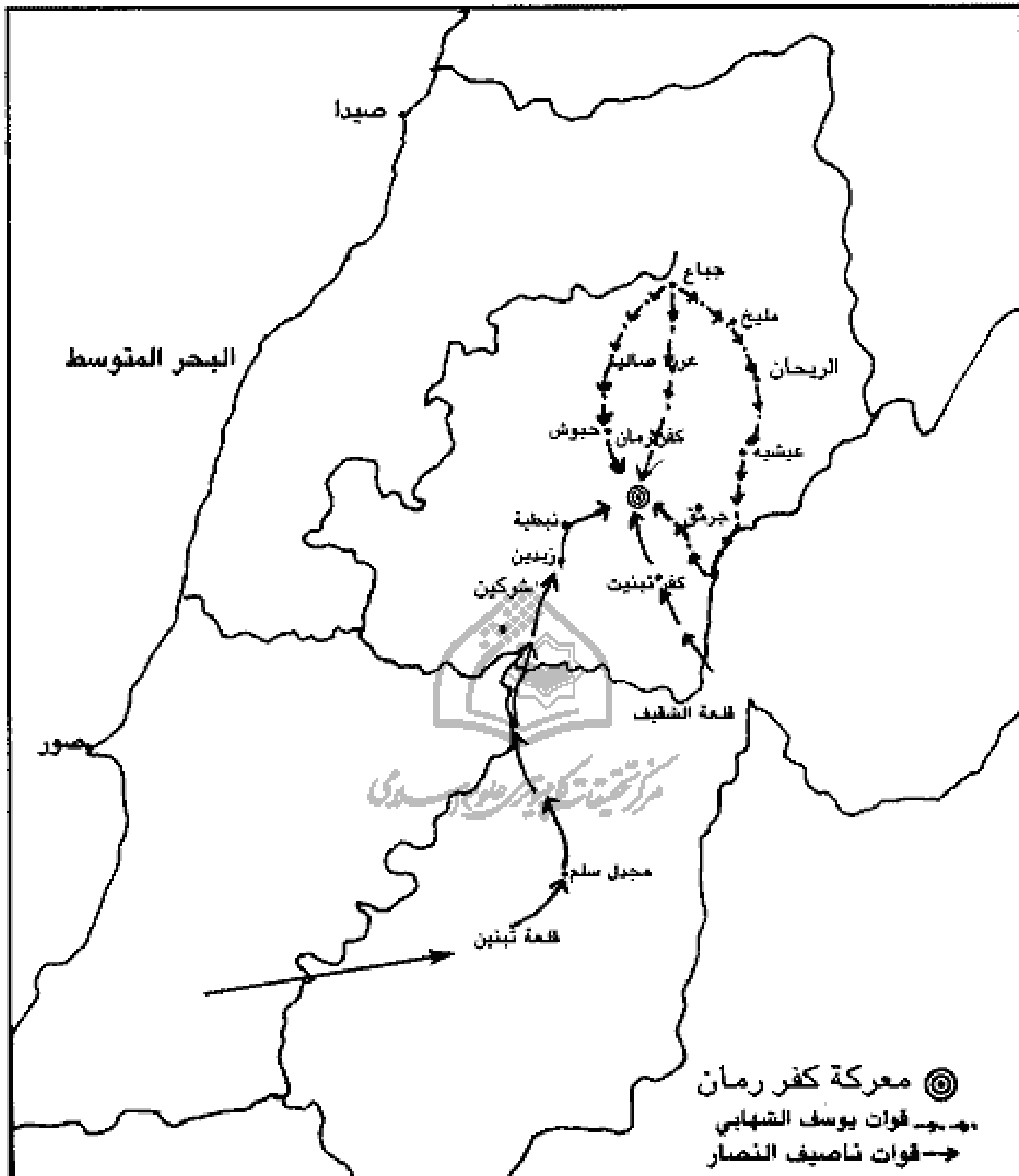
«هجم الشيعيون بالسلاح الأبيض فانهزم الجيش كلّه انهزاماً تاماً يصعدون في جبل العرقوب وروابي سجد المطلة على سهل الميذنة وعقبة جرجوع، وحراب الشيعة تعمل في أقفيتهم وتذبحهم ذبح النعاج. ومات أكثرهم خوفاً وتعباً»[1].

أما الشيخ محمد تقي الفقيه، فيرى أن واقعة كفررمان ينبغي أن تُعدّ من الأيام المشهودة التي يتحدّث عنها التاريخ العربي، فإنه لم يحدّثنا التاريخ أن خمسماية بطل يكتسحون عشرين ألفاً من المهاجمين، على أقلّ الروايات وتسعين ألفاً على أكثرها، غير أن يوم كفررمان قد انطوى على مثل ذلك.[2] ويقول أحد المستشرقين عن هذه المعركة **إن الحملة التي جلبت الفخار للمتاولة هي حملة الأربعين ألف درزي العاملة لحساب الباب العالي**، التي خرجت من جبالها تحدوها الرغبة في الغنائم والأسلاب والانتشار في بلاد المتاولة. التقاها الشيخ ناصيف بثلاثة آلاف فارس يساندهم بعض الفرق التابعة للشيخ ظاهر. فأوقع بها وشتّت شملها عند أوّل اصطدام. **إن هذا الانتصار المؤزر جعل اسم المتاولة رهيباً مخيفاً وأضاع على الدروز صفة التفوّق التي عرفت عنهم في سوريا**[1].

---

(1) تاريخ جبل عامل، صفا، ص 129.
(2) جبل عامل في التاريخ، الفقيه، ص 217.

معركة كفر رمان



«تناول المؤرّخ الفلسطيني ميخايل الصباغ معركة كفررمان بإيجاز بالغ وحفظ لعلي الظاهر دوراً فيها فيقول: «إن الدروز باتوا قرب كفررمان فوقع القتال وما مضت ساعة حتى انهزموا أمام علي الظاهر وقبلان وناصيف وتبعتهم خيل الطراد يقتلون كلّ من أدركوه منهم».

(1) تاريخ الدروز، المستشرق جان ميشال فنتور دو بارادي، ص 47 - 46.

3 - معركة صيدا

كان الأمير يوسف عند وصوله إلى جسر صيدا قاصداً بلاد المتاولة، قد ترك الشيخ علي جنبلاط مع ألف وخمسماية من عقال الدروز لحماية المدينة، بعد أن هرب واليها، ولكن بعد هزيمة يوسف تركها جنبلاط، وعاد إلى بلاده فسقطت في أيدي المنتصرين، فدخلها المتاولة وعيّن ظاهر أحد رجاله حاكماً عليها.

«وأما عثمان باشا الكرجي والي الشام، حين بلغه ما أظهرت المتاولة من العداوة، أرسل يعرض إلى الدولة العليّة عن تملّكهم إلى مدينة صيدا فحضر «خط شريف» إلى الأمير يوسف في القيام إلى الشيخ ظاهر والمتاولة وأن تكون ميري بيروت ومال ميري الجبل في تلك السنة له خرج عسكر»[1].

بدأت الدولة في التحضير لخوض معركة حاسمة مع المتاولة وحلفائهم فكانت معركة صيدا الثانية التي أطلق عليها العامليون إسم معركة حارة صيدا أو الحارة أو ربما عرفها البعض باسم السهل الذي كان أحد ميادينها وهو سهل الغازية.

في هذه الأثناء **«مات عثمان باشا الكرجي[2] فحضر إلى الشام عثمان باشا المصري «ساري عسكر على عربستان، فكتب إلى الأمير يوسف يعرفه عن قدومه، وانعزل عبد الفتاح باشا عن طرابلس وحضر مكانه عبد الرحمن باشا. ثم أرسل عثمان باشا إلى الأمير يوسف يأمره أن يجمع العساكر على بني متوال، وأرسل إليه الدالي خليل لخفّة طبعه، إلاّ إنه كان بطلاً في الحرب، وحضر صحبته أحمد الجزار وبصحبتهم ألف خيّال، ومعهم مدافع «وزنبركات وجبخانا» وفي وصولهم إلى عين السوق التقاهم الأمير يوسف بكلّ إكرام وجمع عساكر بلاده وساروا جميعاً إلى حصار مدينة صيدا وكانت تنوف العساكر عن العشرين الفاً»**[3].

يبدو واضحاً من هذا النص للأمير حيدر ان انتصارات المتاولة في معركتي الحولة وكفررمان وتملّكهم لمدينة صيدا قد أثارت حنق الدولة المنهمكة، في حربها الروسية. فأتخذت تدابير استثنائية ترمي إلى مجابهة ثورة المتاولة بكلّ قواها، وعيّنت قائداً عسكرياً على جميع قوّاتها في الولايات العربية. فجمع ما قدر عليه من جيوش الولايات

---

(1) تاريخ الشهابي، ص 92.

(2) والد درويش باشا والي صيدا ومحمد باشا والي طرابلس أوصل الأمير يوسف شهاب إلى حكم شمالي لبنان ثم جبل الدروز شخصيّة غامضة كان لها دور أساسي في تهجير الشيعة من جبل لبنان.

(3) تاريخ الشهابي، ص 92.

الأخرى غير الشام وصيدا، فجاء خليل الوزير، على رأس عسكر حلب، وأحمد الجزّار أحد رجالها الموثوقين قبل أن تنكب به بلاد الشام ويعيّن والياً فيما بعد، وجهّزتهم بما قدرت عليه من مدافع وزنبركات وأمرت رجلها المخلص الأمير يوسف بالإنضمام إلى هذه القوّات وتحرير صيدا من قبضة المتمرّدين.

طلب الثوار من يوسف التخلّي عن المعركة فرفض كعادته، عندها زحف الثائرون إلى «سهل الصباغ» ونظّموا قوّاتهم فكان جناحهم الأيمن بقيادة ناصيف ومعه المتاولة وألف من المغاربة المشاة، وكان عليهم مواجهة الدروز والجناح الأيسر بقيادة علي الظاهر يواجه العقال ويعتمد على المراكب الحربيّة الروسيّة التي تتقدّم على الساحل وفي الوسط تولّى المواجهة علي بك والشيخ ظاهر على رأس ثمانماية من المماليك.

«وصلت مراكب المسكوب من عكا إلى صيدا لمعاونة الثائرين، وضربت المحاصرين للمدينة من عسكر الدولة ورجال يوسف فانسحبوا إلى سهل الغازية حيث تلاقى الجيشان في 12 حزيران 1772م. فضربت عساكر الدولة عساكر المتاولة والسفن في المدافع والزنبركات وراح منهم نحو مئة قتيل وهجم الدالي خليل والجزار على المتاولة فانكسر عسكر الدروز من خلف الدولة، وكان الدروز وهم راجعين يشلحوا من الدولة الذين معهم ولولا الدالي خليل لما سلم من الدروز والدولة إنسان، وكان قد فعل في تلك الوقعة أفعال تعجز عنها الشجعان فعاد إلى الشام وهو يذم الدروز على قبيح أفعالهم»[1].

انتصر المتاولة وحلفاؤهم انتصاراً باهراً آخر، وسقط من الدروز فوق الألف وخمسماية رجل، وغنموا منهم **غنيمة عظيمة**[2] بعد أن فكّوا الحصار عن صيدا الذي استمرّ 7 ايام، وبقيت صيدا في أيديهم حتى 1775م حين قتل ظاهر العمر وجاءها الجزار واليا [3].

بعد ساعات من المعركة دخل ناصيف إلى صيدا، وقام بزيارة القنصليّة الفرنسيّة وبصحبته أخوه كما جاء في تقرير القنصل المؤرّخ في 28 حزيران 1772م «**زارني الشيخ عباس العلي أحد مشايخ المتاولة وتبعتها زيارة الشيخ ناصيف الذي يقوم بوظيفة الشيخ الكبير بينهم وهو مشهور في كلّ سوريا ببسالته، جاء ليراني بعد ساعتين أو ثلاثة من المعركة وكان بصحبته أخوه وعدد كبير من أقاربه أو أصدقائه الفخورين بالنصر ويبدو عليهم جميعاً سيماء المحاربين. وقد أهداني كلّ منهما حصاناً جميلا**»[4].

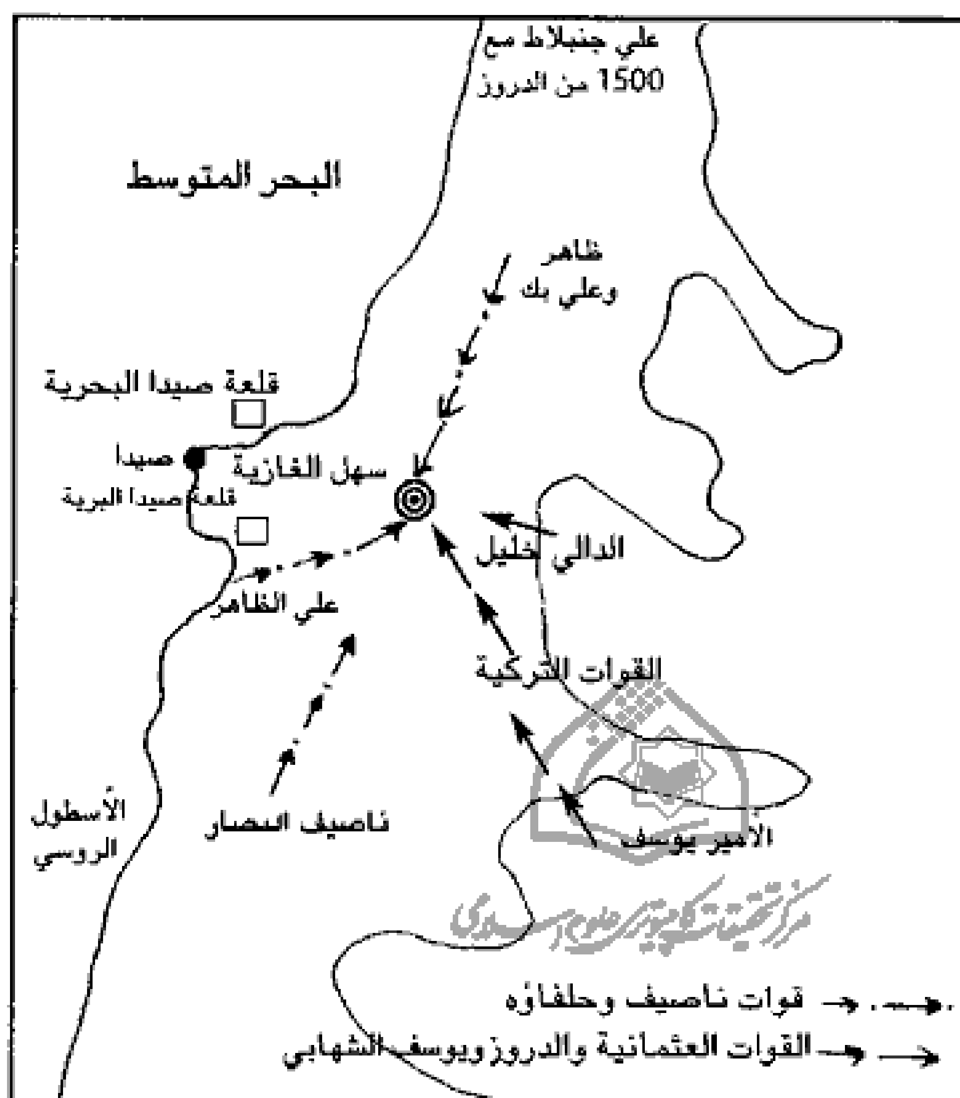
(1) تاريخ الشهابي، ص 93.

(2) تاريخ الركيني، ص 69.

(3) جبل عامل السيف والقلم، حسن الأمين، ص 204.

(4) D.D.C. T 2, p 241 تقرير الفارس دوتوليس في 28 حزيران 1772م.

معركة الحارة – صيدا – سهل الغازية





الأسطول الروسي يضرب مدينة صيدا أثناء المعركة.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن تقارير القناصل الفرنسيين في صيدا إلى حكومتهم تساهم في إلقاء الضوء على الكثير من الأحداث التي وقعت في الولاية وجوارها، وقد حفلت هذه التقارير بالمعلومات والتحليل والإستنتاج، للكثير من الوقائع التاريخيّة المهمّة التي تتعرّض للعلاقة المتوترة باستمرار، بين السلطات ومتاولة جبل عامل. وكذلك لتحرّكات ناصيف واتصالاته والمعارك التي شارك فيها، ومن البديهي أن علاقات هؤلاء القناصل، سمحت لهم بالإطلاع على أمور قد يكون من المتعذّر على المراقب العادي، أو المؤرّخ المعاصر، أن يطلع عليها. ومن الأمور التي انفرد بذكرها بعض القناصل أن السلطان العثماني نفسه، أو الباب العالي، كان يرسل التعليمات إلى ولاته طالباً إليهم معاملة الشيعة بالقسوة والقمع، ولم يكن ذلك تصرّفاً يترك لصلاحيات الوالي وطبعه واجتهاده، بل هو أقرب ما يكون إلى سياسة عامة تنتهجها الدولة على أعلى المستويات. فقد جاء في تقرير القنصل الفرنسي دو لين De Lane إلى حكومته بتاريخ 20 آب 1743م، **إن السلطان الغاضب جداً من رفض المتاولة دفع الضرائب والخضوع لأوامره. أمر ولاته بما فيهم سليمان باشا وأمير الدروز بتدمير قصورهم وقلاعهم وجعل جميع السكّان طعاماً للسيوف**[1].

إلى جانب ظاهر وناصيف، ظهر في مصر علي بك الكبير كحاكم آخر ينزع إلى الاستقلال عن الدولة العثمانيّة والتحرر من تسلطها وسلطانها. «فطرد الوالي العثماني وامتنع عن دفع الضرائب وشاعت سطوته في جميع الأقطار وضربت السكة باسمه في القاهرة وأبعد الوزير القائم باسم الدولة العليّة، وتسلّم قلعة السلطان، وألبس السبع وجاقات في عشيرته».[2] وهذه السنة تظاهرت أمور الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا وعظم اسمه عند الجمهور وكان متفقاً مع مشايخ المتاولة حكّام مدينة صور وبلاد بشارة، وكان في تلك الأيام أعظمهم جاهاً وأكثرهم مالاً ورجالاً الشيخ ناصيف النصار، وكان تحت يده حصون منيعة وأبطال أشدّاء فطابت لهم الأيام وغفلت عنهم الحكّام[3].

تحالف الزعماء الثلاثة ودخلوا الشام، وسيطروا على صيدا، وهزموا ولاة الدولة وعمالها، في اماكن مختلفة. وبعد انسحاب أبي الذهب المفاجىء والغامض من الشام وانتصار ظاهر وناصيف على عثمان باشا الكرجي في الحولة، أرسلا يبشّران حليفهما

(1) D.D.C. T 2, p 77.
(2) هي قيادات العسكر.
(3) عن تاريخ الشهابي (تاريخ تبنين ص 176).

الثالث في مصر، ويشرحان له خيانة صهره أبي الذهب، فأرسل أحد قوّاده اسماعيل بك لقتال أبي الذهب وخرج مع ضيفه عثمان الظاهر قاصداً عكا حيث التقاه ظاهر وناصيف بكلّ إكرام وتعزيز واحترام.

اتفق الحلفاء الثلاثة على مساندة علي بك، لتمكينه من العودة إلى مصر بعد ان سيطر عليها عدوّه أبو الذهب وأعادها إلى حظيرة الدولة العثمانيّة.

(في 15 ربيع الآخر 1186هـ ـ 1772م) ركب الشيخ حمد العباس والشيخ أبو حمد والشيخ ظاهر إلى نحو مصر لحصار يافا واستقاموا في حصارها قرب شهر ونصف[1] .

«كان بين وقعة الباشوات في الحولة (معركة الحولة أو البحرة) ووقعة كفررمان مع الدروز خمسين يوماً، وبين وقعة كفررمان ووقعة صيدا مع الدالي خليل «معركة الغازية» والبشاريّة والدروز ثمانية أشهر إلاّ يومين»[2].

بعد معركة الغازية استمرّ التحالف، في سعيه المشترك لتحقيق أهدافه. فأرسل ناصيف أخاه وقائد عسكره محمود النصار، المعروف بأبي حمد، وابن عمّه حمد العباس إلى حصار يافا، لتمهيد الطريق أمام علي بك لاستعادة مصر. ولكن هذا التحالف أصيب بضربة شديدة في معركة الصالحية ضدّ أبي الذهب حيث قُتل علي بك وقُتل معه صليبة بن ظاهر قائد الفرسان الذين أرسلهم والده للقتال ضدّ صهره وقائده السابق محمد أبو الذهب، الذي عاد من جديد إلى الشام وانما لحسابه الخاص هذه المرّة وللإقتصاص من ظاهر. بعد أن جمع رجاله وأحزابه من المتاولة، واسماعيل أمير حاصبيا وسار على أثر علي بك لنجدته ولكن بلغه خبر معركة الصالحيّة عند وصوله إلى غزّة فرجع إلى دياره حاسراً.

عاد أبو الذهب إلى بلاد الشام، مشمولاً برضى الدولة العثمانيّة هذه المرّة ومباركتها، وأوامرها بالقضاء على المتمرّدين، فهو وإن كان قادماً من مصر على رأس جيش من ستين ألف مقاتل، لا يختلف من حيث غايته وأهدافه عن أيّ حملة عثمانيّة يرسلها الباب العالي، لتثبيت سلطته ومعاقبة العصاة، ونشر الدمار، والقتل في مختلف الأرجاء التي يمرّ فيها، فاحتلّ غزّة ثم حاصر يافا، وكانت في اقطاع ظاهر يحكمها قريبه كريم الأيوب متسلّماً من قبله. دام الحصار ستين يوماً ثم تملّكها فأمر رجاله بنهبها، وأن يعملوا السيف بكلّ من كان فيها بدون فرق أو تمييز، حتى الغرباء وأبناء

(1) تاريخ الركيني، ص 70.
(2) المصدر السابق، ص 69 ـ 68.

السبيل والزوّار، وجعل من رؤوس القتلى أكواماً وأهراماً ليوقع الرعب في قلوب جميع حكّام البلاد وأهلها حتى لا يقاومه أحد. وقد نجح في ذلك، فانتشرت في سائر البلاد حالة من الهلع والرعب ولا سيما في فلسطين وجبل عامل، لارتباطها السابق بعلي بك الكبير عدوّ أبي الذهب وسيّده القديم، وقد وصف الركيني حالة الرعب على طريقته العفوية والبسيطة.

«أبو الذهب تعبت من سطوته جميع العجم والعرب، وما من أحد إلا نزل به الهمّ والكرب. حلّ بالناس الويل والعطب، وكلٌ يقول الهرب ثم الهرب، ما دام أبو الذهب لنا بالطلب، بكثرة جنوده وعساكره اللابسين الدروع ذات الزرد، حتى أنهم ذكروا أن الجمال التي تنقل العساكر من مصر إلى عكا ثلاثون ألف جمل غير المراكب التي في البحر».

«الشيخ ظاهر فلم يجد له ملجأ لا هو ولا أولاده، فسافر إلى عرب الطيار إلى البريّة ثم أرسل البيك إلى صفد فهدمها وخربها، وخربت صور، ورحل أهلها وعزلت صيدا ووجلت منه أهل طرابلس وهو في عكا»[1].

أما ميخايل الصباغ وهو أعلم الناس بخبر ظاهر فقد قال **«إذ بلغ الشيخ ظاهر ما جرى في يافا، ورأى تراخي أولاده وكبار رجاله، خاف على نفسه وترك عكا وجعل فيها الدنكزلي ومغاربته، وسار بأهل بيته وبعض رجاله، وفيهم إبراهيم الصباغ إلى قلعة هونين، عند الشيخ قبلان ليجتمع هناك بمشايخ المتاولة ويتدبر معهم، فيما يجب عمله ليدفعوا عن نفوسهم وعن البلاد شرّ أبي الذهب بالمال والمهادنة أو بالحرب والقتال»**[2].

من الواضح، أن مقتل علي بك الكبير وهجوم أبي الذهب واكتساحه المدن الفلسطينيّة، بجيوشه الهائلة العدّة والعدد، ومؤازرة العثمانيين له، والمجازر التي ارتكبها ودخوله عكا مقرّ ظاهر، حتّمت على الحليفين ظاهر وناصيف التشاور في الموقف الواجب اعتماده، لمواجهة الظرف الراهن المستجد، فاجتمعا في هونين عند قبلان وهو الشيخ الحكيم الذي لا يقطع ظاهر أمراً بدون مشورته[3]. ولا بدّ أن خطورة الوضع وسقوط المدن وتراخي أولاد ظاهر ورجاله، قد جعلهم يجنحون إلى المفاوضة والمهادنة وانتظار مرور العاصفة التي لا قدرة لهم على مواجهتها، ولم يحسبوا يوماً لها حساباً فلم يُدر في خلد أحدهم، أن جيشاً مصرياً من ستين ألف جندي جيّد التدريب والتسليح، وبمواكبة اسطول بحري سيزحف لقتالهم إلى جانب القوّات العثمانيّة، وقد كانوا يأملون بتحالفهم مع علي بك أن تكون هذه القوّة إلى

(1) المصدر السابق، ص 77.
(2) للبحث عن تاريخنا، الزين، ص 548.
(3) كما يرى الركيني.

جانبهم، كما حصل في معركتي الشام والغازية. فقضت بديهيات حسن التدبير واتباع قواعد الحكمة، أن يحاولوا معالجة الموقف بالرويّة والسياسة، وربما بتنسيق وتفاهم مع ظاهر فاسترضوا باشا الشام بالتقادم والذخيرة. «**سافر الشيخ ناصيف أيّده الله إلى عكا لمواجهة محمد بك أبو الذهب فأكرمه إكراماً زائداً وكانت شفاعته ماضيه عند جنابه في كلّ شيء يريده ثم ما لبث قبلان أن تبعه ويذهب بعض المؤرّخين إلى أن أبا الذهب منع ناصيف من مغادرة معسكره إلاّ «بعد أن يأتي جميع مشايخ المتاولة لعنده**»[1] ولكن موت أبي الذهب الفجائي بعد أيام قليلة حال دون معرفة حقيقة نواياه، كما ألقى ظلاً من الغموض على طبيعة هذه الزيارة وغايتها، وما جرى فيها بين الرجلين من محادثات، وهل كان في نيّته التوسّط لظاهر أم أنه كان أشبه بالأسير عند أبي الذهب، بإنتظار وضوح الموقف العام لجميع المتاولة العامليين، وكيف تسنّى له عند موت مضيفه، أن ينهب من معسكره أموالاً لا تحصى، ويعود إلى بلاده رغم كثرة جنود أبي الذهب وأعوانه.

وكيف سمح الجند لناصيف بنهب معسكرهم دون ممانعة؟

وهل كان بصحبة ناصيف عدد من الرجال يمكّنه من نهب أموال لا تحصى، في وسط جيش كثيف العدد وكامل العدّة رغم وفاة قائده الفجائيّة؟

إن الركيني المتابع دائماً لتحرّكاته يكتفي بالقول: إن ناصيف وقبلان رجعوا من عندهم «سالمين غانمين». وأرسلوا سريّة قليلة إلى عند السنجق في صيدا، لاستعادتها من ممثّل أبي الذهب طوعاً أو كرهاً «فحاصر فيها وقتل منهم خمسة رجال وقال لهم: لن أخرج منها إلاّ بأمر سلطان»[2].

حاصر الأسطول العثماني بقيادة حسين باشا قبطان عكا، بسعاية أحمد الجزّار، واعتماداً على خيانة أحمد الدنكزلي رئيس المغاربة، وهم ضباط الأبراج والأسوار، ورماها بالكلل والقنابل. فأخذت أبنيتها تتهدّم وحجارتها تطير[3] فأتفق الشيخ ظاهر وذووه على أن يرحل من عكا إلى قلعة هونين عند الشيخ قبلان، كما فعل قبلاً، حين حاصره محمد بك أبو الذهب مع غز مصر، فتجهّز وخرج بعياله قاصداً هونين ولكنه

(1) الزين، م. م.، ص 550.
(2) تاريخ الركيني، ص 38.
(3) الدر المرصوف في تاريخ الشوف المنير، ص 59. تاريخ ظاهر العمر، ميخائيل الصباغ، (الزين ص 550).

قتل غدراً في الطريق، فلما علم أولاده بمقتله فرّوا إلى جبل عامل، **ملتجئين إلى الشيخ ناصيف النصار زعيم المتاولة**[1]. «**ثم راسلهم حسن باشا بالرجوع إليه وأمّنهم إذا دخلوا في الطاعة**، ووعدهم بتقرير الولاية عليهم مكان أبيهم، وهم عثمان وصالح وسعيد وأحمد وعلي.» فحذّرهم ناصيف أن لا يلقوا ذواتهم في هذه الأخطار وأن يتجنّبوا أسباب الهلاك، غير أنهم لم يمتثلوا لكلامه بل قاموا بالأمان ودخلوا على حسن باشا ما عدا علي، الذي تمرّد وثار. فقتل حسن باشا حسين، وقبض على إخوته.

«سعى عثمان للحلول مكان أبيه بالتودّد إلى حسن باشا والتقرّب منه، فجمع إخوته وقاموا جميعاً بزيارته فغدر بهم وألقى القبض عليهم وأرسلهم إلى القسطنطينية ومعهم أولاد علي «الحسن والحسين»[2].

استمرّ علي وحده عاصياً ومقاوماً، وقد طارده الجزّار طويلاً واشترك ناصيف أحياناً بمطاردته، عملاً بالمقتضيات الإدارية وتقاليد الحكم الإقطاعي، بعد أن أصبح الجزّار والياً على صيدا وعكا. ولكن بعض المؤرّخين العامليين يرون أن ركوب المتاولة مع عسكر الجزّار لمحاربة علي الظاهر، لا يعني أنهم حاربوه فعلاً فإن هناك من القرائن ما يدلّ على أن مشايخ المتاولة لم يكونوا جادين في محاربتهم له، وكانوا يفضون له سرّاً بتحرّكات الجزّار، وأوقات الهجوم، ليستعدّ ويأخذ حذره. ولما استطاع محمد باشا العظم أن ينال منه غدراً وغيلة، أخذوا رأسه، وبعد الواقعة أحضر ناصيف جثّته ودفنه في عيناثا[3].

إلى جانب التحالف المصيري الذي أقامه ناصيف مع ظاهر، ثم لفترة قصيرة مع علي بك الكبير، حاول في الوقت نفسه أن يؤسّس شبكة من العلاقات الواسعة والمتشعّبة مع أكبر عدد ممكن من الزعماء والحكّام في لبنان وبلاد الشام، بعد أن رفض يوسف التجاوب مع مبادراته ومساعيه لضمّه إلى التحالف بأيّ ثمن، قبل أن ترغم موازين القوى الأمير منصور على التنحّي والاعتزال في بيروت، مترقّباً فرصة تسمح له بالعودة للمشاركة بالأحداث. وقد ساعدته اتصالاته الواسعة والمستمرّة على تكوين أصدقاء عديدين، ولطالما ترجمت هذه الصداقة إلى مواقف اجتماعيّة وسياسيّة عميقة وفاعلة، جعلت منه لاعباً مهمّاً حتى في سياسة الشوف المحليّة. فقد كان كبار زعماء الدروز من

(1) الدر المرصوف، المنير، ص 59.
(2) عيسى اسكندر المعلوف (تاريخ تبنين، م. م.، ص 236). (للبحث عن تاريخنا، م. م.، ص 551).
(3) تاريخ الركيني، ص 82.

أصدقائه، وربما كما يقول القنصل الفرنسي من مؤيّديه[1] ومن بينهم علي جنبلاط الذي تبادل الزيارات معه أكثر من مرّة، وشارك في مفاوضات سياسيّة مهمّة في أكثر من منعطف مصيري، وقد استمرّت هذه العلاقة رغم أن التطوّرات، حتّمت عليهما أحياناً أن يتقابلا في ساحة القتال في معسكرين متقاتلين. وهذا ما جعل بعض المؤرّخين يشككون في الموقف الحقيقي غير المعلن للجنبلاطيين أثناء الحرب التي دارت بين ناصيف ويوسف في صيدا والنبطية، وعن مبلغ حماسه للقتال في معركة كفررمان[2]، ولما مات الجنبلاطي ذهب جميع مشايخ جبل عامل إلى جبل الدروز للتعزية، كما أرسل ناصيف ولده عقيلاً لزيارة أولاد المتوفّى متابعة للعلاقات واستمراراً للتواصل. فلما غضب يوسف والجزّار عليهم قصدوا دياره، وطلبوا منه التوسّط مع الجزّار لإنهاء الخلاف الحاصل[3]. كما أن الشيخ كليب النكدي، فرّ من دير القمر إلى جبل عامل، وأقام عند ناصيف لسنوات عدّة[4] كما أنه احتفظ بعلاقات متينة مع الأمراء الشهابيين، فتحالف مع اسماعيل أمير وادي التيم، كما طلب الأميران سيّد أحمد وأفندي مساعدته في النزاع مع أخيهما يوسف، وربما هذا ما دفع يوسف إلى استرضائهما، وإعادة أملاكهما خشية الإصطدام بناصيف أو إثارة غضبه، حتى أصبح الزعيم الشيعي، حامياً للعديد من اللاجئين والهاربين والمبعدين من جميع المناطق والطوائف. ومن أمراء الحرافشة اللذين قصدوا حماه، الأمير محمد الذي أقام فترة في شحور، حتى أعاده ناصيف إلى بلاده مصحوباً بفرسانه ورجاله، والأمير حيدر الذي أقام في عيناثا، ثم في صور. وقد عاد الأميران فيما بعد إلى سابق موقعهما في إمارة بعلبك. وإثر نكبة الشيعة في جبل لبنان، انتقل الكثير من الحماديين إلى مختلف أنحاء جبل عامل، فساهم جميع سكّانه حكّاماً وأهالي في حسن استقبالهم، والقيام بأعباء هذا الاستقبال. فأقام بعضهم في جبل عامل وقاتلوا مع ناصيف في مواقع مختلفة وسقط منهم قتلى عديدون[5].

---

(1) D.D.C. T 2, p 150 مشار إليه سابقاً.

(2) يشكك المؤرّخون الشوفيون في دور علي جنبلاط في معركة كفر رمان.

(3) D.D.C. T 2, p 359 الترجمان الثاني في القنصلية الفرنسية في صيدا رينار Renard في 11نيسان 1781م.

(4) الإمارة الشهابيّة والإقطاعيون الدروز، نسيب نكد، ص 151.

(5) كما حصل في معركة أنصار ومعركة البحرة.

يوسف وناصيف

يختلف ناصيف عن غيره من الزعماء المحلّيين في عصره، أن مقاييس التحالف والتعاون والودّ مع غيره من الحكّام الآخرين، لا تقتصر على تجانس المنافع والمصالح والأمزجة الشخصيّة، وهي المعايير التي كانت سائدة حينها، وإنما تتعلّق بالمواقف السياسيّة المجرّدة، ولا سيما مع السلطة العثمانيّة الحاكمة، فيوسف الشهابي كان العدوّ المحارب الذي طالما وضع موارده وإمكانياته في خدمة الولاة العثمانيين، وسخّر كلّ قوّته العسكريّة لتنفيذ أوامرهم، بالإغارة على جبل عامل أو غيره من المناطق، للمساهمة في إخضاع المتمرّدين والمتردّدين والثائرين بوجه التسلّط العثماني، الذي كانت مقاومته الشاغل الأساسي لناصيف طيلة سنوات كثيرة. فلما قضت الظروف أن يغضب والي الشام الجديد عثمان باشا المصري على يوسف، ويصل غضبه إلى حدّ تجريد حملة عسكريّة لتأديبه وطرده، سارع ناصيف إلى تناسي كلّ مواقف خصمه السابقة وما أزهق من دماء عاملية في خدمة الولاة العثمانيين وامتثالاً لأوامرهم، وهبّ إلى نجدته في البقاع.

«في عام 1773م وقع الإختلاف بين عثمان باشا والأمير يوسف، فجهّز الباشا عسكراً وخرج إلى البقاع ونصب خيامه في بر الياس. وكان عسكره ينوف عن خمسة عشر ألف، فجمع يوسف عسكر البلاد وتوجه إلى «المغيثة». وحدث جملة مواقع بين الفريقين «فأرسل يوسف إلى ناصيف النصار أن يحضر لإسعافه، فحضر بخيل بني متوال، ولما علم عثمان باشا بقدوم ناصيف خاف من اجتماعهما عليه. فلما وصل ناصيف إلى القرعون هرب عثمان في الليل بعساكره، وفات أكثر الوطاق والمدافع وأرسل يوسف إلى ناصيف يدعوه إليه فأجاب أن الحاجة قد قضيت ولي مهمات أبادر إليها ورجع إلى بلاده وعاد يوسف إلى دير القمر وطابت له الأيام وصار بينه وبين ناصيف والمتاولة محبّة عظيمة»[1].

إنّ يوسف هو عدوّ ناصيف طالما هو في معسكر العثمانيين يقاتل معهم ولحسابهم. أما عندما تقضي مصالحه بمواجهتهم فإن ناصيفاً لا يتوانى عن الإستجابة لدعوته إلى قتال والي الشام، فهو لا يفوّت هذه المناسبة التي تتيح له قتال ولاة الدولة بصرف النظر عن أشخاصهم وأسمائهم رغم العداوة القديمة والتاريخ الدامي بين الرجلين مادام

(1) الدر المرصوف المنير، ص 55.

يوسف قد نقل سيفه من خدمة العثمانيين إلى قتالهم. فكان ذلك كافياً «**ليصير بين الأمير يوسف وبني متوال محبّة عظيمة وتزول من بينهم جميع الأحقاد القديمة ويأخذوا على بعضهم البعض العهود والمواثيق**»[1].

لا بدّ في مجال دراسة دلالات هذه الواقعة، من الإشارة إلى عدّة أمور، منها أن ناصيفاً بعد أن أدّى مهمّته وفرّ من أمامه والي الشام رفض أن يقابل يوسف محتجّاً بضيق الوقت، وبأن ما يهمّه هو قضاء الحاجة التي جاء من أجلها لا غير ذلك من المراسم الاجتماعيّة. وقد يكون في ذلك إشارة إلى أنه لا يزال في نفسه بقيّة من تحفّظ تجاه يوسف على الصعيد الشخصي. وأن ما دفعه إلى القدوم هو رغبته في انهزام الوالي، وبعدها لا يهتمّ لأمر آخر. سيما وأن المؤرّخ الشهابي «**يؤكد أن عسكر يوسف لم يكن حاضراً وقت هروب وانهزام الجيش العثماني حيث أشار إلى وصوله في اليوم التالي وأنهم أخذوا ما تركه ناصيف وعسكره من الأسلاب**»[2].

والأمر الآخر أن مجريات الأمور في بر الياس تدلّ على أن ناصيفاً الذي لم يدخل معركة حتى حينه إلاّ وربحها، قد أحرز من الصيت العسكري والسمعة القتاليّة، ما يجعل جيشاً كبيراً كجيش والي الشام يفرّ من ساحة المعركة عند وصوله، ولكأن الهزيمة واقعة حتماً دون اي صدام بين الجيشين، لأن مجرد حضور ناصيف كافياً لهزيمة جيش من خمسة عشر ألف مقاتل معزّزين بمكانة الدولة العثمانيّة وسلطانها. وهذا ما جعل أحد المؤرّخين العامليين المحدثين يعلّق على ما سبق فيقول «**إن ناصيف لم يدخل معركة وخسرها منذ خمسين سنة، وأصبح اسمه في برّ الشام كاسم عنترة بن شداد في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام**»[3].

لن تكون حملة ناصيف إلى البقاع وفرار والي دمشق من أمامه، هي المرّة الوحيدة التي يُنقذ فيها يوسف من مصير مجهول، بل سيجرّد حملة أخرى إلى الشوف نفسه ليعيده إلى منصبه في دير القمر، بعد أن طرده الدروز ونادوا بشقيقه سيّد أحمد حاكماً عليهم، فهرب مستغيثا بالجزّار فأعانه وأمده بعسكر وسار ناصيف إلى جبل الدروز على رأس مقاتليه لنصرته.

(1) نزهة الزمان، الشهابي، ص 978.

(2) تاريخ تبنين، حسن صالح، ص 185.

(3) المصدر السابق، ص 181. كذلك كان عدو جهجاه الحرفوشي ينهزم امامه قبل لقائه خوفاً وتهيباً بسبب شهرته في القتال.

وقد وصف الركيني هذه الحملة الشيعيّة وأسهب في الإفصاح عن مشاعره العدائيّة الملتهبة ضدّ الدروز، والتي لا بدّ أنها تعكس مشاعر أبناء جبله جميعاً وهو أفضل من يعبّر عنها بعفويّة ويفصح عما تركته غارات حيدر وملحم ويوسف الشهابيين، من أحقاد دفينة ورغبة في الثأر عند جمهور العامليين، كما تظهر تعلّقهم بناصيف والتفافهم حوله واعتزازهم به «**وفي هذه السنة، يوم السبت، في الرابع عشر من ربيع الأول، (1195هـ ـ 1781م) ركب الشيخ ناصيف، والشيخ حمد العباس، مع أحمد باشا الجزّار، والأمير يوسف بن الشهاب، على الشوف. وكان الركوب في أوّل برد العجوز، في سابع وعشرين شباط**».

ثم انتهى وصول عسكر المتاولة مع الشيخ ناصيف، أيّده الله وخلّده وأيّد سعده. وصل العسكر إلى جزين، فحين وصل الخبر إلى أهالي الشوف بوصول عسكر الذين قلوبهم بحبّ الله مشغوف، زعق في الشوف غراب البين، ونادوا بأجمعهم: «الهرب من أين إلى أين ؟!».

«ووقع فيهم الرحيل والشتات، وخرجت المخدّرات في البراري هائمات، والرجل يفرّ من أبيه، وأمّه، وأخيه، وصاحبته، وبنيه، خوفاً من المنيّة تلتقيه»[1].

إلى جانب الفخر والإعتزاز يثير دخول العسكر العاملي إلى الشوف مشاعر التشفّي بما أصاب جبل الدروز على يد ناصيف وصحبه. فيأتي سرد المؤرّخ العاطفي أقرب إلى زجليّة حماسيّة تظهر عما يعتمل في الصدور من غلّ، وما في القلوب من أحقاد، خلّفتها أجيال من الغزوات والصدامات والحروب.

«وأما أصحاب الكلام من أكابر الشوف، من جملة كلامهم إنهم يقولون: «الله، الله، هذه المصيبة التي شملتنا! شهد الله ورسوله، والنبي شعيب، أن مرتبتنا ما تحت منها، ولا عيب، إنها إن وضعت مرتبتنا تحت مرتبة الثور الذي حامل السبع أراضي على قرونه!».

«ثم بعد ذلك، رجعت العساكر بأمر جناب الشيخ ناصيف، لا زالت شموس سعده بالإشراق طالعة، ورايات مجده بالإقبال ساطعة، من جزين إلى بلاد بشارة،

(1) تاريخ الركيني، ص 95.

وركبت على دروز الحملة والغارة، وما دخل بلادهم إلى الدير (دير القمر)، وخذلهم، إلاّ ناصيف باشا في الزمن الأوّل، في سنة 1123هـ وأخذ أمرأة الأمير حيدر أمَ الأمير ملحم. وفي هذا الوقت دخلها الشيخ ناصيف، دام مجده، وكانت أصحاب العقل تظن أن الباشوات ما يقدرون عليها، فوقعت عليهم الخذلة والخمول، وألقى الله في قلوبهم الرعب، وشملتهم الذلّة والمسكنة. وكان قائلهم يقول: «والله، وسيّدي شعيب، إن مثلنا مع بني متوال، كمثل السمرمر مع الجراد، إذا حضر واحد منهم يهرب منه ألف!»[1].

بعد إنتهاء المعارك يورد المؤرّخ نفسه كتاباً أرسله يوسف إلى ناصيف، حامداً وراجيا ومتملقاً. «**وأما حضرة جناب الأمير يوسف، انتقل إلى المختارة، وبعدران، وجعل يهدم الدور والبنايات، وأرسل «إلى جناب حضرة الشيخ ناصيف، المؤيّد، الموفّق، المسدّد، ونطلب من الله العظيم، وشعيب النبي الكريم، أن لا يعدونا صاحب الهمَة العليّة، والنفس الزكيّة الرضيّة، إن رأيتم لائقاً في غيرنا غير مأمور على جنابكم الشريف أن تكفّوا العسكر عن القتل والنهب والحريق لأن البلاد بلادكم والرعيّة رعيّتكم وأمر جنابكم ماض علينا في الرخاء والضيق ورفيقنا ورفيق جنابكم فرد رفيق»[2].**

«وإن شاء الله عزّ شأنه، الطريق فردَ طريق، لأن غيرتكم ورأيكم السديد الذي بدا معنا، وبذلتموه لدينا، ما سبقكم عليه لا أخ ولا صديق، فيجب علينا حفظه على الدوام على ممرّ الدهور والأيام !».

ناصيف والجزار

بعد نهاية ظاهر العمر وبروز الجزّار كأهمّ وأقوى ممثّلي السلطة العثمانيّة في بلاد الشام، أصبحت نهاية ناصيف المأساويّة مسألة وقت فقط.

رغم ما عانته بلاد الشام من مساوىء الحكّام والولاة فهي لم تعرف طيلة تاريخها العثماني والياً يماثل الجزّار دناءة وخسّة ووحشيّة وغدراً وتجرّداً من جميع الصفات

(1) المصدر السابق، ص 97.

(2) تاريخ الركيني، ص 95.

الإنسانية. فكان يجسّد الحاكم الشرير بأحطّ عيوبه وقبائحه رغم كل ما خبرته من مظالم الولاة العثمانيين وجورهم ومفاسدهم.

من العسير على المؤرّخ المدقق الإحاطة بالأسباب والظروف والخلفيات التي دفعت يوسف شهاب، والجماعة التي تسيّره، إلى التقاط هذا الشريد المجهول الأصل، والذي لا يعرف أحد عن ماضيه شيئاً، سوى أنه تعمّد السكن في إحدى مقاهي دير القمر التي يطلّ عليها بعض طيقان مقعد يوسف حيث اعتاد الجلوس فلما سأل عنه قيل له **«إنه غريب من الأتراك يتكلّم لغة مصر وليس عليه من الكسوة ما يقيه البرد فقد باع جميع حوائجه حتى الجبّة التي عليه، باعها أمس ليشتري لنفسه طعاماً فنصحه كاخيته بقبوله لديه فربما يلزم لخدمات خصوصيّة فاستدعاه الأمير وعرف منه أنه عرض نفسه للخدمة عند الزيادنه والمتاولة فرفض، فقبله الأمير وفوّض له الأحكام في مدينة بيروت»**[1].

لا يمكن الجزم بماهية الخدمات الخصوصيّة التي اقترحها الكاخية وهل تشمل الاغتيالات السرية وهي المهنة التي أتقنها واحترفها الجزّار في مستهلّ حياته كما ظهر لاحقاً؟ وطالما مارسها يوسف حتى مع أقرب المقرّبين إليه لأنه ليس من المألوف في تقاليد الحكم أن تفوّض أحكام المدن إلى مشرّد مجهول، لم يسبق له القيام بأيّ عمل إداري أو عسكري إلاّ إذا أدّى خدمات ذات طبيعة دقيقة تخرج عن نطاق المهمّات المألوفة.

أصبح الجزّار حاكما على بيروت مما مكّنه من تقديم مشروع إلى الباب العالي يرمي إلى القضاء، على كلّ حكم محلّي في ولاية صيدا مقابل توليته عليها. وقد عرض مشروعه على أحد مأموري الدولة متسائلاً **«لماذا الدولة مرتضية بأن وزيرها والي الإيالة الواسعة الأنحاء يبقى محصوراً داخل مدينة صيدا ولا يحكم من الأرض سوى ثلاثة اميال طولاً من مصب نهر الأولي إلى ساقية سانيق وعرضاً من شاطئ البحر إلى حدود قرية الهلالية التابعة لبنان. وأما جميع الإيالة فيتمتع رؤساء العشاير وأتباعهم من خيراتها»**.

---

(1) الجواب على اقتراح الأحباب، ميخائيل مشاقة، ص 5. والمؤرخ ولد ونشأ في دير القمر وعمل في خدمة الشهابيين وله من ثقافته وعلاقاته الواسعة ما يجعله مصدراً يركن إليه في أخبار الجزار وغيره من عمال الدولة في هذه الفترة. ولا شك أن أصل الجزار ونشأته يكتنفهما الغموض. والمتواتر عن سيرة هذا البشناقي أنه كان حلاقاً في اسطمبول ثم سافر إلى مصر حيث عمل في ديوان علي بك الكبير وهناك اكتسب لقبه (الجزار) ثم رجع إلى الأستانة ومنها جاء إلى حلب وصار يتجول في بلاد الشام ودخل في خدمة بعض ولاتها فأرسل مع قوة صغيرة إلى بيروت سنة 1773م ثم دخل في خدمة الإدارة العثمانية في الروميلي وسنجق «قرة حصار صاحب» تاريخ فلسطين عادل مناع ص 77 - 78.

فأجابه المأمور أن قهر العشاير يلزمه حروب ومصاريف كثيرة، والنتيجة في ذلك لا توازي التعب والأكلاف فاقترح الجزّار «إذا كانت تنعم الدولة على عبدها هذا بمنصب إيالة صيدا فأقوم بهذا العمل ولا أكلفها شيئاً».[1] وهذا ما حصل، فأصبح الجزّار والياً على صيدا وصار سيّده الأمير يوسف تحت أمره فما هو موقف ناصيف النصار؟.

كان يوسف يحكم مقاطعاته بمرسوم من والي صيدا، فكان تثبيته في إمارة الشوف أو طرده منها يتوقّفان على صدور منشور من الجزّار. فاستغل البشناقي هذا الواقع لابتزاز أكبر قدر ممكن من المال بتعيين آخرين مكانه، فلا يجد يوسف أمامه إلاّ الإرتماء بين يديه واسترضائه بمبلغ أكبر من المال لإعادته، وقد كرّر اللعبة مرّات عديدة حتى انتهى مشنوقاً على باب عكا.

إن هذه الطريقة التي مارسها الجزّار لسدّ نهمه إلى المال لا تجدي مع ناصيف النصار، لأن موقعه لا يتأثّر سلباً أو إيجابا بمنشور أو بإرادة تصدر عن الجزّار أو غيره من الولاة، بل هو إفراز ناتج عن حالة شخصيّة واجتماعيّة وشعبيّة وعشائريّة، تجعل من المستحيل تغييره بأيّ تدبير إداري، حتى ولو صدر عن السلطان نفسه[2]. إلاّ إذا اقترن بقوّة كافية لتحقيقه وتبديل الواقع الراسخ بالأساليب العسكريّة وحدها. وهذا أمر ليس من السهل اعتماده دائما ودونه صعوبات واكلاف وحسابات لا بدّ من مراعاتها، ولن يكون اعتماد هذا الخيار الشاق والمكلف حكيماً ومفيداً وحاسماً في جميع الظروف.

كانت شخصية ناصيف وتاريخه العسكري والسياسي والتفاف العامليين حوله، وموقع عشيرته، وانتشار قوّاته في حصون وقلاع متباعدة ومختلفة، تجعل من تفكير الجزّار بإزاحته أو القضاء عليه أمراً مستبعداً في هذه الفترة المبكرة من ولايته على الأقل. وإذ كان التشابه بين شخصيّتي ظاهر العمر وناصيف النصار قد لعب دوراً أساسياً في تسهيل التحالف بينهما وتوثيقه وصموده، فإن التنافر بين شخصيّتي الجزّار وناصيف لا يمكن إلاّ أن يعكس آثاره على العلاقة بينهما، التي لابد أنها كانت مشحونة بالجفاء والتوتر منذ اللحظة الأولى التي التقيا فيها، أو تقاطعت مسيرتهما في أي مجال كان. وإذا كانت قوّة ناصيف وموقعه وشخصيّته قد أجبرت الجزّار على إخفاء نواياه الحقيقة وتأجيلها، بانتظار الظروف المناسبة التي تسمح له بإظهار ما يبيت من غدر وعداء،

(1) المصدر السابق ص 7.

(2) كان ناصيف وباقي مشايخ جبل العامل يرفضون أحياناً تثبيتهم على مقاطعاتهم بعقود الوالي. وهذا سبب متاعب جمة للإدارة العثمانية. وكثيراً ما أدى إلى صدامات بين الطرفين راجع الحكم السلطاني دفتر المهمة سجل 77: 156.

فإن الواقع السياسي العام قد فرض على ناصيف أيضاً التروّي في المبادرة إلى تفجير النزاع عسكرياً، أو إعلان عصيانه وتمرّده كما فعل يوم كانت الأوضاع مناسبة لذلك.

لقد قُتل حليفه ظاهر وتشرّد أولاده وانعدم الأمل في دعم من خارج الشام، أكان مصرياً بعد قتل علي بك أو أجنبياً، بعد انسحاب الأسطول الروسي. والوالي العثماني الحالي فاق كلّ أسلافه في الشراسة والمكر. والأهمّ من ذلك في طول مدّة ولايته فلم تكن تتجاوز مدّة الولاة السابقين سنوات قليلة، ينقلون بعدها إلى مكان آخر بينما الوالي الحالي يتصرّف وكأنه باق في منصبه إلى الأبد. فينتقل إلى عكا يحصّنها ويعزّز دفاعاتها، ويضيف إلى عساكره فرقاً مستحدثة، لكلّ ذلك تقضي الحكمة بان يجنح ناصيف إلى المهادنة، وتقوم بينه وبين الجزّار علاقات حذرة. ففي ليلة العشرين من صفر 1190هـ ـ 29 أذار 1776م جاء الجزّار إلى صور وبات ليلته فيها عند الشيخ حمد العباس.[1] قريب ناصيف وحاكم صور، وفي ثاني ربيع الأوّل 11 نيسان جاء ناصيف إلى صور وتقابل الرجلان في ظروف غير واضحة تماماً حول ماهية هذا الاجتماع، وهل كان من ترتيب حمد العباس لترطيب الأجواء بينهما أم إنه لقاء شكلي لا يحتمل أيّ مضمون سياسي محدّد؟ ولكن ما يثير الاهتمام أنه بعد خمسة أيام من الإجتماع المذكور حصلت معركة بين الجزّار وعلي الظاهر، أعقبها وقائع أخرى شارك فيها فرسان ناصيف. فقد كان علي الظاهر يشكّل عقبة مهمّة أمام مخططات الجزّار، فهو كأبيه محارب شجاع وقائد مجرّب انتصر في معارك عديدة، ولكن الجزّار استطاع في النهاية القضاء عليه بعد إبعاد إخوته ومساعدة والي الشام محمد العظم. فهل كان اجتماع صور محاولة خداع قام بها الجزّار لطمأنة ناصيف، ومحاولة كسب تأييده أو على الأقل تحييده في الصراع الدائر مع علي الظاهر، خوفاً من انضمامه إليه أو دعمه ومساندته؟ مما يجعل من القضاء على الاثنين عمليّة عسيرة وغير مؤكّدة النتائج. إن هذا ما يمكن استنتاجه قياساً على أساليب الجزّار في الخداع، والتي استعملها مع أولاد ظاهر منذ البداية فأوقع بينهم، واستمال أخوة علي ببذل الوعود والعهود بإعادتهم إلى ما كان عليه والدهم. وبالفعل فقد اعترف لهم ببعض السلطة في مرحلة ما، قبل أن يتمكّن من استدراجهم إلى حيث تمكّن من الغدر بهم وتسليمهم إلى حسن باشا، الذي قتل بعضهم وأرسل الباقين إلى عاصمة السلطنة، إلاّ أنه من الواضح أن ناصيفاً بقي على حذره الشديد من غدر الجزّار، وإن بادله ظاهرياً بعض المجاملة بالاشتراك معه في بعض الحملات الثانويّة، فكان لا يأمن من الاجتماع به إلاّ بعد اتخاذ كلّ التدابير التي تؤمّن له

(1) ورث أباه في حكم صور 1773م ومات في سجن الجزّار 1783م.

الحماية. ربما من أجل ذلك لم يجتمع به إلاّ في صور وهي تحت سلطته وبها ابن عمّه ورجاله. فالجزّار سيكون فيها تحت رحمته وليس العكس. فلما دعاه مع غيره من المشايخ لموافاته إلى عكا رفض الجميع ذلك معلنين أنهم يخافون أن يغدر بهم كما غدر بأولاد ظاهر. وحلّ الأمر بذهاب قبلان وحده إلى عكا بالنيابة عن الجميع، متوسطاً ومفاوضاً وعاد بإتفاق بين الطرفين 1776م أجّل الصدام بينهما ولكن إلى حين[1].

كان هذا الإتفاق ينم عما يمكن أن نسمّيه توازن الرعب بين الفريقين، فقد تنازل كلّ منهما عن بعض مواقفه ليلتقيا في منتصف الطريق، لخوف كلّ فريق من الآخر، ورغبته بتأجيل الصدام إلى وقت ربما تكون فيه الظروف مناسبة له أكثر في مستقبل قريب.

نص الإتفاق على أن ناصيفاً وزعماء جبل عامل لا يقاتلون مع الجزّار ولا يقاتلونه بل يقفون على الحياد بين المتنازعين على النفوذ في المنطقة. كما تعهّدوا بدفع أموال السلطان بصورة منتظمة ولكن المتأخّر منها يقسّط لآجال معلومة ومحدّدة[2]. كما انهم لا يشتركون في الحملة على الدروز، ولكنهم يسمحون للقوات المحاربة بالمرور من ديارهم دون أن تتعرّض للعرقلة أو التصدّي[3].

كان عند المتاولة من الخبرة والتجارب مع الولاة العثمانيين، ما جعلهم يحاذرون من الجزّار ويتخوّفون من غدره ومكره ونواياه. وقد كانوا يدركون أن دورهم سيأتي بعد القضاء على أولاد ظاهر، خصوصاً وأن حاكم جبل الدروز يتهالك على الخضوع له، والحصول على رضاه. ويعبّر الأب افتيموس زكار عن حقيقة هواجس المتاولة وموقفهم وهو معاصر لهذه الأحداث ومرافق لها فيقول «سنة 1776م» «**نظر المتاولة هذه الأفعال من الدولة، قالوا في نفوسهم ليس بعد مسك أولاد ظاهر إلاّ نحن وهكذا عدلوا عن (التفكير في) مساعدة الدولة، وساروا إلى بلادهم وجيشوا بعساكرهم واستعدّوا لملاطشة الدولة إن هي قارشتهم. فالدولة فاتت على بلادهم إلى جسر الأولي. وما كلّمت أحداً من المتاولة، وجعلوا وطاق العساكر على الجسر والقبدان والجزّار حضرا إلى صيدا وغلايينهم (ومراكبهم) منها في صيدا ومنها على ميناء بيروت، واستعدوا لركبة الجبل واستغاثوا لذلك (بالمتاولة) وما أجابوهم. لانهم قالوا في بعضهم ا، ساعدناهم على الدروز لا يبقى في السلم سوانا، وبعد أن ينتهوا من**

(1) السيف والقلم، حسن الأمين، ص 311.

(2) يشمل التعهّد أن يدفعوا فوراً (أيلول 1776م) 150 كيساً و150 كيساً أخرى خلال سبعة أشهر وثلثماية كيس سنة 1777م.

(3) السيف والقلم، م. م.، ص 311 ويلاحظ أن العامليين تمكنوا حتى هذا التاريخ من الحفاظ على بعض استقلاليتهم عن والي عكا.

الدروز يرجعوا علينا، ولأجل ذلك ما طابقوا معهم»[1].

في السنوات اللاحقة كان ميزان القوى يميل بسرعة لصالح الجزّار فقد رقّي إلى رتبة الذيل الثالث، وامتلأت خزائنه بالمال ومعسكراته بالرجال، وفرض رهبته وسطوته على رعاياه، وقد قضى على علي الظاهر، وتخلّص من إخوته وأصبح أمير الشوف ألعوبة بين يديه، فلم يبق سوى ناصيف حائلاً دون تحقيق مشاريعه المرسومة، وعائقاً أمام شهوته للسلطة المطلقة ونهب جبل عامل وابتزازه على هواه كما فعل بباقي أقسام الولاية. والوفاء بما تعهد به للدولة عند تعيينه.

في الجهة المقابلة لم تكن بعض الأمور تسير في مصلحة ناصيف، فقد خسر جميع حلفائه، وخضعت البلاد المحيطة به لسلطة الجزّار الذي لم يعد يتصرف كوال عثماني مثل الذين اعتاد ناصيف على التعامل معهم سلماً أو حرباً، بل هو أقرب إلى حاكم مركزي، أسّس إقطاعية شاسعة أشبه بدولة موحّدة مرهوبة الجانب. وقد خسر ناصيف أهمّ قادته الذين طالما خاضوا المعارك إلى جانبه، وأهمهم أخوه محمود «أبو حمد» وابن أخيه قاسم المراد وقد قتل الإثنان في إحدى المعارك مع العربان (1193هـ ـ 1779م) كما كان عباس المحمد حاكم صور قد مات قبل ذلك (1187هـ ـ 1773م) كما مات شيخ المناكرة علي المنصور في نفس العام، وأعقبه شيخ الصعبية علي الفارس 1779م وهم الذين طالما كانوا إلى جانبه في الأيام الصعبة وخاضوا معه أهم معاركه[2].

«اعتبر الجزّار أن الفرصة المناسبة لغزو جبل عامل قد بدأت، فساق عليه جنده وكرّ عليه الكرّة بعد الكرّة، فلم يتسنّ له الفوز، وكان كلّ مرّة يرجع خائباً»[3].

قرّر الجزّار الاستيلاء على جبل عامل كما قرّر ناصيف الدفاع عنه مهما كان الثمن،

(1) فصول من تاريخ الشيعة في لبنان، علي الزين، ص 40.

(2) فقد ناصيف اثنين من أولاده على الأقل في حياته فبناءً على مقولة أحد المعمرين من أهالي عيناثا قام باحث عاملي بالتنقيب بين أطلال جامع قديم في مجدل سلم فوجد ضريحين متجاورين دارسين نقش على بلاطة أحداهما تاريخ جاء فيه:

شرف المنية في القراع وحسبه	تلك الشهادة إنها تكفيه
نال السعادة في النعيم فأرضوا	سكن الجنان مجاورا لأخيه (1161 هـ)

وعلى البلاطة الأخرى:

نجل نصار المفدى	مات واغلق عراه
مات عز المجد أرخ	طيب الله ثراه (1164 هـ)

(عن رسالة لنيل شهادة الكفاءة، ناصيف النصار، محمد سعيد بسام).

(3) تاريخ صفا، ص 137.

وربما كانت معركة «الزيب» التي استمرّت ساعتين وقتل فيها ستة من جنود الجزار، هي من أوّل التحرّشات التي بدأ يقوم فيها استعداداً لمعركة تقرّر نهاية عدوّه. فقد صدر فرمان سلطاني إلى والي صيدا يأمره بالسير على جبل عامل، معلّلاً الأسباب بامتناع سكانه عن دفع الميري وتمرّدهم أيام ظاهر ومشاركتهم في الحملات على والي الشام، والإستيلاء على أماكن متعدّدة من ولاية صيدا، مثل شفا عمرو وحيفا وعكا[1].

«ولما رأى ناصيف، أن الأمور تتجه إلى الأسوأ، امتنع مشايخ جبل عامل عن دفع الأموال المقرّرة، وصاروا يعترضون القوافل التجارية التي تمرّ في بلادهم في طريقها إلى فلسطين، وزادت التحرّشات والمواجهات. وجار الجزّار على المتاولة فضاقت صدورهم من شدّة الظلم والإهانة فاجتمع مشايخهم واتفقوا على عصاوة الجزّار وتصلّبوا في المقاومة وحصل جملة وقايع»[2]. حتى جرت معركة يارون التي استشهد فيها ناصيف ونقلت جبل عامل من حال إلى حال، وأدخلت المتاولة في نفق مظلم من الآلام والمعاناة لا تزال حيّة في وجدان العامليين حتى اليوم.

نكبة جبل عامل ونهاية ناصيف

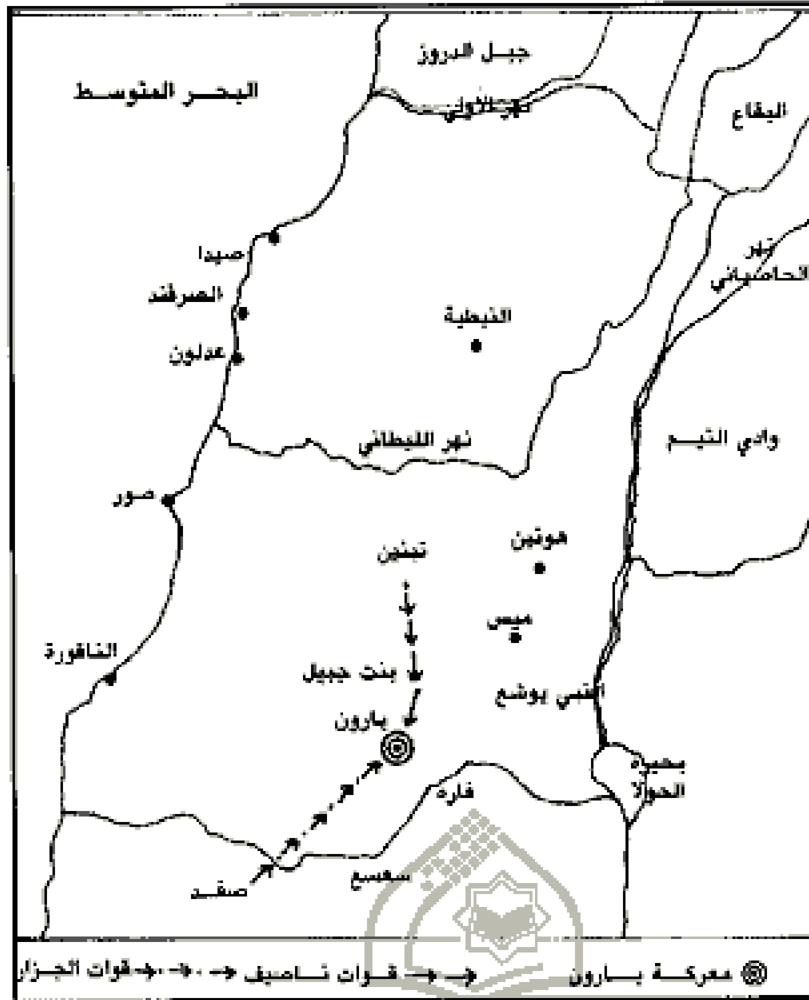
قد تكون معركة يارون أهمّ المعارك التي جرت في جبل عامل على امتداد العهد العثماني برمّته، لما خلّفته من آثار مفصلية ومدمّرة، طاولت المكان والأرض والعمران، وقضت على الكثير من معالم ازدهاره العلمي والإجتماعي والإقتصادي التي ميّزته عن البلاد المجاورة، طيلة القرون السابقة، وشرّدت قسماً كبيراً من أهله في مختلف بقاع الأرض، وهام آخرون في الأحراش والمغاور والجبال لسنين عديدة، وبيع أحراره عبيداً في سوق النخاسة، وخربت مدنه وقراه، ودكّت حصونه وقلاعه، ولحق بمشايخه وأعيانه وعلمائه من الظلم والعسف والإذلال ما غيّر طبيعته وتركيبته وضاعت كنوزه وطمس تراثه ولم يعد أبداً بعدها كما كان.

«وصار أهله في هذه الفترة لا يعدّون أكثر من خمسماية عائلة هاجروا إلى الجبل الشرقي (Anti - liban) ولبنان الموارنة وبما أنهم قد حرموا من أرضهم الأصلية سينتهون بالزوال على الأرجح ويأخذون معهم حتى اسم هذا الشعب»[3].

(1) نقلاً عن مخطوط سليمان الظاهر (الأمين، م. م.، ص 216).

(2) منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، مشاقة، ص 15.

(3) لبنان في القرن الثامن عشر ص 255 [Volney]. والمقصود أنهم نزحوا إلى البقاع «الجبل الشرقي» وإلى جبل لبنان.



معركة يارون

اتفق المؤرّخون العامليون على وقوع معركة يارون وانهزام المتاولة، ومقتل ناصيف، واختلفوا على بعض الأمور التفصيليّة والثانويّة التي تتعلّق بجزئيّات المعركة وظروف مقتل قائدها.

يقول محمد جابر آل صفا:

«هاجم الجزار جبل عامل بجيش كثيف في سنة 1195هـ ـ 1780م من الجهة الجنوبية متظاهراً بأنه يريد اجتيازه إلى وادي التيم لتأديب العصاة. فأدرك الشيخ ناصيف قصده، فأسرع لصدّه بشرذمة من خيله لا تزيد عن سبعماية فارس كانت ترابط معه دائماً في حصن تبنين.

«وكان الشيخ ناصيف بطلاً مقداماً تعوّد خوض المعارك وممارسة الحروب، يهزأ بالمنايا ولا يبالي بالموت، فحملته الجرأة والبسالة على منازلة ذلك الجيش اللجب بخيله القليلة، ولم ينتظر وصول بقيّة الجنود والأعوان المرابطة في القلاع. وزلّت قدم جواده على بلاطة يارون وعاجله بعض الجنود بإطلاق الرصاص، فخرّ قتيلاً وتشتّت

جنوده وطويت صحيفة استقلال جبل عامل بعد ناصيف وسقطت بمقتله الحكومة الإقطاعيّة الأولى بحصونها وقلاعها»[1].

يقول القس حنانيا المنيّر:

«أرسل الجزار إلى المتاولة جيشاً من السكمان والمغاربة، فجمعوا رجالهم وصادموا العسكر، وانتشبت بينهم الحرب إلى أواخر النهار، فانتصر عسكر الجزّار وقتل منهم مقتلة عظيمة وقتل في ذلك النهار الشيخ ناصيف النصار، وكان عامود المتاولة وأفرس أهل عصره وقتل مقدار ثلث عسكر الجزّار وانهزمت المتاولة بعد ذلك»[2].

أما حيدر الشهابي في غرره، فلا يخرج كثيراً عما ذكره المنيّر. وربما أخذ عنه، إنما يذكر ان ناصيفاً أصيب برصاصة فقتل. كما يقول السبيتي: إن الجزّار أرسل عسكراً إلى حاصبيا فمرّ من يارون فظن أهل بلاد بشارة أن العسكر يريدهم، فحضر ناصيف وصارت وقعة قتل فيها ناصيف وخربت البلاد.

قرر الجزّار إخضاع جبل عامل بالقوّة. فسار إليه بجيش راوح عديده بين 3 و4 آلاف خيّال، ولقيه الشيخ ناصيف بقوّة من سبعماية مقاتل، وكانت المواجهة في يارون حيث استبسل العامليون في القتال وخاصة قائدهم الشيخ ناصيف، الذي ظلّ يقاتل إلى أن سقط قتيلاً، وسقط معه ما يراوح بين ثلاثماية إلى أربعماية رجل وهزم الباقون.

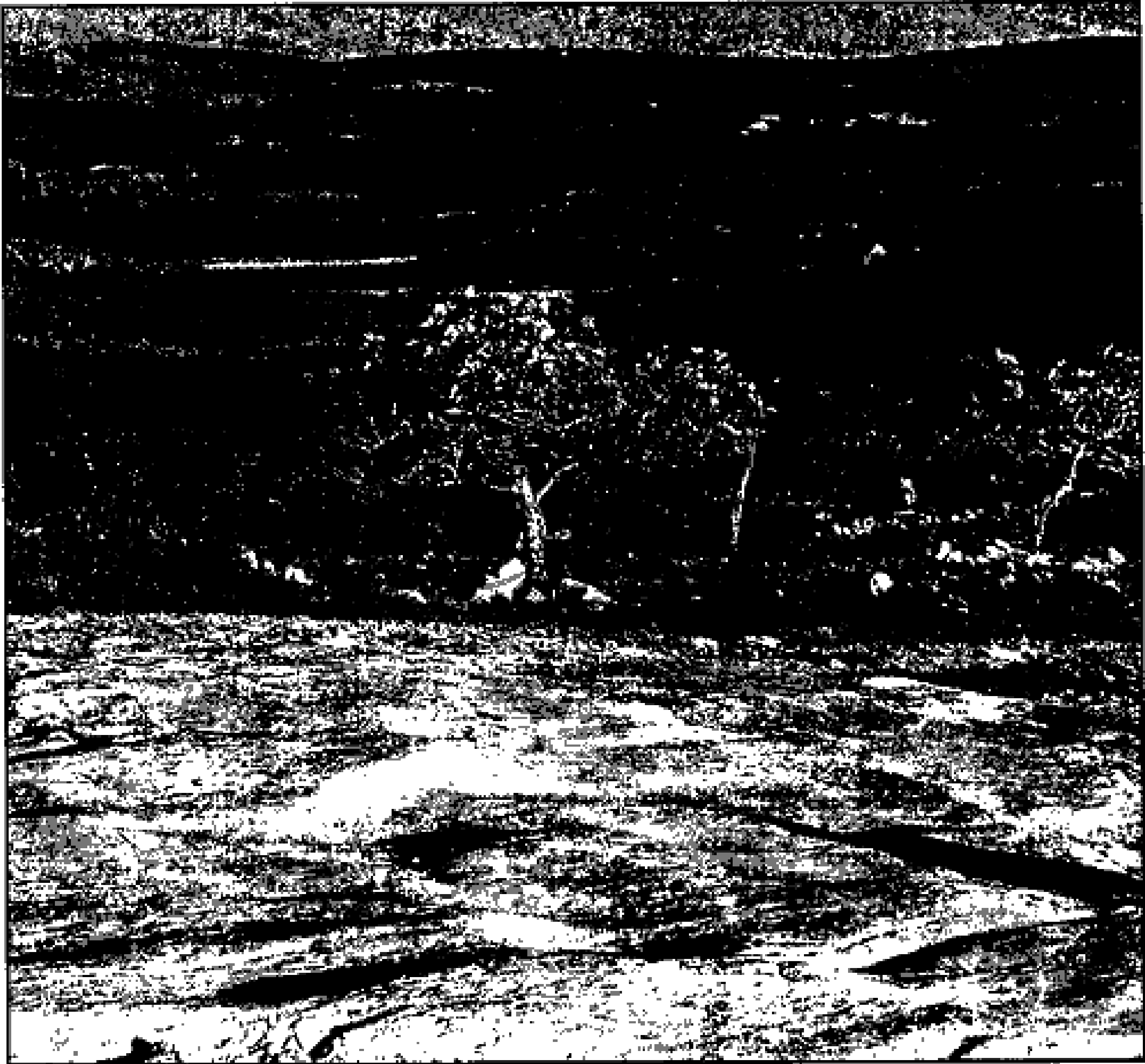
يقول الركيني:

«وفي سنة 1195 هـ في يوم الإثنين الخامس شوال صار بين الشيخ ناصيف وبين دولة أحمد باشا الجزّار، وقعة في أرض يارون. وقتل الشيخ ناصيف وحزنت عليه المتاولة أجمع إلى مرجعيون، وصار الأمير اسماعيل يعد النساء ويأخذ عليهن خفراً، كما أخذ العداد والخراج، وهدمت الدولة القلع، وأخذوا ما في القلعة وهدموها، وهرب المشايخ إلى بلاد بعلبك، والشيخ قبلان وإخوته إلى بلاد الشام. وجعل الأمير اسماعيل (أمير حاصبيا) يمسك أتباعهم ويبلغهم بأمر الجزّار، وجعلت الدولة تأخذ من الرعية الأموال والخيل والسلاح وكانت هذه السنة سنة خوف وجزع وذعر شديد»[3].

---

(1) تاريخ صفا، ص 137.
(2) الدر المرصوف، المنير، ص 73.
(3) تاريخ الركيني، ص 99.

ويقول صاحب نزهة الزمان «وفي السنة 1197 هـ و1781م بعد رجوع أحمد باشا الجزار إلى عكا، جعل يفرغ جهده في امتلاك بلاد بشارة، كما امتلك بلاد صفد. وكان المتاولة متحصّنين في القلاع ومستعدّين للقتال، وهم ثلاث قبائل تحت رئاسة ثلاث



البلاطة التي سقط عليها ناصيف عن صهوة جواده في معركة يارون 1781م.

عائلات، وهم بنو علي الصغير، ومقدمهم الشيخ ناصيف النصار، وإخوته، وبنو منكر فريق منهم، مقدمه الشيخ محمد الحسن وعشيرته، والآخر مقدمه الشيخ حيدر الفارس».

«وكان منهم أبطال لا تطاق في الحرب، وكان قد جرى بينهم وبين الجزّار وقائع كثيرة ولم يظفر منهم بطائل، فجهّز لهم هذه المرّة عسكراً عظيماً. ولما بلغ الشيخ ناصيف النصار قدوم العسكر، جمع رجالة ونادى بقبائل بني متوال، فاجتمعوا إليه من القبائل الثلاث لأنه كان كبير المشايخ والجميع ينقادون إليه. وسار بتلك العساكر قاصداً عسكر الجزّار وانتشب بينهم الحرب وحمل في مقدمة العسكر الشيخ ناصيف النصار ولم يلبث أن أصابته رصاصة في رأسه فقتل. ثم قتل أبو حمد وكان يعد في الحرب بألف فارس». فانهزمت المتاولة وأخلت البلاد ودخل عسكر الجزّار بلاد بشارة، وتسلّموا قلعة هونين وقلعة يونين (تبنين)، وحاصروا قلعة شقيف أرنون، وكان بها الشيخ حيدر الفارس فأخذوها وقتلوا كلّ من فيها وباد اسم علي الصغير وبني منكر[1] وانقرضت العائلتان كما توهّم مؤرّخ آخر»[2].

وجاء في تقرير القنصل العام الفرنسي في صيدا إلى الكونت دوفيرجين Vergennes Comte De **بتاريخ الثاني من تشرين أول 1781م منذ زمن طويل أعطى المتاولة للباب العالي مبرّرات كبيرة للشكوى منهم، بسبب عدم انتظامهم في دفع الأموال الأميرية. وكانت غالباً ما تصدر عن اسطمبول أوامر بتدميرهم ولكن كانت لدى شيوخهم المتحدون، من أجل الصالح العام القوّة الكافية لمقاومة الولاة العثمانيين. وجد الجزّار نفسه مرّات عديدة في هذه الحالة وقد يكون الباب العالي أو اندفاع هذا الوزير، وراء مصلحته الشخصية على الأكثر، هي التي دفعته للإنتقام من هؤلاء الشيوخ. لقد أرسل ألفين إلى ثلاثة آلاف جندي لقتال القوّة الرئيسية للمتاولة بقيادة الشيخ ناصيف الذي كانت الأمّة تنتظر منه حمايتها ولكن مقتل هذا الشيخ في المعركة مع عدّة مئات من فرسانه بينهم عدّة مشايخ وضع حدّاً لهذه الحرب[3].**

«كانت الدولة العثمانية تنتظر منذ فترة بعيدة الفرصة المناسبة للقضاء على ناصيف

(1) نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان، م. م.، الشهابي، ص 1004. توهّم الشهابي وكثيرون غيره أن محمود النصار المعروف بأبي حمد قد قتل مع ناصيف في هذه المعركة. وهذا خطأ شائع لأن أبا حمد قتل مع ابن أخيه قاسم المراد على نهر الرماد في الجولان في قتال مع عرب عنزة سنة 1193هـ - 1779م قبل ناصيف. ويبدو أن الذي قتل مع ناصيف هو شقيقه الآخر أحمد كما ذكرت التقارير الدبلوماسيّة الفرنسيّة المعاصرة للمعركة.

(2) كشف اللثام، نوفل الطرابلسي، ص 200.

(3) D.D.C. T 2, p 385.

ولكنها تدرك صعوبة ذلك، وما يقتضيه من جهود وتكاليف ومخاوف، فلما تعهّد الجزّار بالقيام بهذه المهمّة لقاء تعيينه والياً على صيدا رأت في هذا العرض ما يحقق سياستها دون ان تتكبّد ما يتطلّبه هذا الأمر من عناء ومشقة».

وكان الفرمان السلطاني الذي نقل أمر الباب العالي بتدمير المتاولة والخلاص منهم يورد مبررات أوجبت هذا القرار الخطير. إن أهم ما أورده هي الأمور الآتية[1]:

1 ـ تمردهم أيام ظاهر العمر ومشاركتهم في الحملات العسكرية على ولاة الدولة ودورهم في هزيمة عثمان الكرجي في معركة البحرة.

2 ـ غزواتهم على دمشق إذ هاجموها بقوة مؤلفة من ثلثماية إلى خمسماية فارس.

3 ـ الإستيلاء على بعض الأماكن من ولاية صيدا مثل شفاعمرو وحيفا وعكا.

4 ـ امتناعهم عن دفع الميري رغم تعهداتهم.

لابد أن الجزّار قد رسم خطته وبيّتها منذ أن تولّى منصبه الإداري، ولكنه عمد إلى المداهنة والمراوغة، بانتظار أن يقضي على أولاد ظاهر وغيرهم، من الذين قد يقفون عقبة دون ذلك، فلما حقق مراده وبلغ القوّة التي تؤهّله لإتمام هذا الأمر، عمد إلى السعي لاستصدار المرسوم «الهمايوني» الذي يطلب منه القضاء على زعماء المتاولة وتدميرهم، معدّداً حالات تمرّدهم السابقة، وتمنعهم عن دفع ما يفرضه الولاة عليهم، وبدأ يتحرّش بهم دون أن يفصح عن نواياه الحقيقية، أو يجهّز حملة للقضاء عليهم، كما هي عادة الولاة العثمانين قبله. فقد كان يخطط للإيقاع بهم غدراً، كما فعل بأولاد ظاهر، ولكن يقظة ناصيف وحذره فوّت عليه هذه الفرصة، فأشاع أنه بصدد إرسال عسكر إلى وادي التيم، وفي نيّته مهاجمة جبل عامل، وشيوخه غافلون عن قصده الحقيقي، فيوقع بهم على غرة. لكن ناصيفاً أدرك خطته وسارع إلى لقائه بمن كان موجوداً معه في حصن تبنين من المقاتلين، دون أن يدعو «إلى إعلان النفير العام بواسطة الصوات كما جرت العادة ربما لأن مفاجأة الجزّار لم تترك وقتاً كافياً لذلك، أو لأنه لم يشأ أن يعطي عدوّه فرصة لتجميع باقي قواته. فقاتل العامليون جيشاً مجهّزاً ومستعداً لمثل هذا اليوم، ويتمتع بتفوّق عددي كاسح، وربما لو لم يقتل ناصيف في وسط المعركة لكانت النتيجة مختلفة. فإنه لم يكد يسقط من على فرسه حتى جزع الباقون من عسكره ووقعت الهزيمة.

تشكّل معركة يارون واستشهاد ناصيف منعطفاً تاريخياً وتراثياً في تاريخ جبل عامل، ومن خلال جميع الروايات العاملية حول مقتله، نلاحظ حرصاً على جعل استشهاده أسطورياً مما يدلّ على مدى تعلّقهم بشخصيّة الشيخ القائد التي يظهر فيها خرّيجاً لمدرسة

(1) جبل عامل السيف والقلم حسن الأمين ص 314.

كربلاء، بما فيها من معاني القيادة والإخلاص والإيمان حتى الاستشهاد، كما يفهم العامليون هذه المدرسة[1].

اختلف المؤرّخون العامليون في كيفية استشهاد ناصيف، فردّها البعض إلى تعثّر جواده على بلاطة يارون في خضم المعركة. بينما وجّه آخرون أصابع الإتهام إلى قبلان دون دليل مقنع[2].

تساءل بعض المؤرّخين العامليين عن سبب تخلّف قبلان عن الإشتراك في معركة يارون، وتقاعسه بعدها، عن الأخذ بثأر ناصيف، ومتابعة المقاومة والقتال. لأن مكانته المرموقة كانت تؤهّله لتسلّم زعامة جبل عامل بعد ناصيف، حتى رماه بعضهم بالخيانة. وفي ذلك تجن وتحامل على الشيخ الوائلي الحكيم كما يسمّيه القناصل الغربيون الذين عرفوه وعلى الواقع التاريخي.

إن كلّ الدلائل تشير أن معركة يارون كانت حملة سريعة قصد بها الجزّار أن يفاجئ ناصيف على غير استعداد. فقابله ناصيف بمن كان معه من رجال في قلعة تبنين، دون أن يدعو باقي قوّاته لكسب الوقت ومنهم قبلان صاحب قلعة هونين.

أما بعد المعركة ومقتله وسقوط باقي القلاع العاملية، فلم تكن حكمة قبلان وسنّه وتجاربه تشجّعه على الاستمرار في قتال يائس، ضدّ عدوّ عرف بقسوته ووحشيته، فاختار الجلاء عن بلاده إلى الشام، ثم إلى الهرمل وبعدها انتهت حياته (1199هـ ـ 1785 م) مقاتلاً في العراق. وهذا يؤكّد عداوة قبلان للجزّار ودولته واضطراره إلى اللجوء إلى أمكنة لا تقع تحت سلطته.

ويقول صاحب العقد المنضد عن مقتل ناصيف: «**جاءه فارس زنجي وأطلق عليه الرمح فأصابه بجرح ثبت له فانثنى كاراً عليه وضربه بالسيف فقتله فجاءه ثلاثة فوارس فأراد أن يميل عنان جواده نحوهم فزلّت نعال الجواد على بلاطة فسقطا معاً وأطلق أحدهم الطبنجا فأصابته وطعنه الآخر في صدره فوقع قتيلاً**»[3].

ويقول الفقيه:

«**استشهد ناصيف في يارون على بلاطة واسعة تعرف اليوم باسمه، والظاهر أنها سطح صخرة ضخمة مغمورة بالأرض، سطحها يساوي سطح الأرض متصلة بمقبرة يارون. رأيتها بنفسي سنة 1963م ورأيت فيها أثراً يشبه تزلّق حافر حصان عليها، وكنت أظنه مصطنعاً ورأيت حمرة بسيطة في نفس الصخرة، يزعمون انها بقايا لون**

(1) جبل عامل السيف والقلم، حسن الأمين، ص 219.

(2) جبل عامل في التاريخ، الفقيه ص 408، والسيف والقلم نقلاً عن السبيتي، ص 218.

(3) العقد المنضد، الأسعد، ص 34.

دمه. وروي عن شيوخ البلدة أن ناصيفاً أراد أن يستعمل ضرباً من ضروب الفروسية، فأشار إلى جواده بإشارة يعرفها فارتفع به عن الأرض ووقف على رجل واحدة ثم انزلق مما سهّل على قاصديه قتله»[1].

استشهد الشيخ ناصيف النصار يوم الإثنين، الخامس من شوال سنة 1195 هـ فقد بلغه أن جيش الجزار مر في بلاده بدون إذن منه، فهب بمن معه لمنعه، فقتل.

«وفي هذا الوقت، كان ناصيف قد فقد حماة فرسانه، وبقي حوله جيل جديد، عاش في النعمة والرفاه ثلث قرن وكان عليه - رحمه الله - ان ينتبه إلى أنه يقاتل في هذه الساعة بأناس غير الذين قاتل بهم بالأمس، ولكنه القدر ونهاية العمر. وقيل إن عمره إذ ذاك كان فوق الستين، وسمعت ممن روى عن شيوخ عيناثا، أن عمره كان نيفاً وتسعين سنة، وأنه كان يشدّ حاجبيه بعصابة. وعندما قتل، تفرّق عسكره، ولو كان بعض الذين كانوا يقودون حروبه أحياءً لكان لهذه المعركة مصير آخر»[2].

بقي الشعراء يتغنون بمراثيه ومراثي أخيه وابن أخيه مائة سنة، حيث كانوا يفتتحون الغناء على الربابة بذلك[3].

استمروا يندبونه لأكثر من خمسين سنة، واعتبروه سيّد الشهداء ولكن في الفكر الشيعي الجنوبي لا شهيد بعد الحسين ولا تزال مراثي الشعراء الكثيرة في ناصيف تشكّل ومضة لافتة في الأدب العاملي.

أفتى العلماء بتحريم إقامة المآتم تخليداً لذكرى ناصيف بعد أن صارت تقليداً عاملياً، خوفاً من تناسي الناس لمقتل الإمام الحسين. وكانت التقية تستلزم إقامتها في أماكن خاصة سرية.

يقول السيد محسن الأمين إن من عوائد العامليين أن الفرس إذا أصابها مغص يطوفون بها حول قبر ناصيف ويرجون برءها بذلك. وجعل الفلاحون من قبره مزاراً للتبرك به، كما يرجون منه الشفاعة، كالبكاء على الإمام الحسين.

ومن المعروف أن ناصيفاً دفن في النبي يوشع رغم أن بعض الباحثين من المثقفين العامليين توصلوا حديثاً إلى اكتشاف قبر دارس في يارون منقوش على ناصيته «ضريح المرحوم نصيف بيك الوائلي 1330 هـ».

(1) نقل الشيخ الفقيه هذه الرواية عن بعض شيوخ تبنين في تاريخه ص 408. انظر صورة الصخرة اليوم.

(2) المصدر السابق، ص 405. وهناك اختلاف كبير في تعيين تاريخ معركة يارون ومقتل ناصيف بدقة. ولكن التاريخ الذي يبدو مؤكّداً هو 23 أيلول 1781 م كما جاء في تقـ ـر القنصل الفرنسي المعاصر للمعركة في صيدا ارازي ARAZY D.D.C. T2 p.387.

(3) جبل عامل في التاريخ، الفقيه، ص 406.

وقد يكون قبر وائلي آخر يحمل إسم الزعيم التاريخي المعروف[1].

قتل ابـن نصـار فيالله مــن ... مولى شهيد بالدماء مضـرج

وتـداولتنا بعده أيدي العدى ... مـن فـاجر أو غادر أو أهــوج

هي دولة عم البلاد الظلم فـي ... تـاريخهـا والله خـير مـفـرج[2]

يشكّل ناصيف النصار نموذجاً ملفتاً وفريداً بين الزعماء اللبنانيين، وأصحاب الإقطاعات الذين برزوا على مسرح الأحداث منذ دخول المنطقة تحت سلطة العثمانيين، وحتى انتهاء الحكم الإقطاعي، وتبدّل النظام العثماني الذي كان سائداً قبل ذلك.

تحلّى بمزايا أخلاقية رفيعة، ومثل إنسانيّة سامية وسلوكيّة في الحقلين الخاص والعام صارمة في مقاييسها المبدئية وثابتة في أهدافها السياسيّة العامّة، المتجرّدة من الغايات المصلحيّة الذّاتية، والنوازع الأنانيّة، التي كانت من التقاليد المشروعة والمتعارف عليها في تراث ذلك العصر.

خاض عشرات المعارك ولم يُعرف عنه أنّه حاول توسيع نطاق مقاطعاته. على حساب غيره.

كان زعيماً وقائداً جماهيرياً قبل أن يكون حاكماً على الطريقة الشائعة في ذلك العصر وصاحب شخصية فريدة لم يعرف عنه أنه تجاوز على حق أو طمع بما بين يدي غيره أو زاحم أو أشترك مع باقي الزعماء في التنافس على ولاية أو التزام، أو الحصول على لقب رسمي، أو مرتبة إدارية. كلّ هذه الأمور التي كانت المحور المركزي في سياسة الزعماء الآخرين والعامل الأساسي المحرّك لنشاطاتهم.

نادراً ما كتب عنه القناصل الفرنسيون في تقاريرهم الدبلوماسيّة المعاصرة له، دون الإعراب عن تقديرهم له وإعجابهم به رغم أن المصالح قضت بأن تتصرف أهواؤهم إلى الجانب المعادي. كما ذكره مؤرّخو جبل عامل بفيض من مشاعر الفخر والولاء، وأسبغوا عليه هالة أسطورية من البطولة والتضحية تبلغ حدّ المعجزات، وكذلك أبدى المؤرّخون الآخرون عند ذكره من مظاهر الإعجاب والإحترام، قلّما ظفر بها غيره. لقد أحبّه قومه والتفّوا حوله وقاتلوا معه باندفاع غير عادي، حتى أصبح **السبعماية حامل بندقية منهم ضد الجزّار، توازي خمسة عشر إلى عشرين ألف درزي وماروني متحدين**[3]. وقد مدحه

(1) أعيان الشيعة، محسن الأمين، الجزء 15 ص 102. موقع تبنين www. tibnen.com

(2) تاريخ مقتل ناصيف للشاعر ابراهيم يحيى.

(3) لبنان في القرن الثامن عشر المؤتمر الأول للجمعيّة اللبنانيّة للدراسات العثمانيّة، ص 255، عن Volney.

الشعراء في حياته كما رثوه بعد استشهاده بالعشرات من القصائد العاطفية المؤثّرة التي يبدو فيها صدق الشعور والتفاني في الولاء وعمق التفجّع والحسرة على مصيره المحزن.

تمكّن فخر الدين المعني من بسط نفوذه على مساحات واسعة من الأرض خارج الشوف، نتيجة حروب متواصلة شنّها على جيرانه وحلفائه وأنسبائه من آل سيفا وآل حرفوش، وأسلاف ناصيف وغيرهم كثيرين فغزا مقاطعاتهم وخرّبها، وحصل من الدولة على فرمانات بالتزامها، بعد أن اشترى ذمم الوزراء والولاة، وبث عيونه ومعاونيه في كلّ مراكز القرار، يبذلون أموالاً طائلة للاحتفاظ برضى الدولة وأنعامها. ولما لم يعد متأكّداً من رضاها غادر إلى الجانب الآخر من المتوسط، ساعياً لإقناع شعوب بعيدة، يعلم مطامعها القديمة والدفينة ببلاده أو ما جاورها يحاول إيقاظ هذه المطامع بوضع نفسه في تصرّفها، وتسهيل مهمتها، ويقع بالنتيجة أسيراً بأيدي الأتراك، دون أن يحاول رغم كثرة جنوده ووفرة إمكانياته الدخول معهم في معركة واحدة. فكان على النقيض من ناصيف دفع معظم الحكام المحليين الأقوياء إلى معاداته، واعتمد على الاستقواء بالسلطة على سلبهم مقاطعاتهم بالرشوة والمزايدة. فلو أنه حاول التحالف معهم لربما كان بمقدوره إيجاد جبهة قوية تحميه من مزاج الولاة وتقلّباتهم، أما يوسف الشهابي المعاصر لناصيف فقد اختار أسلوباً مغايراً ورفض التحالف معه ومع ظاهر رغم العروض المغرية، ووضع نفسه في خدمة الولاة حتى أصبح آخر الأمر ألعوبة في يد الجزّار، يعامله بإذلال مجبراً إياه على سلب أموال الناس لإرضائه، حتى أصبح مكروهاً من الجميع وعمد إلى قتل أخويه وأقربائه، والعديد من الأعيان في الشوف، وكانت نهايته ذليلاً وحيداً بين يدي الجزّار، وحول رقبته منديل الخضوع والعبودية[1] ولم ينقذه كلّ ذلك من المصير المشين فشنق مع أستاذه على أسوار عكا بينما انتهى ناصيف على صهوة جواده، وسيفه يقطر من دم أعدائه الذين حاربهم بإصرار وإباء طيلة ثلاثين عاماً متواصلة.

تختلف معركة يارون عن غيرها من الحملات والمعارك والمداهمات التي اعتاد العثمانيون شنّها مباشرة، أو بواسطة الولاة، على منطقة في لبنان والشام بقصد إخضاع أهلها أو تاديبهم أو إجبارهم على دفع الأموال الأميرية، أو القضاء على زعيم متمرّد أو استبداله بآخر، فهي كانت مقدمة لحرب إفناء شاملة ساقها الجزّار بعد إعداد طويل ضد ناصيف وقومه، قاصداً تدمير بلادهم والقضاء على أسباب الحياة

(1) كشف اللثام، نوفل نوفل ص 201.

فيها باجتثاث أهلها وطرد من لم يقتل منهم إلى خارج بلاده. ويبدو هذا الهدف واضحاً من خلال الأساليب المستحدثة التي استعملت في هذه الحرب، والنتائج المباشرة التي أدت إليها.

اكتسحت جنود الجزّار البلاد بعد المعركة فأحرقوا القرى ودمروا المنازل وهدموا الحصون والقلاع، وطاردوا المشايخ والأعيان والعلماء. وأمعن الجزّار بهم قتلاً وذبحاً وأسراً. وتشرّد الباقون في مختلف بقاع الأرض، فانتشر العامليون في الشام وبعلبك والهرمل وعكار، ووصلوا إلى العراق وإيران والهند وأفغانستان. وتركت الناس المدن والقرى فترك أهل صور بيوتهم ومدينتهم منذ أن تسامعوا بمقتل ناصيف. وخلت القرى حتى قبل دخول عسكر الجزار ونُهب الناس وسُلبوا وقُتلوا ودُمّرت بيوتهم وخُرّبت حقولهم.

«انهزمت المتاولة وسبا الجزّار نساءهم وأطفالهم، وكانت تُباع المرأة بقرشين، والولد بقرش واحد. ورحل الذين سَلموا إلى بلاد بعلبك واحتموا عند الحرافشة»[1].

«أما عساكر الدولة فقد سبت نساءهم وباعوا كلّ واحدة بربع غرش إذ كانت القتلى أكثرها في عسكر المغاربة».

صار الأمير اسماعيل يعدّ النساء ويأخذ عليهن خفراً، كما أخذ العداد والخراج وهدمت الدولة القلع وأخذوا الأولاد والنساء، وقتلوا الرجال وأخذوا من الرعية الأموال والخيل والسلاح وكانت هذه السنة سنة خوف وذعر وحزن شديد[2].

«هرب المشايخ مع خواص أتباعهم، ودخلت العساكر في البلاد، وأهلكوا كثيراً من الرجال مستعملين النهب وتفضيح النساء والعذارى، وبعد إيصال تلك البلاد لحالة الضعف بفقد شجعانها، بعضهم بالقتل وبعضهم بالفرار حينئذٍ خضعت للجزّار خضوع المغلوب»[3].

«ولما سيقت النساء والأولاد إلى سوق النخاسة، ونهبت الأموال وصفيت، حُملت ثروة جبل عامل الفكرية المتمثّلة بأعداد لا يمكن التكهّن بها من الكتب والمؤلّفات والمخطوطات، وجعلت وقوداً لأفران عكا لمدّة أسبوع. وما سلم من النهب راح ضحيّة الدفن تحت الأنقاض. ويقول الشيخ علي مروّة أنه رأى بعينه في عكا بعض الكتب

(1) الدر المرصوف، المنيّر، ص 73.
(2) تاريخ الركيني، ص 99.
(3) منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، مشاقة، ص 15.

العاملية وقد كتب عليها إنها من موقوفات الجزار. لأن النزر اليسير منها أنقذه بعض علماء بلاد عكا وحفظ عدد آخر في مكتبة جامع الجزار.

بعد كلّ هذه المصائب والفواجع ساد الإعتقاد عند الناس أن الله يعاقب العامليين لذنوب ربما ارتكبوها، أو لأنهم عصوا أراده الله. وقد عبر عن هذا الشعور الركيني في تعليقه على الأحداث **«لاشك إنّا عصينا الله حتى أنزل علينا هذه البلايا وسلّط الفجرة على البررة، أعاذنا بالله في ذلك وقد جاء في الحديث ﴿إذا عصاني مِن خلقي مَن يعرفني سلّطت عليه من خلقي مَن لا يعرفني﴾»**[1].

إن من نجا من القتل والسبي وقع ضحيّة السخرة بين يدي الجزّار **«كان الجزّار جرد على المتاولة سيف الظلم، ويأخذ رجالهم إلى ورشة عكا (بالسخرة) ويعاملهم مثل معاملة فرعون الظالم لبني إسرائيل بالقساوة الشديدة. وكم من المئات منهم قتلوا في الطريق بالناقورة لما كان يحشرهم السائقون لهم بسرعة الجري. فمن شدّة الضرب كان يحشر بعضهم بعضاً وبسبب ضيق الطريق هناك كانوا يسقطون في البحر بالخمسين والستين وما يسأل ولا يرحمهم أحد. وبوصولهم إلى ورشة عكا كانوا يستعملون معهم شدّة القساوة»**.

«وكم وكم ماتوا من شدة القساوة. ومن ذلك أنه في أحد الأيام كان الوقافة على الورشة بأمر الجزار، واضعين فلاحين من بلاد بشارة بمحل بين السورين يشتغلون فيه. بعضهم يحفرون الأساس، وهم نحومئتين وثلاثين نفراً والبقية يسحبون التراب بالحبال في القفف من الأساس. فاتفق أن انقلع القسم الأعلى من الأرض، وصار الذين فوق يصيحون على الذين في الأساس ليسرعوا بالخروج قبل أن ينطبق عليهم التراب. وكذلك صارت الصيحة من الوقافين ومن الفلاحين أقاربهم الذين كانوا في عكا. وإذ سمع الجزار الصيحة وعرف سبب ذلك إذ كان هناك انتهر الجميع أن يسكتوا قائلاً لهم دعوهم، إذا كان الله قتلهم ما لكم وما لهم. ومنعهم أن يخرجوا أحداً منهم. وسقط حائط الأساس، وانطبق على الجميع وقبرهم كلّهم أحياء. وما خرج أحد منهم. وهكذا كانت معاملته الوحشية لهم»[2].

(1) الركيني، ص 102. قام عثمان باشا بتهجير شيعة جبل لبنان بمساعدة أولاده. ولكنه فشل في إتمام ذلك في جبل عامل بعد هزائمه الحاسمة في معركتي البحرة وصيدا وفرار ولده باشا صيدا درويش باشا. ولكن خلفه الجزار نجح في القيام بذلك بعد معركة يارون ولكنه فشل في البقاع أمام المقاومة التي أبداها الحرافشة في وجه حملاته والملفت أن يوسف شهاب كان الأداة الأولى في جميع هذه المحاولات.

(2) تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، ابراهيم العورة، ص 54.

يقول القنصل الفرنسي المعاصر لهذه الأحداث متحدّثاً عن صور، **جميع سكّان هذه المدينة أخلوها تماماً عندما علموا بهزيمة الشيخ ناصيف خوفاً من عسكر الباشا أن يبيدهم وينهبهم**[1].

إن الحرب بعد معركة يارون لم تنتهِ بمقتل ناصيف، فقد استمرّت بأشكال أخرى لمدّة خمسة وعشرين عاماً، واصل العامليون بقيادة آل نصار حربهم المقدّسة للعودة أسياداً على بلادهم. لقد ظن الكثيرون أنهم قد انقرضوا بنهاية هذه المعركة.[2] وما أعقبها من أعمال القتل والبطش، حتى الركيني الذي طالما انفعل مع انتصارات ناصيف السابقة اعتبر عندها أن أمر آل نصار قد زال وأصبحوا في ذمّة التاريخ فكتب معلّقاً.

«تاريخ ابتداء أوّل حكم بيت علي الصغير من وقعة عيناتا إلى يوم قتل ناصيف مئة وست وثلاثون سنة. فهذه مدّة حكمهم ثم آل أمرهم بعد قتل ناصيف قدس الله روحه الشريفة الشهيدة، إلى أن هربوا ورحلوا إلى ديرة الشام وإلى بعلبك والهرمل»[3].

كما اعتقد كثيرون أن المتاولة جميعاً في طريق الزوال بعد هذه النكبة.

ولكن لا المتاولة ولا آل علي الصغير ولا حتى أولاد ناصيف قد انتهوا، بل استمرّوا يقاومون رغم كلّ ما حصل لمدّة خمسة وعشرين عاماً عادوا بنهايتها أسياداً على بلادهم.

وهو فصل مجيد أخر في تاريخ جبل عامل.

---

(1) D.D.C. T2, p 386.

(2) كشف اللثام، نوفل، ص 200.

(3) تاريخ الركيني ص 102.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الخامس

حرب الطياح

بعد اكتساح جبل عامل واستباحته وسقوط آخر قلاعه (قلعة الشقيف)[1] وتدمير بنيته العسكرية والإقتصادية، صار من المستحيل الاستمرار في مقاومة منظّمة ومركزيّة. فلجأ العامليون إلى نوع خاص من الحروب، يتناسب مع الأوضاع المأساوية التي يعانون من وطأتها، فتجمّع الهاربون والخائفون والمشرّدون في مجموعات صغيرة متنقّلة، تضرب عساكر الجزّار التي انتشرت في القرى ومتسلّميه الذين عهد إليهم إدارة أمور البلاد. ورغم كلّ هذه الظروف القاسية تمكّن فارس الناصيف، وإخوته وعدد من المشايخ الذين فرّوا إلى خارج البلاد، من تشكيل فرق متطوعين تتسلل إلى جبل عامل، وتهاجم عمّال الجزّار وجنوده والمتعاملين معه، وتغير على القوافل التجاريّة معطّلة سبل المواصلات ومظاهر الحياة العاديّة، التي يمكن أن تؤمّن للجزّار وجماعته الأمان والإستقرار.

وقد عُرفت هذه الفرق المقاتلة لدى العامّة باسم «الطياح» وهو تعبير شعبي يقصد فيه «الهاربين أو المطاردين»، الذين يمارسون نوعاً من حرب العصابات التي تعتمد على اختيار مكان وزمان المواجهة والضرب بسرعة، وإلحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر في صفوف العدو ثم التواري قبل وصول تعزيزاته. كما تعتمد على اقتناص الفرصة المناسبة، للقيام بثورات محدودة أو عامة، بدعوة عموم السكّان للمشاركة في الأعمال العسكريّة ومهاجمة العدوّ، في كلّ مرّة يكون في وضع سياسي أو

---

(1) آخر القلاع العاملية التي سقطت في يد الجزار بعد معركة يارون فتسلمها من صاحبها حيدر الفارس وكان معه 500 إلى 600 رجل وبعض العائلات التي إلتجأت إليها كما سقطت القلاع الأخرى تبنين وهونين ويارون و وشمع وميس وجباع.

عسكري يسمح بذلك. كانت تبدو أشبه بحرب مستمرّة تواصلت بعد نكبة يارون، وتلاحقت حتى لا يستسلم العامليون للواقع المرير، الذي يحاول الجزّار فرضه بواسطة الممارسات التأديبيّة الدائمة، والنجاح في تغيير الجغرافية البشريّة وإذابة الكيان الذي طالما حرص جبل عامل على الدفاع عنه، وتعزيزه على امتداد القرون السابقة وتبديد روح المقاومة لأيّ تدبير سلطوي يتّخذه الحاكمون.

كان النّاس ينتظرون أيّة بارقة أمل أو إشارة تنبئ بإمكانيّة الإنتفاض على هذا الواقع، والخروج من المعاناة. وكانت صور قد أصبحت ميناء جبل عامل، والمركز التجاري والسياسي فيه. وقد رجع بعض سكّانها الذين فرّوا عند سماعهم بموت ناصيف، ولكنهم كانوا يمنّون النّفس بالإعتماد على إشاعات تفيد بأن عمارة بحريّة ستصل من الباب العالي لعزل الجزّار فصاروا يترقّبون وصولها بين لحظة وأخرى.

فلما مرّت البارجة الفرنسيّة الفجر (Auror) في 8 أيار 1782م يرافقها عدد من المراكب التجاريّة ظنّ أهالي صور أن ساعة الخلاص قد دنت، فثاروا مع شيخهم حمد العباس لمساعدة الأسطول الموهوم حال وصوله إلى عكا، ولكن الباشا قمع هذه الحركة بقسوة بالغة ثم استدرج حاكم صور القديم بأمان كاذب وغدر به[1]، فمات في سجن عكا مع أخيه حسين، وأولاد عباس العلي صاحب قلعة ميس. وقضى على جميع الرجال وآل **أمر الحريم والأولاد إلى أن داروا في البلاد يشحذون ويطلبون من الناس** كما يقول الركيني[2].

وحاول العلماء التخفيف من معاناة الناس فدار الشيخ علي خاتون على القرى، حتى يسدّ بلصة الجزّار لعام 1782م وكلّ ما بذلت له قرية شيئاً من الدراهم، أو الغلّة يقول لأهلها «احسبوه من الزكاة» ويرقّمه في دفتر، ثم يعطيه للدولة حتى طلعت الزكاة من نصيب الدولة وحرم منها مستحقها من الفقراء والمعوزين وبهذه الطريقة تكون «**دولة الجزّار قد استأثرت بنصيب الفقراء والمعوزين وأبناء السبيل**»[3].

أصبح الشيخ فارس الناصيف رجل المقاومة والمواجهة في كلّ أنحاء جبل عامل،

(1) D.D.C. T2 p 389-390.

(2) الركيني، ص 102.
(3) جبل عامل، رزق، ص 288.

وفي المنافي حيث تبعثر العامليون، ودخلوا في مواجهات غير متكافئة مع عدو لا حدود لقسوته ووحشيّته.

«لم يكن في عسكر الجزار جنود من العرب بل ملأ بشليكه بعسكر من المشرّدين والقتلة الذين جمعهم من كلّ أنحاء تركيا. بشناق، البان، مغاربة، تدافعوا من كلّ الجهات وعاشوا حياة ماجنة تحت رايته»[1].

في الوقت الذي كان الجزّار منهمكاً في إرسال حملة إلى جبل الدروز وتناقصت أعداد جنوده الذين تركهم في جبل عامل لحفظ البلاد، استغلّ فارس الناصيف هذه الاضطرابات وعاد مع حوالي ستين فارساً من الذين كانوا يعيشون في ولاية دمشق، وتكاثر عسكره بالفلاحين المتاولة الذين انضمّوا إليه، حتى وصل العدد إلى نحو ألف رجل، وهاجموا عسكر الباشا المنتشر في مختلف القرى. وتقدّم فارس في الجبال المؤدّية إلى قلعة تبنين وهي مسقط رأسه ودار أهله، ففوجئ بوجود قوّة مسلّحة من المغاربة فقتل المتسلّم من قبل الجزّار وهو الحاكم العام إبراهيم آغا، وأباد أكثر رجال الحامية واستولى على أموال الباشا بعد أن طرد الكاتب إبراهيم مشاقه إلى عكا مع دفاتره ولم يخسر من رجاله سوى أربعة، وغادر القلعة بعد أن ترد يها بعض جنوده[2].

أحدث احتلال قلعة تبنين مركز حكم ناصيف القديم ومقرّ الحاكم العام الحالي من قبل الجزّار صدى كبيراً فتجمّع السكّان للانضمام إلى الثورة، وخاف الجزّار من انتشار التمرّد في كلّ مكان وخصوصاً أنه في سبيل إرسال حملة إلى بلاد الدروز، فاستدعى عساكره للعمل ضدّ المتاولة، كما عاد الأمير اسماعيل حليفه مع رجاله إلى صيدا وأعلنت مدافع القلعة بطلقاتها نصراً موهوماً كاملاً أحرزته عساكر الجزّار على المتاولة، لإيهام الناس والحطّ من عزائمهم ومنعهم من الإلتحاق بالثائرين[3].

«سنة (1198هـ ـ 1784م) اجتمع العامليون في شحور بقيادة الشيخ حمزة ابن محمد النصار، وزحفت عساكر الجزار نحو القرية. فالتقى الطرفان في معركة

---

(1) القنصل بازيلي، ص 90.

(2) جبل عامل، حسن الأمين، م. م.، ص 323، يقال ان قائد الثوار في هذا الهجوم كان عقيل شقيق فارس وكان من أهدافه استخراج الثروة التي تركها أبوه مطمورة تحت شجرة في الحصن.

(3) في 2 حزيران 1748م القنصل Arazy D.D.C. T2 p421.

انتهت بانهزام المتاولة وقتل عدّة مئات منهم، كما كان الخازوق وهي العقوبة التي أعلن الباشا أنها خاصة بهم، مصير عدد آخر وعلى رأسهم قائد هذه الإنتفاضة اليائسة.[1] وبعد هذه الموقعة كما في وقعات أخرى كثيرة، شرّدت الناس في البراري والأوعار والجبال والأقفار وكلّ امرئ في عقله محتار، وصار الناس من الدولة يهربون وفي كلّ واد يهيمون[2] وعرضت رؤوس القتلى في صيدا لإرهاب الناس ومنعها من التحرّك».

لم تخفِ الدولة إعجابها بمآثر الجزّار في قتل أكبر عدد من رعاياها، واستباحة بلادهم وأعراضهم رغم الشكاوى التي تقدّم بها العامليون، إلى أسطمبول يطلبون رفع الضيم والظلم عن بلادهم، فكافأته بفرمان صدر في أيار 1786م تجعل منه صاحب النفوذ الأوّل في ولاية طرابلس وصيدا. وأضافت إليه ولاية دمشق، فأصبح سيّد سوريا الأوّل. وأناطت به انتظام جهات المتاولة حصراً.[3] تخضع لأوامره البلاد الممتدّة من اللاذقية شمالاً، إلى غزّة جنوباً، ومن البحر المتوسط غرباً إلى بادية الشام شرقاً، يحكم هذه البلاد الشاسعة بواسطة متسلّمين من قبله وتوسعت سلطته فانتقل إلى دمشق ووضع اثنين من مماليكه، وهما سليمان في طرابلس وسليم في صيدا، واضطر لإدارة المساحات الشاسعة التي أصبحت تحت حكمه أن يتنقّل بين أنحاء مختلفة وبعيدة عن جبل عامل، للإهتمام بأمورها فاستغلّ الثائرون انهماكه بإعداد حملة إلى نابلس، وتوزيع قوّاته في الولايات الثلاث، وقرّروا مهاجمة عمّاله وجنوده بعد احتلال صور والقضاء على متسلّمه وعسكره في المدينة. ولكن سليماً مملوك الجزّار ووالي صيدا قمع المحاولة قبل تنفيذها، واعتقل المشايخ القائمين بها وأرسلهم إلى عكا، حيث قتلهم الباشا بكلّ وحشيّة في 10 أيار 1785م فوضع على الخازوق أربعة وثلاثين رجلاً منهم، عرضهم على أبواب المدينة على مرأى من القنصل الفرنسي الذي كتب إلى حكومته يقول «إن **جثثهم لا تزال معروضة حتى الآن، ويشاع بأنهم سوف يستبدلون بعدد من مواطنيهم المسجونين والمتهمين بالإشتراك مع المتمرّدين»[4].**

---

(1) يقول مشاقة انهم رفعوا لثمانية ثائر على الخازوق وكان كلّ من يقع منهم في يد الجزّار يعدم فوراً. مشاقة، م.م.، ص 12.

(2) الركيني، ص 110.

(3) كشف اللثام نوفل نقلاً عن المؤرّخ التركي واصف أفندي ص 200.

(4) دار الوثائق القوميّة في باريس (A.E.B.I) مجلّد 797، بتاريخ 16 أيار 1785م ، عن جبل عامل السيف والقلم، ص 353.

وكانت حملات القتل والنهب التي تقوم بها العساكر العثمانيّة لا تتوقّف لأن الجنود طالبوا بأن يكون نهب المدن هو دخلهم خصوصاً في غياب مرتباتهم المعتادة وقد شجّعهم الباشا على اعتماد هذا المصدر المربح وقال لمترجم القنصل الفرنسي أنه من دون ذلك لكانت حالة الجنود التعساء لا تطاق.[1] فكان من الطبيعي أن يزيد ذلك من معاناة السكّان الذين لم يغادروا قراهم ومنازلهم. فاقتصروا على اقتناء ما هم في أمسّ الحاجة إليه من قوت وتركت تلك النكبات بصماتها على جبل عامل فأفادنا الرحّالة الفرنسي أوليفيه الذي زار صور في أواخر القرن الثامن عشر أنه لا يوجد في الامبراطوريّة العثمانيّة مدينة تشابه صور في تعاستها وبؤسها وأشار سان انيان (St Aignant) أنه لم يبق من هذه العاصمة الفينيقيّة التي كانت سابقاً في غاية الثراء والقوّة إلاّ ما لا يتمكّن الإنسان أن يسلبه منها[2].

كان بعض شيوخ بني علي الصغير قد لجأوا بعد النكبة عند الأمير يوسف شهاب بعد أن تعهّد لهم بالرعاية والحماية وأنزلهم في مشغرة. ولما عاد الجزّار من نابلس إلى دمشق وتهيّأ للذهاب إلى الحجاز على رأس قافلة الحج ولخوفه من ثورة أخرى يقوم بها العامليون المشرّدون في كلّ أنحاء الشام. أرسل إلى الأمير يوسف بالاتفاق مع سعد الخوري، الذي كان لا يزال أثناءها رهينة عنده يطلب منه بأن يقبض على المشايخ الوائليين الذين عنده ويرسلهم إلى سليم باشا مملوكه في عكا. ولما كان يوسف يشارك سيّده الجزّار في طباع كثيرة، قبض على المشايخ السبعة عشر، وأرسلهم إلى حتفهم حيث شنقوا حال وصولهم، فلم يحفظ الجوار ولم يرعَ الذمام، ولامه الناس على ذلك وتباروا في ذمّه وتقبيح أفعاله[3].

استمرّ الجزّار في حكم جبل عامل حتى وفاته كما بقي أولاد ناصيف، وآل علي الصغير يختفون نهاراً ويخرجون ليلاً، حتى قيل أن جبل عامل تحت حكم الجزّار نهاراً وحكم أولاد نصار ليلاً. وبقي بعضهم في مشغرة وبعلبك والهرمل وعكا

(1) المصدر السابق، نقلاً عن تقرير لقنصلية صيدا، في مجلّد رقم 1037.
(2) جبل عامل السيف والقلم الأمين، ص 353.
(3) تاريخ الشهابي، قسم 1، ص 141.

وغيرها من المناطق حتى الشام والعراق، وقد «تدهورت قبيلة المتاولة في سوريا كما عبّر بازيللي عن واقع الشيعة يومها». فلما وصل نابليون حاصر الجزّار في عكا كتب إلى ساير مشايخ البلاد والحكّام أن يحضروا إلى مقابلته ويحصلوا على أمانه ورحمته، وبدأت تأتي إليه أهل تلك البلاد ويأخذوا الأمان، فحضر مشايخ بني متوال فأعطاهم حكم بلادهم فساروا من عند أمير الجيوش إلى مدينة صور وقدّموا له الذخاير في البلاد وتسلّموا القلع التي كانت لآبائهم[1].

ويبدوا إنهم كانوا على استعداد للقتال مع نابليون للتخلّص من الجزار بأيّ ثمن. يقول بازيللي إن متاولة صور الذين عانوا أكثر من غيرهم من صفاقة المستبد خرجوا إلى معسكر الفرنسيين تحت أمرة أحد أحفاد ظاهر.

والواقع أنه لو حزمت القبائل اللبنانيّة أمرها مثلما فعل المتاولة، ووقفت في خندق واحد مع الفرنسيين في حصار عكا، لاستطاع بونابرت أن يستولي على كلّ البقعة حتى حلب دون أن يكون للدفاع المستميت عن عكا نتيجة حاسمة.[2]

إنها فترة قصيرة عاد فيها آل علي الصغير إلى ديارهم وقلاعهم كما عاد باقي العشائر والمهاجرين، إلاّ إنهم ما لبثوا بعد انسحاب نابليون أن عادوا إلى مواقعهم السابقة، واستأنفوا سيرتهم الأولى في حركة الطياح، حتى موت الجزّار في 23 نيسان 1804م.

(1) المقصود بأمير الجيوش قائد الجيش الفرنسي نابليون بونابرت. ولما وصلوا إلى عكا حضرت إليهم مشايخ المتاولة فأعطوهم الحكم. (فصول من تاريخ الشيعة، الزين ص 89. ونزهة الزمان، ج 2، ص 887).

(2) تاريخ سوريا، بازيلي، ص 99 ـ 98.

عودة المحاربين

اتسعت حرب العصابات بعد موت الجزّار فشملت بلاد عكا وصفد، وصار هناك نوع من الإزدواجية في السلطة، فاضطر الناس، أن يدفعوا المال الميري والذخائر مضاعفة للحكومة والمشايخ، وكلّ منهما لا يعترف بسلطة الآخر. ورأى سليمان باشا الوالي الجديد وكان سلس القيادة وليّن العريكة، ما أصاب البلاد من الخراب وأن استمرارها على نفس الوتيرة لن يفيد أحداً، فرغم قوّة الجزّار وبطشه لم يستطع مع كل الوسائل الوحشية التي اعتمدها طيلة أكثر من عشرين عاماً، أن يضع حدّاً لنفوذ المشايخ وقدرتهم على مقارعة الدولة وتحدّي سلطانها. فمال إلى اللين ولكنه كان يعلم أن الإفصاح عن رغبته بالدخول في تسوية مع فارس الناصيف وأنصاره لن تصل إلى نتيجة لعدم ثقة العشائر بصدق تعهّداته، نظراً لما عانوا من غدر أسلافه وإخلافهم للعهود كما وأن اتّباع هذا السبيل سيظهره بمظهر الضعف والاستسلام مما يحرمه حريّة المفاوضة والمساومة معهم[1].

كانت وجهة النظر المعتمدة في الولاية كما فصّلها إبراهيم العورة الذي رافق بحكم وظيفته، كلّ مراحل المفاوضات واطلّع على خلفياتها وتشعّباتها «**أن المشايخ ليس لهم مهنة يقتاتون منها ولا ملك يقوم بمعاشهم يكتفون به ولا هم مثل بقية الناس وليس لهم صنائع، ولا تعوّدوا على المتاجرة ولا عندهم مال يتاجرون به، ولا أحد يركن لهم ويسلّمهم ما له، ولا يمكن أن يتسوّلوا بل يهون عليهم الموت بكلّ سهولة ولا التسول، حيث أنهم من أبائهم وأجدادهم تعودوا على الحكم والكرامة والجاه فإذا داوموا على أعمالهم تخرب البلاد وشرّهم وضررهم لا يقع على بلاد بشارة بل يشمل أيضاً بلاد صفد**» وبما أنه يتعذّر الخلاص منهم بالحرب والقتال كما أثبت الواقع القائم، لذلك رأى سليمان باشا ووافقه أركان ولايته سنة 1805م حاييم اليهودي الصراف وحسن أغا وعلي باشا «**أن يعمد إلى السياسة والحيلة في بدء المفاوضات، فوضع في بلاد بشارة**

(1) تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، العورة، ص 55.

ضابطاً أرناؤوطاً يدعى بكر آغا من عمدة الضباط الذين كانوا محافظين عكا، وأمره سرّاً أن يراسلهم ويتعاطى معهم، كأنه يريد أن يجعل نفسه واسطة لنيل الأمان، الذي يرغبونه». أي أن مهمة هذا الضابط أن يدفع الثوّار إلى طلب الأمان بمبادرة ذاتية، مما يسهّل عليه فرض الشروط التي يريدها مقابل أمانه ولكن المشايخ لم يهتمّوا بعروضات بكر أغا فردّوا عليه بجواب «ناشف» واعتبروا عروضه مكيدة وفخاً كما تعوّدوا على مثلها أيام الجزار» .

عَمَدَ الطرفان إلى طلب وساطة الأمير بشير الشهابي وتدخّله ضامناً وكافلاً، لما يتفقا على تنفيذه، باعتبار أنه قريب من الوالي، وله الغيرة التامة على العشائر باعتباره من رؤسائها[1].

تحمّس الأمير بشير للتوسّط بين الفريقين، ورأى في ذلك المسعى فرصة اتخذها من «توفيقات الباري» واستعملها لبلوغ غاياته، وأهمّها أن تلك الوساطة تمنحه المزايا التالية:

أوّلاً - استجلاب حب وميل سليمان باشا له، وأن معاطاة قضيّة مهمّة نظير هذه توجب زيادة الفوز والإعتبار.

ثانياً - إن هذا الأمر يكسبه التقدم على سائر العشائر، ويوثق صلاته معها، بحيث يمكن أن يستعمل هذه العلاقة لمصالحه مستقبلاً.

ثالثاً - إن النجاح في هذا المسعى يكسبه الصيت الحسن والفخر، وإن بمقدوره التأثير في سائر العشائر ويستطيع أن يطوعها ويقصيها ساعة يشاء.

عيّن الأمير بشير كتخداه جريس باز، وأرسله إلى عكا مع مشروع اتفاق لعرضه على الوالي، ولكن المفاوضات تعثّرت واعتمد الوالي الخوري سابا كاتب[2] رسوله إلى الأمير في استكمال المفاوضات، وبعد مداولات كثيرة أصرّ سليمان باشا على عدم إعادة فارس الناصيف وسائر المشايخ إلى حكم بلادهم كالسابق، لتجريدهم من أسباب القوة والمنعة والتأثير على أهالي بلاد بشارة وجبل عامل. أي بتعبير آخر الغاء صفتهم القياديّة والسياسيّة، وتأمين سبل المعيشة لهم بما يكفي لنفقاتهم، والغاية من ذلك بقاء سيطرة الوالي المباشرة على البلاد، وضمان عدم انتفاض فارس على سلطته والعودة إلى سيرة

(1) المرجع السابق، ص 57.
(2) من رهبنة دير المخلّص عمل كاتباً في ولاية صيدا قبل ترهّبه، تخرّج من روما ثم أصبح رئيساً عاماً للرهبنة ومطراناً.

أبائه وأجداده. ولابد أن فارساً وسائر المشايخ قبلوا مرغمين بذلك، لأن وضعهم الحالي سيكون أفضل مما هو في حالة التشرّد التي كانوا فيها، ولا شيء يمنعهم من السعي لاستعادة ما يرونه حقاً لهم سلماً أو حرباً عندما تسمح الظروف.

أصدر سليمان مرسوم الأمان وحمله الشيخ إبراهيم[1] بنفسه للأمير بشير، الذي أرسله للشيخ فارس. وبعد ثلاثة أيام حضر فارس في ديوان حافل بحضور علي أغا والد عبد الله باشا وراغب أفندي مأمور الدولة العليا وقاضي عكا وفقيهها، وحاييم الصراف وحنا العورة الكاتب وجريس باز وكيلاً عن الأمير بشير وصدر عن الديوان عقد الصلح الذي ينصّ على الأمور التالية:

أولاً: يعطي المشايخ مقاطعه إقليم الشومر على أن تستثني منه قريتي الصرفند وأنصار وميس القريبة من الصرفند، معفاة من الضرائب وتكون لهم ولذريتهم بعدهم «مفروزة القلم ممنوعة القدم»[2].

ثانياً: يترأس فارس الناصيف عشائر جبل عامل بصفته شيخ مشايخ العشيرة ويتعاطى أمورهم ومصالحهم وفصل الدعاوي بينهم.

ثالثاً: لا يكون للشيخ فارس ولا لغيره أدنى مداخلة في بلاد بشارة أي مقاطعات جبل تبنين وجبل هونين وساحل معركة وساحل قانا ومرجعيون ومقاطعة الشقيف وإقليم التفاح ،لا يتداخلوا بهذه المقاطعات، لا بحكومة ولا بفلاحة ولا بزراعة بوجه من الوجوه.

رابعاً: يلبّوا الطلب في أيّ وقت للمحاربة في أحد المحلات دون تردّد ولا عاقة نظير الشرط الملتزم به أمير جبل لبنان.

في اليوم الثاني أرسل الوالي «حسن شيت»[3] وأمره أن يتوجه لعند الشيخ فارس ويطلب منه أن يوزّع بخبرته ومعرفته، قرايا إقليم الشومر على المشايخ كلّ منهم قدر لزومه بالعدل والإنصاف، وأن يعملوا بذلك دفتر ممضي منهم.

بعد الإتفاق على كلّ ذلك أرسل الوالي وراغب أفندي التماساً للباب العالي أن يصدر أمراً ملوكياً مؤكّدا لتقرير هذا الترتيب وأرسل إلى الأستانة مع رسول خاص فعاد الجواب سريعاً بقبول هذا الترتيب واستحسانه، وتأييده فأصدر الوالي المرسوم اللازم لتنفيذ هذا الإتفاق

(1) هو الشيخ ابراهيم نعمة معتمد الأمير بشير ورسوله.
(2) معفاة من الضرائب.
(3) الحاج حسن شيت هو كاخية الشيخ فارس. (الشهابي الغرر، ص 710).

ووقّع المشايخ على سند يفيد قبولهم له وتقيّدهم به، ووقّعه الامير بشير كفيلاً ومأمور الدولة العليا راغب أفندي وقاضي عكا ومفتيها. وأهم ما نص عليه هذا الاتفاق:

1 ـ ترتفع حالة الحرب بين الفريقين وتعود علاقة السلم المرعية في الأحوال العادية.

2 ـ يبقى الحكم بيد المتسلّمين من الوالي وتبقى الأملاك المصادرة أيام الجزّار.

3 ـ يعطي العشائر إقليم الشومر لقاء أملاكهم السابقة وتجري الرواتب على بعض شيوخهم حتى أوان الحصاد.

4 ـ يقيم الشيخ فارس الناصيف رئيس العشائر في المكان الذي تحدّده له الدولة في جبل عامل، دون إن يكون له أو لغيره من العشائر أدنى مداخلة في بلاد بشارة.

من الواضح أن هذا الاتفاق، أقرب إلى معاهدة هدنة مؤقتة بين طرفين عدوين يضع حدوداً قاسية على عودة الأمور إلى مجراها الطبيعي السابق قبل معركة يارون. ويكتفي بإنهاء ثورة العامليين مع بقاء القيود والمصادرات التي تحدّ من الحكم الذاتي، الذي طالما قاتلوا من أجله وحرصوا عليه دائماً.

وتنفيذاً لبنود هذا الإتفاق صدر عن الوالي الصك الموجّه إلى الشيخ فارس وفيه بعد مصادقة الباب العالي على مضمونه.

«بيان بالمحلات التي أنعمنا بها على ولدنا الشيخ فارس الناصيف وباقي حمولة آل الصغير وعلى مشايخ حمولة الصعبية بأجمعهم، وعلى مشايخ حمولة المناكرة بأجمعهم، مع حسين ابن جواد منصور لأجل معاشهم ما عدا الذي مسلمين قبل تاريخه لولدنا الشيخ محمد الناصيف، وأخوه نصار والشيخ شبل إبراهيم والشيخ مرعي الصعبي والشيخ دندش ونصر الله وعلي الحمزة وبندر الحمزة فهؤلاء معاشهم مّعين من طرفنا وحرّرنا لهم بذلك دفتراً بتاريخ 21 جمادي أوّل سنة 1220 هـ».

التوقيع: سليمان

المطرية، مطحنة المغيرية، الواسطة، الوسامية التحتا، الخرائب وتوابعها، جمحيم، أروية، مغراقة القاسمية، سينيه، دير تقلا، القعقعية، الزرارية، المروانية، عدلون، الوسامية الفوقا، البيسارية، خربة الدوير، خرطوم، عين أبو عبد الله، شتوية العربان، البابلية، الداوودية، براك الزور، اعداد ماعز الغربية، مزرعة القرية،

الحارثية، مزرعة النبي ساري، زيتون بكليك المروانية، تفاحتا، الغسانية، مغارة محيدلة، سمية العربان، السكسكية، الياهودية، الجديدة، زيتون بكليك الزرارية، اللوبية، الكوثرية، كفريدة، زيتون بكليك القاقعية، زيتون بكليك المشعراني، زيتون بكليك البابلية.

هذه القرايا التي أنعمنا بها على ولدنا المومى إليه وباقي مشايخ الحمائل المذكورين أعلاه وجواد بن حسين منصور[1].

ويبدو أن هذا الإتفاق قد استثنى بعض المشايخ الذين لم يقاتلوا الدولة في الفترة السابقة، فكانوا موضوع قرار مستقل عالج وضعهم على حدة بإعطائهم، قرى الطيبة وعدشيت وطير فلسيه، ومنهم ولدي الشيخ ناصيف محمد[2] ونصار وحفيده أسعد الخليل[3]. كما يتبين من الرسالة التالية الموجّهة من الوالي إلى نائبه في تبنين وهونين:

فخر الأماثل والأقران متسلمنا في تبنين وهونين الحاج إبراهيم زيد قدره.

بعد السلام التام المنهي إليك، حضر لهذا الطرف افتخار المشايخ المكرمين الشيخ محمد الناصيف وحصل على صفو الخاطر الكامل من جهتنا، والآن قد سمحنا للمذكور في قرية الطيبة يتصرَف بموسمها هذا العام وفي العام القابل يمشيها مطلقاً في كيسه ويستغلّها من غير ميري فلا تقارشوه بالقيمة المذكورة، وقد أمرنا للمذكور بإنعامه في كلّ شهر خمسمائة غرش تدفعوها له من طرفكم، وابتداء ذلك من الشهر الداخل إلى أن يكون طلع الموسم القادم تنقطع الشهرية المذكورة. وكذلك سمحنا إلى أخيه الشيخ نصار الناصيف وإلى أسعد الخليل وإلى هادي المقبل في قرية «طير فلسيه» مطلقا يتصرفوا بها هذا العام ويمشوها على كيسهم في المقبل وأمرنا بإنعام شهرية إلى المذكورين تسعين غرش في كلّ شهر ابتدأها غرة الشهر الداخل وحين طلوع الخير تنقطع الشهريّة المذكورة فهذا المنوال مشوا المشايخ المذكورين عليه ولا يصير منكم تصوّر في مساعدتهم ومراجعاتهم تاركين أحوالهم على ذلك والسلام.

وعلى هامش الوثيقة ما يلي «ومزرعة عدشيت تابعة للطيبة في تصريف الشيخ محمد المذكور أعلموا ذلك».

---

(1) من المناكرة

(2) يقول عبد المحسن الظاهر إن خلافاً نشب بين فارس ومحمد ولدي ناصيف ولكن معظم العشاير أيّدت الأوّل لجدارته رغم أن محمد هو الأكبر سناً.

(3) ابن خليل الناصيف النصار.

أقام فارس في قرية الزرارية التي دخلت في ملكه في دار بنيت على نفقة الولاية، وعيّن له مايتي كيس تدفع في كلّ سنة من خزينتها (1813م) ولابد أنه اعتبر أن الإتفاق مرحلة آنيّة، يعود بعدها إلى بلاد بشارة كما كان أهله من قبله وقد احترم هذا الإتفاق وقاتل مع سليمان باشا في أكثر من مناسبة قتل فيها عدد من عشيرته من بينهم أحمد بن عباس المحمد باني صور. ولكنه لم يتوقف عن المطالبة بما يراه من أخص حقوقه بالعودة إلى ماكان جبل عامل عليه قبل النكبة وسانده في مطالبه بشير الشهابي وبشير جنبلاط. ولكن ذلك لم يتحقق إلا بعد وفاة سليمان وتولية عبد الله باشا الخزندار على عكا فتعدّلت الاتفاقية سنة 1821م وعاد المشايخ إلى حكم بلادهم كسالف عادتهم بعد ان ضمّت مقاطعة مرجعيون إلى حكمهم وكانت تتبع وادي التيم وترك لهم خمسين الف غرش من أموالها الأميرية ومقابل ذلك تعهّد فارس بتقديم ألفي مقاتل عند حاجة الولاية.

يقول الأمير حيدر أحمد شهاب «في حوادث سنة (1237 هـ ـ 1821م) أرسل عبد الله باشا إلى الشيخ فارس الناصيف ابن الشيخ ناصيف النصار والمشايخ المتاولة، أنه يريد «أن يرجع لهم حكم بلادهم، أي جبل عامل التي يقال لها الآن بلاد الشومر، وبلاد الشقيف، وان يرفع المتسلمين الذين من قبل الوزير، ويترك لهم خمسين الف غرش في كلّ عام، ومئة غرارة شعير، بحيث أن يكون عندهم ألفين نفر خيّالة وزلم عسكر مقيمين تحت طلبه إلى أيّ وقت لزم للوزير، فأبى المشايخ المذكورين ذلك ولم يقبلوا احتساباً من الغدر».

«ثم بعد جملة مراجعات، أرسلوا (المشايخ) استشاروا الأمير بشير الشهابي حيث كانت محبّة زايدة عظيمة، وكان الأمير يروم قيام صالح المذكورين، فأشار بقوله أن الوزير قد خاصم دولة والي دمشق خصاماً طويلاً واحتياجه إليهم طويل. ورأى أن ذلك صالح لهم أن يرجع لهم حكم بلادهم كما كان في أيام آبائهم ويصير لهم الأمر والنهي وترتفع يد المتسلمين عن رعاياهم وأهل بلادهم، فأرسلوا الحاج حسن شيت الذي كان بمقام كاخية عند الشيخ فارس الناصيف إلى عبد الله باشا يطلبون منه ما أمر به وأن يحرّر لهم صكا بعدم التغيير بما وعد.

فحرّر لهم الباشا أن لا يقع معهم في الزمان انتقاض ووجه لهم الخلع كما كانت عادة آبائهم من والي صيدا في قديم الزمان، وابتدأ أولئك المشايخ يهتمّون في تدبير خيل وسلاح ويعيّنوا أناساً من بلادهم حسب ما أمرهم عبد الله باشا

وأعطاهم أيضاً بلاد مرجعيون، وربط عليهم مالاً معيّناً كما كان على أيام المتسلّمين[1].

توطّدت علاقة العامليين بعبد الله باشا بعد الإتفاق الأخير، ولعب متاولة جبل عامل دوراً مهماً في الإنتصار الذي أحرزه على درويش باشا والي دمشق، والذي أثار غضب أسطمبول، وأرغم الأمير بشير على الهرب إلى مصر وعبد الله باشا على الإحتماء خلف أسوار عكا حتى توسّط لهما محمد علي باشا وتمكّن من الحصول على عفو عن الوالي والأمير مقابل مبالغ باهظة أراد عبد الله باشا جبايتها من أنحاء ولايته بما فيها مقاطعات الشيخ فارس.

رفض فارس الخضوع لطلبات الباشا المتزايدة فاستدعاه إلى عكا وقبض عليه ولم يفرج عنه إلاّ مقابل مبلغ ضخم كما أشارت القنصلية الفرنسية في بيروت في أحد تقاريرها.

وتوفي الشيخ فارس عند عودته إلى قصره سنة 1824م متأثراً بالسم الذي دسه له الباشا أثناء إقامته عنده فكانت نهايته على يد العثمانيين مثل أبيه والكثيرين من النابهين من قومه[2].

وهكذا انتهت مرحلة أخرى من تاريخ جبل عامل بموت الشيخ فارس الناصيف وبدأت مرحلة أخرى تحت سلطة إبراهيم باشا بعد سقوط بلاد الشام في يد القائد العسكري المصري الزاحف.

(1) الشهابي، القسم الثالث، ص 710.
(2) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسيّة، محفظة رقم 8، تاريخ 8 تشرين أول 1924م عن الأمين ص 334.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل السادس

الحكم المصري في جبل عامل

حاول إبراهيم باشا بعد أن طرد العثمانيين وأحكم سيطرته العسكرية التامّة على بلاد الشام، إرساء قواعد إدارية عامّة تهدف إلى إقامة دولة مركزيّة عصريّة، على الطريقة الأوروبية والقضاء على النظام الإقطاعي السائد، وانتزاع السلطة السياسيّة من الزعماء المحليين، وإحلال مؤسّسات مكانها تتولّى إدارة الأمور العامّة تحت إشراف مباشر من الحكمدار المصري، المعيّن في دمشق محمد شريف باشا. فرأت الإدارة الجديدة أن تلحق جبل عامل بجبل لبنان الذي أُبقي تحت حكم الأمير بشير الثاني مع ارتباطه بالحكمدار في دمشق. وكان الأمير بشير يعتبر نفسه حليفاً للمصريين بينما عاملوه في الواقع كأحد عمّالهم[1].

ولّى الأمير الشهابي ولده مجيد، على مقاطعات جبل عامل، وكان شاباً جاهلاً عديم الخبرة أساء معاملة الأهلين وأرهقهم بالعسف والظلم وساق المئات منهم إلى السجون فنفر منه الناس وعمّت النقمة على الحكم الجديد وبدأ التململ ينذر بتحرّك وشيك.

فرضت ضرورات الحرب مع العثمانيين وتدخّل الدول الأوروبية بنشاطها وقناصلها ومعتمديها في تأليب الناس على المصريين أن يعتمدوا سياسة متشدّدة تجاه الأهلين، ويلجأوا إلى إجراءات استثنائية وصارمة لمعالجة الموقف الدقيق فبدأت ملامح التمرّد والثورة تظهر في سائر المناطق.

إن أسباباً عامة أثارت الإستياء في جميع أنحاء سوريا دفعت الناس إلى الوقوف إلى جانب العثمانيين في هذا الصراع، كما أن هناك أسباباً خاصة بالعامليين زادت في

---

(1) لم يكن موقع الأمير بشير في الدولة المصرية كما كان قبل سيطرتها، فلم يعد في ظلها أكثر من متسلم محلي تحت سلطة الحكمدار المصري.

نفورهم من الحكم المصري ودفعت الشعور التقليدي المعادي للعثمانيين إلى أن يتراجع وعوامل الثورة والعصيان أن تترسخ وتتفاقم ضد السلطة الجديدة.

أجبرت حاجات الحرب ومتطلّباتها الإدارة المصريّة على اللجوء إلى تدابير قاسية ومجحفة لم يألفها الناس ولم يتقبّلوها ومنها التجنيد الإجباري، لسدّ النقص في الأعداد المطلوبة سواء للجبهة الدائمة الإشتعال مع العثمانيين أو لقمع الفتن والثورات المتلاحقة في داخل البلاد، فكانت العملية تتمّ بما يشبه إقتناص الشباب في سن الجندية من أماكن مرورهم أو تجمّعهم أو سكنهم وإرسالهم قسراً إلى حروب، لا شأن لهم بها.

أثارت الاضطرابات المتكرّرة في أماكن متعدّدة من البلاد والهادفة إلى التخلّص من حكم المصريين وتدابيرهم عزم الحكومة على نزع السلاح الموجود في أيدي الناس، ليسهل إجبارهم على الخضوع لأوامرها وعدم القدرة على العصيان أو الثورة، الأمر الذي زاد من النقمة والغضب، خصوصاً أن حيازة السلاح هو تقليد متوارث وعادة متأصّلة، ليس من السهل القضاء عليها في جميع بلاد الشام كما أن الحاجات الحربيّة تتطلّب أموالاً باهظة، وانشاءات متنوّعة عمدت السلطات إلى محاولة تأمينها عن طريق زيادة الضرائب، حتى وصلت إلى ثلاثة أضعاف قيمتها القديمة. كما لجأت إلى تطبيق نظام السخرة والمصادرة ففرضت على الأهالي وحيواناتهم ووسائل النقل التي يملكونها أعباءً زادت من تذمّرهم، واستيائهم، وبالتالي دفعتهم إلى الثورة. فقد تناولت السخرة الرجال والنساء كما تناولت العمّال والفلاحين وكل صاحب صنعة حتى شعر أهالي البلاد المحتلّة بأنهم مهدّدون ومضطهدون على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم ومناطقهم، فقامت حركة تمرّد عامة في جبل لبنان وبعلبك والشوف وجبل عامل وصور وحوران وفلسطين وغيرها من أنحاء البلاد وتداعى الناس إلى الإنتفاض على الحكم المصري والثورة عليه ومواجهة عساكره.

كان للعامليين بالإضافة إلى كلّ هذه الأسباب، التي يتشاركون فيها مع غيرهم في المعاناة منها والسخط عليها، دوافع أخرى خاصة بهم، فقد فقدوا مرّة أخرى ما يتمتعون به من استقلالية في شؤونهم الخاصة، وأخضعوا للحكم الشهابي الذي يحتفظون عنه بأسوأ الذكريات، والذي أعاد إلى أذهانهم صراع الأيام الغابرة، وما رافقها من غارات ودماء ودمار، بالإضافة إلى الأحقاد المتغلغلة في النفوس بين زعماء البلدين والتي لم يكن من السهل تجاوزها أو تناسيها[1].

(1) كان ذلك أول مرة يتحالف فيها العامليون مع العثمانيين في تاريخهم، التاريخ العسكري الجزء الثاني، سويد ص 520.

«كانت سياسة المصريين في جبل عامل أو مع الشيعة على الإطلاق غيرها في بقية البلدان التي شملها عدلهم وعمَّ أنحاء سوريا، ولم يظهر له أثر في بلاد الشيعة. لقد صوّرها الشهابيون في عيون المصريين بلاداً ثائرة، وشعباً متمرّداً يجب أن يحكم بالشدّة والبطش، فصبّوا عليها غضبهم، ونكلوا بالزعماء والأعيان وزجّوا معظمهم في أعماق السجون»[1].

مهما كان في هذا القول من مبالغة أو تحامل فإن طرد الحكام المحليين من جبل عامل، وإخضاعه بالعنف لحكم الشهابيين، وحده كاف لإثارة النفور في النفوس، وإيجاد المناخ الملائم لقيام ثورة عامّة عند أول دعوة مناسبة.

عندما خلف سليمان باشا سلفه الجزّار في ولاية عكا، كان العامليون يقومون بحرب عصابات ضد الدولة العثمانيّة بقيادة زعيمهم الشيخ فارس بن ناصيف النصار، فاضطر سليمان إلى عقد اتفاق معهم، اعترف لهم فيه بنوع من الحكم الذاتي، في جبل عامل الأمر الذي قاتلوا من أجله طيلة حكم الجزّار، وبقي الإتفاق قائماً حتى ولاية عبد الله باشا على عكا، حيث عقد معهم اتفاقاً جديداً سنة 1821م أعاد إليهم بموجبهِ حكم بلادهم كما كان قبل الجزّار، وظلّ هذا الإتفاق سارياً حتى وصول إبراهيم باشا إلى بلاد الشام 1832م فأدخل جبل عامل في حكمه وألحقه بالإمارة الشهابية[2].

مات الشيخ فارس الناصيف وبقي عبد الله باشا في ولايته حتى وصول إبراهيم باشا غازياً، فكان من الطبيعي أن يقف العامليون إلى جانب الوالي الذي قاتلوا معه في معارك المزة وجسر بنات يعقوب، وأبرم معهم الإتفاق الشهير الذي أعاد إليهم كامل امتيازاتهم السابقة واستقلاليتهم الأثيرة وأضاف إلى ذلك منافع أخرى، بينما عدوّه إبراهيم باشا هو حليف الشهابي الطامع والعاجز عن حكم جبل عامل لولا الإحتلال المصري.

بعد موت الشيخ فارس الناصيف، أصبح حمد الإبن الأكبر لشقيق ناصيف والفارس الشهير المتوفي سنة 1779م محمود النصار، هو المقدم بين آله، نظراً لسنّه الذي يزيد حتماً عن أربعة وخمسين عاماً مرّت على موت والده، وربما أكثر من ذلك عملاً بالقاعدة القديمة التي تقضي بأن يتولى الرئاسة الأكبر سناً. فلما حاصر إبراهيم باشا عكا جمع حمد الذي سيعرف بلقب البيك، وهو أول من حمله من العشائر، جيشاً وافراً وقاتل مع

(1) محمد جابر آل صفا، م. م.، ص 150.
(2) لبنان في تاريخه وتراثه، ص 330.

المحاصرين في معركة «البهجة» خارج عكا حتى وقعت الهزيمة على الجيش العثماني، بعد أن سقط من جنده مائتان وأربعون بين فارس وراجل.[1] ولما استولى إبراهيم باشا على بلاد بشارة هرب حمد إلى دمشق حيث ترك عائلته وجهّز جيشاً شارك في معارك حمص، ونزب حتى بلغ قونيه فلما إنهارت مقاومة العثمانيين وأسر رشيد باشا عاد إلى بلاد الشام، وأقام في الزبداني بعد أن صادرت الحكومة الجديدة أملاكه ولم ترجعها إليه إلاّ قبل رحيلها بثلاث سنوات[2].

كان من نتيجة انتصار إبراهيم باشا على العثمانيين، أن خضع جبل عامل لحكم الأمير بشير الشهابي في ظلّ الإدارة المصريّة الجديدة في دمشق، فأرسل الأمير الشهابي ولده مجيداً لإدارة مقاطعاته وكان شاباً غرّاً لم تحنّكه التجارب فأعتمد الشدّة والعنف في إدارة البلاد، واحتقر العلماء والأعيان، فكان في محبسه في صور زهاء الألف رجل،[3] كما قرّب بشير منه أحد المشايخ الموالين الذي اختار مناصرة المصريين، فعهدوا إليه بزعامة العشائر، واعتمدوا عليه في القيام بمهمّات مختلفة في جبل عامل ودمشق، فكان الوحيد الذي ناصرهم من آل نصار، وقدّم إليهم خدمات عديدة في ملاحقة المتمرّدين وتثبيت نفوذهم في البلاد وهو حسين السلمان حفيد عباس المحمد وصديق الأمير بشير[4].

ثورة حسين الشبيب

لم يخضع جبل عامل للحكم المصري الشهابي طوعاً، فسرعان ما أعلن حسين الشبيب حفيد ناصيف وابن شقيق فارس الثورة في أوائل تشرين الثاني 1839م، وطالب برفع يد المتسلّمين عن بلاده وإعادة الحكم إليه كما كان الحال في عهد عمّه ووالده[5].

تفتقر المصادر العاملية إلى تفاصيل وافية عن هذه الثورة، التي يبدو من مراجعة

(1) جبل عامل في التاريخ، الفقيه، ص 180.
(2) العقد المنضد، الأسعد، ص 38.
(3) آل صفا، ص 58.
(4) اتهمه بعض خصومه بالتنصر وهو زعم باطل.
(5) بشير بين السلطان والعزيز أسد رستم، ج 2، ص 172. توهّم محمد جابر آل صفا أنه من الصعبيين (ص 148) كما توهّم أسد رستم أنه ابن فارس الناصيف والواقع انه ابن شبيب الناصيف شقيق فارس والمتوفي في شحور سنة 1220هـ ـ 1805م (أعيان الشيعة الأمين ج 11، ص 337, والركيني ص 30)

وثائق الحكومة المصريّة، أهمّيتها وانتشارها، وصعوبة القضاء عليها، حيث تطلّبت حملات عسكرية متكرّرة، وجهوداً أمنية وإستخبارية لافتة، ومداولات على أعلى مستوى إداري وسياسي في صيدا ودمشق والقاهرة، وقد غفلت هذه المصادر عن معظم أحداثها وحتى عن شخصيّة قائدها ونسبه، فقد توهّم الكثير من المؤرّخين العامليين أنه من الأسرة الصعبية، بينما هو في الواقع حسين الشبيب الناصيف النصار ابن شقيق الشيخ فارس الناصيف شيخ مشايخ جبل عامل، ورئيس عشائرها لا ولده كما توهّم آخرون وكما توحي بعض الوثائق المصريّة الرسميّة[1].

أورد أسد رستم أحداث ثورة حسين شبيب مستنداً إلى وثائق المحفوظات الملكيّة المصيريّة فذكر «انه في أوائل تشرين الثاني من السنة 1893م، رفع الشيخ حسين شبيب لواء الثورة في بلاد بشارة من أعمال لبنان الجنوبي، مطالباً برفع المتسلّمين من بلاده، وإعادة الحكم إليه كما كانت الحالة في عهد والده، متعهّداً بدفع الأموال وتقديم الغلال وبصيانة الأمن والعدل في ظلّ الحكومة المصريّة. وجمع حوله نحواً من ستماية نفر أربعماية وخمسون مسلّحون بالبنادق ومئة وخمسون بسلاح بسيط كالفرد والطبنجة والخنجر واليطلقان والعصي. وحضر إليه جماعة من بلاد بعلبك من رجال الأمير خنجر الحرفوش يعدونه بالمعونة. ولدى وصول هؤلاء قويت براعته وصار يتلفّظ بأقوال خارجة عن الطريقة بقوله إذا كان لا يجاب إلى سؤاله فإنه سيزداد شقاوة حتى يسري ضرره إلى النواحي الموجود بها». فأوعز إبراهيم باشا إلى محمد شريف باشا أن يطلب معونة الشهابي الكبير أمير لبنان، ومعونة مدير أيالة صيدا الشيخ محمود عبد الهادي. فأرسل الشهابي حفيده الأمير مجيد على رأس قوّة صغيرة مؤلّفة من خمسماية رجل. فقام إلى النبطية ومنها إلى ميس، فيارون، حيث أحتك بالشيخ حسين وأكرهه على الفرار إلى الوعر.

تعطلت مصالح بلاد بشارة بسبب ثورة حسين الشبيب، وتوالت المراسلات بين مختلف القادة العسكريين والإداريين، حول سبل القضاء عليها، والقوّات العسكريّة القادرة عل هذه المهمّة. فأرسل محمد شريف باشا إلى القائد العام إبراهيم باشا في 5 رمضان 1255 هـ «كنت بلغت أعتابكم السامية في عريضتي المكتوبة في 23 من شعبان أن بقية فرسان عبدكم «أحمد آغا الدارنه لي قد ذهبوا عند مدير صيدا لأجل تدمير الشقي الذي يقال له حسين شبيب، واستأذنت في إرسال عبدكم الأمير مجيد وأنفار الجبل الذين معه

(1) أسد رستم، م. م.، ص 172.

وانتدابهم لتلك المهمّة إذا وافقت عليه إرادة دولتكم، ولقد جاء من عبدكم مدير، ايالة صيدا كتاب يقول فيه أن الأشقياء الملتفين حول الشقي المذكور قد بلغ عددهم حتى الآن مائة وخمسة وثلاثين شخصاً، وإن الخيالة لا يصلحون لقتالهم إذ إنهم مقيمون بأرض ذات حجارة، وأن مصالح بلاد بشارة قد تعطّلت بسبب أولئك الأشقياء، ويلتمس إرسال الجنود السكبانية وقد قال يوسف قرداحي في الكتاب الذي أرسله من صيدا إلى عبدكم بحري بك، إن مصالح بلاد بشارة قد تعطّلت بسبب شقاوة الشقي المذكور أما العساكر السكبانية الموجودين لدينا فإن أكثرهم أتوا من جبل عجلون قبل أيام، كما أن الذين قدموا من قبل، باتوا متعبين وقد مرض أكثرهم فضلاً عن عدم معرفتهم ببلاد بشارة، وأما الأمير مجيد وأنفار الجبل فهم خبيرون بتلك الديار وقد رأينا أن نرسله في خمسمائة جندي إلى تلك الجهة مسرعين ليقضوا على مفاسد ذلك الشقي فأرسلناه إلى بلاد بشارة في خمسمائة رجل هذا ما كتبناه ليحاط بعلم دولتكم والأمر لمولانا فيه وفي كلّ شأن.[1] كتب إبراهيم باشا على ظهر هذه الوثيقة العبارة الآتية «أكتب إلى الأمير بشير يرسل مائتي فارس ولا تنظر أنت إلى تعب السكبانية وأرسل طائفة منهم ثم أرسل الباقين فإنه لا ينظر في مثل هذه الأيام إلى موت الرجال فكيف إلى تعبهم[2].

ويبدو في رسالة ثانية من محمد شريف إلى قائده أن هذه التدابير لم تؤدِّ إلى النتيجة المطلوبة وقد ازدادت الثورة حدّة، وأخذ حسين والأشقياء الذين معه يفسدون في تلك الديار.

كما وأن استعمال فئات من الشيعة والإستعانة بهم للقضاء على الثورة قد فشلت أيضاً «كتبنا إلى عبدكم الأمير بشير بأن يلزم مشايخ المتاولة الذين بإقليم الشومر تدميرهم وأن يساعدهم عند الحاجة، إلا أننا لم نقتطف ثمرة من ذلك»، ويقترح في النهاية بعد أن يبدي شكوكه في إمكانية نجاح فرسان أحمد آغا في مهمتهم. إرسال الأمير مجيد مع خمسماية منتخبين من جنوده للقضاء على الثورة.

يتضح من متابعة المراسلات المتعلّقة بهذه الثورة، أن مفاوضات جرت بين الإدارة المصريّة ممثّلة بمدير إيالة صيدا محمود عبد الهادي، وبين موفدين من زعيم الثورة استغلّها المدير لخداع الثائرين والتجسّس على أحوالهم، كما يقول ذلك صراحة في كتابه إلى محمد شريف باشا، يذكر له تطوّرات هذا الموضوع، وما أفاده به جواسيسه

(1) المحفوظات الملكيّة الرسميّة، أسد رستم، المجلّد الرابع ص 257 محفظة رقم 6092.
(2) المصدر السابق، ص 258.

الذين أرسلهم إلى معسكر الثوّار بحجّة التفاوض، وكيف بدأ شيعة البقاع يفدون للمساعدة، ويلتحقون بالمقاتلين، وينقلون رسائل الثائر الشيعي الآخر الأمير خنجر الحرفوش، وفي هذه الرسالة عرض مسهب بجميع أوضاع هذه الحركة والجهود المصريّة ـ الشهابيّة للقضاء عليها.

«أعرض لدولتكم بخصوص الشقي حسين الشبيب ومن معه انعمتم على عبدكم بأنه صدر أمر دولتكم بإرسال الأمير مجيد الشهابي وصحبته، من عسكر الجبل ما ينيف على خمسماية نفر، ومقداره ستون خيال باشبوزق. أكراد وأتراك لضرب الشقي المذكور ومن معه وتنكيلهم وأمرتهم بإجراء المساعدة مع الأمير المومى إليه، ونعرض لسعادتكم عما يتمّ معهم بأوقاته وحسبما أمرتوه ورسمتوه صار قرين اذعان عبدكم فنعرض لسعادتكم انه بتاريخ 17 الحاضر إذ كنت عبدكم موجود بقرية طرشيحا من أعمال الجبل لإنجاز مطلوب الميري ففي تلك الليلة الساعة أربعة من الليل حضر لطرف عبدكم الشيخ سعيد عبد العال وبيده تحرير وارد له من الشقي المرقوم وضمنه تحرير لعبدكم، وعند مطالعته وجد يلتمس الامان من الطرف الأشرف السرعسكري بحيث يصير رفع متسلمين بلاد بشارة والشقيف وجباع وهو يقوم بها بالخدمات المرضية ما عدا النظام، ويكون الأمان على دمه وسلاحه والذي يخصه ولا يدخل البلاد غريب ومظهر الميل لدخوله تحت نير الإطاعة فبوقته عبدكم عجبت من سخافة عقله بتطلّباته الخارجة عن الطريقة ولاح لعبدكم لربما المذكور ملتمس هكذا أشياء أملاً للحصول على الأمان فقط حيث محقق عند الجميع سطوة سيف دايم السعادة المعظم خصوصاً على من هو نظير هذا الخبيث الخاسر فبالحال عبدكم حرّرت له جواب نصيحة وطمّناه للاستجلاب وأملته بإحسانات ولي النعم. وعرفته إذا كان لا يمكن إلاّ بالأمان من طرف دولته يفيدنا لكي نسترحم بطلب الأمان وبالاستحسان صار إرسال الجواب المذكور صحبة الشيخ أحمد مفتي الفايسية وأحد خيّالة الميري مع المعتمدين الواردين من طرفه بالمكاتيب وجلّ المقصود بإرسال المعتمدين هو لأجل الإطلاع على حاله ومقدار الأشقياء الموجودين معه وكيفية أمره وقد تنبّه عليهم أن يتجسّسوا عن فعل المرقوم وكيفيّة منشأ هذا الفساد والتعصّب الحاصل منه ومقدار الأشقياء الموجودين معه، ويحضروا يفيدوا عبدكم. فالآن حضر المعتمد والخيّال وبيدهم الجواب منه، ومن مطالعته وجد تطلّبه نظير الأوّل وقرّروا أيضاً أنهم قد شاهدوا الأشقياء الموجودين معه فوجدوهم

يبلغوا مقدار ستمائة نفر، منهم أربعمائة وخمسين نفر بالبندق، ومقدار مائة وخمسين نفر من غير سلاح فقط مع الواحد منهم مثل فرد طبنجة وخنجر ويطقان والبعض بالعصي، وانه بتلك الساعة التي كانوا بها عنده حضر لعنده سبعة عشر مسلّحين من نواحي بعلبك ومعهم مكتوب له من الأمير خنجر من تعلّقات الشقي الأمير جهجاه يخبره انه مسك شبلي العريان بأطراف حماه وعلّقه على عود وان المعتمدين المذكورين قد اطلعوا على المكتوب المذكور وشاهدوه عياناً كما وحضر لعنده واحد شقي يسمّى درويش بعلبكي من بعلبك ومعه كام نفر وانه من هذا الوجه صاير للمذكور جسارة على ارتكاب الفساد، وقرروا المعتمدين أيضا ان المذكور بالإبتدا كان منتسب معهم بالكلام فعند حضور المكتوب له مع أنفار بعلبك المتقدّم الشرح عنهم قويت براعته، وصار يتلفّظ بأقوال خارجة عن الطريقة بقوله إذا كان لم يجاب لسؤاله وإلاّ يزداد شقاوة حتى يسري ضرره على النواحي الموجود بها الآن وخلافها، فاقتضى الأعراض للأعتاب السنيّة السرّعسكريّة بهذا الخصوص وعن صدور أمر سعادتكم بإرسال الأمير مجيد الشهابي لضرب الشقي المذكور ومن معه وتنكيلهم وبحوله تعالى وحسن توجهات الأنظار الشريفة من يوقع هذا الخاسر ومن معه باليد ويجازوا مقابلة فعلهم والذي يتمّ من أمر ذلك نقدّم الأعراض لدولتكم عنه بأوقاته طبق مفاد الأمر الكريم أفندم»[1].

عاد الجواسيس المصريون ومعهم بالإضافة إلى ما حصلوا عليه من معلومات، رسالة من حسين يعرض فيها مطاليبه وشروطه على محمد علي باشا نفسه في 19 رمضان 1255هـ وجاء فيها:

«سلطانم رفيع الجناب، فسيح الرحاب، حميد المزايا، كريم الشيم، أفندم المعظم أدام الله تعالى وجوده الشريفة، المعروض إلى أعتاب دولتكم، تشرفنا بأمركم الكريم فحواه السامي يشير بما فاضت به مراحم دولتكم من الأمان ورأى من الطرف الأشرف أفندينا السرعسكر المعظّم ويكون الأمان على جميع ما حصل منا من دم ومال وغيره، والأمان لنا وإلى كلّ من يختص بنا على الدم والمال والسلاح، ثانياً بإعطاء الثلاث مقاطعات عهدتنا والمعاش الذي كان بيدنا سابقاً، وإعطاء المقاطعات عهدتنا حسب شرطنامات السالفة كأيام والدنا المرحوم الشيخ فارس الناصيف، ورفع المتسلمين والمعاش الذي كان بيد المرحوم فوق معاشنا استحق، يقيم بحالنا وحال

(1) المصدر نفسه ص 270 ـ 269 محفظة رقم 6103.

أتباعنا وإني متعهّد على موجب الأعراض الذي تقدّم مني سابق بدفع الأموال والغلال، بحيث أن لا يدخل إلى البلاد أحد غيري، ومتعهّد بكلّ ضغط يحصل في الطرقات وغيره مما هو ضد رضى هذه الدولة السعيدة، وأني لا أواجه دولة أبداً حيث رأينا الذين واجهوا كيف جرى بحالهم، وأما المطاليب من مال وأغلال فانا متعهّد بنجازها ودفعها تمام فهذا ما وجب اقتضى إعراضه لدولتكم أفندم»[1].

طلب قائد الثورة من محمد علي باشا في هذه الرسالة الطلبات الآتية:

1 ـ الأمان له ولمن سار معه على الدم والمال والسلاح.

2 ـ إعادة المقاطعات الثلاث إلى حكمه كما كانت أيام الشيخ فارس الناصيف وراتب له ولمن معه.

3 ـ لا يدخل البلاد أحد غيره، ويفهم من ذلك أن يستقلّ بحكم جبل عامل دون أن تدخله قوة إداريّة أو عسكريّة أخرى.

4 ـ يتعهّد مقابل ذلك بدفع الأموال والغلال المفروضة وتأمين الأمن والطرقات.

صدر أمر سرعسكري إلى محمد شريف باشا مؤرّخ في 3 رمضان 1255هـ أي أن تاريخه سابق لتاريخ المفاوضات مع حسين ورسالته إلى محمد علي، يؤكّد أن القيادة المصرية كانت تخادع وتماطل وتجهّز العساكر في الوقت الذي كان معتمدها يفاوض في بلاد بشارة، ويغري الثوّار بوعود كاذبة. يتضمّن هذا الأمر موافقة القيادة العليا على إرسال الأمير مجيد ورجاله إلى بلاد بشارة لتأديب حسين شبيب ومرفق به أمر آخر من إبراهيم باشا بوجوب عدم الالتفات إلى راحة الجنود السكبان وفرز المرضى منهم وإرسال الأصحاء للتنكيل بالشقي حسين شبيب مؤرخ في 12 رمضان من العام نفسه».

وفي 16 رمضان أرسل مجيد كتاباً إلى محمد شريف باشا رفعه إلى إبراهيم باشا وفيه يذكر انه ضرب الشقي حسين شبيب وشتّت شمله واضطره إلى الفرار وأنه جاد في أثَرِه لإلقاء القبض عليه.

ويفيد تقرير مجيد الشهابي أن المعركة الفاصلة جرت في الجبال المجاورة ليارون وكان مع حسين مايتان من رجاله وقع منهم أسير واحد ولم يذكر عدد القتلى.

بعد أن تبيّن ان المفاوضات هي خدعة للإطباق على الثوّار، وتسهيل مهمّة مجيد وغيره

---

(1) المصدر السابق، ص 271.

من القوّاد المصريين، كسليمان باشا وأحمد أغا، في القضاء عليهم واجه الثائرون هذه الحملة وانسحبوا بعد قتال عنيف بينما بارح حسين البلاد مع أخيه محمد وحفنة من أنصاره المخلصين إلى حوران وأرباض دمشق[1].

«**اتصل خبرهم بشريف باشا المصري والي الشام بوشاية أحد مشايخ الدروز[2] فأرسل عليهم فرقة من عسكره أحاطت بهم في منزل كانوا فيه. وكان حسين بك الشبيب مريضاً مدنفاً فأوعز لأخيه علي بك، أن ينجو بنفسه فخرج من الدار وبيده سلاحه يهدّد بالموت كلّ من يدنو منه، فأخترق صفوف الجند، وهم لا يعرفونه يتبعه جماعة من رجاله فيهم نصر الله نعنوع من المروانية وأيوب عليق ونصر الله زهنون من يحمر. ودخل الجند البيت فكان من السهل القبض علي حسين بك لشدّة مرضه، وبقي معه جماعة من رجاله وبينهم شاب وافر المروءة يدعى موسى قليط من قرية (ياطر) جنوبي جبل عامل. وسأل قائد الجند عن محمد علي بك بعد أن قبض علي حسين بك، وخشي موسى قليط أن يتعقّبوه فقال: أنا هو. وكان يشابهه شكلاً؛ فقبضوا عليه وساروا بهما إلى دمشق. فأمر شريف باشا بشنقهما. ونجا محمد علي بك بنفسه وعاش بعد هذه الحادثة 40 سنة**»، **دون أن يعود إلى بلاده خلالها**[3].

وهكذا وقع الثائر المقاتل بين يدي جلاّديه ومعه عشرة من أتباعه بعد قتال مستميت استمرّ ثلاث سنوات في 28 شوال. وسقط شهيد وائلي آخر، كما سقط الكثيرون قبله وهم يقاتلون جيشاً أجنبياً جاء ليخضع جبل عامل ويقضي على روح المقاومة عند أهله، فانتفض هذا الشيخ العاصي وقاوم بنجاح حتى يبقى جبله مستقلاً بيد بنيه الذين التفّوا حوله، وقاتلوا معه بالعصي والطبنجات جيشاً حديثاً عجزت جيوش الإمبراطوريّة العثمانيّة عن مواجهته. حتى أن الدولة عجزت أن تنقل مال صيدا والشقيف إلى عكا، إلاّ مع سليمان باشا قائد الجند الذاهب لتأديب حسين «**نظراً لتسلّط المذكور على المارّة والمسافرين**»[4] وقد ساندهُ العامليون وقاتلوا معه «**وكانت جميع مشايخ قرايا هذه الجهة تقدّم له مهما طلب**»[5].

(1) تاريخ جبل عامل، آل صفا، ص 148.
(2) المصدر السابق.
(3) محمد جابر آل صفا، ص 148.
(4) يقول مدير إيالة صيدا إن مصالح بلاد بشارة قد تعطّلت بسبب الثورة محفظة رقم 6092 ص 257.
(5) المصدر السابق. إن الوثائق المصرية الرسمية حول ثورة حسين الشبيب منقولة عن المحفوظات الملكيّة الرسميّة التي جمعها الدكتور أسد رستم المجلّد الرابع ص (280 ـ 250).

حمد المحمود

بقي حمد البيك مختفياً خارج جبل عامل طيلة الفترة التي أعقبت السيطرة المصريّة عليه، فإن سنّه المتقدّم وموقعه لا يسمحان له بقيادة الثورات الشعبيّة وحرب العصابات أو الاشتراك بها، لما تتطلّبه من كرّ وفرّ وتنقل في الأحراش والجبال، وربما قد ساهم بنفوذه واتصالاته، بدعم ومساندة ثورة ابن عمّه حسين من وراء الستار، أو أنه اقتنع بعقم التصدّي لقوّة طاغية كقوّة إبراهيم باشا، وانتظر الظروف السياسيّة المناسبة. فلما تبدّل الوضع الدولي وعزمت الدول الكبرى على التصدّي لمشاريع محمد علي، وانتقل الجيش العثماني من حالة التراجع والهزيمة والجمود التي كان فيها، إلى المبادرة والهجوم لاسترجاع البلاد التي انتزعت منه رأى حمد البيك، وهو الشيخ المجرب الحكيم أن الوقت حان لظهوره وعودته إلى الاشتراك في المقاومة والقتال، فرجع إلى بلاده وأعلن الثورة على المصريين وكانت أساطيل الحلفاء قد اقتربت من سواحل الشام والجيش العثماني يتجمّع في حلب فاصطدم بالأمير مجيد الشهابي عند جسر (القعقعية) وردّه على أعقابه، وانضمّ إلى الجيوش العثمانية التي وصلت إلى حمص وخاض معها معارك عدّة حتى عيّنته الدولة العثمانية حاكماً على جبل عامل، وشيخ مشايخ بلاد بشارة، وعهدت إليه بمطاردة الجيش المصري في الجنوب وأرسل إليه الجنرال العثماني جوقموش باشا قائد جيش الحلفاء الخطاب الآتي:

«إفتخار العشائر الكرام حضرة متسلّم بلاد بشارة بك عالي قدر حفظه الله. قبل تاريخه أصدرنا لجنابكم أوامر كافية بشأن سرعة توجّهكم نواحي صفد. ومن حيث وردت لنا أخبار الآن عن عزم إبراهيم باشا بالقيام من الشام والمرور من نواحي جسر بنات يعقوب اقتضى، والحالة هذه، إسراعنا بإصدار أمرنا تكراراً لجنابكم لكي بحال وصوله إليكم تقوموا حالاً بجميع خيلكم وزلمكم إلى صفد. ومتى بلغكم قدوم ابراهيم باشا سواءً كان من نواحي جسر بنات يعقوب أو من جسر الجامع، يلزم منكم بالحال والساعة تسرعوا بكامل جيوشكم لضربه، وتتبعوا آثاره أينما توجّه، وتبطشوا به وبالأكثر ليلاً. ولا نقبل لكم عذراً كلياً عن عدم قيامكم عاجلاً، حيث هذه آخر الوقعات. ونحن بحوله تعالى عازمين على القيام بالذات لصفد ولا يلزم زود تأكيد عن ذلك اعتمدوا أمرنا هذا والله تعالى يحفظكم»[1].

جهّز حمد بيك جيشاً من ثمانية آلاف مقاتل على نفقته الخاصة، وزحف به لقتال

(1) محمد جابر آل صفا، ص 151. وحمد البيك هو أول من لزمه هذا اللقب من حكام جبل عامل وشيوخه.

المصريين، وجرت بين الطرفين معارك عدّة أهمّها في وادي الحبيس في بلاد عكا، فأسر أربعماية وعشرين جندياً مصرياً. ثم هاجم صفد وانتزعها من المصريين، وعيّن أحد أخصائه حمد الغزي متسلّماً عليها، ثم دخل طبريا والناصرة وشفا عمرو وحرّر الأسرى من سجون عكا، وكان دائماً على تواصل وتنسيق مع القوات العثمانيّة وأسطولها وقواتها.

كما فعلوا دائماً مع أسلافه، رافق الشعراء بشعرهم مسيرة حمد البيك من معركة إلى أخرى، وأشادوا بمآثره ومناقبه وعدّدوا محاسنه ومفاخره، مما جعل من الممكن استخلاص أهمّ مراحل تاريخه والكثير من طباعه وسجاياه من خلال الشعر العاملي الذي تناول كلّ هذه الأمور بتفصيل، قد يغني عن التواريخ المكتوبة النادرة بعد تجريده مما يحتمله من مبالغة وخيال.

على اثر الدور العسكري الهام الذي ساهم فيه حمد البيك بقتال الجيش المصري انصرف إلى ممارسة مهام الحكم والسياسة، فآزر الدولة في محاولة التخلّص من الحكم الشهابي، واستمرّ يحكم مقاطعاته مستقلاً عن تدخّلات العثمانيين وبعيداً عن مضايقاتهم، وقد قدّروا له مساعدتهم في الحرب **فأغدقوا عليه الرتب حتى دنا من رتبة الوزارة، وأرسل له شاه إيران الهدايا والأنعام، وراسله كبار رجال الدولة معربين له عن تقديرهم ومودتهم** [1]. كما يتبيّن في الرسالة الآتية التي أرسلها إليه محمد باشا القبرصي وكان يومئذٍ مشيراً (لاوردو عربستان) وتولى بعدها منصب الصدارة العظمى:

«غب التحيّة الوفيّة والتسليمات البهيّة. أن بتاريخه ورد تحريركم الجالب السرور وحصل به كمال الأنس والحبور بما أفاده من نيلكم رتبة ـ مديرية إسطبل عامرة شاهانية بغاية الإحسانات العميمة الملوكانية. وفي الحقيقة إن ذلك من ثمرات شجرة صداقتكم المعهودة، ومكافأة لما قد أبرزتموه في خدمة الدولة من الغيرة المشهودة. بناء على تكرار تقديم الإنهاء من طرفنا بمسارعتكم لخدمة الدين والدولة وقت سوق الأردو الهمايوني لإنفاذ الإرادة السنيّة، وما أجريتموه حينئذ من الهمّة المخلصة الوفيّة، ومن كان مثلكم من عبيد الدولة العليّة المتصفين بالصدق والاستقامة يستحق فوق هذا من الرفعة والكرامة. فبعون عناية ذي القدرة الصمدانية، وولي نعمة العالم والبرية، لا تزالون مشمولين بالرضا السامي

(1) آل صفا، المرجع السابق، ص 150.

الملوكاني، حائزين الترقي وبلوغ الأماني، إلى أن نهنيكم برتبة الوزارة العظيمة المقدار في ظل صاحب الشوكة والاقتدار. والآن بناء عليه وخاصة لتهنئتكم بهذه المسرّة حرّرنا لكم شقّة المحبّة والخلوص فواصلونا بمشعرات صحتكم المرغوبة مع إفادة المهام المطلوبة ودمتم.

عن الشام في 11 ربيع أول سنة 1269هـ محل الختم

«كان حمد المحمود عالماً فاضلاً شاعراً حكيماً خبيراً بأحوال العالم والتواريخ القديمة وأنساب العرب كان من أهل العِلم والفضل أديباً قرأ على الشيخ حسن القبيسي في مدرسة الكوثرية.جدّد بناء قلعة تبنين بعد أن هدمها الجزّار، وأقام فيها»[1].

«زعيم جبل عامل حمد البيك أو حمد المحمود أنبغ[2] من أنجبت أسرته، كان فارساً مقداماً، وكان أديباً شاعراً تلقّى الحكم الإبراهيمي بأسى عميق فقد أفقده سلطته، وغدا ظلاً لا حول له ولا طول، رأى فشل ثورة ولدي عمّه فآثر الصبر ولما لاحت له الفرصة أغتنمها بجدارة»[3].

«في ساعات النصر يبرز الشعراء ملتفّين حول حمد مندفعين في تهنئته والإشادة بانتصاراته والتغنّي بأمجاد الجبل. وحمد إلى جانب مكانته، كان شاعراً فاجتمع للشعراء أمير تشوقه المدائح، وشاعر يفهم ما يقولون، وأمجاد مغرية بالمدح فالتقى في قصره مجموعة من الشعراء لم يلتقِ مثلها إلاّ في قصور الملوك السالفين، فهي حياة مصغّرة لسيف الدولة قد انبعثت في جبل عامل وإذا كانت مدائح شعراء سيف الدولة غير ممجوجة فكذلك هي مدائح حمد المحمود الوائلي وكما كان سيف الدولة شاعراً، كذلك كان حمد، وكما كان الأوّل فارساً مقداماً، كذلك كان الثاني، كان المال موفوراً واليد مبسوطة فازدهر الشعر ازدهاراً يعزّ مثيله، وشهد جبل عامل عصراً ذهبياً للشعر، وكانت تبنين قاعدة حكمه وفيها ملتقى وفادهم وكان قد جدّد بناء قلعتها، هذه القلعة التي شهدت أزهى أمجادها أيّام عمّه الشيخ ناصيف النصار وزالت عن مكانتها حتى أتاها حمد فأعلى بنيانها،

---

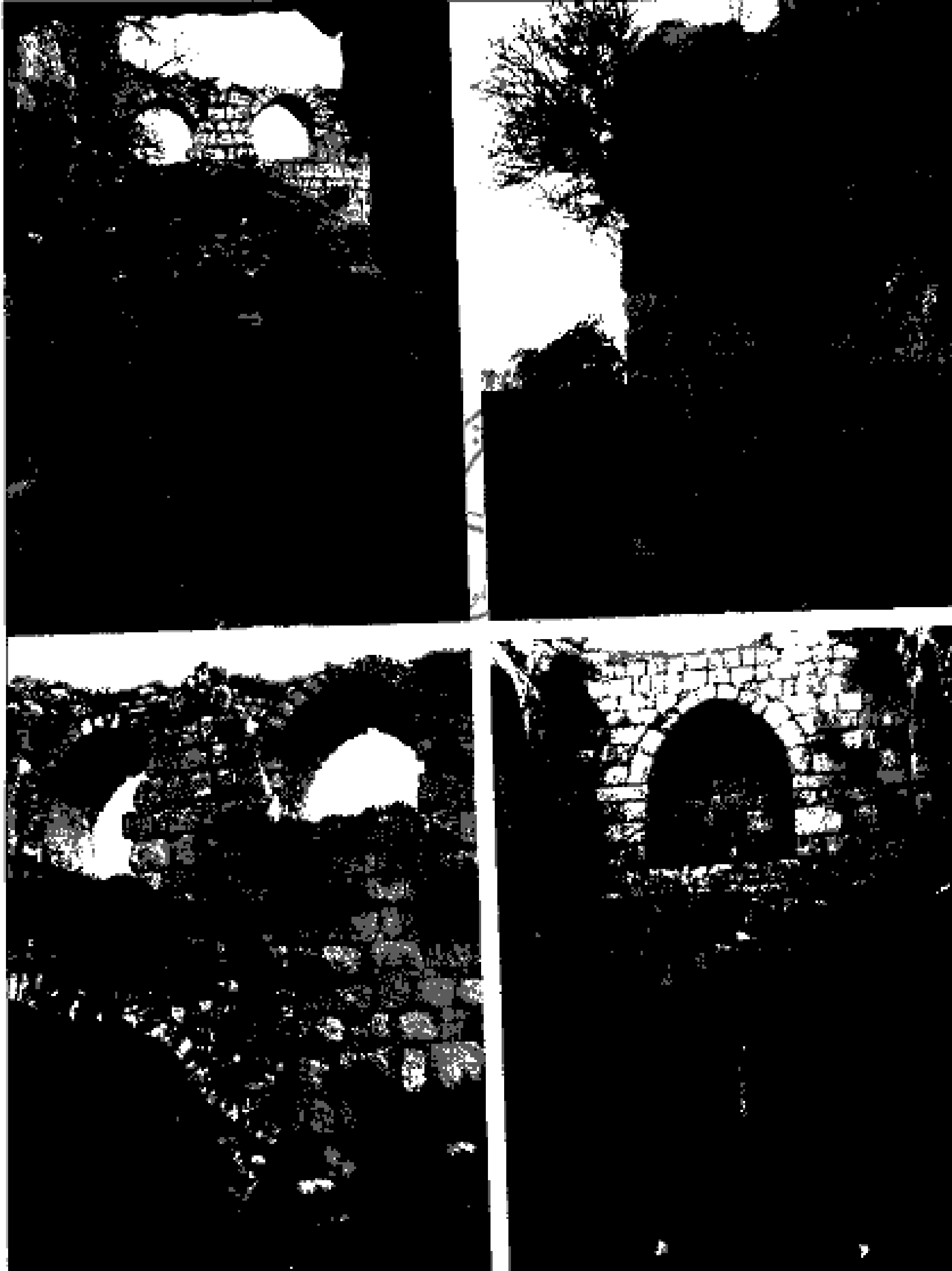
(1) المرجع السابق، ص 157 ـ 156.

(2) العقد المنضد الأسعد، ص 44.

(3) أعيان الشيعة محسن الأمين، ج 9، ص 508.

وأعاد رونقها وجعلها قصراً منيعاً هو أشبه ما يكون بالبلاط الملكي برجاله وشعرائه وبطشه واعتداده»[1].

توفي حمد البيك بدون عقب فخلفه في زعامة جبل عامل حفيد شقيقه علي بك أسعد المحمد يعاونه ابن عمّه محمد بك أسعد الخليل.



بقايا مقر حكام جبل عامل في تبنين

(1) حسن الأمين، عصر حمد المحمود، ص 49 ـ 48.

الفصل السابع

نهاية الحكم الوطني

علي بك الأسعد

نشأ في كنف عمّه ولازمه في منفاه في دمشق ثم في الزبداني واشترك معه في معاركه ضد إبراهيم باشا حتى وفاته، كان لقبه الرسمي في المراسلات الحكوميّة رئيس العشائر وشيخ مشايخ بلاد بشارة كأسلافه «**بلغ من العز والصولة ما لم يبلغه زعيم قبله من زعماء الشيعة، بعد الزعيم الأكبر ناصيف النصار، ويعدّ عصره عصر الشيعة الذهبي في العهد الأخير في جبل عامل، ساد فيه الأمن وزالت أهوال الحروب، وانصرف الناس إلى إستثمار الأرض وغرس الأشجار، فانتعشت اقتصاديّات البلاد ونمت الثروة، وكان للقطن والتبغ العاملي سوق رائجة في مصر وغيرها من البلدان، وارتفع شأن الطائفة فخطبت ودّها الطوائف**»[1].

مما لا شك فيه أن عهد علي بك في السياسة والرياسة والأدب، كان استمراراً لعهد عمّه حمد على اختلاف الظروف بين العهدين، **عهد الإنتقال من حكم المصريين والشهابيين إلى العودة لحكم الدولة العثمانيّة وما رافق ذلك من تطورات وملابسات**[2].

«زها في عهده العِلم والشعر والأدب وأنتشر حتى بين العوام والنساء فنبغ منهن عدد غير قليل من الأسرة الوائليّة أو من اللواتي نشأن في ظلّهن في قصور تبنين وكان هو نفسه أديباً ماهراً وشاعراً عبقرياً تتجلّى في شاعريته روح الشاعر العربي الفطري، أحاطه أهل الشعر والأدب من سائر الأقطار العربيّة وكان كرمه الأسطوري وما يروى عن سخائه وبذله، بالإضافة إلى تذوّقه الشعر، وتعلّقه بالأدب ما أطلق المواهب من

---

(1) آل صفا، ص 66.

(2) فصول من تاريخ الشيعة، الزين، ص 190.

عقالها، ودفع القرائح إلى غايتها ما أستمر طويلاً بعد عهده ولربما لا يزال حتى اليوم شيء وبقية من وهجه»[1].

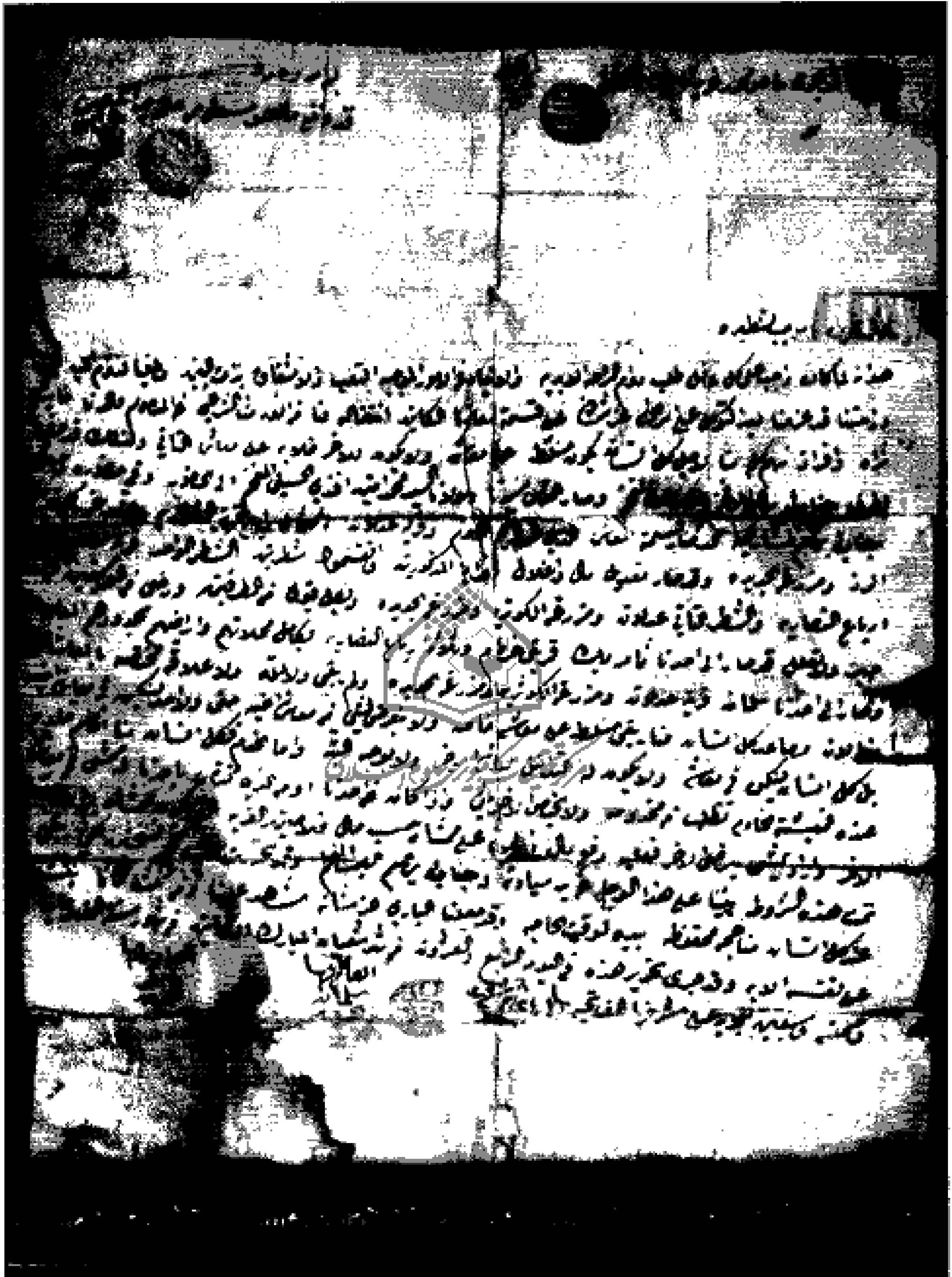
كما ازدهرت حوله وفي رعايته أهم المصادر التاريخيّة العامليّة، التي لا تزال تشكّل حتى اليوم نواة المحاولات الرائدة لكتابة التاريخ رغم تناقضها أحياناً وعدم شمولها، ومنها شرح الشيخ علي السبيتي لقصيدة من نظم علي بك عدد فيها مفاخر قومه ومآثر عشيرته وهو «الجوهر المجرّد في شرح قصيدة علي بك الأسعد» وتاريخ الشيخ علي مروه «جبل عامل في قرنين» وتاريخ محمد مغنية «جواهر الحكم» والشيوخ المؤرّخون الثلاثة ممن عاصروا علي بك وكانوا على صلة وثيقة به.

يقول السبيتي عن علي بك: **«راجت في وقته في تلك البلاد صناعة العِلم والأدب وكان الجميع يتسابقون لإحرازها والتردّي بردائها. وكثيراً ما كان له احترام للعلم وأربابه، واهتمام برفع قوّاده وتوسيع أبوابه، ولقد بنى في نفس قلعة تبنين السرايات العديدة والدور الكثيرة والدوائر للضيفان والحشم، وكانت تلك القصور تدهش العقول لما فيها من الرونق والعفش والرخام فضلاً عن إتقان البناء الذي أستحضر له أحسن وأشهر ذوي فن البناء وهندسته في ذلك الوقت**[2].

«أصبحت قصور تبنين محطّ الرحال، ومقصد الوفود، فبسط علي بك ومحمد بك نفوذهما على الأمصار المجاورة وأقاما علاقات ودّية مع أمراء البادية وشيوخ القبائل كآل المزيد ورؤساء بني حسن من عنزة وآل الحاسي رؤساء قبائل الهوارة والهنادي وولد علي[3].

امتدت فترة حكومة علي بك ومحمد بك ثلاثة عشر عاماً، لم تشهد كعهود أسلافهما كوارث وحروباً كثيرة، فقد كانت على العموم فترة استقرار وأمن وازدهار، رغم انه تخلّلتها حوادث 1860م الطائفيّة بين الدروز والموارنة، وقد وصلت ذيولها إلى بعض أطراف جبل عامل فاجتهد علي بك بماله ورجاله لعون المسيحيين، مع احتفاظه بعلاقات المودّة مع كبراء الدروز، ولما جاء الوزير فؤاد باشا لإخماد الفتنة اصطحبه معه إلى الشام وجبل لبنان بعد أن جنّد على نفقته ألف فارس من العامليين، وأوكل إليهم القيام بمهمّات أمنيّة في حوران وغوطه دمشق ووادي التيم وفي حاصبيا وراشيا، وقام

(1) جبل عامل في التاريخ الفقيه، ص 439.
(2) راجع جبل عامل في التاريخ الفقيه، 446 ـ 437.
(3) آل صفا، ص 159.



قسمة عقارات قرى الخرطوم وعدلون والنصيرية والكوثرية والجديدة بين الاخوين تامر وسلمان أولاد حسين السلمان في حضور علي بك الأسعد والسيد محمد أمين الحسيني في 24 شعبان 1275 هـ.

بنقل المسيحيين من هذه النواحي ومن جبل لبنان إلى المدن الساحليّة الآمنة كبيروت وصيدا وصور، كما آوى بعضهم بقلعة تبنين محلّه ومركز حكومته حفاظاً على سلامتهم فعيّنه فؤاد باشا مستشاراً في المجلس الأعلى الذي ألّفه للنظر في شؤون سوريا والتحقّق من الفتن التي حدثت فيها [1].

«بعد حوادث اقليم التفاح وقضاء جزين تحركت الخواطر في بلاد بشارة وفي بلاد عكا وصفد وطبريا. ولكن بكوات بيت علي الصغير منعوا حدوث ذلك في بلادهم وحالوا دون كل شر يقع على نصارى مقاطعتهم»[2].

وقد قامت بينه وبين الأمير عبد القادر الجزائري صاحب الدور الشهير في حماية مسيحيي دمشق مراسلات تدلّ على تعاون وتقدير في تنفيذ الغايات نفسها، كما يتضح من إحدى رسائله التي يطلب فيها اتصال المراسلة بينهما وينوه بالخدمات والهمة والغيرة التي ظهرت منه في أيام الفتنة [3].

كان علي بيك يعمد إلى معاجلة المهام التي يندب نفسه لها أو تكلّفه بها الدولة بالحسنى والروية واستعمال نفوذه الأدبي ومركزه القبلي والمعنوي في إنهاء الخلافات والمنازعات التي يسعى إلى إنهائها، فكان يعقد راية الصلح[4] وهي من خصائص أسرته وتقاليدها فتحقن الدماء، وتعيد الألفة بين القبائل المتحاربة والفئات المتناحرة، كما فعل في إحلال السلام بين عشائر الهوارة والهنادي عند خلافهم مع محمد سعيد شمدين، أمير الحاج الشامي بعد معركة «صفورية»، أو عندما أنهى النزاع القائم بين آل المزيد وآل الدوخي والتيان من زعماء الأعراب ورؤسائها، كذلك أنهى ثورة اسماعيل خير بك رئيس عشيرة المتاورة وجاء بالزعيم العلوي إلى مركز الإيالة لإنهاء تمرّده، كما حال محمد بك دون استفحال الصدام بين الدروز والمتاولة في حصار جباع[5].

ورغم كلّ ذلك لم يتمكّن علي بيك من تجنّب صراع طويل مع أحد أهمّ أبناء عشيرته تامر الحسين. وتعود جذور هذا الخلاف بين القريبين إلى العهد المصري، عندما كان حسين السلمان هو الزعيم العاملي الوحيد، الذي سالم المصريين عند احتلال ابراهيم

(1) العقد المنضد، ص 98.
(2) حسر اللثام عن نكبات الشام، شاهين مكاريوس ص 209 ط مصر 1895م.
(3) نص الرسالة في العقد المنضد، الأسعد، ص 155.
(4) من خصائص الزعامة التي تتمكّن بمقامها المعنوي من حقن الدماء بين المتقاتلين.
(5) آل صفا، ص 159.

باشا لسوريا، وكان صديقاً للأمير بشير الشهابي. فلما انفرد بموقفه الموالي للمصريين نصبه ابراهيم باشا شيخ مشايخ جبل عامل، في الوقت الذي اختار بنو عمّه جانب العثمانيين، وقاتلوا المصريين فلما انسحب المصريون عاد حمد البيك حاكماً عاماً وشيخاً على المشايخ فعيّن بصفته هذه ولده تامر الحسين مديراً على مقاطعتي هونين ومرجعيون، وكان الحاكم يقيم في قلعة هونين قبل أن يخربها الزلزال وينتقل حسين السلمان إلى بنت جبيل حيث عمّر داراً وسرايا وجعلها مقرا له.

كان تامر الحسين أكبر سناً من علي بك فاعتبر أن من حقّه أن يكون هو الحاكم العام وزعيم العشيرة، وأن تكون تبنين مركز حكومته مما أشعل نزاعاً بين القريبين استمرّ مدّة طويلة وسبّب مناوشات وصدامات بينهما كانت تنتهي عند تدخّل الوسطاء. إلى صلح لا يدوم طويلا.

سافر تامر إلى مصر بطريق البرّ سنة 1862م ترافقه حاشية كبيرة ونزل ضيفا على خديوي مصر سعيد باشا الذي أكرم وفادته مقدّراً موقف والده الموالي للأسرة العلوية، وقد طلب وساطة الخديوي لدى الباب العالي لمنحه حكومة جبل عامل ورئاسة العشائر مكان علي بيك لأنه أكبر زعماء العشائر سناً، ولأن المنصب كان لأبيه في عهد الحكومة المصريّة في بلاد الشام، لذلك سافر إلى الأستانة وحلّ ضيفاً على محمود نديم باشا الصدر الأعظم وهو الذي كان والياً على صيدا سنة 1855م وقدّم له هدايا ثمينة، ويبدو أنه عاد من الأستانه بقرار إعادته حاكماً على تبنين قاعدة جبل عامل مما جدّد النزاع مع علي بيك وعادت العلاقات بينهما إلى سابق عهدها وتنافرها، ولابد من الإفاضة في تفاصيل هذا الحادث، العابر في ظاهره، لو لم تتخذه السلطة مناسبة لإلغاء الحكم المحلّي في جبل عامل الذي استمرّ إلى نهاية وجودها.

عرض شبيب باشا الأسعد أسباب هذا الخلاف ونتائجه فقال:

«إن تامر الحسين السلمان العباس كان يدير حكومة جبل هونين ومرجعيون، وكان بها أبوه من قبله وقد نشأ بعض أسباب ودواعي أمالت والدي لتبديله لكونها كانت عليه وظيفة رئاسة العشائر وهو من بني عمومته وقد التمس هذا العزل والتبديل بتنصيب البطل النبيل محمد بك الأسعد الخليل، وهو أقرب إليه من تامر نسباً وأحبّ الناس لنفسه، وكان والدي شديد المحبّة له حتى أنه لا يفرّقه عن نفسه، ولما أقلق هذا الأمر تامر بك وأزعجه وضاعف حدّته المطبوع عليها ذهب للوالي وهو إذ ذاك محمد خورشيد باشا وبث ما في صدره، وإذا به حرّك من الوالي شيئاً كان يجده في نفسه من غرض

سابق عندما كان في زمرة الهيئة التي كانت بجمعيّة فؤاد باشا بحادثة سوريا، وكان بينه وبين والدي عدم تودّد وهو رجل حقود، وبالتصادف أن الوالي كان على إزماع التوجّه لجهات عكا لتسوية بعض خلل كان واقعاً بإدارتها، فقام من مركز الولاية وحرّر لوالدي أن يقابله في صيدا وأن يكون معه محمد بك فوافاه هناك، ولدى مقابلته أولاه تمام الرعاية وأكرمه[1].

ومع ذلك كانت مقابلة عاصفة على مايروي شبيب باشا، انتهت بتقديم علي بك استقالته بسبب رغبة الوالي، في إبطال قراره بتعيين محمد بيك، وإعادة تامر إلى وظيفته، فجاء من أوغر صدر الوالي موهماً إيّاه أن في نيّته مهاجمته بمن معه من الرجال فاتخذ الإحتياطات الواجبة وأبلغ علي ومحمد بالتوجّه إلى مركز الإيالة في بيروت وسار إلى عكا حيث قابله في الطريق شبيب وإخوته داعين الوالي إلى التوقّف في تبنين حيث أبدى إعجابه بفخامة القصور وجودة الهواء[2].

تبدو رواية شبيب باشا عن واقعة توقيف والده ورفيقه غير مقنعة لأسباب عديدة:

أوّلاً: كان لشبيب من العمر عند حصول التوقيف 12 عاماً، مما يجعله قاصراً عن معرفة بواطن الأمور وحقيقة الأسباب حيث من الطبيعي أن يرى ظواهر الأمور دون خفاياها نظراً لصغر سنّه.

ثانياً: إن تعلّق الراوي بالدولة العثمانية والحرص على عدم ذكر أي إشارة ولو يسيرة تشينها أو تخدش فروض الطاعة التي يراها واجبة نحوها، وتأكيده على التزامه ووالده بالتعلّق الكامل والخضوع المطلق لأوامرها ونواهيها، تجعله يحجم عن ذكر كلّ ما يتعارض مع مسلّماته هذه، ولو كان على معرفة بها واطلاع عليها.

ثالثاً: اكتفى الراوي بذكر ما يحمل الوالي لوالده من حقد وضغينة، تعود لعلاقة سابقة، دون أن يتجاوز ذلك إلى ما كانت تتجه إليه نيّة الولاية في ذلك التاريخ، والسياسة العثمانيّة عموماً نحو سائر المقاطعات اللبنانيّة وإخضاعها للحكم التركي المباشر.

رابعاً: كان علي بيك يشعر أن الأمور لا تسير في صالحه من جانب الدولة منذ مدّة، وقبل هذا اللقاء، فأرسل جانباً من أمواله وتحفه، وحتى رياش قصوره وأودعها في أمانة

(1) العقد المنضد، الأسعد، ص 109.
(2) المرجع السابق، ص 109.

الحاج درويش صاحب (ميفدون)، مما يدلّ على أنه كان يشعر بخطر أو ضرر قد يتعرّض له من السلطة[1].

خامساً: كان بإمكان درويش باشا، أن يطلب تعيين تامر الحسين، بل أن يعيّنه حاكماً عاماً، دون حاجته إلى استدعاء علي بيك ومعه محمد بيك، لو كانت غايته محصورة بهذا الأمر، ولم يكن في نيّته القبض على الزعيمين وعزلهما معاً.

سادساً: لم يعيّن تامر الحسين بعد القبض على قريبيه، مما يؤكّد أن استبدال محمد بتامر لم يكن الهدف الحقيقي من تصرّف الوالي. وقد لاحظ تامر نفسه ذلك فأسقط في يده عند اعتقال الزعيمين[2] وأدرك حقيقة مقاصد رجال الدولة، وعرض على أبناء عمّه مساعدتهم والقيام بثورة ضد السلطة فأبيا ذلك قبل أن يأتي سعد الدين الأمين الصعبي، بأعوانه إلى صيدا بقصد الهجوم على الثكنة العسكريّة وإنقاذ الموقوفين[3].

من الواضح أن سياسة الإدارة العثمانيّة في ذلك الوقت كانت ترمي إلى القضاء على سلطة الحكّام المحلّيين وتنصيب موظفين مكانهم، فبذرت الشقاق بين الزعيمين الوائليين بإصدارها قرارات متناقضة بتعيين أحدهما مكان الآخر لتجزئة قواهما وضربهما ببعضهما البعض مقدّمة للقضاء على الجميع، وإلغاء الحكم الإقطاعي، وهذا ما فعلته بعد توقيف الزعيمين مباشرة وكانا لا يزالان في بيروت، إذ ألغيت ولاية صيدا، وولاية الشام وقامت مكانهما ولاية سوريا، واتخذت دمشق قاعدة لها. وقد اتبعت الأسلوب نفسه في القضاء على الحرافشة في بعلبك، وإلغاء الحكم المحلّي فيها وتعيين قائمقام تركي مكانه في هذا المنصب.

بعد توقيف الزعيمين، نقلا ليلاً إلى سفينة حربية كانت راسية في ميناء صيدا، فنقلتهما إلى بيروت حيث أمضيا أشهراً، لا يسمح لهما بمغادرتها. وقد استكتب الوالي بعض الناس عرائض شكوى عليهما، وبدا أن السلطات تبذل جهداً قوياً للنيل منهما، وقد بقيا في بيروت حتى صدرت التعديلات الإداريّة المرتقبة، وأصبحت المدينة سنجقاً ملحقاً بولاية سوريا المستحدثة. وعيّن شرواني زاده محمد رشدي باشا والياً عليها قبل أن يصل بعد ذلك إلى مرتبة الصدارة العظمى.

(1) الفقيه، ص 318.
(2) المرجع السابق، 321.
(3) المرجع السابق، 321 ـ 322.

«طلب الوالي من علي ومحمد التوجّه إلى الشام للتزوّد بالأوامر قبل رجوعهما إلى ديارهما، فوصلا إلى دمشق حيث قيل إن الهواء الأصفر داهمهما وقضى عليهما. فتوفّي علي في ربيع أول 1282هـ ـ 1865م ولحق به محمد بعد أربعة أيام، وقال آخرون إنهما ماتا مسمومين، كما يؤكد تقرير فرنسي رسمي[1] وانتهت بوفاتهما حياة جبل عامل السياسيّة وزال الحكم الوطني عن البلاد وحكمها الترك حكماً مباشراً حتى الحرب العالمية الأولى[2].

«كانت وفاة الزعيمين العظيمين ضربة أليمة للشيعة، فقدت الطائفة بعدها عزّتها ومنعتها واستقلالها الذاتي الذي تمتعت به زمناً، وكثر بعدها أدعياء الزعامة والرئاسة»[3].

«كان علي بك إذا سار يواكبه خمسماية فارس شاكي السلاح على خيول مطهمة قد تقلّدوا السيوف المحلات أغمادها بالذهب والفضة، والقرابينات الضخمة الواسعة الفم وبأيديهم الرماح»[4].

«سنة 1282هـ 1865م انتهت حياة علي بك ومحمد، في دمشق وبوفاتهما انتهت حياة جبل عامل المعنويّة والعسكريّة والأدبيّة، لأنها فقدت استقلالها الذي يشبه الاستقلال المركزي. وحكمها العثمانيون حكماً بائساً، أقفلت المدارس وتعطّلت نوادي الآداب وأشتغل العلماء وطلاّب العِلم بطلب معاشهم وقسّمت البلاد إلى ثلاثة أقضية صور وصيدا ومرجعيون وخضعت البلاد لنظام الجنديّة ولتأدية الضرائب كما تفرضها الدولة في سائر مقاطعاتها».

«أجزل علي بك العطايا للقريب والبعيد، والصغير والكبير، والحاضر والبادي،

---

(1) D.D.C. T14 p225

(2) يقول صاحب أعيان الشيعة دفن علي بيك في المشهد المنسوب إلى السيّدة زينب الصغرى المكناة بأم كلثوم غربي المسجد وعلى قبره لوح فيه تاريخ من نظم الشيخ عبدالله البلاغي ودفن محمد بيك بمقبرة باب الصغير قرب القبور المنسوبة لآل البيت وكان على قبره رخام وتاريخ أتلفه بعض الناس، أعيان الشيعة الجزء 12 ص 200.

كنت أزور قبريهما في طفولتي برفقة جدّتي سلطانة والدتها سعدى ابنة علي بك وكانت على قناعة راسخة كجميع أفراد عائلتها أنهما ماتا مسمومين. ثم طمست التبدّلات التي حصلت في مقام السيّدة زينب معالم القبرين. وكانا متجاورين إلى الناحية الشرقية داخل المقام وعليهما شاهدان لهما إسم وشعر وتاريخ.

(3) تاريخ جبل عامل، صفا، ص 162.

(4) تاريخ تبنين، حسن صالح، ص 389.

فبالغ الشعراء ممن عاصره وتخلّف عنه في تعداد مآثره ومكارمه ومفاخره، وكان العلماء والأدباء يعيشون بغَيْضِ مداه فكان يقطعهم الإقطاعات ويمدّهم بالمرتبات وينقذهم من النكبات»[1].

«ألغت الفرمانات العثمانية حكم بني وائل في جبل عامل ولكن وجودهم الفاعل استمرّ دون أن ينقص من زعامتهم شيئاً، واستمرّ نفوذهم وانقياد العامليين إلى رئاستهم كما كانوا طيلة القرون السالفة.

يقول القنصل الفرنسي في أحد تقاريره إلى حكومته حول هذه الفترة:

ربما كانت معاملة الأتراك لمتاولة جبل عامل أشد قسوة مما تعرضت له أية جماعة أخرى في سوريا. لذلك كان المتاولة مستعدين لالقاء أنفسهم بين ذراعي أية قوة أجنبية تريد حمايتهم. حاولت حكومة مدحت[2] التدخل لصالحهم بدون فائدة. سأحاول عندما تسنح الفرصة أن أثير انتباه حمدي باشا[3] حول مصيرهم ولكني أشك أن تتجرأ هذه الحكومةُ على التدخل لصالحهم[4].



اتحاد الأسر الثلاث

لم تترك الأسرتان اللتان برزتا في القرن السابع عشر في تاريخ جبل عامل إلى جانب الوائليين وهما آل سودون وآل شكر من آثارهما سوى العين المعروفة (بعين بوسودون) بالقرب من نبع الحجير[5] وبقايا أبنية قديمة خربة في عيناتا، لا يزال الأهالي يطلقون عليها حتى اليوم اسم بني شكر[6]. وبضعة إشارات متفرّقة في كتب التاريخ، كانت آخرها معركة جرت في عيناتا سنة 1059هـ 1640م. ولكن أسرتين

(1) الفقيه، م. م.، 327.
(2) مدحت باشا (1822 - 1884م) من أعظم رجالات الإدارة العثمانيين صدر أعظم (1872 - 1877) ووالي سورية 1878م.
(3) أحمد حمدي باشا والي سوريا (1878 - 1883م).
(4) من تقرير القنصل العام الفرنسي إلى الخارجية في 15 أيلول 1880م.
D.D.C. T14 p.214
(5) كان إسم سودون كثير الشيوع في القرن الخامس عشر وبينهم عدد من حكام المماليك كسودون المحمدي نائب صفد سنة 1409م (جبل عامل، رامز رزق، ص 196). ولا يذكر التاريخ علاقة لأحدهم بهذه الأسرة ولا يخرج كلّ من ذكر مثل ذلك عن دائرة الافتراض والتخمين.
(6) تعرف اليوم بأقبية بني شكر.

غيرهما برزتا بعد ذلك إلى جانب الوائليين على مسرح الأحداث وهما بنو منكر وبنو أبي صعب فتشكّل من الأسر الثلاث ما يعرف «بحكومة الاتحاد العاملي الثلاث»[1].

إن تاريخ هذه الأسر الثلاث هو في الواقع تاريخ واحد، لا سيما في محطاته المفصليّة والرئيسيّة، فإن التحالف بينها يكاد يكون مستمرّاً دائماً، رغم بعض التمايز الذي ظهر أحياناً وهو ما يحصل عادة ضمن الأسرة الواحدة دون أن يقضي على اللحمة التي تبرز الحاجة إليها عند مواجهة عدوّ مشترك، أو خطر محدق. كانت الرئاسة العامة لشيخ المشايخ من آل علي الصغير وكلّ شيخ يباشر الحكم في مقاطعته مع التقيّد بتوجيهات الرئيس العامّة ولا سيما في الأزمات والحروب، وقد تطوّرت العلاقة بينهم ولا سيما بعد نكبة الجزّار إلى نوع من الإتحاد الوثيق، بعد أن قاتلوا معاً وتمرّدوا معاً وثاروا معاً. حتى أصبحوا وكأنهم أسرة واحدة تحت أمرة شيخ واحد يفاوض عن الجميع في حالتي الحرب والسلم، ويتولّى التوقيع أمام المراجع الحكوميّة. وهذا ما فعله فارس الناصيف عند عقد الصلح مع سليمان باشا. فكان ممثّلاً لجميع العشائر الثلاثة، ومسؤولاً عن كامل تصرّفاتهم العامّة وهو الذي يتولّى توزيع التعويضات والبدلات والأملاك التي عهدت بها الدولة العثمانيّة إليه كبدل عن أملاكهم المصادرة فكان أميناً على صالح كلّ أسرة منهم وحريصاً على وحدة الجميع[2].

لم يقتصر اتحاد الأسر الثلاث على المواقف السياسيّة والعامة، بل تعدّى ذلك إلى نوع من المشاركة في شيوع الأرزاق والممتلكات الخاصّة بعد أن تولّى رئيس العشيرة فارس الناصيف إبرام اتفاقه الشهير مع عبدالله باشا بالنيابة عن الجميع، وإدارة شؤونهم باعتبارهم وحدة متكاملة تنطبق عليهم المبادئ والأعراف نفسها ويتشاركون في نفس الأملاك والمرافق. ولم يمضِ وقت طويل على ذلك حتى اتفقت الأسر الثلاث بمبادرة من علي بيك الأسعد على إيجاد رابطة نسب بينها وصار أحدهم يكتب للآخر بإبن العم وصارت هذه سنة وقاعدة تزيد اللحمة بينهم وتستتبع قواعد متشابكة في التعامل والأعراف والمطالبة بالثأر ودفع الديّات وسائر العلاقات الإجتماعيّة، فيما بينهم ومع الآخرين رغم بقاء القاعدة القديمة في الزواج والتي تقضي أن العشيرة الأولى تتزوّج من الثالثة ولكنها لا تزوّجها أي تأخذ ولا تعطي[3].

(1) آل صفا، ص 98.
(2) راجع الوثيقة المتعلّقة بأملاك الأسر الثلاث.
(3) العقد المنضد الأسعد، ص93.

تميزت العلاقات بين الأسر الثلاث بالتناصر والتحالف والود وقلما حصل تباعد أو خلاف تطور إلى صدام وكانت النزاعات بين أبناء الأسرة الواحدة هي أكثر شيوعاً كما حصل بين قبلان الحسن وعباس المحمد على حكم صور أو بين علي بيك وتامر الحسين على الرئاسة العامة، فكانت كلّ أسرة تحترم أملاك الأخرى وقلاعها ومقاطعاتها، وقد وصل التقيّد بالأعراف والأصول بين أفراد العشائر إلى حدّ أن يرفض أحدهما الحلول في منصب الآخر أنفة وكرامة كما حصل عندما صدر أمر الوالي بعزل حمد بيك من المديريّة وعرضتها الحكومة على سائر العشائر من الصعبية والمناكرة فما قبلها أحد احتراماً له. فلم تجد غير رجل واحد قبلها تزيّ بزيّ أهل العِلم وأظهر من الظلم والمثالب ما جعل حمد يعود إلى منصبه بعد ستة أشهر ويُستقبل في صيدا استقبالاً حافلاً من العشائر والوجوه[1].

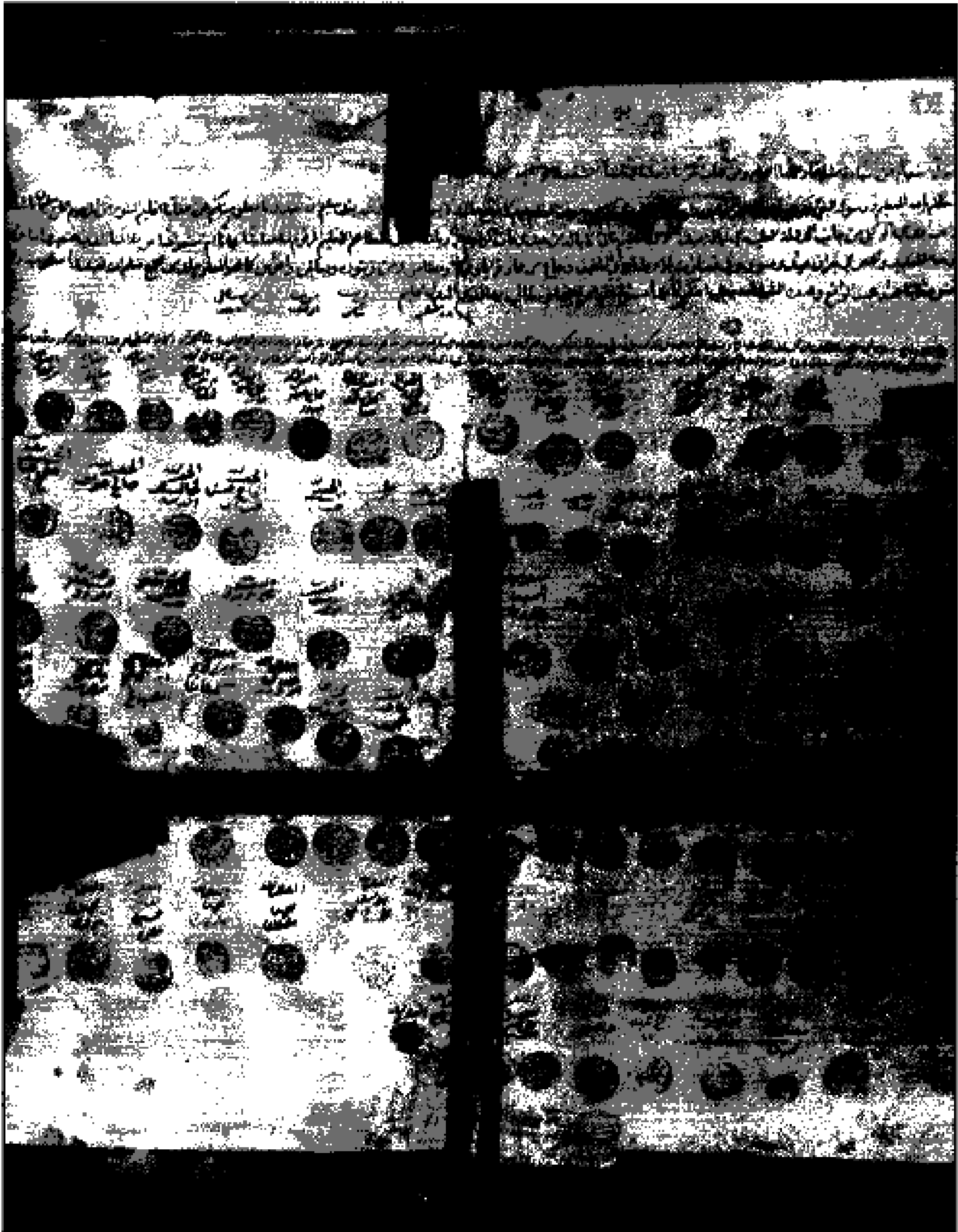
إذا كان تاريخ بني وائل هو نفسه تاريخ جبل عامل فقد شارك المناكرة وبعدهم آل أبي صعب في أكثر منعطفاته الهامّة وأزماته المصيريّة التي وقفت فيها هذه الأسر غالباً في جهة واحدة ولم تذكر المصادر أن إحداها قاتلت الباقيتين تحت قيادة غريبة ففي مواجهة فخر الدين كان الصغيريون والمناكرة معاً في المقاومة والابعاد، وكان الصعبيون إلى جانبهما في مقاومة الجزّار فكانت قلعة الشقيف آخر القلاع العامليّة التي سقطت بيده بعد معركة يارون بعد أن صمد الشيخ حيدر الفارس الصعبي مع عدّة مئات من رجاله أشهراً أمام الحصار، وقد مات الشيخ أحمد الفارس الصعبي صاحب قلعة الشقيف والمواقف المشهودة في معارك الدولاب وكفرمان وصيدا في قلعة تبنين وهو عائد من صفد بعد أن خاض معركته الاخيرة مع والي الشام وصيدا، محمد باشا العظم إلى جانب الصغيريين كباقي معاركه. سنة 1775م [2].

شردت الأسر الثلاث بعد نكبة الجزّار وقاتلت متّحدة في حرب العصابات حتى عاد الجميع معاً تحت الشروط نفسها.

طالما تردّد في التاريخ اللبناني والتقارير الدبلوماسيّة الغربيّة تعبير يختصّ بجبل عامل وهو «مشايخ المتاولة» دون ذكر العائلة أو العشيرة أو المنطقة والمقاطعة لأن المشايخ العامليين حافظوا غالب الأحيان على موقف موحّد جعل المتعامل معهم والمراقب لسلوكهم السياسي يعتبرهم جهة واحدة وجبهة واحدة لا موجب للدلالة على بعضها

(1) أعيان الشيعة، محسن الأمين، ج 509 ج 92.

(2) تاريخ تبنين صالح ص105 وحصن الشقيف عباس وهبي ص95.



وثيقة مهمورة بتواقيع واختام نحو 200 عالم من جبل عامل حول سبب استحقاق العشائر آل علي الصغير وآل صعب وآل منكر أملاكهم في اقليم الشومر. وانها ليست معاشاً مجاناً بل هي بدل املاكهم التي اغتصبها الجزار بوجه الغدر والجبر.

باسم الأسرة أو الشخص أو أي علم آخر. حتى أن أرزاقهم التي عوضت الدولة بها عن كل ما صادرته من أملاكهم، كانت مشتركة دون تحديد وتعيين فتولى فارس النصار توزيعها فيما بينهم كما يتأكد من الوثيقة الآتية.

لأسباب غير معروفة تماماً، تقدّم أحد شيوخ العشائر الحكّام سنة 1858م بسؤال شرعي موقّع من الأسر الثلاث بيت منكر وبيت أبو صعب وبيت علي الصغير، يطلب شهادة علماء جبل عامل ومشايخه ورجال الدين فيه عن حقيقة الظروف التاريخية حول تملّكهم لإقليم الشومر. وقد أجاب على سؤاله نحو مئتي عالم وقّعوا الإجابة عليه وهذا نصّها:

سبب تحريره

هو أنه لما كان واجب على كلّ عاقل طلب الراحة الأبدية؛

سؤال استفهام من سيادة مشايخنا وعلمائنا الفخام ومن جناب إخواتنا وأحبابنا في قضاء الشقيف الأجلاّء المحترمين بوجه العموم.

نسألكم بالله العظيم ورسوله النبي الكريم وأصحابه الغر الميامين شهادة نطلبها منكم يوم موقف عظيم يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاّ من أتى ربّه بقلب سليم أن تفيدونا معلوميتكم عن إعطائنا اقليم الشومر من المرحوم الحاج سليمان باشا ومن المرحوم راغب أفندي الوكيل من جانب الدولة العلية في ايالة صيدا من أجل تنظيم مال الايالة بعد وفاة المرحوم جزار باشا(...) أعطانا الاقليم المرقوم لنا معاشاً مجاناً أم استعواضاً عن أملاكنا التي اغتصبها منا جزار باشا بوجه الغدر والجبر في صيدا وصور وفي قضاوات بلاد بشارة والشقيف وجباع من عمار قرايا ومحلات ومطاحن ومن زيتون وبساتين وأغراس كما هو معلوم لدى الجميع منكم أن تفيدونا معلومية ذلك على نفس خطابنا هذا بحسب الواقع. وهذه الشهادة نطلبها منكم فإنها مسؤولية من يعلمها ومطالب بها لدى العدل الحكيم.

بيت منكر بيت أبو صعب بيت علي الصغير.

الجواب:

شاع وذاع وملأ الاسماع ونقله الخلف عن السلف نقلاً متواتراً ومتضافراً ان المعاش المذكور قد أعطي للعشائر المذكورين وهم آل علي الصغير وآل صعب وآل منكر عوضاً عن أملاكهم وعقارهم التي انتزعها من أيديهم المرحوم الحاج أحمد باشا الجزار وكان المعطي لهم بدلاً عن أملاكهم المذكورة المرحوم الحاج سليمان باشا.

هذا هو المحقق عندنا والذي نشهد بين يدي الخالق عز وجل.

ولأجل البيان بحسب طالب الشهادة حرّرنا جوابنا هذا في السؤال المحرّر في صدر القرار والله أعلم بحقائق الأمور.

ويلي ذلك توقيع نحو مئتي عالم من أعلام جبل عامل[1] .

24 شعبان 1275هـ (1858م).



(1) الوثيقة .D.2.C

الفهـرس

الباب الأول

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی